مكتبة

إليزابيث غاسكل

الشمال والجنوب

ترجمة: عدي جوني

رواية

فواصل

الشمال والجنوب

الشمال والجنوب

تأليف: إليزابيث غاسكِل

ترجمة: عدي جوني

الطبعة الأولى: 2022

ISBN: 978-9933-634-35-3

جميع الحقوق محفوظة ©Copyright

تصميم الغلاف: قهوة غرافيكس

العنوان الأصلي للكتاب:

North and South

by: Elizabeth Gaskell

فواصل للنشر والتوزيع

اللاذقية، سوريا، هاتف: 2400126/7 (41)963+

البريد الالكتروني: info@darfawasel.com

يمكنكم زيارتنا عبر موقعنا الالكتروني

www.darfawasel.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

28 4 2023

إليزابيث غاسكِل

الشمال والجنوب

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة: عدي جوني

فواصل
للنشر و التوزيع

حفل الزفاف

مكتبة
t.me/soramnqraa

"إيديث!" نادت مارغريت بصوت هادئ، "إيديث!" يساورها شكٌ بأن ابنة خالتها غرقت في النوم. استلقت على الكنبة في غرفة الضيوف الخلفية في شارع هارلي، وهي تبدو في غاية الجمال بفستان الموسلين الأبيض والشرائط الزرقاء. ما كان لأحد أن يميزها عن تايتانيا[1]، لو أن هذه الأخيرة غفت بفستان الموسلين الأبيض والشرائط الزرقاء على كنبة يغطيها قماش البروكار القرمزي في غرفة الضيوف الخلفية. عاودت مارغريت الدهشة من جمال ابنة خالتها، على الرغم من أنهما ترعرعتا معاً منذ الطفولة حيث كانت إيديث محط أنظار الجميع بجمالها، باستثناء مارغريت التي لم تلتفت إليه إلا في الأيام القليلة الماضية مع اقتراب موعد افتراقها عن رفيقتها وهو ما أعطى، على ما يبدو، هذا الزخم لكل ما تتمتع به إيديث من سحر وجمال. كانتا تتحدثان عن فساتين العرس، وحفلات الزفاف، والنقيب لينوكس، وأين تنتشر كتيبته في الوقت الحاضر، وعما قاله لإيديث عن حياتها المستقبلية في كورفو، وعن صعوبة الحفاظ على البيانو بحالة جيدة (الأمر الذي بدا بالنسبة إلى إيديث واحدة من أكبر المنغصات التي قد تعكر حياتها الزوجية). كذلك تطرق الحديث إلى الملابس التي يجب على إيديث ارتداؤها عند زيارتها لاسكوتلندا، وهي المحطة التالية بعد زواجها مباشرة، لكن إيقاع الحديث المهموس سرعان ما تثاقل لتجد مارغريت أن إيديث، على الرغم من الضجيج في الغرفة الأخرى، كورت نفسها على شكل

(1) تايتانيا ملكة الحوريات في مسرحية شكسبير "حلم ليلة صيف". (م)

كـرة ناعمـة مـن الموسـلين والشرائـط والضفائـر الحريريـة وغرقـت في قيلولـة هانئـة بعـد العشـاء.

كانـت مارغريـت عـلى وشـك أن تخـبر ابنـة خالتهـا عـن خططهـا وتطلعاتهـا بشـأن حياتهـا المسـتقبلية في بيـت الأبرشـية الريفـي الـذي يعيـش فيـه والداهـا، والـذي كانـت تمـضي فيـه عطلاتهـا الجميلـة، عـلى الرغـم مـن أن منـزل الخالـة شـو كان بمثابـة منزلهـا في السـنوات العـشر الأخـيرة. لكـن عجـز رفيقتهـا عـن الاسـتماع إليهـا دفعهـا للتفكـير بهـذا التغيـير الطـارئ في حياتهـا. كان تفكـيراً لا يخلـو مـن الفـرح وإن شـابته مسـحة مـن الأسى لفـراق خالتهـا اللطيفـة وابنـة خالتهـا العزيـزة لفـترة مـن الزمـن. ومـع شـعورها بالسـعادة بأنهـا سـتملأ موقـع الابنـة الوحيـدة في هِلْسـتِن[2]، تناهـت إليهـا أصـوات الحديـث في الغرفـة المجـاورة. كانـت الخالـة شـو تتحـدث مـع خمـسٍ مـن السـيدات السـت اللـواتي كـن يتناولـن طعـام العشـاء بصحبـة أزواجهـن. كانـوا مـن المعـارف المعتاديـن الذيـن يـترددون عـلى المنـزل، أو بالأحـرى جـيرانَ كانـت السـيدة شـو تدعوهـم أصدقـاء لأنهـا اعتـادت عـلى تنـاول العشـاء معهـن أكـثر مـن أشـخاصٍ آخريـن، فضـلا عـن أنهـن لـن يـترددن بزيـارة بعضهـن بعضـاً قبـل الغـداء، إن أرادت الخالـة شـو أو إيديـث أي شيء منهـن، أو إن أردن أي شيء منهـما. وكانـت الخالـة شـو قـد دعـت السـيدات وأزواجهـن، بصفتهـم أصدقـاء، لتنـاول عشـاءٍ وداعي عـلى شرف اقـتراب موعـد زفـاف إيديـث.

لم تكـن إيديـث راضيـة تمامـاً عـلى هـذه الدعـوة لأنهـا كانـت تنتظـر وصـول خطيبهـا النقيـب لينوكـس في آخـر رحلـة للقطـار هـذا المسـاء. وعـلى الرغـم مـن أنهـا ابنـة مدللـة، لم تكـترث إيديـث للأمـر، ولم تكـن لديهـا الإرادة القويـة للتعبـير عـن موقفهـا، فاستسـلمت بعـد أن وجـدت أن والدتهـا طلبـت أطايـب الطعـام التـي يفـترض أن تكـون مناسـبة للتخفيـف مـن آثـار الحـزن الـذي عـادة مـا يهيمـن عـلى حفـلات الـوداع. اكتفـت إيديـث بالاسـتلقاء في كرسـيها وهـي تلعـب بالطعـام المسـكوب في صحنهـا شـاردة الذهـن عابسـة الوجـه، بينـما كان كل مـن حولهـا يسـتمتع بنـكات

(2) قرية صغيرة في أقصى الجنوب الغربي البريطاني. (م)

السيد غراي الذي عادة ما كان يجلس في الطرف الأخير من المائدة في حفلات عشاء السيدة شو، ويطلب من إيديث أن تعزف على البيانو في غرفة الضيوف. كان السيد غراي، على وجه التحديد، شخصاً محبباً في هذه الحفلة، وفي الواقع أطال السادة مكوثهم أكثر من المعتاد. وحسناً فعلوا، حسبما بدا من شذرات الحديث التي وصلت إلى مسامع مارغريت.

"عانيت كثيراً، ولا أعني بكلامي أني لم أكن سعيدة في حياتي مع المرحوم الجنرال، لكن فارق السن يبقى عقبة كبيرة. لهذا السبب، كنت مصرة على ألا تواجه إيديث المشكلة نفسها. بالطبع، ومن دون تحيز مني بصفتي والدتها، كنت أتوقع أن تتزوج طفلتي العزيزة في سن مبكرة، بل حتى كنت أقول لنفسي أنها ستتزوج قبل أن تبلغ سن التاسعة عشرة.راودني هذا الشعور الداخلي عندما جاء النقيب لينوكس"، وهنا تحول الحديث إلى همس، لكن مارغريت استطاعت أن تملأ الفراغات بطريقتها. انتهت مسيرة الحب الحقيقي، في حالة إيديث، على خير ما يرام.

فسحت السيدة شو المجال لهذا الحدس الداخلي، كما عبرت عنه، وشجّعت هذا الزواج وإن كان أقل ممّا توقعه العديد من معارف إيديث الوريثة الشابة الجميلة. لكن السيدة شو، كما قالت، كانت مصرة على أن تتزوج ابنتها بدافع الحب، وأطلقت تنهيدة تؤكد كلامها، وكأنها لم تتزوّج الجنرال بدافع الحب. بدت السيدة شو وكأنها هي من كانت تستمتع برومانسية الخطوبة أكثر من ابنتها. لاشك أن إيديث كانت سعيدة بهذا الحب، لكنها كانت بالتأكيد تفضل منزلاً جميلاً في بيلغرافيا[3] على الرغم من روعة الحياة وجمالها في كورفو[4] كما أخبرها النقيب لينوكس. وبينما كان وجه مارغريت يشرق متوهجاً لدى سماعها هذه المقاطع تحديداً من الحديث، تظاهرت إيديث بالارتجاف والارتباك، إما سروراً لأن حبيبها المولع حاول إقناعها بقبول ما تكره، أو لأن شيئاً يحاكي حياة الغجر والترحال كان في الواقع أمراً مكروهاً لديها. لكن طالما أنها ستحظى بمنزل

(3) إحدى ضواحي مدينة لندن. (م)

(4) جزيرة في اليونان. (م)

جميل، وإقطاعية فخمة بالإضافة إلى لقب مميز، بقيت إيديث متعلقة بالنقيب لينوكس رغم وجود المغريات الأخرى، لكن مع انتهاء كل شيء، من المحتمل أن تكون إيديث قد شعرت بقدرٍ ضئيل من الندم الدفين لأن النقيب لينوكس لم يجمع في شخصه كل ما كانت تتمناه. وفي هذه النقطة تحديداً، كانت إيديث مثل أمها تماماً التي أصرّت على الزواج من الجنرال شو رغم أنه لم يكن لديها أيُّ مشاعر تجاهه سوى الاحترام لشخصه وموقعه، من دون أن يعفيها هذا الشعور من الحسرة على ارتباطها برجل لم تكن تحبه.

"لم أبخل على إعداد جهاز العروس"، كانت الكلمات التي سمعتها مارغريت.

"أعطيتها كل الشالات والأوشحة الهندية الجميلة التي قدمها لي الجنرال، والتي لا يمكنني ارتداءها مرة أخرى".

"يا لها من فتاة محظوظة"، أجابت إحدى السيدات، وأدركت مارغريت أن المتحدّثة كانت السيدة غيبسِن التي كانت مهتمة بالحديث لأن واحدة من بناتها تزوجت قبل أسابيع قليلة.

"انفطر قلب هيلين على شالٍ هندي، لكنني كنت مضطرة على مخالفتها عندما اكتشفت ثمنه الباهظ. ستشعر بالحسد والغيرة عندما تسمع أن إيديث حصلت على شالاتٍ هندية. ما نوعها؟ دلهي؟ مع تلك الأطراف الجميلة؟؟"

سمعت مارغريت صوت خالتها مجدداً، لكن هذه المرة وكأنها نهضت من جلستها نصف المسترخية لتنظر إلى داخل غرفة الضيوف الخلفية المعتمة قليلاً. "إيديث، إيديث" صاحت الخالة شو، قبل أن تعود إلى جلستها وكأن هذه الحركة أتعبتها. نهضت مارغريت.

"إيديث نائمة يا خالة شو، هل هناك أي شيء يمكنني القيام به؟"

"يا للطفلة المسكينة" صاحت السيدات عندما تلقين هذا الخبر عن إيديث، وبدأ الكلب الصغير الراقد في حضن الخالة شو بالنباح متأثراً بهذا الشعور المتدفق من الشفقة.

"هـس! اصمتـي أيتهـا البنـت الصغـيرة المشـاغبة، سـتوقظين سـيدتك. كنـت فقـط أريـد أن أطلـب مـن إيديـث أن تبلـغ نيوتـن بإحضـار شـالاتها. ربمـا يمكنـك الذهـاب بنفسـك، عزيـزتي مارغريـت؟"

صعـدت مارغريـت إلى غرفـة الأطفـال القديمـة في أعـلى المنـزل حيـث كان نيوتـن منهمـكاً بإصـلاح سـتائر الدانتيـل تحضـيراً لحفـل الزفـاف. وبينـما راح نيوتـن (وهـو يهمهـم بامتعاضـه مـن الطلـب) لإحضـار الشـالات التـي عُرضـت عـلى عـدة ضيـوف للمـرة الرابعـة أو الخامسـة في ذلـك اليـوم، نظـرت مارغريـت حولهـا إلى غرفـة الأطفـال القديمـة التـي اعتـادت عليهـا قبـل تسـع سـنوات عندمـا أحضروهـا مـن الريـف والغابـة لتشـارك إيديـث المنـزل، والألعـاب، والـدروس. تذكـرت غرفـة الأطفـال اللندنيـة القاتمـة التـي كانـت تتسـيدها مربيـة صارمـة تتقيـد بالرسـميات، وكانـت شـخصاً مرعبـاً عندمـا يتعلـق الأمـر بالأيـدي النظيفـة، والفسـاتين الممزقـة. تذكـرت أول كـوب شـاي ارتشـفته هنـاك، بعيـداً عـن والدهـا وخالتهـا اللذيـن كانـا يتنـاولان طعـام العشـاء في غرفـة مـا تحـت متاهـة لا تنتهـي مـن السـلالم لأنهـا كانـت تتخيـل نفسـها حينـذاك في السـماء، في حـين كان والدهـا وخالتهـا في أحشـاء الأرض. أمـا في منزلهـا، قبـل أن تـأتي للعيـش في شـارع هـارلي، كانـت غرفـة ملابـس والدتهـا هـي الغرفـة المعـدة للأطفـال. وبمـا أنـه كان أمـراً طبيعيـاً أن تصحـو وتخلـد إلى النـوم مبكـراً في المنـزل الريفـي المخصـص للقـس، دأبـت مارغريـت عـلى تنـاول وجبـات طعامهـا مـع والديهـا. لم تنـس هـذه الفتـاة الجليلـة فارعـة الطـول، ابنـة الثمانيـة عـشر عامـاً، الدمـوع التـي سـكبتها بسـخاء تلـك الطفلـة، ابنـة الأعـوام التسـعة، وهـي تخفـي وجههـا تحـت أغطيـة الفـراش في أول ليلـة لهـا في منـزل خالتهـا. كـما أنهـا لم تنـس كيـف منعتهـا المربيـة مـن البـكاء كيـلا تزعـج الآنسـة إيديـث، وكيـف بكـت بمـرارة ولكـن بهـدوء إلى أن صعـدت خالتهـا الجميلـة التـي لم يسـبق لهـا أن رأتهـا، برفقـة والدهـا عـلى السـلالم بخطـى خافتـة لتريـه ابنتـه نائمـة في فراشـها. عندهـا حبسـت مارغريـت صوتهـا، وحاولـت أن تسـتلقي بـكل ارتيـاح، وكأنهـا كانـت تغـط في نـوم عميـق خشـية أن تعكـر صفـو والدهـا بسـبب حزنهـا الـذي لم تكـن مارغريـت تجـرؤ عـلى التعبـير عنـه أمـام خالتهـا التـي رأت فيـه تصرفـاً خاطئـاً بعـد كل هـذا

التخطيـط والانتظـار والجهـد الـذي بذلـوه في المنـزل لاسـتقبالها، وتجهيـز خزانـة ملابسـها لتناسـب حياتهـا القادمـة، واضطـرار والدهـا إلى مغـادرة الأبرشـية للمجـيء إلى لنـدن ولـو لأيـام معـدودة.

أمـا الآن، فلـم يكـن في وسـعها إلا أن تحـب هـذه الغرفـة رغـم أنهـا تحولـت إلى مـكان مهمـل. جالـت مارغريـت بعينيهـا في أرجـاء الغرفـة يخالجهـا شـعور بالحسـرة والنـدم عـلى فراقهـا للأبـد في غضـون ثلاثـة أيـام.

"آه، يـا نيوتـن، أظـن أننـا سنشـعر بـالأسى عـلى فـراق هـذه الغرفـة العزيـزة القديمـة" قالــت مارغريت.

"بالفعـل يـا آنسـة، لم تعـد عينـاي كـما كانتـا مـن قبـل، والإضـاءة هنـا في غايـة السـوء، ولا يمكنني رتـق سـتائر الدانتيـل، مـا عـدا تلـك عنـد النافـذة التـي عـادة مـا يهـب منهـا هـواء قـارس بمـا فيـه الكفايـة ليمـوت أحدهـم مـن الـبرد".

"أنـا عـلى يقـين بأنـك سـتحظى بالضـوء والـدفء في نابـولي، فعليـك أن توفـر قـدر مـا تسـتطيع مـن نشـاطك إلى ذلـك الحـين، شـكراً لـك يـا نيوتـن، سـآخذ الشـالات إلى الأسـفل، أنـت مشـغول".

نزلــت مارغريــت بالشــالات الهنديــة التــي كانــت تفــوح منهــا رائحــة البهــارات الشرقيـة. طلبـت منهـا خالتهـا أن تقـف كعارضـة للشـالات بمـا أن إيديـث كانـت لا تـزال نائمـة. لم يفطـن أحـد مـن الضيـوف إلى غيـاب إيديـث، في حـين كانـت مارغريت بقامتهـا الفارعـة الميسـاء، وفسـتانها الحريـري الأسـود الـذي ارتدتـه حِـداداً عـلى وفـاة قريـب بعيـد لوالدهـا، تُظهـر جـمال الشـالات بطياتهـا الطويلـة التـي كانـت سـتحجب نصـف قامـة إيديـث. وقفـت مارغريـت سـاكنةً مشـدودة القـوام تحـت ضـوء الثُريـا، بينـما راحـت خالتهـا تعـدل وضـع الشـالات عـلى كتفيهـا.

وبينـما راحـت تـدور حـول نفسـها، كانـت مارغريـت تختلـس النظـر مـن حـين لآخـر إلى المـرآة الموضوعـة عـلى رف الموقـد، وتبتسـم لانعـكاس صورتهـا فيهـا بملامـح عـادة مـا تتميـز بهـا الأمـيرات. تحسسـت بنعومـة الشـالات التـي أحاطـت بجسـدها، واسـتطابت ملمسـها الطـري وألوانهـا البراقـة، وهـي ترغـب في قـرارة نفسـها أن يكـون

لديها مثل هذه الملابس الرائعة، وتستمتع بها كما الأطفال، وشفتاها تنفرجان عن ابتسامة رضا. في هذه اللحظة، فُتح الباب فجأة لإبلاغ الحاضرين بوصول السيد هنري لينوكس. عادت بعض السيدات إلى أماكنهن يشعرن بالخجل من اهتمامهن الأنثوي بالثياب. مدت السيدة شو يدها لمصافحة الضيف القادم، فيما بقيت مارغريت في مكانها من دون حراك ظناً منها بأنه لا يزال مطلوباً منها أن تكون ما يشبه المشجب للشالات الهندية، وراحت تنظر إلى السيد لينوكس بوجه مشرق مبتهج، وكأنها كانت واثقة من تعاطفه معها في هذا الموقف المحرج.

انشغلت خالتها بسؤال السيد هنري لينوكس الذي لم يتمكن من حضور العشاء عن أخيه العريس، وأخته إشبينة العروس (اللذين سيأتيان مع النقيب من اسكوتلندا من أجل الزفاف)، وعن أفرادٍ آخرين من عائلة لينوكس، وعندها أدركت مارغريت أنها لم تعد مُطالبة بالوقوف في مكانها كمشجب للشالات، راحت تتبادل أطراف الحديث مع الضيوف الآخرين الذين نسيت خالتها وجودهم لفترة من الزمن. وفي الحال جاءت إيديث من غرفة الضيوف الخلفية وهي ترفُّ بعينيها اتقاءً للضوء المبهر، وترد خصلات شعرها المنفوش إلى الوراء وكأنها الجمال النائم الذي استفاق فَزِعاً لتوه من غمرة أحلامه. حتى في نومها كان لديها شعور داخلي بأن أي شخص من آل لينوكس يستحق أن تنهض لأجله، وتبادره بأسئلة كثيرة عن العزيزة جانيت، شقيقة من سيكون زوجها والتي لم ترها من قبل، وأعربت عن محبتها لها على نحو ربما كان سيثير غيرة مارغريت، لو لم تكن معتزة بنفسها، من منافستها الجديدة. وفي ظل انزوائها إلى خلفية المشهد مع عودة خالتها للتحدّث مع الضيوف، لمحت مارغريت السيد هنري لينوكس يوجه ناظريه إلى كرسي فارغ بجانبها، وأدركت يقيناً أنه ينوي احتلال هذا الكرسي حالما ينتهي من الرد على أسئلة إيديث. لم تكن مارغريت متأكدّة تماماً من حضوره نظراً إلى ما ذكرته خالتها عن مشاغله، لذلك كان مفاجئاً بالنسبة إليها أن تراه، لكنها أدركت بأنها ستكون أمسية جميلة. كانا يتشاركان

كـره وحـب الأشـياء ذاتهـا تقريبـاً. توهـج وجـه مارغريـت بإشراقـة صادقـة صريحـة، فيـما تقـدم هـنري نحوهـا، فاسـتقبلته بابتسـامة تخلـو مـن الخجـل أو التكلّـف.

"أظـن بأنـك كنـت مشـغولة بأمـر مـا، نسـائي. مختلـف جـداً عـن مشـاغل مهنـة المحامـاة. فاللعـب بالشـالات وعرضهـا يختلـف كثيراً عـن التوصـل لتسـوياتٍ قانونية".

"كنـت واثقـة أنـك سـترى الأمـر مسـلياً أن تجدنـا مشـغولاتٍ بالإعجـاب بالأشـياء الجميلـة، لكـن الشـالات الهنديـة بالفعـل لا مثيـل لهـا".

"لا أشـك في ذلـك، كـما هـو ثمنهـا أيضـاً، لكـن السـيدات يرغـبن بالحصـول عليهـا".

دخـل الرجـال الواحـد تلـو الآخـر فعَـلا صـوت الضجيـج في الغرفـة.

"هـذه هـي آخـر حفلـة عشـاء لـك هنـا، أليـس كذلـك؟ فلـن يكـون هنـاك أي حفلـة أخـرى قبـل يـوم الخميـس؟"

"لا. بعـد هـذه الأمسـية، أظـن بأننـا سنشـعر بالراحـة التـي لم أنـل قسـطاً منهـا منـذ عـدة أسـابيع، أو عـلى الأقـل ذلـك النـوع مـن الراحـة الـذي لا يكـون فيـه للأيـدي أي عمـل تقـوم بـه، بعـد اسـتكمال الاسـتعدادات لمناسـبةٍ لا بـد لهـا أن تشـغل العقـل والقلـب. سـأكون سـعيدة بـأن يكـون لـدي وقـت للتفكـير، وكذلـك إيديـث".

"لسـت متأكـداً مـن أنهـا سـتفعل، لكـن يمكـن لي أن أتخيلـك تقومـين بذلـك. فكلـما سـنحت لي الفرصـة كي أراك في الآونـة الأخـيرة، كنـت أجـدك مشـغولة بدوامـة مـن القضايـا مـن صنـع الآخريـن".

"أجـل"، قالـت مارغريـت بـأسى وهـي تسـتذكر تلـك الهمروجـة التـي لا تنتهـي بشـأن قضايـا عاديـة عـلى مـدار الشـهر المـاضي: "أتعجـب مـن ضرورة أن يكـون الـزواج عـلى الـدوام مسـبوقاً بمـا تسـميه أنـت دوامـة، ولِـمَ لا يكـون، في بعـض الحـالات، فـترة مـن الهـدوء وراحـة البال؟"

"يتوجـب عـلى عرَّابـة سـندريلا أن تعـدَّ جهـاز العـروس، وفطـور العـرس، وكتابـة الدعـوات لحفـل الزفـاف، عـلى سـبيل المثـال"، قـال السـيد لينوكـس ضاحـكاً.

"وهـل مـن داعٍ لـكل هـذه المتاعـب؟" أجابـت مارغريـت وهـي تنظـر إليـه مباشرة

بانتظـار الـرد عـن سـؤالها. طغـى عليهـا إحسـاس بتعـب لا يوصـف مـن تلـك الترتيبـات ذات الأثـر الجميـل التـي انشـغلت بهـا إيديـث كسـلطة عليـا عـلى مـدار الأسـابيع السـتة الماضيـة، وكانـت بحاجـة لمـن يمـد لهـا يـد العـون بشـأن أفـكار جميلـة هادئـة حـول الـزواج.

"بالطبـع"، أجـاب مـع تغيـير في رصانـة نبرتـه. "هنـاك شـكليات ومراسـم لا بـد منهـا، ليـس مـن أجـل إرضـاء الـذات بـل مـن أجـل إسـكات الآخريـن، ومـن دون ذلـك لـن يكـون هنـاك راحـة ورضـا في الحيـاة. لكـن كيـف تريـن أنـت الترتيبـات المناسبة للزواج؟".

"لم أفكـر بهـذا الأمـر مـن قبـل، مـا أتمنـاه لا يعـدو أن يكـون صباحـاً صيفيـاً جميـلاً، وأن أمـشي إلى الكنيسـة تحـت ظـل الأشـجار مـن دون هـذا الحشـد مـن الإشـبينات، ولا أن يكـون هنـاك فطـور العـرس، يمكننـي القـول إنّي أعـارض الأشـياء ذاتهـا التـي كانـت متعبـة بالنسـبة إلي".

"لا أظنك تعارضين، بل إن فكرة البسـاطة الجميلة تتماشى مع شـخصيتك".

لم يعجبهـا هـذا الـكلام تمامـاً، فانكفـأت وهـي تتذكـر مناسـبات سـابقة حـاول فيهـا أن يسـتدرجها إلى نقـاشٍ (لعـب فيـه دور المجامـل) الـذي يكيـل عبـارات المديـح عـلى شـخصيتها. قطعـت عليـه مسـار الحديـث بالقـول: "مـن الطبيعـي أن أفكـر في كنيسـة هِلْسـتِن والسـير إليهـا مشـياً بـدلاً مـن ركـوب عربـة إلى كنيسـة لنـدن في طريـق معبـدة".

"حدثينـي عـن هِلْسـتِن، لم تصفيهـا لي مـن قبـل. أود أن آخـذ فكـرة عـن المـكان الـذي ستعيشـين فيـه بينـما سـيتحول المنـزل 96 في شـارع هـارلي إلى مـكان كالـحٍ قـذرٍ وكئيـبٍ يسـكنه الصمـت. هـل هِلْسـتِن قريـة أم بلـدة؟".

"إنهـا مجـرد ضيعـة صغـيرة، لا يمكننـي أن أصفهـا بالقريـة. هنـاك الكنيسـة وبضعـة منـازل، أو بالأحـرى أكـواخ بالقـرب منهـا فـوق أرض خـضراء تنمـو حولهـا الزهـور".

"وتنمو على مدار السنة وخاصة في موسم عيد الميلاد، أكملي الصورة"، قال لها.

"كلا"، ردت مارغريت بنبرة يشوبها الانزعاج، "أنا لا أختلق صورةً من خيالي، بل أحاول أن أصف هِلْستِن كما هي على أرض الواقع. ما كان عليك أن تقول ذلك".

"أنا آسف"، رد السيد لينوكس، "لكنها بدت لي مثل قريةٍ في حكاية أكثر منها في الحياة الواقعية".

"وهي كذلك فعلاً، أجابت مارغريت بحماسة. "جميع الأماكن التي زرتها، ما عدا نيو فوريست، تبدو قاسية نثرية المظهر. أما هِلْستِن فهي قرية في قصيدة، كواحدة من قصائد تينيسون[5]، لكنني لن أستزيد في وصفها. ستهزأ مني إن حدثتك عما أراه فيها، أقصد كما هي عليه فعلاً".

"لن أسخر منك مطلقا، لكنني أرى أنك مصممة على موقفك. حسناً، أخبريني عما أود فعلاً معرفته عن منزل الأبرشية".

"لا أستطيع أن أصف بيتي، إنه بيت وليس بمقدوري أن أصف سحره في كلمات".

"إنني أستسلم، تبدين قاسية كثيراً هذا المساء يا مارغريت".

"كيف ذلك؟"، وأدارت عينيها الواسعتين الناعمتين دورة كاملة حوله، "لم أكن أدرك أنني كذلك فعلاً".

"لِمَ كل هذه القسوة، فقط لأني قلت ملاحظةً لم تكن موفقة. ترفضين أن تحدثيني عن هِلْستِن، ولا حتى عن منزلك، مع العلم أنني أخبرتك من قبل كم أنا توّاق لسماع أي شيء عن الاثنين، وتحديداً المنزل".

"لكنني بالفعل لا أستطيع أن أخبرك عن بيتي، فهو ليس مجرد شيء ما يمكن الحديث عنه، إلا إن كنت تعرفه"

"حسناً"، وتوقف الحديث لحظة، "إذاً أخبريني عما تفعلينه هناك. هنا تقرئين، أو تتلقين دروساً، أو تطورين تفكيرك، إلى موعد الظهيرة، تتمشين قبل الغداء، ثم تذهبين بالعربة مع خالتك، وتقومين ببعض الأمور مساءً. كيف ستقضين يومك في هِلْستِن، هل ستمتطين حصاناً، تقودين عربة، أم تمشين؟".

---

(5) الشاعر الرومانسي ألفريد تينيسون (1809 - 1892).

"المشي بالتأكيد، ليس لدينا حصان، حتى لوالدي الذي يذهب إلى أبعد مكان في الأبرشية سيراً على الأقدام. إنها نزهات في غاية الروعة، بل من المعيب أن تقود عربة أو حتى تمتطي حصاناً".

"هل يمكن أن تعملي في الحديقة؟ فهذا عمل، كما أعتقد، مناسب للشابات في الريف".

"لا أدري، لا أظنني سأحب عملاً شاقاً كهذا".

"هل لديكم مسابقات رمي السهام، نزهات، سباق الكرات، حفلات الرقص في نهاية موسم صيد الثعالب"

"لا"، أجابت ضاحكة، "ليس أبي ميسور الحال لهذه الدرجة، حتى لو كنا على مقربة من هذه الأشياء، فلا أظن أني سأذهب إليها".

"حسناً، لا تريدين أن تخبريني بأي شيء عدا أنك لن تفعلي هذا أو ذاك. قبل أن تنتهي الإجازة، سأقوم بزيارتك لأرى بماذا تشغلين نفسك هناك".

"آمل أن تقوم بذلك لترى بنفسك جمال هِلْستِن. عليّ أن أذهب الآن. إيديث تستعد للعزف على البيانو ولا أعرف من الموسيقى إلا ما يكفي لأقلب صفحات النوتة لها وهي تعزف، بالإضافة إلى أن خالتي شو لن يروق لها أن نستمر بالحديث". كان عزف إيديث رائعاً، لكن وفي منتصف المقطوعة، فُتح الباب موارَباً فلمحت إيديث النقيب لينوكس واقفاً يتردد في الدخول. ألقت بالموسيقى جانباً واندفعت خارج الغرفة تاركةً مارغريت في حيرةٍ يعتريها الخجل من تفسير الأمر للضيوف، وأي شبح لاح لإيديث كي يجعلها تهرب من الغرفة على هذا النحو المفاجئ. هل وصل النقيب لينوكس قبل موعده، أم إن الوقت كان بالفعل متأخراً؟ نظر الضيوف إلى ساعاتهم مصدومين، وبدأوا بالمغادرة.

عادت إيديث تشع فرحاً يتنازعها الحياء والاعتزاز برفقة نقيبها الوسيم طويل القامة. صافح شقيقه، واستقبلته السيدة شو بطريقتها اللطيفة الحنونة التي لم تخلُ يوماً من شعورٍ بالأسى يعود أصلاً إلى عادتها القديمة في حسبان نفسها ضحية زواجٍ غير متكافئ. أما الآن وبعد رحيل الجنرال، فقد استمتعت بكل

مباهـج الحيـاة مـع بعـض الانتكاسـات القليلـة، حتـى إنهـا كانـت تحتـار أحيانـاً في العثـور عـلى قلـقٍ مـا، إن لم يكـن حزنـاً، في حياتهـا لتشـتكي منـه. عـلى أي حـال، وجـدت في وضعهـا الصحـي مصـدراً للقلـق حيـث كان يصيبهـا سـعالٌ عصبـي كلـما فكـرت بالأمـر. نصحهـا بعـض الأطبـاء المجاملـين بمـا كانـت ترغـب بـه فعـلاً؛ أن تقضي فصـل الشـتاء في إيطاليـا. مثـل سـائر النـاس الآخريـن، كان للسـيدة شـو رغباتهـا الملحّـة لكنهـا لم تكـن تسـعى إلى تحقيقهـا بدافـعٍ وإرادة صريحـة منهـا، بـل كانـت تفضـل أن تُجبر عـلى ذلـك إرضـاءً لذاتهـا، إمـا بنصيحـةٍ أو أمـرٍ مـن شـخص آخـر. لقـد نجحـت في إقنـاع نفسـها أن مـا تقـوم بـه ليـس سـوى خضـوعٍ لـضرورة خارجيـة قاسـية، وهكـذا كانـت قـادرة عـلى التـأوه والشـكوى بأسـلوبها الناعـم، في حـين كانـت في واقـع الأمـر تقـوم بمـا كانـت تحـب وتـرضى.

بهـذه الطريقـة، بـدأت السـيدة شـو تتحـدث عـن رحلتهـا إلى النقيـب لينوكـس الـذي وافـق، بحكـم الواجـب، عـلى كل مـا قالتـه حماتـه، بينـما كانـت عينـاه تبحثـان عـن إيديـث التـي انشـغلت بإعـداد طاولـة الشـاي، وإصـدار الأوامـر لتجهيـز أطايـب الطعـام رغـم تأكيـده لهـا أنـه تنـاول عشـاءه قبـل سـاعتين.

في هـذه الأثنـاء، وقـف هـنري لينوكـس مسـتنداً إلى رفِّ الموقـد يراقـب هـذا المشـهد العائـلي. كان قريبـاً في وسـامته إلى شـقيقه، وكان الأوضـح وسـامة في عائلـة تنفـرد بهـذه الميـزة، لكـن وجهـه كان ذكيـاً متحمسـاً ونشِـطاً، لـذا دأبـت مارغريـت بـين الحـين والآخـر عـلى التسـاؤل عـما كان يفكـر فيـه، بينـما ظـل هـو صامتـاً يراقـب باهتـمامٍ، لا يخلـو مـن السـخرية، كل شيء كانـت تقـوم بـه إيديـث. وكان للحديـث الجـاري بـين السـيدة شـو وأخيـه النصيـب الأكـبر في اسـتدعاء هـذا الإحسـاس السـاخر بمعـزلٍ عـن اهتمامـه بمـا كان يـراه. إذ كان يعتقـد أنـه مـن الطرافـة أن يـرى ابنتـي الخالتـين مشـغولتين بإعـداد الطاولـة عـلى هـذا النحـو، لاسـيما وأن إيديـث اختـارت أن تقـوم بالجـزء الأكـبر مـن العمـل. كانـت تشـعر بمتعـة كبـيرة وهـي تثبـت لخطيبهـا كـم هـي ماهـرة في التـصرف كزوجـة جنـدي. فقـد اكتشـفت أن المـاء في وعـاء الشـاي أصبـح بـارداً، فأصـدرت أوامرهـا بتجهيـز غلايـة الشـاي الكبـيرة في المطبـخ، لكنهـا

عندمـا اندفعـت لاسـتلامها عنـد البـاب، فوجئـت بثقـل وزنهـا، فدخلـت عابسـة مقطبـة الوجـه مـع بقعـة سـوداء كبـيرة عـلى فسـتان الموسـلين الأبيـض، وآثـار مقبـض الغلايـة محفـورةً عـلى يديهـا البيضـاء الناعمـة، فهرعـت نحـو خطيبهـا لتريـه مـا حـدث كطفـلٍ تعـرض للأذيـة. وبالطبـع كان العـلاج واحـداً في الحالتـين. مارغريـت سـارعت إلى إشـعال غلايـة الشـاي الصغـيرة التـي تعمـل بالكحـول كحـل ناجـح في هـذه الحالـة، لكنهـا لم تكـن حكـماً شـبيهة بمـا هـو معمـول بـه في المعسـكرات الـذي كانـت تـراه إيديـث أقـرب إلى حيـاة الثكنـات. بعـد هـذه الأمسـية، اسـتمر اللغـط والضجيـج إلى أن انتهـى حفـل الزفـاف.

وردٌ وأشواك

مـرة أخـرى تسـافر مارغريـت بفسـتانها الصباحـي عائـدة إلى منزلهـا مـع والدهـا الذي جـاء إلى لنـدن للمسـاعدة في حفـل الزفـاف، بينـما بقيـت والدتهـا في المنـزل لأعـذارٍ لم يفهمهـا أحـد سـوى السـيد هيـل الـذي كان عـلى درايـة تامـة أن كل محاولاتـه لإقنـاع زوجتـه بارتـداء فسـتان حريـري نصـف جديـد لم تكـن مجديـة. ولأنـه لا يملـك المـال لتوفـير كل مـا هـو جديـد مـن أعـلى الـرأس حتـى أخمـص القـدم، لم تكـن زوجتـه مسـتعدة لحضـور حفـل زفـاف ابنـة أختهـا الوحيـدة. لـو تيسر للسـيدة شـو أن تعلـم بـأن هـذا هـو السـبب الحقيقـي وراء عـدم حضـور شـقيقتها، لأمطرتهـا بطوفـان مـن الفسـاتين، لكـن عشريـن سـنة مضـت تقريبـاً منـذ أن كانـت السـيدة شـو فقيرة باسـم الآنسـة بيريسـفِرد الجميلـة، وبالتـالي نسـيت تلـك المصاعـب والمنغصـات، اللهـم مـا عـدا حكايـة فـارق السـن في حياتهـا الزوجيـة التـي كانـت تُسـهب في تردادهـا لنصـف سـاعة. أمـا العزيـزة ماريـا فتزوجـت الرجـل الـذي أحبتـه، وكان يكبرهـا بثمانيـة أعـوام فقـط، ويتمتـع بطبـع هانـئ، وشـعر أسـود فاحـم قلـما تـرى مثلـه.

كان السـيد هيـل واحـداً مـن أكـثر رجـال الديـن الذيـن سـمعت بهـم إسـعاداً، نموذجـاً مثاليـاً لقـس أبرشـية. لم يكـن هـذا عـلى الأرجـح، استـنتاجاً مـن كل هـذه المقدمـات بقـدر مـا كان اسـتنتاجاً خاصـاً بالسـيدة شـو مـن جـراء تفكيرهـا الدائـم بقسـمة ونصيـب شـقيقتها "التـي تزوجـت عـن حـب، فهـل كان معقـولاً أن ترغـب ماريـا بـشيء أكـثر مـن ذلـك في هـذه الدنيـا؟" لـو أتيـح المجـال للسـيدة هيـل أن تقـول الحقيقـة، لـردت عليهـا بقائمـة معـدة سـلفاً: "فسـتان مـن الحريـر رمـادي يميـل إلى الفضـة ناعـم الملمـس، وقبعـة بيضـاء، وعـشرات الأشـياء مـن أجـل حفـل الزفـاف،

ومئات مثلها من أجل المنزل". لم تكن مارغريت تعلم عن سبب عدم حضور والدتها حفل الزفاف سوى أنها لم تجد حضورها مناسباً، وكانت في غاية الأسف أنها ستضطر إلى ملاقاة واستقبال ابنتها في هِلْستِن بدلاً من المنزل اللندني في شارع هارلي في خضم فوضى اليومين أو الأيام الثلاثة الأخيرة التي كان على مارغريت أن تلعب فيها دور فيغارو[6]، وأن تكون حاضرة في كل مكان في الوقت نفسه. شعرت مارغريت بأوجاع الجسد والرأس وهي تستعيد كل ما قالته وفعلته على مدار الثمانية والأربعين الساعة الماضية. مراسم الوداع المستعجلة، من ضمن مثيلاتها الأخريات، باتت تُطبق عليها الآن بحسرة تعيسة على أوقات مرت في حياتها، من دون أن تدرك ماهيتها ما خلا أنها ولت من غير رجعة. أحست مارغريت بقلبها ينوء بحمل أثقل مما كان محتملاً تصوره في الذهاب إلى بيتها العزيز؛ إلى المكان والحياة التي طالما اشتاقت إليهما لسنوات طوال، في تلك الفترة تحديداً من الشوق والحنين، قبل أن تفقد حواسها المتيقظة هيئتها عند النوم. انتزعت مارغريت رأسها عنوة من ذكريات الماضي نحو تأمل هادئ مشرق بمستقبل مأمول. بدأت عيناها تشاهدان ليس ما مر وانقضى بل ما هو ماثل أمامها واقعاً حياً، أباها العزيز يستلقي نائماً في عربة القطار، والشيب بدأ يغزو شعره الأسود الفاحم الذي يرقد نحيلاً على جفنيه. برزت وجنتاه واضحتين للعيان بجمالهما. لو كانت ملامحه قد رُسمت على نحو أقل نعومة مما كانت عليه، لحازت حُسناً خاصاً، إن لم يكن جمالاً بحد ذاته. صُدمت مارغريت برؤية هذه الملامح القلقة المُتعَبة، وعادت بذاكرتها إلى الظروف المعروفة في حياة والدها لتبحث فيها عن سبب لتلك الخطوط التي كانت تعبر صراحةً عن قلقٍ وحزنٍ مألوفيْن.

"فريدريك المسكين!" تمتمت مارغريت وهي تطلق تنهيدة، "لو كان فريدريك قساً، بدلاً من التطوع في البحرية لما كنا خسرناه". ليتني أعلم ما السبب. لم أفهم ما قالته الخالة شو عن هذه المسألة سوى أنه لا يستطيع العودة إلى

---

(6) إشارة إلى مسرحية "زواج فيغارو" (1778) للكاتب الفرنسي بيير بومارشيه التي يلعب فيها فيغارو شخصية كبير الخدم الذي يتولى إدارة المنزل. هذه المسرحية الكوميدية هي واحدة من ثلاثية تضم "حلاق إشبيلية" و"الأم المذنبة".

إنكلترا بسبب أمر خطير. مسكين والدي، كم يبدو حزيناً! أنا سعيدة بعودتي إلى المنزل لأكون إلى جانب أبي وأمي لمساعدتها والعمل على راحتيهما.

عندما استيقظ والدها، كانت مارغريت مستعدة لتحيته بابتسامة مشرقة لا أثر للتعب فيها. بادلها الابتسامة، ولكن على نحو باهت كما لوكان الابتسام جهداً إضافياً لم يعتد عليه. عاود وجهه رسم تلك الخطوط القلقة المألوفة متحايلاً بفم نصف مفتوح كأنما يريد الكلام، الأمر الذي منح شفتيه مظهراً مضطرباً، ورسم على وجهه ملامح الحيرة والارتباك. كانت لديه عينا ابنته الناعمتان الواسعتان اللتان تتحركان ببطءٍ، وتستديران بخُيلاءٍ وتعالٍ في محجريهما تُغطيهما رموشٌ بيضاء شفافة. كانت مارغريت تشبه والدها أكثر مما تشبه والدتها، حتى إن الناس راحوا يتعجبون بأنه كان من المفترض لزوجين وسيمين أن ينجبا طفلةً تفوق بكثير الجمال العادي المألوف، لا بنتاً تفتقر إلى الجمال، كما كان يقال في بعض الأحيان. كان فمها كبيراً وليس برعم وردة ينفتح بقدر كاف ليقول "نعم" أو "لا، أو "ليس باستطاعتي أن أُرضيك يا سيدي". غير أن هذا الفم الكبير حظي بثنية طرية لشفتين حمراوين مكتنزتين. أما بشرتها، وإن لم تكن بيضاء ناعمة، فقد كانت برقة ونعومة العاج. وإن كان منظر وجهها، بشكل عام، متعالياً وصارماً بالنسبة لفتاة شابة، إلا أنه في هذه اللحظة التي تتحدث فيها مع والدها كان مشرقاً كصباح مُشمس، يمتلئ بالغمازات، واللَفتات التي تُفصح عن فرح طفوليٍ، وأمل لا حدود له بالمستقبل.

عادت مارغريت إلى منزلها في أواخر شهر تموز/ يوليو. كانت الغابة قد استحالت بأشجارها خضراء داكنة، ونالت السراخس المستلقية عند جذوعها نصيبها من الشمس الحارقة، كذلك كان الطقس خانقاً ساكناً. اعتادت مارغريت أن تمشي بجانب والدها تسحق السراخس بفرح مشاكس، وهي تتحسس تهشمها تحت قدمها الرشيقة لتفوح رائحتها المميزة في المراعي الواسعة نحو النور الدافئ المُضمَّخ بالشذى، وترى وفرةً من المخلوقات البرية الحية تلهو تحت أشعة الشمس، وأعشاباً وزهوراً. هذه الحياة ـ أو هذه النزهات على الأقل ـ هي

مـن حققـت لمارغريـت كل مـا كانـت تتطلـع إليـه. كانـت تشـعر بالاعتـزاز بغابتهـا. فناسـها هـم أهلهـا. عقـدت معهـم صداقـاتٍ حميمـة، تعلمـت وابتهجـت باسـتخدام كلماتهـم المميـزة، وتصرفـت عـلى سـجيتها بينهـم، ورعـت أطفالهـم، وتحدثـت أو قـرأت بتمهـل إلى كبارهـم، وعـادت مرضاهـم، وكانـت مصمّمـة عـلى التدريـس في المدرسـة التـي كان والدهـا يذهـب إليهـا كل يـوم كمن يذهـب للقيام بمهمـة محددة، لكـن طالمـا كانـت تسـتهويها رؤيـة أصدقـاء محدديـن، رجـلاً، وامـرأة، وطفلـة في كـوخٍ في ظـل الغابـة الأخـضر. كانـت حياتهـا خـارج البيـت في غايـة الروعـة، لكـن الحـال داخـل البيـت لم يخـلُ مـن المنغّصـات. ومـع هـذا الشـعور الطفـولي بالذنـب، كانـت تلـوم نفسـها عـلى حماسـتها في مراقبـة مـا يجـري حولهـا، وإدراكهـا بـأن مـا كانـت تـراه لم يكـن كـما يجـب أن يكـون. فوالدتهـا التـي كانـت لطيفـة وحنونـة معهـا دائمـاً، لم تكـن راضيـةً بهـذه الحيـاة، وظنـت أن الأسـقف تجاهـل عـلى نحـو غريـب واجباتـه الكنسـية بعـدم توفـير معيشـة أفضـل للسـيد هيـل، بـل إنهـا لامـت زوجهـا لأنـه عجـز عـن الإفصـاح عـن رغبتـه بمغـادرة الأبرشـية، وتـولي مسـؤولية أبرشـية أكـبر. مـن جانبـه، كان السـيد هيـل يـرد عـلى تقريـع زوجتـه بتنهيـدة عاليـة قائـلاً إنـه سـيحمد اللـه إن اسـتطاع القيـام بمـا يجـب عليـه القيـام بـه في هِلْسـتِن. وفي كل يـوم يمـر، كان السـيد هيـل يشـعر بالعجـز أكـثر حتـى بـات العـالم مشوشـاً أمامـه. ومـع إصرار زوجتـه المتكـرر بـضرورة أن يسـعى للحصـول عـلى ترقيـة، كانـت مارغريـت تـرى والدهـا ينكفـئ عـلى ذاتـه أكـثر وأكـثر، فسـعت جاهـدة لعقـد صلـح بـين والدتهـا وهِلْسـتِن. بدورهـا، اشـتكت السـيدة هيـل مـن أن الأشـجار المجـاورة للمنـزل أضرت بصحتهـا، وحاولـت مارغريـت أن تغـري والدتهـا بالخـروج إلى المـروج الفسـيحة الخلابـة التـي تغمرهـا الشـمس وتظللهـا الغيـوم. فقـد كانـت مارغريـت تظـن أن والدتهـا عـودت نفسـها أكـثر مـن الـلازم عـلى البقـاء داخـل المنـزل، وقلـما ذهبـت لمسـافة أبعـد مـن الكنيسـة، أو المدرسـة، أو حتـى الأكـواخ القريبـة. قـد يكـون هـذا مفيـداً لبعـض الوقـت، لكـن عندمـا يـأتي الخريـف، ويصبـح الطقـس أكـثر تقلبـاً، تـزداد شـكوى أمهـا مـن سـوء المـكان بالنسـبة إلى صحتهـا، وتعـاود شـكواها بأحقيـة زوجهـا ـ الـذي يفـوق السـيد هيـوم علـماً ـ بأبرشـية أفضـل مـن السـيد هولـدورث، لـو تمـت ترقيتـه كـما حصـل مـع جاريهـما السـابقين.

لم تكـن مارغريـت مسـتعدة لهـذه السـاعات الطويلـة مـن النَّـق والشـكوى التـي كانـت تُفسـد هـدوء المنـزل. فقـد علمـت، وهـي تقلِّـب هـذه الأفـكار في رأسـها، أنـه كان عليهـا أن تتخـلّى عـن العديـد مـن الرفاهيـات التـي كانـت بمثابـة قيـود عـلى حريتهـا في شـارع هـارلي. وكان اسـتمتاعها بـكل لـذة حسـية متوازنـاً، إن لم يكـن أقـل رجحانـاً، مـع كبريائهـا الواعـي بقدرتهـا عـلى التخـلي عـن تلـك الرفاهيـات، إن لـزم الأمـر. لكـن ليـس كل مـا يتمنـاه المـرء يدركـه. فقـد كان هنـاك شـكاوى محـدودة ونـدم عابـر مـن جانـب والدتهـا حـول بعـض التفاصيـل التافهـة المتصلـة بِهِلْسـتِن، ومنصـب والدهـا، عندمـا كانـت في المـاضي تـزور المنـزل. لكـن مـع سـعادتها الكاملـة بتذكـر تلـك الفـترات، نسـيت مارغريـت تلـك التفاصيـل الصغـيرة المزعجـة. في النصـف الثـاني مـن أيلـول، هطلـت الأمطـار الخريفيـة وهبـت العواصـف، فاضطـرت مارغريـت عـلى البقـاء في البيـت أكـثر مـما يجـب. كانـت هِلْسـتِن عـلى مسـافة بعيـدة مـن أي جـيرانٍ يتمتعـون بالمعايـير المطلوبـة لمصادقتهـم.

"إنهـا كانـت بالتأكيـد مـن أكـثر المناطـق النائيـة عزلـة"، قالـت السـيدة هيـل في واحـدة مـن أكـثر حالاتهـا حزنـاً وبؤسـاً. "لا يمكننـي إلا أن أشـعر بالحـسرة دائمـاً لأن أبـاك ليـس لديـه أحـد يصادقـه، لقـد رُمـي بـه بعيـداً حيـث لا يـرى أحـداً إلا المزارعين والعـمال مـن أسـبوع لآخـر. لـو كان منزلنـا في الطـرف الآخـر مـن الأبرشـية، لـكان الأمـر مختلفـاً، وكنـا عـلى مسـافة قصـيرة سـيراً عـلى الأقـدام مـن آل ستانسـفيلد، وآل غورمان".

"آل غورمـان" صاحـت مارغريـت. "هـل تقصديـن تلـك العائلـة التـي صنعـت ثروتهـا مــن التجـارة في سـاوثمبتِن؟ أنـا سـعيدة لأننـا لا نزورهـم. لا أحــب "الدكنجيـة"، نحــن أفضـل حــالاً هكـذا بمعرفـة العـمال والمزارعـين، والنـاس العاديـين الذيـن لا يحبون المظاهر".

"عزيـزتي مارغريـت، لا تكـوني قاسـية إلى هــذا الحـد في اختياراتـك"، ردَّت عليهـا الأم وهـي تتخيّـل الشـاب الوسـيم السـيد غورمـان الـذي التقتـه ذات مـرة في منـزل السيد هيوم.

"لا، بل إن ذوقي في اختيار الأشخاص ليس محدوداً، أحب جميع الأشخاص من ترتبط أعمالهم بالأرض: كما أحب الجنود، والبحارة، وثلاثتهم من المهن المحترمة التي تستند إلى العلم والمعرفة، كما يقال. أنا واثقة بأنك لا تريدينني أن أعجب بالخبازين، والجزارين، وصانعي الشموع، أليس كذلك؟".

"لكن آل غورمان ليسوا خبازين ولا جزارين، بل صانعي عربات".

"لم يختلف الأمر، إنها تجارة بل حتى إن هذه المهنة أقل فائدة من الجزار والخباز. يا إلهي كم كنت أشعر بالتعب من ركوب عربة خالتي شو يومياً، وأتوق إلى المشي".

وهذا ما فعلته مارغريت، على الرّغم من الطقس. كانت سعادتها لا توصف وهي تسير إلى جانب والدها في الهواء الطلق حتى بدت وكأنها ترقص وهي تشعر بالريح الغربية تدفعها من الخلف بلطف ونعومة. وعندما كانت تعبر مرجاً أخضرَ، كانت تبدو محمولة في الهواء كورقة شجرة تطوف بها نسائم الخريف. لكن المشكلة كانت في تمضية الوقت مساءً. فبعد تناوله الشاي، كان والدها ينسحب إلى مكتبه الصغير للقراءة تاركاً مارغريت ووالدتها بمفرديهما. لم تهوَ السيدة هيل يوماً قراءة الكتب، وحاولت في بداية حياتهما الزوجية، بل صدّت كل محاولات زوجها للقراءة لها بصوتٍ عالٍ عندما كانت تقوم بأعمال المنزل. ذات مرة، حاولا التسلية بلعب طاولة الزهر، غير أن اهتمام السيد هيل بالمدرسة ومشاغله مع رعيته في الأبرشية زادت إلى حدٍ منعته هذه الواجبات من اللعب، الأمر الذي لم يرق لزوجته التي لم تكن تعدُّ هذه المشاغل من صلب عمله. وعندما كان طفلاه لا يزالان صغيرين، كان السيد هيل ينسحب إلى مكتبته، ليقضي أمسياته هناك، إن كان موجوداً في المنزل، في قراءة الكتب التأملية الميتافيزيقية التي كانت تمنحه البهجة والسرور.

عندما جاءت مارغريت إلى المنزل في المرة السابقة، أحضرت معها صندوقاً كبيراً من الكتب التي أوصى بها أساتذة ومعلمات. لكنها اكتشفت حينذاك أن اليوم الصيفي كان أقصر من قدرتها على قراءة الكتب قبل العودة إلى المدينة. أما

الآن، فلـم يكـن أمامهـا سـوى الكلاسـيكيات الإنكليزيـة التـي انتزعتهـا مـن مكتبـة والدهـا لتملأ بهـا رف الكتـب في غرفـة الضيـوف. وكانـت كتـب "الفصـول الأربعـة[7]" لطومسـون، و" كاوبِـر" لهيـلي[8]، و"شـيشرون" لميدِلـتِن[9]، الأحـدث والأكـثر إمتاعـاً. غير أن رفَّ الكتـب لم يمنحهـا القـدر الـكافي مـن التسـلية. وراحـت تقـصُّ عـلى والدتهـا كل شـاردة وواردة عـن حياتهـا في لنـدن وأنصتـت إليهـا السـيدة هيـل باهتـمام بالـغ، وأحيانـا بفـرح وتسـاؤل لم يخـلُ مـن ميلهـا إلى مقارنـة البحبوحـة والراحـة التـي تعيشـها شـقيقتها مـع قلـة ذات اليـد في أبرشـية هِلْسـتِن. في مثـل هـذه الأمسـيات، كانـت مارغريـت تميـل إلى التوقـف عـن الـكلام لتسـتمع إلى قطـرات المطـر تتسـاقط عـلى النافـذة الصغـيرة، ووجـدت نفسـها، مـرة أو مرتـين، تحـصي تلقائيـاً تكـرار الصـوت الرتيـب بينـما كانـت تتسـاءل إن كان بمقدورهـا المغامـرة في أن تطـرح سـؤالاً عـن موضـوع قريـب إلى قلبهـا، وتسـتفسر عـن مـكان فريدريـك وعـما كان يفعلـه، وكـم مـضى مـن الوقـت منـذ آخـر مـرة سـمعوا عنـه شـيئاً. لكـن إدراكهـا التـام بوضـع والدتهـا الصحـي وكرههـا لِهلسـتِن اللذيـن يعـودان أصـلاً إلى الفـترة التـي وقـع فيهـا التمـرد الـذي تـورط فيـه فريدريـك، ولم تطلـع مارغريـت عـلى تفاصيلـه كلهـا التـي باتـت حاليـا، كـما يبـدو، مدفونـة تحـت نسـيانٍ مريـر؛ هـو مـا جعلهـا تتجنـب الخـوض في هـذا الموضـوع في كل مـرة كانـت تحـاول الاقـتراب منـه. فعندمـا كانـت مـع والدتهـا، كان والدهـا أفضـل شـخص للحصـول عـلى المعلومـات منـه، وعندمـا كانـت مـع والدهـا، كانـت تـرى أنـه باسـتطاعتها أن تتحـدث مـع والدتهـا بأريحيـة أكـبر. وعـلى الأرجـح لم يكـن هنـاك ثمـة جديـد لتسـمع بـه. في إحـدى الرسـائل التـي تلقتهـا قبـل أن تغـادر شـارع هـارلي، أخبرهـا والدهـا بأنهـم سـمعوا أن فريدريـك لا يـزال في ريـو وبصحـة جيـدة، ويرسـل لهـا بالـغ أشـواقه ومحبتـه، لكنهـا كانـت مجـرد أخبـار قديمـة. كان فريدريـك موضـع حديـث العائلـة عـلى الـدوام متبوعـاً

(7) "الفصول الأربعة" للشاعر الاسكوتلندي جيمس طومسون مجموعة شعرية مؤلفة من أربع قصائد.

(8) ويليام هيلي (1745 - 1820) من أهم أعماله كتاب السيرة الذاتية لصديقه الشاعر ويليام كاوبر.

(9) كونيرز ميدِلـتِن (1683-1750) رجـل ديـن وواحـد مـن أفضـل كتـاب عـصره. مـن أهـم أعمالـه كتـاب عـن حيـاة وأعـمال الفيلسـوف ورجـل الدولـة الرومـاني ماركـوس توليـو سشـيشرون (43-106ق.م) الـذي سـاهمت أفـكاره في تأسـيس الإمبراطوريـة الرومانيـة.

بلقب "المسكين فريدريك" في حال ذُكر اسمه صراحةً، ونادراً ما كان يحدث ذلك. لا تزال غرفته عل حالها كما تركها، لكن مع العناية بها وتنظيفها بانتظام على يد "ديكسِن" خادمة السيدة هيل التي لا تقرب أي عمل آخر من أعمال المنزل، لكنها لم تنس ذلك اليوم الذي وقع اختيار السيدة بيريسفِرد عليها خادمةً في منزل السير جون لرعاية ابنته الآنسة بيريسفِرد جميلة روتلاندشاير. إلا أن ديكسِن طالما كانت ترى السيد هيل المصيبة الأكبر التي حلت على حياة سيدتها وحطمت مستقبلها. لو أن الآنسة بيريسفِرد لم تستعجل الزواج من قسٍ فقير الحال، لا أحد كان ليدرك ما الذي كانت ستصبح عليه حياتها. لكن ديكسِن بقيت مخلصة وفية لسيدتها ولم تتخل عنها في سقوطها نحو الهاوية (أي في حياتها الزوجية). بقيت معها وكرست نفسها لرعايتها، وكانت تعدُّ نفسها الملاك الحارس الطيب الذي يقوم بواجبه في مواجهة العملاق الشرير السيد هيل. كان السيد فريدريك محطّ اهتمامها ومصدر اعتزازها. ومع تلك النظرة الحانية التي تخفف من مظهرها وأسلوبها المتعجرف، كانت ديكسِن تذهب مرة كل أسبوع إلى غرفة فريدريك وتعمل على تنظيفها وترتيبها وكأنه سيعود إليها في مساء اليوم ذاته. لم تستطع مارغريت أن تمنع نفسها من الظن بأن أخباراً جديدة وصلت بخصوص فريدريك لا تعلم بها والدتها، وتجعل والدها قلقاً، وإن كانت السيدة هيل لم تلحظ أي تغيير في ملامح أو تصرفات زوجها. كانت أحاسيسه رقيقة ولطيفة تتأثر بأي خبر كان يتعلق بسعادة الآخرين. يعتريه الحزن لأيامٍ إن شهد وفاة أحدهم، أو سمع بوقوع جريمة ما. أما الآن، فقد لاحظت مارغريت أن أباها بات شارداً وكأن خطباً ما يشغل باله ويثقل عليه على نحو لا يمكن لمشاغله اليومية أن تخفف منه مثل زيارة الناجين من حادثٍ، أو إلقاء الدروس في المدرسة على أمل التخفيف من الشرور في حياة الأجيال القادمة. لم يعد السيد هيل يزور رعيته كما كان يفعل سابقاً، ويكتفي بالانزواء في مكتبه، ويترقب قلقاً وصول ساعي البريد الذي كان يستدعيه بالنقر على مصاريع نافذة المطبخ الخلفية، كإشارة غالباً ما كانت تتكرر قبل أن يفهم أحد مغزاها، فيهرع إليه على الفور. كما بات السيد هيل يتمشى في الحديقة

في الصباحات الجميلة، أو يقف ساهماً بالقرب من نافذة مكتبه حتى يناديه ساعي البريد، أو يذهب إلى الزقاق يمد يده مصافحاً مع إحناءة بالرأس تعبر عن الثقة والاحترام للقس الذي كان يراقبه وهو ينصرف وراء التخم المليء بالزهور البرية متجاوزاً شجرة القَطلَب الكبيرة، قبل أن يعود إلى مكتبه ليبدأ عمله اليومي بقلب مثقل وبال مشغول.

لكن مارغريت كانت في سنٍّ يساعدها على التخلص بسهولة لفترة من الزمن من أيِّ إحساس بالقلق لا يستند على الحقائق سواء بالاستمتاع بيوم مشمس، أو ظرف ما يبعث على الشعور بالسعادة. وعندما جاءت الأيام الأربعة عشرة الصافية من شهر تشرين الأول، تساقطت مخاوفها كما تُطيِّر الريح زغب شوك الجمل، ولم تعد تفكر في شيء آخر سوى جمال وسحر الغابة. انقضى موسم قطاف السراخس، وتوقف المطر، وبات بمقدورها الوصول إلى فسحات من المروج التي لم تكن تجرؤ سوى إلى النظر إليها في شهري تموز وآب. كانت قد تعلمت الرسم مع إيديث، وتحسّرت بما فيه الكفاية، إبان الطقس السيئ، على لهوها الكسول في جمال الغابة عندما كان الجو مناسباً، لتحزم أمرها لرسم ما تستطيع قبل حلول فصل الشتاء. وفي صباح ذات يوم وبينما كانت منهمكة في تحضير لوح الرسم، فتحت سارة ـ الخادمة باب غرفة الضيوف لتبلغها بوصول "السيد هنري لينوكس".

في العجلة الندامة

"السيد هنري لينوكس". كان هو الشخص الذي خطر على بالها قبل لحظة من الآن، وتذكرت سؤاله عن الطريقة التي تمضي فيها وقتها في المنزل. كان حضوره أشبه بالمثل القائل: "اذكر غائباً تَرَه". انعكس وهج الشمس على وجه مارغريت وهي تضع لوح الرسم جانباً وذهبت لمصافحته. "سارة، اذهبي واخبري أمي"، "أنا ووالدتي لدينا الكثير من الأسئلة عن إيديث، أنا ممتنة لقدومك لزيارتنا".

"ألم أقل لك بأنني سآتي لزيارتك؟" بادرها بالسؤال بنبرةٍ منخفضة على غير العادة.

"لكني سمعت بأنك كنت في الجبال الإسكوتلندية ولم يخطر على بالي أن هامبشاير[10] ستكون على اللائحة".

"آه" قال بمرح"، "كان العريسان يُدبِّرون المقالب السخيفة، ويقومان بالعديد من الأعمال الخطرة، تسلق الجبال، وركوب القارب في البحيرة مما جعلني أشعر بحاجتهما إلى مرشد ومستشار لرعايتهما. وهذا ما جرى. كانا خارج سيطرة عمي إلى حد جعلاه يشعر بالرعب على مدى ست عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين. لذلك عندما اكتشفت أنه لا يمكن أن يُتركا لوحدهما أبداً، قررت أنه من واجبي ألا أغادر حتى أراهما يغادران بأمان إلى بليمِثْ".

"هل ذهبت إلى بليمِثْ؟ إيديث لم تذكر شيئا عن هذه الرحلة، لا بد أنها كتبت رسالتها على عجل. هل غادرا فعلا يوم الثلاثاء؟".

---

(10) مقاطعة تقع جنوب شرق إنكلترا على ساحل القنال الإنكليزي. (م)

"نعـم وأراحـاني مـن مسـؤولياتي. أعطتنـي جميـع أنـواع الرسـائل لـك. لـدي قصاصـة منهـا، أيـن وضعتهـا يـا تـرى؟ آه، هـا هـي".

"شـكراً جزيـلاً" قالـت مارغريـت وهـي ترغـب في أن تقـرأ الرسـالة لوحدهـا مـن دون رقيـب، فتذرعـت بأنهـا سـتذهب لإبـلاغ أمهـا بوصـول السـيد لينوكـس (إذ لا بـد أن سـارة ارتكبـت خطـأً مـا).

مـا إن غـادرت مارغريـت الغرفـة، حتـى بـدأ يتفحـص المـكان حولـه. كانـت غرفـة الضيـوف في أفضـل حلـة لهـا وأشـعة شـمس الصبـح تغمرهـا. كانـت النافـذة الوسـطى مفتوحـةً عـلى مصراعيهـا حيـث انتصبـت عنـد الزاويـة الـورود وعرائـش زهـر العسـل وكأنهـا تتلصـص عـلى الداخـل. بـدا المـرج الصغـير خلابـاً وهـو يـزدان بزهـور رعـي الحـمام[11] ونباتـات إبـرة الراعـي[12] العطريـة بألوانهـا الزاهيـة. هـذا الضـوء السـاطع في الخـارج جعـل الألـوان داخـل الغرفـة تبـدو باهتـة. كانـت السـجادة قديمـة، وبـدا قـماش السـتائر القطنـي فاتـح اللـون بسـبب غسـله أكـثر مـن مـرة. بـدت الشـقة بأكملهـا صغـيرة ومهترئـة أكـثر مـما كان يتوقعـه. أمسـك واحـداً مـن الكتـب الملقـاة عـلى الطاولـة. كان كتـاب "الفـردوس"[13] لدانتـي، وإلى جانبـه قامـوس وورقـة كُتبـت عليهـا كلـمات بخـط مارغريـت. أحـب النظـر إلى الورقـة قبـل أن يضعهـا عـلى الطاولـة وهـو يطلـق تنهيـدة حـسرة.

"مـن الواضـح أن معيشـتهم عـلى قـد الحـال كـما قالـت. وهـذا أمـر مسـتغرب بالنسـبة إلى آل بيريسـفِرد الذيـن ينحـدرون مـن عائلـة معروفـة".

في هـذه الأثنـاء، عـثرت مارغريـت عـلى والدتهـا التـي كانـت تواجـه واحـداً مـن أكـثر أيامهـا اضطرابـاً حيـث كان كل شيء صعبـاً وقاسـياً، وجـاءت زيـارة السـيد لينوكـس لتزيـد الأمـور سـوءاً، رغـم أن السـيدة هيـل كانـت تشـعر بالإطـراء لأنـه فكَّـر بزيارتهـم.

---

(11) رغيُ الحَمَامِ أو رِجْلُ الحَمَامِ أو سَاقُ الحَمَامِ. يسمى في تونس ترنجية، وفي الجزائر والمغرب لويزة. (م)

(12) تُعرف أيضاً باسم عشبة الغرنوق وعشبة المسك. (م)

(13) الجزء الثالث والأخير من "الكوميديا الإلهية". (م)

"لسوء الحظ أننا سنتناول العشاء باكراً اليوم، وليس عندنا شيءٌ نقدمه سوى اللحوم الباردة[14] لأن الخدم سيكونون مشغولين بالكوي. وبالطبع علينا أن نستبقيه على العشاء، إنه شقيق زوج إيديث. ووالدك لا يبدو في مزاج طيب اليوم منذ الصباح بسبب أمرٍ ما لا أدري ما هو. دخلت إلى مكتبه الآن، كان وجهه منكباً على الطاولة وقد غطى رأسه بيديه. قلت له أن هواء هِلْستِن لم يعد مناسباً لي وله أيضاً. فرفع رأسه فجأة وتوسلني ألا أقول شيئاً عن هِلْستِن. لم يتحمل كلامي. إن كان هناك مكان في الأرض يحبه والدك، فهو هِلْستِن. أنا واثقة أن الهواء الرطب الذي يبعث على الخمول هو السبب في كل هذا".

شعرت مارغريت أن سحابة باردة وقفت بينها وبين الشمس. أنصتت بكل صبر عساها تكون عوناً لوالدتها في التنفيس عن نفسها، لكن الوقت كان قد حان للعودة إلى السيد لينوكس.

"والدي معجب بالسيد لينوكس، وقد تعارفا بشكل طيب على مائدة فطور العرس. وأنا واثقة أنه سيسعد بزيارته. ولا تكترثي لأمر العشاء يا والدتي العزيزة. فاللحوم الباردة ستكون مناسبة للغداء الذي سيعدُّه السيد لينوكس عشاءً في الساعة الثانية بعد الظهر".

"لكن ماذا علينا أن نفعل حتى ذلك الحين؟ إنها لا تزال الساعة السابعة والنصف".

"سأطلب منه مرافقتي إلى الخارج من أجل الرسم. أنا أعلم بأنه يحب الرسم. وهكذا سأبعده عن طريقك. لكن عليك الآن أن تذهبي وتسلّمي عليه، قد يستغرب الأمر إن لم تفعلي ذلك".

خلعت السيدة هيل مريولها الحريري الأسود. وبدت امرأة في غاية الجمال وهي تُحيي السيد لينوكس بحرارة بما أنه واحد من أقرباء العائلة. من المؤكد بأنه كان يتوقع أن يطلبوا منه البقاء، فقبل الدعوة بسرورٍ بالغ جعل السيدة

(14) لحم مطبوخ (دجاج، ضأن، عجل) يُقطع إلى شرائح ويُقدم بارداً على طبق أو في شطائر، مثل السجق أو المرتديلا. (م).

هيل تتمنى لو تستطيع أن تضيف شيئا آخرَ إلى اللحوم الباردة. شعر بالسعادة تغمره، وأعرب عن فرحته بفكرة مارغريت بالخروج معاً إلى الهواء الطلق وممارسة هواية الرسم، ما دام السيد هيل يبدو مشغولاً الآن، على أمل اللقاء به على العشاء. أحضرت مارغريت عدة الرسم ليختار منها ما يشاء، وانطلقا معاً بفرح بعد أن انتقيا ما يريدان من الأوراق والفراشي.

"من فضلك، توقف هنا لدقيقة أو دقيقتين"، قالت مارغريت، "هذان هما الكوخان اللذان لم يبرحا مخيلتي خلال الأسبوعين الماطريْن وكأنهما يوبخاني لأنني لم أرسمهما".

"على الأقل قبل أن ينهارا ويختفيا عن الوجود. بالفعل، إن كان لابد من رسمهما، وهما رائعا الجمال، فعلينا أن لا نؤجل ذلك إلى العام القادم. لكن أين سنجلس؟".

"تبدو وكأنك جئت لتوك من مكتب المحاماة لا من المرتفعات الإسكوتلندية! انظر إلى هذا الجذع الجميل لشجرة تركها الحطابون في المكان المناسب تحت الضوء. سأضع وشاحي عليها لتصبح عرشاً للغابة".

"وضعي قدميك في بركة الوحل تلك التي ستكون بمثابة مسند ملكي! ابقي مكانك، أنا سأتحرك، ثم يمكنك أن تقتربي من هذه الجهة. من يسكن هذين الكوخين؟".

" أشخاص متجولون قبل خمسين أو ستين عاماً. أحد هذين الكوخين لا يسكنه أحد، وسيقوم الحطابون بهدمه حالما يتوفى رجل عجوز فقير يسكن حالياً الكوخ الآخر. انظر ها هو ذا الرجل العجوز، سأذهب للتحدث إليه. إنه أصم، ستسمع كل أسرارنا".

وقف الرجل العجوز أمام كوخه حاسر الرأس يتوكأ على عصاه تحت الشمس. انفرجت ملامح وجهه القاسية عن ابتسامة متأنية عندما وصلت مارغريت وبدأت بالتحدث إليه. سارع السيد لينوكس برسم الشخصين وأكمل مشهد المنظر الطبيعي بإشارة إليهما. وعندما حان الوقت للنهوض والتخلص من الماء

وبقايا الورق، تبادلا اللوحتين. ضحكت مارغريت واحمرّت خجلاً، بينما راح لينوكس يتفحص قسمات وجهها ملياً.

" هذا ما أدعوه الغدر بعينه" قالت له. "لم يخطر على بالي أنك كنت ترسمني والعجوز إسحاق عندما طلبت مني أن أسأله عن تاريخ هذين الكوخين".

"كان مشهداً لا يُقاوم. لا يمكنك أن تعلمي كم كان مغرياً. بل بالكاد أجرؤ على أن أخبرك كم سأحب هذا الرسم".

لم يكن واثقاً إن كانت سمعت جملته الأخيرة قبل أن تذهب إلى جدول الماء لتغسل طبق مزج الألوان. عادت وعلى وجهها حمرة الخجل وهي تبدو غافلة بريئة المظهر تماماً. كان سعيداً بذلك لأن الكلام انطلق من لسانه عفوياً، وهو أمر نادراً ما يحدث بالنسبة إلى رجل مثل هنري لينوكس الذي يحسب أفعاله. عندما وصلا إلى المنزل، كان كل شيء يبدو في أحسن حال. فالغيوم التي كانت تعكر جبين والدتها تبددت بفضل تأثير زوج من سمك الشبوط جاء بهما، لحسن الحظ، أحد الجيران. كان السيد هيل قد عاد من جولته الصباحية ويقف منتظراً ضيفه عند بوابة المنزل التي تؤدي إلى الحديقة. بدا سيداً نبيلاً بمعطفه القديم وقبعته التي دأب على ارتدائها منذ فترة طويلة.

كانت مارغريت فخورة بأبيها، ولطالما شعرت بالاعتزاز بمشاهدته وهو يترك انطباعاً حسناً على كل غريب يلتقيه، لكن عينيها اللتين راحتا تتفحصان وجهه سرعان ما وقعتا على أثر قلق غير مألوف تنحّى جانباً لكنه لم يختفِ تماماً.

طلب السيد هيل أن يلقي نظرة على اللوحتين.

"أرى بأنك بالغت في قتامة الألوان، أليس كذلك؟". قال السيد هيل وهو يعيد اللوحة إلى مارغريت، ويمد يده ليأخذ لوحة السيد لينوكس، لكنه لم يُطِل النظر فيها كثيراً.

"كلا يا أبي، لا أظنني فعلت ذلك، بل إن بصل المنزل والسدُم[15] كانا قاتمين بفعل

---

(15) تعرف في العالم العربي بأسماء مختلفة. منها "السُري" و"الوريدية" و"البدينة" إشارة إلى بدانة الأوراق، و"الكُركُب" و"السُدم" إشارة إلى نموه بين الصخور. ينتشر في الريف الانكليزي تحت ما يعرف حرفيا باسم "بصل" أو "براصيا المنزل". (م)

المطر، ألا يبدو لك ذلك؟"، قالت مارغريت وهي تتلصص من فوق كتفيه على الشخصين اللذيْن رسمهما السيد لينوكس في لوحته.

"نعم، وقفتك في الصورة رائعة والمسكين إسحاق وهو يقوِّس ظهره المصاب بالروماتيزم. ما هذا الشيء المعلق على غصن الشجرة؟ ليس عش أحد الطيور بالتأكيد".

"كلا يا أبي، إنها قبعتي. لا أستطيع الرسم وهي على رأسي لأنها تشعرني بالحر. أتمنى لو أستطيع رسم الأشخاص. هناك العديد من الأشخاص هنا أود رسمهم".

"إن رغبت وأحببت فعلا أن ترسمي الأشخاص كما يبدون فعلاً، فستنجحين في ذلك"، قال السيد لينوكس. "لدي إيمان مطلق بقوة الإرادة، وأظن أني نجحت في رسم صورتك". سبقهما السيد هيل إلى المنزل، في حين توقفت مارغريت قليلاً لتقطف بعض الورود لتزين بها فستانها الذي سترتديه على العشاء.

"أيُّ فتاة عادية في لندن كانت ستفهم مغزى كلامي" تمتم السيد لينوكس "وكانت ستفكر في كل كلمة إطراء قالها الشاب لها، لكني لا أصدق مارغريت. توقفي" صاح السيد لينوكس، دعيني أساعدك" وراح يجمع ورود القرمز المخملية التي كانت لا تستطيع الوصول إليها. تقاسم الغنيمة معها فوضع اثنتين في عروة ياقته وأعطاها الباقي، فذهبت إلى المنزل فرحة لتعد زينتها من الورود.

جرى الحديث على مائدة الغداء بكل سلاسة وانسجام. كان هناك الكثير من الأسئلة التي تبادلها الطرفان؛ آخر المعلومات عن تحركات السيدة شو في إيطاليا، والاهتمام بما قيل، والبساطة غير الزائفة للحياة في منزل القس. علاوة على ذلك، وبحضور مارغريت إلى جواره، نسي السيد لينوكس ذلك الشعور المحدود بالخيبة الذي راوده عندما أدرك أن مارغريت لم تقل سوى الحقيقة عندما وصفت معيشة والدها وضيق ذات اليد.

"مارغريت، بُنيتي، لو قطفت لنا بعض الأجاص من أجل التحلية"، قال السيد هيل، بينما كانت زجاجة النبيذ التي سُكب للتو محتواها، تعبيراً عن رفاهية الضيافة، قد وُضعت على الطاولة.

أسرعت السيدة هيل، وكأن التحلية كانت أمراً طارئاً غير مألوف في منزل القس الذي كان يكفيه أن ينظر خلفه ليرى البسكويت والمربى وما شابه موضوعاً بشكل مرتب على منضدة جانبية. بيد أن فكرة الأجاص كانت قد استولت على السيد هيل.

"هناك ثمار من الأجاص البني الحلو على السور الجنوبي التي تضاهي كل الفواكه الأجنبية والكونسروة. هيا يا مارغريت، أسرعي واقطفي لنا بعضاً منها".

"اقترح لو أننا نذهب إلى الحديقة ونأكلها هناك"، قال السيد لينوكس. "لا شيء ألذ من قضم ثمرة هشة طرية سفعتها الشمس بأسنانك، لكن الأسوأ أن تجد الدبابير تجاوزت حدود الوقاحة والجرأة لتنازعك عليها حتى في ذروة التلذذ بأكلها".

نهض السيد لينوكس من مكانه وكأنه يريد أن يلحق بمارغريت التي اختفت عبر النافذة، منتظراً الإذن من السيدة هيل. كانت تفضل السيدة هيل لو أن الغداء سار كما كانت تشتهي بكل المراسم التي كانت تسير بسلاسة حتى تلك اللحظة، لاسيما أنها وديكسِن أخرجتا الكؤوس المعدة للضيوف لغسل أيديهم بعد تناول الطعام، على أمل أن تستكمل قوانين الإتيكيت بالدقة التي تليق بشقيقة أرملة الجنرال شو، لكن لم يكن بمقدورها إلا الاستسلام عندما نهض السيد هيل من على الطاولة لمرافقة ضيفه.

" سآخذ معي سكيناً"، قال السيد هيل "فقد ولت، بالنسبة لي، أيام قضم الفاكهة بالطريقة البدائية التي وصفتها. إذ لا أستطيع أن استمتع بأكلها قبل تقشيرها وتقطيعها".

صنعت مارغريت طبقاً للأجاص من ورق الشمندر بلونها البني الأصفر الرائع. كان السيد لينوكس ينظر إليها أكثر مما ينظر إلى ثمار الأجاص. أما والدها الذي راح يستلذ بجمال وحيوية الساعة التي سرقها من شعوره بالضيق والقلق، فقد اختار بكل عناية أكثر الثمار نضجاً وطراوةً، وجلس في مقعد الحديقة يستمتع بهذه الرفاهية من الراحة.

"يا لها من حياة مثالية التي تعيشينها هنا! لطالما كنت أشعر بشيء من

1138

الاستخفاف بالشعراء عندما يقولون "يا ليت لي كوخ بجانب تلةٍ"[16] وأشياء من هذا القبيل، لكن الآن وللأسف "لم أكن سوى لندني" أشعر الآن وكأن عشرين عاماً من دراسة المحاماة ستُكافئُ بسنة واحدة من هذه الحياة الهادئة الهانئة، هذه السماء!" قال وهو ينظر إلى الأعلى "ومثل هذه الأوراق بلون العنبر والقرمز" وراح يشير إلى أشجار الغابة التي طوقت الحديقة كما لو كانت عشاً.

"من الأفضل أن تتذكر بأن سماءنا ليست على الدوام زرقاء كما هي الآن. فهنا يهطل المطر وتتساقط أوراق الأشجار وتتشبع بالماء، ومع ذلك أظن أن هِلْستِن مكان مثالي مثل أي مكان في العالم. لم أنسَ كيف احتقرت وصفي لهِلْستِن تلك الليلة عندما كنا في شارع هارلي "قرية في حكاية".

"مارغريت! أنا احتقرت! إنها كلمة قاسية".

"قد تكون. كل ما أعرفه أنه كان من المفترض أن أحدثك بما كنت متضايقة منه في ذلك الحين، وأنت، كيف ينبغي لي أن أقولها، تحدثت بعدم احترام عن هِلْستِن على أنها مجرد قريةٍ في حكاية".

"لن أفعل ذلك ثانية" قال بكل ودٍ، ثم انعطفا عند زاوية الممشى.

"أتمنى لو، يا مارغريت..."توقف متردداً في كلامه. كان أمراً غير مألوف من محامٍ طليق اللسان أن يتردد على هذا النحو الذي دفع مارغريت للنظر إليه بحالة من التعجب، لكنها وفي لحظة واحدة، بعد ما لمحت في وجهه ما لا تستطيع أن تفسره، تمنت لو تعود إلى أمها، وأبيها، إلى أي مكانٍ بعيداً عنه. كانت على يقين بأنه على وشك بأن يقول أمراً لا تعرف الرد عليه. داهمها ذلك الكبرياء الطاغي ليهزم شعورها المفاجئ بالضيق الذي تمنت ألا يكون قد لاحظه عليها. بالطبع، كانت قادرة على الرد وبالطريقة المناسبة، كما كان مكروهاً بالنسبة إليها أن تمتنع عن الاستماع إلى أي حديث، وكأنها لا تمتلك القدرة على وضع حد له بكرامتها الأنثوية.

"مارغريت" باغتها قائلاً وأمسك فجأة يدها، ما اضطرها أن تقف ساكنة تنصت

(16) من قصيدة للشاعر صامويل روجرز (1765-1856). (م)

إليـه وهـي تكـره نفسـها عـلى خفقـان قلبهـا طـوال الوقـت. "مارغريـت، تمنيـت لـو أنـك لم تتعلقـي بِهلسـتِن إلى هـذا الحـد، إذ لم يبـدو لي المـكان سـعيداً وهادئـاً هنـا. كنـت آمـل أن تنقـضي هـذه الشـهور الثلاثـة لأجـدك تندمـين وتشـتاقين للنـدن، وأصدقـاء لنـدن، ولـو قليـلاً بمـا يكفـي لأن تسـتمتعي بطريقـة أكـثر لينـاً" (مـن ناحيتهـا، كانـت مارغريـت هادئـة لكنهـا حازمـة وهـي تحـاول أن تسـتخلص يدهـا مـن قبضتـه) "إلى شـخصٍ ليـس لديـه الكثـير ليقدمـه لـك، وبالفعـل لا شيء سـوى وعـود بالمسـتقبل، لكنـه يحبـك يـا مارغريـت، رغـماً عنـه. مارغريـت، هـل فاجأتـك كثـيراً؟ تكلمـي!". كانـت شـفتاها ترتجفـان وكأنهـا عـلى وشـك البـكاء. بذلـت قصـارى جهدهـا كي تبقـى هادئـةً، وأن لا تـرد عليـه حتـى نجحـت في التحكـم بصوتهـا، وعندهـا قالـت لـه:

"فاجأتنـي فعـلاً، لم أكـن أدري أنـك تهتـم بي عـلى هـذا النحـو. لطالمـا عددتـك صديقـاً، وسـأبقى، عـذراً. لا أحـب أن يتحـدث إليَّ أحـد بالطريقـة التـي كنـتَ تتحـدث بهـا معـي. لا أسـتطيع أن أعطيـك رداً كـما تريـدني أن أفعـل، وسأشـعر بالأسـف لـو أني سـببت لـك الإزعـاج".

"مارغريـت" صـاح السـيد لينوكـس وهـو ينظـر إلى عينيهـا اللتـين قابلتـا عينيـه بنظـرة واسـعة صريحـة تعبـيراً عـن ثقتهـا، ورغبتهـا بـألا تسـبب لـه الألم.

"هـل تحبـين أحـداً آخـر" كان عـلى وشـك أن يسـألها، لكـن السـؤال بـدا لـه أشـبه بإهانـة لتلـك السـكينة النقيـة في عينيهـا. "سـامحيني إن تسرعـت في كلامـي. وتلقيـت عقوبتـي، دعينـي احتفـظ ولـو بأمـل. امنحينـي راحـة زائفـة بإخبـاري بأنـك لم تجـدي أحـداً يمكـن أن...". توقـف عـن الـكلام. لم يسـتطع أن ينهـي جملتـه. أنَّبـت مارغريـت نفسـها لمـا سـببته لـه مـن ضيـق وألم.

"لـولا أنـك لم تمـلأ رأسـك بهـذا الخيـال، لـكان مـن دواعـي سروري أن أفكـر بـك كصديـق".

"لكـن يمكـن للأمـل أن يبقـى، أليـس كذلـك، بـأن تفكـري بي محبـاً عاشـقاً. ليـس بعـد، أدرك ذلـك، لا داعـي للاسـتعجال... ربمـا يومـاً مـا...". بقيـت صامتـة لدقيقـة أو

دقيقتين وهي تحاول أن تستكشف الحقيقة كما هي في قلبها، قبل أن ترد على سؤاله، ثم قالت له:

"لم أفكر بك يوما إلا كصديق، وأحب أن أفكر بك كذلك، لكني واثقة بأني لن أراك يوماً إلا كصديق. دعنا ننسى (كل هذا الاختلاف) كادت أن تقول له لكنها توقفت عن الكلام "هذا الحديث كله".

توقف قليلاً قبل أن يجيبها، ثم قال ببرودة نبرته المعتادة:

"بالطبع، ما دامت مشاعرك قد حُسِمت، وكان هذا الحديث بشكل واضح مصدر إزعاج، فمن الأفضل أن يُنسى. هذا أمر رائع نظرياً ـ أن يخطط المرء لنسيان أي شيء مؤلم، لكن سيكون من الصعب، بالنسبة إليَّ على الأقل أن أنفذه".

"أنت منزعج"، قالت بحزن؛ "كيف يمكن أن أساعدك؟"

بدت محزونة فعلاً حالما قالت ذلك، حتى إنه راح يصارع خيبته للحظة، ثم قال لها بنبرة أكثر ارتياحاً لكن لا يزال فيها شيء من الضيق:

"يجب أن تعوّضي ليس عن الاستخفاف بعاشق، يا مارغريت، بل برجل لم يستسلم للرومانسيات بشكل عام، رجل حكيم وناضج، كما يدعوني بعض الناس، جرفته عاطفته عن عاداته المألوفة. حسناً، لن نزيد كلاماً في هذا الموضوع، لكن في المرة التي باح فيها بأعمق وأفضل مشاعر طبيعته، قوبل بالرفض والنكران. سيكون واجباً عليّ أن أعزّي نفسي، وأحتقر حماقتي. محام يفكر جاهداً في الزواج!".

لم تستطع الرد عليه. أزعجها حديثه الذي لامس واستفز جميع نقاط الاختلاف التي طالما نفَّرتها منه، رغم أنه كان من أكثر الرجال دماثة، والأصدقاء تعاطفاً، بل والشخص الوحيد الذي فهمها أفضل من بين الآخرين في شارع هارلي. شعرت بوخز من التأنيب ممزوجاً بالألم لأنها رفضته. زمّت شفتها الجميلة في حركة ازدراء طفيفة. بعد أن جالا في الحديقة، كان أمراً حسناً أن يلتقيا فجأة بالسيد هيل الذي نسيا وجوده. لم يكن قد فرغ بعد من تناول أجاصته التي قشرها بعناية فائقة على شكل رقاقة طويلة لا تزيد سماكتها عن ورقة الفضة،

وراح يستمتع بأكلها بكل تمهل وتأنٍ. كان أشبه بذلك الملك الشرقي في تلك الحكاية الذي وضع رأسه في حوض من الماء بأمر من أحد السحرة، وقبل أن يخرجه في الحال، مر بتجربة حياة بأكملها. صُعقت مارغريت وعجزت عن تمالك نفسها بالقدر الذي يساعدها على المشاركة في الحديث الذي بدأ بين السيد لينوكس ووالدها. بدت متجهمة وليست مستعدة للكلام، متسائلة متى سيغادر السيد لينوكس ليترك لها المجال كي تسترخي في تفكيرها بما جرى من أحداثٍ خلال الربع الأخير من الساعة الماضية. كان السيد لينوكس متردداً في المغادرة بالقدر نفسه الذي كانت تستعجل رحيله. بيد أن بضع دقائق من حديث لا على التعيين كانت تضحية يُدين بها لكبريائه المهزوم، أو احترامه لنفسه. وراح من حين لآخر يختلس النظر إلى وجهها الحزين المثقل بالهموم. "أنا لست شخصاً لا أعني لها شيئاً كما تعتقد"، قال لنفسه، "لن أتخلى عن الأمل".

قبل مضي ربع ساعة من الوقت، راح السيد لينوكس يتحدث بسخرية هادئة عن الحياة في لندن ومثيلتها في الريف، وكأنه كان واعياً بذاته الساخرة المستهزِئة، وخائفاً من سخريته. فوجئ السيد هيل. فقد بدا ضيفه مختلفاً عن ذلك الشخص الذي رآه في فطور العرس، وعن ضيفه على مائدة الغداء اليوم، فقد كان أكثر مرحاً وذكاءً وحكمة ونضوجاً، الأمر الذي كان بالنسبة إلى السيد هيل صورة متنافرة. شعر الثلاثة بالارتياح عندما قال السيد لينوكس بأنه يتعين عليه المغادرة للحاق بقطار الساعة الخامسة. توجهوا نحو المنزل لتوديع السيدة هيل. وفي تلك اللحظة الأخيرة، خرجت الشخصية الحقيقية للسيد لينوكس من قشرتها.

"مارغريت، لا تزدريني، فهناك قلب في صدري رغم كل الهذر في كلامي. ودليلاً على ذلك، أنا واثق بأني أحبك أكثر من أي وقتٍ مضى، إن لم أكن أكرهك، على الاستخفاف الذي عاملتني به عندما كنت تستمعين إلى حديثي خلال نصف الساعة الماضي. وداعاً، يا مارغريت...مارغريت!".

مصاعب وشكوك

رحل السيد لينوكس. أُغلقت أبواب المنزل استعداداً للمساء. اختفت السماء داكنة الزرقة أو الظلال القرمزية والكهرمانية. ذهبت مارغريت إلى غرفتها لترتدي فستاناً لجلسة الشاي المبكرة لتجد ديكسِن في مزاج طيب بفعل الضيف الذي عطّل السير الروتيني للعمل اليومي. وعبَّرت ديكسِن عن ذلك بتجاهلها الفظ لتمشيط شعر مارغريت بحجة استعجالها في الذهاب إلى السيدة هيل. كان على مارغريت أن تنتظر لوقت طويل في غرفة الضيوف إلى أن جاءت والدتها. جلست وحيدة بالقرب من موقد النار، والشموع لا تزال مطفأة على الطاولة خلفها. وراحت تفكر بمجريات اليوم؛ النزهة الممتعة، وجلسة الرسم، والعشاء المبهج، وتلك النزهة البائسة المزعجة في الحديقة.

كم يختلف الرجال عن النساء! شعرت بالتعاسة والضيق، لأن غريزتها جعلت أي شيء آخر، ما خلا الرفض، مستحيلاً، في حين كان هو، وليس بعد أقل من دقائق من تلقيه رفضاً لما يُفترض أن يكون واحداً من أصدق عروض حياته وأكثرها قداسةً، قادراً على الحديث وكأن المذكرات القانونية والنجاح وكل ما يتبعها من عواقب سطحية لمنزل صالح، أو مجتمع ذكي مناسب، كانت مركز اهتماماته الأوحد. كيف يمكن لها أن تحبه لو كان مختلفاً، بذلك الاختلاف الذي شعرت بأنه، عند التفكير فيه، يذوب عميقاً. ثم فكرت ملياً في أن خِفته، بعد هذا كله، لا يمكن أن تكون سوى ستار يخفي شعوره بمرارة الخيبة التي كانت ستطأ قلبها لو كانت هي من أحبت وقوبلت بالرفض.

جاءت والدتها إلى الغرفة قبل أن تهدأ في رأسها دوامة هذه الأفكار. كان على

مارغريت أن تنفض ذكريات كل ما جرى وما قيل ذلك اليوم، وتتحول إلى مستمع يتعاطف مع الطريقة التي اشتكت بها ديكسِن من احتراق بطانية الكوي مجدداً، وكيف وضعت سوزان لايتفوود زهوراً اصطناعية في قبعتها لتعطي بذلك دليلاً على شخصية طائشة عديمة الجدوى. رشف السيد هيل شايه بصمت مشوش، فكان على مارغريت أن تنال النصيب الأكبر من الحديث. تعجبت كيف يمكن لوالديها أن ينسيا من كان برفقتهما طوال اليوم ويتجاهلاه إلى حد عدم ذكر اسمه. كما أنها نسيت أنه تقدم إليهما بعرض ما.

وقف السيد هيل بعد أن أنهى شايه واضعاً مرفقه على رف الموقد وهو يسند رأسه على يده يفكر بأمر ما ويتنهد بعمق بين الحين والآخر. غادرت السيدة هيل الغرفة لتتشاور مع ديكسِن بشأن إعطاء بعض الملابس الشتوية للفقراء. كانت مارغريت تجهز النسيج الصوفي لوالدتها، وهي تطرد من رأسها فكرة مساء طويل، وتتمنى لو يحين موعد النوم كي يتسنى لها أن تراجع أحداث اليوم مرة أخرى.

"مارغريت!" ناداها السيد هيل أخيراً بنبرة مباغتة يائسة جعلتها (تجفل). "هل يتوجب عليك أن تنهي هذا النسيج الآن؟ أقصد ألا يمكنك أن تتركيه وتأتي إلى غرفة المكتب؟ أود التحدث معك بأمر خطير يهمنا جميعاً".

"أمر خطير يهمنا جميعاً". لم تتح الفرصة للسيد لينوكس أن يحادث أباها على انفراد ليخبره برفضها الزواج منه، وإلا لكان الأمر بالفعل خطيراً. شعرت مارغريت أولاً بالذنب والعار لأنها كبرت لتكون امرأة يتم التفكير بها من أجل الزواج، وثانياً، لم تكن تدري إن كان والدها مستاءً من أنها تولت بنفسها رفض السيد لينوكس. لكنها سرعان ما أحست أن الأمر لا علاقة له بأي شيء جرى مؤخراً على نحو مفاجئ وكان سبباً لأيٍّ أفكار معقدة يرغب والدها بالتحدث عنها. طلب منها أن تجلس على كرسي بجانبه، حرك النار في الموقد، ونزع الفتيل المحترق من الشموع، ثم تنهّد مرة أو مرتين قبل أن يقرر ما يريد البوح به، وخرجت منه الكلمات أخيراً مصحوبة برجفة "مارغريت، أنا...سأغادر هِلْستِن".

"تغادر هِلْستِن، يا أبي! لماذا؟"

بقي السيد هيل صامتاً لدقيقة أو دقيقتين من دون أن يجيب على سؤالها، وأخذ يلعب ببعض الأوراق التي كانت أمامه على الطاولة بحركة عصبية مضطربة، وهو يفتح شفتيه للكلام عدة مرات ثم يعاود غلقهما من دون أن يتجرأ على قول كلمة واحدة. لم تستطع مارغريت تحمل منظر التشويق الذي كان أشد إيلاماً على والدها منها.

"لماذا يا أبي العزيز؟ أخبرني!"

نظر إليها فجأة، ثم قال بهدوء بطيء مُجبَر عليه:

"لأنني لن أبقى كاهناً في كنيسة إنكلترا".

لم تتخيل مارغريت أمراً آخر سوى أن بعض الترقيات التي لطالما تمنتها والدتها شملت والدها أخيراً لتجبره على الرحيل عن هِلْستِن الرائعة العزيزة، وربما تضطره إلى الذهاب للعيش في واحد من المساكن الفخمة الملحقة بالحرم الكنسي التي سبق لمارغريت أن رأتها من حين لآخر في كاتدرائية إحدى المدن أو البلدات. كانت أماكن ضخمة جليلة، لكن الذهاب للعيش فيها كان يعني مغادرة هِلْستِن للأبد، وسيكون ذلك أمراً حزيناً مؤلماً. غير أن ما قاله كان أشد وقعاً. ماذا كان يقصد؟ والأسوأ من ذلك كله أنه كان غامضاً. فذلك الضيق المثير للشفقة في قسمات وجهه، وكأنه يتوسل ابنته حكماً رحيماً ولطيفاً، دفعها لإحساس مفاجئ بالغثيان. هل يعقل أن يكون قد تورط في أمر ما على صلة بما فعله فريدريك؟ فريدريك كان طريد القانون. فهل يمكن لوالدها مدفوعاً بحبه لولده أن اشترك بأي...

"ما الأمر يا أبي؟ تكلم، قل لي! لماذا لا يمكنك أن تبقى كاهناً؟ بالطبع إن علم الأسقف بكل ما نعرفه عن الظلم الذي وقع على فريدريك..."

"لا علاقة للأمر بفريدريك، ولا الأسقف، إنه أمرٌ يخصني يا مارغريت. سأخبرك بكل شيء. سأجيب عن أسئلتك هذه المرة فقط، لكن بعد هذه الليلة، دعينا لا نتكلم عن هذا الموضوع ثانية. أستطيع أن أتحمل عواقب شكوكي البائسة المؤلمة، لكن أن أتحدث عن سبب معاناتي أمرٌ يفوق طاقتي".

"شـكوك، يـا أبي! شـكوك في الديـن؟" سـألته مارغريـت مصدومـةً أكـثر مـن أي وقـت مـضى.

"كلا، ليسـت شـكوكاً في الديـن، لا علاقـة للأمـر بالديـن". توقـف عـن الـكلام. أطلقـت مارغيـت شـهقة كأنهـا تقـف عـلى حافـة رعـب جديـد. اسـتأنف كلامـه متحدثـاً بسرعـة وكأنمـا يريـد أن ينهـي واجبـاً فُـرض عليـه.

"لـن تفهمـي الأمـر كلـه، إن أخبرتك...عـن قلقـي طـوال سـنواتٍ خلـت مـن إدراكي إن كنـت أمتلـك الحـق بـأن أمـارس عملي...وجهـودي للحـد مـن شـكوكي المشـتعلة بداخـلي حـول سـلطة الكنيسـة. آه يـا مارغريـت! لـو تعلمـين كـم أحـب كنيسـة إنكلـترا التـي سـتغلق أبوابهـا في وجهـي". لم يسـتطع أن يتابـع حديثـه للحظـةٍ أو لحظتـين. بهتـت مارغريـت ولم تعلـم مـاذا يمكنهـا أن تقـول. بـدا الأمـر لهـا عـلى قـدر كبـير مـن الغمـوض وكأن والدهـا كان عـلى وشـك أن يعتنـق الإسـلام.

"كنـت مشـغولا حتـى هـذا اليـوم بالقـراءة عـن ألفـي كاهـن طُـردوا مـن الكنيسـة"، تابـع السـيد هيـل كلامـه بابتسـامة خافتـة، "أحـاول أن أختلـس بعضـاً من شـجاعتهم، لكـن مـن دون جـدوى، مـن دون فائـدة، لا يمكننـي أن أشـعر بهـا في أعماقـي".

"لكـن هـل فكـرت في الأمـر جيـداً يـا أبي؟ كـم يبـدو ذلـك مرعبـاً وصادمـاً"، قالـت مارغريـت، وفجـأة انفجـرت بالبـكاء. تـراءى لهـا عـماد البيـت، فكرتهـا عـن والدهـا المحبـوب، يهتـز وينهـار. مـا عسـاها تقـول؟ أو تفعـل؟ دفـع منظـر القلـق والإحبـاط اللذيـن ارتسـما عـلى وجههـا السـيد هيـل ليتمالـك أعصابـه في محاولـة منـه لتهدئـة روعهـا. ابتلـع زفراتـه الجافـة الخانقـة التـي كانـت تتجمـع صعـوداً مـن قلبـه، وتوجـه إلى مكتبتـه وتنـاول مجلـداً غالبـاً مـا كان يقـرأ فيـه مؤخـراً، واسـتقى منـه القـوة للخـوض في المسـار الـذي يمـشي فيـه الآن.

"اسـمعي يـا عزيـزتي مارغريـت"، قـال وهـو يضـع ذراعـه حـول خصرهـا. أخـذت يـده بـين يديهـا وقبضـت عليهـا بشـدة، لكنهـا لم تسـتطع أن ترفـع رأسـها، ولا تنتبـه لمـا كان يقـرأه بسـبب الاضطـراب الـذي كان يجيـش بداخلهـا.

"هـذه مناجـاة كتبهـا السـيد أولدفيلـد الـذي كان ذات مـرة كاهنـاً في أبرشـية ريفيـة،

مثلي، قساً في كارنغستِن، في ديربي شاير، قبل مائة وخمسين عاماً أو أكثر. انتهت محاكمته، وقد أبلى فيها بلاء حسناً". قال الجملتين الأخيرتين بصوت منخفض وكأنه يخاطب نفسه، قبل أن يقرأ بصوت عال:

عندما لا تعود قادراً على مواصلة عملك من دون أن تُسيء إلى الله، وتحط من قدر الدين، وتتخلى عن نزاهتك، وتجرح ضميرك، وتفسد طمأنينتك، وتخاطر بحرمانك من الخلاص؛ أي بكلمة واحدة، عندما تكون الظروف التي يجب عليك فيها مواصلة عملك (إن كنت ستفعل) آثمةً، ولا تحللها كلمة الله، يمكنك، بل يتوجب عليك أن تؤمن بأن الله سيحيل صمتك هذا، وترددك، وحرمانك، وتنحيك جانباً، إلى مجد الرب، ورفعة وسمو الكتاب المقدس. إن كان الله قدّر ألا يُسخِّرك لهذا العمل، فسوف يختارك لشيء آخر. فالروح التواقة لخدمة وتمجيد الله لن تُعدم الفرصة لتفعل ذلك، ولا ينبغي عليك أن تظن بأن الرب لن يجد وسيلة لتمجيد نفسه سواك، بل هو قادر على ذاك بصمتك وبكلامك، بتنحيك جانباً أو في استمرارك في عملك. فلا الادعاء بخدمة الرب، ولا القيام بأكثر الواجبات ثقلاً، سيغفران أقل الخطايا إثماً، وإن كانت هذه الخطيئة هي من تمنحنا الفرصة لأداء هذا الواجب. آه يا روحي! لن تنالي سوى القليل من الشكر. إن تظاهرتِ بضرورة الاستمرار في الكهنوت عندما تُتهمين بإفساد عبادة الله، وتدنيس عهودك". وحالما قرأ هذه الجملة ولمح المزيد من لم يقرأه بعد، أحس بقوة العزم والتصميم وشعر كما لو أنه يمتلك الشجاعة لفعل ما يؤمن بأنه الصواب بعينه، لكنه عندما سمع نشيج مارغريت، انهارت شجاعته وتلاشت أمام إحساسه بالمعاناة.

"عزيزتي مارغريت!" ناداها وهو يشدها إليه، "تذكري الشهداء الأوائل[17]، والآلاف من الأشخاص الذي عانوا".

"لكن يا أبي"، قالت وهي ترفع وجهها المحتقن والمبلل بالدموع، "الشهداء الأوائل عانوا من أجل الحق، أما أنت...يا أبي العزيز!".

---

(17) إشارةً إلى الشهداء القديسين الأوائل الذين قضوا لإيمانهم بالمسيح وتمسكهم بتعاليمه. (م)

"أما أنا فقد عانيت من أجل الضمير يا طفلتي" أجابها بتماسك بدا مضطرباً بسبب حساسية شخصيته المفرطة، "عليّ أن أقوم بما يمليه علي الضمير، لقد تحملت طويلاً عناء لوم الذات الذي كان سيوقظ عقلاً أقل نشاطاً وشجاعة من عقلي". هز رأسه وهو يتابع كلامه قائلاً: "إنها أمنية أمك المسكينة التي طالما تمنتها، كما تتحقق في العادة الرغبات التي نولع بها بطريقة ساخرة، تفاحة سدوم كما يقال، هذه الأمنية هي التي تسببت بهذه الأزمة التي ينبغي عليّ وآمل أن أكون شاكراً لها. لم يمض شهر واحد منذ أن منحني الأسقف منصباً جديداً، لو قبلته لكان واجباً أن أعلن صراحةً إيماني بالشعائر في مهمتي الجديدة. لقد حاولت أن أفعل ذلك يا مارغريت، وحاولت أن أقنع نفسي وبكل بساطة برفض الترقية الجديدة، وأن أتوقف بهدوء عند هذا الحد، وبأن أكبت ضميري الآن كما فعلت من قبل. ليسامحني الرب".

راح السيد يزرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتمتم بكلماتٍ من تقريع الذات وإهانتها. حمدت مارغريت الله على أنها لم تسمع سوى القليل منها. وأخيراً قال لها:

"مارغريت، أذكرك بالعبء الثقيل المرير. علينا أن نغادر هِلْستِن".

"أجل، ولكن متى؟"

"كتبت إلى الأسقف رسالة، ربما أخبرتك عنها من قبل، لكن بدأت أنسى الأشياء الآن"، قال السيد هيل وهو ينهار محبطاً حالما بدأ يتحدث عن تفاصيل الحقائق القاسية، "أبلغه فيها نيتي بالاستقالة من منصب كاهن الأبرشية. كان في غاية اللطف معي، واستخدم كل محاولات الإقناع والمجادلة لكنها لم تُجدِ نفعاً. كذلك حاولت مع نفسي، ولكن عبثاً. سأواصل إجراءات الاستقالة، وأمثل أمام الأسقف لأودعه. سيكون ذلك قاسياً، والأقسى منه الافتراق عن رعيتي. هناك خوري تم تعيينه لأداء الصلوات، سيصل غداً للمكوث معنا. ويوم الأحد المقبل، سألقي عظة الوداع".

هل من الضروري أن يكون الرحيل مفاجئاً إذن؟ تساءلت مارغريت بينها وبين

نفسـها؛ أو ربمـا كان بالفعـل كذلـك. فالانتظـار سـيزيد مـن قسـوة الألم، ومـن الأفضـل أن يُصعـق المـرء إلى درجـة الخـدر لـدى سـماعه هـذه الترتيبـات التـي اسـتُكمِلَت عـلى مـا يبـدو قبـل إبلاغهـا بهـا. "ومـا رأي أمـي؟" سـألته مارغريـت مـع تنهيـدة عميقـة.

فوجئـت مارغريـت بوالدهـا يعـاود تجوالـه في الغرفـة مـرة أخـرى قبـل أن يـرد عـلى السـؤال. وأخـيراً، توقـف وقـال لهـا:

"مارغريـت، لسـتُ سـوى رجـل مسـكين جبـان. لا أسـتطيع تَحمُّـل أن أكون سـبباً في ألم الآخريـن. أنـا أدرك تمامـاً إن حيـاة والدتـك الزوجيـة لم تكـن كـما كانـت تأمـل، ومـن حقهـا أن تتوقـع منـي أن أخبرها...سـيكون الأمـر صدمـة كبـيرة لهـا. لكنـي لم أمتلـك الجـرأة لإخبارهـا. لا بـد مـن إخبارهـا بالحقيقـة، الآن". قـال السـيد هيـل كلمتـه وهـو ينظـر بـأسى إلى ابنتـه. صُدمـت مارغريـت بـأن والدتهـا لم تكـن تـدري شـيئاً عـن المسـألة التـي وصلـت إلى خواتيمهـا.

"أجـل، يجـب أن نخبرهـا،" قالـت مارغريـت، "ربمـا لا يكـون الأمـر صادمـاً، لا، لا يمكـن أن يكـون كذلـك، سـتَّصدم بالتأكيـد"، وكأن وقـع الصدمـة ارتـد عليهـا وهـي تحـاول التفكـير كيـف يمكـن لأي شـخص آخـر أن يتلقـى الخـبر. "أيـن سـنذهب؟" قالـت مارغريـت، تعبـيراً عـن صدمـة جديـدة بشـأن الخطـط المسـتقبلية، إن كان لوالدهـا أيُّ خطـة أصـلاً.

"إلى ميلـتِن الشـمالية" أجابهـا بـبرودة مقيتـة، لأنـه كان يـدرك أنـه وعـلى الرغـم مـن محبـة ابنتـه لـه التـي جعلتهـا تتعلـق بـه، وتحـاول مـا في وسـعها لتهدئـة مخاوفـه، إلا أن شـدة الألم كانـت لا تـزال حديثـة العهـد في صميـم أعماقهـا.

"إلى ميلتِن الشمالية؟"

"أجل" أجابها بالطريقة اليائسة الباردة ذاتها.

"ولِمَ هناك؟" سألته.

"لأن هنـاك أسـتطيع أن أكسـب لقمـة العيـش لأسرتي. فأنـا لا أعـرف أحـداً هنـاك، ولا أحـد يعـرف هِلْسـتِن، أو يحدثنـي عنهـا".

"لقمـة العيـش! حسـبت أنـك ووالـدتي قد..."سـكتت مارغريـت في محاولـة للسـيطرة

على اهتمامها الطبيعي بحياتهم المستقبلية، عندما لمحت جبين والدها يتغضن هماً وغماً. لكن والدها، بتعاطفه الفطري، قرأ في وجهها، كما لو كان ينظر في مرآة، انعكاس مزاجه الكئيب، فحاول جاهداً أن يتخلص منه.

"ستعلمين كل شيء يا مارغريت، فقط ساعديني في إبلاغ والدتك. يمكنني أن أقوم بأي شيء ما عدا هذا: فمجرد التفكير بألمها تجعلني أشعر بالخوف والقلق. إن أخبرتك بكل شيء، ربما يمكنك أن تبلغيها بالخبر غداً. سأكون خارج المنزل طوال اليوم لأودع فارمر دوبسِن والناس الفقراء المساكين في قرية بريسي. هل تكرهين إخبارها بالأمر، يا مارغريت؟".

كانت مارغريت تكره أن تقوم بذلك، بل وحاولت تجنبه أكثر من أي شيء آخر في حياتها كانت مضطرة على القيام به. لم تستطع أن ترد على الفور. بادرها والدها بالقول: "تكرهين أن تبلغيها بالأمر، أليس كذلك، يا مارغريت؟". تمالكت مارغريت نفسها، وقالت مع نظرة قوية تعلو وجهها: "إنه أمر مؤلم، لكن لا مفر منه، وسأقوم به على خير ما يرام قدر المستطاع. لا بد أن لديك العديد من الأشياء المؤلمة لتقوم بها".

هز السيد هيل رأسه بحسرة وأسى؛ وشد على يدها تعبيراً عن امتنانه. كانت مارغريت على وشك أن تنفجر بالبكاء مرة أخرى. وفي محاولة منها للتغلب على هواجسها، قالت له: "أخبرني يا أبي، ما هي خططك؟ لديك أنت وأمي بعض المال، بمعزل عن دخلك من عملك، أليس كذلك؟ الخالة شو، كما أعلم".

" أجل، أظن أن لدينا قرابة مائة وسبعين جنيهاً سنوياً. سبعون جنيهاً تذهب إلى فريدريك بما أنه يعيش في الخارج. لا أدري إن كان يحتاج هذا المبلغ كله"، ثم تابع بنبرة مترددة "لا بد أنه يتقاضى راتباً من عمله مع الجيش الإسباني".

"لا يا أبي، يجب ألا يعاني فريدريك،" قالت مارغريت بلهجة حازمة "من أي ضائقة في بلاد الغربة بعد أن عانى من الظلم على يد بلده الأم. وهكذا يبقى لدينا مائة جنيه. ألا يمكن لنا، أنا وأنت وأمي، أن نعيش على مائة جنيه سنويا في مسكن رخيص في مكان ما هادئ في إنكلترا؟ أظن أن هذا ممكن".

"لا، هـذا لـن يفـي بالغـرض"، قـال السـيد هيـل، "يجـب عـليّ أن أعمـل لأشـغل نفسي، وأبعـد عـن رأسي الأفـكار السـوداوية. كـما أن العيـش في أيّ أبرشـية في الريـف سـيذكرني بهِلْسـتِن، وواجبـاتي هنـاك. لا أسـتطيع تحمـل ذلـك، يـا مارغريـت. مائـة جنيـه لـن تكفـي بعـد تأمـين الحاجيـات الضروريـة للمنـزل، وكل مسـتلزمات الراحـة التـي اعتـادت عليهـا والدتـك، ويجـب أن تبقـى. كلا، لا بـد مـن الذهـاب إلى ميلـتِن. هـذا أمـر محسـوم. طالمـا كنـت قـادراً عـلى أن أقـرر عـلى نحـو أفضـل بمفـردي وليـس بتأثـير ممـن أحـب"، قـال وكأنـه يقـدم لابنتـه مـا يشـبه اعتـذاراً عـن اتخـاذه الترتيبـات كافـة مـن دون أن يبلـغ أحـداً مـن أفـراد عائلتـه بنوايـاه. "لا يمكننـي تقبـل أي اعـتراض، فهـذا يصيبنـي بالحـيرة".

التزمـت مارغريـت الصمـت. فـما جـدوى الحديـث عـن المـكان الـذي سـيذهبون إليـه، إن قـورن بهـذا التغيـير المرعـب في حياتهـم؟

تابـع السـيد هيـل حديثـه: "قبـل بضعـة أشـهر، عندمـا بلغـت مأسـاة شـكوكي حـداً لا يمكننـي احتمالـه مـن دون أن أتكلـم، كتبـت إلى السـيد بيـل، ألا تتذكريـن السـيد بيـل يـا مارغريـت؟"

"كلا، لم أره في حيـاتي قـط. لكنـي أعـرف مـن يكـون. إنـه عـرَّاب فريديـرك، وأسـتاذك القديـم في أكسـفورد، أليـس كذلـك؟"

"بـلى، إنـه زميـل في كليـة بليمـوث هنـاك. وهـو مـن ميلـتِن بالأصـل، كـما أظـن. عـلى أي حـال، لديـه عقـار هنـاك ارتفعـت قيمتـه كثـيراً منـذ أن أصبحـت ميلـتِن بلـدة صناعيـة كبـيرة. لـدي سـبب لأشـك، أو أتخيـل، لكـن أفضـل ألا أتحـدث عنـه. لكـن لـدي ثقـة بـأن السـيد بيـل يتعاطـف معـي، ولا أدري إن كان هـو مـن منحنـي الكثـير مـن القـوة. لقـد عـاش حيـاة هادئـة في الكليـة طـوال هـذه الأيـام. لكنـه كان لطيفـاً معـي، ونحـن ندين لـه بالفضـل في الذهـاب إلى ميلـتِن".

"كيـف؟"

"لديـه عقـارات ومسـتأجرون، ومنـازل، وبيـوت، ومصانـع هنـاك، رغـم أنـه لا يحـب المـكان، فهـو مزدحـم عـلى نحـو لا يتفـق مـع عاداتـه، لكنـه مضطـر أن يحافظ عـلى نوع مـن الصلـة، وأخـبرني أنـه سـمع بوجـود فرصـة جيـدة لي لأعمـل كمـدرس خـاص هنـاك".

"مـدرس خـاص!" قالـت مارغريـت بـازدراء "بحـق اللـه مـا الـذي يجعـل أصحـاب المصانـع مهتمـين بـالأدب، أو الفلسـفة أو إنجـازات السـادة النبـلاء؟"

"بعضهـم بالفعـل أشـخاص رائعـون، يدركـون عيوبهـم أكـثر مـما يفعـل أحـد مـا في أكسـفورد، ويريـدون أن يتعلمـوا عـلى الرغـم مـن بلوغهـم سـن الرجولـة. وبعضهـم يريـدون لأبنائهـم أن يتلقـوا تعليـماً أفضـل منهـم. عـلى أي حـال، هنـاك فرصـة، كـما قلـت، لأكـون مدرسـاً خاصـاً. فقـد زكاني السـيد بيـل للسـيد ثورنـتِن، أحـد المسـتأجرين لديـه، ورجـل ذكي بحسـب مـا قُـدِّر لي أن أحكـم مـن رسـائله. وفي ميلـتِن، يـا مارغريـت، سأنشـغل في حيـاتي، وإن لـن تكـون سـعيدة، وسـتكون المناظـر والناس هنـاك مختلفين إلى حـد لـن يذكـروني بِهِلْسـتِن".

إذاً كان هنـاك دافـع سري، كـما أحسـت مارغريـت مـن أعماقهـا. سـيكون المـكان مختلفـاً. وعـلى الرغـم مـن اختلافـه، مـع كراهيتهـا لـكل مـا سـمعته عـن أصحـاب المصانـع، والنـاس، والبلـدة الكئيبـة الموحشـة، هنـاك توصيـة، سـيكون الأمـر مختلفـاً عـن هِلْسـتِن، وربمـا لـن يذكرهـم المـكان الجديـد بقريتهـم المحبوبـة.

"متى نرحل" سألته مارغريت، بعد صمت قصير.

"لا أعلـم بالضبـط، كنـت أود التحـدث معـك عـن هـذا الموضـوع، كـما تعلمـين، والدتـك لا تعـرف شـيئاً حتـى الآن، لكـن أظـن خـلال خمسـة عـشر يومـاً. بعـد أن اسـتكمل إجـراءات الاسـتقالة، لـن يحـق لي البقـاء هنـا".

صُعقت مارغريت.

"خلال خمسة عشر يوماً!".

"ليـس تمامـاً باليـوم والسـاعة، لا شيء ثابـت"، قـال السـيد هيـل بـتردد ممـزوج بالقلق، حالمـا لمـح الحـزن يعلـو وجـه ابنتـه، وذلـك التبـدل المفاجئ في لـون بشرتهـا. إلا أنهـا سرعـان مـا تمالكـت نفسـها.

"أجـل يـا أبي، مـن الأفضـل حسـم الأمـور سريعـاً، كـما تقـول. العقـدة الأكـبر هـي أن أمـي لا تعـرف شـيئاً".

"المسـكينة ماريـا! "أجابهـا السـيد هيـل برقـة " آه يـا ماريـا المسـكينة! لـو لم أكـن

متزوجاً، لو كنت وحيداً في هذا العالم، لكان الأمر أكثر سهولة يا مارغريت، لا أقوى على إخبارها!".

"كلا يا أبي" قالت مارغريت بنبرة حزينة، "سأخبرها أنا، أعطني مهلة حتى مساء الغد لأختار الوقت المناسب، آه يا أبي". ثم صاحت بتوسل مشحون بشجن عارم، "قل لي يا أبي، أخبرني بأن هذا مجرد كابوس، حلم مرعب، وليس واقعاً حياً نعيشه في اليقظة! أنت لا تنوي حقاً أن تترك الكنيسة وتتخلى عن هِلْستِن، وأن تبتعد للأبد عني وعن أمي، تحت تأثير وهم، إغراء ما! أنت لا تعني ذلك فعلاً!".

حدق في وجهها، ثم قال لها بصوت أجش هادئ ومتزن: "بلى أعنيه تماماً، يا مارغريت. يجب عليك ألا تخدعي نفسك بصدق كلامي، وثبات نيتي وتصميمي" وواصل النظر إليها بالطريقة الثابتة المتحجرة ذاتها لدقائق بعد أن أنهى حديثه. بادلته النظرات بعينين ضارعتيْن قبل أن تدرك أن الأمر بات منقضياً لا رجعة فيه. نهضت من مكانها، وذهبت نحو الباب من دون أن تقول شيئاً أو تلتفت إليه. وعندما وضعت يدها على مقبض الباب، ناداها. كان يقف بجانب موقد النار مقوس الظهر وقد وضع يديه على رأسه، وقال لها:

"ليباركك الرب يا طفلتي".

"وعسى الله يعيدك إلى كنيسته" أجابته من أعماق قلبها، لكنها سرعان ما شعرت بالخوف من أن يكون ردها على مباركته وقحاً ينم عن قلة احترام، وربما يؤذيه لأنه صدر من ابنته، فألقت ذراعيها حول عنقه. ضمها إليه لدقيقة أو دقيقتين. سمعته يتمتم لنفسه "عانى الشهداء والتوابون ألماً لا يطاق، لن أتراجع".

جفل الاثنان لدى سماعهما السيدة هيل تنادي على ابنتها. ابتعدا عن بعضهما بعضاً. وسارع السيد هيل بالقول: "اذهبي يا مارغريت، اذهبي، سأغيب عن المنزل طوال الغد. ومع حلول الليل، يجب أن تكوني قد أخبرت أمك بالأمر".

"أجل يا أبي" أجابته، وعادت إلى غرفة الضيوف بحالة من الصدمة والغثيان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القرار

أنصتت مارغريت جيداً إلى مخططات والدتها لمدِّ يد العون للفقراء في الأبرشية. لم تستطع أن تمنع نفسها من الاستماع، على الرغم من أن هذه المشاريع كانت مثل الطعنة في قلبها. فعندما يحل الصقيع، ستكون العائلة قد غادرت هِلْستِن. ستسوء حالة الروماتيزم عند العجوز سايمون، كما سيسوء بصره أكثر، لكن لن يكون هناك أحد لزيارته والقراءة له، ويقدم له زبدية من الحساء أو قميصاً داخلياً من الصوف. وإن حدث ذلك فعلاً، فسوف يكون ذلك الشخص غريباً، وسينتظر العجوز قدومها من دون جدوى. سيزحف ابن ماري دومفيل المعاق نحو الباب منتظراً مجيئها إليه عبر الغابة. لن يدرك هؤلاء الأصدقاء الفقراء السبب وراء تخليها عنهم، وهناك آخرون أيضاً. "عادة ما ينفق والدك دخله في الأبرشية، وها أنذا سأتعدى على مستحقاته التالية. لكن الشتاء المقبل سيكون على الأرجح قاسياً، ولا بد من مساعدة الفقراء المسنين".

"دعينا نقوم بكل ما نستطيع فعله يا أمي" قالت مارغريت دون أن تفطن إلى الجانب الاحترازي في هذه المسألة، وفكرت حصراً بأن هذه هي المرة الأخيرة التي سيقدمون فيها مثل هذه المساعدة "فقد لا نطيل البقاء هنا كثيراً".

"هل أنت مريضة يا عزيزتي؟" سألتها السيدة هيل بقلق من دون أن تفهم تلميح مارغريت بشأن احتمال عدم بقائهم في هِلْستِن. "تبدين شاحبة ومتعبة. أنه هذا الهواء الرطب غير الصحي".

"كلا يا أمي، ليس الأمر كذلك، إنه هواء منعش بأكثر الروائح نقاءً، بعد رائحة الدخان في شارع هارلي. لكنني أشعر بالتعب فقد حان موعد النوم".

"هـذا صحيح، إنهـا التاسـعة والنصـف. مـن الأفضـل أن تذهبـي إلى سريـرك حـالاً يـا عزيـزتي. اطلبـي مـن ديكسِـن أن تعـد لـك العصيـدة، وسـآتي للاطمئنـان عليـك حالمـا تخلديـن إلى النـوم. ربمـا أصبـت بالـبرد أو الهـواء الفاسـد مـن المسـتنقعات...".

"لا يـا أمـي"، قالـت مارغريـت وعـلى وجههـا ابتسـامة باهتـة وهـي تُقبِّـل والدتهـا "أنـا بخـير، لا داعـي للقلـق، أنـا متعبـة فحسـب".

صعـدت مارغريـت إلى غرفتهـا. وحرصـاً منهـا عـلى تهدئـة مخـاوف والدتهـا، تناولـت طبقـاً مـن العصيـدة. وعندمـا جـاءت والدتهـا لتطمـئن عليهـا وتقبّلهـا قبـل أن تذهـب إلى غرفتهـا للنـوم، كانـت مارغريـت قـد اسـتلقت مسـترخية في سريرهـا. ومـا إن سـمعت والدتهـا تغلـق بـاب غرفتهـا حتـى قفـزت مـن سريرهـا، وارتـدت فسـتانها وراحـت تـزرع الغرفـة جيئـة وذهابـاً إلى أن نبههـا صـوت طقطقـة ألـواح الخشـب تحـت قدميهـا بالتـزام الهـدوء. كـورت نفسـها في كـرسي قـرب النافـذة الصغـيرة. عندمـا نظـرت صبـاح هـذا اليـوم مـن النافـذة، رقـص قلبهـا لرؤيـة الأضـواء عـلى بـرج الكنيسـة التـي كانـت تبـشر بيـوم مشـمس وجميـل. أمـا مسـاءً، وبعـد مـرور مـا يقـارب سـت عـشرة سـاعة، هـا هـي تجلـس يعتصرهـا حـزن بلـغ مـن القسـوة حـداً يمنعهـا مـن البـكاء، ولكـن مـع ألم بـارد طـاغٍ يبـدو وكأنـه أطفـأ شـباب قلبهـا وبهجتـه للأبـد. زيـارة السـيد لينوكـس، وعـرض الـزواج، كان أشـبه بحلـم إلى جانـب حياتهـا الواقعيـة. أمـا الحقيقـة القاسـية فكانـت أن أباهـا استسـلم لشـكوك مضللـة في عقلـه ليصبـح منبـوذاً، وكل هـذه التغيـيرات حشـدت نفسـها حـول هـذه الحقيقـة الوحيـدة البائسـة.

نظـرت إلى الخطـوط الرماديـة الغامقـة لـبرج الكنيسـة المربـع المنتصـب في مركـز المشـهد، وهـو يقطـع مـا وراءه مـن مسـاحات زرقـاء عميقـة. حدقـت فيهـا مليـاً حتـى شـعرت بقدرتهـا عـلى التحديـق فيهـا للأبـد، وكلـما نظـرت، رأت مسـافة أبعـد ولكـن مـن دون أن تـرى أي أثـر للـه! بـدا الأمـر لهـا في تلـك اللحظـة وكأن الأرض كانـت معزولـة بأكملهـا أكـثر مـما لـو كانـت مطوقـة بقبـة حديديـة ربمـا يوجـد خلفهـا سـلام اللـه ومجـده الـذي لا يـزول: تلـك الأعـماق اللامتناهيـة مـن الفضـاء

بهدوئها الساكن كانت بالنسبة إليها أكثر سخرية من أيِّ حدود مادية تسد المنافذ على صرخات المعذبين من أهل الأرض التي قد تتصاعد الآن صوب تلك الروعة اللامتناهية من ذلك الاتساع لتضيع فيه وتتلاشى قبل أن تصل إلى عرش الرب. وبينما كانت في هذه الحالة، دخل والدها إلى الغرفة من دون أن يصدر صوتاً. كان ضوء القمر كافياً ليرى ابنته في موقف ومكان غير مألوفين. اقترب منها ووضع يده على كتفها قبل أن تفطن إلى وجوده.

"مارغريت، عرفت بأنك لا تزالين صاحية، فلم أستطع منع نفسي من القدوم لأطلب منك أن تشاركيني الصلاة أن نتلو دعاء الرب، وهذا سيكون خيراً لكلينا".

ركع السيد هيل ومارغريت بجانب الكرسي عند النافذة. شخص ببصره إلى الأعلى، وطأطأت رأسها بندمٍ وخنوع. الله كان هناك، قريباً منهما، يسمع كلمات والدها المهموسة. قد يكون والدها مهرطقاً، لكن ألم تكن هي ذاتها قبل خمس دقائق من الآن مع شكوكها اليائسة أكثر تشكيكاً؟ لم تنطق حرفاً واحداً، بل سارعت إلى سريرها حالما غادر والدها الغرفة، وكأنها طفل يشعر بالخزي من فعلته. ليت العالم كان مليئاً بالمشكلات المحيِّرة التي يمكن لها أن تقبل بوجودها، وتطلب أن ترى خطوة واحدة فحسب تحتاجها لهذه الساعة. السيد لينوكس وزيارته، وعرض الزواج، هذه الأحداث التي أُقصيت جانباً بأحداث لاحقة، طاردتها في أحلامها تلك الليلة. كان السيد لينوكس يتسلق شجرة شاهقة الارتفاع ليصل إلى الغصن حيث علقت قبعتها، فإذ به يسقط وهي تحاول جاهدة إنقاذه إلا أن يداً خفية قوية كانت تمنعها. فلقي السيد لينوكس مصرعه. ومع تبدل المشهد، وجدت نفسها في غرفة الضيوف في شارع هارلي مرة أخرى تتحدث معه وقد أصبح عجوزاً مع معرفتها طوال الوقت أنه سبق لها أن رأته يلقى حتفه سقوطاً من على تلك الشجرة.

كانت ليلة بائسة مؤرقة، مقدمة سيئة لليوم التالي. استيقظت متعبة وهي على يقين أن الواقع أسوأ بكثير من أحلامها المحمومة. تذكرت ما جرى، ليس الحزن والأسى فحسب، بل والتنافر المرعب في ذلك الحزن. إلى أي مدى وصل

والدها مُنقاداً وراء شكوكه التي لم تكن بالنسبة إليها سوى مغريات الشيطان؟ كم تمنت لو أنها سألت، لكنها حتى لو فعلت، ما كانت لتسمع ما تريد أن تعرفه تماماً.

كان الصباح المشمس اللطيف سبباً بأن تشعر والدتها بالسعادة على مائدة الفطور. تحدثت عن خططها للقرية دون أن تلتفت لصمت زوجها وإجابات مارغريت المقتضبة. وقبل أن تُرفع الأطباق عن المائدة، نهض السيد هيل واضعاً يده على الطاولة وكأنه يسند نفسه:

"لن أعود إلى المنزل حتى المساء. سأذهب إلى قرية بريسي، وسأطلب من فارمر دوبسون أن يعطيني شيئاً للعشاء. سأعود على موعد الشاي عند السابعة".

لم ينظر إلى أي منهما، لكن مارغريت فهمت مغزى كلامه. عليها أن تخبر والدتها قبل الساعة السابعة. كان يمكن للسيد هيل أن يجعل الموعد عند السادسة والنصف، غير أن مارغريت كانت من طينة مختلفة. إذ لم تستطع تحمل عبء هذا الأمر طوال اليوم، وفضلت أن تعجِّل بالأسوأ خلاصاً منه لأن اليوم سيكون أقصر من قدرتها على مواساة والدتها. لكن عندما وقفت بجانب النافذة تفكر بالطريقة التي ستبدأ بها، كانت والدتها قد صعدت إلى غرفتها لترتدي ملابسها للذهاب إلى المدرسة. نزلت السيدة هيل بمزاج أكثر فرحاً ونشاطاً من المعتاد.

"أمي، تعالي معي نتجول في الحديقة هذا الصباح، دورة واحدة فقط" قالت مارغريت وهي تحيط خصر والدتها بذراعها.

عبرا النافذة المفتوحة. قالت السيدة هيل شيئاً لم تفهمه مارغريت التي لمحت نحلة تدخل في جوف وردة كبيرة. فقالت لنفسها: سأبدأ بالحديث عندما تخرج النحلة بغنيمتها من الرحيق. هذه هي الإشارة. خرجت النحلة.

"ماما! أبي سيغادر هِلْستِن" ألقت بعبارتها سريعاً. "سيترك الكنيسة ويعيش في ميلتِن الشمالية". نطقت مارغريت بالحقائق الثلاث التي يصعب قولها.

"ما الذي يجعلك تقولين هذا؟" سألت السيدة هيل بصوت مُشكِّك. "من أخبرك هذه الترّهات؟"

"أبي"، قالت مارغريت وهي تتوق لأن تقول شيئاً مواسياً ولطيفاً، لكنها لم تدرِ كيف. كانتا قريبتيْن من مقعد الحديقة. جلست السيدة هيل وبدأت تجهش بالبكاء.

"لا أفهمك" قالت لها. "إما أن تكوني قد ارتكبت خطأً جسيماً، وإما أنا لا أفهمك تماماً".

"كلا يا أمي، لم ارتكب أي خطأ. كتب والدي إلى الأسقف بأن لديه شكوكاً تمنعه من البقاء في منصبه كاهناً في كنيسة إنكلترا، وأنه يتعين عليه أن يغادر هِلْستِن. كما أنه استشار السيد بيل، عرّاب فريدريك، أنت تعرفينه، وهو من أجرى الترتيبات للإقامة في ميلتِن".

ظلت السيدة هيل تحدق في وجه مارغريت وهي تنطق بهذه الكلمات، وبدا من ملامح وجهها أنها على الأقل باتت مقتنعة بصدق كلام ابنتها.

"لا أظن أن هذا صحيح"، قالت السيدة هيل أخيراً. "لو وصل الأمر به إلى هذا الحد، لكان أخبرني بالتأكيد".

راود مارغريت إحساسٌ قوي بأنه كان من الواجب إخبار والدتها، فأياً كانت عيوبها من التذمر والشكوى، كان خطأ والدها أن يتركها جاهلة بتغير مواقفه، وأن تعلم بالتغير الوشيك في حياته من ابنتها التي كانت على علم بالأمر أكثر منها. جلست مارغريت إلى جانب والدتها، وأخذت برأسها الذي استسلم لها وضمته إلى صدرها، وألقت خديها الناعمين ليداعبا وجهها.

"يا أمي الحبيبة! كنا نخشى أن نسبب لك الألم. هذا ما شعر به أبي، فأنت، كما تعلمين، لست قوية، وكان الأمر ينطوي على ترقب مرعب".

"متى أخبرك يا مارغريت؟"

"البارحة، فقط البارحة"، أجابت مارغريت وهي تستشعر الغيرة التي دفعت والدتها لتسأل هذا السؤال." أبي المسكين"، قالت مارغريت في محاولة منها أن تحول أفكار أمها إلى تعاطف مع ما عاناه والدها. رفعت السيدة هيل رأسها.

"ما الذي يعنيه بأن لديه شكوكاً" سألتها. "حكماً لا يعني أنه يفكر على نحو مختلف، وأنه يعلم أفضل من الكنيسة".

هزت مارغريت رأسها بالنفي، وانسابت الدموع من عينيها عندما لمست والدتها الوتر الحساس.

"ألا يستطيع الأسقف أن يعيده إلى جادة الصواب" تساءلت السيدة هيل وكأن صبرها بدأ ينفد.

"للأسف لا"، قالت مارغريت. "لكني لم أسأل، قد لا أستطيع تحمل جوابه. لقد انتهى الأمر. سيغادر أبي هِلْستِن في غضون خمسة عشر يوماً. لست متأكدة إن كان لم يخبرني بأنه أرسل فيما يتعلق باستكمال إجراءات الاستقالة".

"خمسة عشر يوماً!" صاحت السيدة هيل بتعجب. "لا أظن أن هذا يبدو غريباً جداً، ولا مناسباً، بل أسميه قسوة ولا مبالاة"، قالت، وبدأت تجد راحتها في البكاء. "لديه شكوك، كما تقولين، ويتخلى عن عمله، ومن دون أن يستشيرني. لو أخبرني بتلك الشكوك منذ البداية، لوأدتها في المهد".

وبقدر ما شعرت بخطأ والدها، لم تستطع مارغريت تحمل أن تسمع والدتها تلومه على هذا النحو، رغم معرفتها أن هذه القسوة في كلامها لم تأت إلا من رقتها وطيبتها التي لا تخلو من الخوف، لكنها قطعاً تخلو من اللامبالاة بمشاعر الآخرين.

"كنت آمل إلى حد ما بأنك ستكونين سعيدة بمغادرة هِلْستِن، يا أمي"، قالت مارغريت، بعد صمت قصير. "لم يناسب الهواء صحتك، كما تعلمين".

"وهل تظنين أن الهواء المشبع بالدخان في بلدة المصانع، والمداخن والتراب في ميلتِن سيكونون أفضل حالاً من هذا الهواء النقي الجميل ولو كان يبعث على الاسترخاء. تخيلي العيش وسط المصانع، أهل المصانع! مع العلم لو ترك أبوك الكنيسة فلن يُسمح لنا بالاختلاط مع الناس. يا لهذا العار الذي سيلحق بنا. واحسرتاه عليك ياعزيزي السير جون! حمداً لله أنه ليس على قيد الحياة ليرى إلى أي درك أسفل وصل والدك! أذكر عندما كنت طفلة أعيش مع خالتك شو

في منـزل آل بيريسـفِرد، كان السـير جـون كل يـوم بعـد العشـاء يـشرب النخـب الأول: "الكنيسـة والملـك وليسـقط الباقـون".

شـعرت مارغريـت بالارتيـاح لأن والدتهـا ابتعـدت في أفكارهـا عـن مسـألة عـدم قيـام أبيهـا بإخبـار زوجتـه حـول النقطـة التـي لا بـد أنهـا كانـت الأهـم بالنسـبة إليـه. وإلى جانـب قلقهـا الجـدي مـن طبيعـة شـكوك والدهـا الدينيـة، كانـت هـذه واحـدة مـن القضايـا التـي سـببت لمارغريـت القـدر الأكـبر مـن الألم.

"تعلمـين جيـداً يـا أمـي، أن مجتمعنـا هنـا صغـير. أل غورمـان أقـرب الجـيران لنـا (ومـع ذلـك تقولـين عنهـم بأنهـم مجتمـع، رغـم أننـا بالـكاد نراهـم) هـم أيضـاً يعملـون في التجـارة مثلهـم مثـل أهـل ميلـتِن".

"هـذا صحيـح" قالـت السـيدة هيـل بنـبرة يشـوبها الغضـب، "لكـن آل غورمـان، عـلى أي حـال، يصنعـون العربـات لنصـف الشـخصيات الرفيعـة والهامـة في البـلاد، واختلطـوا بهـم. أمـا هـؤلاء أهـل المصانـع، مـن هـو ذلـك الشـخص الـذي يرتـدي القطـن إن كان قـادراً عـلى شراء الكتـان؟"

"لا أهتـم لحائـكي القطـن ولا أدافـع عنهـم، كـما لا يهمنـي أصحـاب المهـن والتجـارة. فلـن يكـون لنـا شـأن كبـير بهـم".

"بحق السماء، لِمَ اختار والدك ميلتِن للعيش فيها دون سواها؟"

"أولاً"، قالـت مارغريـت وهـي تتنهـد، "لأنهـا تختلـف عـن هِلْسـتِن، وثانيـاً لأن السـيد بيـل قـال إن لديـه مجـالاً مُتاحـاً هنـاك ليعمـل مدرسـاً خاصـاً".

"مـدرس خـاص في ميلـتِن! لِـمَ لا يذهـب إلى أكسـفورد ليكـون مدرسـاً خاصـاً للسـادة والنبـلاء؟"

"هـل نسـيت يـا أمـي. أبي سـيغادر هِلْسـتِن بسـبب آرائـه، وبالتـالي فـإن شـكوكه لـن تكـون لصالحـه إن ذهـب إلى أكسـفورد".

صمتـت السـيدة هيـل قليـلاً وهـي تبـكي بهـدوء. ثـم قالـت: "ومـاذا عـن الأثـاث" كيـف سـنتدبر أمرنـا في نقلـه؟ لم أنقـل أثاثـاً في حيـاتي، وليـس لدينـا سـوى خمسـة عـشر يومـاً للتفكـير بالأمـر!".

شـعرت مارغريـت بالارتيـاح في أعماقهـا عندمـا وجـدت أن انزعـاج أمهـا وغضبهـا تراجعـا إلى هـذا الحـد الـذي لا يرتبـط بهـا شـخصياً مـما يسـاعدها عـلى أن تقـدم لهـا العـون. خططـت ووعـدت، وأرشـدت أمهـا لإعـداد كل مـا يمكـن إعـداده قبـل أن تعلـما المزيـد عـن نوايـا والدهـا. لم تـترك مارغريـت والدتهـا طـوال النهـار، وهـي تحنـو عليهـا وتتعاطـف مـع كل تحـول كان يطـرأ عـلى مشـاعرها، وتحديـداً مـع اقـتراب المسـاء حيـث ازدادت قلقـاً مـن احتـمال ألا يلقـى والدهـا الاسـتقبال المُطمْـئِن في البيـت الـذي كان يترقـب عودتـه بعـد نهارٍ مـن التعـب والهـم. وفكـرت ملياً بمـا عانـاه أباهـا سراً لفـترة طويلـة، وكيـف ردت والدتهـا عـلى ذلـك بالقـول بـبرود إنه كان مـن الواجـب عليـه أن يخبرهـا، وأن يكـون لديـه مـن يستشـير ليقـدم لـه النصيحـة. شـعرت مارغريـت بقلبهـا يسـقط بـين قدميهـا حالمـا سـمعت صـوت خطـوات والدها في الصالـة. لم تقـوَ عـلى الذهـاب لملاقاتـه، وإخبـاره بمـا جـرى معهـا اليـوم خشـية أن تثـير غـيرة أمهـا وغضبهـا. سـمعته يـتردد وكأنـه ينتظرهـا، أو إشـارة منهـا. لم تحـرك سـاكناً، وعرفـت مـن شـفتي أمهـا المرتجفتـين، ومـن تبـدل لونهـا، أنهـا أحسـت بعـودة زوجهـا. وفي الحـال، فتـح السـيد هيـل بـاب الغرفـة، ووقـف محتـاراً في الدخـول. كان وجهـه رماديـاً شـاحباً، وفي عينيـه نظـرة خـوف، شيء عـادة مـا يثـير الشـفقة إن لمحتـه في وجـه رجـل، غـير أن مظهـر القلـق الحائـر والوهـن البـدني والروحـي لامسـا قلـب زوجتـه. هرعـت إليـه وألقـت برأسـها عـلى صـدره، وهـي تـصرخ:

"ريتشارد، ريتشارد، كان يجب عليك أن تخبرني من قبل!".

في هـذه اللحظـة، والدمـوع في عينيهـا، تركـت مارغريـت والدتهـا، وصعـدت إلى غرفتهـا لترمـي عـلى السريـر وتخفـي وجهها تحـت الوسـائد لخنـق صـوت نحيبهـا الهسـتيري الـذي وجـد أخـيراً متنفسـاً للخـروج منـه بعـد كل هـذا القيـد المحكـم طـوال النهـار. لم تعلـم كـم بقيـت عـلى هـذا الحـال. لم تسـمع ضجيجـاً، عـلى الرغـم مـن أن الخادمـة جـاءت لترتيـب الغرفـة، لكـن الفتـاة المذعـورة خرجـت ثانيـة عـلى رؤوس أصابـع قدميهـا، وأسرعـت لتخـبر السـيدة ديكسِـن أن الآنسـة هيـل كانـت تبـكي وكأن قلبهـا سـيتحطم مـن شـدة البـكاء. كانـت عـلى يقـين بأنهـا سـتمرض إن

استمرت على هذا المنوال. بعدها، شعرت مارغريت بيد تلمسها، فاستقامت وجلست في السرير. رأت الغرفة المعتادة، وظل قامة ديكسِن التي كانت تقف وهي تمسك بالشموع إلى الوراء قليلاً خشية أن تؤثر على عيني الآنسة هيل المتورمتين والفزعتين.

"ديكسِن! لم أسمعك وأنت تدخلين الغرفة!" قالت مارغريت، وهي تحاول أن تتمالك نفسها المضطربة. "بات الوقت متأخراً، أليس كذلك؟" تابعت كلامها وهي ترفع جسدها بتثاقل عن السرير، وتضع قدميها على الأرض من دون أن تقف تماماً. أبعدت خصلات شعرها المبلل المنفوش عن وجهها، وهي تحاول أن تبدو وكأن لا شيء حدث البتة سوى أنها كانت نائمة فحسب.

"لا أعرف كم مر من الوقت"، أجابت ديكسِن، بنبرة يملؤها الحزن. "منذ أن أخبرتني والدتك بتلك الأنباء الرهيبة، عندما كنت أساعدها على ارتداء ملابسها لجلسة الشاي، فقدت إحساسي بالزمن. لا أدري ماذا سيحل بنا جميعاً. عندما أخبرتني شارلوت قبل قليل أنك كنت تبكين، يا آنسة هيل، لم استغرب ذلك أيتها المسكينة! فهاهو السيد يفكر في ترك الكنيسة في هذه الفترة من حياته حيث لم يكن عمله سيئاً في الكنيسة، إن لم نقل إنه أبلى بلاء حسناً فيها. لدي ابن عم يا آنسة تحول إلى واعظ في الكنيسة الميثودية[18] وهو في الخمسين من عمره، وهو خياط بالمهنة، لكنه بعد ذلك لم يستطع أن يخيط سروالاً واحداً طوال ما تبقى من حياته؛ ولم يكن هذا مستغرباً. أما بالنسبة إلى سيدي! كما قلت لسيدتي "ما الذي كان سيقوله السير جون؟ لم يكن راضياً عن زواجك من السيد هيل. لكنه لو قُدر له أن يعلم أن الأمور ستصل إلى هذا الحد، لأقسم أغلظ الإيمان، لو أمكن له ذلك!".

اعتادت ديكسِن على التعليق على تصرفات السيد هيل مع سيدتها (التي كانت تنصت، أو لا تنصت، لما تقوله حسب مزاجها). لكن ديكسِن انساقت في

(18) الميثودية أو المنهجية هي طائفة مسيحية بروتستانتية تعترف بقانون إيمان الرسل وتترك لأفرادها حرية الإيمان بكل أو ببعض ما ورد فيه، وتركز بصورة كبيرة على المشاعر الروحية أو التجربة الصوفية التي يعيشها المؤمن عند اهتداءه، وتؤكد على قوة الروح القدس وعلى حاجة الإنسان إلى إقامة علاقة شخصية مباشرة مع الله، وتطالب بالالتزام بالبساطة في العبادة، والحرص على مساعدة المحرومين. (م)

ملاحظاتها هـذه المـرة إلى حـد لم تنتبـه إلى عينـي مارغريـت اللتـين كانتـا تومضـان، وإلى اتسـاع منخريهـا، مندهشـة مـن أن يتـم الحديـث عـن والدهـا بهـذه الطريقـة وعـلى لسـان خادمـة أمامهـا!

"ديكسِـن"، قالـت مارغريـت بنـبرة منخفضـة عـادة مـا تسـتخدمها عندمـا تكـون منفعلـة، مـع صـوتٍ يـشي بهيـاج عميـق، أو بعاصفـة مـن التهديـد تهـب مـن بعيـد. "ديكسِـن! يبـدو أنـك نسـيت مـع مـن تتكلمـين". وقفـت هـذه المـرة منتصبـة القامـة عـلى قدميهـا في تحـدٍ مـع الخادمـة الماثلـة أمامهـا وراحـت تحـدق فيهـا بعينـين فاحصتـين. "أنـا ابنـة السـيد هيـل. اذهبـي! لقـد ارتكبـت خطـأ عجيبـاً أنـا واثقـة مـن أن مشـاعرك الطيبـة سـتجعلك تندمـين عليـه عندمـا تفكريـن فيـه جيـداً".

بقيـت ديكسِـن في الغرفـة حائـرة لدقيقـة أو دقيقتـين. كـررت مارغريـت كلامهـا، "يمكنـك أن تتركينـي يـا ديكسِـن، أريـدك أن تذهبـي". لم تـدرِ ديكسِـن إن كان عليهـا أن تمتعـض مـن هـذه الكلـمات الحازمـة، أم تبـكي، فكلتـا الحالتـين سـتكونان كافيتـين بالنسـبة لسـيدتها. لكنهـا وبينـما كانـت تتمتـم في سرهـا "هنـاك شيء مـن السـيد العجـوز في شـخصية الآنسـة مارغريـت، كـما هـو الحـال مـع المسـكين فريدريـك، عجبـاً مـن أيـن ورثـا هـذه الخصلـة"، وأنهـا كانـت لتشـعر بالاسـتياء مـن هـذه الكلـمات لـو صـدرت مـن أي شـخص أقـل تكـبراً وحزمـاً، اكتفـت ديكسِـن بالسـؤال بنـبرة نصـف مجروحـة ونصـف متواضعـة:

"ألا تريدينني أن أفك لك الرداء وأرتب شعرك؟"

"لا، ليـس الليلـة، شـكراً"، ودفعتهـا بقسـوة خـارج الغرفـة، وأقفلـت البـاب. منـذ تلـك اللحظـة وصاعـداً، أطاعـت ديكسِـن مارغريـت، وأعجبـت بهـا، لأنهـا، بحسـب قولهـا، كانـت تشـبه السـيد فريدريـك، لكـن ديكسِـن، في الحقيقـة، كانـت مثـل آخريـن كثر، تحـب أن يحكمهـا شـخص ذو طبيعـة حازمـة قويـة.

كانــت مارغريــت بحاجــة لمســاعدة ديكسِــن في العمــل وفي صمتهــا عــن الــكلام، لأن هــذه الأخـيرة كانـت تظـن أحيانـاً أنـه مـن واجبهـا أن تُبـدي انزعاجهـا بقليـل مـن الـكلام قـدر الإمـكان مـع سـيدتها الشـابة، كي تخـرج الطاقـة في العمـل لا في

الـكلام. إذ لم تكـن فـترة الخمسـة عـشر يومـاً كافيـة لاسـتكمال الترتيبـات لنقـل الأثـاث، كـما كانـت ديكسِـن تقـول "فـلا أحـد سـوى سـيد نبيـل"، لكنهـا لمحـت جبـين مارغريـت الصـارم، ولتقطـع جملتهـا بالسـعال، وتلتقـط قـرص حلـوى النعنـاع مـن يـد مارغريـت، لتوقـف "تلـك الحكـة في صـدري يـا آنسـة". لا أحـد سـوى سـيد نبيـل مثـل السـيد هيـل مـن يتمتـع بمعرفـة عمليـة ليـدرك أنـه مـن الصعـب جـداً تأمـين منـزل في ميلـتِن، أو في أي مـكان آخـر خـلال هـذه الفـترة القصـيرة لنقـل الأثـاث الـذي لا بـد مـن إخراجـه مـن هِلِسـتِن أولاً. استسـلمت السـيدة هيـل أمـام متاعـب وضرورات اتخـاذ القـرارات المنزليـة التـي تجمعـت دفعـة واحـدة في رأسـها، وأصابهـا المـرض. شـعرت مارغريـت بنـوع مـن الارتيـاح عندمـا راحـت والدتهـا لتسـتريح في سريرهـا تاركـة لابنتهـا أن تتـولى شـؤون المنـزل. التزمـت ديكسِـن بمنصبهـا كحـارس شـخصي للسـيدة هيـل فبقيـت معهـا ولم تخـرج إلا لتهـز رأسـها، وهـي تدمـدم بطريقـة فضلـت مارغريـت ألا تسـمعها. فالأمـر الواضـح والصريـح، بالنسـبة إليهـا الآن، كان ضرورة مغـادرة هِلْسـتِن. إذ تـم تعيـين بديـلٍ لوالدهـا في منصبـه، وفي أي حـال مـن الأحـوال بعـد قـرار والدهـا، لا داعـي لهـذا الانتظـار والتأجيـل، عـلى الأقـل مـن أجـل والدهـا، ولاعتبـارات أخـرى. فكلـما عـاد السـيد هيـل إلى منزلـه، كان يبـدو عليـه التعـب والإحبـاط أكـثر وأكـثر، لاسـيما بعـد جـولات توديـع رعيتـه في الأبرشـية فـرداً فـرداً. أمـا مارغريـت التـي كانـت تنقصهـا الخـبرة في جميـع المسـائل العمليـة في المهمـة التـي كانـت تواجههـا، فلـم تعـرف لمـن تلجـأ طلبـاً للمشـورة. لم تبخـل الطاهيـة ولا شـارلوت في مسـاعدتها بتوضيـب الأثـاث بأيـدٍ مندفعـة وقلـب جسـور بقـدر مـا تطلـب العمـل. واسـتطاعت مارغريـت بحسـها البـارع معرفـة مـا كان أفضـل بالنسـبة لـه، والطريقـة الأمثـل لتوجيـه العمـل. لكـن إلى أيـن سـيذهبون؟ يجـب الرحيـل عـن هِلْسـتِن خـلال أسـبوع. إلى ميلـتِن مبـاشرة، أم إلى مـكان آخـر؟ كان هنـاك الكثـير مـن الترتيبـات التـي تعتمـد عـلى هـذا القـرار الـذي صممـت مارغريـت أن تسـتوضح والدهـا بشـأنه ذات مسـاء، عـلى الرغـم مـن تعبـه الواضـح ومعنوياتـه المحبطـة. فأجابهـا قائـلاً:

"عزيزتي! لـدي مـن الأمـور لأفكـر بهـا مـا يمنعنـي مـن تسـوية هـذه المسـألة. مـا رأي والدتـك؟ مـا رغبتهـا؟ ماريـا المسـكينة".

سـمع السـيد هيـل صـدى أعـلى مـن صـوت زفراتـه. كانـت ديكسِـن قـد دخلـت إلى الغرفـة لتوهـا لتحـضر كأسـاً آخـر مـن الشـاي للسـيدة هيـل عندمـا سـمعت كلماتـه الأخـيرة، فوجـدت في السـيد هيـل مـلاذاً لهـا مـن نظـرات مارغريـت القاسـية، وتجـرأت عـلى القـول: "سـيدتي المسـكينة!"

"لا تقولي إن حالتها أسوأ اليوم" قال لها السيد هيل وهو يلتفت صوبها بسرعة.

"لا أدري، فلسـت أنـا مـن يسـتطيع أن يحكـم، فمرضهـا كـما يبـدو في الـروح لا في الجسـد".

بدا الوجوم والحزن على السـيد هيل.

"مـن الأفضـل أن تأخـذي الشـاي لأمـي قبـل أن يـبرد، يـا ديكسِـن"، قالـت مارغريـت بلهجـة آمـرة.

"اعذريني يا آنسة! بالي مشغول على المسكينة... السيدة هيل".

"أبي!" نادتـه مارغريـت "هـذا القلـق والحـيرة سيضران بصحتكـما معـاً. بالطبـع، لا بـد أن والـدتي منزعجـة مـن تبـدل الآراء لديـك، وهـذا أمـر لا يمكننـا أن نمنـع حدوثـه". ثـم تابعـت بـكل هـدوء" لكـن المسـار بـات واضحـاً أمامنـا الآن، إلى حـد مـا عـلى الأقـل. وأظـن أني قـادرة عـلى الطلـب مـن أمـي أن تسـاعدني في التخطيـط للأمـر، ولكـن عليـك أن تخـبرني مـا هـو الأمـر الـذي سـأخطط لـه. لم تُبـدِ أيَّ رغبـة كانـت، ولا تفكـر في شيءٍ سـوى مـا بـات مفروضـا علينـا. هـل سـنذهب إلى ميلتِن مبـاشرة؟ هـل عـثرت لنـا عـلى مسـكن هنـاك؟"

"كلا" أجابهـا. "أظـن أننـا سـننزل في فنـدق ونضـع الأثـاث في محطـة القطـار إلى حـين العثـور عـلى سـكن".

" هـذا مـا أظنـه أيضـاً. افعـل مـا تـراه مناسـباً، لكـن تذكـر بأنـه لا يجـب علينـا صرف الكثـير مـن المـال".

كانـت تعلـم مارغريـت أنـه لم يكـن لديهـم فائـض مـن المـال. أحسـت وكأن عبئـاً ثقيـلاً

أُلقي على عاتقها. قبل أربعة أشهر مضت، كانت كل القرارات التي كان يجب عليها اتخاذها لا تتعدى الفستان الذي ستختاره للعشاء، وأن تساعد إيديث في تحديد أسماء المدعوين إلى حفلات العشاء في المنزل. كما لم يكن المنزل الذي تعيش فيه يتطلب منها اتخاذ أي قرار، عدا تلك المرة عندما تقدم النقيب لينوكس لخطبة إيديث. كل شيء كان يسير بانتظام كالساعة. مرة كل عام، كان يجري نقاش طويل بين خالتها وإيديث بشأن ذهابهما إلى جزيرة وايت، أو إلى الخارج، أو إلى اسكوتلندا. وحتى في تلك المرات، كانت مارغريت تعود إلى ملاذها الآمن في البيت، من دون أي جهد منها. أما اليوم، ومنذ أن جاء السيد لينوكس وباغتها بطلب قرار منها، بات كل يوم يحمل قضية، مهمة لها ولمن تحب، لا بدَّ من حلها.

بعد أن شرب الشاي، صعد والدها إلى غرفته ليجلس مع زوجته، وبقيت مارغريت لوحدها في غرفة الضيوف. فجأة أخذت شمعة، وذهبت بها إلى مكتب والدها للبحث عن أطلس الخرائط، وعادت به إلى غرفة الضيوف حيث راحت تفتش في خارطة إنكلترا. أشرق وجهها بسعادة غامرة عندما نزل والدها على الدرج.

"وجدت خطة مذهلة. انظر هنا، في داركشاير، في النقطة التي لا تزيد عن عرض إصبعي بالقرب من ميلتِن. هذه بلدة هِستِن التي غالباً ما سمعت عنها من أناسٍ يعيشون في الشمال بأنها مكان جميل للاستجمام. ألا ترى أنه يمكننا أن نوصل أمي مع ديكسِن إلى هناك أولاً ثم نذهب معاً أنا وأنت للبحث عن منزل؟ هكذا سيكون هواء البحر مفيداً لها في الشتاء، ونجنبها التعب والإرهاق، وستكون ديكسِن سعيدة بالعناية بها".

"وهل ستذهب معنا ديكسِن" سألها السيد هيل بقلق يائس.

"أجل يا أبي"، قالت مارغريت، "فهي ترغب بذلك، كما أني لا أدري كيف ستتصرف أمي من دونها".

"لكن علينا أن نتكيف مع طريقة مختلفة من العيش، للأسف. سيكون كل شيء مكلفاً لنا في المدينة. وأشك في أن تشعر ديكسِن بالراحة. وفي الحقيقة يا مارغريت، أشعر أحياناً أن هذه المرأة تحب التباهي".

"هـذا صحيـح، يـا أبي"، أجابـت مارغريـت، "وإذا كانـت سـتحتمل أسـلوباً مختلفـاً مـن الحيـاة، سـيكون لزامـاً علينـا أن نحتمـل تباهيهـا الـذي سـيصبح أسـوأ مـن قبـل. لكنهـا بالفعـل تحبنـا، وستشـعر بالبـؤس إن تركتنـا. أنـا عـلى ثقـة، لاسـيما في هـذا التغيـير، ومـن أجـل والـدتي، ومـن أجـل إخلاصهـا، يجـب أن تذهـب معنـا".

"حسـناً يـا عزيـزتي، لـك الأمـر. كـم تبعـد هسـتِن عـن ميلـتِن؟ عـرض إصبـع لا يعطـي فكـرة واضحـة عـن المسـافة".

"اعتقد أنها لا تزيد عن ثلاثين ميلاً، وهذا ليس بالكثير؟

"ليـس بالمسـافة وإنمـا...لا بـأس، إن كنـت تريـن فعـلاً بأنـه سـيكون في صالـح أمـك، فليكـن كذلـك".

كانــت هــذه خطــوة كبــيرة. بــات بإمــكان مارغريــت الآن أن تعمــل، وتتــصرف، وتخطـط بشـكل جـدي. كـما بـات بمقـدور السـيدة هيـل أن تتخلـص مـن تعبهـا، وتنـسى معاناتهـا الحقيقيـة لتفكـر بالمتعـة والبهجـة في الذهـاب إلى شـاطئ البحـر، لكـن حسرتهـا الوحيـدة كانـت في أن السـيد هيـل لـن يكـون مـع زوجتـه طـوال الأسـبوعين اللذيـن سـتمضيهما هنـاك، كـما جـرى معهـا ذات مـرة مـن قبـل عندمـا كانـا مخطوبـين، وكانـت السـيدة هيـل تقيـم مـع السـير جـون والليـدي بيريسـفِرد في توركي[19].

(19) بلدة ساحلية جنوب غرب بريطانيا. (م)

الوداع

وجاء اليوم الأخير. امتلأ المنزل بصناديق الأمتعة التي نُقلت إلى الباب الأمامي استعداداً لحملها إلى أقرب محطة قطار. حتى المرج الجميل بجانب المنزل بدا فوضوياً قبيح المنظر بعد أن تبعثر فوقه القش الذي تطاير عبر الباب المفتوح والنوافذ. وتردد في الغرف صدى صوت غريب، واقتحمها عبر النوافذ التي نُزعت ستائرها ضوء قاسٍ، فبدت موحشة وقد فقدت ألفتها. وحدها غرفة السيدة هيل بقيت على حالها، حيث انشغلت هي وديكسِن بوضع الملابس في الحقائب، لتقاطع أحدهما الأخرى في كل مرة تقعان على كنز مفقود مما تبقى من أشياء تخص مارغريت وفريدريك عندما كانا طفلين. لم يحرزا تقدماً كبيراً في العمل. في الطابق السفلي، وقفت مارغريت هادئةً مستعدة لتوجيه الرجال الذين جاؤوا لمساعدة الطاهية وشارلوت اللتين راحتا تبكيان بين الحين والآخر، وتتعجبان كيف يمكن للسيدة الشابة أن تتحمل اليوم الأخير على هذا النحو. واستقرت الاثنتان فيما بينهما على أن مارغريت لم تعد تهتم على الأرجح بهِلْستِن بعد أن أمضت وقتاً طويلاً في لندن. كانت تقف هناك شاحبة هادئة تتابع بعينيها الواسعتين كل شيء مهما كان صغيراً حتى آخر لحظة. لم تستطع شارلوت والطاهية أن تدركا أن قلبها كان يئن ألماً طوال الوقت تحت عبء ثقيل لا يمكن للتنهدات أن تزحزحه أو تنفّس عنه، وأن تركيزها الذهني كان سبيلها الوحيد لتمنع نفسها من البكاء ألماً. إضافة إلى ذلك، من سيتكفل بالعمل إن انهارت واستسلمت. فوالدها كان في الكنيسة مع أحد الموظفين يفحصان الأوراق والسجلات والكتب، كما كان عليه حزم كتبه التي لا يمكن لأحد سواه

أن يرتبها كما يريد. وهل كانت مارغريت من النوع الذي ينهار ويستسلم أمام رجال غرباء، أو حتى أصدقاء المنزل مثل شارلوت والطاهية. وأخيراً غادر العمال الأربعة إلى المطبخ لشرب الشاي، وابتعدت مارغريت بصعوبة وبطء من مكانها في الصالة حيث كانت تقف منذ فترة طويلة إلى غرفة الضيوف بصداها الخاوي مع أول شفق مساء يوم من تشرين الثاني/ نوفمبر. كان هناك غلالة من ضباب ناعم يغطي الأشياء من دون أن يحجبها تماماً ليعطيها طيفاً بنفسجياً لأن الشمس لمّا تكن قد غربت بأكملها، في حين وقف طائر أبو الحناء يصدح شادياً، وربما كان ـ كما تخيلت مارغريت ـ الطائر نفسه الذي طالما تحدث عنه والدها على أنه عصفوره الشتوي الأليف الذي صنع له بيديه بيتاً بجانب نافذة مكتبه. كانت الأوراق تشع جمالاً أكثر من أي وقت مضى، لكنها ستنحني أرضاً مع أول لمسة للصقيع، مع أن واحدة أو اثنتين منها بقيتا مسترخيتيْن بلونهما الذهبي والكهرماني تحت أشعة الشمس المائلة.

تمشت مارغريت على طول سورة شجرة الأجاص التي لم تقربها منذ أن كانت إلى جانب هنري لينوكس. هنا عند مسكب شتلات الزعتر، بدأ يتكلم عما لا يجب ألا تفكر فيه الآن. يومها لمحت عيناها تلك الوردة التي تأخرت في تفتحها وهي تحاول أن ترد عليه، وقد راودتها فكرة الجمال الزاهي لأوراق الجزر الخفيفة وسط جملته الأخيرة. لم يمض على ذلك سوى أسبوعين! لقد تغير كل شيء! أين هو الآن؟ في لندن يداوم على روتينه اليومي؛ يتعشى مع عجائز شارع هارلي أو مع أصدقائه الأكثر مرحاً؟ حتى في هذه اللحظة وبينما تمشي حزينة عبر الحديقة الكئيبة الرطبة عند الغسق وكل شيء حولها يتداعى وينهار ويستحيل إلى أنقاض، قد يكون هنري يزيح كتب القانون جانباً بعد يوم عمل مرضٍ، ويفرِّج عن نفسه، كما قال لها، بالتجوال في حدائق قصر العدل يستمع إلى الصخب الهادر المشوش من آلاف الرجال المشغولين، وقد اقترب الليل لكنه لم يظهر بعد، ويلمح في انعطافاته السريعة أضواء المدينة قادمة من أعماق النهر. لطالما أخبر مارغريت عن هذه الجولات المتعجلة التي يسرقها في الفترات

الفاصلة بين الدراسة وموعد العشاء، وتحدث عنها وهو في أفضل حالاته. تملكت هذه الأحاديث مخيلتها. أما هنا والآن، كان الصمت يلف المكان. أبو الحناء طار بعيداً في سكون الليل الفسيح الذي كان يتناقل بين الحين والآخر صوت باب كوخٍ يفتح ويُغلق من مسافة بعيدة ليسمح لكادح هده التعب أن يدلف إلى بيته. تتناهى إلى مسامع مارغريت صوت خشخشة الأوراق اليابسة الساقطة على أرض الغابة ـ خلف الحديقة ـ تنسحق وكأنها على مقربة منها. عرفت مارغريت أنها أصوات أقدام اللصوص. كم مرة سمعت هذه الأصوات في الخريف الفائت وهي تجلس في غرفة نومها والشموع مُطفأة تتأمل الجمال القدسي للسموات والأرض. وكم من مرة رأت القفزات الرشيقة الخرساء للصوص فوق سياج الحديقة وحركتهم السريعة عبر المرج الندي تحت ضوء القمر وهم يختفون في الظلال حالكة السواد. سيطرت حرية حياتهم البرية المغامِرة على خيالها، وشعرت بالرغبة بأن تتمنى لهم السلامة. لم تكن مارغريت تخشى هؤلاء اللصوص، لكن الخوف داهمها هذه الليلة من دون أن تعرف سبباً لذلك. سمعت شارلوت تغلق مصاريع النوافذ وتقفل الأبواب استعداداً لحلول الظلام، إذ لم يخطر على بالها أن أحداً خرج إلى الحديقة. سمعت صوت سقوط غصن ربما كسره أحدهم بالقوة، أو أصابه نخرٌ، على الأرض في الجانب القريب من الغابة. ركضت مارغريت برشاقة وخفة كاميلا[20] إلى النافذة وراحت تطرقها طرقاً عنيفاً أفزع شارلوت.

"دعيني أدخل! دعيني أدخل، هذا أنا، شارلوت!". لم يتوقف قلبها عن الخفقان حتى أصبحت آمنة في غرفة الضيوف وقد أُغلِقت نافذتها، وشعرت بجدرانها المألوفة تحيط بها، وتحتضنها. جلست على أحد صناديق الأمتعة. كئيبة باردة كانت الغرفة العارية حتى من النار والضوء، تتوهج فيها شمعة شارلوت التي

(20) كاميلا هي ابنة الملك ميتابوس وزوجته كاسميلا في ملحمة الإنيادة لفيرجيل. عندما أطيح الملك عن عرشه، طارده الجنود في البراري وهو يحمل كاميلا الرضيعة بين ذراعيه. وفجأة سد النهر طريق الهرب، وخشي على حياة ابنته فربطها برمحه، ونذرها أن تكون خادمة لآلهة الصيد ديانا، ومحاربَتها العذراء، ثم رمى الرمح إلى الضفة الأخرى وعبر النهر سباحةً كي يستعيدها. ما إن بدأت كاميلا أولى خطواتها الثابتة على الأرض حتى تسلحت برمح وقوس وجعبة من السهام تتدلى من على كتفها كصيادة ماهرة تتميز بالرشاقة والسرعة وخفة الحركة. (م)

نظرت مدهوشة إلى مارغريت التي بدورها أحست بنظرتها لكنها لم ترها، ثم نهضت من جلستها.

"كنت أخشى أن تحبسيني خارج المنزل يا شارلوت"، قالت لها وهي ترسم نصف ابتسامة على شفتيها، "عندها ما كنت لتسمعيني أبداً وأنت في المطبخ، وقد أُغلقت الأبواب المؤدية إلى الزقاق وباحة الكنيسة منذ وقت طويل".

"عذراً يا آنسة، كان يجب عليّ أن أتأكد من غيابك. أراد الرجال أن تخبريهم كيف سيتابعون العمل. كما أنني وضعت الشاي في مكتب السيد هيل لأنها الغرفة الوحيدة المريحة والمناسبة للتحدث معهم".

"شكراً يا شارلوت. أنت فتاة لطيفة. سأشعر بالأسف لفراقك. حاولي أن تكتبي لي إن كان باستطاعتي أن أقدم لك أيّ مساعدة أو نصيحة. سأكون دائماً سعيدة بأن تصلني رسالة من هِلْستِن، كما تعلمين. سأرسل لك عنواني عندما أحصل عليه".

كان المكتب معداً لجلسة الشاي، والنار تتوهج في الموقد، والشموع التي لم تُضَأ بعد على الطاولة. جلست مارغريت على البساط لتدفّأ نفسها بعد أن علقت رطوبة المساء في ثوبها، وجعلها الإرهاق تشعر بالبرودة. شبكت يديها حول ركبتيها لتحافظ على توازنها، وأمالت رأسها قليلاً نحو صدرها في مظهر يشي بحالة من اليأس، أياً كانت الأفكار التي كانت تراودها في تلك اللحظة. لكنها عندما سمعت وقع خطوات والدها على الممر في الخارج، أسرعت بفرد شعرها الأسود إلى الخلف، ومسحت بضع دموعٍ لم تدرِ كيف انسابت من عينيها، وذهبت لتفتح الباب له. بدا محبطاً ويائساً أكثر منها حتى أنها عجزت عن دفعه للحديث معها، رغم محاولاتها التحدث معه في موضوعات تثير اهتمامه على حساب جهد كانت تبذله كل مرة وتعتقد أنه سيكون الأخير بالنسبة إليها.

"هل مشيت لمسافات طويلة اليوم؟" سألته مارغريت بعد أن تنبهت إلى رفضه تناول الطعام.

"إلى فوردهام بيتشيز. ذهبت لزيارة الأرملة مولتبي، حزنت كثيراً لأنها لم تستطع

أن تودعـك. وقالـت لي إن الصغـيرة سـوزان لم تتوقـف عـن مراقبـة الطريـق طـوال الأيـام الماضيـة. مارغريـت مـا الأمـر؟" مجـرد التفكـير في صـورة سـوزان تراقـب الطريـق بانتظارهـا الخائـب؛ ليـس بسـبب عـدم رغبتهـا بالذهـاب لرؤيتهـا، وإنمـا عـدم قدرتهـا عـلى مغـادرة المنـزل، كانـت القطـرة التـي أفاضـت الـكأس، فراحـت مارغريـت تنتحـب حتـى كاد قلبهـا ينفطـر. شـعر السـيد هيـل بالضيـق والحـيرة، فنهـض مـن كرسـيه وشرع يجـوب الغرفـة جيئـة وذهابـاً. حاولـت مارغريـت أن تتمالـك نفسـها، لكـن لم تكـن قـادرة عـلى الـكلام حتـى اسـتعادت هدوءهـا. سـمعته يحـدث نفسـه.

"لا أسـتطيع تحمُّـل كل هـذا، أن أرى معانـاة الآخريـن. أعتقـد إنـه بمقـدوري أن أتحمَّـل معانـاتي صابـراً. لا مجـال للتراجـع الآن".

"كلا يـا أبي"، قالـت مارغريـت وهـي تنظـر إليـه مبـاشرة وتتحـدث بثبـات ونـبرة منخفضـة. "مـن الخطـأ الظـن أنـك لسـت عـلى صـواب. ولـكان الأمـر أشـد سـوءاً لـو عرفنـاك مـن قبـل منافقـاً"، وأخفضـت صوتهـا عندمـا نطقـت العبـارة الأخـيرة، وكأن ربـط فكـرة النفـاق مـع والدهـا للحظـة واحـدة يعـبر عـن عـدم الاحـترام.

"إلى جانـب ذلـك"، قالـت مارغريـت "أنـا متعبـة قليـلاً اليـوم، فـلا تظـن أني أعـاني مـما فعلـت، يـا أبي العزيـز. لا يمكننـا أن نتحـدث في هـذا الأمـر الليلـة" قالت لتجـد الدموع والأنـات تخـرج رغـماً عنهـا. "مـن الأفضـل لي أن آخـذ الشـاي لأمـي. تناولـت فنجانـاً مـن قبـل عندمـا كنـت مشـغولة في المنـزل. أحسـب أنهـا سـتُسَرُّ بفنجـانٍ آخـر الآن".

في صبـاح اليـوم التـالي، انتزعتهـم الرحلـة إلى محطـة القطـار مـن هِلْسـتِن الجميلـة العزيـزة. رحلـوا وهـم يشـاهدون آخـر مشـهد لمنـزل القـس الطويـل، نصـف مغطـى بنبـات الكركديـه الصينـي وشـوك النـار، حيـث بـدا أكـثر ألفـة تحـت شـمس الصبـاح التـي كانـت تنعكـس عـلى نوافـذه. وقبـل أن يسـتقروا في العربـة التـي أُرسـلت مـن سـاوثمبتِن لنقلهـم إلى المحطـة، كانـوا قـد غـادروا المـكان مـن دون رجعـة. شـعرت مارغريـت بغصّـة في القلـب جعلتهـا تسـعى جاهـدة لاختـلاس نظـرة أخـيرة لـبرج الكنيسـة عنـد المنعطـف حيـث يمكـن أن تـراه منتصبـاً فـوق تمـوّج أشـجار الغابـة.

لكن أباها لم ينس هذا الخاطر أيضاً، فتراجعت أمام أحقيته بالجلوس بجانب النافذة. فأسندت رأسها على المقعد، وأغلقت عينيها التي انهمرت منها الدموع وتعلقت لامعةً للحظة على أهدابها قبل أن تتدحرج ببطءٍ على خديها، وتتساقط من دون وعي منها على فستانها.

كان لابدَّ من التوقف في لندن طوال الليل في فندق هادئ. بكت السيدة هيل طوال النهار أثناء الرحلة، وأظهرت ديكسِن تعاطفها بشيء من الفظاظة، ومحاولاتها العصبية المتواصلة لمنع تنورتها من المساس بالسيد هيل شارد الذهن الذي كانت ديكسِن تعدُّه سبب معاناتهم.

ساروا في الشوارع المعروفة التي طالما زاروها، ومروا بقرب المحال التجارية التي جالت عليها مارغريت على مضض برفقة خالتها شو بينما كانت تلك السيدة تصدر قراراً لا ينتهي، وتلتقي بعض المعارف في الشارع على الرغم من أن الصباح كان بالنسبة إليهم طويلاً من دون حساب، وشعروا كما لو أنه كان من المفترض أن يكون الصباح قد أصبح أقصر مع هجوع الليل. كانت واحدةً من أكثر فترات العصر ازدحاماً في لندن في تشرين الثاني/ نوفمبر عندما وصلوا إلى هناك. كان قد مضى وقت طويل بالنسبة إلى السَّيدة هيل منذ آخر زيارة لها إلى لندن. نهضت السيدة هيل، مثل طفل، لتنظر إلى الشوارع التي تغيرت، وتتفرج وتسأل متعجبة عن بعض المحال التجارية والعربات.

"هاهو متجر هاريسِن الذي اشتريت منه أشياء كثيرة لجهاز العرس، كم تغير! كان لديهم واجهات زجاجية أكبر من متجر كرووفورد في ساوثمبتِن. وهناك أيضاً، لا، لا ليس هو! بلى يا مارغريت إنه هو، لقد مررنا لتوّنا بالسيد هنري لينوكس، إلى أين هو ذاهب يا ترى وسط كل هذه المحال؟".

نظرت مارغريت إلى الأمام ثم تراجعت، كانوا على بعد مئة ياردة عنه هذه المرة لكنه بدا لها وكأنه واحد من بقايا هِلْستِن التي ارتبط بها ذات صباح مشمس ويوم حافل بالأحداث. كانت ترغب في رؤيته من دون أن يراها، أو أن تسنح الفرصة لتبادل الحديث.

انقضى ذلك المساء مملاً، وثقيلاً، وطويلاً في غرفة في فندق. ذهب السيد هيل إلى بائع الكتب، ولزيارة صديق أو اثنين. بدا لهم كل شخص رأوه سواء في الفندق أو في الشوارع مسرعاً، إما للقاء شخص ينتظرونه أو أحد ما ينتظرهم. هم وحدهم بدوا غرباء منبوذين بلا أصدقاء، على الرغم من أنه وعلى بعد ميل واحد، كانت مارغريت تعرف بيتاً تلو الآخر، كان أحدهم مستعداً للترحيب بمارغريت، وآخر بوالدتها كُرمى للخالة شو، لو أرادوا المجيء بحثاً عن المرح، أو راحة البال. لو جاؤوا بحثاً عن تعاطف ومواساة في ورطة معقدة مثل التي كانوا فيها، لشعروا وكأنهم ظلٌ في هذه البيوت التي يسكنها معارف وليس أصدقاء. الحياة في لندن دوامة متخمة ليست قادرة على قبول ولو ساعة واحدة من ذلك الشعور بالصمت العميق الذي أظهره أصدقاء أيوب عندما "جلسوا معه على الأرض سبعة أيامٍ وسبع ليالٍ من دون أن يتكلم أحدهم بكلمة واحدة معه بعد أن وجدوا أن حزنه كان كبيراً".

وجوهٌ ومناظر جديدة

في اليوم التالي وعلى بعد عشرين ميلاً من ميلتِن الشمالية، دخلوا محطة قطار فرعية توصل المسافرين إلى هِستِن التي لم تكن سوى شارعٍ طويل للتسكع يسير بمحاذاة شاطئ البحر. تنفرد هِستِن بطابعٍ خاص يختلف عن أماكن الاستجمام الصغيرة في جنوب إنكلترا، كما يختلف عن مثيلاتها في القارة. وباستخدام كلمة اسكوتلندية، بدا كل شيء مخصصاً لغاية ما. فعربات الريف كانت مجهزة بمقدار أكبر من الحديد، وبمقدار أقل من الجلد والخشب بالنسبة لمعدات الخيل. حتى الناس في الشوارع، وإن بدوا مسرورين، كانوا مشغولي البال. الألوان بدت أكثر رماديةً، أكثر استمراريةً، لكنها ليست جميلة ولا متألقة. لم تكن هناك تلك الجلابيب أو الأردية الفضفاضة حتى لدى سكان الريف حيث انقرضت عادة ارتدائها لأنها كانت تعيق حركتهم، وربما تَعْلق بالآلات التي يعملون عليها. في مثل هذه البلدات في جنوب إنكلترا، شاهدت مارغريت أصحاب المحلات يتسكعون أمام دكاكينهم في الهواء المنعش إن لم يكن لديهم عمل، يراقبون حركة الناس في الشارع. أما هنا، حتى ولو لم يكن لديهم عملٌ، كان أصحاب المحلات يُشغلون أنفسهم بشيء ما حتى لو كان، كما تخيلت مارغريت، لا يتعدى فك وإعادة لف الشرائط. خطرت على بالها كل هذه المفارقات عندما خرجت ووالدتها في صباح اليوم التالي بحثاً عن مسكن مؤقت.

فاقت كلفة الليلتين اللتين قضتهما الأسرة في الفندق توقعات السيد هيل، لذلك كانوا سعداء بقبول أول مسكن نظيف ومريح صادفوه في طريقهم. ولأول مرة منذ عدة أيام شعرت مارغريت بالراحة التي شابها جو حالم جعلها أكثر روعة

ورفاهية للسكون إليها. كانت أمواج البحر البعيد تلاطم الشاطئ الرملي بإيقاع موزون مصحوبة بأصوات الصبية الذين يسوقون الحمير، والمناظر التي تتحرك أمامها وكأنها صور لم تأبه مارغريت بتفسيرها، وهي مستسلمة لهذا الشعور بالاسترخاء. كذلك كان التنزه على الشاطئ لتنسم هواء البحر، وخط البحر الضبابي يلامس السماء بألوانها اللطيفة، وشراع قارب بعيد يستحيل فضيَّ اللون تحت شعاع الشمس الشاحب، كان كفيلاً بأن تتمنى لو كان بمقدورها أن تتخيل حياتها تتنعم بهذه الرفاهية من السكون والشرود التي جعلتها تتحاشى التفكير بالماضي، أو حتى الرغبة في تأمل المستقبل.

لكن لا مفرٌّ من لقاء المستقبل، مهما كان قاسياً وصلباً. وفي ذات مساء، خطّطت مارغريت ووالدها للخروج في اليوم التالي بحثاً عن مسكنٍ للعائلة في ميلتِن الشمالية. قبل ذلك، تلقى السيد عدة رسائل من السيد بيل، وواحدة أو اثنتين من السيد ثورنتِن، وكان يُفترض به أن يحسم العديد من التفاصيل المناسبة ذات الصلة بوضعه وفرص نجاحه هناك والتي لا يمكن له أن ينجزها من دون لقاء هذا الأخير. كانت مارغريت على دراية بوجوب الرحيل إلى ميلتِن، لكنها نفرت من فكرة العيش في مدينة صناعية، مع قناعتها بأن هواء هِستِن كان مناسباً لوالدتها. لذلك كانت مارغريت ترغب بتأجيل رحلة البحث عن مسكنٍ في ميلتِن.

قبل وصولهما إلى ميلتِن بعدة أميال، شاهدت مارغريت ووالدها سحابة بلون الرصاص تجثم فوق الأفق. كانت أشد قتامة وسواداً من سماء الشتاء الرمادية الكئيبة الباهتة مقارنة مع هِستِن التي بدأت تستقبل أولى تباشير الصقيع في هذه الفترة. وفي موقع أقرب من البلدة، طفت في الهواء رائحة وطعم الدخان، أو ربما ندرة أو غياب كامل لرائحة العشب والنباتات. وسرعان ما دخلت مارغريت ووالدها متاهة الشوارع الطويلة البائسة والمستقيمة لمنازل صغيرة مبنية من الحجارة بجانب بعضها بعضاً على التوالي. وانتصبت هنا وهناك مصانع ذات واجهات زجاجية مستطيلة الشكل وكأنها دجاجة تقف وسط

فراخهـا، تنفـث دخانـاً أسـود، خلافـاً لقوانـين البرلمـان، كان مصـدر تلـك السـحابة الكبـيرة التـي ظنتهـا مارغريـت للوهلـة الأولى إشـارة لاحتـمال هطـول المطـر. أثنـاء سـيرهم في الشـوارع الأوسـع والأكـبر مـن المحطـة إلى الفنـدق، كان عليهـم أن يتوقفـوا باسـتمرار بسـبب تلـك العربـات الكبـيرة المحمّلـة بالبضائـع والتـي كانـت تسـدُّ الشـوارع الفرعيـة الضيقـة. سـبق لمارغريـت أن زارت المدينـة بصحبـة خالتهـا، إلا أن هـذه المركبـات المتثاقلـة بـدت لهـا متعـددة النوايـا والأغـراض. فـكل عربـة صغـيرةً أم كبـيرةً كانـت محملـةً بالقطـن أمـا بمظهـره الخـام، أو في أكيـاس عـلى شـكل بـالات مـن الأقمشـة. تجمهـر النـاس عـلى الأرصفـة يرتـدي معظمهـم ملابـس أنيقـة ذات نوعيـة قـماش جيـد، لكـن عـلى نحـو أقـل ترتيبـاً مـن نظرائهـم في لنـدن.

"هـذا هـو شـارع نيـو!" قـال السـيد هيـل. أعتقـد أنـه الشـارع الرئيـس في ميلـتِن. لطالمـا حدثنـي عنـه السـيد بيـل. جـرى شـق هـذا الشـارع مـن زقـاقٍ إلى الشـارع الرئيـس قبـل ثلاثـين عامـاً، وهـو مـا كان سـبباً في ارتفـاع قيمـة عقـارات السـيد بيـل عـلى نحـو كبـير. لا بـد أن مصنـع السـيد ثورنـتِن ليـس بعيـداً مـن هنـا، فهـو أحـد المسـتأجرين لـدى السـيد بيـل. لكنـي أتصـور أنـه قريـب مـن المخـزن.

"أين يقع الفندق الذي ننزل فيه يا أبي؟"

"بالقـرب مـن نهايـة الشـارع، حسـب مـا أعتقـد. مـا رأيـك أن نتنـاول الغـداء قبـل أو بعـد أن نـرى تلـك البيـوت التـي وضعنـا عليهـا علامـة في جريـدة ميلـتِن تايمـز؟".

"دعنا نُنهِ عملنا أولاً".

"حسـناً. سـأتحقق إن كان هنـاك أي رسـالة لي مـن السـيد ثورنـتِن الـذي قـال إنـه سـيعلمني بـأي شيء يسـمعه عـن تلـك المنـازل، ثـم ننطلـق. سـنبقي العربـة معنـا كيـلا نضيـع، ونتأخـر عـن اللحـاق بالقطـار بعـد الظهـر".

لم يكـن هنـاك أيُّ رسـالة في انتظـاره، فانطلقـا بحثـاً عـن منـزل. ثلاثـون جنيهـا كانـت كل مـا يمكـن دفعـه لإيجـار منـزل، علـماً بأنـه يمكـن لهـم بمبلـغٍ كهـذا الحصـول عـلى منـزلٍ كبـير مـع حديقـة في هامشـاير. أمـا هنـا، حتـى الحصـول عـلى سـكن مؤلـف مـن غرفتـي جلـوس وأربـع غـرف للنـوم بـدا صعـب المنـال. راجعـوا لائحـة

المنـازل، لكـن بعـد أن تفقداهـا، لم تلـقَ قبـول الأب وابنتـه اللذيـن تبـادلا نظـرات الحسرة والخيبة.

"علينـا العـودة إلى المنـزل الثـاني الـذي رأينـاه في كرامبـتِن، أي الضاحيـة كـما يسـمونها، أليـس كذلـك؟ هنـاك ثـلاث غـرف للجلـوس؛ ألا تذكـر كيـف ضحكنـا عـلى هـذا العـدد مقارنـة بثلاث غـرف للنـوم؟ لكنـي خططـت لـكل شيء، الغرفـة السـفلية في الواجهـة سـنجعلها مكتبـاً لـك وغرفـة للطعـام (يـا أبي المسـكين!)، لأننـا كـما تعلـم اتفقنـا عـلى أن تأخـذ أمـي غرفـة الجلـوس الأفضـل، وتلـك الغرفـة في أول الطابـق الثـاني ذات ورق الجـدران الـوردي والأزرق والإفريـز المزخـرف المريـع، لهـا إطلالـة جميلـة عـلى السـهل، ومنعطـف النهـر، أو القنـاة، أيـا كانـت. بإمـكاني أن آخـذ غرفـة النـوم الصغـيرة الخلفيـة عنـد رأس الـدرج وراء غرفـة الضيـوف. أمـا تلـك الحجـرة الصغـيرة في الأعـلى، سـتكون غرفـة رائعـة للملابـس".

"وماذا عن ديكسِن وتلك الفتاة التي وعدنا أن نساعدها؟"

"انتظـر لحظـة، اكتشـفت أننـي لا أحظـى بعبقريـة كبـيرة في الإدارة والتخطيـط. ديكسِـن سـتأخذ غرفـة الجلـوس الخلفيـة. سـتعجبها، إذ لطالمـا كانـت تشـتكي مـن صعـود الـدرج في هِسـتِن. أمـا الفتـاة، فسـوف نعطيهـا السـقيفة المائلـة فـوق غرفتـك أنـت وأمـي. ألـن يحـل هـذا المشـكلة؟".

"بلى، لكن ورق الجدران، يا له من ذوق كريه! والمبالغة في التزيين والزخارف!"

"لا بـأس يـا أبي! يمكنـك أن تقنـع المالـك بتغيـير ورق الجـدران في غرفـة أو غرفتـين، غرفـة الضيـوف، وغرفـة نومـك، لأن والـدتي هـي مـن سـتكون عـلى تمـاس مبـاشر معهـا، كـما أن رفـوف الكتـب سـتغطي جـزءاً كبـيراً مـن الجـدار في غرفـة الطعـام".

"حسـناً، أهـذا مـا ترينـه مناسـباً؟ إذاً مـن الأفضـل أن أذهـب في الحـال للقـاء السـيد دونكِـن كـما ورد في إعـلان الجريـدة. سـأعيدك إلى الفنـدق، يمكنـك أن تطلبـي غـداءك وتنـالي قسـطاً مـن الراحـة، وعندمـا يحـين الوقـت سـأنضم إليـك. آمـل أن أحصـل عـلى ورق جـدران جديـد".

وهـذا مـا تمنتـه أيضـا مارغريـت، رغـم أنهـا لم تقـل شـيئاً، فهـي لم تكـن تحـب

الزخارف عدا تلك التي تتميز بالبساطة والوضوح والتي كانت بنظرها قمة الأناقة والجمال. رافقها والدها إلى مدخل الفندق ثم تركها عند بداية الدرج، ليذهب إلى صاحب البيت الذي وقع عليه الاختيار. وما إن وضعت مارغريت يدها على مقبض باب غرفة الجلوس، حتى جاءها أحد الخدم مسرعاً يقول لها:

"عذراً سيدتي. لقد غادر السيد بسرعة، ولم يكن لدي الوقت الكافي لإخباره. جاء السيد ثورنتِن مرتين بعد أن غادرتما الفندق مباشرة؛ وكما فهمت مما قاله السيد ستعودان في غضون ساعة. أخبرت السيد ثورنتِن بذلك، لكنه عاد ثانية قبل خمس دقائق وقال لي إنه سينتظر السيد هيل، وهو الآن في غرفتك يا سيدتي".

"شكراً لك، سيعود أبي في الحال، ويمكنك إخباره بذلك". فتحت مارغريت الباب ودخلت غرفتها بحضورها الواثق الجريء الرزين كعادتها. لم تشعر بالحرج فقد اعتادت على لقاء الناس ومخالطتهم. فهو شخص جاء لمقابلة أبيها في مسألة عملية، وقدم نفسه على أنه شخص مستعد لتقديم يد العون مما يتطلب منها أن تقابله بالقدر نفسه من اللباقة والاحترام. كانت دهشة السيد ثورنتِن وعدم شعوره بالارتياح أكبر مما شعرت به مارغريت. إذ وبدلاً من دخولِ قسٍّ في منتصف العمر، فوجئ بسيدة شابة تتقدم نحوه بكبرياء جلي، مختلفة عن مثيلاتها ممن اعتاد رؤيتهن. كانت ملابسها بسيطة: قبعة من القش من نوعية جيدة، ومظهر جميل مزينة بشريطة بيضاء، وفستان من الحرير الأسود يخلو من الكشكش والزركشة، وفوقه شالٌ هندي كبير كان معلقاً على كتفيها مع طياتٍ طويلة كانت ترتديه كما ترتدي إمبراطورةٌ ديباجها المطرز. لم يعِ من تكون وهو يرى في ملامحها تلك النظرة الصريحة والجريئة التي أظهرت أن وجوده في الغرفة مسألة لا تعني هذا الوجه الجميل، ولا تستدعي حمرة الخجل على تلك البشرة العاجية. سبق له أن سمع بأن للسيد هيل ابنة، لكنه تخيل أنها لمّا تزل طفلة صغيرة.

"السـيد ثورنـتِن، كـما أظـن!" قالـت مارغريـت بعـد توقـف دام نصـف لحظـة كانـت كلماتـه خلالهـا لا تـزال حبيسـة لسـانه. "تفضـل بالجلـوس. لقـد رافقنـي والـدي إلى مدخـل الفنـدق قبـل أقـل مـن دقيقـة، ولسـوء الحـظ لم يخـبره أحـد بوجـودك هنـا. لقـد ذهـب لقضـاء أمـر مـا، وسـيعود في الحـال. أنـا آسـفة لأنـك تجشـمت عنـاء القـدوم إلى هنـا مرتـين".

عـادة مـا كان السـيد ثورنـتِن يـرى نفسـه في موضـع المبـادر والمسـيطر، لكنهـا بـدت وكأنهـا مارسـت عليـه نوعـاً مـن السـطوة والتأثـير في الحـال. قبـل لحظـة مـن ظهورهـا أمامـه، كان متضايقـاً مـن ضيـاع وقتـه في يـوم السـوق. أمـا الآن، فقـد أخـذ كرسـيه بـكل هـدوء نـزولاً عنـد طلبهـا.

"هل تعلمين إلى أين ذهب السيد هيل؟ فربما أستطيع العثور عليه".

"ذهـب للقـاء السـيد دونكِـن في شـارع كانيـوت. إنـه مالـك المنـزل في كرامبـتِن الـذي يريـد والـدي اسـتئجاره".

كان السـيد ثورنـتِن عـلى معرفـة تامـة بالمنزل، وسـبق لـه أن رأى الإعلان، وتفقـد المنزل بنـاءً عـلى طلـب السـيد بيـل الـذي أوصـاه بمسـاعدة السـيد هيـل قـدر المسـتطاع، وانطلاقـاً مـن اهتمامـه في مسـألة رجـل ديـن تخـلى عـن مصـدر عيشـه في ظـروف كتلـك التـي مـر بهـا السـيد هيـل. في البدايـة ظـن السـيد ثورنـتِن أن المنـزل الكائـن في كرامبـتِن هـو المناسـب، لكنـه الآن وبعـد أن رأى مارغريـت، بطريقتهـا المميـزة في الحركـة والمظهـر، بـدأ يشـعر بالخجـل مـن تخيلـه أن المنـزل ـ رغـم مظهـره الفـج الـذي صعقـه عندمـا رآه ـ سيناسـب آل هيـل.

لم تسـتطع مارغريـت منـع تعابـير وجههـا، لكـن تلـك الشـفة العليـا المتموجـة، والذقـن الضخمـة المقوسـة إلى الأعـلى، والطريقـة التـي كانـت تحـرك بهـا رأسـها بتحـدٍ أنثـوي رقيـق، عـادة مـا كانـت تعطـي الغربـاء انطباعـاً بالتكـبر والعجرفـة. كانـت تشـعر بالتعـب والإرهـاق، وتفضـل البقـاء صامتـة، أو أن تخلـد إلى الراحـة التي اقترحهـا والدهـا. لكـن بالطبـع عليهـا أن تتـصرف كسـيدة، وأن تتحـدث بلباقـة مـن وقـت لآخـر مـع هـذا الغريـب الـذي لا يبـدو، كـما يجـب القـول، فائـق الكياسـة

والجاذبية، ولا يخلو تماماً منها بعد ما صادفه من مواجهات صعبة في شوارع ميلتِن وزحامها. تمنت لو يذهب كما لمَّح هو في كلامه، بدلاً من الجلوس معه والإجابة بجمل مقتضبة عن كلامها. خلعت شالها ووضعته على مسند الكرسي وراء ظهرها. جلست قبالته في مواجهة الضوء، فاتضح جمالها أمام عينيه؛ عنقها المرنة البيضاء تتنصب فوق قوامٍ رشيق، وشفتاها تتحركان بنعومة عندما تتحدث من دون أن تكسر تلك النظرة الباردة الساكنة على وجهها أي تبدل لذلك الانحناء المتكبر الجميل، وعيناها بحزنهما الناعم تلاقيان عينيه ببراءة العذراء. قبل أن يبدأ الحديث معها، كان يقول لنفسه إنها لا تعجبه، وحاول التعويض عن هذا الشعور المكبوت بأنه عندما نظر إليها بإعجاب لم يستطع كبحه، قابلته هي بتجاهل متعجرف كان سبباً بإحساسه بالضيق لأنها رأت فيه، كما كان يظن، شخصاً قاسياً يفتقر للكياسة والتهذيب. فسره السيد ثورنتِن هذا التصرف البارد احتقاراً، وندم في قرارة نفسه إلى حد كاد يدفعه للمغادرة، وأن لا يكون له أي صلة بعد الآن مع آل هيل وتكبرهم.

وعندما استنفدت مارغريت موضوعها الأخير في المحادثة التي بالكاد يمكن تسميتها محادثة لما تضمنته من حوار قصير مختصر، دخل والدها. ومع لباقته في تقديم الاعتذار، استعاد اسمه واسم أسرته بنظر السيد ثورنتِن.

كان لدى السيد هيل وضيفه الكثير للحديث عنه بما يتصل بصديقهما المشترك السيد بيل. أما مارغريت التي كانت سعيدة بانتهاء دورها في استقبال الضيف، فتوجهت إلى النافذة لتتعرف على المظهر الغريب للشارع. وانشغلت بمراقبة ما كان يجري في الخارج حتى إنها لم تسمع ما قاله لها والدها واضطر لإعادته على مسامعها:

"مارغريت! صاحب المنزل متمسك بإعجابه بورق الجدران الكريه، وأخشى أننا مضطرون على تقبله".

"آسفة يا عزيزي!" أجابت وراحت تقلّب في رأسها إمكانية إخفاء جزء منه على الأقل بتعليق بعض رسوماتها، لكنها تراجعت عن الفكرة التي من المرجح

أنها ستزيد الأمور سوءاً. في هذه الأثناء، كان والدها مدفوعاً بكرم الضيافة لدى أهل الريف يحاول إقناع ضيفه بتناول طعام الغداء معهما. لكن السيد ثورنتِن شعر بأن الأمر لن يكون مريحاً إن وافق على الدعوة التي كان سيقبلها لو أن مارغريت ساندت أبيها في دعوته، غير أنه أحس بالسعادة والضيق في آن معاً لأنها لم تفعل. وعندما غادر اكتفت مارغريت بتوديعه بانحناءة جادة، وشعر حينها بالحرج والارتباك في كل جزء منه على نحو لم يشعر به من قبل.

"حسناً يا مارغريت إلى الغداء الآن، بأسرع ما يمكن. هل طلبت شيئاً؟"

"لا، كان هذا الرجل هنا عندما عدت إلى الفندق، ولم تسنح لي الفرصة".

"إذاً لنتناول ما يمكننا الحصول عليه. لا بد أنه كان ينتظرني لفترة طويلة".

"بدت لي طويلة جداً، كنت في الرمق الأخير عندما وصلت. لم ينهِ أي موضوع في حديثه، بل مجرد إجابات قصيرة مختصرة".

"هذا مناسب لطبيعة الحديث حسب ما أعتقد. إنه شخص حاذق. ألم تسمعيه عندما قال إن التربة في كرامبتِن حصوية، وأنها ضاحية تتمتع بهواء صحي أكثر من بقية المناطق الأخرى في جوار ميلتِن".

عندما عادا إلى هِستِن، كان عليهما أن يقدما وصفاً كاملاً بمجريات اليوم للسيدة هيل التي أمطرتهما بسيلٍ من الأسئلة التي أجابا عنها أثناء جلسة الشاي.

"وكيف يبدو هذا المدعو السيد ثورنتِن؟"

"اسألي مارغريت"، قال زوجها. "فقد حاولا الدخول في حوار طويل، عندما كنت أتكلم مع صاحب البيت".

"بالكاد أعرف كيف يبدو"، قالت مارغريت، بنبرة كسولة، تشعر بإرهاق لا يساعدها على استثمار قدراتها في وصفه. اعتدلت في جلستها، وقالت: "طويل، عريض المنكبين، يبلغ من العمر...كم عمره يا أبي؟"

"أظن أنه في الثلاثين".

"ثلاثين عاماً تقريباً، له وجه ليس عادياً، ولا وسيماً، لا شيء مميزاً، ليس نبيلاً تماماً، وهذا ليس مستغرباً".

"ولا هـو سـوقي مـن عامـة النـاس أيضـاً"، تدخـل والدهـا في الحديـث بدافـع الغـيرة مـن التقليـل مـن شـأن الصديـق الوحيـد لـه في ميلـتِن.

"بالطبـع لا!" قالـت مارغريـت. "إذ لا يمكـن لوجـه بتلـك الملامـح التـي تعـبر عـن التصميـم والقـوة، لـو كان عاديـاً، أن يكـون سـوقياً أو مـن عامـة النـاس. لكنـي لا أحـب أن تُفـرض عـلي مساومته، إذ يبـدو لي شـخصاً عنيـداً صعـب المـراس. عـلى أي حـال، هـو في النهايـة رجـل نجـح في تحقيـق مكانـة لـه، يـا أمـي، ذكي وقـوي، ليصبـح تاجـراً كبـيراً".

"لا تقـولي عـن صناعيـي ميلـتِن إنهـم تجـار، يـا مارغريـت"، رد عليهـا والدهـا. "إنهـما مختلفـان تمامـاً".

"حقـاً؟ فأنـا أطلـق هـذه التسـمية عـلى كل مـن لديـه شيء للبيـع. إن كنـت تـرى في تسـميتي خطـأً، فلـن أسـتخدمها يـا أبي. لكـن يـا أمـي! وبمناسـبة الحديـث عـن السـوقية والفظاظـة، اسـتعدّي لـتري ورق الجـدران في غرفـة الضيـوف. ورود زهريـة وزرقـاء، مـع أوراق صفـراء! وزخـارف مبالـغ فيهـا عـلى مـدار الغرفـة!".

لكـن عندمـا انتقلـوا إلى مسـكنهم الجديـد في ميلـتِن، كان ورق الجـدران الكريـه قـد اختفـى، وهـذا مـا دفعهـم لتوجيـه جزيـل الشـكر لمالـك البيـت الـذي تركهـم يعتقـدون، إن أرادوا، بأنـه تراجـع عـن رفضـه القاطـع تغيـير ورق الجـدران. إذ لم يكـن هنـاك أي داع لإخبارهـم أن مـا رفـض أن يفعلـه بطلـبٍ مـن القـس المحـترم السـيد هيـل الـذي لا يعرفـه أحـد في ميلـتِن، كان سـعيداً في تلبيتـه انصياعـاً أمـام توبيـخٍ لاذع مـن السـيد ثورنـتِن الصناعـي الـثري.

الحنين للوطن

كانت المصالحة مع ميلتِن تحتاج إلى ورق جدران بسيط. وفي الواقع، كانت بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك، لكنه ليس بمتناول اليد. دخل الضباب الأصفر الكثيف لشهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وحُجِبَ منظر السهل في الوادي، وكذلك منعطف النهر، عندما وصلت السيدة هيل إلى منزلها الجديد.

انهمكت مارغريت وديكسِن بالعمل على مدار يومين في فك الأمتعة وتفريغ الحقائب والصناديق، غير أن كل شيء داخل المنزل كان فوضوياً، في حين كان الضباب في الخارج كثيفاً زحف على كل نافذة وتسلل عبر كل بابٍ مفتوح على شكل أكاليل من السديم الأبيض الخانق.

"مارغريت! هل سنعيش هنا؟" صاحت السيدة هيل برعب حقيقي. ردد قلب مارغريت صدى مرارة النبرة في سؤال والدتها، وبالكاد استطاعت أن تسيطر على نفسها قائلة: "الضباب في لندن يكون أحياناً أسوأ من هذا بكثير!".

"لكنك تعرفين لندن، ولك فيها أصدقاء. أما هنا فنحن معزولون. آه يا ديكسِن، ما هذا المكان؟"

"أنت محقة يا سيدتي، أنا على يقين أنه سيشهد موتك قريباً، عندها أعلم من...سيبقى! سيدة هيل، إنه أمر لا تستطيعين احتماله".

"ليس صحيحاً، شكراً لك يا ديكسِن"، أجابت مارغريت ببرود. "أفضل ما يمكننا عمله الآن هو أن نجهز غرفة أمي من أجل أن تذهب إلى سريرها، بينما سأعد لها فنجاناً من القهوة".

كان السيد هيل في حالة يُرثى لها من التعب والحزن، واستنجد بمارغريت طمعاً بتعاطفها.

"مارغريت، اعتقد أن هذا المكان ضار بالصحة. افترضي فحسب أن تتأذى صحة والدتك أو صحتك أنت. ليتني ذهبت إلى منطقة ريفية في ويلز. هذا مرعب حقاً"، قال السيد هيل وهو يتجه صوب النافذة. لكن لا مكان للراحة. لقد استقروا في ميلتِن، وبات عليهم تحمل موسم الدخان والضباب. بالفعل، بدا أي مظهر آخر للحياة محجوباً عنهم تحت ستار ضباب الظروف القاسية. قبل يوم فقط، كان السيد هيل يراجع بحسرة ما أنفق من مال على نقل الأثاث، والإقامة لمدة أسبوعين في هِستِن، ليكتشف أنه خسر تقريباً كل ما كان لديه من مال. لا! هنا جاؤوا، وهنا سيبقون.

وفي الليل، أدركت مارغريت ذلك جيداً، وشعرت برغبة بالجلوس في غيبوبة من اليأس. كان الهواء المشبع بالدخان يحيط بغرفتها التي تشغل الامتداد الطويل الضيق خلف المنزل. وكانت النافذة على جانب الهيكل المستطيل تشرف على الجدار الفارغ للاتجاه نفسه على ارتفاع لا يزيد عن عشرة أقدام، وبرزت عبر الضباب وكأنها حاجز أمام الأمل. في داخل الغرفة، كل شيء كان في حالة من الفوضى. لقد بذلوا قصارى جهدهم لتكون غرفة والدتها مريحة. جلست مارغريت على أحد الصناديق وكانت لا تزال عليه البطاقة التي كتبتها في هِلْستِن...المحبوبة الجميلة! غرقت في حالة من الكآبة والحزن، لكنها قررت أن تبعد الحاضر عن ذهنها. فجأة تذكرت أنها تلقت رسالة من إيديث لم تكمل قراءتها بسبب انشغالها في الصباح. كانت الرسالة حول وصول إيديث وزوجها إلى جزيرة كورفو، والرحلة عبر الأبيض المتوسط، وعن حياتها الجديدة السعيدة، وعن منزلها بشرفته ذات العرائش، وإطلالتها على المنحدرات الصخرية البيضاء والبحر الأزرق العميق. كتبت إيديث بانسيابية وعلى نحو جميل، وإن لم يكن بتفصيل واضح. صحيح أنها لم تأت على ذكر النقاط المهمّة والمميزة للمشهد، لكنها أوردت ما يكفي من التفاصيل العشوائية غير المترابطة تاركة لمارغريت أن تفسرها بنفسها. النقيب لينوكس يشارك ضابطاً آخر تزوج حديثاً السكن في

الفيلّا التي تربض عالياً فوق الصخور شديدة الانحدار التي تطل على البحر. كما يبدو أن إيديث وزوجها يمضيان أيامهما إما في رحلة في القوارب أو النزهات البرية، كلها في الهواء الطلق بهدف التسلية والمتعة، ما جعل حياة إيديث تبدو وكأنها تحت قبة سماوية صافية لا تشوبها شائبة، ولا تعكرها سحابة. كان على زوجها أن يشارك في تدريبات ميدانية، فانشغلت إيديث ـ بصفتها أكثر زوجات الضباط معرفة بالموسيقا ـ بنسخ نوتات بعض الألحان الجديدة الرائجة المأخوذة من أحدث القطع الموسيقية الإنكليزية من أجل قائد الفرقة الموسيقية العسكرية. وأعربت إيديث في رسالتها عن أملها بأن تأتي مارغريت لزيارتها، إن بقيت الكتيبة عاماً إضافياً في كورفو. كما سألت مارغريت إن كانت تذكر ذلك اليوم الذي أمطرت فيه السماء في شارع هارلي، وكيف رفضت إيديث يومها أن ترتدي فستانها الجديد للذهاب إلى عشاء غبي، وكيف تبللت بالمطر أثناء ذهابها إلى العربة، وأنها في ذلك العشاء التقت لأول مرة بالنقيب لينوكس.

أجل. تذكرت مارغريت ذلك اليوم جيداً. حينذاك، ذهبت إيديث والسيدة شو إلى العشاء، ولحقت بهما مارغريت لحضور الحفلة مساءً. استعادت مارغريت بذاكرتها كل التفاصيل كما لو كانت حية أمامها: البذخ في جميع ترتيبات الحفلة، وفخامة الأثاث المهيبة، وحجم المنزل، وهدوء وارتياح الضيوف، في مفارقة صارخة لما يجري معها الآن. انحسر ذلك البحر الهادئ من الحياة الماضية من دون أن يترك أثراً يخبر أين كانوا جميعاً. حفلات العشاء، والزيارات، والتسوق، والأمسيات الراقصة، كلها ذهبت وللأبد، على الرغم من أن خالتها شو وإيديث لم يعودا هناك، وهي أيضاً، لكن، بالطبع، لم يكن ليفتقدها أحد. كان لديها شك بأن يكون أحد ما قد فكر بها، باستثناء هنري لينوكس. لكنها كانت تدري بأنه حتى هو لن يوفر جهداً كي ينساها، لما تسببت له من ألم. لطالما سمعته يتفاخر بقدرته على أن يرمي بعيداً بكل ما لا يرضى به. ثم فكرت أكثر بما يمكن أن يحدث لو أنها اهتمت به كعاشق، وقبلت طلبه، وجرى ما جرى من تغيراتٍ في مواقف أبيها وآرائه، وما تبع ذلك من أحداث، لكان من المؤكد بأنه ما كان ليتقبل الوضع الجديد. صحيح أن هذا التغيّر شكّل إحراجاً

كبيراً لها، لكنها استطاعت تحمّله بكل صبر لأنها كانت تعرف طهارة ونقاء سريرة والدها، وهذا ما منحها القوة لتتحمل أخطاءه رغم فداحتها وخطورتها، بحسب تقديرها. لكن أن تتراجع مكانة أبيها في نظر العالم وحكمه القاسي كان من شأنه أن يصيب هنري لينوكس بالغضب والإحباط. عندما تخيلت ما كان يمكن أن يحدث، حمدت الله على ما جرى مع لينوكس. لقد أصبحوا الآن في الحضيض، ولا يمكن أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك. يتعين عليها أن تقابل دهشة إيديث وانزعاج خالتها بكل شجاعة، عندما تصلهم رسائلهما. نهضت مارغريت وبدأت بخلع فستانها على مهلها يخامرها شعور بالمتعة لأنها تتصرف على هذا النحو من الراحة والاسترخاء، وإن جاء متأخراً، بعد كل هذا الركض والعمل طوال النهار. استغرقت في النوم وهي تأمل بإشراقة داخلية أو خارجية. لكنها لو علمت كم سيمضي من الوقت قبل أن تصادف هذه الإشراقة، لغاص قلبها عميقاً في صدرها. إذ لم يكن هذا الوقت من السنة مناسباً لصحة البدن أو الروح. أصيبت أمها بنزلة برد شديدة، كذلك ديكسِن لم تكن بحال جيدة، على الرغم من أن مارغريت لم تستطع إهانتها أكثر إلا بمحاولتها إنقاذها، أو الاعتناء بها. لم يجدوا فتاة تساعد ديكسِن، فكل الفتيات يعملن في المصانع، حتى اللواتي تقدمن للعمل لم يسلمن من توبيخ ديكسِن التي كانت ترى أنه لا يمكن الوثوق بفتيات مثل هؤلاء للعمل في منزل سيد نبيل. لذلك اضطروا للإبقاء على المرأة التي تعمل في تنظيف المنزل بدوام ثابت. تمنت مارغريت لو ترسل وراء شارلوت، لكن عدم قدرة الأسرة على تحمّل نفقات خادمة جيدة مثلها، وبُعد المسافة، جعلا الفكرة صعبة التنفيذ.

التقى السيد هيل بعدد من الطلاب بتوصية من السيد بيل، أو بتأثير مباشر من السيد ثورنتِن. كان معظمهم في عمر الفتية الذين لا يزالون في المدرسة، لكن وطبقاً للمعتقدات السائدة والمتجذّرة في ميلتِن؛ إن أردت أن تعلّم شاباً حرفة ما، فيجب أن يكون صغير السن، ليعتاد على حياة المصنع، أو المكتب، أو المتجر. حتى لو أُرسل إلى الجامعات الاسكوتلندية، فسوف يعود بحثاً عن أهدافٍ تجارية. فكيف سيكون الحال لو أرسل إلى كِمبريدج أو أكسفورد التي لن تقبل

بـه إن كان دون الثامنـة عـشرة مـن العمـر؟ لذلـك كان معظـم أصحـاب المصانـع يضعـون أبناءهـم في أوضـاع مزريـة وهـم في الرابعـة عـشرة أو الخامسـة عـشرة، ويقطعـون مـن دون تمييـز جميـع الأغصـان والفـروع التـي تـؤدي إلى دراسـة الأدب أو التهذيـب الفكـري الراقـي عـلى أمـل أن يسـتغلوا قـوة وحيويـة هـذه الغِـراس اليافعـة في مجـال التجـارة. لكـن الأمـر لا يخلـو مـن بعـض الآبـاء الأكـثر حكمـة، وكذلـك بعـض الشـبان الذيـن يمتـازون بمـا يكفـي مـن المنطـق لكشـف عيوبهـم، ويسـعون جاهديـن لمعالجتهـا. بـل هنـاك رجـال أصبحـوا في مقتبـل العمـر يتمتعـون بحصافـة وحكمـة تدفعهـم للاعـتراف بجهلهـم، والرغبـة في تعلـم، ولـو في سـن متأخـرة، مـا كان يفـترض بهـم أن يتعلمـوه في مرحلـة مبكـرة مـن حياتهـم. ربمـا كان السـيد ثورنـتِن أكـبر طـلاب السـيد هيـل سـناً، لكنـه المفضـل لديـه بينهـم إلى درجـة أن السـيد هيـل درج عـلى عـادة الاستشـهاد بآرائـه بشـكل متكـرر. وتحـول هـذا الأمـر إلى مـا يشـبه نكتـة داخـل المنـزل في السـؤال عـن الوقـت الـذي يُمنـح للعلـم ضمـن السـاعة الدراسـية التـي تُنفـق عـلى مـا يبـدو في تبـادل أطـراف الحديـث.

شـجعت مارغريـت إلى حـد مـا هـذه الطريقـة المرحـة اللطيفـة في النظـر إلى علاقـة والدهـا مـع السـيد ثورنـتِن، لأنهـا شـعرت بـأن أمهـا كانـت تميـل للنظـر إلى هـذه الصداقـة الجديـدة بـين الاثنـين بعـين الغـيرة. صحيـح أنهـا لم تكـن تأبـه لعـدم رؤيـة زوجهـا كثـيراً عندمـا كانـت في هِلْسـتِن حيـث كان جـل وقتـه يتـوزع بـين كتبـه ورعيتـه، إلا أنهـا الآن باتـت تـرى في السـيد ثورنـتِن حاجـزاً يقـف بينهـا وبـين زوجهـا الـذي كان يبـدو تواقـاً لـكل جديـد في علاقتـه مـع صديقـه، الأمـر الـذي جعلهـا تشـعر بالضيـق والانزعـاج. فمديـح السـيد هيـل المبالـغ بـه كان لـه الأثـر المعتـاد في مديـح القيمـين عليـه الذيـن كانـوا ميّالـين قليـلاً إلى التمـرد عـلى أريسـتايديز[21] لكونـه يُلقّـب بالعـادل دائمـاً.

بعـد حيـاة هادئـة دامـت أكـثر مـن عشريـن عامـاً في أبرشـية ريفيـة، كان هنـاك شيء أذهـل السـيد هيـل وجعلـه يقـف مبهـوراً أمـام تلـك الطاقـة والحيويـة التـي كانـت

(21) أريسـتايديز (468-530 ق.م) رجـل دولـة إغريقـي كان يلُقـب بالعـادل، واشـتهر في الربـع الأول مـن العـصر الذهبـي لأثينـا بفضـل قيادتـه للجيـش في حربهـا ضـد الفـرس. (م)

تقتحـم الصعـاب بـكل يـسر وسـهولة: إنهـا قـوة الآلـة في ميلـتِن، وطاقـة رجالهـا، الأمـر الـذي أثـار لديـه انطباعـاً بالعظمـة التـي استسـلم لهـا مـن دون أن يسـتفسر عـن تفاصيـل ممارسـتها. لكـن مارغريـت لم تخـرج كثـيراً بـين الآلات والرجـال، ولم تـرَ الكثـير مـن تأثيرهـا العـام عـلى النـاس، ومـع ذلـك، صادفـت واحـداً أو اثنـين مـن أولئـك الذيـن لا بـد أنهـم ـ بحكـم جميـع المعايـير التـي تؤثـر عـلى جمهـور كبـير مـن البـشر ـ كانـوا الأشـد تـضرراً لصالـح العـدد الأكـبر مـن النـاس. لذلـك بقـي السـؤال المطـروح عـلى الـدوام إن تـم القيـام بـأي شيء للحـدِّ مـن معانـاة هـذه القلـة مـن النـاس قـدر الإمـكان، أم إنهـم قضـوا تحـت أقـدام الموكـب المنتـصر لتلـك الحشـود، بـدلاً مـن إبعادهـم بـكل لـين ورحمـة عـن طريـق الفاتـح المنتـصر الـذي لا يملكـون حـولاً ولا قـوة في مجـاراة مسـيرته الظافـرة؟

وقـع عـلى عاتـق مارغريـت مهمـة البحـث عـن خادمـة تسـاعد ديكسِـن التـي كانـت قـد تعهـدت سـابقاً بالعثـور عـلى فتـاة تقـوم بالأعـمال المضنيـة في المنـزل. بيـد أن فكـرة ديكسِـن عـن الفتيـات المناسـبات للعمـل كانـت تقـوم عـلى صـورة الطالبـات الأكـبر سـناً في مدرسـة هِلْسـتِن اللـواتي كـن يفتخـرن بالسـماح لهـن بزيـارة بيـت القـس في يـوم عمـل، والتعامـل باحـترام مـع السـيدة ديكسِـن، وأن يشـعرن بالرهبـة أمـام السـيد والسـيدة هيـل، لم يكـن هـذا الاحـترام المشـوب بالرهبـة غائبـاً عـن ذهـن ديكسِـن ولم تكـن ترفضـه، بـل كان يجعلهـا تشـعر بالإطـراء بالقـدر نفسـه الـذي كان يسـاور لويـس الرابـع عـشر عندمـا كان أصحـاب بلاطـه يغطـون عيونهـم أمامـه اتقـاءً لنـوره المبهـر.[22]

لكـن لا شيء سـوى محبتهـا وإخلاصهـا للسـيدة هيـل كان كفيـلاً بـأن يجعـل ديكسِـن تتحمـل الطريقـة الفظـة التـي ردت بهـا فتيـات ميلـتِن اللـواتي تقدمـن للعمـل عـلى استفسـاراتها بخصـوص مؤهلاتهـن. وليـس هـذا فحسـب، بـل تجـاوزن الحـدود في اسـتجواب ديكسِـن بدافـع الشـك والخـوف بشـأن القـدرة الماليـة لأسرة تسـكن منـزلاً لا يزيـد إيجـاره عـن ثلاثـين جنيهـاً في السـنة، ومـع ذلـك يتباهـون بأنفسـهم، ولديهـم

(22) إشارة إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر (1638 ـ 1715) الذي كان يُلقب بالملك الشمس. (م)

خادمتـان إحداهـما متعجرفـة ومتكبرة. لم يعـد يُنظـر إلى السـيد هيـل عـلى أنـه قـس هِلْستِن، بـل مجـرد رجـل يعيـش عـلى قـد حالـه. نفـد صبر مارغريـت وتعبـت مـن كلام ديكسِـن للسـيدة هيـل عـن سـلوك الفتيـات اللـواتي تقدمـن للعمـل كخادمـة. عـلى الرغـم مـن نفورهـا مـن السـلوك الفـظ الخشـن لهـؤلاء النـاس، وتأففهـا مـن محاولاتهـم رفـع الكلفـة بداعـي الـود، إلا أن أشـد مـا كانـت تمقتـه هـو فضولهـم الصريـح لمعرفـة مكانـة ومسـتوى معيشـة أيِّ أسرة تسـكن في ميلـتِن ولا تعمـل في أي نـوع مـن المهـن. وكلـما شـعرت مارغريـت بالضيـق، التزمـت الصمـت بشـأن هـذا الموضـوع. وفي كل الأحـوال، لـو تولـت بنفسـها مسـؤولية البحـث عـن خادمـة، لوفـرت عـلى والدتهـا مشـقة الاسـتماع لتلـك الخيبـات المكـررة والإهانـات سـواء مـا كان منهـا صحيحـاً أو مُتخيَّـلاً.

لهـذا السـبب، تـردّدت مارغريـت عـلى الجزاريـن ومحـلات البقالـة تبحـث عـن فتاة لا مثيـل لهـا، ليتراجـع سـقف آمالهـا وتوقعاتهـا مـع مـرور كل أسـبوع، بعـد أن وجـدت صعوبـة في لقـاء إحداهـن في بلـدة صناعيـة لا تحظـى بأجـر جيـد واسـتقلالية أكـبر في العمـل في مصنـع. كانـت مجـرد محاولـة مـن مارغريـت للخـروج بنفسـها في هـذا المـكان المزدحـم. كانـت الخالـة شـو تـصر، مـن بـاب الحشـمة واعتمادهـا الـكليِّ عـلى الآخريـن، أن يرافـق الخـادم مارغريـت وإيديـث إن خرجـا أبعـد مـن شـارع هـارلي، أو الحـي المجـاور. كانـت هـذه القيـود التـي تحـد مـن اسـتقلالية مارغريـت موضـع امتعـاض صامـت في ذلـك الحـين، وهـذا مـا دفعهـا للشـعور بمتعـة مضاعفـة اثنـاء تجوالهـا في الغابـة، عـلى سـبيل المقارنـة. هنـاك كانـت تسـير بخطـى جريئـة تتحـول فجـأة إلى نـوع مـن الجـري إن كانـت في عجلـة مـن أمرهـا، وأحيانـاً كانـت تجمـد في مكانهـا بسـكون تـام لتسـتمع أو تراقـب طائـراً بريـاً يصـدح بـين الأغصـان، أو يختلـس النظـر بعينيـه البراقتـين مـن وسـط شـجيرات الغابـة أو أجـمات الجولـق[23].

كانـت محاولـة لتنتقـل مـن هـذه الحركـة أو السـكون، بهـدي مـن إرادتهـا اللطيفـة، إلى الخطـوة الموزونـة الثابتـة في الشـارع. لكنهـا كانـت سـتضحك عـلى نفسـها للتفكـير

(23) الجوْلَق، نبات مُزهر من الفصيلة البقولية دائم الخضرة (م)

بهذا التبدُّل لو لم يترافق مع ما كان أكثر إزعاجاً. ففي هذا الجانب من البلدة حيث تقع كرامبتِن، كان هناك شارع رئيس لعمال المصانع، بينما تنتشر في الشوارع الخلفية العديد من المصانع كان يخرج منها حشد من الرجال والنساء مرتين أو ثلاثاً كل يوم. وإلى حين تعلمها مواعيد قدومهم وانصرافهم، كان حظها العاثر يقودها للوقوع بينهم بشكل دائم. كانوا يندفعون في مشيتهم بوجوه جريئة يضحكون بقهقهاتهم ونكاتهم التي عادة ما كانت تستهدف كلَّ من هو أعلى منهم مرتبة. في البداية، فزعت مارغريت ولو قليلاً من نبرة أصواتهم المنطلقة، ومن عدم اكتراثهم بآداب الطريق. إذ كانت الفتيات العاملات يطلقن تعليقاتهن بحرية فظّة لكنها لا تفتقر للودّ حول ملابسها، بل ويلمسن شالها، أو فستانها لتفحص نوعيته. كما سألنها مرة أو مرتين حول الشيء الذي كان يثير إعجابهن بملابسها. كانت هؤلاء الفتيات يتوسلن تعاطفها الأنثوي مع حبهن للملابس، كما كن يعتمدن على لطفها لتجيب عن أسئلتهن حالما كانت تفهمها، بل وكانت تردُّ على تعليقاتهن بنصف ابتسامة. غير أنها عادة ما كانت تشعر بالضيق والغضب على الرجال الذين كانوا يعلقون ليس على ملابسها، بل على مظهرها بطريقة وقحة. لذلك كان على مارغريت التي رأت حتى في أكثر التعليقات تهذيباً مصدراً للإزعاج، أن تتحمّل هذا الإعجاب المستتر من هؤلاء الرجال. غير أن هؤلاء الرجال الوقحين أنفسهم لم يقدموا على أي فعل يدل على نيتهم بإيذاء رقة جمالها كما كان من المفترض أن تدرك لو أنها كانت أقل خوفاً من هذا اللغط الفوضوي في كلامهم. فهذا الخوف كان سببا لشعورها بالغضب الذي يحيل لون وجهها قرمزياً، ويطلق شراراته من عينيها السوداوين كلما سمعت تعليقاتهم. كل هذا لم يمنع من وجود عبارات قيلت لها وكانت تجعلها، بعد أن تعود إلى أمان المنزل، تشعر بالمتعة والغضب في آن معاً.

ففي أحد الأيام، على سبيل المثال، وبعد أن مرّت بعدد من الرجال، لم يتوانَ كثير منهم عن تمنياتهم المعتادة بأن تكون حبيبة لهم، أضاف أحد المتسكعين قائلاً: "وجهك الفتان يا حلوتي يجعل النهار أكثر إشراقاً". وفي يوم آخر، وبينما

كانـت تبتسـم بسـبب فكـرة خطـرت عـلى بالهـا، خاطبهـا أحـد العـمال متوسـط العمـر يرتـدي ملابـس رثـة بقولـه "أجـل تبسّـمي يـا حلـوة، فكـم واحـدة يمكنهـا أن تبتسـم ليكـون لهـا هـذا الوجـه الصبـوح". بـدا لهـا هـذا الرجـل مهمومـاً حتـى أنهـا لم تمنـع نفسـها مـن الـرد عليـه بابتسـامة لشـعورها بالفـرح لأنـه ظـن أن منظرهـا، كـما هـو، يمتلـك القـدرة لاسـتدعاء الأفـكار المفرحـة. وبـدا أن الرجـل فهـم مـا كانـت تعنيـه بنظرتهـا، ونشـأ بينهـما احـترام وتقديـر صامـت كلـما وضعـت المصادفـة أحدهـا في درب الآخـر. لم يتبـادلا كلمـة واحـدة، ولم يقـل شـيئاً غـير عبارتـه الأولى التـي أطـرى فيهـا عـلى جمالهـا، لكـن مارغريـت شـعرت بالاهتـمام بهـذا الرجـل أكـثر مـن أي شـخص آخـر في ميلـتِن. كـما أنهـا صادفتـه مـرة أو مرتـين أيـام الآحـاد بصحبـة فتـاة لا بـد أنهـا ابنتـه، لكنهـا، عـلى الأرجـح، لم تكـن في صحـة جيـدة أفضـل منـه.

في يـوم مـن الأيـام، وصلـت مارغريـت ووالدهـا إلى الحقـول التـي تقـع في محيـط البلـدة. كان ذلـك في أوائـل الربيـع، فأخـذت مارغريـت تقطـف بعضـاً مـن زهـور التخـوم البريـة، زهـرة الكلـب، وبقلـة الخطاطيـف، ومـا شـابه بحـسرة مكتومـة في قلبهـا عـلى وفـرة الـورود وتنوعهـا في الجنـوب. تركهـا والدهـا ومـضى لقضـاء بعـض الأعـمال في ميلـتِن، وفي طريـق عودتهـا إلى المنـزل التقـت بصديقيهـا الطيبـين. نظـرت الفتـاة إلى الزهـور بحـزن، فقدمتهـا لهـا مارغريـت بـردة فعـل مفاجئـة. التمعـت عينـا الفتـاة الشـاحبتان وهـي تأخـذ الزهـور منهـا، وبـدأ والدهـا يتحـدث إلى مارغريـت.

"شـكراً لـك، يـا آنسـة. بيـسي ممتنـة لـك جـداً عـلى هـذه الزهـور، وأنـا ممـتن للطفك. أنـت لسـت مـن هـذه البلـدة، عـلى مـا أظـن؟"

"لا!" قالـت مارغريـت، بنـبرة تشـوبها تنهيـدة لم تكتمـل، "أنـا مـن الجنـوب، مـن هامشـاير"، تابعـت كلامهـا وهـي تخـشى أن تجـرح مشـاعره إن جعلتـه يشـعر بالحـرج مـن جهلـه باسـتخدامها اسـماً لا يفهمـه.

"هـذه بعـد لنـدن، كـما أظـن؟ أنـا مـن بيرنـلي ـ ويـز، أربعـون ميـلاً إلى الشـمال. ومـع ذلـك، كـما تريـن، يلتقـي الشـمال والجنـوب، ويعقـدان نوعـاً مـن الصداقـة في هـذا المـكان المـليء بالدخـان".

أبطـأت مارغريـت خطوتهـا لتمـشي إلى جانـب الرجـل وابنتـه التـي كان ضعـف جسـدها يتحكـم بإيقـاع خطواتهـما. التفتـت مارغريـت إلى الفتـاة وراحـت تحدّثهـا. كان في صـوت بيـسي نـبرة شـفقة رقيقـة اخترقـت قلـب أبيهـا.

"يبدو أنك لست قوية".

"لا"، قالت الفتاة، "ولن أكون".

"الربيع قادم"، قالت مارغريت، وكأنها توحي لها بالأمل والفرح.

"لا خير لي في الصيف، ولا في الربيع"، ردت عليها الفتاة بهدوء.

التفتـت مارغريـت إلى والـد الفتـاة وهـي تنتظـر منـه أن يقـول شـيئاً يناقـض كلام ابنتـه، أو عـلى الأقـل يعـدل مـن نبرتهـا اليائسـة، لكنـه أضـاف قائـلاً:

"للأسف ما تقوله صحيح. بل أخشى أنها بلغت مرحلة سيئة جداً"

"سـأجد الربيـع في المـكان الـذي لا مفـر لي مـن الذهـاب إليـه، والزهـور، ونباتـات القطيفـة[24]، والفسـاتين البراقـة اللامعـة".

"يـا فتـاتي المسـكينة!" قـال والدهـا بنـبرة منكـسرة. "لسـت متأكـداً مـن ذلـك، لكنـه راحـة بالنسـبة لـك يـا بنيتـي. لـن يطـول الأمـر".

صُعقت مارغريت من كلام الأب، لكنها لم تنفر منه، بل شدها وزادها اهتماماً.

"أين تسكن؟ لا بد أننا جيران، فنحن غالباً ما نلتقي في الطريق".

"في تسعة شارع فرانسيس، المنعطف الثاني على اليسار بعد غولدِن دراغِن".

"وما اسمك؟ يجب ألا أنسى ذلك".

"لا أستحي من اسمي. نيكولاس هيغينز. وهي بيسي هيغينز. ماذا تريدين؟".

فوجئـت مارغريـت بسـؤاله. لـو جـرى هـذا الحديـث في هِلْسـتِن لـكان مفهومـاً أنهـا وبعـد أسـئلتها تنـوي زيـارة جـار فقـير سـألت عـن مسـكنه واسـمه.

"اعتقدت...أنـوي زيارتكـم". فجـأة شـعرت مارغريـت بالخجـل مـن عرضهـا فكـرة

(24) القُطَيفة أو سالف العروس (باللاتينية amaranthus) نبات يتبع الفصيلة القطيفية لا يذبل أبداً. (م)

الزيـارة مـن دون أن تقـدم سـبباً لهـذه الرغبـة مـا عـدا اهتمامهـا برجـل غريـب. وفي الحـال، بـدا الأمـر مـن جانبهـا وكأنـه تـصرف وقـح بعـد أن قـرأت مـا يعنـي ذلـك في عينـي الرجـل.

"لا أحبـذ فكـرة وجـود شـخص غريـب في منـزلي". لكنـه تراخـى بعـد ذلـك حالمـا رأى لونهـا يتغـير، وأضـاف: "أنـت أجنبيـة، إن جـاز القـول، ولا تعرفـين الكثـير مـن السـكان هنـا، وأعطيـت ابنتـي زهوراً...يمكنـك زيارتنـا إن أردت".

انقسـمت مشـاعر مارغريـت بـين السـعادة والغضـب مـن ردە. لم تكـن واثقـة مـن أنهـا قـد تذهـب إلى مـكان يعطـى الإذن لزيارتـه وكأنـه منـة. لكنهـم عندمـا وصلـوا شـارع فرانسـيس، توقفـت الفتـاة للحظـة ثـم قالـت:

"لن تنسي أن تأتي لزيارتنا".

"أجـل، أجـل، سـتأتي"، رد عليهـا والدهـا بحنـق، "سـتأتي. ربمـا هـي متضايقـة قليـلاً الآن لأنهـا تظـن بأنـه كان مـن الأجـدر بي أن أتكلـم بطريقـة أكـثر تهذيبـاً، لكنهـا سـتفكر في الأمـر وتـأتي لزيارتنـا. أسـتطيع أن أقـرأ وجههـا الجميـل الفخـور ككتـاب مفتـوح. هيـا تعـالي يـا بيـسي، جـرس المصنـع يُقـرَع".

مضـت مارغريـت في طريقهـا إلى البيـت تبتسـم عـلى حصافـة الرجـل وبصيرتـه في قـراءة مـا كان يجـول في رأسـها. منـذ ذلـك اليـوم، أضحـت ميلـتِن مكانـاً أكـثر جـمالاً بالنسـبة إليهـا. ولم ينقـضِ وقـتٌ طويـل حتـى جـاءت أيـام الربيـع المشمسـة، لكـن الوقـت لم يحـن بعـد لمصالحتهـا مـع البلـدة التـي تسـكنها، وإن كانـت قـد وجـدت فيهـا شـخصا يحـوز اهتمامهـا.

استعداداً لجلسة الشاي

بعد يوم واحد من لقائها هيغينز وابنته، صعد السيد هيل إلى غرفة الضيوف الصغيرة في ساعة غير معتادة، وتوجه إلى أشياء مختلفة في الغرفة وكأنه يتفحّصها. أدركت مارغريت أن هذه الحركة لا تعدو كونها مجرد حيلة، أو طريقة لتأجيل شيء ما كان يتمنى قوله، ولكنه يخشى أن يفعل ذلك. وأخيراً نطق قائلاً:

"عزيزتي! لقد دعوت السيد ثورنتِن لتناول الشاي معنا الليلة".

كانت السيدة هيل تجلس مسترخية في كرسيها المريح وعيناها مغلقتان، وتعبير الألم واضح على وجهها في منظر بات معتاداً في الآونة الأخيرة. لكنها سرعان ما نهضت إلى وضعية الشكوى والعتاب لدى سماعها ما قاله زوجها.

"السيد ثورنتِن! والليلة! لِمَ سيزورنا هذا الرجل؟ ديكسِن ستكون مشغولة بغسيل فستاني الموسلين والأربطة، ولا يوجد لدينا مياه عذبة بسبب هذه الرياح الشرقية البغيضة التي، حسب ما أظن، لن تغادر ميلتِن طوال العام".

"الريح تدور في كل الاتجاهات يا عزيزتي"، قال السيد هيل وهو ينظر عبر النافذة إلى الدخان الذي يندفع من جهة الشرق من دون أن يدرك القصد من الاتجاهات، فراح يعيد ترتيبها كما يحلو له بحسب الظروف.

"لا تقل لي"، ردت السيدة هيل وهي تشد الشال حولها. "ريح شرقية أم غربية. ما أفهمه أن هذا الرجل سيأتي اليوم".

"كلامك يا أمي يدل على أنك لم تري السيد ثورنتِن. فهو يبدو شخصاً يستمتع بمعاركة أي شيء قد يقف في طريقه سواء أكان أعداءً، أم رياحاً، أم ظروفاً.

فكلما أمطرت واشتدت الريح، ازداد يقيننا أنه سيأتي لا محالة لزيارتنا. سأذهب لمساعدة ديكسِن. على هذه الحالة سأغدو من أشهر عاملات الغسيل. كما أن السيد ثورنتِن لا يريد شيئاً سوى أن يجلس للتحدث مع والدي. وأنا أتطلع فعلاً يا أبي أن أرى خلك الوفي. كما تعلم لم أقابله سوى مرة واحدة، وكنا حينذاك في حيرة بشأن ما يمكن أن يقوله أحدنا للآخر، ولم يجرِ تعارفنا الأول على خير ما يرام".

"لا أظنك ستجدين فيه شيئاً ينال إعجابك يا مارغريت. فهو ليس بالرجل الذي تُعجب به النساء".

لوت مارغريت عنقها تأففاً.

"لا يعجبني الرجل الذي تُعجب به النساء يا أبي. السيد ثورنتِن سيأتي هنا كصديقٍ لك، كواحد يقدرك ويحترمك،"

"الشخص الوحيد في ميلتِن"، قاطعتها السيدة هيل.

"لذلك سنقدم له الترحيب المناسب، وحلوى الكاكاو بالجوز. ستُسر ديكسِن إن طلبنا منها أن تعدها، وسأتولى عنها كيَّ قبعاتك يا أمي".

كم مرة تمنت مارغريت ذلك الصباح لو يكون السيد ثورنتِن بعيداً بما فيه الكفاية. فقد كانت قد خطّطت لنفسها أن تنشغل بأشياء أخرى مثل كتابة رسالة لابنة خالتها إيديث، قراءة مقطع ممتع لدانتي، أو ربما زيارة هيغينز، لكنها وبدلا من ذلك تسمّرت أمام طاولة الكوي وهي تستمع إلى شكوى ديكسِن، وأملت مارغريت بأن تعاطفها مع ما تقوله من شأنه أن يمنع ديكسِن من إعادة تكرار شكاويها أمام السيدة هيل. ومن حين لآخر، راحت تذكر نفسها بالتقدير الذي يكنه والدها للسيد ثورنتِن لكبح شعورها بالتعب الذي كان يتسلل إلى جسدها حاملاً معه صداعاً بات يداهمها مؤخراً. لم تستطع حتى الكلام عندما جلست أخيراً وقالت إنها لم تعد بيغي عامل الغسيل، بل الليدي هيل. كانت تقصد المزاح من وراء كلامها، لكنها سرعان ما عتبت على لسانها بعد ما اكتشفت أن والدتها أخذت كلامها على محمل الجد.

"أجـل، لـو أن أحـداً مـا أخـبرني، عندمـا كنـت الآنسـة بيريسـفِرد، وواحـدة مـن حسـناوات المقاطعـة، أنـه سـيأتي يـوم أرى فيـه إحـدى بنـاتي تُمـضي نصـف نهارهـا في مطبـخ صغـير ضيـق تعمـل مثـل أيِّ خادمـة اسـتعداداً لاسـتقبال حـرفي، وهـذا الحـرفي ليـس سـوى...". "أمـي،" قاطعتهـا مارغريـت وهـي تعتـدل في جلسـتها "لا تعاقبينـي عـلى كلام طائـش. فـلا مانـع عنـدي أن أكـوي، أو أن أقـوم بـأي عمـل آخـر، لأجلـك ولأجـل والـدي. فأنـا وُلـدت ونشـأت سـيدة حتـى لـو اضطـررت لأكنـس وأنظـف الأرض، أو أغسـل الأطبـاق. كل مـا في الأمـر أني أشـعر بالتعـب لفـترة لـن تطـول، لكنـي وخـلال نصـف سـاعة سـأكون مسـتعدة لأن أعـاود العمـل نفسـه مـرة ثانيـة. أمـا في مـا يخـص السـيد ثورنـتِن وكونـه حرفيـاً، فلِـمَ عليـه أن يمانـع هـذا الأمـر الآن، هـذا الشـاب المسـكين. لا أظـن أن تعليمـه يؤهلـه لـشيء غـير هـذا العمـل". نهضـت مارغريـت مـن مكانهـا، ببـطء، وصعـدت إلى غرفتهـا لأنهـا لم تسـتطع تحمل المزيد.

في الوقـت ذاتـه، كان مشـهد مشـابه، وإن كان مختلفـاً، يجـري في منـزل السـيد ثورنـتِن. إذ جلسـت سـيدة ضخمـة الجثـة تعـدّت منتصـف العمـر بكثـير، تعمـل في غرفـة طعـام كئيبـة. كانـت ملامحهـا، مثـل قامتهـا، قويـة وهائلـة الحجـم أكـثر مـن كونهـا ثقيلـة. كان وجههـا يتبـدّل ببـطء مـن تعبـير متحفـظ إلى آخـر مشـابه. لم يكـن هنـاك تنـوع في ملامـح وجههـا، لكـن بالنسـبة إلى مـن نظـروا إليـه مـرة، وعـاودوا النظـر مـرة ثانيـة، حتـى العابـرون في الشـارع، كانـوا يديـرون رؤوسـهم نصـف دورة ليحدقـوا لفـترة أطـول في امـرأة قاسـية صارمـة ومبجلـة. كانـت تُصلـح مفـرش طاولـة طويـل مـن أجـود أنـواع النسـيج، وترفعـه قبالـة الضـوء بـين الحـين والآخـر كي تستكشـف المواقـع الرقيقـة التـي كانـت تتطلـب منهـا عنايـة فائقـة. لم يكـن هنـاك أي كتـاب في الغرفـة باسـتثناء تفسـير الإنجيـل لهـنري ماثيـو؛ سـتة أجـزاء كانـت موضوعـة في منتصـف رفٍّ جانبـي ضخـم محـاط بغلايـة الشـاي مـن جهـة، وبمصبـاح مـن الجهـة الأخـرى. في شـقة بعيـدة، كان أحـد مـا يتـدرب عـلى عـزف البيانـو، وتحديـدا عـلى مقطوعـة مـن موسـيقى الحجـرة. كان العـزف سريعـاً حيـث كانـت كل علامـة ثالثـة عـلى السـلم إمـا غـير واضحـة أو مفقـودة كليـاً، كـما أن نصـف النغـمات العاليـة كان

نشازاً لكنها كانت تلقى رضى العازف. سمعت السيدة ثورنتِن وقع أقدام تشبه خطواتها بإيقاعها الموزون الصارم.

"جون! هل هذا أنت؟"

فتح ابنها الباب ودخل.

"لِمَ عدت إلى المنزل مبكراً على غير العادة؟ ظننتك ستذهب لشرب الشاي عند السيد هيل؛ صديق السيد بيل"؟

"وأنا كذلك يا أمي، جئت إلى المنزل لأبدل ملابسي!".

"تبدل ملابسك! همممم! عندما كنت فتاة صغيرة، كان الشبان يكتفون بارتداء لباس واحد في اليوم. فلِمَ يجب عليك أن تبدل ملابسك لتذهب لتناول الشاي مع قسٍ عجوز؟".

"السيد هيل شخص نبيل، وزوجته وابنته سيدتان".

"زوجته وابنته! هل يعملان بالتدريس أيضاً؟ ماذا تعملان؟ لم تخبرني عنهما من قبل".

"هذا صحيح، لأني لم التقِ بالسيدة هيل من قبل، ورأيت الآنسة هيل لنصف ساعة فقط".

"احذر يا جون من أن تصطادك فتاة مفلسة".

"لست ممن يسهل اصطيادهم، وأنت تعلمين ذلك. لكني لن أسمح بالكلام عن الآنسة هيل بهذه الطريقة التي، كما تعلمين، أراها مستفزة. لم أدرِ أبداً أن هناك فتاة تحاول اصطيادي، ولا أعتقد أن واحدة منهن فكّرت في أن تقحم نفسها في ورطة لا جدوى منها".

لم تكن السيدة ثورنتِن تريد أن تُلمِّح بهذه الفكرة إلى ابنها، وإلا لكانت، بشكل عام، تشعر بالفخر ببنات جنسها.

"ما أردت أن أقوله فحسب، كن حذراً. قد يكون لدى فتيات ميلتِن الدافع والمشاعر الطيبة للبحث عن زوج، أما هذه الآنسة هيل فهي من المقاطعات

الارستقراطية التي، إن صحت الأقاويل، يُعدُّ فيها الزوج الغني جائزة محترمة".

قطب السيد ثورنتِن حاجبيه، وتقدم خطوة داخل الغرفة.

"أمي" (بضحكة استهزاء قصيرة) "ستجبرينني على الاعتراف. في المرة الوحيدة التي رأيت فيها الآنسة هيل، عاملتني بتهذيب متكبر لا يخلو من نكهة الاحتقار. بل ونفرت مني كما لو كانت ملكة وأنا أحد رعاياها الوضيعين، أو أحد أُجرائِها القذرين. على رسلك يا أمي".

"لا لن أهدأ، ولا يرضيني هذا. من تكون؟ ابنة قسٍ متمرد، لتشمخ بأنفها عليك! لو كنت مكانك لارتديت لهن لباساً قذراً". وبينما كان يغادر الغرفة، قال لها:

"السيد هيل شخص محترم ومثقف، وليس بذيئاً. أما الآنسة هيل سأخبرك من تكون الليلة، إن كنت تريدين"، ثم أغلق الباب وغادر.

"تحتقر ولدي! وتعامله كأنه عامل أجير لديها! أود أن أعرف أنَّى لها أن تجد مثيلاً له. فهو الأكثر نبلاً، والأشجع قلباً. لا يهم إن كنت أنا أمه، فأنا أعرف كيف أميز الأمر، لست عمياء، وأعرف من تكون فاني، ومن يكون جون. تحتقره! أكرهها".

حديد وذهب

غـادر السـيد ثورنـتِن منزلـه مـن دون أن يعـود إلى غرفـة الطعـام. كان متأخـراً نوعـاً مـا، فمـضى مسرعـاً إلى كرامبـتِن. كان حريصـاً عـلى عـدم الاسـتخفاف بصديقـه الجديـد بعـدم التزامـه بالموعـد الـذي قـد ينـم عـن عـدم الاحـترام. كانـت سـاعة الكنيسـة تشـير إلى السـابعة والنصـف عندمـا وقـف عنـد البـاب ينتظـر حركـة ديكسِـن البطيئـة التـي عـادة مـا تزيـد في تلكؤهـا عندمـا تضطـر لإهانـة نفسـها بالـرد عـلى جـرس البـاب. أدخلتـه ديكسِـن إلى غرفـة الضيـوف الصغـيرة، واسـتقبله السـيد هيـل بترحـاب وقدمـه إلى زوجتـه التـي عـبرّ وجههـا الشـاحب وجسـدها المتلفـع بالشـال عـن اعتـذار صامـت عـلى بـرودة تحيتهـا. كانـت مارغريـت مشـغولة بإضـاءة المصبـاح عندمـا دخـل مـع حلـول الظـلام. ألقـى المصبـاح ضـوءاً جميـلاً عـلى وسـط الغرفـة المعتمـة التـي لم يحجبوهـا، عـلى عـادة أهـل الريـف، مـن سـماء الليـل، ولا مـن عتمـة الخـارج. وعـلى نحـو مـا، رسـم مشـهد الغرفـة نفسـه مقارنـة مـع غرفـة غادرهـا قبـل قليـل؛ أنيقـة، مضجـرة ولا أثـر للحضـور الأنثـوي فيهـا باسـتثناء المـكان الـذي كانـت تجلـس فيـه والدتـه، ولا تناسـب غرضـاً آخـر غـير الطعـام والـشراب. صحيـح أنهـا كانـت غرفـة طعـام، لكـن والدتـه كانـت تفضـل الجلـوس فيهـا، وإرادتهـا كانـت قانونـاً منزليـاً.

غـير أن غرفـة الضيـوف لم تكـن مثـل هـذه الغرفـة، بـل أجمـل منهـا بعشريـن مـرة، لكنهـا لا تعطـي ربـع الراحـة التـي تعطيهـا. لم يكـن في هـذه الغرفـة أيُّ مرايـا، ولا حتـى قطعـة زجـاج واحـدة لتعكـس الضـوء، وتخـدم الغايـة نفسـها التـي يقدمهـا المـاء في الطبيعـة، فـلا يوجـد هـذا الانتشـار الدافـئ المتمـوج والرصـين للألـوان التـي

كانت تُطلقها الستائر وأغطية الكراسي في المنزل القديم في هِلْستِن. كانت هناك أريكة عند النافذة قبالة الباب، ومسند تقف عليه مزهرية من الخزف الصيني تتدلى منها أكاليل اللبلاب الإنكليزي، والبتولا بلونها الأخضر الفاتح، وأوراق الزان ذات اللون النحاسي. وتوزعت في أماكن مختلفة سِلال جميلة، ومجموعة من الكتب، من دون الاهتمام بها بسبب تجليدها فحسب، كانت ملقاة على الطاولة وكأنها وُضعت في مكانها للتو. وكانت هناك طاولة أخرى خلف الباب مزينة من أجل جلسة الشاي، وعليها مفرش أبيض، وُضع فوقه طبق حلوى الكاكاو والجوز، وإلى جانبه سلة مليئة بالبرتقال والتفاح الأميركي الضارب إلى الحمرة.

بدا للسيد ثورنتِن أن هذه العناية الظريفة اللبقة كانت أمراً اعتيادياً بالنسبة للأسرة، وتحديداً فيما يتوافق مع مارغريت التي كانت تقف بجانب طاولة الشاي بفستانها الموسلين فاتح اللون وفيه قدر كبير من اللون الوردي. بدت وكأنها لا تهتم بالحديث الجاري منشغلة بأكواب الشاي التي كانت يداها البيضاوان تتحركان بينها برشاقة وأناقة من دون صخب. كانت ترتدي سِواراً في ذراعها التي تتدرج في نحولها إلى حد كان السوار يهبط عند رسغها. راقب السيد ثورنتِن هذه الحلية المُزعجة باهتمام أكثر من إنصاته إلى حديث والدها. بدا وكأنه كان مفتوناً بمشاهدتها ترفع السوار بصبر نافد حتى أحكم طوقه على لحم ذراعها الطري ليترك أثراً فوقه بعد نزوله مرة أخرى، فما كان منه في كل مرة إلا أن يقول لنفسه متعجّباً: "ها هو يهبط مرة ثانية!". لم يكن هناك شيء كثير للقيام به بعد أن بدأ الإعداد للشاي، حتى أنه شعر بالأسف لأن واجب تقديم الضيافة جاء سريعاً لينشغل بالأكل والشرب مما سيمنعه من مراقبة مارغريت. قدمت له كوب الشاي بأنَفة عبدٍ مُجبر، لكن عينيها التقطتا اللحظة التي كان فيها مستعداً لقبول كوب آخر، وكم تمنى لو كان باستطاعته أن يطلب منها أن تقوم بالشيء نفسه الذي فعلته مع والدها حين أمسك بيديه الكبيرتين خنصرها وإبهامها كملقط لقطع السكر. لمح السيد ثورنتِن عينيها الجميلتين تنظران إلى والدها بفرح وحب أثناء هذه اللحظة من الأداء الصامت بينهما،

وهـما يظنـان أن لا أحـد انتبـه إلى مـا كان يجـري. كانـت مارغريـت لا تـزال تشـعر بـألم الصـداع في رأسـها، كـما كان واضحـاً مـن شـحوب بشرتهـا وصمتهـا عـن الحديـث، لكنهـا كانـت مصمّمـة عـلى أن تسـارع لمـدّ يـد العـون، إن كان هنـاك أي توقـف غـير متوقـع مـن شـأنه أن يدفـع الضيـف، صديـق والدهـا وتلميـذه، للظـن بأنـه مُهمَـل. لكـن الحديـث اسـتمر، وانسـحبت مارغريـت مـع قطعـة الكنفـا التـي كانـت تطرّزهـا إلى زاويـة بالقـربِ مـن أمهـا، بعـد أن أُخـذت عـدة الشـاي بعيـداً. وهنـا أحسـت مارغريـت بقدرتهـا عـلى أن تطلـق السـراح لأفكارهـا مـن دون أن تخـشى مـن احتـمال الحاجـة إليهـا لمـلء فجـوة في الحديـث.

كان السـيد هيـل وضيفـه مسـتغرقيْن في اسـتئناف النقـاش حـول موضـوع بـدآه في آخـر لقـاء جمعهـما. عـادت مارغريـت إلى الإحسـاس بالحـاضر عـلى يـد تعليقـات عابـرة قالتهـا والدتهـا بصـوت منخفـض، قبـل أن ترفـع مارغريـت عينيهـا عـما كان بـين يديهـا لـترى الفـارق في المظهـر الخارجـي بـين والدهـا وبـين السـيد ثورنـتِن والـذي كان يـدل عـلى طبيعتـيْن مختلفتـين بشـكل واضـح. كان والدهـا نحيـل القامـة الأمـر الـذي جعلـه يبـدو أطـول مـما هـو عليـه فعـلاً، إن لم يُقـارن ـ كـما هـو الآن ـ مـع ضيفـه طويـل القامـة ضخـم الجثـة. كانـت الخطـوط في وجـه والدهـا طريـة ناعمـة تتمـوج برعشـة تعلـو وتهبـط وهـي تُظهـر تبـدلات مشـاعره. كان جفنـاه كبيريـن ومقَوسـيْن لكنهـما يمنحـان عينيـه جـمالاً واهنـاً أقـرب إلى المظهـر الأنثـوي. كذلـك كان حاجبـاه مقوسـيْن بشـكل ناعـم لكنهـما، بفضـل جفنيـه الحالمـين، ارتفعـا عـلى مسـافة بعيـدة مـن عينيـه. أمـا السـيد ثورنـتِن، فقـد كان حاجبـاه المسـتقيمان ينسـدلان فـوق عينـين غائرتـين تتقـدان حيويـة ونشـاطاً وكأنهـما، رغـم حدتهـما الفظـة، قادرتـان عـلى اخـتراق قلـب أي شيء ينظـر إليـه. لم تكـن لديـه خطـوط كثـيرة في وجهـه لكنهـا كانـت قاسـية صلبـة وكأنهـا قُـدت في رخـام، وتتركـز بشـكل أسـاسي حـول الشـفتين اللتـين كانتـا مضغوطتـين قليـلاً فـوق أسـنانٍ جميلـة خاليـة مـن العيـوب لتلمـع مثـل نـور الشـمس المفاجـئ عندمـا تخـرج تلـك الابتسـامة اللامعـة النـادرة في لحظـة مـع التـماع العينـين، وتعيـد رسـم ملامحـه كلهـا مـن مظهـر رجـلٍ قـاسٍ لا يتـورع عـن فعـل أي شيء، إلى متعـة اللحظـة الآنيـة التـي قلـما تُـرى عـلى هـذا النحـو مـن الـبراءة

والعفوية إلا عند الأطفال. أحبت مارغريت ابتسامته التي كانت أول شيء أعجبها في صديق والدها الجديد، في حين بدت شخصيته المختلفة ـ التي اتضحت في كل التفاصيل التي وقعت عليها في مظهره الخارجي ـ وكأنها تفسر سرَّ الجاذبية التي أحس بها بشكل واضح كل واحد منهما تجاه الآخر.

أعادت مارغريت ترتيب نسيج الصوف الذي كانت والدتها تعمل عليه، ثم غرقت مجدّداً في أفكارها ـ بعد أن نسي وجودها تماماً السيد ثورنتِن كما لو أنها لم تعد موجودة معهم في الغرفة نفسها. كان السيد ثورنتِن منشغلاً بالشرح للسيد هيل عن القدرة الهائلة للمطرقة البخارية وتوظيفها بشكل دقيق وحساس، الأمر الذي ذكَّر السيد هيل بحكايات ألف ليلة وليلة عن الجن المطيع الذي يتمطط في لحظة من الأرض إلى السماء ليسد اتساع الأفق، وفي لحظة ثانية ينكمش ليستحيل ضئيل الحجم محمولاً على راحتيْ طفل صغير.

"تخيلْ أن هذه الطاقة والتطبيق العملي لهذه الفكرة العملاقة جاءا من بنات أفكار واحدٍ من أبناء بلدتنا الطيبة. استطاع هذا الرجل شيئاً فشيئاً من الارتقاء تدريجياً، خطوة خطوة، ليصل إلى تحقيق الأعاجيب. ويكفيني قولاً أن بين ظهرانينا أناساً مستعدين، إن غاب هذا الرجل، ليسدوا مكانه ويواصلوا الحرب لإخضاع هذه الطاقة المادية كي تستسلم لقوة العلم".

"افتخارك هذا يذكرني بأبيات شعرية قديمة...

"تقصد لدي مئة قائد في إنكلترا" قال له.

"لا يقلون عنه شجاعةً".

رفعت مارغريت نظرها لدى سماع الاقتباس الذي رواه والدها، والدهشة تملأ عينيها. كيف انتقلا من التروس والعجلات المسننة إلى أنشودة تشيفي تشيز[25]؟

"هذا ليس افتخاراً بنفسي" أجابه السيد ثورنتِن، "بل حقيقة واضحة. أنا لا

(25) إشارة إلى "أنشودة تشيفي تشيز" (The Ballad of Chevy Chase) التي تحكي عن معركة جرت بين الإنكليز والاسكوتلنديين عام 1833 بعد خلاف نشب بينهما بسبب رحلة صيد عدَّها الاسكوتلنديون غزواً لبلادهم.

أنكر اعتزازي بأني أنتمي إلى بلدة ـ أو بالأحرى يجب أن أقول مقاطعة ـ كانت حاجاتها سبباً في ولادة فكرة عظيمة مثل هذه. أُفضِّل أن أكون رجلاً يشقى ويتعب، بل ويفشل، ولا ينجح، على أن أعيش عيشة كئيبة مرفّهة في الأخاديد العتيقة المتآكلة لما تسميه أنت بالمجتمع الارستقراطي في الجنوب بأيامهم البطيئة وراحتهم الطائشة، حتى أن أحدهم قد يعلق بالعسل ويصبح عاجزاً عن النهوض والطيران".

"أنت مخطئ"، صاحت مارغريت، وقد استثيرت بهذا الافتراء الباطل على الجنوب الذي تحب، لتشتعل حماسة في الدفاع عنه حتى عاد اللون إلى خديها، وامتلأت عيناها بالغضب. "أنت لا تعرف أيَّ شيء عن الجنوب. قد يكون هناك قدر أقل من المغامرة أو التطور، ولا أقول الحماسة، التي تبدو ـ من وجهة نظر الروح المقامرة للتجارة ـ شرطاً أساسياً لإطلاق هذه الاختراعات المذهلة، لكن هناك قدراً أقل من المعاناة أيضاً. رأيت رجالاً ينتشرون في الشوارع يطأطئون رؤوسهم أرضاً تحت ثقل الإحساس بالأسى والهم، وهم ليسوا مجرد أشخاص يعانون بل ويكرهون أيضاً. صحيح أن هناك فقراءَ في الجنوب، لكن لا يوجد ذلك التعبير المرعب في ملامحهم عن الإحساس المتضخّم بالظلم كالذي أراه هنا. أنت لا تعرف الجنوب يا سيد ثورنتِن". اختتمت جملتها وانهارت في صمتٍ محتوم، وهي تشعر بالغضب من نفسها لأنها قالت الكثير.

"وهل يمكنني القول إنك لا تعرفين الشمال؟" سألها السيد ثورنتِن، بلطفٍ لا يمكن تفسيره في نبرة صوته، بعد أن رأى أنه جرحها. لكن مارغريت واصلت صمتها بحزم، تتحرّق شوقاً إلى تلك التي تركتها وراءها في هامشاير، ويعتريها شغف جارف إليها إلى حد خشيت معه إن تكلمت أن يخرج صوتها مرتعشاً.

"على أي حال ياسيد ثورنتِن"، قالت السيدة هيل، "ستسمح لي بالقول إن ميلتِن أكثر دخاناً وقذارةً من أي بلدة ستراها في الجنوب".

"للأسف، يجب أن أتقبل قذارتها"، قال السيد ثورنتِن بابتسامة سريعة لامعة. "لكن البرلمان أمرنا أن نحرق دخاننا، ونحن مثل الأطفال الصغار الطيعِين نفعل ما نؤمر به...أحياناً".

"أظنـك أخبرتنـي بأنـك أدخلـت تعديـلاتٍ عـلى مداخـن المصنـع للقضـاء عـلى الدخان، أليـس كذلـك؟" سـأله السـيد هيل.

"أجريـت تعديـلات عـلى المداخـن بـإرادتي قبـل أن يتدخـل البرلمـان في هـذه المسـألة. أنفقـت الكثـير مـن المـال، لكنـه عـاد عـلي بالنفـع مـن خـلال توفـير الفحـم. لسـت متأكـداً إن كان واجبـاً عـليَّ القيـام بذلـك، لـو انتظـرت إلى حـين صـدور قـرار البرلمـان. أيـا كان الأمـر، كان يجـب عـليَّ أن أنتظـر حتـى يبلـغ أحـد عنـي وأدفـع الغرامـات، وأواجـه المتاعـب في الامتثـال لأمـر كنـت قـادراً عـلى تنفيـذه بطريقـة قانونيـة. غـير أن جميـع القوانـين التـي تسـتند في تطبيقهـا عـلى الوشـايات والغرامـات تصبـح غـير فعالـة مـن منظـور كراهيـة الآلـة. أشـك أن يكـون هنـاك مدخنـة واحـدة في ميلـتِن تـم الإبـلاغ عنهـا خـلال السـنوات الخمـس الأخـيرة، عـلى الرغـم مـن أن بعضـاً مـن تلـك المداخـن تطلـق باسـتمرار ثلـث فحمهـا الحجـري في مـا يسـمونه هنـا الدخـان الـلا برلمـاني".

"مـا أعرفـه فحسـب أنـه مـن المسـتحيل أن تبقـى سـتائر الموسـلين نظيفـة هنـا ولـو لأسـبوع واحـد، في حـين كنـا في هِلْسـتِن نتركهـا معلقـة لشـهر أو أكـثر مـن دون أن تتسـخ. أمـا بالنسـبة للأيـدي، كـم مـرة قلـت إنـك غسـلت يديـك هـذا الصبـاح قبـل السـاعة الثانيـة عـشرة؟ ثـلاث مـرات، أليـس كذلـك؟"

"نعم يا أمي".

"يبـدو أنـك تعـارض بشـدة قوانـين البرلمـان وكل التشريعـات التـي تؤثـر عـلى طبيعـة عملـك هنـا في ميلـتِن"، قـال السـيد هيـل.

"نعـم، هـذا صحيـح، وهنـاك آخـرون كُـثرٌ أيضـاً. مـن منظـور الحـق والعدالـة، كـما أرى. إن الآلات بمجملهـا، ولا أقصـد آلات الخشـب والحديـد الآن، في مجـال القطـن لا تـزال حديثـة العهـد، وليـس مسـتغرباً إن كانـت لا تعمـل بالشـكل المناسـب في كل جـزء منهـا دفعـة واحـدة. كيـف كانـت قبـل سـبعين عامـاً؟ وكيـف هـي الآن. تجتمـع المـواد الخـام معـاً، رجـال مـن المسـتوى نفسـه مـن حيـث التعليـم والمكانـة، اتخـذوا المواقـع المختلفـة للسـادة والنـاس بفضـل ذكائهـم الطبيعـي مـن حيـث الفـرص

والاحتمالات التي ميزت بعضاً منهم، وجعلتهم بعيدي النظر لما يخبئه المستقبل في ذلك النموذج البدائي للسير ريتشارد آركرايت[26]. هذا التطور السريع لما يمكن تسميته بالصناعة الجديدة منح هؤلاء السادة الرواد الثراء والسلطة، ولا أعني على العمال فحسب، بل وعلى المشترين، وعلى السوق العالمية بأسرها. يمكنني أن أعطيك مثالاً عن إعلانٍ كان يُطبع قبل خمسين عاماً على خامات القطن (بواسطة عدد محدود من الطابعات التي كانت منتشرة في ذلك الوقت) ويُوضع في جريدة ميلتِن يقول إن فلاناً سيغلق متجره منتصف الظهيرة كل يوم، أي على من يريد أن يشتري أن يأتي قبل ذلك الموعد. أما الآن، إن اختار زبون طيب أن يأتي في منتصف الليل، من الواجب عليّ أن أنهض وقبعتي في يدي بانتظار أوامره".

زمّتْ مارغريت شفتيها، لكنها كانت مجبرة على الاستماع إليه ولم يعد بمقدورها أن تركّز في أفكارها.

"لم أذكر هذه الأشياء إلا كي أوضح ماهية السلطة المطلقة إلى حد ما التي حظي بها أولئك الصناعيون مع بداية القرن الحالي حتى أصابتهم بالدوار. إن كان أحدهم قد نجح في مغامراته، فليس هناك سبب يدعو أن يكون عقله متوازناً في أمورٍ أخرى. على العكس تماماً، فقد قضى إحساسه بالعدل، وبساطته، اختناقاً تحت ثقل الثروة التي وقعت عليه، وهناك الكثير من الحكايات التي تروي عن بذخ العيش لدى سادة أمراء القطن الأوائل في أيام الاحتفالات والمهرجانات. لا شك بأنهم مارسوا الاستبداد والظلم على عمالهم. بالتأكيد أنت تعرف المثل الذي يقول، يا سيد هيل: "احذر حديث النعمة، فإن شبع غدَر وتجبَّر". وهذا ما فعله تماماً أصحاب المصانع الأوائل، وراحوا يسحقون عظام ولحم الناس تحت حوافر جبروتهم وغدرهم. لكن وبالمقابل، كانت هناك ردة فعل

---

(26) ريتشارد آركرايت (1732 ـ 1792) يُعدُّ ـ الأب الروحي للنظام الصناعي الحديث. مخترع إنكليزي ومن أوائل رجال الأعمال في بداية الثورة الصناعية. يعود إليه الفضل في تطوير نول الغزل المعروف باسم "النول المائي" بعد تعديله ليعمل بطاقة الماء. كما حصل على براءة اختراع لآلة ندف القطن الخام لتحويله إلى طياتٍ صالحة للغزل والنسيج.

تدريجية، المزيد من المصانع، وسادة جدد، وزيادة الطلب على اليد العاملة. هنا وقع التوازن بين سلطة السادة والعمال، وباتت الحرب بيننا وبينهم الآن تجري بشكل مُنصف. لن نقبل الخضوع لقرار إمبراطورية، فكيف سنقبل تدخل متطفلٍ لا يملك أدنى قدرٍ من المعرفة في حقائق المسألة وتفاصيلها، حتى لو كان هذا المتطفل ما يدعونه مجلس اللوردات في البرلمان".

"هل من الضروري تسميتُها حرباً بين طبقتين؟" سأل السيد هيل. "أنا أعلم، من خلال استخدامك لهذا المصطلح، بأن ذلك يعطي فكرة صحيحة عن التوصيف الحقيقي للأمور في عقلك".

"هذا صحيح، وأنا على قناعة بضرورة التسمية بالقدر نفسه الذي تعارضه الحكمة والتصرف الصالح دائماً، ومحاربة الجهل وقصر النظر. لعل من أجمل المزايا في نظامنا أن العامل قد يرقى بنفسه إلى موقع وسلطة السيد بجهده وسلوكه. وفي واقع الحال، إن أي شخصٍ يحكم نفسه بسلوك الفضيلة والاتزان، والاهتمام بواجباته، قادر على أن يبلغ مكانتنا، ليس بالضرورة كسيد، ولكن كمراقب للعمال، أو محاسب، أو أمين صندوق، أو موظف إداري، إلى جانب السلطة والنظام".

"إن كنت قد فهمتك بشكل صحيح، أنت تعدُّ جميع من نجحوا في الارتقاء بأنفسهم في العالم، أياً كان السبب والوسيلة، أعداءً لك". قالت مارغريت بصوت بارد وواضح.

"بل أعداء أنفسهم بالتأكيد"، أجاب سريعاً، من دون أن يشعر بالانزعاج من نبرة وشكل تعبيرها عن رفضها المتعالي. إلا أنه سرعان ما شعر بأن صراحته جعلته يشعر أن كلماته لم تكن سوى ردٍّ ضعيفٍ مواربٍ على ما قالته، وأنه من الواجب عليه أن يشرح ما كان يقصده بصدق قدر الإمكان، حتى لو كانت تستهزئ به، على الرغم من أنه كان من الصعب الفصل بين تفسيرها وبين ما كان يعنيه. لذلك رأى أنه كان من الأفضل لو قدم مثالاً من حياته الشخصية، ولكن أليس مستغرباً أن يتحدث عن أمر شخصي أمام الغرباء؟ على أي حال،

لا يخرج الأمر عن صراحته المعهودة في شرح ما يعنيه، لذلك وضع لمسة الحياء التي صبغت خديه الداكنتين للحظة جانباً وأضاف قائلاً:

"قبل ستة عشر عاماً، توفي والدي في ظروف بائسة. أخرجوني من المدرسة، وكنت مجبراً على أن أصبح رجلاً نافعاً قدر المستطاع. لديّ أم قل نظيرها، امرأة ذات إرادة قوية وعزم وتصميم. انتقلنا للعيش في بلدة ريفية صغيرة كانت الحياة فيها أرخص من ميلتِن، وعملت في متجر لبيع الأقمشة (كان بالمناسبة المكان الأساس لمعرفة أنواع البضائع). وأسبوعاً بعد أسبوع، بلغ مرتبي 15 شلناً يعتاش منها ثلاثة أشخاص. وتصرفت أمي بالمال على نحو كنت أوفر ثلاثة شلنات بشكل ثابت. وهكذا كانت البداية التي علمتني إنكار الذات. أما الآن بعد أن بت قادراً على أن أوفر لأمي ما يتطلبه سنُّها من راحة العيش لا كل ما تشتهيه، لا أتوقف عن شكرها صامتاً في كل مناسبة على ما علمتني وربتني عليه منذ البداية. الآن عندما أشعر، كما في حالتي أنا، أن الأمر لا علاقة له بالحظ أو الميزة، ولا حتى بالموهبة، إنما، بكل بساطة، بعادات الحياة التي علمتني أن أحتقر البذخ والإسراف الذي لا يكسبه المرء من كدحه وتعبه. بالفعل، لا أفكر بهذه الأمور مرتين. وأنا على يقين أن هذه المعاناة التي تقول الآنسة هيل إنها رأتها محفورة في وجوه الناس في ميلتِن ليست سوى عقاب طبيعي على لذة تمتعوا بها غِشاً في مرحلة سابقة من حياتهم. لا أرى أن المنغمسين بملذات الذات يستحقون كرهي لهم، بل أنظر إليهم باحتقار بسبب ضعف شخصيتهم".

"لكن لديك بقية من تعليم جيد"، علّق السيد هيل. "فهذه الحماسة السريعة التي تقرأ فيها حالياً هوميروس يؤكد لي أنك لست شخصاً جاهلاً؛ لا بد أنك قرأته من قبل، وتستعيد الآن معرفتك به".

"هذا صحيح، تعثرت به في المدرسة، حتى إني كنت أُعدُّ كلاسيكياً في تلك الأيام، رغم أني نسيت اللاتينية والإغريقية منذ ذلك الحين. لكني أسألك عما قدمته لي هذه الدراسات لإعدادي للحياة التي وجب علي خوضها؟ في الحقيقة، لا شيء البتة. فعلى ذكر التعليم، فكل شخصٍ يستطيع القراءة والكتابة يتساوى معي في مقدار المعرفة المفيدة التي كانت لدي في ذلك الوقت".

"لا أوافقك الرأي. فأنا إلى حد ما شخص أكاديمي. ألم تمنحك دراسة البساطة البطولية للحياة الهوميرية الحماسة والعزم؟"

"على الإطلاق!" أجابه السيد ثورنتِن متعجباً وهو يضحك. "لم يكن لدي الوقت الكافي للتفكير بالموتى، طالما أن الحياة كانت تشتد بضروراتها حولي جنباً إلى جنب في السعي لكسب لقمة العيش. لكن الآن وبعد أن وفرت لوالدتي الطمأنينة والراحة في مثل هذا السن، ورددت لها جميل صنيعها على ما بذلته من جهد في حياتنا، بات بمقدوري الالتفات إلى هذه القصص القديمة والاستمتاع بها".

"هذا صحيح، لكن ملاحظتي جاءت من إحساسي المهني بأنه لا شيء مثل التعليم في الصغر".

عندما نهض السيد ثورنتِن استعدادا للرحيل، بعد أن صافح السيد هيل وزوجته، تقدم نحو مارغريت ليودّعها بالطريقة ذاتها. وكان هذا أمراً مألوفاً بالنسبة للمكان، لكن مارغريت لم تكن مستعدة لذلك، فأحنت رأسها له، رغم شعورها بالأسف لعدم معرفتها بنيته في اللحظة التي رأت يده تمتد لمصافحتها قبل أن يسحبها بسرعة. لم يدر السيد ثورنتِن شيئاً عن أسفها هذا، فاستقام في مشيته منتصب القامة، وهو يتمتم أثناء مغادرته المنزل:

"لم أر في حياتي فتاة متعجرفة مثلها، حتى إن تعاليها هذا هو ما يحجب جمالها الفتّان عن ذاكرة المرء".

انطباعات أولية

"مارغريت!" قال السيد هيل، حالما عاد من توديع ضيفه أسفل السلم، "لم أستطع أن أمنع نفسي من مراقبة وجهك بينما كان السيد ثورنتِن يعترف بأنه كان "صبي دكان". علمت بهذه القصة من السيد بيل، لذا كنت أعرف بقيتها، لكنني لم أتوقع أن أراك تنهضين وتغادرين الغرفة".

"كلا يا أبي! هل تقصد بكلامك أنك تحسبني سخيفة إلى هذه الدرجة؟ لقد أعجبني فعلاً وصفه لنفسه أكثر من أي شيء آخر قاله. كل شيء آخر استفزني، ودفعني إلى النفور من قسوته، لكنه تحدث عن نفسه بكل بساطة، وبأقل قدر من الادعاء الذي يغلّف فظاظة أهل الدكاكين، وباحترام رقيق عن والدته حتى أنه كان أقل احتمالاً بالنسبة إليّ أن أغادر الغرفة مقارنة مع تباهيه بميلتِن وكأنه لا يوجد مثيل لها في العالم، أو عندما كان يحاضر حول احتقاره للناس على تبذيرهم الطائش وقصر نظرهم من دون أن يفكر بأن من واجبه أن يحاول تغييرهم، ويعطيهم أي شيء من التدريب الذي قدمته له والدته، والذي يعود إليه الفضل في المكانة التي وصل إليها الآن أياً كانت. كلا يا أبي إن حديثه عن إنه كان صبي دكان كان أفضل شيء أعجبني في كل ما قاله".

"عجيبٌ أمرك يا مارغريت"، قالت والدتها. "أنت من كنت تنعتين بعض الناس في هِلْستِن بأنهم "دكنجية"! لا أظنك يا سيد هيل كنت على صواب عندما عرفتنا إلى شخص مثل هذا من دون أن تخبرنا كيف كان. في الحقيقة كنت خائفة أن أُظهر له مقدار صدمتي لدي سماعي أجزاء من كلامه. والده

"توفي في ظروف بائسة" هل يمكن أن يكون قد قضى نحبه في دار العمل؟[27]".

"بل قد يكون أسوأ من دار العمل بكثير"، أجابها زوجها. "لقد سمعت من السيد بيل الكثير عن حياة السيد ثورنتِن الماضية قبل أن نأتي إلى هنا. وبما أنه أخبرنا جزءاً من حكايته، سأكمل لكم ما سكت عنه. كان أبوه يضارب في السوق بشكل كبير، لكنه خسر أمواله، فانتحر لأنه لم يستطع تحمُّل الفضيحة. انفض أصدقاؤه عن أسرته بعدما تبين أنه كان يقامر بطريقة غير شريفة بأموال الآخرين من أجل استعادة بعض الثروة التي خسرها. لم يتقدم أحد لمساعدة الأم والصبي، وكانت هناك طفلة لكنها كانت صغيرة ولا يمكنها العمل لكسب العيش. وكما أتخيل، لم تكن السيدة ثورنتِن ذلك النوع من الأشخاص الذين ينتظرون العطف البطيء المتردد. غادرت الأسرة بلدة ميلتِن. وعلمتُ بأن الابن عمل في متجر، ومما كان يكسبه، إلى جانب جزء يسير من عقار أو ملكية كانت لوالدته، استطاعت الأسرة تدبر معيشتها، بل حتى إن السيد بيل أخبرني أنهم عاشوا على عصيدة الماء لفترة طويلة، ولكن كيف، لم يعرف. وبعد مدة طويلة من يأس الدائنين من استعادة أموالهم من السيد ثورنتِن الكبير (هذا إن كان لديهم أمل منذ البداية باستعادتها)، عاد الشاب ثورنتِن، وجال بهدوء على الدائنين ليسدد لهم القسط الأول من ديونهم. وجرى الأمر بهدوء ومن دون ضجة أو تجمع الدائنين حتى دُفعت الديون بأكملها في نهاية المطاف، ويقال إن من ساعد على ذلك كان واحداً من الدائنين، صديق قديم لوالده، ورجل مشاكس (كما يقول السيد بيل) اتخذ من السيد ثورنتِن الشاب شريكاً له".

"هذا رائع حقاً"، قالت مارغريت. "لكن من المؤسف أن تتلطخ طبيعة كهذه بمكانته كرجل الصناعة في ميلتِن".

"كيف تلطخت؟" سألها والدها.

(27) يُعرف بالإنكليزية باسم (workhouse)، وهو مؤسسة رسمية انتشرت في بريطانيا لتوفير المأوى والعمل لغير القادرين على إعالة أنفسهم، حيث كانوا يُحتجزون داخل الدار، ويُمنعون من المغادرة إلا بإذن رسمي من الكاتب بالعدل بعد تقديم التبرير المناسب. يعود تاريخ هذه المؤسسة إلى ما يُعرف بـ "قانون كيمبريدج" 1388الذي كان يُقصد منه فعلياً تعويض نقص اليد العاملة بعد تفشي مرض الطاعون الذي قضى على الآلاف عام 1348. (م)

"بقياسه كل الأشياء بمقياس الثروة. عندما تحدث عن الطاقة الميكانيكية، كان واضحاً أنه يراها طريقة جديدة لتوسيع التجارة وجمع المال فحسب. أما الناس الفقراء حوله، فكانوا فقراء لأنهم أشرار، خارج حدود تعاطفه معهم لأنهم لم يمتلكوا تلك الطبيعة الحديدية والقدرات التي نالها بكونه ثرياً".

"ليسوا أشراراً، لم يقل هذا مطلقاً، بل قصيري نظر، ينغمسون بملذات الذات؛ هذا ما قاله".

كانت مارغريت تجمع النسيج الذي كانت تعمل عليه أمها وأدواتها، وتستعد للذهاب إلى السرير. وبينما كانت تغادر الغرفة، توقفت مترددة، شعرت بالرغبة بأن تقدم رأياً ظنت أنه سيُرضي والدها، ولكن إن كان من المفترض أن يكون معبِّراً وصادقاً، فلا بدَّ أن ينطوي على قليلٍ من الإزعاج. وأخيرا بقَّت البحصة: "أبي، لا أظن أن السيد ثورنتِن رجل مميز، وبالنسبة إليّ شخصياً، لا يعجبني على الإطلاق".

"لكنه يعجبني" ردَّ عليها والدها ضاحكاً. "شخصياً، لا أرفعه إلى مرتبة البطل، أو أي شيء من هذا القبيل. تصبحين على خير يا طفلتي. أمك تبدو متعبة جداً على نحو مُحزن هذه الليلة، يا مارغريت".

سبق لمارغريت أن لاحظت وجه أمها المنهك بالقلق خلال الفترة الماضية، وجاءت ملاحظة أبيها لتدفعها إلى الذهاب للنوم وخوف مبهم يجثم بثقله على صدرها. كانت الحياة في ميلتِن مختلفة عن تلك التي اعتادت عليها السيدة هيل في هِلْستِن حيث كانت تخرج وتدخل دائماً في هواء منعش، أما هنا فحتى الهواء نفسه كان مختلفاً، خالياً من أي عنصر منشِّط، فضلا عن الشؤون والهموم المنزلية التي اشتدت ضيقاً، وبشكل جديد وكريه على جميع نساء الأسرة. كل ذلك كان سبباً كافياً لتشعر مارغريت بالخوف على صحة والدتها. كما كانت هناك دلائل إضافية تشي بوجود أمرٍ ما تعاني منه السيدة هيل. فقد دأبت والدتها على تبادل تلك الأحاديث الغامضة في غرفة نومها مع ديكسِن التي كانت تخرج وهي تبكي وترسم

علامـة الصليـب عـلى صدرهـا تعاطفـاً مـع أي ألم أو ضيـق كانـت تعـاني منـه سـيدتها. ذات مـرة دخلـت مارغريـت خلسـةً إلى غرفـة والدتهـا بعـد أن تركتهـا ديكسِـن لتجـد أمهـا راكعـة عـلى ركبتيهـا تدمـدم ببضـع كلـمات كانـت، كـما كان واضحـاً، جـزءاً مـن صـلاة تدعـو فيهـا اللـه أن يمنحهـا الصـبر والقـوة لاحتـمال ألم مـبرح في جسـدها. تمنـت مارغريـت عندئـذٍ لـو تُعيـد وصـل الثقـة الحميمـة التـي انفصلـت عُراهـا مـع والدتهـا، بسـبب إقامتهـا الطويلـة في منـزل خالتهـا شـو، وحاولـت جاهـدة بشـتى أنـواع الملاطفـة والكلـمات الرقيقـة أن تتسـلل إلى أكـثر الموضوعـات دفئـاً في قلـب والدتهـا. لكـن وعـلى الرغـم مـن أنهـا لقيـت مـن والدتهـا كل حـب وود غامريـن كـما كانـت تفعـل في السـابق، شـعرت أن والدتهـا تخفـي عنهـا سرّاً بشـأن وضعهـا الصحـي. بقيـت مارغريـت مسـتيقظة لفـترة طويلـة تلـك الليلـة، وهـي تخطـط كيـف يمكـن لهـا أن تخفِّـف مـن هـذا التأثـير المشـؤوم للحيـاة في ميلـتِن عـلى والدتهـا. فكـرت بـضرورة العثـور عـلى خادمـة تقـدم مـا تحتاجـه ديكسِـن مـن مسـاعدة دائمـة في أعـمال المنـزل، حتـى لـو اضطرهـا ذلـك للتفـرّغ كليّـاً في البحـث عـن واحـدة، ومـن ثـم يمكـن لوالدتهـا أن تحظـى برعايـة كاملـة كالتـي اعتـادت عليهـا سـابقاً. أمضـت مارغريـت أيامـاً عـدة في زيـارة مكاتـب السـجل المـدني، وعاينـت مـن يمكـن أن يصلـح أو لا يصلـح لهـذه المهمـة. وفي عـصر أحـد الأيـام، صادفـت بيـسي هيغينـز في الشـارع، فتوقفـت وتحدثـت معهـا:

"حسـناً بيـسي، كيـف حالـك؟ آمـل أنـك أصبحـت في حـال أفضـل، فقـد تغـير الطقـس الآن".

"أفضل ولست أفضل، إن كنت تفهمين ما أقصد".

"ليس تماماً"، قالت مارغريت وهي تبتسم.

"أنـا في حـال أفضـل لأن السـعال لم يمزقنـي إربـاً إربـاً خـلال الليـل، لكنـي مـا زلـت متعبـة ولا أسـتطيع احتـمال العيـش في ميلـتِن، أتمنـى لـو أذهـب بعيـداً إلى أرضٍ

بعولـة[28]. وعندمـا أتصـور نفـسي أذهــب بعيـداً يغـوص قلبـي. لا لســت في حــال أفضــل، بــل أســوأ". اســتدارت مارغريــت لتمــشي إلى جانــب الفتــاة في خطواتهــا الضعيفـة المتعبـة باتجـاه المنـزل. سـاد الصمـت لدقيقـة أو دقيقتـين قبـل أن تتحـدث مارغريــت إلى الفتــاة بصــوت منخفــض:

"بيـسي، هـل تتمنـين المـوت؟"، فهـي كانـت تخـشى فكـرة المـوت مـع تعلقهـا بالحيـاة كأمـر طبيعـي بالنسـبة لفتـاة شـابة موفـورة الصحـة.

بقيت بيسي صامتة دقيقة أو دقيقتين، ثم أجابتها:

"لـو كنـت تعيشـين الحيـاة التـي أعيشـها، ونـال منـك التعـب مـا نـال منـي، وراودتـك الأفــكار مــراتٍ ومــرات بأنهــا قــد تمتــد خمســين أو ســتين عامــاً، وأنــت تشــعرين بالــدوار والتعــب، حتــى تتبــدى لــك كل ســتين عامــاً وكأنهــا تــدور حولــك، وتســخر منـك بسـاعاتها ودقائقهـا ونتـفٍ لا تنتهـي مـن الزمـن...آه يـا فتـاة! أقـول لـك أنـك كنـت ستشـعرين بالسـعادة عندمـا يقـول لـك الطبيـب إنـه يخـشى أنـك لـن تـري شــتاءً آخــر".

"لماذا يا بيسي، كيف كانت حياتك؟"

"ليسـت أسـوأ مـن آخريـن كُثر، حسـب مـا أظـن. لكنـي انشـغلت بالتفكـير بهـا، أمـا هـم فلـم يكترثـوا".

"كيـف كانـت؟ أنـت تعلمـين أني غريبـة هنـا، وربمـا لا أفهـم بسرعـة مـا ترمـين إليـه وكأني عشــت حيــاتي كلهــا في ميلــتِن".

"لـو أتيـت إلى منزلنـا كـما وعـدت، لكنـت أخبرتـك. لكـن أبي يقـول إنـك لا تختلفـين عــن الآخريــن: مــن غــاب عــن العــين ســلاه القلــب".

"لا أعلـم مـن هـم أولئـك الآخـرون. كنـت مشـغولة، ولأكـون صادقـة في كلامـي، لقـد

---

(28) بيـولاه لانـد: نشـيد إنجيـلي كتبـه إدغـار بيـج سـتايتس (1863 ـ 1921) ولحنـه جـون آر سـويني (1837-1899) مُسـتوحى مـن سـفر إشـعيا (الإصحـاح 62: -64): لا يقـال بعـد لـك مهجـورة ولا يقـال بعـد لأرضـك موحشـة بـل تدعـين حفصيبـة وأرضـك تُدعـى بعولـة. لان الـرب يُسَرُّ بـك وأرضـك تصـير ذات بعـل. لأنـه كـما يتـزوج الشـاب عـذراء يتزوجـك بنـوك. وكَفَـرحِ العريـس بالعـروس يفـرح بـك إلهُـك. أمـا فكـرة الربـط بـين بيـولاه والجنـة، فجـاءت في كتـاب سـياحة المسـيحي لجـون بَنْـيِن. (م)

نسيت وعدي...".

"أنت من عرضتِ، لم نطلب منك ذلك".

"لقد نسيت ما قلت في ذلك الحين"، واصلت كلامها بهدوء. "كان يجب عليَّ أن أفكر بالأمر ثانية عندما لم أعد مشغولة أكثر. هل يمكنني أن أذهب معك الآن؟". نظرت بيسي إلى وجه مارغريت نظرة سريعة لترى إن كانت تشعر حقاً بالرغبة التي عبَّرت عنها. وحالما التقت عيناها مع نظرة مارغريت اللطيفة الودودة، استحالت حدة نظرتها إلى توق محزون.

"ليس لدي أناس كثيرون يهتمون لأمري، إن كنت تهتمين حقاً، تعالي". ومشت الفتاتان معاً بصمت. وعندما وصلتا إلى ساحة تتفرع إلى شارع قذر، قالت بيسي:

"هل ستنزعجين إن كان أبي في المنزل، وتكلم قليلاً بطريقة خشنة في البداية. لقد لفتِ انتباهه، وكان ينتظر قدومك لزيارتنا، ولأنك نلت إعجابه، انزعج وبدَّل رأيه".

"لا تخشِ شيئاً يا بيسي".

لكن نيكولاس لم يكن في المنزل عندما وصلتا. كانت هناك فتاة متسخة المظهر، أصغر سناً من بيسي، لكنها أطول قامة وأقوى جسداً، مشغولة عند حوض الغسيل تتنقل بين قطع الأثاث بطريقة فوضوية، وتُحدث ضجيجاً استفز مارغريت انطلاقاً من تعاطفها مع بيسي المسكينة التي جلست على أول كرسي صادفته منهكة القوى من المشي. طلبت مارغريت من الأخت كأساً من الماء، وعندما ذهبت لإحضاره (اصطدمت بعدة موقد النار، وتعثرت بكرسي كان في طريقها). سارعت مارغريت إلى فك رباط قلنسوة بيسي لتساعدها على التنفس.

"هل ترين أن حياة كهذه تستحق أن تُعاش؟"، شهقت بيسي. بقيت مارغريت صامتة وقربت كأس الماء من شفتيها. عبت بيسي الماء عميقاً، ثم استلقت على الكرسي وأغمضت عينيها، وسمعتها مارغريت تتمتم: " لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيءٌ من الحر[29]".

(29) سفر الرؤيا، الإصحاح 7: 16.

انحنـت مارغريـت فـوق بيـسي وقالـت لهـا: "بيـسي، لا تكرهـي حياتـك أيـاً كانـت أو قـد تكـون. تذكـري مـن الـذي منحـك الحيـاة وقدَّرهـا أن تكـون عـلى مـا هـي عليـه".
جفلـت مارغريـت عندمـا سـمعت نيكـولاس ـ الـذي لم تنتبـه إلى دخولـه ـ يتكلـم وهـو يقـف وراء ظهرهـا.

"لـن أسـمح لأحـد أن يلقـي المواعـظ عـلى ابنتـي. يكفيهـا مـا تعانيـه مـع أحلامهـا وتخيلاتهـا لمـدن ذات بوابـات ذهبيـة مرصّعـة بالأحجار الكريمـة. إن كان ذلـك يرضيها، فليكـن، لكنـي لـن أقبـل أن يحشـو أحدهـم رأسـها بالمزيـد مـن هـذه الأفـكار".

"لكـن بالتأكيـد"، استدارت مارغريـت نحـوه، "أنـت تؤمـن بمـا قلـت. اللـه هـو منحها الحيـاة وقدَّرهـا عـلى مـا هـي عليه؟".

"أنـا أؤمـن بمـا أرى، ولا شيء آخـر. هـذا مـا أؤمـن بـه. لا أصـدق كل مـا أسـمع...لا! ليـس بالأمـر المهـم. سـمعت فتـاة شـابة تريـد أن تعـرف أيـن نعيـش، وأنهـا تريـد زيارتنـا. وانتظـرت ابنتـي ذلـك، وكـم مـرة فرحـت، وأنـا أنظـر إليهـا، عندمـا كانـت تسـمع وقـع أقـدامٍ غريبـة. لكنهـا أتـت أخـيراً، وهـي موضـع ترحيـب، طالمـا أنها لـن تلقي عليهـا وعظاً حـول أشـياء لا تعـرف شـيئاً عنهـا". كانـت بيـسي تنظـر إلى وجـه مارغريـت، اعتدلـت في جلسـتها ووضعـت يدهـا عـلى ذراع مارغريـت وكأنها تسـتجديها. "لا تنزعجي منـه، هناك الكثـيرون ممـن يفكـرون مثلـه، مـا أكثرهـم هنـا. لـو قُـدِّرَ لـك أن تسـمعي أحاديثهـم، لمـا شـعرت بالصدمـة مـن كلامـه. إنـه أبٌ طيـب، لا مثيـل له...ولكـن!" قالـت بيـسي، وعـادت إلى شـعورها باليـأس، "مـا يقولـه في بعـض الأحيـان، يجعلنـي أتمنـى المـوت أكـثر مـن أي وقـت مـضى، لأني أريـد أن أتعلـم أشـياء كثـيرة أنـا محتـارة في مـا بينهـا".

"لا أيتهـا الفتـاة، لا أريـد مضايقتـك أبـداً، بـل أنـا رجـلٌ يجـب عليـه أن يقـول الحـق، وعندمـا أرى العـالم يتخبـط في هـذا الزمـن، ويشـغل نفسـه بمسـائل لا يعـرف عنهـا شـيئاً، ويـترك أمـوراً بـين يديـه في حالـة فـوضى، لِـمَ كل هـذا، عندهـا أقـول كفـوا عـن الحديـث في الديـن واعملـوا عـلى مـا هـو واقـع تحـت أيديكـم؛ ترونـه وتعرفونـه. هـذا هـو دينـي وعقيـدتي. أمـر في غايـة البسـاطة، وليـس صعبـاً".

لكن الفتاة توسلت إلى مارغريت أكثر من ذي قبل.

"لا تظني به سوءاً، إنه رجل طيب. أفكر أحياناً بأن الحزن سيأكلني حتى في الجنة إن لم يكن أبي هناك". تلوَّن خداها بحمرة الحمى التي غطّت بلهيبها عيني الفتاة. "لكنك يا أبي ستكون هناك بكل تأكيد! آه قلبي!" ووضعت يدها على صدرها، وشحب وجهها بشكل مُفزع.

احتضنتها مارغريت بين ذراعيها، وأراحت رأس الفتاة المنهك على صدرها، وأبعدت خصلات الشعر عن صدغيها ومسحتها بالماء. أدرك نيكولاس من تصرفاتها معانيَ مختلفة للحب، حتى الأخت ذات العيون المدورة راحت تتحرك برشاقة هادئة نزولاً عن طلب مارغريت منها ألا تحدث ضجيجاً. مرت النوبة التي كادت تقترب من الموت. نهضت بيسي، وقالت:

"سأذهب إلى السرير، أفضل مكان لدي، لكن"، وأمسكت بفستان مارغريت، "ستعودين لزيارتي، أنا أعلم ذلك، لكن قوليها فحسب!".

"سآتي غداً".

استندت بيسي على أبيها الذي حملها بين ذراعيه وصعد بها السلم، لكن وبينما كانت مارغريت تهم بالمغادرة، راح يغالب نفسه بالقول: "أتمنى لو كان الله موجوداً لأطلب منه أن يباركك".

غادرت مارغريت المنزل مثقلة بالحزن والهم.

"تأخرت مارغريت عن موعد جلسة الشاي في المنزل. في هِلْستِن، كان عدم الالتزام بمواعيد وجبات الطعام خطأً لا يُغتفر بالنسبة إلى والدتها، أما الآن، يبدو أن هذا التأخر، إلى جانب أشياء أخرى من الفوضى، فقد قدرته على إثارة غضبها، وإن كانت مارغريت تحن إلى تذمر والدتها القديم.

"هل وُفقت في العثور على خادمة يا عزيزتي".

"كلا يا أمي، لو كانت آن بَكْلي[30] هي من كانت تبحث لما وجدت".

"لِمَ لا أجرب حظي،" قالت السيدة هيل. "الجميع كان لهم دور في محاولة

(30) واحدة من السيدات الثريات المشهورات. (م)

حـل هـذه المشـكلة العويصـة. دعـوني أحـاول لعلنـي أكـون سـندريلا التـي سـتحظى بالحـذاء المناسـب في نهايـة المطـاف".

لم تسـتطع مارغريـت أن تبتسـم لهـذه النكتـة بسـبب الحـزن الـذي كان يتحكـم بهـا منـذ زيارتهـا لأسرة هيغينـز.

"ماذا ستفعل يا أبي؟ كيف ستحل هذه المشكلة؟".

"سأستشـير سـيدة منـزل صالحـة كي تـزكي لي واحـدة تعرفهـا شـخصياً، أو يعرفهـا أحـد مـن خَدَمِهـا".

"نعم الرأي، لكن علينا أن نجد سيدة المنزل الصالحة أولاً".

"لقـد وجدتِهـا سـلفاً، أو بالأحـرى سـتأتي إلى الفـخ برجليهـا، ويمكنـك أن تصطاديهـا، إن كنـت ماهـرة".

"ماذا تقصد، يا سيد هيل؟" سألته زوجته التي أثار كلامه فضولها.

" أخبرني طالبـي النموذجـي (كـما تسـميه مارغريـت) أن والدتـه تنـوي زيـارة السـيدة والآنسـة هيل غـداً".

"السيدة ثورنتِن!"، تعجبت السيدة هيل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"والدة الرجل الذي تحدث إلينا؟" قال مارغريت.

"لا أظن أنه لديه أمّ غيرها، كما أعتقد"، قال السيد هيل بهدوء.

"أود أن ألتقيها، لابد أنّها شخص غير عادي" أضافت والدتها.

"ربمـا تعـرف واحـدة تناسـبنا، وتكـون سـعيدة معنـا. تبـدو لي بأنهـا شـخص عـلى قـدرٍ كبـير مـن الحـرص والتدبـير يكفينـي لأعجـب بـأي شـخص يأتينـي مـن طـرف تلـك الأسرة".

"عزيـزتي، أرجـوك لا تسرحـي بعيـداً بهذه الأفكار. فالسـيدة ثورنتِن، حسـب مـا أظن، متكبرة ومعتـزة بنفسـها عـلى طريقتهـا، كـما هـو الحـال مـع ابنتنـا مارغريـت هنـا، ولا شـك بأنها نسـيت أيـام الشـقاء والحـرص التـي مضـت، والتـي تحـدث عنهـا ابنهـا بـكل صراحـة. كـما أننـي واثـق أنهـا، عـلى أي حـال، لا تحـب أن يعـرف الغربـاء أي شيء عـن هـذا الموضـوع".

"حبـذا لـو انتبهـت يـا أبي أن هـذا النـوع مـن التعـالي، إن كان لـديّ فعـلاً شيءٌ منـه، لا ينطبـق عـلي، ولا أوافقـك الـرأي فيـه عـلى الرغـم مـن أنـك دائمـاً مـا تتهمنـي بـه".

"ولا أقصـد قطعـاً أنهـا كذلـك أيضـاً، لكـن هـذا مـا تـراءى لي مـما اسـتخلصته من كلامه".

لم تكـترث الأم وابنتهـا بالاستفسـار عـن الطريقـة التـي تحـدث بهـا السـيد ثورنـتِن عـن والدتـه. كل مـا كانـت تريـده مارغريـت هـو إن كان يتعـيّن عليهـا البقـاء في المنـزل لاسـتقبال الضيـوف، الأمـر الـذي سـيمنعها مـن زيـارة بيـسي والاطمئنـان عليهـا حتـى وقـت متأخـر مـن النهـار، طالمـا أنهـا ستنشـغل صباحـاً في أمـور المنـزل كـما هـي العـادة. عندئـذ تذكـرت مارغريـت أنـه مـن غـير الـوارد أن تـترك أمهـا تتحمـل عـبء اسـتقبال ضيفتهـا لوحدهـا.

زيارات صباحية

واجه السيد ثورنتِن بعض المصاعب في رفع سوية والدته إلى الدرجة المطلوبة من الكياسة والدماثة وسلوك المجاملات. إذ قلما كانت تقوم بزيارات، وعندما كانت تفعل، كانت تقوم بها بحالة من التثاقل التي عادة ما تؤدي بها واجباتها. اشترى لها ابنها عربة، لكنها رفضت أن تحتفظ بالخيول التي كانت تُستَأجر للمناسبات المهمة، عندما تقوم بزيارات صباحية أو مسائية. كانت تستأجر الخيول لمدة ثلاثة أيام، وليس لأسبوعين، ونجحت بأريحية كبيرة "في القضاء" على صلتها بكل معارفها الذين، بدورهم، قد يعرضون أنفسهم الآن للمتاعب والنفقات. غير أن كرامبتِن كانت على مسافة بعيدة لا يمكن لها أن تقطعها سيراً على الأقدام. وكانت قد سألت ابنها مراراً إن كانت رغبته بأن تزور آل هيل جادة بما يكفي لتحمّل نفقات استئجار عربة. كانت تتمنى لو لم تكن كذلك، لأنها، كما قالت، "لا ترى جدوى من عقد صداقات وعلاقات حميمة مع كل السادة والأساتذة في ميلتِن، وإلا سيرغب ابنها أن تقوم والدته المرة المقبلة بزيارة زوجة معلم الرقص لأخته فاني!".

"بالطبع كنت لأطلب منك ذلك لو كان السيد ماسون وزوجته بلا أصدقاء في مكان غريب مثل آل هيل".

"حسناً! لا داعي لأن تتسرع في كلامك. أنوي زيارتهم غداً. أردتكَ أن تفهم الأمر فحسب".

"بما أنك ستذهبين غداً لزيارتهم، سأرسل في طلب الخيول".

"هذا كلام فارغ، يا جون. قد يظن أحد ما أنك محشوٌّ بالمال".

"ليس بعد. أما بشأن الخيول، فأنا مُصرّ، فآخر مرة ركبت فيها عربة أجرة، عدت إلى البيت تعانين من الصداع بسبب الاهتزاز".

"لكني لم أشتكِ من ذلك أبداً".

"كلا، أمي لا تستسلم للشكوى"، قال باعتزاز. "لكن علي أن أعتني بك أكثر. أما بالنسبة لفاني، فقدرٌ قليلٌ من القسوة سيكون في صالحها".

"إنها ليست مثلك، يا جون. لا يمكنها احتمال ذلك". التزم السيد ثورنتِن الصمت بعد هذه العبارة التي تتصل بموضوعٍ يسبب لها الحرج. إذ كان لديها ازدراء لا شعوري حيال الشخصية الضعيفة؛ وكانت فاني ضعيفة في الجوانب ذاتها التي كانت والدتها وشقيقها جون يتمتعان بالقوة فيها. لم تكن السيدة ثورنتِن امرأة تتمتع بتفكير منطقي؛ فالتسرع في إصدار الأحكام وقراراتها الحازمة عادة ما كانت تساعدها في أي نقاش طويل مع ذاتها. وكانت تشعر على نحو غريزي أن لا شيء يمكن أن يمنح فاني القوة للصبر على الشدائد، ولا على مواجهة المصاعب بشجاعة. وعلى الرغم من أنها كانت ترتعد فزعاً من الاعتراف بهذا الأمر لنفسها، إلا أنه منحها رقة شفوقة حيال ابنتها لا تختلف كثيراً عن السلوك الذي اعتادت الأمهات التعامل به مع أطفالهن الضعفاء معتليّ الصحة. قد يتراءى لمراقبٍ غريب لا يهمه الأمر أن طريقة تعامل السيدة ثورنتِن مع ولديها تدل على أنها تحب فاني أكثر من جون، لكن هذا الاستنتاج ليس صحيحاً. فالجرأة ذاتها التي كان يتكلم بها الابن والأم حول الحقائق القاسية الكريهة أظهرت اعتمادهما على المركز الصلب والثابت لشخصيتيهما. في حين أن رقتها القلقة حيال ابنتها، والخجل الذي ظنت أنه يمكن بوساطته أن تخفي فقر طفلتها عبر تلك الصفات الجليلة التي كانت الأم تمتلكها بطريقة لا شعورية، والتي كانت تعدُّها ذات أهمية كبيرة في الآخرين ـ هذا الخجل، يمكن القول، هو ما كشف حاجتها إلى مرقد آمن لعاطفتها. لم تكن تنادي ابنها إلا باسمه "جون، في حين احتفظت بالتعابير اللطيفة مثل "عزيزتي، حبيبتي" وما شابه لابنتها فاني. لكنها وفي أعماق قلبها، كانت تلهج له بالثناء والشكر ليلاً نهاراً، وتمشي بين النساء معتزة بنفسها كُرمى له.

"عزيـزتي فـاني، سنسـتأجر خيـولاً مـن أجـل العربـة اليـوم لزيـارة أولئـك المدعويـن آل هيـل. ألا يجـدر بـك أن تذهبـي إلى الممرضـة، إنهـا تسـكن في الاتجـاه نفسـه، إنهـا دائمـاً تسـعد برؤيتـك. يمكنـك أن تذهبـي إليهـا أثنـاء زيـارتي للسـيدة هيـل".

"إنها مسافة طويلة يا أمي، وأنا متعبة جداً".

"مِمَ؟" سألت السيدة ثورنتِن، وقد قوست جبينها قليلاً.

"لا أدري...مـن الطقـس، عـلى مـا أظـن. إنـه يبعـث عـلى الخمـول. ألا يمكنـك أن تحضريهـا إلى هنـا يـا أمـي؟ يمكنهـا أن تـأتي بالعربـة، وتُمـضي بقيـة النهـار هنـا، وهـي تحـب ذلـك، حسـب علمـي".

لم تقـل السـيدة ثورنـتِن شـيئاً، ووضعـت النسـيج الـذي كانـت تعمـل عليـه فـوق الطاولـة، وأخـذت تفكـر.

"لكنـه مـن الصعـب عليهـا أن تمـشي هـذه المسـافة الطويلـة للعـودة إلى المنـزل في الليـل!" قالـت لهـا أخـيراً.

"لكنـي سأرسـلها في عربـة أجـرة. لم يخطـر عـلى بـالي مطلقـاً أن تعـود إلى منزلهـا مشـياً". في هـذه اللحظـة، دخـل السـيد ثورنـتِن إلى الغرفـة قبـل أن يذهـب إلى المصنع.

"لا داعـي لأقـول لـك يـا أمـي، إن كان هنـاك أي شيء مهـما كان صغـيراً يمكـن أن يفيـد السـيدة هيـل المريضـة، سـتقدمينه لهـا، أنـا واثـق مـن ذلك".

"إن اكتشـفت الأمـر، فأنـا لم أمـرض مـن قبـل، وليـس باسـتطاعتي أن أسـاعد كثـيراً في "تهيـؤات" المـرضى".

"حسـناً! لديـك فـاني التـي قلـما تكـون مـن دون علـة مـا، ستسـاعدك في هـذا الأمـر، ربما...أليـس كذلـك يافـاني؟".

"أنـا لسـت دائمـاً مريضـة"، قالـت فـاني بـدلال طفـولي، "لـن أذهـب مـع أمـي. أعـاني مـن صـداع اليـوم، ولـن أخـرج مـن المنـزل".

بـدا السـيد ثورنـتِن منزعجـاً. انكبـت والدتـه عـلى عملهـا حيـث كانـت تقـوم بترقيـع القـماش أمامهـا بـكل نشـاط.

"فـاني! أتمنـى أن تذهبـي"، قـال السـيد ثورنـتِن بلهجـة آمـرة. "سـيكون هـذا في صالحـك. سـتجعليني مدينـاً لـك بذلـك، مـن دون أن أقـول شـيئاً إضافيـاً عـن هذا الأمر".

ثم خرج من الغرفة بعدما أنهى عبارته.

لـو بقـي دقيقـة أخـرى، لكانـت فـاني قـد بـدأت بالبـكاء عـلى لهجتـه الصارمـة حتـى عندمـا اسـتخدم عبـارة "سـتجعليني مدينـاً لـك بذلـك". كـما هـو الحـال، راحـت تئن وتشتكي.

"دائمـاً يتكلـم جـون معـي وكأني أدّعـي المـرض. وأنـا متأكـدة بـأني لا أفعـل شـيئاً مـن هـذا القبيـل. مـن هـم آل هيـل الذيـن يهتـم بهـم إلى هـذه الدرجـة؟".

"فـاني، لا تتكلمـي عـلى أخيـك بهـذه الطريقـة. لديـه أسـبابٌ قويـة مـن نـوع مـا، وإلا مـا كان ليطلـب منـا أن نذهـب. هيـا أسرعـي وارتـدي ملابسـك".

هـذا الاحتـكاك البسـيط بـين ابنتهـا وابنهـا لم يدفـع السـيدة ثورنـتِن أن تميـل لصالـح "آل هيـل". فقـد كـرر قلبهـا المـليء بالغـيرة سـؤال ابنتهـا "مـن هـم ليكـون حريصـاً عـلى أن نهتـم بهـم إلى هـذا الحـد؟" عاودهـا السـؤال كـما اللازمـة التـي تتكـرر في الأغنيـة، حتـى بعـد فـترة طويلـة مـن نسـيان فـاني للمسـألة برمّتهـا، لاسـيما بعـد سرورهـا برؤيـة القلنسـوة الجديـدة في المـرآة.

كانـت السـيدة ثورنـتِن خجولـة بطبعهـا، ولم تشـعر بالراحـة الكافيـة لتختلـط مـع النـاس إلا منـذ سـنوات قليلـة خلـت، ومـع ذلـك لم تسـتمتع بهـذا الأمـر كثـيراً. لكـن هـذا لم يمنـع شـعورها بالـرضى لـدى حضـور حفـلات العشـاء وانتقـاد النـاس بسـبب هـذه الحفـلات. أمـا الذهـاب للتعـرف إلى أنـاس غربـاء، فقـد كان هـذا أمـراً مختلفـاً. لذلـك وحالمـا دخلـت إلى غرفـة الضيـوف الصغـيرة في منـزل آل هيـل، راودهـا شـعور بالضيـق، وبـدت أكـثر صرامـة وجلافـة مـما هـي عليـه في العـادة.

كانـت مارغريـت مشـغولة بتطريـز قطعـة مـن قـماش قطنـي ناعـم لخياطتـه كثـوب لمولـود إيديـث المنتظـر. "عمـل مهلهـل، لا فائـدة منـه"، تمتمـت السـيدة ثورنـتِن التـي أُعجبـت أكـثر بحياكـة السـيدة هيـل ذات القطبـة المزدوجـة والتـي كانـت تتقنهـا.

كانت الغرفة مليئة بالزينة التي لا بد أنها تستهلك وقتاً طويلاً في نفض الغبار عنها، والوقت بالنسبة إلى ذوي الدخل المحدود كان يعني المال. راودتها كل هذه الأفكار والخواطر بينما كانت تتحدث بطريقتها الجليلة المهيبة إلى السيدة هيل، وتستخدم العبارات الجاهزة المألوفة التي يسوقها الناس في أحاديثهم من دون التفكير فيها. كذلك كانت السيدة هيل تبذل المزيد من الجهد في إجابتها وقد لفت انتباهها صداراً مخرماً قديم الطراز كانت ترتديه السيدة ثورنتِن، حتى أنها لم تستطع أن تمنع نفسها لاحقاً من التعليق على ذلك أمام ديكسِن "صدار مخرم عتيق لم يعد يصنعه أحد منذ سبعين عاماً، ولا يمكن شراؤه بالطبع، لا بد أنه من إرث عائلتها، وهذا يدل على أن لها أسلافاً". وهكذا باتت السيدة صاحبة الصدار المخرم الموروث تستحق شيئاً أكثر من مجرد جهد عادي يليق بها كضيف والذي على الأرجح كان من شأنه أن يقيد حيوية السيدة هيل في تبادل الحديث. في تلك اللحظة، كانت مارغريت ترهق دماغها بالحديث مع فاني، عندما سمعت والدتها والسيدة ثورنتِن يتكلمان بشأن موضوع الخادمات الذي لا ينتهي.

"لا أظن أنك تحبين الموسيقى"، قالت فاني، "إذ لا أرى بيانو هنا".

"أنا مولعة بالموسيقى الجيدة، صحيح أنا لا أعرف العزف، كما أن والدي ووالدتي لايهتمان بهذا الأمر كثيراً، لذلك بعنا البيانو القديم عندما جئنا إلى هنا".

"عجباً! كيف يمكنك أن تعيشي من دون بيانو، فهو ـ بالنسبة إلي ـ أمر ضروري في الحياة".

"خمسة عشر شلناً في الأسبوع، كان يوفر منها ثلاثة شلنات" قالت مارغريت في سرها، "لا بد أنها كانت طفلة صغيرة، ونسيت على الأرجح ما قاسته خلال تلك الفترة. لكن لا بد أنها تعلم عن تلك الأيام". لم تخلُ نبرة مارغريت من مسحة إضافية من البرودة عندما تحدثت لاحقاً.

"لديكم حفلات موسيقية، حسب اعتقادي".

"بلى! إنها رائعة! لكنها مزدحمة وهذا أسوأ ما فيها، فالقيمون على هذه

الحفلات يسمحون بالدخول لكل الناس من دون تمييز، لكن المرء يحرص على سماع أحدث الموسيقى. عادة ما يكون لدي طلبية كبيرة من متجر جونسون، بعد يوم من الحفلة مباشرة".

"إذاً أنت تحبين الموسيقى الجديدة لأنها جديدة فحسب".

"إنها الموضة في لندن، وإلا لما جاء بها المغنون إلى هنا. سبق لك أن ذهبت إلى لندن، بالطبع".

"أجل"، قالت مارغريت، "عشت فيها لعدة سنوات"

"يا سلام! لندن والحمراء[31] هما المكانان اللذان أتمنى زيارتهما".

"لندن والحمراء!!"

"نعم! منذ أن قرأت "حكايات الحمراء"[32]. ألا تعرفينها؟".

"لا أظن أني أعرفها، لكن بالتأكيد الرحلة إلى لندن أسهل بكثير".

"أجل؛ لكن والدتي" قالت فاني وهي تخفض صوتها، "لم تذهب في حياتها إلى لندن، ولا تتفهم رغبتي بزيارتها. إنها معجبة بميلتِن، المكان القذر المليء بالدخان، كما أراها. أظن أنها معجبة بهذه المدينة بسبب صفاتها هذه".

"إنها بلدتها منذ سنوات، وأفهم لماذا تحبها"، قالت مارغريت بصوتها الصافي كرنين الجرس.

"هل لي أن أسألك ما الذي تقولينه عني يا آنسة هيل؟".

لم تكن مارغريت جاهزة للرد على السؤال الذي فاجأها قليلاً، فردت الآنسة فاني:

"كنا نحاول تفسير سبب ولعك بميلتِن فحسب، يا أمي".

(31) قصر الحمراء في غرناطة. (م)

(32) مجموعة من المقالات والقصص للكاتب الأميركي واشنطن إيرفينغ (1783 - 1895) استوحاها وكتبها إبان زيارته لقصر الحمراء عام 1832.

"شكراً لكما"، قالت السيدة ثورنتِن. "لا أرى أن محبتي الطبيعية للمكان الذي وُلدت ونشأت فيه، وأعيش فيه منذ سنوات، بحاجة إلى تفسير".

اغتاظت مارغريت. فقد بدا الأمر، كما أوضحت فاني، وكأنهما كانتا تناقشان بكل وقاحة مشاعر السيدة ثورنتِن، كما أنها تصدت لأسلوب السيدة في التعبير عن إنها تعرضت للإهانة.

توقفت السيدة ثورنتِن للحظة، ثم واصلت حديثها:

"هل تعرفين أي شيء عن ميلتِن، يا آنسة هيل؟ هل رأيتِ أياً من مصانعنا؟ أو متاجرنا الضخمة؟".

"كلا!" قالت مارغريت. "لم أر أي شي ينطبق عليه هذا الوصف بعد". عندها شعرت إن بإخفاء تجاهلها لمثل هذه الأماكن كلها، كانت لا تقول الحقيقة، فتابعت كلامها:

"أنا واثقة بأن أبي كان سيأخذني قبل الآن، لو أبديت اهتمامي بالأمر. لكني حقاً لا أجد متعة كبيرة في الذهاب إلى المصانع".

"إنها أماكن مثيرة للفضول"، قالت السيدة هيل: "لكن هناك الكثير من الضجيج والغبار دائماً. أتذكر ذات مرة أني ذهبت مرتدية فستاني الحرير الليلكي لرؤية صناعة الشموع، واتسخ فستاني بالكامل".

"هذا أمر محتمل" قالت السيدة ثورنتِن بطريقة مختصرة تنم عن عدم الرضا. "ما قصدته من كلامي فحسب أنكم كغرباء جئتم مؤخراً للإقامة في بلدة ارتقت إلى موقع متميز في البلاد، بفضل طبيعة وتطور صناعتها الفريدة، كان يمكنكم أن تهتموا بزيارة بعض الأماكن التي يتواصل فيها هذا التطور، أماكن لا نظير لها في المملكة، كما علمت. إن شاءت الآنسة هيل أن تبدل رأيها وتتواضع لتهتم بمصانع ميلتِن، لا يسعني سوى القول بأني سأكون في غاية السعادة لأوفر لها فرصة زيارة المطابع، أو صناعة القصب، أوحتى عمليات الغزل الأكثر بساطة في مصنع ابني. فكل تطور جرى على هذه الآلات، كما أعتقد، سترينه هناك في أعلى كمالٍ له".

"أنـا سـعيدة جـداً لأنـك لا تحبـين المصانـع، أو هـذا النـوع مـن الأشـياء"، قالـت فـاني لمارغريـت بصـوتٍ أقـرب إلى الهمـس وهـي تنهـض لمرافقـة أمهـا التـي كانـت تسـتأذن السـيدة بالانـصراف بكبريـاء مكبـوت.

"لو كنت مكانك، لكنت أود أن أعلم كل شيء عنها"، أجابتها مارغريت بهدوء.

"فـاني"، قالـت أمهـا والعربـة تنطلـق بهـما، " سـنتعامل مـع آل هيـل بـكل تهذيـب واحـترام، لكـن لا داعـي لأن تتسرعـي في عقـد صداقـة مـع ابنتهـم، فهـذا لـن يفيـدك كـما أظـن.الأم تبـدو مريضـة جـداً، لكنها لطيفـة وهادئـة".

"لا أنـوي أن أصـادق الآنسـة هيـل، يـا أمـي" قالـت فـاني وهـي تـزم شـفتيها، "كنـت أقـوم بواجبـي في التحـدث إليهـا وتسـليتها".

حسناً! على أي حال، لا بد أن يكون جون راضياً الآن".

نسمة لطيفة في مكان خانق

صعدت مارغريت السلم بسرعة إلى غرفتها حالما غادرت الضيفتان، وارتدت قبعتها وشالها، وسارعت إلى منزل بيسي هيغينز لتطمئن عليها، وتجلس معها قدر ما تستطيع قبل حلول موعد العشاء. وما إن وصلت إلى الشوارع المزدحمة بالمارة حتى شعرت بقدر أكبر من الاهتمام نحوهم كونها تعلمت أن تهتم بواحد منهم.

بذلت ماري هيغينز الفتاة المتسخة قصارى جهدها لترتيب المنزل استعداداً لزيارة مارغريت المنتظرة. كان واضحاً أنها فركت الأرضية في وسط الغرفة جيداً، لكن البلاطات تحت الكراسي والطاولة وحول الجدران بقيت على مظهرها القاتم غير المغسول. وعلى الرغم من أن الطقس كان حاراً، كانت هناك نار كبيرة تضطرم في الموقد لتحيل المكان بأكمله إلى فرن. لم تفهم مارغريت أن هذا البذخ في الفحم الحجري كان بالنسبة لماري إشارة إلى ترحيبها بالضيفة القادمة، كما ظنت أن الحرارة الزائدة أمر ضروري لأختها بيسي. كانت بيسي مستلقية على أريكةٍ وضعت تحت النافذة وكانت تبدو متعبة أكثر من اليوم السابق. أما الآن وبعد أن وصلت مارغريت، استلقت بيسي على ظهرها صامتة مكتفية بالنظر إلى وجه مارغريت، وتلمس ملابسها بإعجاب طفولي بروعة نسيجها.

"لم أعرف أبدا لماذا كان أهل الإنجيل يهتمون بالثياب الناعمة، لكن من الرائع أن يرتدي المرء ملابسَ كالتي ترتدينها. يتعبني الناس الذين يرتدون ثياباً مبهرجة الألوان، أما أنت فتشعريني بالراحة. هذا مختلف عما هو شائع. أين حصلت

علـى هـذا الفسـتان؟".

"من لندن"، أجابتها مارغريت بفرح.

"لندن! ذهبت إلى لندن؟"

"أجل! وعشت هناك بضع سنوات، لكن بيتي كان في غابة في الريف".

"حدثينـي عـن ذلـك"، قالـت بيـسي. "أحـب أن أسـمع كلامـاً عـن الريـف والأشـجار، وأشـياء مـن هـذا القبيـل". اسـتلقت بيـسي عـلى ظهرهـا وأغمضـت عينيهـا، وصالبـت يديهـا فـوق صدرهـا في راحــة تامــة، وكأنهـا تسـتعد لأن تتلقـف كل مـا سـتقوله مارغريـت.

لم يسبق لمارغريـت أن تحدثـت عـن هِلْسـتِن منـذ أن غادرتهـا، مـا عـدا ذكـر اسـمها عرضـاً. كانـت تراهـا في أحلامهـا أكـثر حيويـة وجـمالاً مـن الواقـع، وعندمـا كانـت تغـرق في النـوم ليـلاً، كانـت ذاكرتهـا تجـوب كل الأماكـن الجميلـة هنـاك. لكـن قلبهـا انفتـح لهـذه الفتـاة: "آه، يـا بيـسي، كـم أحببـت المنـزل الـذي تركنـاه! أتمنـى لـو تسـتطيعين رؤيتـه. لا يمكننـي أن أصـف لـك نصـف جمالـه. هنـاك أشـجار كبـيرة تنتصـب حولـه وهـي تمتـد بأغصانهـا الطويلـة لتصنـع فيئـاً ظليـلاً حتـى في عـز الظهـيرة. وعـلى الرغـم مـن أن الأوراق قـد تبـدو سـاكنة لا تتحـرك، إلا أن ثمـة حركـة متواصلـة لصـوت حفيفهـا لا يمكنـك أن تريهـا. قـد تكـون الأرض في بعـض الأحيـان طريـة ناعمـة كـما المخمـل، وفي أحيـان أخـرى غنيـة برطوبـة دائمـة مـن جـدول صغـير محجـوب عــن العـين يتسـاقط قطـرةً قطـرة. وفي أجـزاء أخـرى مـن المـكان، تمتـد وسـائد السرخـس، بعضهـا في ظـل الخـضرة الغنّـاء، وبعضهـا تحـت أشـعة الشـمس الذهبيـة، مثـل البحـر".

"لم أر البحر في حياتي"، دمدمت بيسي. "تابعي حديثك".

"وهنـا وهنـاك ينتـشر الهـواء الـذي يتقاسـمه جميـع النـاس، عاليـاً وكأنـه يربـض فـوق رؤوس الأشـجار...".

"أنـا سـعيدة بذلـك. أشـعر وكأننـي أختنـق في أعـماق صـدري. عندمـا أخـرج مـن

المنزل، لطالما أردت أن أحلق عالياً وأرى من بعيد، وآخذ نفساً عميقاً في ذلك الهواء. هنا في ميلتِن، أنا مخنوقة، وأظن أن الصوت الذي تتحدثين عنه بين الأشجار دائم الحركة أبداً، سيجعلني أشعر بالدوار، وهذا ما جعل رأسي يتألم كثيراً في المصنع. حتى في هذا الفضاء أظن أن هناك ضجة ولو كانت خفيفة؟".

"لا" قالت مارغريت، "لا شيء هنا وهناك سوى قبرة في السماء. أحياناً كنت أسمع مزارعاً يتحدث بحدة وصوت عالٍ إلى خدمه وهو على مسافة بعيدة جداً يذكرني بكل سرور أن ثمة أناساً هناك يكدحون ويتعبون في مكان ما بعيد، بينما أجلس مسترخية لا أفعل شيئاً".

"خطر على بالي ذات مرة لو أستطيع أن أقضي يوماً بأكمله لا أفعل شيئاً؛ يوم في مكان ما هادئ كالذي كنت تتحدثين عنه، ربما كان ذلك سيجعلني في حال أفضل. أما الآن، ها قد مضت علي عدة أيام من الخمول، وأشعر بالتعب منها كما كنت أشعر أثناء العمل. ينتابني أحياناً تعبٌ شديد لدرجةٍ أفكر بأني لن أستمتع بالجنة من دون أن أحظى أولاً بقسط من الراحة. كم أخشى أن أذهب إلى هناك مباشرة من دون أن أنام ما فيه الكفاية في القبر لأستعيد نشاطي وعافيتي".

"لا تخافي يا بيسي،" قالت مارغريت، وأرخت رأسها عليها،" سيمنحك الله راحة أفضل من خمول الدنيا أو من رقاد القبر".

تنحنحت بيسي بحركة متوترة، ثم قالت:

"أتمنى لو أن أبي لا يتكلم كما يفعل دائماً. نواياه طيبة، كما أخبرتك بالأمس، وأخبرك ثانية. لكن كما ترين، أنا لا أصدقه ولو قليلاً بالنهار ولا حتى في الليل، عندما تنتابني الحمى، نصف صاحية ونصف نائمة، تسيطر علي تلك الهواجس. آه، يا لفظاعتها! وأفكر، إن كانت هذه هي نهاية كل شيء، وإني وُلدت من أجل أن أُتعب قلبي وحياتي، ويسقمني المرض في هذا المكان البائس المقيت بصخب المصانع يضج في أذني للأبد، إلى درجة أستطيع أن أصرخ بهم كي يتوقفوا، ويتركوني أنال قسطاً من الهدوء. ومع هذا الوبر الذي يملأ رئتي، حتى أتعطش إلى حد

الموت لأن استنشق في أعماق صدري هواءً نقياً مثل الهواء الذي تحدثت عنه. رحلت أمي، ولا أستطيع أن أخبرها مرة ثانية كم أحببتها، وأسر لها بمشكلاتي. إن كانت هذه الحياة هي النهاية، وأن الله غير موجود ليكفكف دموعي..آه يا فتاة" قالت بيسي وهي تتمسك بذراع مارغريت وتتشبث بها بقوة وعنف، "قد أُصاب بالجنون، وأقتلك، ربما". انهارت في أريكتها ينهشها التعب. وجثت مارغريت إلى جانبها.

"بيسي، أبانا في السموات".

"أعلم ذلك، أعلم" انتحبت، وهي تُقلب رأسها يمنة ويساراً بحركة عصبية.

"أنا شريرة وقلت كلاماً آثماً. لا تخافي مني، ولا تعودي لزيارتي ثانية. لن أؤذي شعرة في رأسك"، وفتحت بيبسي عينيها وراحت تتملى وجه مارغريت، "أنا على يقين، ربما أكثر منك، بما سيأتي. عادة ما أقرأ في سفر الرؤيا حتى أحفظه عن ظهر قلب ولا أشك، عندما أكون واعية بكل أحاسيسي، بالسعادة السماوية التي تنتظرني"

"دعينا لا نتحدث عن تخيلاتك أثناء نوبة الحمى، أود أن أسمع منك عما كنت تفعلينه من قبل عندما كنت في حالة جيدة".

"عندما توفيت أمي، كنت بصحة جيدة، لكني ومنذ ذلك الحين تقريباً، لم أعد كذلك. بدأت العمل في محلج للقطن على آلة الندف، وبعدها، تغلغل الوبر في صدري وسممني".

"أجل وبر، نتف صغيرة تتطاير من القطن عند ندفه، وتملأ الهواء كغبار أبيض ناعم. يقولون إن هذا الغبار يدخل إلى الرئتين، ويعصرهما. هناك الكثير من العمال في غرفة الندف كانوا يسقطون أرضاً يسعلون ويبصقون الدم، لأنهم تسمموا بهذا الوبر[33]".

"ألا يمكن التخلص منه؟"

(33) تشير المؤلفة هنا على لسان بيسي إلى الأمراض التي انتشرت في إنكلترا إبان الثورة الصناعية بسبب ظروف العمل غير الصحية ومنها ما كانت تعاني منه بيسي ويُعرف طبياً باسم السُحار القطني (Byssinosis) أو حُمى حلج القطن التي كانت تسبب للعمال مشكلات تنفسية حادة لم تكن معروفة في ذلك الحين وغالباً ما كانت تودي بحياتهم.(م)

"لا أدري، بعض المصانع لديها عجلة ضخمة في نهاية غرفة الندف لشفط الغبار لكنها تكلف مالاً كثيراً، خمسمائة أو ستمائة جنيه، ولا تجلب أي ربح، لذلك فإن عدداً قليلاً جداً من أصحاب المصانع يستخدمون هذه العجلة. وسمعت من بعض العمال أنهم كانوا يكرهون العمل في المصانع التي تستخدم هذه العجلة لأنها، كما قالوا، تجعلهم يشعرون بالجوع بعد أن اعتادوا ابتلاع هذا الوبر، وأنه يجب رفع أجورهم إن كانوا سيعملون في تلك المصانع. وما بين العمال وأصحاب المصانع، ضاعت هذه الآلة. كم كنت أتمنى لو كان هناك واحدة مثلها في المحلج الذي كنت أعمل فيه".

"ألم يعلم أبوك بذلك؟"

"بلى، وأسف لذلك. لكن مصنعنا كان جيداً، وفيه مجموعة طيبة من الناس، وكان أبي يخشى علي الذهاب إلى مكان غريب، مع العلم أن الوضع بات مختلفاً الآن، فقد اعتدت على أن أسمع البعض ينادونني بالفتاة الطيبة. لم أكن أرغب بأن أظهر كفتاة ضعيفة رخوة. كان لا بد لماري أن تكمل تعليمها، كما كانت تقول أمي، كذلك أبي كان يهوى القراءة ويذهب لحضور المحاضرات، وكل هذا كان يحتاج للمال. لذلك عملت حتى لم أستطع أن أنزع طنين الآلات من أذني، ولا وبر ندف القطن من حلقي. هذا كل شيء".

"كم عمرك؟"، سألتها مارغريت.

"في تموز/ يوليو المقبل سأكون في التاسعة عشرة".

"وأنا كذلك"، قالت مارغريت لنفسها باغتمام أشد مما كانت عليه بيسي، بسبب الفارق الكبير بينهما. لم تستطع الكلام لدقيقة أو دقيقتين وهي تحاول أن تكبح مشاعرها.

"بالنسبة لماري"، قالت بيسي، "أودك أن تكوني صديقة لها إنها في السابعة عشرة، وهي آخر العنقود، ولا أريدها أن تذهب للعمل في المصانع، لكنني لا أعرف إن كانت قادرة على العمل".

"إنها لا تستطيع أن تعمل" ـ جالت مارغريت بعينيها بطريقة لا شعورية على

زوايا الغرفة غير النظيفة ـ "لا يمكنها أنها تعمل كخادمة، أليس كذلك؟ لدينا خادمة عجوز مخلصة، وهي صديقة تقريباً، وتريد أحداً يساعدها في المنزل. لكن من غير المناسب أن نزعجها بمساعدة تسبب لها الضيق".

"بالطبع لا، أظنك على حق. ماري فتاة طيبة، لكن لم يعلمها أحد عمل المنزل. لا أم، وأنا كنت مشغولة في المصنع ولا أعود إلا منهكة لا أقوى على فعل شيء سوى توبيخها على عدم قيامها بشكل جيد بأعمال لم أكن أنا نفسي أعرف كيف أقوم بها. لكني أتمنى لو تعيش معك".

"حتى لو كانت غير مناسبة لتأتي وتعيش معنا كخادمة ـ وأنا لا أعلم شيئا عن هذا الأمر ـ سأحاول دائماً أن أكون صديقتها، من أجلك أنت يا بيسي. يجب علي أن أرحل الآن. سأزورك مرة ثانية في أقرب وقت ممكن، إن لم يكن غداً، أو اليوم الذي يليه، أو حتى أسبوع أو اثنين، لا تظني أني نسيتك، قد أكون مشغولة".

"أنا واثقة من أنك لن تنسيني مرة ثانية، لن أشك بك أبداً. لكن تذكري، قد أموت خلال أسبوع أو أسبوعين".

"سآتي لزيارتك في أقرب وقت ممكن، يا بيسي"، قالت مارغريت وهي تشد على يدها بقوة. "لكن عليك أن تُعلميني إن ساءت صحتك".

"بالتأكيد سأفعل" قالت بيسي، وشدت على يد مارغريت.

ومنذ ذلك اليوم وصاعداً، بدأت تسوء الحالة الصحية للسيدة هيل. ومع اقتراب الذكرى السنوية الأولى لزواج إيديث، استعادت مارغريت في ذاكرتها المتاعب التي تراكمت على ما يقارب عام كامل، وتساءلت متعجبةً كيف استطاعت احتمالها. لو توقعت حدوث ما جرى، كيف كان يمكن لها أن تتجنبها وتخبئ نفسها من قادم الأيام. ومع ذلك، يوماً بعد يوم، كانت كل هذه الأحداث بحد ذاتها، ومن ذاتها، مُحتمَلةً بفضل إشراقاتٍ صغيرة من الفرح والمتعة توهجت وسط الأحزان. قبل عام من الآن، أو عندما عادت إلى هِلْستِن، وأصبحت لأول مرة شاهداً صامتاً على الشكوى والتذمر في مزاج والدتها، كانت لتئن ألماً بمرارة من فكرة تحمل مرض طويل في مكان منعزل، غريب وصاخب ومزدحم مع قليلٍ

مـن متطلبـات الراحـة في الحيـاة المنزليـة. لكـن ورغـم تفاقـم شـكاويها العادلـة التـي تقـوم عـلى مـا يُسـوّغها مـن أسـباب جديـة، اكتسـبت والدتهـا صـبراً مـن نـوع جديـد. اسـتحالت شـخصاً لطيفـاً هادئـاً في جسـد يعـاني ألمـاً مبرحـاً. كان هـذا الصبر والتحمـل يـوازي تقريبـاً في مقـداره حالـة القلـق والإحبـاط التـي كانـت عليهـا عندمـا لم يكـن لديهـا أي سـبب حقيقـي لحزنهـا. أمـا السـيد هيـل، فقـد كان في المرحلـة ذاتهـا يعـاني مـن القلـق والخشـية التـي تتخـذ، عنـد رجـال مـن طينتـه، شـكل العنـاد الأعمـى. أصبـح سريـع الغضـب أكـثر مـما كانـت تعرفـه ابنتـه عنـه عندمـا كانـت تعبر لـه عـن قلقهـا.

"بـدأتِ بالفعـل يـا مارغريـت تشـطحين بخيالاتـك. اللـه يعلـم بـأني سـأكون أول مـن ينتبـه لـو كانـت أمـك مريضـة فعـلاً. كنـا جميعـاً نلاحـظ عليهـا عندمـا يأتيهـا الصـداع في هِلْسـتِن، حتـى مـن دون أن تخبرنـا. كانـت حينـذاك تبـدو شـاحبة الوجـه عندمـا يصيبهـا المـرض. أمـا الآن فخدّاهـا متـوردان كـما كانـت عندمـا عرفتهـا أول مـرة".

"لكـن يـا أبي"، قالـت مارغريـت مـن دون تـردد، "هـل تعلـم أن مـا تـراه ليـس سـوى تـورد الألم".

"كلام سـخيف، يـا مارغريـت، ألم أقـل لـك بأنـك تتخيلـين. أنـت الشـخص الـذي لا يبـدو بحالـة جيـدة. أرسـلي وراء الطبيـب غـداً مـن أجلـك، وعندهـا يمكـن أن يـرى والدتـك، كي تطمئنـي".

"شـكراً يـا أبي العزيـز، هـذا سيسـعدني حقـاً". وذهبـت نحـوه كي تقبلـه، لكنـه دفعهـا بعيـداً عنـه، بلطـف كـما لـو أنهـا اقترحـت فكـرة غـير مستسـاغة كان سـعيداً بالتخلص منهـا ومـن حضورهـا سريعـاً. ثـم راح يجـوب أرجـاء الغرفـة قلِقـاً.

"مسـكينة ماريـا!" قـال، وكأنـه يحـادث نفسـه، "ليـت المـرء يسـتطيع أن يفعـل الصـواب مـن دون أن يضحـي بالآخريـن. سـأكره هـذه البلـدة، وأكـره نفسـي أيضـاً إن حدث لها... مارغريت هل تحدثك والدتك عن الأماكن القديمة في هِلْستِن؟".

"كلا يا أبي"، قالت مارغريت بحزن وأسى.

"إذن، كـما تريـن، لا يمكـن لهـا أن تكـون متضايقـة بعـد رحيلهـا عنهـا، أليـس كذلـك؟

كان مـن دواعـي إحسـاسي بالراحـة والاطمئنـان دائمـاً أن أعتقـد أن أمـك بسـيطة وصريحـة بحيـث كنـت أعلـم بـكل شيء كان يزعجهـا مهـما كان صغـيراً. لم تخـفِ عنـي في حياتهـا شـيئاً خطـيراً يهـدد صحتهـا، هـل يُعقَـل أنهـا تخفـي شـيئاً الآن، يـا مارغريـت؟ أنـا عـلى ثقـة بأنهـا لـن تفعـل ذلـك. فـلا تعيـدي عـلى مسـامعي هـذه الأفـكار الحمقـاء البغيضـة. تعـالي، أعطنـي قبلـة، واذهبـي للنـوم".

لكنهـا سـمعت صـوت خطواتـه تجـوب الغرفـة (أو تتسـلل خفيـة مثـل الراكـون، كـما اعتـادت هـي وإيديـث أن تسـميا هـذه الحركـة) بعـد أن اسـتغرقت طويـلاً وهـي تنـزع ملابسـها عـلى مهلهـا، وظلـت تسـمع وقـع خطواتـه لفـترة مـن الزمـن حتـى بعـد أن اسـتلقت في سريرهـا.

التمرد

في هـذه الفـترة مـن الزمـن، كان مبعثـاً للراحـة أن تجـد مارغريـت أن أمهـا باتـت أقـرب إليهـا أكـثر مـما كانـت عليـه منـذ أيـام الطفولـة. إذ اتخذتهـا والدتهـا في قلبهـا صديقـة أسرارهـا، وهـو الموقـع الـذي طالمـا تاقـت مارغريـت لأن تحـوزه، بـل وكانـت تحسـد ديكسِـن عليـه. سـعت مارغريـت جاهـدة للاسـتجابة لـكل نـداء، ومـا أكثرهـا، لإبـداء التعاطـف حتـى ولـو كان الأمـر تافهـاً لكنهـا لم تكـن لتلاحظـه أو تنفـر منـه أكـثر مـما كان يشـعر الفيـل بوخـز دبـوس صغـير في قدمـه، ومـع ذلـك كان يرفعهـا بـكل حـرص تلبيـة لطلـب صاحبـه. وهكـذا وعـلى نحـو لا شـعوري، اقتربـت مارغريت مـن الحصـول عـلى جائزتهـا.

في ذات مسـاء وبينـما كان السـيد هيـل غائبـاً، بـدأت السـيدة هيـل تتحـدث إلى مارغريـت عـن أخيهـا فريدريـك؛ الموضـوع الـذي طالمـا كانـت مارغريـت تواقـة لتسـأل عنـه، بـل ويـكاد أن يكـون الوحيـد الـذي يتغلـب فيـه حياؤهـا عـلى صراحتهـا المعتـادة. وكلـما كانـت تـود أن تسـمع أكـثر عـن أخيهـا، كان الاحتـمال أقـل بـأن تتكلـم عنـه.

" آه يـا مارغريـت، كانـت ليلـة أمـس ليلـة عاصفـة! كانـت الريـح تعـوي في المدخنـة في غرفتنـا! لم أسـتطع النـوم. غالبـاً مـا يجافينـي النـوم عندمـا تهـب ريـاحٌ قويـة مثـل هـذه. عندمـا كان أخـوك يسـافر في البحـر، كنـت أبقـى مسـتيقظة. أمـا الآن، وإن كنـت لا أصحـو عـلى الفـور، فـإني أراه في منامـي في بحـر هائـج تحيط بسـفينته أسـوار ضخمـة شـفافة مـن أمـواج خـضراء زجاجيـة، تلتـف حولـه بذلـك الزبـد المخيـف وكأنهـا ثعبـان عمـلاق. إنـه حلـم قديـم عـادة مـا يـراودني في الليـالي العاصفـة حتـى

أصحو من نومي، وأجلس في سريري متشنجة من الرعب. فريدريك المسكين! إنه على اليابسة الآن، ولن تؤذيه الرياح، وإن كنت أخشى أنها ستدك بعض المداخن العالية أرضاً".

"أمي، أين يعيش أخي فريدريك حالياً؟ أنا أعرف بأننا نبعث رسائلنا إليه معنونةً إلى السيد بربور في كادِز[34] ولكن أين هو الآن؟"

"لا أتذكر اسم المكان، لكنه لا يُكنى باسم هيل، تذكري ذلك جيداً، يا مارغريت. لاحظي الاختصار "إف، دي" في زاوية الرسائل؛ إنه يدعى الآن فريدريك ديكنسِن. ليته تكنى باسم بيريسفِرد الذي يحق له أن يحمله، لكن أبوك ارتأى أنه من الأفضل أن لا يُسمى بهذه الكنية حتى لا يتعرف عليه أحد إن حمل كنيتي".

"أمي" قالت مارغريت، "كنت ما أزال عند الخالة شو عندما حدث كل هذا. بالطبع لم أكن حينذاك كبيرة بما يكفي لتوضحوا لي ما جرى. لكني أرغب الآن بمعرفة القصة، إن كان ممكناً، على ألا يسبب لك الحديث عنه ألماً كبيراً".

"ألم! لا"، أجابت السيدة هيل وخداها يتوهجان. "لكنه من المؤلم أن أفكر بأني ربما لا أرى ولدي ثانية. لكنه يا مارغريت فعل الصواب. ليقولوا كما يحلو لهم، لكن لدي رسائله دليلاً، وأنا سأصدقه، وإن كان ابني، أسرع من أيَّ محكمة عسكرية في العالم. اذهبي يا عزيزتي إلى خزانتي اليابانية الصغيرة، في الدرج الثاني إلى اليسار ترين حزمة من الرسائل".

ذهبت مارغريت ووجدت رسائل مصفرة عليها آثار البحر، وتفوح بتلك الرائحة الغريبة التي تحملها رسائل المحيط. أحضرت الرسائل إلى والدتها التي راحت تفك الخيط الحريري عنها بأصابع مرتجفة، وقدمتها إلى مارغريت بعد أن تفحصت تواريخها، وهي تعلق بسرعة على مضمونها حتى قبل أن يتسنى لابنتها أن تفهم محتوياتها.

"هل ترين يا مارغريت كيف أنه ومنذ البداية كان يكره النقيب ريد الذي كان

(34) مدينة ساحلية جنوب غرب أسبانيا، وهي عاصمة مقاطعة كادِز، إحدى المقاطعات الثمانية التي تشكل بمجموعها إقليم الأندلس. (م)

ملازماً ثانياً على ظهر السفينة "أوريون" التي أبحر فيها فريدريك لأول مرة. يومها كم بدا، فتاي المسكين، جميلاً بلباس طالب الضابط البحري وذاك الخنجر بيده يفتح به الصحف كما لو كان سكيناً لفتح المغلفات! لكن هذا المدعو السيد ريد، كما كان في حينه، لم يكن يطيق فريدريك منذ البداية. بعدها... قفي هنا! هذه هي الرسائل التي كتبها على ظهر السفينة راسِل. عندما عينوه واحداً من أفراد الطاقم، ووجد أن عدوه القديم النقيب ريد كان في موقع القيادة، كان مستعداً بكل صبر أن يتحمل ظلم هذا الرجل. اقرئي يا مارغريت هذه الرسالة. هنا في الفقرة...قفي: "ليكن أبي واثقاً بأني سأتحمل بكل جلد وصبر كل شيء يمكن لضابط وسيد أن يتعاملا به مع بعضهما البعض[35]. لكن من معرفتي السابقة بالنقيب ريد، لا أخفيكم سراً إن قلت إني أتوقع بقلق شديد مساراً طويلاً من الظلم والاستبداد على ظهر السفينة راسل". هل ترين، وعد بأن يتحمل بصبر كل شيء، وأنا على يقين بأنه فعل ذلك، لأنه كان من أهدأ الناس الذين يمكن أن تتخيليهم طبعاً، إن لم يستفزه أحد. انتظري! هل هذه هي الرسالة التي يتحدث فيها عن هيجان النقيب ريد وغضبه من البحارة لأنهم لم ينطلقوا في مناورات السفينة بسرعة مثل السفينة آفينجر؟ يقول في رسالته إن كان لديهم العديد من المستجدين على ظهر السفينة، في حين كانت السفينة راسِل في موقعها لا تفعل شيئاً سوى إبعاد المتاجرين بالرقيق، وتدريب رجالها حتى أصبحوا قادرين على تسلق وهبوط الحبال مثل الجرذان والقرود".

قرأت مارغريت الرسالة بتمهل، رغم أنها لم تكن مفهومة تماماً بسبب بهوت الحبر. كانت الرسالة تحتوي على الأرجح وصفاً لعنجهية وتجبُّر النقيب ريد حتى في اللهو والعبث والتي بالغ الراوي بسردها وهو يكتبها بعد فترة قصيرة جداً من وقوع اشتباك ما مع النقيب. كان بعض البحارة على الصاري الرئيس للسفينة يعقدون الحبال عندما أمرهم النقيب بالتسابق نزولاً، وهددَ المتأخرين

(35) وردت كلمة "سيد نبيل" (gentleman) لا كرتبة عسكرية بحسب التراتبية القيادية في البحرية الملكية البريطانية إبان القرن التاسع عشر، بل استناداً إلى النظام الاجتماعي السائد حينذاك الذي كان يعتبر الضباط من طبقة "السادة النبلاء". (م)

بالقطـة ذات التسـعة ذيـول[36]. ولأنـه كان مـن المسـتحيل تجـاوز زملائـه، وبسـبب خشـيته مـن تعرضـه لعـار الجلـد، لم يجـد مـن كان لا يـزال في أعـلى الصـاري حـلاً سـوى أن يرمـي بنفسـه عسـاه ينجـح في الإمسـاك بحبـل منخفـض نوعـاً مـا. غـير أن محاولتـه بـاءت بالفشـل، فوقـع عـلى ظهـر السـفينة مغشـياً عليـه، وقـضى نحبـه بعـد بضـع سـاعات. عندئـذٍ بلـغ الغضـب بـين أفـراد الطاقـم، عندمـا كتـب الشـاب هيـل الرسـالة، درجـة الغليـان.

"لكننـا لم نتلـق هـذه الرسـالة إلا بعـد فـترة طويلـة مـن سـماعنا بخـبر التمـرد. فريدريـك المسـكين! أنـا واثقـة أن هـذه الرسـالة كانـت مصـدر راحـة لـه رغـم أنـه كتبهـا ولم يكـن يـدري كيـف يمكـن لـه أن يرسـلها، آه يـا ولـدي المسـكين! بعـد ذلـك قرأنـا التقريـر في الصحـف، ذلـك التقريـر الـذي تحدثـوا فيـه، قبـل فـترة مـن اسـتلامنا رسـالة فريدريـك، عـن تمـرد مخيـف وقـع عـلى ظهـر السـفينة راسِـل، وأن المتمرديـن اسـتولوا عـلى السـفينة التـي يقـال إنهـا اختفـت لتصبـح سـفينة قراصنـة، وأنهـم أنزلـوا النقيـب ريـد في قـارب مـع بعـض الرجـال، ضبـاط ومـا شـابه، نشرت أسـماؤهم بعـد أن انتشـلتهم سـفينة بخاريـة مـن الهنـد الغربيـة. آه يـا مارغريـت! كـم كانـت الصدمـة كبـيرة لي ولوالـدك عندمـا لم نجـد اسـم أخيـك في اللائحـة، فهـو شـخص صالـح وإن كان متحمسـاً مندفعـاً بعـض الـشيء. كنـا نأمـل في أن يكـون اسـم كار المنشـور في الصحيفـة خطـأ مطبعيـاً لاسـم هيـل، فالصحـف لا تكـترث لهـذه الأخطـاء. وبعـد موعـد وصـول البريـد في اليـوم التـالي، انطلـق أبـوك إلى سـاوثمبتِن للحصـول عـلى الجرائـد. لم أسـتطع الانتظـار في البيـت، فذهبـت لملاقاتـه، فقـد تأخـر في العـودة أكـثر مـما توقعـت. جلسـت تحـت التخـم أنتظـره. وأخـيراً جـاء ويـداه متدليتـان للأسـفل، مطأطـئ الـرأس يمـشي متثاقـلاً، كـما لـو أنـه يعـاني التعـب والضيـق في كل خطـوة يخطوهـا، وكأني أراه الآن أمامـي، يـا مارغريـت".

"توقفـي يـا أمـي. أنـا فهمـت كل شيء" قالـت مارغريـت وهـي تميـل برأسـها صـوب أمهـا وتقبـل يدهـا.

---

(36) نـوع مـن الأسـواط ينتهـي بتسـعة ذيـول كان يسـتخدم للعقـاب البـدني في الجيـش والبحريـة البريطانية. (م)

"لا، لا يمكن لك أن تفهمي، ولا يمكن لأحد لم ير والدك ذلك اليوم أن يفهم. بالكاد استطعت الوقوف على قدمي لألاقيه. بدا كل شيء حينذاك وكأنه طوق يلتف حولي دفعة واحدة. عندما وصلت إليه، لم يقل شيئاً، أو تبدو عليه المفاجأة من رؤيتي هناك على بعد أكثر من ثلاثة أميال عن المنزل بالقرب من شجرة الزان. أمسك ذراعي بكلتا يديه، وراح يربت على يدي وكأنه يريد أن يطلب مني الهدوء تحت وقع صدمة كبيرة. عندما ارتعش جسدي بأكمله بحيث لم أستطع الكلام، احتضنني وأرخى رأسه على رأسي، ثم بدأ يبكي ويرتجف بصوت غريب مكبوت يئن حتى وقفت، من شدة خوفي، جامدة في مكاني، ورجوته أن يخبرني بما سمع. مد إلي بالجريدة ويده ترتعش كما لو أن أحداً ما حركّها غصباً عنه، لأقرأ ما يقولون عن فريدريك "الخائن المنحط الناكر للجميل"، و»العار الذي لطّخ مهنته". لا يمكنني أن أخبرك بكل الكلمات القبيحة التي لم يقولوها على فريدريك. أخذت الجريدة في يدي بعد أن قرأتها، ومزقتها نتفاً صغيرة ـ أجل مزقتها ـ كما أظن بأسناني. لم أبكِ، لأنني لم أستطع. كان خداي يتوهجان ناراً، وعيناي تشتعلان في رأسي. رأيت أباك ينظر إليّ مفزوعاً. قلت إنها كذبة، وكانت كذلك فعلاً. بعد عدة شهور وصلتنا هذه الرسالة، وترين الآن ما نوع الاستفزاز والمضايقة التي تعرض لها فريدريك. لم يفعل ذلك من أجل نفسه شخصياً، أو رداً على ما أصابه، بل تمرد تعبيراً عن رأيه أمام النقيب ريد مما زاد الأمر سوءاً. لهذا السبب التف معظم البحارة حول فريدريك".

"أظن أني"، واصلت السيدة هيل كلامها بعد وقفة قصيرة بصوت مرتجفٍ ضعيفٍ أنهكه التعب، "سعيدةٌ بما حدث، بل وأكثر اعتزازاً وفخراً بفريدريك وهو يتصدى للظلم من سعادتي بأن يكون ضابطاً مطيعاً".

"وأنا كذلك يا أمي"، قالت مارغريت بنبرة حازمة. "من الجميل أن يكون المرء مخلصاً ومطيعاً للحكمة والعدالة، لكن من الأجمل أن يتحدى القوة الجائرة والمستبدة، ليس من أجل ذاته، بل نيابة عن آخرين أقل منه قوة وقدرة".

"من أجل هذا كله، أتمنى لو أرى فريدريك مرة ثانية، مرة واحدة فقط. إنه ولدي البكر، يا مارغريت". قالت السيدة هيل بحزن عميق كما لو كانت

تعتذر عن شوقها ولهفتها التي بدت وكأنها تحط من قدر طفلتها الوحيدة. غير أن هذه الفكرة لم تخطر البتة على بال مارغريت، بل راحت تفكر كيف يمكن أن تحقق رغبة أمها.

"مضى على الحادثة قرابة ست أو سبع سنوات، هل مازالوا يريدون محاكمته، يا أمي؟ إن جاء ومَثُلَ أمام المحكمة، ماذا ستكون عقوبته؟ يمكنه أن يقدم دليلاً على الاستفزازات والمضايقات التي تعرض لها".

"لن يكون ذلك في صالحه"، أجابتها السيدة هيل. "قُبض على بعض البحارة الذين كانوا مع فريدريك، ومثلوا أمام محكمة عسكرية جرت على ظهر السفينة أَميشا. وأُصدق كل كلمة قالوها دفاعاً عن أنفسهم لأنها تطابقت مع رواية فريدريك، لكن من دون جدوى، المساكين". ولأول مرة منذ بداية الحديث، بدأت السيدة هيل تبكي، غير أن ثمة شيئاً ما حفَّز مارغريت للسؤال عن المعلومات التي توقعتها، لكنها خشيت سماعها، من والدتها.

"وماذا حدث لهم يا أمي؟" سألتها مارغريت.

"شُنقوا على عارضة الشراع"، قالت السيدة هيل بصوت جليل. "والأسوأ من ذلك، أن المحكمة التي حكمت عليهم بالإعدام، قالت بأنهم عرضوا نفسهم للتخلي عن واجباتهم بفعل التحريض على يد من هم أعلى رتبة منهم".

بقيت الأم وابنتها صامتتين لفترة طويلة.

"أمضى فريدريك عدة سنوات في أميركا الجنوبية، أليس كذلك؟".

"بلى، والآن في إسبانيا، في كادِز، أو مكان ما قريب منها. إن جاء إلى إنكلترا، سيشنقونه. لن أرى وجهه ثانية، لأنهم سيشنقونه لو جاء إلى هنا".

لم تكن مارغريت قادرة على أن تمنح أمها أي راحة أو اطمئنان. أدارت السيدة هيل رأسها نحو الحائط غارقة في يأسها. لا شيء يمكن أن يقال لتعزيتها. نزعت الأم يدها من يد مارغريت بحركة قلقة كما لو كانت تعبر عن رغبتها بأن تُترك وحيدة مع ذكريات ابنها. عندما عاد السيد هيل إلى المنزل، خرجت مارغريت يغلبها الحزن والكآبة، من دون أيِّ بارقة أمل تلوح في الأفق.

سادة ورجال

"مارغريت"، ناداها والدها في اليوم التالي وقال لها، "علينا أن نرد الزيارة للسيدة ثورنتِن. والدتك ليست على ما يرام، ولا تعتقد أنها تستطيع المشي كل هذه المسافة، لكن سأذهب أنا وأنت عصر اليوم".

وعندما ذهبا، بدأ السيد هيل يتساءل عن صحة زوجته بقلق مستتر شعرت مارغريت معه بالفرح لرؤيته يستيقظ أخيراً.

"هل استشرتِ طبيباً يا مارغريت؟ هل أرسلتِ في طلبه؟"

"كلا يا أبي، أنت تحدثت عن مجيئه من أجلي. والآن، أنا بخير. لو كنت أعرف طبيباً جيداً، لذهبت إليه بعد الظهر، وطلبت منه أن يأتي. أنا واثقة بأن أمي ليست بخير".

عرضت أمامه الحقيقة بقوة ووضوح، لأن أباها سبق وأن أغلق عقله في وجه هذه الفكرة عندما عبرت له عن مخاوفها آخر مرة. لكن الحال تغير الآن. أجابها بنبرة منكسرة:

"هل تظنين أن لديها شكوى خفية؟ هل تعتقدين أنها بالفعل مريضة جداً؟ هل قالت لك ديكسِن أي شيء؟ آه يا مارغريت! يسكنني هاجس الخوف من أن يكون مجيئنا إلى ميلتِن هو ما يقتلها. مسكينة ماريا!".

"لا يا أبي، لا تتخيل مثل هذه الأشياء. كم من شخص يشعر بتوعك لفترة من الوقت، ومع استشارة جيدة، يعود معافى وأقوى مما كان عليه من قبل".

"لكن هل قالت لك ديكسِن أي شيء عن والدتك؟"

"كلا، أنـت تعلـم أن ديكسِـن تسـتمتع بـأن تصنـع مـن الحبـة قبـة، وكانـت غامضـة نوعـاً مـا بشـأن صحـة أمـي، وهـذا مـا أقلقنـي. هـذا كل مـا في الأمـر، مـن دون أي سـبب. أتذكـر يـا أبي أنـك قلـت لي ذلـك اليـوم بأننـي أشـطح في الخيـال".

"آمـل، بـل ومتأكـد مـن ذلـك. لا تفكـري بمـا قلتـه لـك حينـذاك. أودك أن تتخيـلي في مـا يتعلـق بصحـة والدتـك. لا تخـافي مـن إخبـاري بخيالاتـك، أحـب أن أسـمعها، عـلى الرغـم مـن أننـي تكلمـت معـك ذلـك اليـوم وكأننـي كنـت منزعجـاً. سنسـأل السـيدة ثورنـتِن أن تدلنـا عـلى طبيـب جيـد. لـن نبعـثر مالنـا عـلى أي واحـد منهـم، بـل عـلى طبيـب ماهـر. تمهـلي، سـننعطف في هـذا الشـارع".

لم يبـدو عـلى الشـارع مـا يـدل عـلى وجـود منـزل كبـير بمـا يكفـي ليكـون سـكناً للسـيدة ثورنـتِن. إذ أن حضـور ابنهـا لم يعـط مطلقـاً أي انطبـاع عـن نـوع المنـزل الـذي يعيـش فيـه، إلا أن مارغريـت، لا شـعورياً، تخيلـت أن تلـك السـيدة الضخمـة أنيقـة الملبـس لابـد وأنهـا تسـكن منـزلاً يتناسـب مـع شـخصيتها. كان شـارع مارلـبرَه يضـم صفوفـاً طويلـة مـن بيـوت صغـيرة مـع سـور هنـا وهنـاك؛ أو عـلى الأقـل هـذا مـا بـدا لهـما مـن الجهـة التـي دخـلا منهـا الشـارع.

"أخـبرني أنـه يسـكن في شـارع مارلـبرَه، أنـا متأكـد"، قـال السـيد هيـل بكثـير مـن الحـيرة والارتبـاك".

"ربمـا هـذه واحـدة مـن وسـائل التوفـير التـي لَـمَّا يـزل يسـتخدمها، أن يسـكن في بيـت صغـير. لكـن ثمـة كثـيراً مـن النـاس هنـا، دعنـي أسـأل أحدهـم".

سـألت مارغريـت أحـد العابريـن الـذي قـال لهـا إن السـيد ثورنـتِن يسـكن بالقـرب مـن مصنعـه، وأرشـدها إلى بوابـة المصنـع عنـد نهايـة الجـدار الطويـل المُصمـت.

كانـت بوابـة المصنـع أشـبه ببوابـة حديقـة عامـة يقـع عـلى أحـد جانبيهـا بوابـات كبـيرة لدخـول وخـروج العربـات. أدخلهـم حـارس البوابـة إلى سـاحة كبـيرة مسـتطيلة تمتـد عـلى طـرف منهـا مكاتـب لإجـراء معامـلات تخـص العمـل، فيـما انتصـب قبالتهـا مبنـى المصنـع بنوافـذه المتعـددة حيـث كان هديـر الآلات وضجيـج المحـرك البخـاري عاليـاً بمـا يكفـي ليصـم آذان كل مـن يسـكن في الجـوار. قبالـة السـور حيـث

يمتد الشارع على أحد جانبي الساحة المستطيلة، وقف منزل حجري جميل مُسوَّد طبعا بسبب الدخان، لكنَّ طلاؤه ودرجاته ونوافذه كانت نظيفة بشكل يدل عل جهد كبير يبُذل لهذا الغرض.كان واضحاً أن البيت بُني قبل خمسين أو ستين عاماً قياساً إلى واجهاته الحجرية، ونوافذه الطويلة الضيقة وكثرتها، ودرجات السلم على جانبي الباب الأمامي للمنزل محاطة بدرابزون. تعجبت مارغريت لِمَ لا يفضل أولئك القادرون على تحمل كلفة العيش في منزل جميل، ويحافظون على نظافته على هذا النحو، السكن في الريف أو في إحدى الضواحي، بدلاً من دوامة وضجيج المصنع. لم تستطع أذنا مارغريت اللتين لم تعتادا هذا الصخب أن تلتقطا صوت أبيها عندما وقفا على الدرج بانتظار أن يُفتح الباب.

لم تكن الساحة أيضاً ـ مع أبوابها الضخمة في الجدار المصمت كأنها حد فاصل ـ سوى منظر بائس لغرف الجلوس في المنزل، كما لاحظت مارغريت عندما صعدت ووالدها الدرج العتيق، ودخلا إلى غرفة الضيوف التي كانت نوافذها الثلاث تُشرف على الباب الأمامي، وعلى الغرفة التي تقع على الجانب الأيمن من المدخل. لم يكن هناك أحد في غرفة الضيوف التي بدت وكأن أحداً من البشر لم يدخلها منذ أن تم تغطية الأثاث بعناية فائقة كما لو كانت الحمم البركانية ستُغرق المنزل، ليتم اكتشافه بعد ألف عام. كانت الجدران مطلية باللونين الوردي والذهبي، أما النقوش على السجادة فكانت رسومات لباقاتٍ من الأزهار فوق خلفية فاتحة، لكنها كانت مغطاة عند الوسط بشكل حريص ببساط من الكتان الخشن اللماع، لا لون له. كانت ستائر النافذة مصنوعة من الدانتيل، ولكل كرسي وكنبة مفرشها الخاص المطرز. وكانت هناك مجموعات من أشكال الزينة المصنوعة من الجص تشغل كل سطح، تختبئ تحت غطائها الزجاجي من الغبار. في وسط الغرفة، مباشرة تحت الثريا المغطاة، استقرت طاولة كبيرة دائرية الشكل توزعت على امتداد محيط سطحها المُلمَّع كتبٌ ذات تجليد فاخر روعي في ترتيبها مسافات متساوية تفصل بينها، وكأنها أوتاد عجلةٍ ذات ألوان مُبهِجة. كل شيء في الغرفة كان عاكساً للضوء. كان للغرفة بأكملها مظهرٌ مبّقعٌ، ومبرقشٌ، ومرقطٌ على نحو أثار في مارغريت شعوراً بالامتعاض إلى درجة

لم تلتفت معها إلى النظافة المميزة المطلوبة للحفاظ على كل شيء أبيضَ نقياً في جوٍ مثل هذا، أو حتى إلى حجم المشقة التي لا بد وأن تحمَّل وزرها من يعنيه الأمر لتوفير هذه الإحساس الجليدي بعدم الارتياح. أينما التفتت مارغريت، كان ثمة دليل على حرص وجهد كبيرين، لكن ليس من النوع الذي يؤمن الراحة والهدوء، أو المساعدة على عمل منزلي هادئ وخاصة الزخارف على وجه التحديد، والحفاظ عليها من القذارة والتلف. وجدت مارغريت ووالدها فرصة سانحة للفرجة والتحدث بصوت منخفض قبل أن تظهر السيدة ثورنتِن، علماً أن غرفة كهذه عادة ما تترك أثراً يجعل الناس يتكلمون بصوت منخفض وكأنهم لا يرغبون بإيقاظ الأصداء المتراكمة.

أخيراً جاءت السيدة ثورنتِن تحف في ثوب حريري أسود، كعادتها، وشرائط الموسلين تتماشى ولا تتمايز عن البياض النقي لموسلين الغرفة والأغطية التي وضعت لحماية أثاثها. شرحت مارغريت كيف أن والدتها لم تستطع مرافقتهما لرد الزيارة للسيدة ثورنتِن، لكن حرصها على عدم إثارة مخاوف أبيها جعلها تقدم وصفاً مربكاً، تركت في ذهن السيدة ثورنتِن انطباعاً بأن السيدة هيل كانت تعاني من توعك مؤقت، أو من النوع الذي تتوهمه السيدات الذي كان بالإمكان وضعه جانباً لو كان لديها دافع قوي، أو لو كان من الشدة بحيث يمنعها من الخروج ذلك اليوم، لكان من المفترض تأجيل الزيارة. كما تذكرت السيدة ثورنتِن الخيول التي استأجرتها لعربتها عندما زارت آل هيل، وكيف طلب السيد ثورنتِن من فاني أن تذهب مع والدتها لتقدم واجب احترام للأسرة. كل هذا جعل السيدة ثورنتِن تشعر بالإهانة نوعاً ما، ولا تتعاطف مع مارغريت، ولا تقيم وزناً لما شرحته بشأن مرض أمها.

"كيف حال السيد ثورنتِن". سألها السيد هيل. "أخشى أن لا يكون على ما يرام كما فهمت من رسالته المستعجلة أمس".

"نادراً ما يمرض ابني. وإن كان مريضاً بالفعل، فإنه لا يتكلم عنه مطلقاً، ولا يتخذه عذراً للتقاعس عن فعل أي شيء. أخبرني أنه لم يستطع أن يذهب لحضور

الـدرس معـك أمـس، يـا سـيد، وأنـا واثقـة بأنـه نـدم عـلى مـا فاتـه، فهـو يقـدر عالياً السـاعات التـي يقضيهـا معـك".

"وكذلـك أنـا"، قـال السـيد هيـل. "إذ أنهـا تجعلنـي أشـعر بالشـباب مـرة ثانيـة لأرى اسـتمتاعه وتذوقـه لـكل مـا هـو جميـل في الأدب الكلاسـيكي".

"لا شـك أن الأدب الكلاسـيكي أمـر مرغـوب بالنسـبة إلى النـاس الذيـن لديهـم متسـع مـن الوقـت. لكـن، أعـترف بذلـك، أنـه كان ضـد رغبتـي أن يجـدد ابنـي دراسـته فيـه. فالمـكان والزمـان اللـذان يعيـش فيهـما يتطلبـان منـه كل الطاقـة والانتبـاه. قـد تكـون الكلاسـيكيات مفيـدة لرجـال يبـددون وقتهـم في الريـف أو الكليـات، لكـن عـلى رجـال ميلـتِن أن يركـزوا أفكارهـم وطاقاتهـم في العمـل اليومـي. هـذا رأيـي عـلى الأقـل". قالـت العبـارة الأخـيرة "بافتخـار يحـاكي التواضـع".

"لكـن إذا بقـي العقـل موجهـاً لفـترة طويلـة حـول موضـوع واحـد فقـط، سـيصاب بالتحجـر ويصبـح عاجـزاً عـن تقبـل اهتمامـات أخـرى"، قالـت مارغريـت.

"لا أفهـم تمامـا مـا تقصدينـه بتحجـر العقـل. كـما أني لا أحبـذ الشـخصيات المتقلبـة التـي تنغمـس في شيء مـا اليـوم لتنسـاه كليـاً مـع اهتمامهـا بـشيء جديـد غـداً. أن يكـون للمـرء عـدة اهتمامـات لا ينـاسـب حيـاة رجـل صناعـي في ميلـتِن. إذ يكفيـه، ويجـب عليـه بالأحـرى، أن يكـون لديـه رغبـة واحـدة عظيمـة، وان يُسَـخِّر كل أهدافـه في الحيـاة في سـبيل تحقيقهـا".

"وما هي هذه الرغبة؟" سألها السيد هيل.

توهج خداها الغائران، والتمعت عيناها وهي تجيب:

"أن يحـوز ويحافـظ عـلى مكانـة مرموقـة بـين تجـار بـلاده، رجـال بلدتـه. مثـل هـذه المكانـة التـي كسـبها ولـدي. اذهـب حيثـما تشـاء، لا أقـول في إنكلـترا فحسـب، بـل في أوروبـا، سـترى اسـم جـون ثورنـتِن معروفـاً ومحترمـاً لـدى رجـال المهنـة كلهـم. بالطبـع اسـمه ليـس معروفـاً لـدى الطبقـات المخمليـة"، ثم تابعـت بنـبرة لا تخلـو مـن الازدراء، " إذ مـن غـير المحتمـل أن يعـرف الرجـال والسـيدات الكسـالى الخاملـون الكثـير عـن

صناعيٍ من ميلتِن، إلا إذا وصل إلى البرلمان، أو تزوج ابنة واحد من اللوردات".

كان لدى السيد هيل ومارغريت إدراك محرج بل ومضحك بأنه لم يسبق لهما أن سمعا بهذا الاسم العظيم إلا عندما ذكره السيد بيل في رسالة نوّه فيها إلى أن السيد ثورنتِن سيكون خير صديق لهم في ميلتِن. لم يكن عالم الأم الفخورة بولدها عالمهم لا من جهة سادة ونبلاء شارع هارلي، ولا من جهة رجال الدين في الريف وملاك الأراضي في هامشاير. وعلى الرغم من جهودها كي تُبقي الأمر في إطار الاستماع فحسب، فضح وجه مارغريت في تعابيره حقيقة مشاعرها للسيدة ثورنتِن.

"أحسبك تقولين إنك لم تسمعي بولدي الرائع، يا آنسة هيل. ربما تظنين أني امرأة عجوز لا تتعدى أفكارها حدود ميلتِن، وأنها ترى في قردها أجمل غزال".

"قد يكون صحيحاً أني كنت أفكر بأني لم أسمع باسم السيد ثورنتِن قبل مجيئي إلى ميلتِن. لكن ومنذ وصولي إلى هنا، سمعت عنه ما يكفي لأكُن له كل الإعجاب والاحترام، وأدرك مقدار الحقيقة والإنصاف في ما قُلتِه عنه".

"ومن حدثك عنه؟" سألتها السيدة ثورنتِن يخالجها شعور بالرضا، وإن كان لا يخلو من الغيرة من كلمات أي شخص آخر عن ولدها لم توفه حقه. ترددت مارغريت قليلاً قبل أن تجيب. لم تعجبها النبرة التسلطية في سؤالها، فسارع السيد هيل لإنقاذ ابنته، حسب اعتقاده.

"ما قاله السيد ثورنتِن بنفسه هو ما جعلنا نعلم أي نوع من الأشخاص يكون، أليس كذلك يا مارغريت؟"

اعتدلت السيدة ثورنتِن في جلستها، وقالت:

"لكن ابني ليس من النوع الذي يتحدث عن أفعاله. هل لي أن أسألك مرة أخرى، يا آنسة هيل، من أي وصف كوّنت انطباعك الجيد عن ابني؟ كما تعلمين، الأم فضولية وطماعة في سماع المديح عن أبنائها".

أجابتها مارغريت: "ما امتنع عن ذكره السيد ثورنتِن علمناه من السيد بيل

الذي أخبرنا عن حياة ولدك السابقة وكان أكثر مما قاله السيد ثورنتِن وجعلنا جميعاً ندرك سبب اعتزازك وافتخارك به".

"السيد بيل! وما الذي يعرفه عن جون وهو يعيش حياة كسولة في كلية نائمة. لكني أبقى ممتنة لك يا آنسة هيل لأنك منحت امرأة عجوزاً شعوراً بالسعادة لسماع الكلام الطيب الذي يقال عن ابنها".

"لماذا؟" سألت مارغريت وهي تنظر بحيرة إلى السيدة ثورنتِن.

"لأني أفترض بأنه من المحتمل أن يكون لديهم دوافع علمتهم كيف يمكن لهم أن يكسبوا أماً عجوزاً إلى صفهم في حال كانوا يضمرون خططاً لكسب قلب ابنها".

ابتسمت السيدة ثورنتِن ابتسامة كالحة لسعادتها بصراحة مارغريت، وربما لأنها شعرت بأن الفتاة الشابة كانت تكثر من طرح الأسئلة كما لو أنها تمتلك الحق في استجوابها. ضحكت مارغريت على تلميح السيدة ثورنتِن. ضحكت بطريقة مرحة استفزت مسامع السيدة ثورنتِن وكأن الكلمات التي أثارت هذه الضحكة، كانت بالفعل مضحكة، لكنها توقفت حالما رأت النظرة العابسة على وجه السيدة ثورنتِن.

"معذرة يا سيدتي، في الحقيقة أنا ممتنة لك كثيراً على تبرئتي من وضع مخططاتٍ لكسب قلب السيد ثورنتون"

"لكن هناك فتيات سبق وأن فعلنها من قبل"، قالت السيدة ثورنتِن بعناد.

"آمل أن تكون الآنسة فاني على خير ما يرام"، قال السيد هيل، مدفوعاً بلهفته لتغيير مجرى الحديث.

"إنها بخير كما هي دائماً، لكنّها ليست قوية" أجابت السيدة ثورنتِن باقتضاب.

"والسيد ثورنتِن؟ آمل أن أراه يوم الخميس".

"لا أستطيع الإجابة عن ترتيبات ابني. هناك شيء ما غير مريح يجري في البلدة؛ تهديد بإضراب عن العمل. إن حدث ذلك فعلاً، فإن خبرته وحكمته ستجعل

أصدقاءه يستشيرونه في الأمر. لكني أظن أنه سيلتقيك يوم الخميس. على أي حال، أنا متأكدة بأنه سيبلغك إن لم يكن قادراً على المجيء".

"إضراب!" سألت مارغريت. "لماذا؟ علامَ يُضربون؟"

"من أجل أن يصبحوا سادة ويستولوا على أملاك الآخرين"، قالت السيدة ثورنتِن وهي تُصدر نخيراً مُفزِعاً. "هذا ما يضربون لأجله على الدوام. إن شارك عمال ابني في الإضراب، فلن أقول سوى أنهم قطيع من الكلاب الجاحدة. أنا واثقة بأنهم سيضربون عن العمل".

"إنهم يريدون رفع الأجور، حسب ما أعتقد؟" سأل السيد هيل.

"هذا ما يبدو على السطح، أما في الحقيقة فهم يريدون أن يصبحوا سادة ويحولون السادة إلى عبيد في عقر دارهم. إنهم يحاولون ذلك دائماً، ويضعونه في رؤوسهم كل خمس أو ست سنوات. هذا الصراع ما بين أصحاب المعامل والعمال. إلا أنهم سيكتشفون هذه المرة بأنهم مخطئون، حسب ظني، خطأ في حساباتهم. إن خرجوا هذه المرة، فعلى الأرجح أنهم لن يجدوا العودة سهلة. أتصور أن لدى أصحاب المعامل فكرة أو فكرتين في رؤوسهم ستعلمهم ألا يستعجلوا في الإضراب عن العمل مرة أخرى، إن حاولوا هذه المرة".

"ألا يجعل ذلك من البلدة مكاناً خطيراً؟" سألت مارغريت.

"بالطبع، لكنك لستِ جبانة بالتأكيد، أليس كذلك؟ ميلتِن ليست مكاناً للجبناء. أتذكر مرة توجب عليَّ فيها أن أشق طريقي وسط حشدٍ من الرجال البيض الغاضبين كانوا يهددون بسفك دم ابني حالما يخاطر بإخراج أنفه من المصنع. لم يكن جون يعلم عن الأمر وكان على أحدٍ ما إخباره، أو يخسر حياته. وكان لا بد أن يكون هذا الشخص امرأة. خرجت من بيتي وعندما وصلت هناك، لم أستطع الخروج. كانت حياتي في كفة الميزان. صعدت إلى السطح حيث كانت هناك كومة من الحجارة جاهزة لإلقائها على رؤوس المحتشدين، إن حاولوا اقتحام المصنع. وما كنت لأتردد في رفع تلك الحجارة الثقيلة وإلقائها بمهارة وقوة أفضل الرجال، لكني شعرت بالدوار من الحرارة. إن كنت تعيشين في ميلتِن، عليك يا آنسة هيل أن تتعلمي كيف تمتلكين قلباً شجاعاً".

"سأبذل قصارى جهدي"، قالت مارغريت وقد استحال لون وجهها شاحباً. "لا أدري إن كنت شجاعة أم لا حتى أخضع للاختبار، لكني أخشى بأنه يجب عليَّ أن أكون جبانة".

"غالباً ما يشعر أهل الجنوب بالفزع مما يدعونه رجال منطقتنا داركشاير ونساؤها لقمة العيش والكفاح. لكن بعد أن تقضين عشر سنوات بين هؤلاء الناس الذين يكنون الضغينة دائماً لمن هم أفضل منهم، ويتحيّنون الفرصة للتنفيس عن حقدهم، عندها ستدركين إن كنت جبانةً أم لا، ثقي بكلامي".

في مساء ذلك اليوم، جاء السيد ثورنتِن إلى منزل السيد هيل ورافقته ديكسِن على الفور إلى غرفة الضيوف حيث كان السيد هيل يقرأ بصوت عالٍ لزوجته وابنته.

"جئتك أولا لأسلم لك رسالة من والدتي، ولأعتذر عن غيابي أمس. تجد في الرسالة اسم الطبيب الذي طلبته: الدكتور دونالدسِن".

"شكراً جزيلا لك" قالت مارغريت، وهي تمد يدها لتأخذ الرسالة لأنها لم تشأ أن تسمع والدتها أنهم يستفسرون عن طبيب. سُرَّت مارغريت لأن السيد تفهم شعورها على الفور، وقدم لها الرسالة من دون أي شرح. بدأ السيد هيل يتحدث عن الإضراب. امتقع وجه السيد ثورنتِن في تشابه مع أسوأ التعابير التي بدت على وجه والدته من قبل، الأمر الذي أثار نفور مارغريت.

"أجل الحمقى سيضربون عن العمل. دعهم يفعلون. فهذا شيء يناسبنا تماماً. لقد أعطيناهم فرصة. فهم يظنون أن التجارة مزدهرة كما كانت العام المنصرم. رأينا العاصفة في الأفق، فطوينا أشرعتنا. لكن ولأننا لم نشرح الأسباب التي دعتنا لذلك، لم يصدقوا بأننا كنا نتصرف بحكمة وتعقل. يجب علينا أن نوضح لهم الطريقة التي نختارها لإنفاق أو توفير أموالنا. حاول هندرسِن خداع عماله في آشلي، لكنه فشل. فهو يريدهم أن يُضربوا عن العمل لأنه يناسب حساباته. لذلك عندما جاء إليه العمال طالبين زيادة في الأجور بنسبة خمسة بالمائة، قال لهم إنه سيفكر بالأمر، وسيبلغهم قراره يوم دفع الرواتب، وهو بالطبع كان

يعلـم طـوال الوقـت مـاذا سـيكون جوابـه، إلا أنـه كان يفكـر في النفـخ بكبريائهـم. لكنهـم كانـوا في ورطـة. فقـد علمـوا أن التجـارة ليسـت عـلى مـا يـرام، فجـاءوا يـوم الجمعـة وسـحبوا طلـب زيـادة الأجـور. وبـات الآن ملزمـاً بالعـودة إلى العمـل. أمـا نحـن ـ أصحـاب المصانـع في ميلـتِن ـ فقـد أرسـلنا اليـوم قرارنـا. أبلغناهـم بأننـا قـد نضطـر لخفـض الأجـور، لكننـا لا نسـتطيع زيادتهـا. وهـا نحـن نقـف الآن ننتظـر هجومهـم القـادم".

"ومتى سيكون ذلك؟" سأل السيد هيل.

"أتوقعـه إضرابـاً متزامنـاً. أتخيـل أنـك لـن تـري الدخـان في سـماء ميلـتِن لبضعـة أيـام، يـا آنسـة هيـل".

"لمـاذا؟" سـألته، "ألم يكـن بمقدوركـم أن تشرحـوا لهـم مـا هـو السـبب وراء توقعاتكـم بتراجـع التجـارة؟ لا أدري إن كنـت اسـتخدم الكلـمات المناسـبة لكنـك تفهـم ما أعنيه".

"هـل تقدمـين للخـدم في منزلـك أسـباباً عـن المصروفـات أو التوفـير في مالـك الخـاص؟ نحـن ـ أصحـاب رأس المـال ـ لدينـا حـق التـصرف بـه".

"وحق الإنسان"، قالت مارغريت بصوت منخفض.

"عذراً، لم أسمع ما قلتِ".

"مـن الأفضـل ألا أكـرره"، قالـت مارغريـت، "لأنـه يرتبط بشـعور لا أحسـبك تشـاركني فيه".

"لم لا تجربينـي" قـال متوسـلاً، يدفعـه التصميـم فجـأة لمعرفـة مـا قالتـه. كانـت مسـتاءة مـن ثقتـه بنفسـه ومـن طبعـه الصـارم، فلـم يعـطِ أهميـة كبـيرة لمـا قالتـه.

"قلـت إن لديـك حـق الإنسـان. أعنـي أنـه لا يوجـد أي سـبب سـوى الأسـباب الدينيـة التـي تمنعـك مـن التـصرف بمـا تملـك كـما يحلـو لـك".

"أعلـم تمامـاً بأننـا نختلـف في آرائنـا الدينيـة، لكـن ألا تعطينـي حقـي بـأن لـدي بعـض منهـا، وإن لم تكـن متشـابهة مـع آرائـك؟" كان يتكلـم معهـا بصـوت خافـت وكأنـه

يوجه الحديث لها. لم ترغب مارغريت بأن تكون هي الطرف الوحيد المقصود بالحديث، فأجابته بنبرة صوتها المعتادة:

"لا أظن أنه لدي أي سبب يستدعي أن أناقش آراءك الدينية في هذا الشأن. كل ما قصدته بقولي أنه لا يوجد قانون إنساني يمنع أرباب العمل من إنفاق وتبديد أموالهم، إن أرادوا ذلك، لكن هناك في الإنجيل مقاطع تتضمن ـ بالنسبة لي على الأقل ـ أنهم إن فعلوا ذلك، فهم يهملون واجبهم كرعاةٍ مؤتمنين. على أي حال، لا أعرف سوى القليل عن الإضرابات، ومعدل الأجور، ورأس المال، والعمل، وكلها أشياء أفضل ألا أتحدث فيها مع اقتصادي سياسي مثلك".

"بل هناك سبب إضافي"، قال بحماسة. "سأكون في غاية السعادة لأشرح لك كل ما يبدو غامضاً ومشوشاً بالنسبة إلى غريب، وتحديداً في زمنٍ كهذا عندما تصبح أفعالنا محط تدقيق وفحص على يد كل من بات يعرف يمسك القلم ويفك الخط".

"شكراً" أجابته ببرود. "بالتأكيد سألتجئ إلى أبي أولاً من أجل أيٍّ معلومات يستطيع أن يقدمها لي، إن أصابتني الحيرة في العيش هنا في هذا المجتمع الغريب".

"هل ترينه غريباً. لماذا؟"

"لا أدري، ربما، كما أعتقد، لأني أرى، كما يبدو على السطح، طبقتين تعتمدان على بعضهما بعضاً في كل شيء، لكن يبدو واضحاً أن كل واحدة منهما تعدُّ مصالح الطبقة الأخرى متعارضة مع مصالحها. لم يسبق لي العيش أبداً في مكانٍ يضم مجموعتين تسعى كل واحدة منهما إلى هلاك الأخرى".

"ممن سمعت أن أحداً يسعى لتدمير أصحاب المعامل؟ ولا أسألك من قال لك عن استغلال العمال، لأني أرى أنك لا تزالين مصرة على إساءة فهم ما قلت ذلك اليوم. لكن من أخبرك عن استغلال أرباب العمل؟"

احمَّر وجه مارغريت، وابتسمت قائلةً:

"لا أحب لأحد أن يستجوبني. أرفض الإجابة عن سؤالك، إضافة إلى أنّ لا علاقة

لهذا السؤال بالحقيقة. صدقني بأني سمعت أشخاصاً، أو ربما أحدهم في المعمل، يتحدث كما لو كانت مصلحة أرباب العمال تقتضي بمنع العمال من كسب المال، لأن ذلك سيجعلهم أكثر استقلالية لو كان لديهم وفر من المال في البنوك".

"لا بدأن ذلك الرجل المدعو هيغينز هو من قال لك كل هذا الكلام"، قالت السيدة هيل. غير أن السيد ثورنتِن لم يسمع، كما يبدو، ما لم ترغب فعلياً مارغريت بأن يعرفه، إلا أنه عرف ما يريد.

"بل وسمعت، زيادة على ذلك، أن من مصلحة أرباب العمل أن يكون لديهم عمال جاهلون، وليس محامو المخاطر المالية، كما اعتاد النقيب لينوكس أن يسمي أولئك الرجال في كتيبته الذين يستفسرون ويستعلمون عن السبب وراء كل أمر يصدر إليهم". وجهت مارغريت هذه الجملة الأخيرة إلى أبيها وليس إلى السيد ثورنتِن الذي راح يتساءل بينه وبين نفسه "من يكون هذا النقيب لينوكس؟" مع شعور غريب بعدم الرضى منعه للحظة من الرد عليها. هنا تدخل والدها في الحديث:

"لم تكوني يوماً مولعة بالمدارس يا مارغريت، وإلا لكنت رأيتِ وعلمتِ حجم الجهود التي تُبذل من أجل التعليم في ميلتِن".

"لا"، قالت بلطافة هبطت عليها فجأة. "أعلم أني لا أهتم بما فيه الكفاية بالمدارس. لكن المعرفة والجهل اللذين أتحدث عنهما لا علاقة لهما بالقراءة والكتابة؛ بالتعليم أو المعلومات التي يمكن لأحد ما أن يقدمها للطفل. ما قصدته كان جهل الحكمة التي تكون دليلاً مرشداً للرجال والنساء. ولا أعرف بالضبط ما تكون. لكنه - أقصد مصدر معلوماتي - تحدث كما لو أن السادة أرباب العمل يريدون الأيدي العاملة أن تكون مجرد أطفال طوال القامة، ضِخام الجسم، يعيشون اللحظة الحاضرة بنوع من الطاعة العمياء لا تفكر".

"باختصار شديد، يا آنسة هيل، يبدو واضحاً أن مصدر معلوماتك وجد فيك مستمعاً رائعاً لكل الافتراءات التي اختار أن يقولها ضد أصحاب المصانع"، قال السيد ثورنتِن بنبرة تعبر عن استيائه.

لم ترد مارغريت. كانت مستاءة من الطابع الشخصي الذي أضفاه السيد ثورنتِن على كلامها.

بعد ذلك توجه السيد هيل إلى ضيفه قائلاً:

"لا يسعني إلا أن أعترف، على الرغم من أنني لست على معرفة وثيقة بأي أحد من العمال كما هو الحال مع مارغريت، بأني مصدوم بالعداء القائم بين العمال وأرباب العمل، كما يبدو ظاهراً. بل إني أخذت هذا الانطباع مما قلته لي بين الحين والآخر".

صمت السيد ثورنتِن قليلاً قبل أن يتكلم. كانت مارغريت قد غادرت الغرفة للتو، الأمر الذي دفعه للشعور بالانزعاج والغضب من الحالة التي آلت إليها الأمور بينهما. إلا أن هذا القدر المحدود من الضيق الذي جعله أكثر هدوءاً وتركيزاً أضفى على ما قاله مهابة أكبر:

"تقوم نظريتي على تطابق المصالح بيني وبين من يعملون عندي، والعكس صحيح. أنا أعلم أن الآنسة هيل لا تحب أن يُطلق على الرجال مسمى "الأيدي العاملة"، لذا لن استخدم هذه الكلمة، علماً إنها تأتي تلقائياً على طرف لساني كمصطلح تقني بحت تعود أصوله، أياً كانت، إلى زمن طويل. في يوم من الأيام من المستقبل القادم، ألف عام، في المدينة الفاضلة، قد تتحول وحدة الحال هذه بين العمال وأرباب العمل إلى ممارسة عملية، تماماً كما أستطيع أن أتخيل الجمهورية على أنها الشكل الأمثل للحكم".

"سنقرأ جمهورية أفلاطون حالما ننتهي من هوميروس".

"حسناً، قد نختلف في الزمن الأفلاطوني حول إن كنا جميعاً، رجالاً ونساءً، مناسبين للجمهورية: لكن أعطني مَلكية دستورية في وضعنا الراهن أخلاقاً وفكراً. نحتاج، في مرحلة الطفولة إلى استبداد حكيم يحكمنا. بالفعل، في مرحلة الطفولة، يبقى الأطفال والصغار أسعد الناس في ظل قوانين حكيمة لسلطة حريصة حازمة. أتفق مع الآنسة هيل في ما يتعلق بوصف الناس مثل الأطفال، لكنني أنكر أن يكون للسادة أي علاقة في جعلهم أو إبقائهم على هذه الحال. لكني مقتنع بأن

الاستبداد هو أفضل أنواع الحكم، حيث يتعين علي، في الفترة التي أكون خلالها على تماس مباشر معهم، آن أمارس دور الحاكم المطلق، واستخدم حكمتي، ليس نفاقاً أو إحساناً، وما أكثره في الشمال، لوضع قوانين حكيمة، وقراراتٍ فيما يخص العمل بما يخدم مصلحتي أولاً، ومصلحتهم ثانياً. لكن هذا لا يعني أن أُجبرَ على التخلي عن أسبابي، أو أن أتراجع عما أعلنته من قرار. دعهم يضربون! سيعانون مثل ما أعاني، لكنهم في النهاية سيجدون بأني لم أتراجع قيد أنملة".

عادت مارغريت إلى الغرفة، وجلست تعمل على النسيج الذي كان بين يديها من دون أن تقول شيئاً. من جهته رد السيد هيل قائلاً:

"صحيحٌ أنني لا أتحدث عن معرفة كبيرة، لكن من القليل الذي أعرفه يجب على القول إن الجماهير التي تمر بسرعة نحو مرحلة مضطربة تقع ما بين الطفولة والبلوغ، في حياة المجموع وفي حياة الفرد. ولعل الخطأ الأكبر الذي يرتكبه الآباء الآن في التعامل مع الفرد حالياً أنهم يصرون على طاعة لا عقل لها كما هو الحال عندما يراد منه أن يتصرف انطلاقاً من فكرة الواجب ليطيع القوانين البسيطة مثل: "تعال عندما يناديك أحد" افعل كما يُطلب منك". غير أن الأب الحكيم يحبذ الرغبة بفعل مستقل، لأن يصبح صديقاً أو ناصحاً عندما تنتهي سلطته المطلقة. إن كنت مخطئاً في هذا التفسير، تذكر أنك أنت من قدَّم هذه المقارنة".

"سمعت مؤخراً" قالت مارغريت"، قصة جرت في نورمبيرغ قبل ثلاث سنوات. كان هناك رجل غني يعيش في واحد من القصور الفخمة التي كانت في السابق مساكن ومخازن. قيل إنّه كان لديه طفل، لكن أحداً لم يكن متأكداً من ذلك. وعلى مدى أربعين عاماً، بقيت هذه الشائعة بين مد وجزر، لكنها لم تختفِ كلياً. بعد وفاته، تبين أن الإشاعة كانت صحيحة. كان لديه ابن شاب بالغ ولكن بعقلية طفل لم يتعلم الحياة، أبقاه أبوه على هذه الحالة الغريبة لحمايته من المغريات والخطيئة. لكن عندما انطلق الابن في الحياة، كان لكل ناصح فاسد تأثير عليه، إذ لم يكن بمقدوره التمييز بين الخير والشر. لقد ارتكب الأب خطأً

فادحاً بتربيته في جهل مطبق على أنه يعني البراءة. وبعد مرور أربعة عشر شهراً من العيش المضطرب، سارعت سلطات المدينة إلى تولي رعاية الابن من أجل حمايته من الموت جوعاً لأنه لم يكن قادراً على استخدام الكلمات بطريقة كافية لتجعل منه شحاذاً ناجحاً".

"نعم أنا من استخدمت المقارنة (التي أشارت إليها الآنسة هيل) في وضع السيد رب العمل في موقع الأب، لذا لا ينبغي علي أن أشتكي من تحويل هذا التشبيه إلى سلاح ضدي. لكن، يا سيد هيل، عندما تُنصِّب الأب الحكيم مثالاً نموذجياً لنا، قلت بأنه يوافق أبناءه في رغبتهم بفعل مستقل. لكن بما إن الأوان لم يحن بعد لليد العاملة لتمتلك فعلاً مستقلاً أثناء ساعات العمل، لا أدري ماذا تعنون بذلك. لذا أقول إن كنا نتدخل فعلاً في حياة العمال خارج المصنع، فهذا لا يعفي السادة أرباب العمل من تهمة التضييق ومحاصرة استقلالية أفعالهم، ولا يمكن عندئذ تسويغ هذا التصرف. فهم يعملون لنا عشر ساعاتٍ يومياً، ولا أرى أننا نمتلك أي حق في فرض أي قيود خارج أوقات العمل. اعتز باستقلاليتي اعتزازاً أتخيل معه أن لا إهانة أشد من أن تكون تحت وصاية أحد ما يوجهك وينصحك ويلقي عليك المواعظ، أو حتى يخطط لأفعالي. قد يكون هذا الوصي من أكثر الناس حكمة، أو سلطة ونفوذاً، ومع ذلك لن أتوانى عن التمرد والتململ من تدخله، وأعتقد أن هذا الشعور يبدو عند أهل الشمال أقوى مقارنة مع الجنوب".

"لكن عذراً، ألا يعود سبب ذلك إلى غياب مساواة الصداقة بين الطبقة الأعلى والطبقة الأدنى؟ لأنه يتوجب على كل شخص أن يتخذ موقفاً منعزلاً غير مسيحي، بعيداً عن أخيه الإنسان وغيوراً منه، يتملكه الخوف دائماً من الاستيلاء والتضييق على حقوقه؟"

"أنا لا أعرض إلا الواقع. يؤسفني أن أقول لكم إنَّ لدي موعد عند الساعة الثامنة، ويجب عليّ أن أتقبل الحقائق كما أجدها الليلة، من دون أن أفسرها لهم، وهذا لن يغير في تحديد طريقة التعامل مع الأمور كما هي، لا بد من تقديم الحقائق".

"لكـن" قالـت مارغريـت بصـوت منخفـض، "يبـدو لي أنـه يصنـع الفـارق كلـه في العـالم...". أشـار والدهـا عليهـا بالصمـت وتـرك المجـال للسـيد ثورنـتِن أن ينهـي حديثـه بمـا أنـه كان قـد نهـض مـن كرسـيه اسـتعداداً للرحيـل.

"اسـمحوا لي بهـذه النقطـة فقـط. نظـراً للشـعور القـوي بالاسـتقلالية الـذي يتمتـع بـه كل رجـل في داركشـاير، هـل أمتلـك الحـق أن أفـرض وجهـة نظـري حيـال الطريقـة التـي سـيتصرف بهـا علـيَّ شـخص آخـر (رغـم أني أكـره وبشـدة أن يُفـرض علـي ذلـك)، فقـط لمجـرد أنَّ لديـه عمـلاً يبيعـه، ولـدي رأس مـالٍ لأشـتريه؟"

"لا عـلى الإطـلاق" قالـت مارغريـت مدفوعـة بتصميـم كبـير لقـول هـذه النقطـة فحسـب؛ "ليـس مـن موقـع العمـل ورأس المـال، أيـاً كانـا، وإنمـا لأنـك إنسـان تتعامـل مـع مجموعـة مـن النـاس تمتلـك عليهـم سـلطة كبـيرة، سـواء قبلـت اسـتخدامها أم لم تقبـل، لأن حياتكـم ومعيشـتكم مرتبطتـان ببعضهـما بعضـاً عـلى الـدوام. خلقنـا اللـه عـلى هـذا النحـو لنسـاعد ونتـكل عـلى بعضنـا بعضـاً. قـد نتجاهـل اسـتقلاليتنا، أو نرفـض الاعـتراف بـأن ثمـة آخريـن يعتمـدون علينـا في أشـياء كثـيرة تتجـاوز الأجـر الشـهري، رغـم أنـه هـذا مـا يجـب أن يكـون. لا أنـت ولا سـيد آخـر قـادران عـلى أن تسـاعدا نفسـيكما. فأكـثر الأشـخاص اعتـزازاً باسـتقلاليته يعتمـد عـلى مـن حولـه في تأثيرهـم غـير المحسـوس عـلى شـخصيته؛ عـلى حياتـه. وأكـثر الرجـال انعزاليـةً بأنـاه الداركشـايرية لديـه أشـخاص يعتمـدون عليـه ويتعلقـون بـه مـن كل الجهـات، ولا يسـتطيع أن ينفضهـم عنـه، إن كان باسـتطاعة الصخـرة الصـماء التـي لا يختلـف عنهـا أن تفعـل ذلـك...".

"رجـاءً يـا ابنتـي لا تدخلينـا في التشـبيهات مـرة أخـرى، فقـد سـبق وأخرجتنـا عـن سـياق الحديـث"، قـال والدهـا مبتسـماً يخالجـه شـعور بالحـرج مـن تأخـير السـيد ثورنـتِن ضـد رغبتـه وهـو أمـر غـير مقبـول، علـما بـأن الأخـير كان راضيـاً طالمـا أن مارغريـت كانـت تتكلـم، عـلى الرغـم مـن أن كلامهـا أثـار غضبـه.

"أخبرينـي، يـا آنسـة هيـل، هـل سـبق لـك أن تأثـرت... كلا ليسـت هـذه الطريقـة المناسـبة...لكن إن كنـت قـد تأثـرت بآخريـن، وليـس بالظـروف، هـل كان هـؤلاء

الآخرون يعملون بشكل مباشر أم غير مباشر؟ هل كانوا يعملون على التشجيع والنصح والتصرف السليم من أجل أن يضعوا مثالاً نموذجياً يُحتذى به، أم كانوا مجرد أناسٍ بسطاء صادقين يقومون بواجبهم من دون تردد، ومن دون التفكير كيف يمكن لأفعالهم أن تجعل هذا الرجل مجتهداً، وذاك قادراً على توفير المال؟ إذن، لِمَ يتوجب عليَّ، إن كنت عاملاً، أن أكون أكثر تأثراً عشرين مرة بمعرفة أن صاحب عملي شخص نزيه، ملتزم بمواعيده، وسريع، وصاحب قرار في كل أفعاله (علما بأن العمال جواسيس أكثر حماسةً حتى من الحارس الشخصي)، أكثر من تأثرهم بأي قدر من التدخل، وإن كان بحسن نية، في طريقة حياتي خارج ساعات العمل. لم أختر لأن أفكر بتمحيص كبير بما أكون أنا، لكني أعتمد على صدق وصراحة عمالي، وطبيعة معارضتهم الواضحة، خلافاً للطريقة التي سيدار فيها الإضراب في بعض المصانع، فقط لأنهم يعلمون جيداً احتقاري للاستفادة حتى ولو من أفضلية واحدة غير نزيهة، أو المراوغة أو التحايل. الأمر يتجاوز كثيراً سلسلة طويلة من المحاضرات حول "الصدق منجاة"، "الحياة تُختصر بكلمات". لا لا! ما يكون عليه رب العمل، هذا ما سيكون عليه عماله، من دون التفكير كثيراً بمسؤوليته."

"هذا اعتراف عظيم"، قالت مارغريت وهي تضحك. "عندما أرى رجالاً عنيفين وعنيدين في سعيهم لكسب حقوقهم، أستنتج إن السيد جاهلٌ بالروح التي تعاني طويلاً، لطيفة، ولا تنشد إلا ذاتها[37]".

"أنت مثل جميع الغرباء الذين لا يفهمون عمل نظامنا، يا آنسة هيل"، قال السيد ثورنتِن على عجل. "إنك تفترضين رجالنا دمىً من عجين مستعدين كي نقولبهم في الشكل الذي يرضينا. إنك تنسين بأننا لا نتعامل معهم إلّا في أقل من ثلث حياتهم، كما أنك لا تدركين أن واجبات الصناعي أكبر وأوسع من تلك

(37) تشير المؤلفة بشكل غير مباشر هنا إلى ما ورد في رسالة يوحنا بولص الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس في العهد الجديد الإصحاح 13 (3-7): وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي، وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ، وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئًا. اَلْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَحْسِدُ. اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ، وَلاَ تَنْتَفِخُ، وَلاَ تُقَبِّحُ، وَلاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا، وَلاَ تَحْتَدُّ، وَلاَ تَظُنُّ السُّوءَ، وَلاَ تَفْرَحُ بِالإِثْمِ بَلْ تَفْرَحُ بِالْحَقِّ، وَتَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتُصَدِّقُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ، وَتَصْبِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. (م)

التـي تخـص مجـرد رب عمـل. لدينـا شـخصية تجاريـة كبـيرة لنحافـظ عليهـا فهـي التـي تجعلنـا الـرواد الأوائـل للحضـارة".

"مـا يفاجئنـي"، قـال السـيد هيـل مبتسـماً، "إنـك ربمـا لا تحقـق سـوى القليـل في بلدتـك، مـع رجـال ميلـتِن، فهـم مجموعـة مـن القسـاة الهمجيـين".

"وهـم كذلـك فعـلاً" رد عليـه السـيد ثورنـتِن. ولا ينفـع معهـم العـلاج بمـاء الـورد. كروموبـل[38]، لـو كان بيننـا، لأصبـح صاحـب مصنـع ناجـح، يـا آنسـة هيـل. ليتـه كان معنـا للقضـاء عـلى هـذا الإضراب"

"بالنسـبة إليَّ، كروموبـل ليـس بطـلاً"، قالـت مارغريـت بـبرود. "لكنـي أحـاول أن أصالـح بـين إعجابـك بالاسـتبداد، وبـين احترامـك للشـخصية المسـتقلة عنـد الآخريـن".

احمَّـر وجهـه مـن نـبرة صوتهـا. "أفضـل أن أكـون سـيد عـمالي غـير المسـؤول، الـذي لا يُناقـش خـلال سـاعات العمـل. عندمـا تنتهـي هـذه السـاعات، تنتهـي علاقتنـا، وهنـا يبـدأ الاحـترام المتبـادل لاسـتقلالية كل واحـد منـا". مكتبة .. سُر مَن قرأ

ظـل صامتـاً لدقيقـة وكان مسـتاءً، لكنـه سرعـان مـا نفـض عنـه علامـات الغضـب، وتمنـى للسـيد والسـيدة هيـل ليلـة طيبـة.

ثم اقترب من مارغريت وقال لها بصوت منخفض:

تحدثـت معـك مـرة عـلى عجـل هـذا المسـاء، وآسـف إن كنـت وقحـاً، لكـن كـما تعلمـين بـأني لسـت سـوى صناعـي غـير متحـضر مـن ميلـتِن، فهـلا سـامحتني؟"

"بالتأكيـد" أجابتـه وهـي تبتسـم في وجهـه الـذي كان تعبـيره موزعـاً بـين القلـق والإحسـاس بالقهـر، ولم يتـلاشى تمامـاً عندمـا نظـر إلى وجههـا المـشرق الجميـل الـذي اختفـت عنـده كل آثـار ريـح الشـمال في نقاشـهما. ومـع ذلـك، لم تمـد يدهـا لمصافحتـه، وأحـس مجـدداً بهـذا التجاهـل الـذي عـزاه إلى تكبرهـا.

---

(38) أوليفـر كروموبـل (1599-1658) قائـد عسـكري وسـياسي عـدّه نقـاده أحـد القـادة الديكتاتوريـين. هـزم الملكيـين في الحـرب الأهليـة الإنكليزيـة. جعـل إنكلـترا جمهوريـة وقـاد كومنولـث إنكلـترا. (م)

ظل الموت

في اليوم التالي، جاء الدكتور دونالدسِن في أول زيارة للسيدة هيل. وعلى الرغم من سعادتها بأنها استعادت علاقتها الحميمة المقربة من والدتها، مُنعت مارغريت من البقاء في الغرفة، على عكس ديكسِن. لم تكن مارغريت من النوع الذي يحب بسهولة، لكنها متى أحبت كانت تحب بجنون، وبالحد الأقصى من الغيرة.

ذهبت إلى غرفة نوم أمها، خلف غرفة الضيوف، وأخذت تتمشى فيها جيئة وذهاباً بانتظار خروج الطبيب. كانت تتوقف بين الحين والآخر لتستمع، وتخيلت أنها سمعت تأوهاً. شبكت يديها، وشدت على أسنانها. كانت متأكدة من أنها سمعت تأوهاً. بعدها كل شيء ظل ساكناً لبضع دقائق أخرى، ومن ثم صوت تحريك الكراسي، والأصوات العالية، وهذه الضجة قبل الانصراف.

عندما فُتح الباب، خرجت مارغريت مسرعة من غرفة النوم.

"أبي ليس في البيت، يا دكتور دونالدسِن. إنه يعطي درساً لأحد طلابه. هل أُزعجك بأن تأتي معي إلى مكتبه في الأسفل؟".

شعرت مارغريت بنشوة الانتصار على ديكسِن وهي تمضي في طريقها لتتولى موقعها كابنة المنزل بما يشبه دور الأخ الأكبر الذي يقضي على تطفل الخادمة العجوز وفضولها بشكل فعال. منحها هذا الإحساس بخُيلاء تصرفها غير المعتاد حيال ديكسِن شيئاً من السعادة وسط قلقها على والدتها. فقد أدركت مارغريت، من الدهشة التي ارتسمت على وجه ديكسِن، كم من السخافة أن تبدي هذا النوع من الكبرياء، وحملتها هذه الفكرة إلى الغرفة في الأسفل،

ومنحتها قدراً من نسيان المهمة الحقيقية بين يديها. بعد أن عادت إلى نفسها، بقيت صامتة لدقيقة أو دقيقتين قبل أن تنطق بكلمة واحدة.

لكنها تكلمت بنبرة آمرة عندما سألت:

"ما هي مشكلة أمي؟ سأكون ممتنة لك لو أخبرتني الحقيقة". عندها لمحت موقف الطبيب المتردد في الإجابة عن سؤالها، فأضافت:

"أنا الوحيدة الباقية من أبنائها، أقصد هنا. والدي وللأسف لا يبدو قلقاً، لذا إن كان ثمة خطر حقيقي، فلا بد أن نبلغه به بشكل هادئ. وأستطيع القيام بذلك، كما يمكنني العناية بأمي. أرجوك تكلم. أن أرى وجهك من دون القدرة على تفسيره، يجعلني أشعر بالخوف أكثر مما يمكن لكلماتك أن تطمئنني".

" سيدتي العزيزة الشابة، يبدو أن والدتك تحظى بخادمة كفوءة ونشيطة، وأقرب أن تكون صديقة لها".

"أنا ابنتها، يا سيد".

"ماذا لو قلتُ لك إنها هي من طلبت مني ألا أخبرك".

"لست جيدة أو صبورة بما فيه الكفاية لأخضع لهذا المنع، كما أنني واثقة بأنك أكثر خبرة وحكمة من أن تكون قد وعدت بكتمان السر".

"حسناً"، قال الطبيب وشفتاه تفترّان عن نصف ابتسامة، وإن كانت بما يكفي من الحزن، "أنت محقة، لم أعد بشيء. في الواقع، أنا أخشى من أن السر سيُكشف عاجلاً حتى من دون أن أكشفه بنفسي".

سكت قليلاً. شحب وجه مارغريت وعضت على شفتيها فيما بقيت ملامحها جامدة. بنظرة ثاقبة إلى شخصيتها التي لا يمكن من دونها لأي طبيب آخر أن يصل إلى مكانة وسمعة الدكتور دونالدسِن، أدرك أنها ستكتشف الحقيقة كاملة، وتعلم حتى ولو أخفى جزءاً صغيراً منها، وإن التستر سيكون في هذه الحالة عذاباً أشد إيلاماً من المعرفة نفسها. قال جملتين مختصرتين بصوت منخفض وهو يراقبها طوال الوقت؛ فقد توسعت عيناها إلى رعب أسود، واستحال بياض

بشرتها أرجوانياً. توقف عن الكلام، وانتظر أن تستعيد طبيعتها وتنفسها. ثم قالت له:

"أشكرك على ثقتك، يا سيد. كان هذا الهاجس يلاحقني من عدة أسابيع. إنه عذاب حقيقي. أمي المسكينة!". بدأت شفتاها ترتعشان، فتركها تطلق سراح دموعها، واثقاً من قدرتها على ضبط نفسها.

بضع دموع كانت كل ما استطاعت أن تذرفه عيناها قبل أن تستجمع العديد من الأسئلة التي كانت متلهفة لطرحها.

"هل ستعاني كثيراً؟"

"لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال. إذ إن الأمر يعود إلى طبيعتها، وإلى ألف شيء آخر. لكن المكتشفات الحديثة في العلم الطبي منحتنا قدرة كبيرة على تخفيف الألم".

"أبي!" قالت مارغريت، وجسدها يرتعش بأكمله.

"لا أعرف السيد هيل شخصياً. أقصد أنه من الصعب أن أقدم النصيحة. لكن يجب أن أقول، انطلاقاً من الحالة وحقيقة الوضع الذي أجبرتني على كشفه لك على نحو غير متوقع، وإلى أن تصبح الحقيقة التي لم أستطع إخفاءها واضحة إلى درجة ما بحيث يمكنك من دون جهد كبير أن تواسي والدك. قبل ذلك، ومع زياراتي بالطبع التي ستتكرر بين الحين والآخر، رغم أنني لن أفعل شيئاً سوى تخفيف الألم، سيكون قد ظهر ألف تفصيل صغير يكفي للفت انتباهه، ويزيده تركيزاً وعمقاً إلى درجة سيكون معها والدك مستعداً بشكل أفضل. في الحقيقة يا سيدتي العزيزة الشابة، سبق لي أن التقيت السيد ثورنتِن وأقدِّر عالياً والدك على التضحية التي قدمها، وإن كنت أعتقد بأنه كان مخطئاً في قراره. حسناً هذا اعتراف مني هذه المرة فحسب، إن كان يرضيك يا عزيزتي. تذكّري عندما آتي إلى هنا ثانية، سآتي بصفتي صديقاً، ويجب أن تعامليني على هذا الأساس. إن تَعارُفَنا في مثل هذه الأوقات يساوي سنيناً من الزيارات الصباحية". منع البكاء مارغريت من الكلام، لكنها شدت على يده عندما غادر.

"يا لها من فتاة رائعة!" قال الدكتور دونالدسِن وهو يجلس في عربته، ووجد

الوقت المناسب ليعاين يده التي تحمل الخاتم وعانت قليلاً من ضغط يدها. "من كان يظن أن يداً صغيرة مثل تلك يمكن أن تكون بهذه القوة؟ لكن عظامها جُمعت في أحسن ترتيب وهذا ما يمنحها قوة كبيرة. يا لها من ملكة! برأسها المتراجع إلى الخلف أولاً لتجبرني على قول الحقيقة، ومن ثم تنحني إلى الأمام وهي تستمع إلي. المسكينة! يجب أن أحرص على ألا تجهد نفسها. على الرغم إنه من المثير للدهشة كم تعمل وتعاني هذه المخلوقات الأصيلة. إنها فتاة قوية حتى النخاع. لو أن فتاة غيرها استحال لونها على تلك الشاكلة من اللون القاتل، كان من المستحيل أن تستعيد نفسها من دون أن يغمى عليها، أو تدخل في حالة هستيرية. أما هي فلا! وقوة إرادتها هي ما جعلها تتماسك. فتاة مثل هذه كانت ستفوز بقلبي لو كنت أصغر بثلاثين عاماً. فات الأوان. ها قد وصلنا إلى منزل آل آرشِر". قفز من العربة بكل ثقة وحكمة وخبرة وتعاطف، مستعداً لزيارة هذه الأسرة وكأنه لا يوجد غيرها في هذا العالم.

في هذه الأثناء، عادت مارغريت إلى مكتب أبيها لتستعيد قوتها، قبل أن تصعد الدرج إلى الغرفة التي كانت أمها موجودة فيها.

"يا إلهي، يا إلهي! لكن هذا مرعب. كيف سأحتمله؟ مثل هذا المرض القاتل! لا أمل بالشفاء! آه، يا أمي، ليتني لم أذهب للعيش مع الخالة شو، وأمضيت كل هذه السنوات الثمينة بعيداً عنك! أمي المسكينة! كم تحمّلت! أتضرع إليك يا الله أن تخفِّف من آلامها. كيف لي أن أحتمل رؤيتها تتعذب؟ وكيف يمكن لي أن أتحمل عذاب والدي؟ يجب ألا نخبره بأي شيء الآن، على الأقل ليس كل شيء دفعة واحدة. سيقتله الخبر. لكنني لن أضيع دقيقة واحدة كي أكون إلى جانب أمي العزيزة الغالية".

صعدت إلى الأعلى. لم تكن ديكسِن في الغرفة. كانت السيدة مستلقية في كرسي مريح وقد التفت بشال أبيض ناعم، وعلى رأسها قبعة كانت قد ارتدتها بانتظار زيارة الطبيب. طفا على وجهها لون باهت قليلاً، غير أن الإرهاق ذاته الذي حل بها بعد الفحص الطبي هو ما منح وجهها منظراً هادئاً. فوجئت مارغريت بمنظر والدتها المطمئن الهادئ.

"ما بك يا مارغريت، كم تبدين غريبة! ما الأمر؟" وحالما تسللت إلى ذهنها خطورة حالتها، أضافت وكأنها مستاءة نوعاً ما "لم تكوني مع الدكتور دونالدسِن تطرحين عليه الأسئلة، أليس كذلك، يا ابنتي؟" لم تجب مارغريت، واكتفت بالنظر إليها بحزن وأسى. شعرت السيدة هيل بضيق أكبر. "لم يخلف وعده لي بالتأكيد، و...".

"بلى يا أمي، لقد أخبرني، أنا من أجبرته على ذلك. أنا الملامة في هذا الأمر". وجثت بجانب أمها، وأمسكت يدها بقوة لا تريد إفلاتها، رغم أن السيدة هيل حاولت أن تسحب يدها. بقيت مارغريت تقبل يد أمها، وتغرقها بالدموع الحارة التي كانت تسيل من عينيها.

"ما فعلته كان تصرفاً خاطئاً. كنت تعلمين بأني لم أكن أرغب بأن تعلمي". وكأنها تعبت من المجادلة، تركت السيدة هيل يدها في حضن ابنتها، وشدت على يدها بضغطة خفيفة، وهو ما شجع مارغريت على الكلام.

"أمي، دعيني أكون ممرضتك. سأتعلم أي شيء تستطيع ديكسِن أن تعلمني. أنا ابنتك، وأعتقد أن من حقي أن أقوم بأي شيء لأجلك".

"أنت لا تدركين ما تطلبينه مني"، قالت السيدة هيل وهي ترتعش.

"بل أدرك ذلك جيداً، أعرف أكثر مما تظنين. دعيني أكون ممرضتك، لا أحد حاول أو سيحاول كما سأفعل أنا. سيكون ذلك راحة كبيرة لي، يا أمي".

"حسناً، يا طفلتي المسكينة، ستحاولين. هل تعلمين يا مارغريت أني وديكسِن ظننا بأنك ستبتعدين عني إن عرفت بالأمر..."

"ديكسن ظنت!" قالت مارغريت وقد زمت شفتيها. "لا يحق لديكسِن أن تعطيني مصداقية لحب صادق بقدر ما تعطيه لنفسها. أحسبها تظنني واحدة من تلك النساء البائسات اللواتي يفضلن أن يستلقين على أوراق الورد، وإلى جانبها من يلوح لها بالمراوح طوال اليوم. لا تسمحي لخيالات ديكسِن أن تتدخل بيني وبينك، أرجوك يا أمي!" قالت مارغريت بنبرة متوسلة.

"لا تغضبي من ديكسِن"، قالت السيدة هيل بقلق. تمالكت مارغريت نفسها.

"لا لـن أغضـب، سـأحاول، سـأكون متواضعـة، وأتعلـم منهـا، فقـط إن سـمحت لي أن أفعـل كل شيء يمكننـي القيـام بـه. دعينـي أكـون في المرتبـة الأولى لديـك، يـا أمـي...لا أطمـع بـشيء سـوى ذلـك. تصـورت أنـك ستنسـينني عندمـا كنـت عنـد الخالـة شـو، وكـم بكيـت حتـى أنـام في تلـك الليـالي، وهـذه الفكـرة تـدور في رأسي".

"وأنـا كنـت أتسـاءل كيـف يمكـن لمارغريـت أن تحتمـل عيشـتنا الفقـيرة القاسـية بعـد الرفاهيـة والراحـة في شـارع هـارلي حتـى أننـي كنـت أخجـل مـن مشـاهدتك لأدوات المنـزل في هِلْسـتِن أكثر مـما أخجـل مـن أن يراهـا شـخص غريـب".

"بالعكـس يـا أمـي كنـت أسـتمتع بهـا. كانـت مسـلية أكـثر مـن كل الأسـاليب البطيئـة المتثاقلـة في شـارع هـارلي. فـرفُّ خزانـة الملابـس لـه مقابـض يمكـن أن يتحـول معهـا إلى صينيـة عملاقـة تُسـتخدم في المناسـبات الكـبرى، وصناديـق الشـاي القديمـة تُغطـى وتُحـشى لتصبـح أرائـك للجلـوس. مـا تسـمينه فقـراً قاسـياً في هِلْسـتِن الحبيبـة كان أجمـل مـا في الحيـاة هنـاك".

"لـن أرى هِلْسـتِن مـرة ثانيـة، يـا مارغريـت"، قالـت السـيدة هيـل، والدمـوع تفيـض في عينيهـا. لم تسـتطع مارغريـت الإجابـة، فتابعـت السـيدة كلامهـا. "عندمـا كنـت هنـاك، كنـت أتشـوق لمغادرتهـا. كل بقعـة فيهـا كانـت أجمـل. أمـا الآن فسـوف أمـوت وأنـا بعيـدة عنهـا، وهـذا جـزائي العـادل".

"لا يجـب عليـك أن تتكلمـي بهـذه الطريقـة"، قالـت مارغريـت بتململ وضيـق. "قـال إنـك قـد تعيشـين سـنوات. وسـنعيدك إلى هِلْسـتِن يـا أمـي".

"لا أبـداً، يجـب أن أتقبـل عقـابي. لكـن فريدريـك!". وعندمـا ذكـرت هـذه الكلمـة، بكـت السـيدة هيـل بصـوت عـالٍ وكأنهـا تتعـذب مـن ألم حـاد. بـدت وكأن مجـرد التفكـير بـه كـدَّر عليهـا هدوءهـا، وحَطَّـم سـكونها، وتغلـب عـلى تعبهـا. وصرخـت بعاطفة جياشـة "...فريدريـك! عـد إلي، إني أحتـضر. يـا طفـلي البكـر. ألـن تعـود إلي ثانيـة!".

انتابتهـا حالـة هسـتيرية عنيفـة. فزعـت مارغريـت وسـارعت لمنـاداة ديكسِـن التـي دخلـت إلى الغرفـة يملؤهـا الغضـب، وأنَّبَـتْ مارغريت لأنها بالغت في اسـتثارة مشـاعر والدتهـا. تحملـت مارغريـت كلـمات ديكسِـن بهـدوء وتواضـع، وهـي تدعـو اللـه ألا

يعود والدها إلى المنزل في تلك اللحظة. وعلى الرغم من قلقها الذي فاق بكثير ما يقتضيه الحدث، نفذت مارغريت تعليمات ديكسِن في الحال على أكمل وجه، من دون كلمة لتبرئة نفسها. وهكذا، امتصت مارغريت غضب ديكسِن. وضعاها في السرير، وبقيت مارغريت إلى جانبها حتى استغرقت في النوم، وبقيت كذلك حتى أخرجتها ديكسِن من الغرفة. وبوجه عابس، كما لو كانت تقوم بفعل خلافاً للمعتاد، قدمت لها ديكسِن فنجان قهوة كانت قد أعدته لها في غرفة الضيوف، ووقفت إلى جانبها بهيئة الآمر المتحكم.

"ما كان يجب عليك أن تكوني فضولية إلى هذه الدرجة، يا آنسة، وبالتالي لم يكن من داعٍ لهذا القلق قبل الأوان، لأنه سيأتي عاجلاً بما فيه الكفاية. والآن، أظنك ستخبرين السيد بما جرى، وستكونين خير معين لي في المنزل!".

"كلا يا ديكسِن،" قالت مارغريت بأسف، "لن أخبر أبي. لن يستطيع تحمل الأمر مثلي". ومن أجل أن تثبت كيف تحملته بالفعل، انفجرت بالبكاء.

"مهلاً، كنت أعلم أنك ستتصرفين على هذا النحو. ستوقظين أمك بعد أن استغرقت في نومها بهدوء. عزيزتي آنسة مارغريت، كنت مضطرة لأن أخفي الأمر لأسبوع كامل. لا أدعي بأني أستطيع أن أحبها كما تحبينها، لكني أحببتها كما لم يحبها رجل، أو امرأة، أو طفل، لا أحد يوازيها في هذا الحب سوى السيد فريدريك. منذ أن أخذتني خادمة السيدة بيريسفِرد لأراها وقد ارتدت فستاناً من الكريب الأبيض عليه نقوش أكواز الذرة وأزهار الخشخاش القرمزية، وغرزتُ إبرة في إصبعي حتى انكسرت داخلها، ومزقت سيدتي منديل الجيب بعد أن قصوه، ثم بللوا الضمادة بالغسول عندما عادت من الحفلة الراقصة حيث كانت أجمل الفتيات على الإطلاق، منذ ذلك اليوم لم أحب أحداً كما أحببتها. لم يخطر على بالي قط أنني سأعيش لأراها تصل إلى هذه الحالة. لا أقصد بكلامي هذا أحداً. كم من أحد يراك جميلة وأنيقة، وما إلى ذلك من ألفاظ. حتى في هذا المكان المشبع بالدخان، بما يكفي ليعمي عيني المرء، يمكن للبوم أن يرى ذلك، بأنك جميلة، لكنك لن تبلغي جمال أمك أبداً حتى ولو عشت مئة عام".

"أمي لا تزال جميلة، أمي المسكينة".

"لا تعاودي البكاء من جديد، أو سأسمح لنفسي بالنحيب أيضاً. لن تستطيعي أن تحتملي أسئلة السيد عندما يعود إلى المنزل وأنت في هذه الحالة. أخرجي وتمشي قليلاً. كم مرة تمنيت لو أُبعد فكرة مرضها عن ذهني، وكيف ستنتهي الأمور".

"ديكسِن، قالت مارغريت، "كم كنت متضايقة منك من دون أن أدري ذلك السر الرهيب الذي كان عليه احتماله".

"باركك الله يا ابنتي! أود أن أراك تظهرين ولو قليلاً من تلك الروح. إنها متأصلة في دماء آل بيريسفِرد. ذات مرة كاد السير جون أن يطلق النار على اثنين من مراقبي الفلاحين وهو واقف في مكانه لأنهما قالا له إنه أنهك الفلاحين الأجراء لديه إلى حد لن يستطيع أن يحصل على المزيد من المال منهم أكثر مما قد يحصل من حجر الصوان".

"حسناً، يا ديكسِن، لن أطلق النار عليك، ولن أضايقك مرة أخرى".

"لم تضايقيني أبداً، وإن سبق وقلت ذلك من قبل، فكان حديثاً بيني وبين نفسي، في خلوتي مع نفسي، لأنه لا يوجد أحد هنا يمكنني التحدث معه. وأنت عندما تشتعلين غضباً، تشبهين السيد فريدريك. قد أجد يوماً ما وسيلة لإغضابك لأرى نظرته العاصفة ترتسم على وجهك. أما الآن فاخرجي وتمشي. سأعتني بالسيدة، أما بالنسبة للسيد، فالكتاب خير رفيق له، إن عاد".

"أنا ذاهبة"، قالت مارغريت. وقفت إلى جانب ديكسِن، كما لو كانت خائفة مرتبكة، ثم قبلتها فجأة، وأسرعت بالخروج من الغرفة.

"باركها الله!" قالت ديكسِن."إنها حلوة مثل البندق. هناك ثلاثة أشخاص أحبهم: السيدة، والسيد فريدريك، وهي. فقط ثلاثتهم. أما الباقون، فإلى المشنقة، لأنني لا أعلم جدوى وجودهم في العالم. لقد وُلد السيد، حسب ظني، ليتزوج من السيدة. إن اقتنعت بأنه يحبها كما يجب، ربما أحبه مع مرور الوقت. لكن كان يجب عليه أن يعتني بها أكثر، ولا يبقى منشغلا بالقراءة، والقراءة، والتفكير،

والتفكير لوحده. ها هي تذهب (تنظر من النافذة حالما سمعت صوت الباب الأمامي يُغلق). "يا للفتاة الشابة المسكينةَ! تبدو ملابسها مهلهلة أكثر مما كانت عليه عندما جاءت إلى هِلْستِن قبل عام من الآن. يومها لم يكن في خزانتها جورب مرتوق أو قفاز مغسول. أما الآن...".

ما هو الإضراب

خرجت مارغريت من المنزل بخطوات متثاقلة تخلو من الحماسة. إلا أن طول الشارع، وهواء الشارع في ميلتِن، أثارا النشاط في دمها قبل أن تصل إلى أول منعطف. أصبحت خطوتها أكثر خفة ورشاقة، وشفتاها أكثر احمراراً. وبدأت تلاحظ ما يجري في الخارج، بدلاً من أن تغرق في أفكارها الداخلية. لفت انتباهها منظر المتسكعين على غير العادة في الشارع. رجال يضعون أيديهم في جيوبهم يتمشون، ومجموعة من الفتيات يضحكن ويتحدثن بصوت عالٍ حيث بدت عليهن حالة من الانفعال، وتصرفات تدل على تفلت صاخب ومزعج. أما أسوأ مشهد بين الرجال، فكان في مجموعة قليلة العدد تحلقت حول دور البيرة ومحال بيع مشروب الجِن، يدخنون، ويطلقون التعليقات كيفما اتفق على كل عابر في الشارع. لم ترق لمارغريت فكرة المشي مسافة طويلة عبر هذه الشوارع قبل أن تصل إلى الحقول حيث كانت تنوي الذهاب. ففضلت أن تذهب لزيارة بيسي هيغينز. صحيح أن السير إلى هناك لن يكون منعشاً كما كان المشي الهادئ في الريف، إلا أنه لا يزال، ربما، أهون الشرين.

كان نيكولاس هيغينز جالساً يدخن بجانب موقد النار عندما دخلت. بيسي كانت جالسة على الطرف الآخر وهي تتمايل بجسدها.

نزع نيكولاس الغليون من فمه ودفع بكرسيه إلى مارغريت، ثم وقف مستنداً باسترخاء على رف الموقد، بينما سألت مارغريت عن حال بيسي.

"عادة ما تشعر بيسي بالقلق حيال شرب الكحول، لكنها بصحة جيدة. إنها لا تحب هذا الإضراب، لأنها تفضل الهدوء والسلام أيا كان الثمن".

"هـذا هـو ثالـث إضراب أشـهده في حيـاتي" قالـت بيـسي، وكأن هـذا الجـواب كان كافيـاً.

"الثالثـة ثابتـة. هـذه المـرة سـنحطم السـادة. هـذه المـرة سـيأتون إلينـا يتوسـلون أن نعـود إلى العمـل وبالأجـر الـذي نحـدده. هـذا كل شيء. خسرنـا المـرة الماضيـة، لكـن هـذه المـرة، صدقينـي، وضعنـا خططنـا بشـكل مـدروس".

"ولِـمَ تضربـون؟" سـألته مارغريـت. "تتوقفـون عـن العمـل حتـى تحصلـوا عـلى الأجـر الـذي تريدونـه، أليـس كذلـك؟ لا تتعجـب مـن جهـلي، فأنـا جئـت مـن مكان لم أسـمع فيـه يومـاً عـن إضراب".

"ليتنـي كنـت هنـاك، إذ لا يناسـبني أن أمـرض وأقـرف مـن الإضرابـات. هـذا آخـر إضراب سـأراه في حيـاتي، وقبـل أن ينتهـي سـأكون قـد رحلـت إلى المدينـة العظيمـة؛ القـدس المقدسـة".

"إنهـا مهتمـة بالآخـرة، ولا تفكـر في الحـاضر، أمـا أنـا فقـد وجـب عـلي أن أبـذل قصـارى جهـدي هنـا في هــذه الدنيـا. عصفـور في اليـد أفضـل مـن عـشرة عـلى الشـجرة. هــذا هــو الخـلاف بيننـا في مـا يخـص مسـألة الإضراب".

"لكـن" قالـت مارغريـت، "إن أضرب النـاس عـن العمـل، كـما تقـول، في المـكان الـذي جئـت منـه وغالبيتهـم يعملـون في الحقـول، لـن تُـزرع البـذور، ويُحصـد الـزرع، وتُقطـف الـذرة".

"حسـناً؟" قـال نيكـولاس، ثـم واصـل التدخـين مـن غليونـه، بعـد أن وضـع كلمـة "حسـناً" في صيغـة الاسـتفهام.

"لماذا؟"، تابعت مارغريت، "ما الذي سيحل بالمزارعين؟".

نفـث الدخـان مـن فمـه. "أظـن أن عليهـم إمـا أن يتركـوا مزارعهـم، أو يُعطـوا أجـراً عـادلاً".

"افـترض أنهـم لا يسـتطيعون، أو لا يريـدون لا هـذا ولا ذاك. لا يمكنهـم التخـلي عـن مزارعهـم في لحظـة، أيـاً كان مـا يرغبـون فعلـه، لـن يكـون زرع ولا ذرة لبيعهـا فمـن

أيـن يأتـون بالمـال لدفـع أجـور العـمال في الموسـم التـالي؟"

واصل نفث الدخان في الهواء، ثم قال أخيراً:

"لا أعلـم شـيئاً عـن أسـاليبكم في الجنـوب، لكنـي سـمعت أنهـم مجموعـة مـن النـاس الخانعـين الذيـن يفتقـرون للحماسـة، يموتـون جوعـاً إلى حـد الارتبـاك والذهـول عـلى نحـو لا يدركـون متـى يتـم اسـتغلالهم. أمـا هنـا، فالوضـع مختلـف. نحـن نعلـم متـى يسـتغلوننا، وتجـري في عروقنـا دمـاء لا تقبـل بالاسـتغلال. عندهـا نرفـع أيدينـا عـن الأنـوال ونقـول لهـم "أيهـا السـادة! يمكنكـم أن تجعلونـا نجـوع، لكنّنـا لـن نسـمح لكـم باسـتغلالنا" وليكـن مـا يكـون، لـن ينجحـوا هـذه المـرة!"

"يا ليتني كنت أعيش هناك في الجنوب"، قالت بيسي.

"الأمـر لا يخلـو مـن المعانـاة هنـاك أيضـاً"، أجابتهـا مارغريـت. "فهنـاك الأحـزان والمـآسي التـي عليـك أن تتحمليهـا في كل مـكان. وهنـاك العمـل البـدني الشـاق، مـع قليـل مـن الطعـام ليمنحـك القـوة".

"عـلى الأقـل هنـاك الهـواء الطلـق"، قالـت بيسي."بعيـداً عـن الضجيـج الـذي لا ينتهـي، والحـرارة الخانقـة".

"قـد يكـون هنـاك أحيانـاً مطـر غزيـر، وأحيانـاً بـرد قـارس. بمقـدور أي شـخص شـاب أن يحتمـل ذلـك، لكـن كبـير السـن قـد يصـاب بالروماتيـزم، وينحنـي ظهـره، ويذبـل قبـل أوانـه، ومـع ذلـك يجـب عليـه أن يقـوم بالعمـل ذاتـه، أو يذهـب إلى إحـدى دور العمـل الحكوميـة".

"كنت أظنك معجبة بالحياة في الريف في الجنوب".

"وأنـا كذلـك فعـلاً"، قالـت مارغريـت وهـي تبتسـم بعـد أن وجـدت نفسـها مُحـاصَرةً بالجـواب. "مـا أقصـده يـا بيـسي، لـكل شيء في العـالم مساوئُه وإيجابيتـه، وبمـا أنـك جربـت الجانـب الـسيء هنـا، ظننـتُ أنـه مـن الإنصـاف أن تعلمـي مـا هـو سيء هنـاك".

"وقلت إنهم لا يضربون عن العمل هناك؟" سألها نيكولاس فجأة.

"لا"، قالت مارغريت؛ "لأنه لديهم كثير من الحكمة والمنطق، حسب اعتقادي".

"لا أعتقـد"، أجـاب نيكـولاس وهـو ينفـض رمـاد الغليـون بعنـف حتـى كـسره، " لا لأنهـم يمتلكـون الحكمـة والمنطـق، بـل لأنهـم لا يمتلكـون سـوى قليـل من الشـجاعة".

"أبي!" صاحـت بيـسي، "مـاذا جنيتـم مـن الإضراب؟" تذكـر الإضراب الأول عندمـا توفيـت والـدتي؛ كيـف تضورنـا جوعـاً، وكنـت الأسـوأ بـين الجميـع، ومـع ذلـك كـم شـخص ذهـب للعمـل كل أسـبوع وبالأجـر ذاتـه، حتـى ذهـب الجميـع، في حـين بقـي البعـض شـحاذين طـوال حياتهـم بعـد ذلـك".

"صحيـح" رد عليهـا "لأن الإضراب كان مُعـدّاً بطريقـة سـيئة، لأن الذيـن خططـوا لـه كانـوا حمقـى أو ليسـوا رجـالاً صادقـين. سـترين، سـيكون الإضراب مختلفـاً هـذه المـرة".

"لكنك لم تخبرني حتى الآن لماذا تضربون"، سألته مارغريت مجدداً.

"لمـاذا! هنـاك خمسـة أو سـتة مـن أصحـاب المعامـل الذيـن وضعـوا أجـوراً كانـوا يدفعوهـا لنـا قبـل عامـين، وازدهـر عملهـم بسـببها، وازدادوا غنـىً. وهـم يقولـون لنـا الآن بأننـا سـنتقاضى أجـراً أقـل. وهـذا مـا لـن نقبـل بـه. سـنجعلهم يتضـورون جوعـاً حتـى المـوت أولاً، ولـنرى مـن سـيعمل لديهـم. لقـد قتلـوا الدجاجـة التـي تبيـض لهـم ذهبـاً، كـما أظـن".

"وأنت تخطط للموت انتقاماً منهم".

"لا" قـال نيكـولاس، "بـل أتطلـع إلى فرصـة المـوت وأنـا عـلى موقفـي ولا أستسـلم. وهـذا مـا يدعونـه النـاس الجنـدي المقاتـل الشريـف، فلِـمَ لا يكـون هـذا الجنـدي موجـوداً في حائـك فقـير؟"

"لكن الجندي" قالت مارغريت، "يموت دفاعاً عن بلده، عن الآخرين".

ضحـك نيـولاس بوجـه متجهـم عبـوس. "يـا صبيـة" قـال لهـا، "لسـتِ سـوى فتـاة صغـيرة السـن، لكـن ألا تعتقديـن أنـه بإمـكاني إعالـة ثلاثـة أشـخاص ـ بيـسي ومـاري وأنـا ـ بسـتة عـشر شـلناً في الأسـبوع؟ هـل تتصوريـن بـأن أشـارك في الإضراب مـن

أجل مصلحتي؟ بل من أجل الآخرين حالي حال ذلك الجندي الذي تتحدثين عنه ولا فرق بيننا سوى أن جنديك، ربما، يموت من أجل شخص لم يره ولم يسمع به في حياته. أما أنا فأدافع عن قضية جون باوتشَر الذي يسكن جواري ويعيل زوجة مريضة وثمانية أطفال لم يبلغ أحدهم بعد سن العمل، ولا أتبنى قضيته فحسب، رغم أنه رجل فقير ولا ينفع لشيء، طالما أنه لا يستطيع أن يشغل سوى نولين في وقت واحد، بل لأني أدافع عن العدالة والحق. وها أنذا أسألك لِمَ يجب علينا أن نقبل أجراً أقل مما كنا نتقاضاه قبل عامين؟"

"لا تسألني"، قالت مارغريت؛ أنا لا أعرف شيئاً. اسأل بعضاً من سادتكم. سيعطونك بالتأكيد سبباً. فالأمر ليس مجرد قرار اعتباطي جاء من دون سبب".

"أنت مجرد غريبة، ولا شيء أكثر"، قال بازدراء. "تعلمين الكثير عن الموضوع. اسأل السادة! سيقولون لنا أن نهتم بما يعنينا، وهم يهتمون بما يعنيهم. وما يعنينا، كما تعرفين أن نقبل بالأجر المخفَّض، ونبقى شاكرين. وما يعنيهم أن يوصلونا إلى نقطة الجوع كي تتضخم أرباحهم. هذه هي المسألة".

"لكن" قالت مارغريت، وهي مصممة على عدم التراجع على الرغم من أنها أدركت أنها كانت تثير غضبه، "وضع التجارة قد لا يكون في حالة تمكنهم ليعطوكم الأجر الذي تطالبون به".

"وضع التجارة! هذه واحدة من أكاذيب السادة وألاعيبهم. أنا كنت أتحدث عن وضع الأجور. فليحتفظ السادة بوضع التجارة لأنفسهم، ويرفعونه كبعبع أسود لتخويف الأطفال المشاكسين. سأخبرك بما يريدون ـ أو غايتهم كما يسميها البعض ـ أن يسحقونا كي تزداد ثروتهم، ومن واجبنا أن نتصدى لهم ونقاتل بضراوة، ليس من أجلنا فحسب بل من أجل كل من حولنا، من أجل العدالة. نحن مصدر أرباحهم، وينبغي علينا أن نساعدهم على إنفاقها. نحن لا نريد نقودهم هذه المرة، كما كنا نفعل في السابق. نحن نريد الأجر المتفق عليه، ونحن عازمون على أن ننهض معاً ونسقط معاً. لن يعود رجل واحد إلى العمل إلا بالأجر الذي يقول الاتحاد إننا نستحقه. لذلك أقول هيا إلى الإضراب،

ولينتظرنـا ثورنـتِن، وسليكسِـن، وهامـبر، ومـن لـفَّ لَفَّهُـمْ".

"ثورنتِن!" قالت مارغريت. "ثورنتِن في شارع مارلبره؟"

"أجل! ثورنتِن صاحب مصنع مارلبره، كما نسميه".

"إنـه واحـد مـن السـادة الذيـن تتصـارع معهـم، أليـس كذلـك؟ أي نـوع مـن السـادة هو؟"

"هـل رأيـت يومـاً كلبـاً مـن سـلالة البولـدوغ؟ ضعـي كلـب البولـدوغ عـلى قائمتيـه الخلفيتـين وألبسـيه معطفـاً وسروالاً، وسـتجدين أمامـك جـون ثورنـتِن".

"لا"، قالـت مارغريـت وهـي تضحـك، "قـد لا أرى السـيد ثورنـتِن رجـلاً وسـيماً، لكنـه ليـس مثـل كلـب البولـدوغ بأنفـه الأفطـس العريـض وشـفته العليـا المُزمجـرة".

"لا! لا أقصـد في المظهـر، أوافقـك الـرأي. لكـن إن وقـع جـون ثورنـتِن عـلى فكـرة مـا، فسـوف يتشـبث بهـا مثـل كلـب البولـدوغ، قـد تسـتطيعين جـره بمـذراة لمسـافة طويلـة قبـل أن يتركهـا. إن الشـخص الـذي يكـون للـصراع معـه قيمـة حقيقيـة هـو جـون ثورنـتِن. أمـا سليكسِـن، فأتصـور أنـه سـينجح في بضعـة أيـام بإقنـاع عمالـه بالعـودة إلى العمـل بوعـود منصفـة، لكنهـم سيكتشـفون أنهـم خُدعـوا حالمـا يقعـون تحـت قبضتـه مـرة ثانيـة. لـن يتـوانى عـن عصرهـم عـصراً، أنـا واثـق مـن ذلـك. إنـه زلـق مثـل الأنقليـس، أشـبه بقطـة ملسـاء داهيـة، لكنهـا شرسـة. لـن يكـون الـصراع معـه شريفـاً كـما هـو مـع ثورنـتِن. ثورنـتِن قـاس وصلـب كمسـمار البـاب، عنيـد في كل جـزء منـه، مثـل البولـدوغ".

"مسـكينة يـا بيـسي!" قالـت مارغريـت، وهـي تلتفـت إليهـا "تتضايقـين مـن كل هـذا. لا تحبـين الـصراع والقتـال كـما يحبـه والـدك، أليـس كذلـك؟".

"لا"، قالـت بتثاقـل، يسـبب لي الغثيـان. كنـت أتمنـى لـو كنتـما سـتتحدثان عنـي بعـد أن أمـوت، وليـس عـن الخبـط والـضرب والضجيـج الـذي أنهـك حيـاتي كلهـا، وعـن العمـل والأجـور، والسـادة والعـمال، والعـصي والهـراوات".

"يـا ابنتـي المسـكينة! مـا زال أمامـك متسـع للحيـاة! تبديـن بحالـة أفضـل كي

تشهدين ولو تغيراً محدوداً. كما أني سأبقى هنا في المنزل لفترة لأجعله أكثر حيوية بالنسبة إليك".

"دخان التبغ يخنقني!" قالت بيسي بنبرة شاكية.

"لن أدخن مرة أخرى داخل المنزل!" أجاب والدها بلطف. "لماذا لم تخبريني من قبل أيتها الفتاة الحمقاء؟"

صمتت بيسي لفترة قصيرة ثم قالت بصوت منخفض لم تسمعه إلا مارغريت:

"أظنه يريد أن يتخذ من ذلك حجة للخروج إما للتدخين أو الشرب كما كان يفعل سابقاً".

غادر والدها المنزل لينهي غليونه.

قالت بيسي بانفعال:

"لست حمقاء، أليس كذلك يا آنسة؟ كنت أعلم بأنه يجب علي أن أُبقي والدي في المنزل، بعيداً عن زملائه المستعدين على الدوام لإغراء أي شخص، في زمن الإضراب، للذهاب من أجل شرب الكحول. وإن كان لا بد لي أن أتشاجر معه من أجل الغليون، عندها سيغادر المنزل، أنا أدرك ذلك جيداً كلما أراد التدخين، ولا أحد يعلم أين ينتهي به المطاف. أتمنى لو أدع نفسي أختنق أولاً".

"هل يشرب أبوك؟"

"كلا، ليس بمعنى الإدمان"، أجابت بالنبرة الانفعالية نفسها. "لكن ما الفائدة من ذلك؟ أيام معك، وأيام مع رفاقه، كما أظن، عندما تصحين من النوم وتقضين الساعات وأنت تشتهين شيئاً من التغيير، حافز جديد. كنت أذهب لأشتري أربعة أرطال من الخبز من خباز آخر غير الذي اعتدت الذهاب إليه لأنني مللت رؤية المناظر ذاتها، وسماع الأصوات ذاتها، والتفكير بالأفكار ذاتها (أو لا أفكار على الإطلاق)، كل يوم وإلى الأبد. كم تمنيت لو كنت رجلاً يذهب للتسلية والمرح، حتى وإن كان ذلك مجرد الذهاب إلى مكان جديد بحثاً عن عمل. أما أبي، وكل الرجال، فلديهم دافع أقوى مما عندي للملل من هذه الرتابة والعمل للأبد. وماذا يفعلون؟ لا يُلامون كثيراً إن ذهبوا إلى الحانة لشرب

الجِـن لتسريـع جريـان الـدم في عروقهـم، ولـكي يـروا أشـياء لم يروهـا مـن قبـل؛ صـور، مرايـا، وأشـياء مـن هـذا القبيـل. لكـن أبي ليـس سـكيراً، وإن كان لا يبـدو بحالـة جيـدة بعـد الـشرب، بـين الحـين والآخـر. ولكـن"، وهنـا تبدلـت نـبرة بيـسي لتصبـح أكـثر حزنـاً وتوسـلاً، "لا تريـن في زمـن الإضراب إلا أشـياء تحطـم الرجـل، بعـد أن يبـدأوا إضرابهـم بأمـل كبـير؛ ولكـن هـل مـن راحـة فعـلاً؟ يُجـن أبي مـن الغضـب مثـل الجميـع، ثـم يتعبـون مـن الجـوع والغضـب، وربمـا يفعلـون أشـياء في لحظـة مـن الحماسـة سـيكونون سـعداء في نسـيانها. بـاركك اللـه أيتهـا الفتـاة ذات الوجـه الحنـون الجميـل! لكنـك لا تعلمـين بعـد مـا هـو الإضراب".

"مهـلاً يـا بيـسي"، قالـت مارغريـت، لـن أقـول بأنـك تبالغـين لأني لا أعـرف عـن هـذا الأمـر كثـيراً، لكـن، ربمـا، لأنـك لسـتِ في حالـة جيـدة، لا تنظريـن إلى المسـألة إلا مـن جانـب واحـد، في حـين يوجـد جانـب آخـر أكـثر إشراقـاً يمكـن النظـر إليـه".

"ليـس مسـتغرباً منـك أن تقـولي هـذا أنـت التـي عشـت طـوال حياتـك في أماكـن خـضراء جميلـة، ولـن تعـرفي الحاجـة والهـم، ولا حتـى الـشر".

"انتبهـي"، قالـت مارغريـت، وخداهـا يتوهجـان، وعيناهـا تلمعـان، "كيـف تحكمـين عـلى الأمـور، يـا بيـسي. سـأعود إلى المنـزل لأعتنـي بوالـدتي المريضـة ـ إنهـا مريضـة جـداً، يـا بيـسي، ولا مخـرج أمامهـا سـوى المـوت لتتخلـص مـن سـجن معاناتهـا الفظيعـة؛ ومـع ذلـك يجـب عـلي أن أتحـدث ببهجـة مـع أبي الـذي لا يعـرف شـيئاً عن حقيقـة مرضهـا، ويتعـين عـلي إخبـاره تدريجيـاً. والشـخص الوحيـد الـذي يسـتطيع أن يتعاطـف معـي ويسـاعدني، والـذي يسـتطيع أن يقـدم بحضـوره لوالـدتي راحـة كـبرى أكـثر مـن أي شيء آخـر في هـذه الدنيـا، يواجـه تهمـة باطلـة زوراً وبهتانـاً، بـل وخطـر المـوت أيضـاً إن جـاء لرؤيـة أمـه عـلى فـراش المـوت. لم أتحـدث لأحـد عـن هـذا الأمـر سـواك، فـلا تذكريـه لأحـد. لا أحـد في ميلـتِن أو حتـى في إنكلـترا يعـرف ذلـك. تقولـين إني لا أحمـل هـمـاً؟ ولم أعـرف الغـم لأني ارتـدي ملابـس جميلـة وأحصـل عـلى مـا يكفينـي مـن الطعـام؟ آه يـا بيـسي، اللـه عـادل قسـم الأرزاق بيننـا رغـم أن لا أحـد سـواه يعلـم بمـرارة أرواحنـا".

"أرجوك سامحيني"، أجابت بيسي بتذلل. "أحياناً عندما أفكر في حياتي وما عانيته من قلة السعادة فيها، كنت أعتقد بأني، ربما، كنت واحدة من الناس الذين كتب عليهم الموت بسقوط كوكب من السماء،"وَاسْمُ الْكَوْكَبِ يُدْعَى الأَفْسَنْتِينُ. فَصَارَ ثُلْثُ الْمِيَاهِ أَفْسَنْتِينًا، وَمَاتَ كَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْمِيَاهِ لأَنَّهَا صَارَتْ مُرَّةً"[39]، بمقدور المرء تحمل الألم والأسى طالما أنهما كُتبا عليه قبل زمن طويل، ثم يبدو الأمر لي كما لو أن الحاجة للألم باتت ضرورية لتحقيق النبوءة، وإلا لكان كل شيء لا معنى له".

"كلا، يا بيسي - فكري جيداً" قالت مارغريت. "الله لا يبتلي الإنسان رغبة منه بذلك. لا تقرأي النبوءات، وإنما الأجزاء الأوضح من الإنجيل".

"نعم قد يكون ذلك أكثر حكمة، لكن أين لي أن أسمع مثل تلك الكلمات المهيبة عن الوعد الإلهي، أو عن أي شيء مختلف عن هذا العالم الكريه، وهذه البلدة، إلا في سفر الرؤيا؟ كم مرة أعدت قراءة آيات الفصل السابع من ذاكرتي من أجل الصوت فحسب. إنها شجية مثل الأرغن، وتبدو مختلفة في كل مرة أقرأها. لا، لا أستطيع أن أتوقف عن قراءة سفر الرؤيا، إنه يمنحني الراحة والطمأنينة أكثر من أي جزء آخر في الكتاب المقدس".

"سآتي وأقرأ لك بعضاً من المقاطع المفضلة لدي من الإنجيل؟"

"أجل"، صاحت بيسي، "تعالي، سيكون والدي هنا ويسمعك تقرأين. إنه لا يستمع إلي، ويقول إن الإنجيل لا يتحدث عن أمور الحاضر التي تهمه أكثر".

"أين أختك؟"

ذهبت لتعمل في قص نسيج الفُستيان[40]، لم أكن راضية عن ذهابها، لكن يجب أن نعيش، والاتحاد لا يقدم لنا الكثير".

---

(39) اقتباس من سفر الرؤيا؛ الإصحاح الثامن (10-11). (م)

(40) نسيج قطني خشن يضاف إليه الكتان أحياناً لصناعة الملابس الرجالية. من المرجح أن الكلمة تعود في أصولها الأولى إلى مدينة الفسطاط في مصر التي كانت أول من صنع هذا النوع من النسيج. (م)

"والآن يجب أن أرحل. لقد أسديت إلي معروفاً كبيراً".

"أنا!".

"أجل، جئت إلى هنا مثقلة بالحزن وأحسب أن سبب حزني لا مثيل له في العالم كله. لكن عندما أسمع ما عانيته أنت على مدى سنوات، أشعر بقوة أكبر".

"باركك الرب! كنت أحسب المعروف من صنع الناس الطيبين. سأشعر بالفخر إن ظننت بأني قادرة على أن أقدم لك معروفاً".

"لن تكوني قادرة على فعله إن فكّرت فيه، وستشعرين بالحيرة فحسب، وكفى بذلك أن يكون مصدر ارتياح".

"أنت مختلفة عن أي شخص رأيته في حياتي، لا أعلم ماذا أقول لك".

"ولا أنا، وداعاً".

توقفت بيسي عن أرجحة جسدها، لتحدق فيها وهي تغادر.

"أتساءل إن كان هناك أناس كثر في الجنوب. إنها مثل نسمة الريف، تنعشني وتجعلني أشعر بالحيوية نوعاً ما. من كان يظن أن هذا الوجه المشرق والقوي مثل الملاك الذي أحلم به، يمكن له أن يعرف الحزن الذي تتحدث عنه؟ أتعجب كيف يمكن لها أن تقع في الخطيئة، فكلنا خطاؤون. أحبها كثيراً، وكذلك أبي، حتى ماري التي لا تلتفت كثيراً إلى ما يدور حولها".

حب وكراهية

عندما عادت مارغريت إلى البيت، وجدت رسالتين على الطاولة، واحدة لوالدتها سُلمت باليد، ورسالة أخرى فضيّة اللون رقيقة جاءت بالبريد، وكانت من خالتها شو، وعليها طوابع وأختام بريد أجنبية. أمسكت بالرسالة الأخرى تتفحصها، وفجأة دخل والدها.

"إذاً أمك متعبة وذهبت إلى السرير مبكراً. أخشى أن يوماً عاصفاً كهذا لم يكن هو الأفضل في العالم كي يراها الطبيب. ماذا قال؟ أخبرتني ديكسِن أنه تحدث إليك عن حالتها".

ترددت مارغريت. تجهم وجه والدها حزناً وأصبح أكثر قلقاً:

"هو لا يرى أن حالتها خطيرة؟"

"ليس في الوقت الحاضر؛ تحتاج إلى العناية كما يقول الطبيب. إنه لطيف جداً. وقال إنه سيزورها مرة أخرى ليرى تأثير الدواء".

"العناية فحسب؛ ألم يوصي بتغيير الهواء؟ ألم يقل إن هذه البلدة المليئة بالدخان تضر بصحتها، هل قال لك ذلك يا مارغريت؟"

"كلا، ولا كلمة واحدة"، أجابت باقتضاب. "كان قلقاً، حسب ما أظن".

"هذه هي عادة الأطباء، إنها جزء من مهنتهم"، قال لها.

أدركت مارغريت، من طريقة والدها العصبية، أن الانطباع باحتمال وجود خطر قائم سيطر على تفكيره، على محاولته التخفيف من شأن ما أخبرته به. لم يستطع نسيان الموضوع، والانتقال منه إلى أمر آخر؛ إذ ظل يعاود الحديث عنه

طوال المساء من دون أي استعداد من جانبه لتقبل أقل الأفكار سوءاً، وهذا ما جعل مارغريت تشعر بحزن لا يمكن التعبير عنه.

"هذه الرسالة من خالتي شو، يا أبي. وصلت إلى نابولي، لكنها وجدتها حارة جداً، فاستأجرت شقةً في سورينتو. لا أظنها تحب إيطاليا".

"لم يخبرك الطبيب شيئاً عن الحمية، أليس كذلك؟"

"يجب أن تكون مغذية، وسهلة الهضم. أعتقد أن شهية أمي للطعام جيدة".

"نعم! وهذا ما يجعل الأمر أكثر غرابة بأنه كان يجب عليه أن يفكر بالحديث عن الحمية".

"أنا من سألته عن ذلك يا أبي". صمتت قليلاً ثم تابعت حديثها: "تقول خالتي شو أنها أرسلت إلي المزيد من صدف الزينة، يا أبي، لكن"، أضافت مارغريت، وهي ترسم على وجهها نصف ابتسامة، "أنها تخشى ألا تنال إعجاب مُنْشَقي ميلتِن. إنها تأخذ أفكارها عن المنشقين من الكويكرز[41]، أليس كذلك؟"

"إن سمعتِ أو لاحظتِ أن أمك ترغب بأي شيء، أعلميني. للأسف هي لا تخبرني دائماً بما تحب. أرجوك تابعي أمر تلك الفتاة التي ذكرتها السيدة ثورنتِن. إن حصلنا على خادمة جيدة، وكفؤة، ستتفرغ ديكسِن للعناية بوالدتك. وسأعمل على أن تكون بيننا. لقد بدت والدتك متعبة في الآونة الأخيرة، بسبب الطقس الحار، وصعوبة العثور على خادمة. قليل من الراحة سيجعلها في حال أفضل، أليس كذلك يا مارغريت؟"

"آمل ذلك، يا أبي"، قالت مارغريت بحزنٍ بالغ لم يمر على والدها مرور الكرام. قرص خدها.

"تعالي؛ إن كنتِ تبدين شاحبة إلى هذا الحد، يجب علي أن أعيد لك نضارة وجهك. اعتنِ بنفسك يا طفلتي، وإلا أنت من ستكونين بحاجة إلى طبيب المرة القادمة".

---

(41) الصاحبيون أو جمعية الأصدقاء الدينية، والتسمية الأكثر شيوعاً الكويكرز، هي مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنكلترا على يد جورج فوكس. تتركز العقيدة الرئيسة لهذه الطائفة على قدرة المؤمنين تلقي التوجيهات الإلهية من ضوء الداخل من دون مساعدة خارجية، أو وسطاء، أو شعائر. (م)

لم يستطع أن يستقر في مكانه طوال المساء، كان دائم الحركة جيئة وذهاباً على رؤوس أصابعه ليطمئن على زوجته إن كانت لا تزال مستغرقة في نومها. تألم قلب مارغريت على رؤية والدها في هذه الحالة من القلق، ومن محاولته أن يخنق ويكبت ذلك الخوف المقيت الذي كان يطل برأسه من الأماكن المعتمة في ثنايا قلبه. وأخيراً عاد وهو يشعر بالارتياح إلى حد ما.

"لقد استيقظت الآن. ابتسمت لي عندما رأتني أقف إلى جوارها. ابتسامتها القديمة المعهودة. وقالت لي إنها تشعر بتحسن، ومستعدة لشرب الشاي. أين رسالتها؟ تريد أن تراها. سأقرأها لها، ريثما تعدين الشاي".

اتضح أن الرسالة كانت دعوة رسمية إلى العشاء من السيدة ثورنتِن إلى السيدة والآنسة هيل في الحادي والعشرين من الشهر الجاري. فوجئت مارغريت بأن الدعوة تحظى بالقبول بعد كل ما علمته من احتمالات حزينة خلال النهار. لكن هذا ما كان. استأثرت فكرة ذهاب زوجها وابنتها إلى دعوة العشاء بمخيلة السيدة هيل، حتى قبل أن تسمع مارغريت بمضمون الرسالة. كانت مناسبة لتغيير رتابة حياة مريضةٍ، فتعلقت بفكرة ذهابهما بإصرار عنيد عندما أبدت مارغريت معارضتها.

"كلا، يا مارغريت، إن كانت هذه رغبتها، فعلينا أن نذهب كلانا عن طيب خاطر. ما كانت لترغب بذلك لو لم تكن تشعر بأنها أصبحت أفضل حتى أكثر مما نظن، أليس كذلك يا مارغريت؟" قال السيد هيل بحماسة، في حين كانت مارغريت تستعد لكتابة قبول الدعوة في اليوم التالي.

"أليس كذلك مارغريت؟" سألها والدها بحركة عصبية من يديه. كان من الوقاحة بالنسبة لها أن تحرمه ذلك الشعور بالاطمئنان الذي كان يتوق إليه، كما أن رفضه المحموم للاعتراف بوجود خوف ما في داخله، كاد أن يوحي لمارغريت نفسها بالأمل.

"أظن أنها أفضل حالاً منذ الليلة الماضية" قالت مارغريت. "عيناها تبدوان أكثر لمعاناً، وبشرتها أكثر صفاءً".

"بـاركك اللـه"، قـال والدهـا بلهفـة. "لكـن هـل هـي كذلـك حقـاً؟ كان يـوم أمـس خانقـاً حتـى أن الجميـع شـعروا بأنهـم مـرضى. لم يكـن عـلى الأغلـب يومـاً موفقـاً ليراهـا السـيد دونالدسِـن".

ذهــب السـيد هيـل للاهتــمام بواجباتــه التــي ازدادت الآن بالتحضــير لعــدد مــن المحــاضرات كان قــد وعــد بإلقائهــا في القاعــة العموميــة المجــاورة عــلى جمهــور مـن العـمال. واختـار العـمارة الكنسـية موضوعـاً لـه، لا انطلاقـاً مـن ذوقـه الخـاص أو معرفتــه بقــدر مــا كان يتفــق مــع طبيعــة المــكان والرغبــة بنــوع محــدد مــن المعلومــات لــدى الحضــور. كــما أن المؤسســة نفســها ـ التــي كانــت غارقــة في الديـون ـ كانـت سـعيدة أن تحظـى بمنهـاج مجـاني مـن رجـل محـترم ومثقـف مثـل السـيد هيـل، أيـاً كانـت نوعيـة الموضـوع ومضمونـه.

"حسـناً يـا أمـي"، سـأل السـيد ثورنـتِن تلـك الليلـة: "مـن قَبِـلَ دعوتكـم في الحـادي والعشريـن مـن الشـهر الجـاري؟"

"فـاني، أيـن الرسـائل؟ آل سليكسِـن قبلـوا الدعـوة، وكذلـك آل كولينغـبروك، وآل سـتيفن، آل بـراون اعتـذروا. آل هيـل، الأب والابنـة قبـلا الدعـوة، الأم مريضـة جـداً، وآل ماكفرسِـن قبلـوا الدعـوة، والسـيد هورسـفول، والسـيد يانـغ. كنـت أفكـر بدعـوة آل بورتـر، بمـا أن آل بـراون اعتـذروا".

"جيـد جـداً. هـل تعلمـين، أنـا أخـشى ألا تكـون السـيدة هيـل عـلى خـير مـا يـرام، مــما قالــه الدكتــور دونالدسِــن".

"أليـس مسـتغرباً أن يقبلـوا الدعـوة عـلى العشـاء إن كانـت مريضـة جـداً إلى هـذا الحـد!" قالـت فـاني.

"لم أقـل إنهـا مريضـة جـداً" قـال أخوهـا بـشيء مـن الحـدة. "بـل قلـت ليسـت عـلى خـير مـا يـرام. ربمـا لا يعرفـون بالأمـر أيضـاً". لكنـه سرعـان مـا تذكـر، مـما أخـبره الدكتـور دونالدسِـن، أن مارغريـت، عـلى أقـل تقديـر، لابـد أنهـا تعلـم بحقيقـة الحالـة الصحيـة لوالدتهـا.

"عـلى الأرجـح، أنهـم عـلى درايـة تامـة بمـا قلتـه أمـس يـا جـون، بشـأن الفائـدة

الكبيرة التي سيجنونها ـ أعني السيد هيل ـ من التعرف على أناس مثل آل ستيفن، وآل كولينغبروك".

"أنا واثق أنهم لا يتأثرون بمثل هذا الدافع. لا! أعتقد أني أفهم كيف يفكرون".

"جون!" قالت فاني، وهي تضحك بطريقتها المسترخية الواهنة. "كيف لك أن تتحدث عن فهمك لآل هيل، وكيف لن تسمح لنا بأن نعرف أي شيء عنهم. هل هم حقاً مختلفون عن معظم الناس الذين يمكن لشخص ما أن يلتقي بهم؟"

لم تقصد أن تثير غضبه، لكنها لو كانت تقصد فعلا ذلك، لما نجحت على نحو أفضل مما فعلت. تململ بصمت، ولم يتنازل للرد على سؤالها.

"لا يبدون لي أنهم مختلفون عما هو سائد"، قالت السيدة ثورنتِن. "يبدو على السيد هيل أنه رجل لطيف، وإن كان بسيطاً جداً بالنسبة للتجارة، ولعل هذا ما كان يجب عليه أن يكون رجل الدين أولاً، والآن أستاذاً. أما زوجته، فهي سيدة رائعة، رغم وضعها الصحي. أما بالنسبة للفتاة، فهي الوحيدة التي تحيرني عندما أفكر بها، وغالباً لا أفعل ذلك. تبدو متباهية بنفسها ولا أستطيع أن أجد سبباً لذلك. كما أتخيلها ترى نفسها في مرتبة أعلى من أقرانها، رغم أنهم ليسوا أغنياء، ولم يسبق لهم أن كانوا، مما أسمعه عنهم".

"كما أنها ليست مميزة. لا تستطيع العزف على البيانو".

"هيا أتحفينا يا فاني، ما هو الشيء الآخر الذي ينقصها كي ترتقي إلى المستوى المطلوب بنظرك؟"

"كلا يا جون" قالت والدته "لا أرى في كلام فاني أي ضرر. أنا بنفسي سمعت الآنسة هيل تقول إنها لا تعرف العزف على البيانو. لو تركتنا نلتقي بها بمفردها، لربما أحببناها، وتعرفنا على مزاياها".

"أنا متأكدة بأنه ما كان ليُسمح لي بذلك". دمدمت فاني مستغلة حماية والدتها. سمع السيد ثورنتِن ما قالته، لكنه لم يكترث بالرد عليها. كان يجوب غرفة الطعام جيئة وذهاباً متمنياً لو أن والدته تأمر بإشعال الشموع لتتيح له

الانشغال بعمله سواء أكان قراءة أم كتابة، وأن يضع حداً لهذا الحديث. لكنه لم يخطر على باله مطلقاً أن يتدخل بأي من قوانين المنزل التي وضعتها السيدة ثورنتِن، كتذكير معتاد بسياسات التقشف القديمة.

"أمي"، قال، بعد أن توقف، لينطق الحقيقة بكل شجاعة، "أتمنى لو تحبين الآنسة هيل".

"لماذا؟"، سألته وقد أفزعها أسلوبه الجدي، وإن كان لطيفاً. "أنت لا تفكر في الزواج منها؟ فتاة لا تملك قرشاً".

"إنها لن تقبل بي"، قال وهو يضحك ضحكة قصيرة.

"لا، لا أظنها ستقبل بك زوجاً" أجابت والدته. لقد ضحكت في وجهي عندما امتدحتها لأنها قالت شيئاً لصالحك كانت قد علمته من السيد بيل. أعجبتني الفتاة لأنها تصرفت بشكل صريح وعلى نحوٍ جعلني أتأكد من أنها لا تفكر بك، لكنها وفي الدقيقة التالية أثارت غضبي لأنها بدت وكأنها تفكر بك فعلاً. حسناً، لا بأس! أنت محق تماماً بالقول إنها ترى نفسها أرفع وأعلى مقاماً من أن تفكر بك. هذه الماجنة الوقحة! أين لها أن تجد رجلاً أفضل منك". إن كانت هذه الكلمات قد آذت ابنها، فإن الغرفة المعتمة منعته من الإفصاح عن شعوره. وسرعان ما تقدم نحو والدته مبتهجاً ووضع يده على كتفها برقةٍ، وقال لها:

"حسناً، أنا مقتنع بحقيقة ما كنت تقولين مثلك تماماً، وليس لدي أي وارد أو نية لطلب يدها للزواج. لذا ستصدقيني مستقبلاً بأني لا أكترث للحديث عنها. أتوقع لهذه الفتاة أن تواجه المتاعب في المستقبل، وربما تكون بحاجة لرعاية أم، ولا أتمنى عليك سوى أن تكوني صديقة لها، إن احتاجت لواحدة. والآن يا فاني، قال جون، "أنا واثق بأن لديك من الرقة والحساسية ما يكفي كي تفهمي أنه من المعيب بل والمؤذي للآنسة هيل ولي، وفي الواقع سيكون مؤذياً لها أكثر، أن تفترضي بأن لدي أي سبب، غير الذي أقدمه الآن، للتوسل إليك ولأمي كي تُظهرا لها كل اهتمام لطيف".

"لا أستطيع أن أسامحها على تعاليها وتكبرها" قالت والدته؛ "سأصادقها، إن

استدعت الحاجة، لأنك طلبت مني ذلك، يا جون، بل مستعدة لأكون صديقة لجيزابيل[42] نفسها، إن طلبت مني. لكن هذه الفتاة التي تشمخ بأنفها علينا جميعاً، وتشمخ بأنفها عليك..."

"كلا يا أمي، لم ولن أضع نفسي في متناول احتقارها".

"احتقارها، أحقاً ما تقول!" (وأطلقت السيدة ثورنتِن واحدة من شهقاتها المعبرة) "كفاك حديثاً عن الآنسة هيل، يا جون، إن أردتني أن أكون لطيفة معها. عندما أكون معها، لا أعرف إن كنت أحبها أو أكرهها، لكن عندما أفكر بها، وأسمعك تتحدث عنها، أكرهها. بمقدوري أن أرى بأنها تتكبر عليك كما لو كنت أنت من أخبرني بذلك".

"حتى وإن كانت كذلك فعلاً"، قال ـ ثم صمت للحظة ـ وتابع كلامه: "لست صبياً يافعاً لتخيفني نظرة متعجرفة من امرأة، أو أعبأ بسوء فهمها لي ولمركزي. هذا ما يثير الضحك!"

"بالتأكيد، وهي أيضاً، من وجهة نظرها وتصرفاتها المتعالية".

"إذن، لِمَ تكثرون الحديث عنها"، قالت فاني. "مللت من الحديث في هذا الموضوع".

"حسناً!" أجابها أخوها بنبرة تتسم بالمرارة، "افترضي أننا وجدنا موضوعاً أكثر قبولاً. ما قولك في الإضراب، هل تُعِّدينَهُ موضوعاً ممتعاً".

"هل أضرب العمال حقاً؟"، سألته السيدة ثورنتِن باهتمام كبير.

(42) هي ملكة "اسرائيل"، وزوجة الملك آحاب والأميرة الفينيقية جيزابيل، وابنة ملك. ورد ذكرها في الإنجيل في أكثر من آية، وخاصة في كتب الملوك. وطبقاً لكتب الملوك فإن جيزابيل حضرت الى المملكة الشمالية لإسرائيل لتتزوج الملك آحاب ابن الملك أومري. ولأن والدها كان فينيقياً، كانت تؤمن بآلهة مختلفة مثل بعل ملك الإخصاب والنبات كما كان يعتقد الكنعانيون، في حين أن بني إسرائيل خالفوا أوامر يهوه وعبدوا آلهة مختلفة، وكانت الملكة جيزابيل لا تعبد يهوه الذي يعبده زوجها آحاب. هذا إلى جانب أن زواجها كان زواج مصلحة لحماية الدولة الفينيقية، وكذلك لحماية طُرق التجارة التي كانوا يتبعونها في المنطقة. ولاختلاف وجهات النظر الدينية، ونشاط المرأة وقوتها أو عدم احتمال العيش مع آراء الغير، حدثت المواجهة بين قساوسة أتباع يهوه وأتباع آليجا فقُتل الملك آحاب، وقُتلت جيزابيل، وتركوا جثتها تنهشها الكلاب. اختلف المؤرخون حول هذه الحوادث، إذ اعتمد الكثير منهم على ما كُتب في الانجيل فترجموها بمعان مختلفة. وأطلقوا عليها الأوصاف المسيئة. (م)

"عـمال هامبر أعلنـوا إضرابهـم. أمـا بالنسـبة لعـمالي، فهـم ينتظـرون نهايـة الأسـبوع خشـية أن أقاضيهـم بخـرق العقـد. لـو فعلـوا ذلـك لجعلـت كل واحـد منهـم يـترك العمـل، قبـل أن تنتهـي فـترة العقـد، يدفـع الثمـن".

"لكـن تكاليـف الدعـوى سـتكون أكـثر بكثـير مـن قيمـة هـؤلاء العـمال، الحثالـة الناكـرة للجميـل".

"هـذا صحيـح، لكننـي كنـت سـأثبت لهـم كيـف ألتـزم بكلمتـي، وكيـف أريدهـم أن يلتزمـوا بكلمتهـم. توقـف عـمال سليكسِـن عـن العمـل، وأنـا واثـق بأنـه لـن ينفـق المـال مـن أجـل معاقبتهـم. جميعنـا سـيعاني مـن الإضراب، يـا أمـي".

"آمل ألا يكون هناك عدد كبير من الطلبيات قيد الإنتاج؟"

"بالطبـع هنـاك طلبيـات. هـم يعلمـون ذلـك جيـداً، لكنهـم لا يفهمـون، رغـم أنهـم يظنـون عكـس ذلـك".

"ما قصدك، يا جون؟"

أُحـضرت الشـموع، وأخـذت فـاني قطعـة الكنفـا التـي لـن تنتهـي أبـداً، وراحـت تتثـاءب وتسـترخي مـن حـين إلى آخـر في كرسـيها، وتحـدق في الفـراغ مـن دون أن تفكـر في شيء محـدد.

"بـدأ الأميركيـون يطرحـون غزلهـم في السـوق، مـما سـيضطرنا لبيـع إنتاجنـا بسـعر أقـل، وإن لم نسـتطع، سـنغلق مصانعنـا ليصبـح السـادة والعـمال مشرديـن. ورغـم ذلـك، يعـود هـؤلاء الحمقـى للأسـعار التـي كانـت تُدفـع قبـل ثـلاث سـنوات، بـل إن بعـض قادتهـم يقيسـون عـلى أسـعار ديكنسِـن الآن، مـع أنهـم يعلمـون كـما نعلـم أن المعـدل الحقيقـي للأجـور لديـه أقـل مـن الأجـور التـي ندفعهـا، إن أخذنـا بالحسـبان الغرامـات التـي تقتطـع مـن أجورهـم وبطريقـة لا يمكـن لرجـل شريـف أن يقبلهـا، ناهيـك عـن أسـاليب أخـرى أحتقـر اسـتخدامها شـخصياً. أتمنـى لـو يعـاد تطبيـق مجموعـة القوانـين القديمـة. كـم هـو سيء أن نكتشـف أن أغبيـاء؛ جهلـة متمرديـن، ولمجـرد توحيـد رؤوسـهم السـخيفة الضعيفـة سـيتحكمون بمصائـر أولئـك الـذي يقدمـون كل الحكمـة التـي يمكـن للمعرفـة والخـبرة، وعـلى الأغلـب الفكـر المضنـي

والقلـق أن تعطيهـا. أمـا مـا سـنواجهه تاليـاً بالفعـل، وقـد اقتربنـا منـه الآن، فهـو أنـه يتعـين علينـا أن نذهـب ونسـتعطف، وقبعاتنـا في أيدينـا، رئيـس اتحـاد عـمال الغـزل أن يتلطـف علينـا بالعـمال وبشروطـه. هـذا مـا يسـعون إليـه، أولئـك يفتقـدون المنطـق لإدراكهـم أنـه إن لم نحصـل عـلى حصـة عادلـة مـن الأربـاح لتعويض خسـائرنا في إنكلـترا، يمكننـا الذهـاب إلى بلـد آخـر، ومـع هـذه المنافسـة داخليـاً وخارجيـاً، مـن المرجـح أن أحـداً منـا لـن يحصـل عـلى مـا يزيـد عـن حصـة عادلـة، بـل ونحمـد اللـه إن حصلنـا عليهـا عـلى مـدار سـنوات".

"ألا يمكنـك أن تجلـب عـمالاً مـن أيرلنـدا؟ لـو كنـت مكانـك، لمـا تركـت أولئـك الرجـال يومـاً واحـداً في المصنـع. كنـت سـألقنهم درسـاً بـأني أنـا السـيد هنـا، وأوظـف مـن أشـاء مـن الخـدم".

"بالتأكيـد أسـتطيع؛ وسـأفعل ذلـك أيضـاً، إن اسـتمروا في إضرابهـم، لكـن الأمـر لا يخلـو مـن المشـكلات والنفقـات، وأخـشى أن يكـون هنـاك ثمـة خطـر مـا، لكنـي سـأقوم بـه، ولـن استسـلم".

"أنا آسفة لأننا سنقيم حفلة العشاء في الوقت الذي ستتكبد نفقات إضافية".

"وأنـا أيضـاً، ولكـن ليـس بسـبب النفقـات، بـل لأنـه سـيتوجب عـليَّ التفكـير بأمـور كثـيرة، وزيـارات غـير متوقعـة. لكـن لا بـد مـن دعـوة السـيد هورسـفول لأنـه لا يمكـث في ميلتِن لفـترة طويلـة، أمـا بالنسـبة للباقـين، فنحـن مدينـون لهـم بعشـاء، أي أنهـا مشـكلة واحـدة لا أكـثر".

عـاد السـيد ثورنـتِن ليواصـل مشـيته القلقـة ويجـوب الغرفـة صامتـاً وهـو يأخذ نفسـاً عميقـاً بـين الحـين والآخـر وكأنـه يصـارع جاهـداً لطـرد بعـض الأفـكار المزعجـة مـن رأسـه. سـألت فـاني والدتهـا أسـئلة صغـيرة متعـددة لا علاقـة لهـا بالموضـوع كانـت كافيـة بالنسـبة لأي شـخص عاقـل كي يـدرك بأنهـا تشـغل تفكيرهـا. لكنهـا لم تحـظ سـوى بإجابـات قصـيرة. لم تشـعر فـاني بالأسـف، عنـد السـاعة العـاشرة، عندمـا تجمـع الخـدم للصـلاة. كانـت أمهـا تقـرأ، عـلى الـدوام، الجـزء الأول مـن الإنجيـل، وهـا هـم الآن يقـرأون في العهـد القديـم. عندمـا انتهـت الصـلاة، تمنـت لـه والدتـه ليلـة طيبـة

بنظرة ثابتة لا تعبر عن الحنان الذي كان ثاوياً في قلبها، بقدر ما كانت أقرب إلى تضرع الدعاء. استأنف السيد ثورنتِن مشيته القلقة. تواجه كل خططه التي وضعها للمصنع توقفاً مفاجئاً بسبب الإضراب الوشيك. وتبخرت ساعات من التفكير القلق وتبددت بحماقتهم المجنونة التي ستضر بهم أكثر منه، علماً أن لا أحد يمكنه أن يضع حداً لما كانوا يفعلونه. إنهم رجال يعتقدون أنهم مؤهلون لإصدار التعليمات إلى السادة بشأن التصرف برأس مالهم! قال هامبر، اليوم تحديداً، إنه لن يتوانى، إن دمره الإضراب، عن بدء حياته من جديد وهو يشعر بثقة مردُّها إلى اعتقاده بأن المضربين هم أصلا في محنة أكبر من محنته لأنه يملك عقلاً ويَديْن، أما هم فليسوا سوى أيدي، وإذا خرجوا من سوق العمل، لن يستطيعوا فعل شيء آخر. غير أن هذه الفكرة لم تواسِ السيد ثورنتِن. قد تكون مجرد انتقام لا يمنحه السرور، لكنها تعطيه الإحساس بقيمة موقعه الذي كسبه من عرق جبينه، وهو ما جعله شديد التأثر بكونه مهدداً بالخطر على يد جهل أو حماقة أناسٍ آخرين إلى حدٍّ لم يترك لنفسه فرصة التفكير بعواقب تصرفاتهم على أنفسهم.

كان يزرع الغرفة بخطواته جيئة وذهاباً، وهو يشد على أسنانه بين الحين والآخر. وعندما بلغت الساعة الثانية فجراً، والشموع تترجرج في مكانها، أشعل شمعة خاصة به وجلس يتمتم لنفسه:

"مرة واحدة وإلى الأبد، سيعلمون مع من يجب عليهم أن يتعاملوا. سأعطيهم أسبوعين، لا أكثر. إن لم يكتشفوا جنونهم قبل هذا الموعد، لا بد من إحضار عمال من أيرلندا. أظن أنها فعلة سليكسِن، اللعنة عليه وعلى حيله! يظن أن لديه بضاعة كاسدة في المخازن، لذلك كان أول من استسلم عندما جاء إليه الوفد، وبالتأكيد أيدهم في حماقتهم، كما كان يخطط. من هناك بدأ كل شيء".

مكتبة
t.me/soramnqraa

زيارات ملائكية

كانت السيدة هيل منشغلة على نحو فضولي، ومهتمة بحفلة العشاء في منزل آل ثورنتِن. إذ ما انفكت تسأل عن التفاصيل بما يشبه بساطة طفل يريد من أحد ما أن يصف له مسبقاً كل أشكال السعادة التي ينتظرها. غير أن رتابة الحياة التي غالباً ما يعانيها المرضى تجعلهم مثل الأطفال يفتقدون إلى أي إحساس بتجانس الأحداث حيث يعتقد كل واحد منهم أن الجدران والستائر التي تنغلق على عالمهم وتحجب عنهم كل شيء آخر، لا بد بالضرورة أن تكون أكبر من أي شيء مختبئ خلفها. كما كان للسيدة هيل، عندما كانت فتاة، مسراتها التي شعرت بوطأة الحرمان منها بعد ما تزوجت قسّاً فقيراً، ولذلك استهوتها فكرة رؤية مارغريت تتأنق للحفلة، وأن تشاركها الرأي بما يجب عليها أن ترتدي، وبحرص يشوبه القلق أسعد مارغريت التي اعتادت في سنة واحدة على هذا الجو من الحفلات في شارع هارلي أكثر مما عرفته أمها في هِلْستِن على مدى خمسة وعشرين عاماً.

"إذاً أنت تفكرين بارتداء فستانك الحريري الأبيض. هل أنت متأكدة بأنه مناسب لك؟ لقد مضى عليه سنة تقريباً منذ حفل زفاف إيديث!"

"أجل يا أمي، موراي هو من خاطه لي، وأنا واثقة من أنه سيكون مناسباً، ربما قصر أو طال قليلاً عند الخصر، حسب ما قد يكون عليه جسمي إن كنت قد سمنت أو نحفت، لكني لا أعتقد أني تغيرت كثيراً".

"أليس من الأفضل أن تدعي ديكسِن تراه؟ ربما اصفرَّ قليلاً بسبب بقائه في الخزانة لوقت طويل".

"كـما تشـائين، يـا أمـي. لكـن إن سـاءت الأمـور، لـديّ الفسـتان الـوردي الـذي أعطتنـي إياهـا خالتـي شـو شـهرين أو ثلاثـة قبـل زفـاف إيديـث، ولا يمكـن أن يكـون قـد اصفـرَّ".

"لا، ولكن قد يكون لونه أصبح باهتاً"

"حسـناً! عنـدي فسـتان الحريـر الأخـضر. أشـعر كـما لـو أن لـدي فائضـاً مـن الفسـاتين".

"ليتنـي كنـت أعلـم أي واحـد منهـا يجـب عليـك أن ترتديـه"، قالـت السـيدة هيـل بعصبيـة. وهنـا بدلـت مارغريـت مـن طريقتهـا عـلى الفـور. "مـا رأيـك أن أرتديهـا واحـداً تلـو الآخـر لـتري أي واحـدٍ منهـا هـو الأفضـل".
"لكن...أجل ربما هكذا أفضل".

ذهبـت مارغريـت. كانـت تميـل إلى أن تلعـب بعض المقالـب وهي متأنقـة في وقت غير مناسـب، كأن تنفـخ فسـتانها الحريـري الأبيـض مثـل الجبن، أو ترجـع إلى الـوراء كما لو كانـت ملكـة. لكنهـا عندمـا وجـدت أن مثـل هـذه التصرفـات الغريبـة تُعـدُّ تعطيـلاً لعمـل جـدي، وأنهـا أزعجـت أمهـا، التزمـت الهـدوء والجديـة. لم تفهـم مارغريـت مـا الـذي استـأثر بعالمهـا الخـاص كي تقلـق بخصـوص فسـتانها. لكـن في عـصر ذلـك اليـوم، عندمـا تحدثـت إلى بيـسي هيغينـز عـن مشـاغلها (بخصـوص الخادمـة التـي وعـدت السـيدة ثورنـتِن بالبحـث عنهـا)، أثـارت هـذه الأخبـار اهتـمام بيـسي.

"هل ستذهبون يا عزيزتي إلى عشاء السيد ثورنتِن في مارلبره؟"

"أجل، ولِمَ أنت مدهوشة إلى هذا الحد؟"

"لا أعرف، لكنهم لا يستقبلون إلا علية القوم في ميلتِن".

"وأنت لا تحسبيننا منهم، أليس كذلك يا بيسي؟"

احمرت بيسي خجلاً لأن مارغريت قرأت فكرتها بسرعة.

"في الحقيقة، إنهم يفكرون بالمال هنا، ولا أظنكم تملكون الكثير منه".

"بالفعـل هـذا صحيـح"، أجابتهـا مارغريـت، "لكننـا أنـاس متعلمـون، وعشـنا وسـط

أناس متعلمين. هل هناك شيء أروع بأن نُدعى من شخص يجعل نفسه أقل مكانة من أبي بأن يطلب منه أن يكون معلماً له. لا أقصد بكلامي أن ألوم السيد ثورنتِن. كان يمكن لبضعة من مساعدي باعة الأقمشة، كما كان هو يوماً، أن يصبحوا كما هو الآن".

"لكن هل باستطاعتكم أن تدعوهم على العشاء في منزلكم الصغير؟ فمنزل آل ثورنتِن أكبر ثلاث مرات من منزلكم".

"أظن أنه سيمكننا أن ندعوهم على العشاء ردّاً على دعوتهم، كما تسمينها. ربما ليس في غرفة كبيرة، وليس مع أناس كثيرين. لكني لا أعتقد أننا فكرنا بالأمر على هذا النحو".

"لم يخطر على بالي يوماً أنك ستتناولين العشاء مع آل ثورنتِن". قالت بيسي. "فالعمدة نفسه يتعشى هناك، وكذلك أعضاء في البرلمان".

"أعتقد بأنه سيكون شرفاً لي أن ألتقي عمدة ميلتِن".

"لكن السيدات هناك يرتدين ملابس فخمة!" قالت بيسي، وهي تتفحص بعينيها فستان مارغريت وخمنت أن سعر الذراع الواحد منه لا يتعدى سبعة بنسات. انفرج وجه مارغريت بضحكة مرحة. "شكراً لك يا بيسي لاعتقادك اللطيف بأن أبدو جميلة المظهر بين أولئك الناس المتأنقين. لكن لدي الكثير من الفساتين الفخمة. قبل أسبوع من الآن، كان يجب على القول إن هذه الفساتين أضحت أكثر فخامة من أي شيء أريده، وبما أني مدعوة للعشاء في منزل آل ثورنتِن، وربما ألتقي بالعمدة، يجب على أن أرتدي أفضل فستان، اطمئني".

"ماذا سترتدين؟" سألت بيسي، وقد اطمأنت نوعاً ما.

"حرير أبيض"، قالت مارغريت. "فستان اشتريته من أجل حضور حفل زفاف ابنة خالتي قبل عام من الآن".

"سيكون مناسباً!" قالت بيسي، وهي تسترخي في كرسيها، "لا أحب أن ينظر إليك أحد نظرة ازدراء".

"سأكون بخير، إن كان هذا سيحميني من أن أكون موضع ازدراء في ميلتِن".

"ليتني أستطيع أن أراك وأنت ترتدين فستانك الجميل"، قالت بيسي. "أظن أنك لست الفتاة التي يصفها الناس جميلة؛ فأنت لست حمراء وبيضاء بما يكفي لتكوني كما يقولون. لكن هل تعلمين أني حلمت بك قبل أن أراك بفترة طويلة".

"هذا غير معقول، يا بيسي!"

"بلى، رأيتك. وجهك هذا يطل بعينيك الصافيتين الثابتتين من العتمة، وشعرك يتطاير من على جبينك مثل أشعة تحيط بجبهتك التي كانت ناعمة مستقيمة كما هي الآن. كنت تأتين إليّ لتمنحيني القوة التي كنت استمدها من عينيك العميقتين المُريحتين. كنت ترتدين ثوباً لامعاً مثل الذي سترتدينه. هل رأيت، إنه أنت!".

"كلا يا بيسي،" قالت مارغريت بلطف، "لم يكن ذلك إلا حلماً".

"ولِمَ لا يمكن لي أن أرى حلماً في معاناتي مثل الآخرين؟ كم من واحد ورد ذكره في الإنجيل وهو يحلم؟ وتأتيهم الرؤيا! حتى والدي يهتم بالأحلام! سأقول لك مرة أخرى، أجل رأيتك بوضوح تأتين بسرعة إلي وشعرك يتطاير وراءك مع سرعة الحركة، بالسرعة نفسها التي ينمو فيها أو يقف قليلاً، وأنت ترتدين فستانك الأبيض اللامع الذي ستذهبين به إلى العشاء. أود أن آتي وأراك وألمسك كما لو كنت فعلاً في حلمي".

"عزيزتي بيسي، هذه مجرد تخيلات".

"تخيلات أم غيرها، لقد أتيتِ، كما كنت أعلم أنك ستفعلين، عندما رأيتك حركتك في حلمي، وعندما تكونين هنا بجواري، أشعر براحة في رأسي، وأصبح أكثر اطمئناناً كما تدفئ النار المرء في يوم شديد البرودة. قلت لي إن حفلة العشاء ستكون في الحادي والعشرين من الشهر الجاري، أرجوك يا الله، سآتي وأراك".

"بيسي! طبعاً بإمكانك أن تأتي، أهلاً وسهلاً، لكن لا تتحدثي بهذه الطريقة التي تجعلني أشعر بالأسى، بالفعل".

"سأحتفظ بكل ذلك لنفسي، وأعض على لساني لأمنع نفسي من الكلام. لكن ثقي بأني كنت صادقة بكل ما قلته لك".

صمتت مارغريت، ثم قالت لها أخيراً:

"دعينا نتحدث عن هذا الأمر في وقت آخر، إن كنت تعتقدين إنه صحيح، ولكن ليس الآن. أخبريني، هل أضرب والدك عن العمل؟"

"أجل،" قالت بيسي بتثاقل، وبنبرة مختلفة عن تلك التي كانت تتحدث بها قبل دقيقة أو دقيقتين. "هو وآخرون كثر غيره. جميع عمال مصنع هامبر، بالإضافة إلى آخرين، والنساء ليسوا أقل وحشية من الرجال هذه المرة. أسعار الطعام مرتفعة، ويجب عليهم تأمين الطعام لأطفالهم، كما أعتقد. افترضي أن ثورنتن أرسل لهم عشاءهم، المال نفسه الذي يُصرف على البطاطا والوجبة، كان سيُسكت طفلاً باكياً، ويطمئن قلب أم ولو قليلاً".

"لا تتكلمي بهذه الطريقة!" قالت مارغريت. "ستجعليني أشعر بالذنب، وبأني شريرة بالذهاب إلى حفلة العشاء".

"لا!"، أجابت بيسي، "بعض الناس اختيروا للولائم ولبس الأرجوان والحرير، وقد تكونين منهم. وآخرون قُدّر عليهم الشقاء والتعب طوال حياتهم، فالكلاب التي لا تثير الشفقة في أيامنا هذه، كانت كذلك في أيام لعازر. لكن إن سألتني أن أبرد لسانك بطرف إصبعي المبتلة بالماء[43]، فسآتي إليك وأعبر الهوة العظيمة بيننا فقط من أجل ما كنت تعنين لي هنا في الدنيا".

"بيسيّ أنت محمومة! أشعر بذلك من لمسة يدك ومما تقولينه. ليس هذا هو الفارق في يوم الحساب الرهيب بين من كانوا فقراء شحاذين هنا في الدنيا، وبين من كانوا أغنياء مترفين. لن يحاسبنا الله على هذا الأمر، وإنما على اتباعنا المخلص الصادق لتعاليم المسيح". نهضت مارغريت من على كرسيها، ووجدت

(43) إشارة إلى قصة لعازر الشحاذ والرجل الغني: كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأَرْجُوانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهًا. وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوبًا بِالْقُرُوحِ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفُتَاتِ السَّاقِطِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ، بَلْ كَانَتِ الْكِلاَبُ تَأْتِي وَتَلْحَسُ قُرُوحَهُ. فَمَاتَ الْمِسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضًا وَدُفِنَ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْجَحِيمِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ، فَنَادَى وَقَالَ: يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، ارْحَمْنِي، وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصْبِعِهِ بِمَاءٍ وَيُبَرِّدَ لِسَانِي، لأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هذَا اللَّهِيبِ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذلِكَ لِعَازَرُ الْبَلاَيَا. وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. ٢٦ وَفَوْقَ هذَا كُلِّهِ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ ههُنَا إِلَيْكُمْ لاَ يَقْدِرُونَ، وَلاَ الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا. (إصحاح لوقا) (م)

ماءً بللت فيه منديلها وراحت تمسح جبهة بيسي وتفرك قدمها الباردة المتيبسة. أغلقت بيسي عينيها، وتركت نفسها تتخلص من ألمها، ثم قالت:

"كنت لتشعرين بالخوف مثلي تماماً لو رأيت الناس يأتون الواحد تلو الآخر يسألون عن أبي، ويخبروني حكاياتهم. بعضهم تحدث عن كره قاتل وجعلوا الدم يتجمد في عروقي بسبب الأشياء المريعة التي قالوها عن السادة. أما النساء فكن يشتكيْن (والدموع تنهمر على خدودهن بلا توقف) من سعر الطعام، وكيف أن الجوع حرم أطفالهن من النوم عدة ليالٍ".

"وهل يظنون أن الإضراب سيحل كل هذه المشكلات؟".

"نعم"، أجابت بيسي. "يقولون إن التجارة كانت رابحة لفترة طويلة، وجمع السادة أموالاً طائلة لا تأكلها النيران. أبي لا يعرف كم من الأموال جمعوا، لكن الاتحاد يعرف بالطبع، ومن الطبيعي أن يطالبوا بنصيبهم من الأرباح. والآن ارتفعت أسعار الطعام، والاتحاد يقول إنه لن يقوم بعمله ما لم يدفع السادة حصة العمال. لكن للسادة اليد العليا، وسيبقون كذلك الآن وغداً، هذا ما أخشاه. إنها أشبه بمعركة أرمجدون[44] حيث الكل يقاتل الكل حتى يقعون في هاوية الألفية[45]. في هذه اللحظة دخل نيكولاس هيغينز، وسمع عبارة ابنته الأخيرة.

"أجل! وسأواصل القتال أيضاً؛ وسأنتصر هذه المرة. لن يطول بنا الوقت حتى نجعلهم يستسلمون لأن لديهم عدد كبير من الطلبيات، وكلها مثبتة بعقود، وسرعان ما سيكتشفون أنه من الأفضل لهم أن يعطونا نسبة الخمسة بالمائة، وإلا سيخسرون أرباحهم، دعكِ من الغرامات المترتبة على عدم تنفيذ العقود. يا سادتي! أنا أعلم من سينتصر".

تخيلت مارغريت من طريقته بأنه لابد وكان يشرب، ليس مما قاله بل من

---

(44) وفقاً لكتاب الوحي في الإنجيل، أرمجدون هو موقع سيجمع الجيوش للمعركة الأخيرة بين الخير والشر في نهاية العالم. (م)

(45) وفقاً لأحد التفاسير المسيحية، سيعود المسيح إلى الارض ويهزم الدجال والنبي الكاذب والشيطان في معركة أرمجدون ثم يُطرح الشيطان في "الهاوية" لألف عام، ولذلك تُعرف أيضا باسم "هاوية الألفية".

الطريقة المبتهجة التي تحدث بها، وتأكد لها ذلك من القلق الواضح الذي أظهرته بيسي في حثها على المغادرة. قالت لها بيسي:

"الحادي والعشرون، إنه يوم الخميس. ربما سآتي لأراك ترتدين الفستان من أجل عشاء آل ثورنتِن. أي ساعة سيكون العشاء؟".

وقبل أن تجيبها مارغريت، انفجر هيغينز قائلاً:

"عند آل ثورنتِن! ستذهبين للعشاء في منزل آل ثورنتِن؟ اطلبي منه أن يشرب نخب نجاح طلبياته. بحلول الحادي والعشرين، سيكون دماغه يتخبط في التفكير كيف سيلبي تلك الطلبيات في موعدها المحدد. أخبريه أن هناك سبعمائة عامل سيتوجهون إلى مصنع مارلبره في صبيحة اليوم التالي على قبوله بنسبة الخمسة بالمئة ليساعدوه على تنفيذ العقود في موعدها. ستجدينهم جميعاً في حفل العشاء. سيدي هامبر، من الطراز القديم. لا يصدُق في قسم أو لعنة. أظن أنه سيموت قبل أن يتحدث بتهذيب معي، لكن وفي نهاية المطاف، يبقى كلباً ينبح ولا يعض. بإمكانك أن تقولي له إن واحداً من عماله المُضربين قال هذا الكلام عنه، إن أحببت. سيكون أمامك جميع أصحاب المصانع في عشاء آل ثورنتِن. كم أود لو أستطيع التحدث إليهم عندما يرغبون بالجلوس بعد العشاء غير قادرين على الركض نجاةً بحياتهم. كنت سأقول لهم ما يدور في رأسي، وأصرخ ضد المعاملة القاسية التي يمارسونها علينا".

"وداعاً"، قالت مارغريت على عجل. "وداعاً، يا بيسي! أنتظر لقاءك في الحادي والعشرين، إن كنت في حال جيدة".

كان العلاج الذي وصفه الدكتور دونالدسون للسيدة هيل فعالاً على نحو كبير في البداية مما دفع ليس السيدة هيل فحسب، بل ومارغريت للأمل بأنه ربما كان مخطئاً في تشخيصه، وأنها قد تتعافى كلياً. أما بالنسبة للسيد هيل، وعلى الرغم من أنه لم تخطر على باله طبيعة القلق الذي كان يساور زوجته وابنته، فقد حقق نصراً على مخاوفهما بارتياح واضح أثبت بالدليل إلى أي حدٍ أثَّرَت عليه مراقبته لهما خلسة. ديكسن كانت الوحيدة التي بقيت تنعق في أذني

مارغريت التي صدت هذا الغراب متمسكة بالأمل.

كانوا بحاجة لهذا البصيص من الأمل داخل المنزل، لأن خارجه، حتى بالنسبة لأعينهم غير الخبيرة، كان يحمل ملامح حالة وشيكة من الغضب والاستياء. أصبح للسيد هيل معارفه من العمال، وأصابه إحباط لدى سماعه حكاياتهم عن معاناتهم وصبرهم الطويل. ما كانوا ليجرؤوا على الحديث عما كانوا يقاسونه لأي شخص يمكن له، من موقعه، أن يفهم الأمر إلا منهم مباشرة. لكن هذا الرجل جاء من مقاطعة بعيدة وأصابته الحيرة من نظام قُذف إلى داخله، فبات كل واحد منهم متلهفاً ليجعله حكماً، وشاهداً على أسباب غضبه ونقمته. بدوره أحضر السيد هيل كل ما في جعبته من هذه القصص والمآسي وأفرغها أمام السيد جون ثورنتِن ليرتبها له من موقعه كسيد وخبير، وأن يشرح ويفسر نشأتها، علماً بأن هذا الأخير طالما فعل ذلك استناداً إلى مبادئ اقتصادية ثابتة تدل على أن التجارة، في سياقها العملي، معرضة للمد والجزر بشكل دائم. وفي حالة الجزر، لا بد أن يسقط عدد من السادة والعمال إلى هاوية الهلاك ليختفوا تماماً من مصاف السعداء الموسرين. تحدث وكأن هذه العواقب بأكملها شيء منطقيٌ لا يحق لأرباب العمل ولا للعمال أن يشتكوا منها إن باتت قدرهم حيث يتنحى رب العمل عن السباق الذي لم يعد قادراً على الجري فيه مع إحساس مرير بالعجز والإخفاق، جريحاً في هذا الصراع، يدوسه أصحابه في استعجالهم كي يصبحوا أغنياء، ويُهان حيث كان مكرماً، ليمد يده السيدة النبيلة بكل تواضع، لا لكي يَمنح ويعطي، بل كي يُمنح ويُعطى عملاً. وبالطبع لم يكن السيد ثورنتِن، في حديثه عن هذا القدر الذي قد يكون من نصيبه، كواحد من السادة، أكثر تعاطفاً مع مصير العمال الذين يتجاوزهم التطور السريع عديم الرحمة ليُجبروا على الاستلقاء والتلاشي بهدوء في هذا العالم الذي لم يعد بحاجة لهم، لكنهم ما انفكوا يشعرون وكأنهم غير قادرين على أن يرتاحوا في قبورهم، وصرخاتُ أحبتهم المساكين الذين تركوهم وراءهم تلاحقهم، حتى أنهم باتوا يحسدون طيور البرية على قدرتها على إطعام صغارها من دماء قلوبها. انتفضت روح مارغريت

بأكملها ضده وهو يفسر الأمور على هذا النحو وكأن التجارة هي كل شيء والإنسانية لا شيء البتة. بل إنها بالكاد شكرته على لطفه الشخصي الذي دفعه في مساء ذلك اليوم ليقدم؛ وعلى الرقة التي جعلته يفهم بأن عليه أن يعرض عليها على انفراد، كل ما يمكن، كما علم من الدكتور دونالدسِن، أن تحتاجه السيدة هيل في مرضها، وكل أسباب الراحة التي ساعدته ثروته وبصيرة أمه على تجميعها في منزلهم. كما أن حضوره، بعد الطريقة التي تحدث بها، واستحضاره أمام عينيها المصير المحتوم الذي كانت تحاول عبثاً أن تقنع نفسها بقدرتها على إنقاذ والدتها منه، تآمرا على مارغريت للإحساس بالغضب والامتعاض، وهي تستمع وتنصت إليه. كيف يمكن له أن يكون الشخص الوحيد، باستثناء ديكسِن والدكتور دونالدسِن، أن يُسمح له للاطلاع على سر رهيب كانت هي نفسها قد أخفته وأقفلت عليه في أكثر المواقع عتمة وقداسة في أعماق قلبها، من دون أن تملك الجرأة حتى للنظر إليه، إلا إذا استدعت قوة ربانية تعينها على تحمل منظره. هذا السر الذي أدركت فيه أنها ستبكي بصوت عال فجعاً بوالدتها قريباً ذات يوم، وأنها لن تسمع جواباً يخرج من تلك العتمة الفارغة الخرساء؟ ومع ذلك كان السيد ثورنتِن على دراية بكل شيء. لمحت ذلك في عينيه المُشفقتيْن. سمعته في صوته الأجش المرتجف. كيف السبيل إلى التوفيق ما بين هاتين العينين، وهذا الصوت مع الطريقة الجافة القاسية الخالية من الرحمة التي وضع فيها قوانين التجارة، وأتبعها بكل سكينة وهدوء بشرح عواقبها؟ هذا النشاز المتنافر أثار استياءً لا يمكن التعبير عنه. بل وأكثر من ذلك بسبب الكارثة التي تحدثت عنها بيسي. كما أن والدها تكلم بطريقة مختلفة. فقد تم تعيينه عضواً في لجنة الإضراب، وقال إنه يعرف أسراراً لا يعرفها عامة الناس. قال ذلك بشكل صريح ومحدد في اليوم السابق لحفل العشاء في منزل آل ثورنتِن عندما دخلت مارغريت لتتحدث مع بيسي، ووجدت أباها يناقش هذه النقطة مع باوتشر، جار نيكولاس هيغينز الذي سمعته يردد اسمه أمامها أكثر من مرة، تارة مع محاولة باوتشر استثارة عطف هيغينز عليه بصفته عاملا غير ماهر يعيل أسرة كبيرة، أو تارة أخرى باستثارة غضب جاره الحماسي والمتفائل

بسـبب رغبـة هـذا الأخـير المحمومـة بمـا كان يسـميه الـروح القتاليـة. بـدا واضحـاً أن هيغينـز كان متحمسـاً عندمـا دخلـت مارغريـت. وقـف باوتـشر مسـتنداً بكلتـا يديـه عـلى رف الموقـد، وهـو يتمايـل معتمـداً عـلى دعـم ذراعيـه في وضعيـة مثـل هـذه، ويتفـرس محدقـاً في النـار مـع مسـحة مـن اليـأس أثـارت حنـق هيغينـز، رغـم أنهـا اخترقـت أعـماق قلبـه. كانـت بيـسي في كرسـيها تتنحنـح للأمـام والـوراء بعنـف كعادتهـا عندمـا تغضـب (وهـذا مـا أدركتـه مارغريـت هـذه المـرة). أمـا أختهـا مـاري فكانـت تعقـد قلنسـوتها (بأقـواس كبـيرة خرقـاء تتناسـب مـع أصابعهـا الكبـيرة) استعدادا للذهـاب إلى العمـل في قـص قـماش الفُسـتيان وهـي تنتحـب بصـوت عـالٍ. كان واضحـاً عليهـا لهفتهـا للفـرار مـن منظـر يضايقهـا. دخلـت مارغريـت إلى الغرفـة، ووقفـت عنـد البـاب قليـلاً، ثـم وضعـت إصبعهـا عـلى شـفتيها، وانسـلت للجلـوس عـلى الأريكـة بجانـب بيـسي. رآهـا هيغينـز تدخـل فحياهـا بخشـونة وليـس بإيمـاءة غـير وديـة برأسـه. أسرعـت مـاري بالخـروج مـن المنـزل وهـي تمسـك بفـرح البـاب المفتـوح، وهـي تبـكي بصـوت عـالٍ عندمـا ابتعـدت عـن أنظـار أبيهـا، في حـين وقـف باوتـشر في مكانـه مـن دون أن يلاحـظ مـن دخـل ومـن خـرج.

"لا جـدوى مـن كل هـذا يـا هيغينـز. زوجتـي لا تسـتطيع احتـمال العيـش طويـلاً عـلى هـذه الحـال. إنهـا تنهـار ليـس مـن لقمتهـا، بـل لأنهـا لا تسـتطيع احتـمال منظر الصغـار يموتـون جوعـاً. أجـل يموتـون جوعـاً! قـد تكفيـك خمسـة شـلنات في الأسـبوع لإطعـام ابنتـين واحـدة منهـما قـادرة عـلى كسـب لقمـة عيشـها. لكنـه الجـوع القاتـل بالنسـبة لنـا. سـأقول لـك بـكل وضـوح، إن ماتـت زوجتـي كـما أخـشى أن أمـوت قبـل أن نحصـل عـلى نسـبة الخمسـة بالمئـة، سـأرمي النقـود في وجـه السـيد، وأقـول لـه: "اللعنـة عليـك، وعالمكـم الظـالم الـذي لم يـترك لي أفضـل زوجـة أنجبـت أطفـالاً لرجـل!". انظـر إلي أيهـا الشـاب، سـأكرهك، وأكـره الاتحـاد، وسـيلاحقكم كرهـي حتـى في السـماء، أجـل أيهـا الشـاب، أجـل. إن كنـت تضللنـي في هـذه المسـألة. قلـت لي يـا نيكـولاس، يـوم الأربعـاء مـا قبـل المـاضي، والآن هـو يـوم الخميـس مـن ثـاني أسـبوع، أي قبـل خمسـة عـشر يومـا، قلـت إن أصحـاب المعامـل سـيأتون إلينـا متوسـلين أن نعـود إلى العمـل، وبالأجـر الـذي نريـده، وقـارب الوقـت أن ينتهـي، وطفلنـا الصغـير

جاك ملقى في السرير لا يقدر حتى على البكاء وينفطر قلبه بين الحين والآخر وهو يشتهي الطعام، صغيرنا جاك، أقول لك أيها الشاب! لم تتعافَ زوجتي منذ ولادته، وتحبه وكأنّه حياتها، وهو فعلاً كذلك، لأني أظنه سيكلفني ثمناً غالياً إن ماتت زوجتي. إنه جاك الصغير الذي يوقظني كل صباح وهو يضع شفتيه الرقيقتين العذبتين على وجهي الخشن يبحث فيه عن موضع ناعم ليقبله، وها هو الآن يموت جوعاً". وهنا خنقت العبرات والآهات صوت الرجل المسكين، فنظر نيكولاس بعينين مليئتين بالدموع صوب مارغريت، قبل أن يستجمع شجاعته على الكلام.

"تماسك يا رجل. صغيرك جاك لن يموت جوعاً. لدي بعض النقود، وسنذهب معاً في هذه اللحظة لنشتري له حليباً وخبزاً. ما هو لي، هو لك، أريدك أن تكون واثقاً من ذلك. لا تضعف ولا تستسلم يا رجل!". تابع هيغينز كلامه وهو يبحث في إبريق الشاي عما بقي معه من نقود. "أنا على ثقة بأننا سننتصر هذه المرة، حسبنُا أن نصبر أسبوعاً آخر، وسترى كيف سيأتي السادة يتوسلون إلينا للعودة إلى المصانع. أما بالنسبة للاتحاد، أقول لك، سأحرص على أن يكون لديك ما يكفي من أجل زوجتك وأطفالك. لا تكن ضعيف القلب، وتذهب إلى الطغاة الظالمين تطلب عملاً".

لدى سماعه هذه الكلمات، استدار الرجل بوجه أبيض نحيل يائس غضّنته الدموع. هذا الهدوء في وجهه أجبر مارغريت على البكاء. "أنت تعرف جيداً أن ما هو أسوأ من الطغاة يقول "مت من الجوع، وستراهم يموتون جوعاً، قبل أن تتجرأ على الذهاب إلى الاتحاد ثانية"، تعلم هذا جيداً، يا نيكولاس، فأنت واحد منهم. قد تكونون طيبي القلب، كل على حدة، لكن عندما تجتمعون، لن تشفقوا على رجل أكثر مما تشفقون على ذئب مفترس أطار الجوع عقله".

كان نيكولاس قد وضع يده على مقبض الباب، فتوقف والتفت إلى باوتشر الذي كان خلفه مباشرة:

"إذاً ساعدني يا الله! ليبق الرجل حياً، إن لم أكن أفكر بأن أفعل ما بوسعي من

أجلك، ومن أجلنا جميعاً. إن كنت مخطئاً حيث أرى نفسي على حق، فهذه هي خطيئتهم، أولئك الذين تركوني في جهلي. لقد فكرت حتى تصدع دماغي. صدقني يا جون. وأقول لك ثانية، لا أمل لنا إلا أن نثق بالاتحاد. سينتصرون، وسترى ذلك".

لم تنطق مارغريت وبيسي بكلمة واحدة، بل حتى بالكاد استطاعتا أن تطلقا تأوهاتٍ دعت عيناهما بعضهما بعضاً لتخرجها من أعماق قلبيهما. وأخيراً قالت بيسي:

"لم أتخيل أني سأسمع أبي يدعو الله مرة ثانية. لكنك سمعتِه يقول "ليساعدني الله!".

"أجل سمعته" قالت مارغريت. "سأحضر لك ما تيسر لي من مال يمكنني التصرف فيه، سأشتري قليلاً من الطعام لأطفال ذلك الرجل المسكين، لكن لا تدعيهم يعرفون أن المال جاء من أي شخص سوى أبيك، فهو على كل حال سيكون مبلغاً محدوداً".

استلقت بيسي على ظهرها من دون أن تنتبه إلى ما قالته مارغريت. لم تبك، لكن نفسها كان يتقطع مرتجفاً.

"جف قلبي من الدموع، قالت بيسي. "كان باوتشر يأتي إلى منزلنا في الأيام الماضية ليخبرني عن مخاوفه ومتاعبه. إنه ليس سوى رجل ضعيف، أدري ذلك تماماً، لكنه رجل من أجل ذلك، رغم أنني كنت غاضبة منه ومن زوجته أكثر من مرة من قبل لأنهما لا يعرفان كيف يحسنان التصرف، ومع ذلك كما ترين أن الناس هنا ليسوا حكماء، ومع ذلك يدعهم الله أحياءً، ويرسل لهم من يحبهم ويحبونه، شخص طيب مثل سليمان[46]. وإن جاءتهم الأحزان، آلمتهم كما آلمت سليمان من قبل. لا يمكنني أن أفهم ذلك. لكني أود أن أرى أولئك الرجال الذين يشكلون الاتحاد، وأضعهم فرداً فرداً وجهاً لوجه مع باوتشر. أظن أنّهم سيقولون له أن بمقدوره أن يعود ويحصل على ما يمكنه من أجل عمله، حتى

(46) إشارة إلى النبي سليمان.

لـو كان بأجرٍ أقـل مـما يطالبـون بـه".

جلسـت مارغريـت صامتـة. كيـف لهـا أن تشـعر بالراحـة وتنـسى صـوت الرجـل يتحـدث بنـبرة تعـبر عـن ألمٍ وعـذابٍ لا يمكـن البـوح بهـما، لكنهـا كانـت أكـثر تعبـيراً مـن الكلـمات التـي قالهـا عـما يقاسـيه. أخرجـت مارغريـت محفظتهـا التـي لم يكـن فيهـا كثـير مـن النقـود التـي يمكنهـا أن تدعوهـا مالهـا الخـاص، لكنهـا وضعـت مـا كان لديهـا في يـد بيـسي مـن دون أن تقـول شـيئاً.

"شـكراً لـك. هنـاك آخـرون كـثر لا يحصلـون عـلى أكـثر مـن ذلـك، وليسـوا أسـوأ حـالاً، أو عـلى الأقـل لا يُظهـرون ذلـك كـما يفعـل هـو. لـن يدعهـم أبي يحتاجـون شـيئاً مـا دام عـلى درايـة بالأمـر الآن. أرأيـت، تـورط باوتـشر وأطفالـه، وهـي بنزقهـا وطبعهـا الحـاد، ومـا اسـتطاعوا توفـيره ضـاع عـلى مـدار العـام المـاضي. لا تتخيـلي أننـا تركناهـم يموتـون جوعـاً، فجميعنـا نسـاعد بعضنـا بعضـاً؛ إن لم يسـاعد الجـار جـاره، مـن سـيفعل إذن؟". كانـت بيـسي تخـشى أن تظـن مارغريـت بـأن أسرتهـا لا ترغـب بمسـاعدة باوتـشر، إلى حـد مـا، أو ليسـت قـادرة عـلى مسـاعدة مـن تعـدُّه يمتلـك حقـاً بـأن يسـاعدوه. "إضافـة إلى أن أبي"، تابعـت بيـسي كلامهـا، "متأكـد تمامـاً بـأن أصحـاب المعامـل سيستسـلمون في غضـون الأيـام المقبلـة، لكنهـم لا يسـتطيعون أن يصمـدوا أكـثر. شـكراً لـك عـلى أي حـال، أشـكرك عـن نفـسي، وعـن باوتـشر، فـما فعلتِـه يجعلـك عزيـزة في قلبـي أكـثر وأكـثر".

بـدت بيـسي أكـثر هـدوءاً اليـوم، ولكنهـا كانـت أيضـاً منهكـة بشـكل يثـير القلـق. وحالمـا أنهـت حديثهـا، بـدت خائـرة القـوى ومنهكـة إلى درجـة أفزعـت مارغريـت.

"اطمئنـي"، قالـت بيـسي. "لم يحـن مـوتي بعـد. جاءتنـي أحـلام مخيفـة في الليـل، أو مـا يشـبه الأحـلام، لأني كنـت مسـتيقظةً، وأشـعر بـدوار اليـوم. ذلـك الشـاب المسـكين هـو مـن جعلنـي أشـعر بالحيويـة اليـوم. لا! لم يحـن موعـد أجـلي، وإن كان ليـس بعيـداً. ضعـي الغطـاء فوقـي، ربمـا أسـتطيع النـوم، إن سـمحت لي نوبـات السـعال. تصبحـين عـلى خـير، مسـاؤك سـعيد، لا أدري مـاذا عـلي أن أقـول، لكـن النـور يبـدو عاتمـاً وضبابيـاً اليـوم".

رجالٌ وسادة

عـادت مارغريـت إلى البيـت مُثقلَـة بـالألم مـما سـمعت وشـاهدت حتـى إنهـا لم تعـرف كيـف تتمالـك نفسـها لتقـوم بالواجبـات التـي كانـت بانتظارهـا، ومنهـا ضرورة المحافظـة عـلى دفـق متواصـل مـن الحديـث المُبهـج مـع والدتهـا التـي أصبحـت الآن غـير قـادرة عـلى الخـروج مـن المنـزل، وباتـت تـرى في عـودة مارغريـت مـن أقـصر النزهـات بمثابـة بريـد يحمـل أخبـاراً جديـدة.

"وهل تستطيع صديقتك فتاة المصنع أن تأتي الخميس لرؤيتك ترتدين الفستان؟"

"لقد كانت مريضة جداً، فلم أفكر في سؤالها"، قالت مارغريت بحزن شديد.

"آه يـا عزيـزتي، كل شـخص بـات مريضـاً الآن، حسـب مـا أظـن"، قالـت السـيدة هيـل، بنـبرة مـن الغـيرة الطفيفـة التـي عـادة مـا يشـعر بهـا المريـض حيـال مريـض آخـر. "لكنـه لمـن المحـزن بالتأكيـد أن يكـون المـرء مريضـاً في تلـك الأزقـة الخلفيـة". (سـيطرت عليهـا طبيعتهـا اللطيفـة، وعـادت إليهـا عـادات التفكـير القديمـة التـي كانـت عليهـا في هِلْسـتِن). "إنـه سيء بمـا فيـه الكفايـة هنـا. مـاذا يمكنـك أن تفعـلي لهـا، يـا مارغريـت؟ أرسـل إليَّ السـيد ثورنـتِن بعضـاً مـن النبيـذ البرتغـالي، هـل تظنـين أن زجاجـة منـه سـتنفعها؟".

"كلا يـا أمـي، لا أعتقـد أنهـم فقـراء كثـيراً، أو عـلى الأقـل، هـم لا يتحدثـون وكأنهـم كذلـك فعـلاً، عـلى أي حـال. تعـاني بيـسي مـن مـرض السـل، ولا أظنهـا تحتـاج إلى النبيـذ، ربمـا أعطيهـا بعـض المـربى الـذي أعددنـاه مـن فواكـه هِلْسـتِن العزيـزة. هنـاك في الواقـع أسرة أخـرى أود أن أعطيهـا شـيئاً. آه يـا أمـي! كيـف سـأرتدي أجمـل ملابـسي وأذهـب إلى حفـلات فاخـرة بعـد هـذا الأسى الـذي شـاهدته اليـوم؟" قالـت

مارغريت وهي تكسر القيود التي فرضتها على نفسها قبل أن تدخل المنزل، ثم أخبرت والدتها بما رأته وسمعته في كوخ آل هيغينز.

تألمت السيدة هيل ألماً شديداً مما جعلها تضطرب إلى حدٍ حفَّزها لأن تفعل شيئاً. طلبت من مارغريت أن تعد سلة في غرفة الضيوف لترسلها إلى تلك الأسرة. غضبت السيدة هيل من قول ابنتها إنه لا ضير من الانتظار حتى الصباح لإرسال السلة، طالما أن هيغينز وفَّر لهم احتياجاتهم العاجلة، وأنها نفسها تركت لهم نقوداً مع بيسي. اتهمت السيدة هيل ابنتها بافتقارها للمشاعر لمجرد قولها هذا الكلام، ولم تعط نفسها فرصة لالتقاط أنفاسها حتى خرجت السلة من المنزل. ثم التفتت إلى مارغريت وقالت:

"بعد كل شيء، ربما ما نقوم به ليس بالتصرف الصحيح. في آخر مرة كان السيد ثورنتِن هنا قال إن من يساعد العمال على إطالة الإضراب ليسوا أصدقاءً حقيقيين. وباوتشر هذا واحد منهم، أليس كذلك؟".

أحالت السيدة هيل السؤال إلى زوجها لدى عودته من درس أعطاه للسيد ثورنتِن للتو، والذي انتهى، كالعادة، بحديث بينهما. لم تكترث مارغريت إن كانت هداياهم تطيل الإضراب، بل لم تصل في تفكيرها إلى هذا الحد وهي في تلك الحالة من الانفعال والحماسة.

استمع السيد هيل لما قالته زوجته، وحاول أن يكون هادئاً كقاضٍ، وتذكر أن كل ما سمعه بدا شديد الوضوح بالنسبة إليه قبل أقل من نصف ساعة على لسان السيد ثورنتِن، ثم أعطى حكماً لم يكن متوقعاً. فزوجته وابنته لم يفعلا الصواب في تقديم المساعدة فحسب، بل تساءل كيف كان لهما أن يفعلا عكس ذلك. على الرغم من أنه، كقاعدة عامة، كان صحيحاً أن السيد ثورنتِن قال إن الإضراب، إن طال، لابد أن ينتهي بأن يعمل أصحاب المعامل على إحضار عمال من مكان بعيد (إن لم تكن النتيجة النهائية، فعلاً، كما كانت من قبل في أغلب الأحيان، اختراع آلة ما تقلص الحاجة إلى اليد العاملة). لقد كان واضحاً أن أكثر الحلول لطفاً التي تمثلت في رفض تقديم أيِّ مساعدة من شأنها أن تزيد من

تمسك العمال بحماقتهم. لكن، وفي ما يخص باوتشر، عقد السيد هيل العزم على أن يذهب لرؤيته في صباح اليوم التالي، ويحاول أن يجد ما يمكن أن يقوم به لأجله.

في صبيحة اليوم التالي، ذهب السيد، كما اقترح. لم يجد باوتشر في المنزل، لكنه تحدث مطولاً إلى زوجته، ووعد أن يسأل لها عن مستشفى، وشاهد الأشياء الكثيرة التي أرسلتها السيدة هيل، والتي استخدمها بإفراط الأطفال الذين كانوا سادة في غياب أبيهم. عاد السيد هيل بوصفٍ أكثر طمأنة وبهجة مما كانت تتأمله مارغريت. فما قالته الليلة الفائتة، جعل والدها مستعداً لوضع أكثر سوءاً دفعه، كرد فعل عما كان يتخيله، أن يصف الوضع بأنه أفضل بكثير مما كان فعلياً على أرض الواقع.

"لكني سأذهب إلى هناك ثانية، وأرى الرجل"، قال السيد هيل. "لا أعلم بعد كيف لي أن أقارن واحداً من هذه البيوت مع أكواخ هِلْستِن. فقد رأيت هنا أثاثاً لن يفكر أُجراء الريف في شرائه، وطعاماً يُستهلك يعدُّونه من الكماليات، لكن بالنسبة لهذه العائلات، على وجه التحديد، يبدو واضحاً أن لا مورد آخر لها، بعد أن توقف أجرها الأسبوعي، سوى محلات الرهن. كان على المرء أن يتعلم لغة مختلفة، وأن يقيس الأمور بمعيار مختلف، هنا في ميلتِن".

بيسي أيضاً كانت أفضل حالاً نوعاً ما هذا اليوم، رغم أنها لمّا تزل ضعيفة حتى أنها على ما يبدو نسيت كلياً رغبتها بأن ترى مارغريت ترتدي فستانها الخاص بحفلة العشاء، إن لم تكن هذه، أصلاً، مجرد رغبة محمومة راودتها في حالة تشبه الهلوسة.

لم تستطع مارغريت أن تمنع نفسها من مقارنة ارتدائها هذه الملابس للذهاب إلى مكان لا تهتم لأن تكون فيه، وقلبها مثقل بمخاوف كثيرة أخرى، مع ذلك التبرج المُفرِح الذي قلما كانت تقوم به مع إيديث قبل ما يزيد عن عام. أما اليوم، فكانت سعادتها في أن تتزين بأجمل ملابسها تقتصر على التفكير في إدخال البهجة على قلب أمها. لذلك احمرّت مارغريت خجلاً عندما فتحت ديكسِن الباب على مصراعيه تناشد الجميع إطلاق آهات الإعجاب.

"الآنسة هيل تبدو رائعة يا سيدتي، أليس كذلك؟ ما كان للمرجان الذي أرسلته السيدة شو أن يبدو أجمل مما هو عليه الآن. إنه يعطي اللمسة المناسبة من اللون، يا سيدتي. وإلا كنت ستبدين، يا آنسة مارغريت شديدة الشحوب".

كان شعر مارغريت كثيفاً وسميكاً إلى درجة لا يمكن ترتيبه على شكل ضفائر، بل احتاج إلى أن يُسرَّح ملفوفاً على شكل دوائر، وأن يُضغط قوامه الحريري الناعم في لفافاتٍ كبيرة أحاطت برأسها مثل التاج، ثم جُمعت على شكل عقدة مدورة ضخمة من الخلف، وثبتت مارغريت العقدة بدبوسين كبيرين من المرجان، وكأنهما سهمان صغيران. كما عقصت الأكمام الحريرية إلى الأعلى بخيوط من النسيج ذاته في حين استقر على عنقها، أسفل انثناء حنجرتها البيضاء كالحليب، عقد من الخرز المرجاني.

"آه يا مارغريت! كم أحب أن أذهب معك إلى واحدة من لقاءات بارينغتِن[47] القديمة، كما كانت الليدي بيريسفِرد تأخذني".

قبلت مارغريت والدتها على هذا الدفق من الاعتزاز الأمومي، لكنها لم تقدر على الابتسام، إذ شعرت بأنها تفتقد الروح السعيدة بداخلها.

"بل أفضل أن أبقى معك في المنزل يا أمي".

"ما هذا الكلام الفارغ، يا حبيبتي! انتبهي جيداً على العشاء. أحب أن أسمع منك كيف يعدون هذه المناسبات هنا في ميلتِن. وعلى وجه الخصوص القسم الثاني من الوليمة، ياعزيزتي. انظري ما الذي يقدمونه بدلاً من لحوم الطرائد".

لو قُدِّر للسيدة هيل أن ترى بذخ مائدة العشاء وما احتوته، لكانت ليس أكثر اهتماماً فحسب، بل ودهشة. حتى أن مارغريت صاحبة الذوق اللندني، أحست أن العديد من الأطعمة كانت صادمة بكثرتها، إذ كان كافياً أن توضع نصف الكمية لتكون أخف تأثيراً، وأكثر أناقة. لكن هذا كان واحداً من القوانين الصارمة للسيدة ثورنتِن بشأن كرم الضيافة التي تنص على أن كل نوع محدد من أطايب الطعام يجب أن يقدم بكميات كافية لكل المدعوين، إن رغبوا

(47) قرية صغيرة في مقاطعة كمبريدج شاير الجنوبية، جنوب غرب مدينة كمبريدج. (م)

بتناولها. من دون أن تكترث للجانب الزاهد المتقشف في عاداتها اليومية الأخرى، كان الأمر جزءاً من فخرها واعتزازها بأن تقدم وليمة لضيوف مثل هؤلاء كما تريدها تماماً. وكان ابنها يشاركها هذا الشعور. إذ لم يكن يعلم، على الرغم من أنه قد يكون قد تخيل ذلك، وكانت لديه القدرة على الاستمتاع به، بوجود أي نوع من الصداقات إلا ذلك الذي يعتمد على تبادل حفلات العشاء. وحتى الآن، وإن كان يُنكر على نفسه الإنفاق الشخصي غير الضروري ولو بمقدار ستة بنسات، وكم من مرة ندم على إرسال الدعوات لهذا العشاء بالتحديد، كان على أي حال، مسروراً بأن يرى فخامة وروعة الترتيبات.

كانت مارغريت ووالدها أول الواصلين. فقد حرص السيد هيل على أن يصل بالموعد المحدد. لم يكن هناك أحد في غرفة الضيوف سوى السيدة ثورنتِن وفاني. كانت الأغطية قد نُزعِت عن الأثاث، والمكان يلتمع بالدامسكو الأصفر المصنوع من الحرير، والسجادة ذات نقوش الأزهار. كما كانت كل زاوية في الغرفة محشوة بالزخارف والزينة إلى حدٍ بدت معه مُتعِبةً للعين، ورسمت مفارقة غريبة مع إطلالة النوافذ الفجة القبيحة على ساحة المصنع الذي فُتِحَت بواباته على مصارعها للسماح بدخول العربات. انتصب المصنع شاهقاً على الجانب الأيسر من النوافذ، وهو يلقي بظله من طوابقه المتعددة التي أعتمت المساء الصيفي قبل أوانه.

"بقي ابني مشغولاً في العمل حتى آخر لحظة. سيأتي إلى هنا على الفور، يا سيد هيل. تفضل اجلس!".

كان السيد هيل يقف عند إحدى النوافذ عندما تحدثت السيدة ثورنتِن. استدار نحوها قائلاً:

"ألا تجدين السكنى بالقرب من المصنع أمراً مزعجاً في بعض الأحيان؟"

شمخت في وقفتها، ثم قالت:

"أبداً، لم أصبح حساسة إلى درجة الرغبة في أن أنسى مصدر ثروة ابني وسلطته. كما أنه لا يوجد في ميلتِن كلها مصنع مثله. إذ تبلغ مساحة غرفة واحدة منه

أكثر من مئة وسبعة وستين متراً مربعاً".

"ما قصدته بسؤالي الضجيج والدخان، ودخول العمال وخروجهم الذي يمكن أن يسبب الإزعاج؟"

"أوافقك الرأي يا سيد هيل"، قالت فاني، "هناك رائحة لا تنقطع للبخار والآلات المُشحمة، كما أن الضجيج يصم الأذان".

"سمعت ضجيجاً يسمونه موسيقى يصم الأذان أكثر. تقع غرفة المحرك في نهاية الشارع، وبالكاد نسمع صوته، ما عدا في فصل الصيف حيث تكون النوافذ مفتوحة. أما بالنسبة لهمهمة العمال، فإنها لا تزعجني أكثر مما يزعجني طنين خلية النحل. وإن فكرت بكل هذا، يخطر على بالي ابني، وأشعر أن كل هذا يعود له، وأنه الرأس الكبير الذي يديره ويوجهه. أما الآن، ليس هناك أي صوت يصدر عن المصنع مع إضراب العمال ناكري الجميل، وربما سمعت عن ذلك. لكن انشغال ابني (كما أخبرتك عنه عندما دخلت)، يرتبط بالخطوات التي سيتخذها ليجعلهم يتعلمون حدودهم". استحال وجهها، الصارم دائماً، إلى غضب قاتم وهي تقول هذه العبارات. كما أنه لم ينفرج عن أيٍّ أسارير عندما دخل ابنها حيث لاحظت عليه علامات القلق والهم التي لم يستطع أن يتخلص منها على الرغم من أنه استقبل ضيوفه بتحية فرحة ودودة. صافح مارغريت وهو يعلم أنها المرة الأولى التي تتلاقى فيها أيديهما، رغم أن مارغريت لم تكن واعية لهذه الحقيقة. سأل عن صحة السيدة هيل، وسمع من السيد وصفاً مفرحاً يملؤه الأمل، فالتفت إلى مارغريت ليعرف مقدار موافقتها على كلام أبيها، لكنه لم ير في وجهها أي تعبير معارض. ومع نظرته إليها بهذا القصد، صُعق بجمالها الفتان. إذ لم يسبق له أن رآها في مثل هذا الفستان، حيث بدا له أن أناقة الفستان كانت تتناسب مع طلتها البهية وهدوء وجهها، مما يحتم عليها أن تبقى دائما هكذا لا يضاهيها أحد آخر. كانت تتحدث إلى فاني، حول ماذا، لم يستطع أن يسمع فحوى الكلام، لكنه شاهد أخته بطريقتها القلقة ترتب باستمرار جزءاً من فستانها، وتجوب بعينيها هنا وهناك بلا هدف محدد. قارن بين عيني أخته التائهتين مع تلك العينين الواسعتين الناعمتين تنظران

بثبات إلى شيء محدد، وكأن أثراً لطيفاً من السكينة يشع من نورهما: الخطوط المنحنية لشفتين حمراوين انفرجتا تعبيراً عن الاهتمام بحديث رفيقتها، والرأس يميل قليلاً إلى الأمام وكأنه يرسم خطاً منحنياً من القمة حيث الضوء ينعكس على الشعر الأسحم الأملس وصولاً إلى الطرف العاجي الناعم للكتفين، والذراعين البيضاوين المدورين ويديها النحيلتين وقد تصالبتا فوق بعضهما بعضاً ساكنتين بشكل مثالي في وضعيتهما الجميلة. تنهد السيد ثورنتِن وهو يسرق على حين غرة نظرات شاملة لهذا الجمال. مكره أخاك لا بطل، استدار السيد ثورنتِن عن السيدتين الشابتين، وانغمس قلباً وقالباً في حديث مع السيد هيل.

جاء الكثير من الناس، وراحوا يتوافدون الواحد تلو الآخر. تركت فاني مارغريت لتساعد والدتها في استقبال الضيوف. وسط هذا الدفق من الضيوف، شعر السيد ثورنتِن أن لا أحد كان يتحدث إلى مارغريت، متضايقاً من هذا التجاهل الواضح. لكنه لم يقترب منها، أو حتى ينظر إليها. غير أنه كان يدري ما كانت تفعل، أو لا تفعل، أكثر مما كان يدري عن تحركات أي شخص آخر في الغرفة. مارغريت، من جانبها، لم تكن واعية لنفسها، وبدت سعيدة بمراقبة الآخرين حتى إنها لم تفكر مطلقاً إن كانت موضع تجاهل أم لا. جاء أحدهم وأخذها إلى مائدة العشاء، رغم أنها لم تتعرف على اسمه، ولم يُبدِ هو رغبة في الكلام معها. كان هناك حديث حماسي يجري بين السادة، أما السيدات، فكن، أغلب الوقت، صامتات، يُشغلن أنفسهن بملاحظة العشاء وانتقاد ملابس بعضهن بعضاً. فهمت مارغريت فحوى النقاش الدائر مما زادها اهتماماً لتستمع بانتباه. كان السيد هورسفول، الغريب القادم الذي كانت زيارته إلى ميلتِن سبب هذه الدعوة، يطرح أسئلة تتعلق بالتجارة والصناعيين في المدينة، وكان البقية، وجميعهم من ميلتِن، يقدمون له الأجوبة والشروحات. نشب جدالٌ حامٍ ارتفعت حرارته بينهم أحيل بعدها إلى السيد ثورنتِن الذي بالكاد كان يقول شيئاً قبل هذا. أما الآن فقد أعطى رأيه الذي كان كفيلاً بأن يقنع معارضيه. هنا، ركزت مارغريت على مضيفها، المُحتفي بأصدقائه، على طريقته بصفته سيد المنزل والتي كانت صريحة مباشرة لكنها بسيطة متواضعة وعلى نحو مهيب. تنبهت مارغريت إلى

أنـه لم يسبق لها أن رأتـه بهـذه الميـزة مـن قبـل. عندمـا كان يـأتي إلى منزلهـم، كان هنـاك شيء مـا عـلى الـدوام إمـا مـن الحماسـة المفرطـة، أو ذلـك النـوع مـن التـبرم الممتعـض الـذي كان يبـدو مسـتعداً للافـتراض بأنـه غالبـاً مـا يُسـاء الحكـم عليـه، ومـع ذلـك لا يتوقـف عـن الشـعور الزائـد بالفخـر والاعتـزاز لتكـرار المحاولـة مـن أجـل أن يُفهـم عـلى نحـو أفضـل. أمـا الآن، وبـين أصحابـه، لم يكـن هنالـك شـك بموقعـه. كانـوا يعدُّونـه رجـلاً صاحـب الشـخصية القويـة في طـرق عديـدة. لم يكـن هنـاك أي داعٍ للكفـاح والقتـال لكسـب احترامهـم. فقـد نالـه، وهـو يـدرك هـذا الأمـر جيـداً، وشـعوره بضـمان هـذا الموقـع منـح صوتـه وتصرفاتـه هـدوءاً جليـلاً لم يسـبق لمارغريـت أن انتبهـت إليـه.

لم يكـن مـن النـوع الـذي يحبـذ التحـدث مـع السـيدات، ومـا قالـه كان مختـصراً ورسـمياً. أمـا بالنسـبة لمارغريـت نفسـها، فلـم يتحـدث معهـا مطلقـاً. إلا أن هـذا لم يمنعهـا مـن الدهشـة في تخيُّـل كـم كانـت تسـتمتع بهـذا العشـاء. فقـد أصبحـت عـلى معرفـة كافيـة كيـف تفهـم الاهتمامـات المحليـة، بـل وحتـى بعـض المصطلحـات الفنيـة التـي يسـتخدمها أصحـاب المصانـع المتحمسـون. اتخـذت بصمـت موقفـاً محسـوماً مـن المسـألة التـي كانـوا يناقشـونها. عـلى أي حـال، تحدثـوا بحماسـة محمومـة، وليـس بالأسـلوب المسـتهلك المكـرّر الـذي كان يسـبب لهـا الملـل في حفـلات لنـدن. تعجبـت، مـع هـذا التركيـز عـلى الصناعيـين والتجـارة، أن أحـداً لم يتطـرق إلى الإضراب الـذي كان وشـيكاً. ولم تعلـم بعـد كيـف كان هـؤلاء السـادة يتعاملـون بـبرود تـام مـع هـذه الأمـور. وللحـق، كان العـمال يعرضـون أنفسـهم للتهلكـة، كـما فعلـوا مـن قبـل عـدة مـرات، لكـن إن كانـوا حمقـى ليضعـوا أنفسـهم في يـد مجموعـة معـدة بطريقـة نذلـة مـن مندوبـين يتقاضـون أجورهـم، فعليهـم عندئـذ أن يتحملـوا العواقـب. واحـد أو اثنـان مـن الحاضريـن كانـا يظنـان أن ثورنـتِن بـدا فاقـداً للحماسـة، وبالطبـع، سـيتكبد خسـائر كبـيرة بسـبب الإضراب. غـير أن هـذا كان حدثـاً طارئـاً يمكـن أن يتعرضـا لـه في أي وقـت، في حـين كان ثورنـتِن ماهـراً في إدارة الإضراب مثـل أي واحـد آخـر لأنـه كان صلبـاً مثـل أي رجـل في ميلـتِن. لقـد أخطـأ العـمال في تقديرهـم لـه بمحاولـة التلاعـب بـه. كـما كان هـذان السـيدان فرحـين ضمنيـاً

بخيبة العمال وهزيمتهم في محاولتهم تغيير ولو ذرة واحدة مما رسمه وخطط له السيد ثورنتن. كان الأمر مملاً بالنسبة لمارغريت بعد تناول العشاء. شعرت بالسعادة عندما جاء السادة، ليس لأنها لمحت عيني أبيها لتنفضا عنها النعاس فحسب، بل لأنه سيكون بمقدورها الاستماع إلى شيء أكبر وأكثر أهمية من الاهتمامات الصغيرة التي كانت السيدات تتحدثن عنها. أعجبتها تلك النشوة في الإحساس بالسلطة التي يحوزها رجال ميلتن. صحيح أنها كانت فاضحة في مظهرها، والمتعة الجارفة بالتبجح، لكنها مازالت تتحدى قيود الاحتمال القديمة بنوع من النشوة باستذكار ما تم إنجازه، وما يجب عليهم إنجازه لاحقاً. وإن كانت، في أكثر لحظاتها هدوءاً، غير مستعدة للموافقة على حماستهم في كل الأمور، كان مازال هناك الكثير الذي يمكنها أن تُعجب به في نسيانهم لأنفسهم والحاضر في انتصاراتهم التي يتوقعونها على كل مادة جامدة في وقت ما من المستقبل القادم الذي لن يبقى واحد منهم على قيد الحياة كي يراه. وفجأة جفلت مارغريت عندما سمعت صوت السيد ثورنتن يحدثها وهو يقف على مقربة من مرفقها:

"كان واضحاً أنك كنت في صفنا في النقاش الذي كان دائراً على مائدة العشاء، أليس كذلك، يا آنسة هيل؟"

"بالتأكيد. لكني عندئذ لم أكن أعلم سوى القليل عن الموضوع. لقد فوجئت، على أي حال، أن أجد مما قاله السيد هورسفول أن هناك آخرين كان يرون الأمر بطريقة مختلفة كلياً، كما تحدث السيد موريسون. لا يمكن أن يكون هذا الشخص سيداً نبيلاً، أليس كذلك؟"

"لست أنا تماماً من يحدد نبالة شخص آخر، يا آنسة هيل. أقصد أني لا أفهم استعمالك لهذه الكلمة، لكن يجب عليّ القول إن السيد موريسون ليس رجلاً حقيقياً. لا أعرف من يكون، وأنا أحكم عليه مما قاله السيد هورسفول".

"أشك أن يكون "سيدي النبيل" يشمل "رجلك الحقيقي".

"أو إنك تلمحين إلى ما هو أكثر من ذلك. أختلف معك. الرجل بالنسبة إليّ كائن أسمى وأكثر كمالاً من السيد النبيل".

"ماذا تقصد؟" سألته مارغريت. "لا بد بأننا نفهم الكلمتين بطريقة مختلفة".

"أنـا أفهـم عبـارة "السـيد النبيـل" عـلى أنهـا مجـرد تعبـير يصـف علاقـة الشـخص بالآخريـن، لكـن عندمـا أتكلـم عنـه بصفتـه "رجـلاً"، لا نـراه مـن منظـور علاقتـه مـع الآخريـن، بـل مـع نفسـه، مـع الحيـاة، الزمـن، الأبديـة، وحيـداً منبـوذا مثـل روبنسـون كـروزو[48]، سـجيناً في سردابٍ مـدى الحيـاة، بـل حتـى قديسـاً في باتمـوس[49] يتمتـع بالصبر والتحمـل، والقـوة والإيمـان. هـذا هـو الرجـل. أشـعر بالملـل مـن كلمـة "نبالـة" التـي تبـدو لي وكأنـه غالبـاً مـا يُسـاء اسـتخدامها، وغالبـاً أيضـاً مـع تشـويه بالـغ في معناهـا، في حـين أن الاسـم البسـيط "رجـل" والصفـة "رجولـة" لا يُعـترف بهـما، وهـذا مـا يجعلنـي أميـل لتصنيفهـا مـع نفـاق يومنـا هـذا".

فكـرت مارغريـت للحظـة، لكـن وقبـل أن تعـبر عـن اقتناعهـا البطـيء، نـادى عـلى السـيد ثورنـتِن بعـض أصحـاب المصانـع ولم تسـتطع أن تسـمع حديثهـم، لكنهـا اسـتطاعت أن تُخمِّـن فحـواه مـن خـلال الأجوبـة القصـيرة التـي كان يقدمهـا السـيد ثورنـتِن، وجـاءت عـلى لسـانه ثابتـة حازمـة كـما لـو كانـت قذيفـة مدفـع تنطلـق مـن مسـافة بعيـدة. كان واضحـاً بـأن الحديـث يتنـاول مسـألة الإضراب والمسـار الأفضـل للتعامـل معـه. سـمعت مارغريـت السـيد ثورنـتِن يقـول:

"لقد تم ذلك". صدرت همهمة مستعجلة شارك فيها اثنان أو ثلاثة من الحضور.

"اتُخذت جميع الترتيبات".

عـبرّ بعضهـم عـن مخـاوف مـا، وحـدد السـيد سليكسِـن مصاعـب بذاتهـا، وهـو يمسـك بـذراع السـيد ثورنـتِن بهـدف التأثـير عـلى كلماتـه. ابتعـد السـيد ثورنـتِن قليـلاً، ورفـع حاجبيـه، ثـم أجـاب:

"سـأقوم بهـذه المخاطـرة، ولا داعـي لأن تنضمـوا إلّي إلّا إن اخترتـم ذلـك". إلا أن بعضهـم أعـرب عـن خشـيته.

---

(48) الشخصية الرئيسة في رواية لدانيال ديفو (1661-1731). (م)

(49) جزيـرة يونانيـة صغيرة في بحـر إيجـة، تعـرف تاريخيـاً بأنهـا الموقـع الـذي تلقّـى فيـه الرسـول يوحنـا الـرؤى التـي ورد ذكرهـا في كتـاب الوحـي في العهـد الجديـد. (م)

"لا أخشى من شيء أكثر وضاعة وخِسة من إشعال النيران عمداً. نحن أعداء واضحون؛ أستطيع حماية نفسي من أي عنف أدركه، وسأحمي قطعاً كل من يأتي للعمل عندي. إنهم يدركون مقدار تصميمي هذه المرة، كما تدركونه أنتم تماماً".

انتحى السيد هورسفول بالسيد ثورنتِن جانباً، ليسأله، كما خمَّنت مارغريت، سؤالاً آخر عن الإضراب. لكنه في حقيقة الأمر، كان سؤاله عنها هي، تلك الفتاة الجميلة الهادئة الجليلة.

"هل هي من ملتِن؟" سأله بعد أن سمع اسمها.

"كلا! بل من الجنوب؛ هامشاير، على ما أعتقد". جاءه الجواب بارداً من دون اكتراث بالأمر.

كان السيد سليكسِن يستفسر عن الموضوع ذاته:

"من تكون تلك الفتاة الفاتنة؟ هل هي شقيقة السيد هورسفول؟"

"كلا يا عزيزي! ذاك هو السيد هيل، والدها، يتحدث الآن مع السيد ستيفنز. إنه يعطي دروساً، أو كما يقال، يقرأ للشبان. أخي جون يذهب إليه مرتين في الأسبوع، وهو من توسل لأمي أن تدعوهما إلى هنا، على أمل أن يصبح معروفاً. أظن أن لدينا بعضاً من منشوراته الإعلانية، إن أردت الحصول على واحد منها".

"السيد ثورنتِن! وهل يجد الوقت ليقرأ مع مدرس خاص، وسط كل مشاغله، وهذا الإضراب الكريه أيضاً؟"

لم تدرِ فاني، من طريقة كلام السيد سليكسِن، إن كان ينبغي عليها أن تشعر بالفخر أم بالخجل من تصرف أخيها، ومثلها مثل سائر الناس الذين يحاولون ويأخذون "ما يراه" الآخرون قانوناً لمشاعرهم، كانت تميل إلى الاحمرار خجلاً من أي تصرف منفرد لا يحظى بالإجماع. لكن تفرق الضيوف هو ما عطَّل عليها شعورها بالخجل.

الليلة المُظلمة

عـادت مارغريـت ووالدهـا إلى المنـزل مشـياً عـلى الأقـدام. كانـت ليلـة جميلـة، الشـوارع نظيفـة. وهـي بفسـتانها الحريـري الأبيـض الرائـع مثـل فسـتان لييـزي لينسي مـن الحريـر الأخضر في الأنشـودة "وقـد رفعتـه إلى ركبتيهـا"[50]. كانـت منطلقـة مـع والدهـا مسـتعدة للرقـص مـع بهجـة الهـواء المنعـش اللطيـف تلـك الليلـة.

"أظـن أن السـيد ثورنـتِن لم يكـن مرتـاح البـال في مـا يخـص الإضراب، بـدا قلقـاً جـداً الليلـة".

"كنـت سـأتعجب لـو لم يكـن كذلـك. لكنـه تكلـم بـبروده المعتـاد مـع الآخريـن عندمـا اقترحـوا عـدة أشـياء قبـل مغادرتنا".

"كذلـك كان بعـد العشـاء، مـن الصعـب جـداً أن تخرجيـه مـن طريقتـه البـاردة في الـكلام، لكـن وجهـه صدمنـي بشـدة قلقـه".

"لـو كنـت مكانـه، لابـد أن أكـون قلقة. يجـب أن يعلـم بالغضـب المتصاعـد والكراهية التـي لا يمكـن كبتهـا لـدى عمالـه الذيـن ينظـرون إليـه عـلى أنـه "الرجـل المتحجـر" الـذي ورد ذكـره في الإنجيـل، إن لم نقـل الظـالم لعـدم إحساسـه بمعانـاة الآخريـن، والواضـح في حكمـه، يقـف عـلى "حقوقـه" كـما لا ينبغـي لإنسـان أن يقـف، آخذيـن بالحسـبان مـا نكـون ومـا هـي حقوقنـا التافهـة بالنسـبة للـه العـلي القديـر. أنـا سـعيدة لأنـك تظـن بأنـه يبـدو قلقـاً. عندمـا أتذكـر كلـمات باوتـشر وتصرفاتـه نصـف المجنونـة، لا يمكننـي أن احتمـل التفكـير بالـبرودة التـي تكلـم بهـا السـيد ثورنـتِن".

---

(50) أغنية للشاعر الاسكوتلندي روبرت بيرنز (1759 - 1796). (م)

"أولاً، لست مقتنعاً إلى حد كبير، كما أنت، بالمحنة القاسية التي يعاني منها ذلك الرجل المدعو باوتشر، أنا لا أشك بأنه يمر في هذه الفترة بحالة سيئة. لكن هناك دائماً ثمة مصدر غامض للمال من هذه الاتحادات، ومما قلتِه لي، كان واضحاً أن الرجل يمتلك طبيعة متحمسة، معبرة، واستخدم تعبيراً قوياً عما كان يشعر به".

"أبي!"

"مهلاً! أردتك ألا تظلمي السيد ثورنتِن الذي، وهذا ما أشك به، يحوز طبيعة مناقضة تماماً، رجل معتد بنفسه إلى درجة لا يفصح عن مشاعره. ذات الشخصية التي كان علي أن أظن مسبقاً بأنها ستعجبك، يا مارغريت".

"وأنا كذلك بالفعل، وهذا ما يجب أن يكون؛ لكنني لست متأكدة تماماً من وجود مثل هذه المشاعر. إنه رجل ذو شخصية قوية، وذكاء غير عادي، إذا ما نظرنا إلى المزايا المحدودة التي يتمتع بها".

"ليست محدودة أبداً. لقد عاش حياة عملية منذ سن مبكرة، وكان مطالباً بأن يتحلى بالمحاكمة العقلية السليمة وضبط النفس. هذا كله يساعد في تطوير جانب واحد من الذكاء. صحيح إنه يحتاج لبعض المعرفة عن الماضي التي تعطي الأسس الصحيحة لتصور واستشراف المستقبل، إلا أنه يعلم ذلك جيداً ويدركه، وهذا أمر يُحسب له لا عليه. إنك تتحاملين كثيراً على السيد ثورنتِن، يا مارغريت".

"إنه العينة الأولى من الصناعيين والأشخاص المنخرطين في التجارة الذين سنحت لي الفرصة لدراستها، يا أبي. إنه حبة الزيتون الأولى بالنسبة لي، لذا دعني أرسم تكشيرة على وجهي وأنا أبتلعها. أعلم أنه شخص جيد بالنسبة للطينة التي ينتمي إليها، وشيئاً فشيئاً، سأعجب بهذا النوع، بل حتى أنني بدأت ذلك فعلاً. كنت مستمتعة جداً بحديث السادة رغم أني لم أفهم نصفه. شعرت بالأسف عندما جاءت الآنسة ثورنتِن لتأخذني إلى الطرف الآخر من الغرفة ظناً منها، كما قالت لي، بأني لم أكن مرتاحة بوجودي كفتاة لوحدها وسط مجموعة

مـن الرجـال. لم يخطـر عـلى بـالي مثـل هـذا الأمـر، بـل كنـت مشـغولة بالاسـتماع لحديثهـم. أمـا السـيدات، فكـن مضجـرات، إلى حـد كبـير! لكـن كان الأمـر ذكيـاً عـلى مـا أعتقـد، لأنـه ذكـرني بلعبتنـا القديمـة التـي كانـت تتطلـب وضـع عـدة أسـماء في جملـة واحـدة".

"ماذا تقصدين، يا طفلتي؟" سأل السيد هيل.

"ينتقـون أسـماءً كانـت إشـاراتٍ لأشـياء تعطـي دليـلاً عـلى الـثروة، والخدم، والبسـتاني، والزجـاج، والملابـس الفخمـة، والمـاس، وأشـياء مـن هـذا القبيـل، وكانـت كل واحـدة منهـن ترتـب كلامهـا بطريقـة تجمـع كل هـذه الأسـماء في أجمـل طريقـة ممكنـة هكـذا كيفـما اتفـق".

"سـتكونين فخـورة بخادمتـك الوحيـدة عندمـا تجدينهـا، إن صدقـت السـيدة ثورنـتِن فيـما تقولـه عنهـا".

"هـذا صحيـح. شـعرت الليلـة بـأني منافقـة كبـيرة، وأنـا أجلـس بفسـتاني الحريـري الأبيـض، ويـداي الكسـولتان أمامـي، عندمـا تذكـرت ذلـك العمـل الكبـير الـذي قـام بـه الخـدم اليـوم. أنـا واثقـة بأنهـم ظنـوا بـأني سـيدة مـن الطبقـة الراقيـة".

"وكذلـك أنـا، إذ بـدوتِ كسـيدة حقيقيـة يـا عزيـزتي". قـال السـيد هيـل وهـو يبتسـم بهدوء.

إلا أن ابتسـاماته سرعـان مـا تحولـت إلى نظـراتٍ شـاحبة مرتجفـة عندمـا شـاهدا وجـه ديكسِـن وهـي تفتـح البـاب.

"سـيدي! آنسـة مارغريـت! حمـداً للـه أنكـما عدتمـا. الدكتـور دونالدسِـن هنـا. خادمة الجـيران هـي مـن ذهبـت لاسـتدعائه، لأن الخادمـة التـي تعمـل في النهـار عـادت إلى منزلهـا. إنهـا أفضـل حـالاً الآن. آه يـا سـيدي! كنـت أحسـبها سـتموت قبـل سـاعة مـن الآن".

تشـبث السـيد هيـل بـذراع مارغريـت ليمنـع نفسـه مـن السـقوط. نظـر إلى وجـه ابنتـه فـرأى تعبـيراً مـن المفاجـأة والحـزن الشـديد، لكنـه لم يصـل إلى درجـة عـذاب الرعـب الـذي تسـبب بانقبـاض قلبـه غـير المسـتعد. كانـت مارغريـت تعلـم أكـثر مـما

كان يعلم عن حالة والدتها، لكنها استمعت وعلى وجهها ذلك التعبير اليائس من القلق المرعب.

"ما كان يجب علي أن أتركها، أنا الابنة الشريرة". انتحبت مارغريت وهي تسند أباها الذي كان يرتعش وهما يصعدان السلم بسرعة. التقيا بالدكتور دونالدسِن عند فسحة الدرج.

"إنها أفضل حالاً الآن"، قال هامساً، "بدأ مفعول الأفيون. كانت التشنجات سيئة للغاية، ولا عجب أنها أفزعت الخادمة، لكنها ستتعافى هذه المرة".

"هذه المرة! دعني أذهب إليها". قبل نصف ساعة مضت، كان السيد هيل رجلاً في منتصف العمر. أما الآن فقد استحال مظهره كالحاً، مرتبك الحواس، يترنح في مشيته، كما لو كان في السبعين من عمره.

أخذه الدكتور دونالدسِن من ذراعه، وقاده إلى غرفة النوم، وتبعتهما مارغريت مباشرة. هناك، كانت والدتها ترقد في سريرها. ربما كانت الآن في وضع أفضل. كانت مستغرقة في النوم، لكن الموت كان قد مر ووسمها بعلامته الخاصة، وبدا واضحاً أنه لن يطول به الوقت حتى يعود ليطالب بما يخصه. نظر إليها السيد هيل ملياً لفترة من الزمن من دون أن ينطق بكلمة. بعدها بدأ جسده يرتجف مبتعداً عن الدكتور دونالدسِن، وراح يتلمس الباب. لم يستطع أن يراه، على الرغم من أن الشموع التي أُحضرت على عجل كانت تتوهج في أرجاء الغرفة. تمايل في مشيته نحو غرفة الضيوف، وبدأ يتحسس المكان بيديه بحثاً عن كرسي. دفع الدكتور دونالدسِن إليه بواحدة، وأجلسه عليها، وقاس نبضه. "كلميه يا آنسة هيل، يجب أن ننعشه".

"أبي" صاحت مارغريت، بصوت باكٍ مُثقل بألم متوحش. "أبي، كلمني!" عادت الرؤية إلى عينيه، ولكن بجهد جهيد.

"مارغريت، هل كنتِ على علم بهذا؟ يا له من فعل لئيم!".

"لا يا سيدي، لم يكن فعلا لئيماً"، أجاب الدكتور دونالدسِن بسرعة. "الآنسة هيل تصرفت بناء على تعليماتي. قد يكون هناك خطأ ما وقع، لكن ليس لؤماً. غداً

ستكون زوجتك شخصاً مختلفاً، أنا على ثقة. عانت من نوبة تشنجات، كما توقعت، رغم أني لم أخبر الآنسة هيل بمخاوفي. أعطيتها الأفيون الذي أحضرته معي، وستغرق في نوم هادئ لفترة طويلة. ومع حلول يوم الغد، ستكون تلك الأعراض التي أفزعتك قد اختفت تماماً".

"لكن المرض لن يختفي؟"

نظر الطبيب إلى مارغريت. رأسها المنحني، ووجهها الذي خلا من أي التماس لعفو مؤقت، أظهرا هيئة المراقب اللمّاح للطبيعة البشرية حيث كانت ترى أنه من المستحسن أن تقول الحقيقة بأكملها.

"ليس هذا المرض. لا يمكننا علاج هذا المرض بقدراتنا المتواضعة، بل يمكن تأخير تطوره، وتخفيف الألم الذي يسببه. كن رجلاً يا سيد، مسيحياً. آمن بخلود الروح التي لا يستطيع أي ألم، ولا مرض قاتل، أن ينال منها أو يمسها".

لكن الطبيب لم يحصل على أي رد سوى كلماتٍ مخنوقة، "لم تتزوج يوماً يا دكتور دونالدسِن، ولا تدرك معنى ذلك"، بشهقات رجولية عميقة عبرت سكون الليل مثل ضربات ثقيلة من العذاب. جثت مارغريت إلى جانبه تواسيه بالدموع. لا أحد، ولا حتى الدكتور دونالدسِن، علم كم مضى من الوقت على هذه الحال. كان السيد هيل أول من تجرأ بالحديث عن ضروريات اللحظة الراهنة.

"ماذا يجب علينا أن نفعل؟" سأل السيد هيل. "أخبر كلينا. مارغريت ذراعي اليمنى".

أعطى الدكتور دونالدسِن تعليماته الواضحة لا خوفاً مما جرى هذه الليلة، ولا اطمئناناً لما سيكون عليه الغد، ولا حتى للأيام القادمة، بل تأكيداً على أن لا أمل في شفائها. نصح السيد هيل بالخلود إلى النوم، وألا يبقى سوى شخص واحد ليراقب نومها الذي أمل بألا يعطله أي شيء. وعد الدكتور دونالدسِن بالعودة في الصباح الباكر، ثم غادر بعد أن صافحهما بحرارة وود. لم يتبادل الثلاثة سوى بضع كلمات. كانوا منهكين بسبب الرعب الذي أصابهم إلى درجة منعتهم عن القيام بأي شيء ما عدا ما يجب عليهم فعله الآن. صمم السيد هيل على أن

يبقى ساهراً طوال الليل، ولم تستطع مارغريت أن تفعل شيئاً سوى أن تقنعه بالاسترخاء على الكنبة في غرفة الضيوف. أما ديكسِن، فقد أبت بكل مهابة ووضوح أن تذهب إلى سريرها، كما كان مستحيلاً بالنسبة إلى مارغريت أن تترك أمها، وليقل أطباء العالم أجمعين ما يقولونه عن "ترشيد الموارد" و"ألا يبقى سوى شخص واحد إلى جانبها".

وهكذا، جلست ديكسِن، حدقت، ورعشت بعينيها، ومال رأسها، ثم انتفضت لتصحو من كبوة النعاس، قبل أن تستسلم أخيراً لسلطان النوم، وتبدأ بالشخير. خلعت مارغريت فستانها ورمت به جانباً بقرف لا يُحتمل، وارتدت قميص النوم. شعرت كما لو أنها لن تستطيع النوم ثانية، وأن نشاطاً استثنائياً دب في حواسها بحماسة مضاعفة من أجل السهر على والدتها. كانت كل لفتة وصوت، بل وحتى كل فكرة، تمس بسرعة عصباً ما في جسدها. وعلى مدى ساعتين، سمعت حركات والدها القلقة في الغرفة المجاورة. كان يأتي إلى باب الغرفة ويقف عنده ليسترق السمع، إلى أن قامت مارغريت، من دون أن تعلم بوجوده هناك، بفتح الباب لتخبره كيف كانت تسير الأمور، والرد على أسئلته التي لم تساعده شفتاه المتيبستان على النطق بها. وأخيراً، غرق السيد هيل في النوم، وساد السكون المنزل.

جلست مارغريت تفكر. بعيداً في المكان والزمان، تراءت لها كل مجريات اليومين الماضيين. قبل أقل من ستة وثلاثين ساعة، كانت مهمومة بوضع بيسي ووالدها، واعتصر قلبها ألماً على باوتشر. أما الآن، بات كل هذا مثل ذكرى تحلم بحياة سابقة، فكل ما مضى خارج الأبواب بدا منفصلاً عن والدتها، وبالتالي لا يمت للواقع بصلة. حتى شارع هارلي ظهر أكثر وضوحاً حيث تذكرت، كما لو كان الأمر البارحة، كيف كانت تُسعد نفسها بتعقب واكتشاف ملامح أمها في وجه خالتها شو، وكيف تأتي الرسائل لتجعلها تفكر في البيت بكل ذلك الحب المتلهف شوقاً وحنيناً. حتى هِلْستِن نفسها كانت حاضرة في ذلك الماضي المعتم. إذ بدت لها الأيام الكئيبة المكفهرة التي تسبق الشتاء والربيع، رتيبة تخلو

مـن الأحـداث، مرتبطـة بمـا يشـغلها الآن أكـثر مـن أي شيء أخـر. كانـت ستشـعر بالسـعادة لـو أمسـكت بأطـراف هـذا الزمـن الهـارب، تتوسـله أن يعـود، ويعيـد لهـا ذلـك الـشيء الـذي لم تكـن تقـدر قيمتـه كثـيراً عندمـا كان بـين يديهـا. يـا لهـا مـن حيـاة فارغـة! تافهـة، متقلبـة، تمـضي سريعـاً! وكأنهـا مـن هنـاك، مـن فـوق بـرج جـرس الكنيسـة، عاليـاً فـوق حركـة الأرض ودورانهـا، كان هنالـك جـرس يـرن بشـكل متواصـل " كلهـم ظلال! كلهـم عابـرون! كلـه مـاض!". وعندمـا طلـع الصبـاح بـارداً رماديـاً، مثـل الصباحـات السـعيدة مـن قبـل، وعندمـا ألقـت مارغريـت نظـرة عـلى النائمـين، بـدا الحـال كـما لـو أن الليلـة المرعبـة لم تكـن سـوى حلـم، ظـل، وماضٍ أيضاً.

عندمـا اسـتيقظت السـيدة هيـل، لم تكـن تـدري كـم كانـت مريضـة الليلـة الفائتـة، بـل فوجئـت بزيـارة الدكتـور دونالدسِـن في الصبـاح الباكـر، وشـعرت بالحـيرة مـن وجهـي ابنتهـا وزوجهـا القلِقـيْن. في البدايـة، وافقـت عـلى أن تبقـى في السريـر طـوال النهـار وقالـت إنهـا بالفعـل تشـعر بالتعـب. لكنهـا بدلـت رأيهـا بعـد ذلـك وأصرت عـلى النهـوض مـن السريـر، وسـمح لهـا الدكتـور دونالدسِـن بالعـودة إلى غرفـة الضيـوف. كانـت تشـعر بالضيـق وعـدم الراحـة في أيٍّ وضعيـة كانـت، وقبـل حلـول الليـل، داهمتهـا الحمـى. كان السـيد هيـل خائـر القـوى، وعاجـزاً عـن اتخـاذ أي قـرار.

"مـاذا يمكننـا أن نفعـل لنجنـب أمـي ليلـة أخـرى كهـذه؟" سـألت مارغريـت في اليوم الثالث.

"إلى درجـة معينـة، هـذا هـو رد الفعـل بعـد الأفيـون القـوي الـذي اضطـررت لإعطائهـا. وهـو أكـثر إيلامـاً بالنسـبة لـك أن تريـه مـن تحملهـا هـي. لكـن عـلى مـا أظـن، إن اسـتطعنا الحصـول عـلى سريـر مـائي[51]، فربمـا يكـون مفيـداً. عـلى أي حـال سـتكون أفضـل حـالاً غـداً. ومـع ذلـك أفضـل أن نحصـل عـلى سريـر مـائي. السـيدة ثورنـتِن لديهـا واحـد منـه، حسـب علمـي. سـأحاول أن أزورهـم بعـد الظهـر. انتظـري!" قـال الدكتـور دونالدسِـن، وعينـاه تسـتقران عـلى وجـه مارغريـت الـذي

(51) فـراش مملـوء بالمـاء شـاع اسـتخدامه في القـرن التاسـع عـشر كعـلاج طبـي لراحـة المـرضى لاسـيما الـذي يعانـون مـن اضطـراب في النـوم، أو آلام في العمـود الفقـري. (م)

شحب من السهر الطويل، "لست متأكداً إن كنت قادراً على الذهاب إليهم اليوم، لدي جولة طويلة على عدد من المرضى. لن يضيرك لو تذهبين بنفسك إلى شارع مارلبره، وتطلبين من السيدة ثورنتِن أن تعطيك السرير".

"بالتأكيد" قالت مارغريت. "سأذهب عصر اليوم عندما تكون أمي نائمة، وأنا متأكدة أن السيدة ثورنتِن ستعيرنا السرير".

بخبرته، أطلعهم الدكتور دونالدسون على حالة السيدة هيل على نحو دقيق. كانت تنفض عنها عواقب النوبة، وبدت أكثر إشراقاً وأفضل حالاً عصر هذا اليوم مما كانت تأمل أن تراها مارغريت ثانية. بعد الغداء، تركت مارغريت والدتها جالسة في كرسيها المريح، ويدها تستلقي في يد زوجها الذي بدا متعباً ويعاني أكثر منها. لكنه لَمَّا يزل قادراً على الابتسام الآن، وإن كانت ابتسامة بطيئة باهتة. فقبل يوم أو يومين، لم تكن مارغريت تتوقع أن تراه يبتسم مرة أخرى.

كان منزلهم الكائن في كرامبتِن كريسينت يبعد نحو ميلين عن شارع مارلبره. كان الجو حاراً جداً للمشي بسرعة، إذ كانت شمس آب/ أغسطس تسطع بلهيبها مباشرة على أرض الشارع عند الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم. تابعت مارغريت طريقها من دون أن تلاحظ أي شيء مختلف عن العادة في الميل الأول والنصف من مسيرها. كانتِ تمشي مستغرقة في أفكارها، مع العلم أنها كانت قد تعلمت هذه المرة أن تشق طريقها بين السيل الفوضوي من البشر الذي تدفق في شوارع ميلتِن. وشيئاً فشيئاً، فوجئت بتجمع غير عادي وسط كتلة من الناس في الشارع المزدحم الذي دخلت إليه.

لم يبدُ عليهم أنهم كانوا يتقدمون بقدر ما كانوا يتكلمون ويستمعون ويصدرون همهماتٍ بانفعال من دون كثير من الجلبة والحركة من البقعة التي كانوا فيها. وحالما أفسحوا الطريق لها من دون أن تعبأ بشيء سوى المهمة التي جاءت من أجلها، والضرورات التي اقتضتها، لم تكن ملاحظة مارغريت بالسرعة التي كان يمكن لها أن تتحلى بها لو كان بالها مرتاحاً، ودخلت إلى شارع مارلبره قبل أن تفرض القناعة الكاملة نفسها عليها بأن هناك شعوراً قلِقاً طاغياً من الغضب

بـين هـؤلاء النـاس؛ جـو عاصـف روحـاً وجسـداً، يحيـط بهـا. وتناهـى إلى مسـامعها مـن كل زقـاق مفتـوح عـلى شـارع مارلـبره رعـد خافـت يهـدر مـن بعيـد لحشـد مـن الأصـوات الغاضبـة. تجمـع سـكان المنـازل الفقـيرة القـذرة حـول الأبـواب والنوافـذ، هــذا إن افترضنــا أنهــم لا يقفــون فعــلاً في وســط الــدروب الضيقــة؛ وجميعهــم يشـخصون بأبصارهـم نحـو نقطـة واحـدة. كان شـارع مارلـبره مركـز اسـتقطاب كل هـذه العيـون البشريـة التـي تبـوح بأكـثر مخاوفهـا قلقـاً وتوتـراً بشـتى أنواعهـا، منهـا مـا كان عنفـاً مجبـولاً بالغضـب، وبعضهـا أقـل حـدة مـع تهديـدات لا ترحـم، والآخـر اتسـع بفعـل الخـوف، أو التوسـل والتـضرع. عندمـا وصلـت مارغريـت إلى المدخـل الجانبـي الصغـير بالقـرب مـن البوابـات المغلقـة في السـور المصمـت الكبـير لسـاحة مصنـع مارلـبره، وانتظـرت الحـارس لـيردّ عـلى الجـرس، التفتـت حولهـا وسـمعت أول زمجـرة طويلـة للعاصفـة مـن بعيـد، وشـاهدت أول موجـة ترتفـع ببـطء للحشـد تتقـدم برأسـها لتسـقط وتتراجـع عنـد الطـرف البعيـد مـن الشـارع، رغـم أنهـا قبـل دقيقـة مضـت كانـت تبـدو مليئـة بصخـب مكبـوت، لكنهـا تحولـت الآن إلى مـا يُنـذر بـشرٍ مسـتطير. فرضـت كل هـذه الظـروف نفسـها عـلى مارغريـت، لكنهـا لم تغـص في أعـماق قلبهـا المثقـل بالهـم أصـلاً. لم تـدرِ مـاذا يريـدون، ومـا هـي نواياهـم المُبيتـة، لكنهـا كانـت تعلـم يقينـاً، بـل وشـعرت عميقـاً بنصـل السـكين الحـاد الـذي كان يتحيَّن الفرصـة لاختراقهـا بـأن يجعلهـا يتيمـة الأم. كانـت تحـاول أن تـدرك أنـه يمكـن لهـا، عندمـا يحـل هـذا القـدر، أن تكـون مسـتعدة لمواسـاة أبيهـا.

فتح الحارس الباب بحذر وتركه موارباً بالقدْر الذي يسمح لها بالدخول.

"أهـذا أنـت، يـا سـيدتي؟" قـال لهـا وهـو يتنفـس الصعـداء، ويفسـح المجـال لهـا للدخـول مـن دون أن يفتـح البـاب بشـكل كامـل. دخلـت مارغريـت، وسـارع الحـارس إلى إقفـال البـاب وراءهـا.

"أظن أن الناس قادمون إلى هنا، أليس كذلك؟" سألها الحارس.

"لا أعلـم. لكـن ثمـة شيء غـير عـادي يجـري هنـا، غـير أن هـذا الشـارع فـارغ تمامـاً، حسـب مـا أظـن".

عـبرت السـاحة وصعـدت الـدرج إلى مدخـل المنـزل. لم يكـن هنـاك أي صـوت، لا جلبـة المحـرك البخـاري، ولا طقطقـة الآلات، ولا اختـلاط وتعـارض العديـد مـن الأصـوات الحـادة. لكـن ومـن مسـافة بعيـدة، كانـت هنـاك دمدمـة صراخ عميـق وزمجـرة تتصاعـد.

ضربة وعواقبها

أُدخِلت مارغريت إلى غرفة الضيوف التي عادت إلى حالتها المعتادة من الأكياس والأغطية التي كانت تغلف الأثاث ومحتويات الغرفة. كانت النوافذ نصف مفتوحة بسبب الحرارة، والسواتر الفينسية تغطي الزجاج، حتى أن الضوء الأخضر القاتم، المنعكس من الرصيف أسفل النوافذ، شوَّه الظلال، ومع الضوء العلوي المشوب بالخضرة، جعل وجه مارغريت، كما لمحته في المرآة، يبدو شاحباً على نحو مخيف. جلست وانتظرت، لم يأت أحد. وبين الحين والآخر، بدت الريح وكأنها تحمل ذلك الصوت البعيد المزدحم أقرب وأقرب، مع أنه لم يكن هناك ريح في الخارج! فقد خفتت في سكون عميق.

أخيراً جاءت فاني.

"ستأتي أمي في الحال، يا آنسة هيل. طلبت مني أن أعتذر إليك. ربما تعلمين أن أخي أحضر عمالاً من أيرلندا، وهذا ما أغضب الناس في ميلتِن وكأنه لا يحق لأخي أن يأتي بعمال من أي مكان، والأغبياء البائسون هنا لا يريدون العمل لديه. لقد أخافوا هؤلاء الأيرلنديين الجائعين بتهديداتهم، ولا نجرؤ على السماح لهم بالخروج. يمكنك أن تريهم مختبئين في الغرفة العلوية في المصنع التي سينامون فيها، لحمايتهم من أولئك الوحوش الذين يرفضون العمل، ولا يدعون الآخرين يعملون. تُشرف أمي الآن على إطعامهم، وأخي جون يتحدث إليهم، إذ أن بعض النسوة يبكين ويردن العودة. ها هي أمي، لقد أتت".

جاءت السيدة ثورنتِن وعلى وجهها صرامة كالحة جعلت مارغريت تشعر أنها

وصلت في توقيت سيء لتزعجها بطلبها، على الرغم من أن قدومها كان متوافقاً مع الرغبة التي سبق وأبدتها السيدة ثورنتِن بأن تطلب منها ما تريده في ما يتعلق بمستجدات مرض والدتها. قطبت السيدة ثورنتِن حاجبيها، وفتحت فمها بينما راحت مارغريت تتحدث بخجل لطيف عن حالة والدتها، وأن الدكتور دونالدسِن نصح بأن ترتاح على سرير مائي. لم تجب السيدة ثورنتِن على الفور، ثم بدأت بالصراخ:

"إنهم عند البوابات! استدع جون من المصنع، يا فاني! وصلوا إلى البوابات! سيحطمونها! أقول لك نادِ على جون!".

سُمع في الوقت ذاته صوت المحتشدين ـ الذي كانت تنصت إليه بدلاً من الانتباه لكلمات مارغريت ـ خارج السور مصحوباً بصخب متزايد من الحناجر الغاضبة تهدر من وراء الحاجز الخشبي الذي كان يهتز وكأن الحشد المجنون المخفي صنع من أجسادهم كبشاً يستعد للمناطحة، فتراجعوا خطوات إلى الوراء ليعودوا بزخم أقوى مما جعل البوابات القوية ترتج تحت ضرباتهم، كما يهتز القصب أمام الريح.

تجمعت النسوة عند النوافذ مبهوراتٍ بالنظر إلى المشهد الذي أرعبهن. كلهن كن هناك؛ السيدة ثورنتِن، والخادمات، ومارغريت. أما فاني فقد عادت وهي تصرخ في الطابق الثاني وكأن أحداً يطاردها في كل خطوة، وألقت بنفسها على الكنبة في بكاء هستيري. راقبت السيدة ثورنتِن ابنها الذي كان ما يزال في المصنع. خرج من هناك ونظر إلى الأعلى نحو مجموعة من الوجوه الشاحبة ـ ورسم على وجهه ابتسامة شجاعة، قبل أن يقفل باب المصنع. ثم نادى على إحدى الخادمات لتنزل وتفتح الباب الذي كانت فاني قد أقفلته خلفها أثناء جريها المجنون للعودة إلى المنزل. السيدة ثورنتِن ذهبت بنفسها نحو الباب، وكان وقع صوته المعروف الآمر أشبه بطعم الدم للحشد الغاضب في الخارج. حتى هذه اللحظة، كانوا صامتين، لا يتكلمون، يوفرون حتى أنفاسهم لجهودهم المضنية لتحطيم البوابات. أما الآن، وبعد أن سمعوه يتكلم في الداخل،

أطلقـوا صرخـة وحشـية مدوية حتـى إن وجـه السـيدة ثورنـتِن ابيـضّ مـن شـدة الخـوف وهـي تسـبق ابنهـا بالدخـول إلى الغرفـة. دخـل جـون محمـرّ الوجـه قليـلاً، لكـن عينيـه كانتـا تتوهجـان وكأنـه يسـتجيب لنفـير الخطـر، مـع نظـرة مسـتعلية مـن التحـدي عـلى وجهـه جعلتـه نبيـلاً عـلى الأقـل، إن لم تجعلـه وسـيماً. لطالمـا كانـت مارغريـت تخـشى مـن أن تخونهـا شـجاعتها في أي حـدث طـارئ، وأن تُضطـر لأن تثبـت مـا كانـت تخشـاه؛ أن تكـون جبانـة. إلا أنهـا وفي هـذه اللحظـة مـن الخـوف المنطقـي واقـتراب الرعـب، نسـيت مارغريـت نفسـها، ولم تشـعر بـشيء سـوى تعاطـف عميـق بلـغ حـد التململ والاسـتياء.

تقدم السيد ثورنتِن نحوها:

"أنـا آسـف يـا آنسـة هيـل أن تزورينـا في هـذه اللحظـة البائسـة في الوقـت الـذي أخـشى احتـمال أن تتورطـي في أي خطـر يتعـين علينـا أن نواجهـه. أمـي! أليـس مـن المستحسـن أن تدخلـوا إلى الغـرف الخلفيـة؟ لسـت متأكـداً مـن أن يكونـوا قـد شـقوا طريقهـم مـن زقـاق بيـنِز إلى داخـل باحـة الإسـطبل، حتـى وإن لم يفعلـوا، سـتكونون في أمـان هنـاك أكـثر مـن هنـا. اذهبـي يـا جـين!" تابـع حديثـه مخاطبـاً رئيسـة الخـدم التـي ذهبـت وتبعتهـا الأخريـات.

"سـأقف هنـا"، قالـت أمـه. "سـأبقى حيثـما تكـون". وبالفعـل، كان الاحتـماء في الغـرف الخلفيـة عمـلاً لا جـدوى منـه بعـد أن حـاصر المحتشـدون المبـاني الخارجيـة الواقعـة خلـف المنـزل، وراحـوا يطلقـون تهديداتهـم المهينـة. تراجعـت الخادمـات إلى الطابـق العلـوي يبكـين ويصرخـن. رسـم السـيد ثورنـتِن ابتسـامة ازدراء عـلى وجهـه عندمـا سـمع صيحاتهـم. نظـر إلى مارغريـت التـي كانـت تقـف بمفردهـا عنـد النافـذة الأقـرب إلى المصنـع. التمعـت عينـاه. كان لـون خديهـا وشـفتيها قـد اسـتحالا داكنـين. وكأنهـا شـعرت بنظراتـه، التفتـت مارغريـت نحـوه، وسـألته سـؤالاً كان يجـول في خاطرهـا منـذ فـترة مـن الوقـت:

"أين هم العمال المساكين الذين أحضرتهم؟ في المصنع؟".

"أجـل، تركتهـم متجمعـين في غرفـة صغـيرة أعـلى الـدرج، وطلبـت منهـم ألا يخاطـروا

وأن يهربـوا إن سـمعوا أي هجـوم عـلى بوابـات المصنـع. لكنهـم لا يريـدون العـمال، بـل أنـا".

"متى يصل الجنود؟" سألته والدته بصوت منخفض يرتجف.

أخرج ساعته من جيبه بهدوء كعادته، وأجرى بعض الحسابات:

"لنفـترض أن ويليـام انطلـق مـن فـوره عندمـا طلبـت منـه، ولم يضطـر للتملـص منهـم ومراوغتهـم، علينـا أن ننتظـر عشريـن دقيقـة".

"عشرون دقيقة!" قالت والدته وهي تظهر لأول مرة حجم خوفها في نبرة صوتها.

"أغلقـي النافـذة يـا أمـي! حـالاً" صـاح جـون. "لـن تتحمـل البوابـات صدمـة أخـرى مثـل هـذه. أغلقـي النافـذة، آنسـة هيـل".

أغلقـت مارغريـت النافـذة، وذهبـت لتسـاعد السـيدة ثورنـتِن التـي كانـت أصابعهـا ترتعـش خوفـاً.

لسـبب مـا، سـاد الصمـت بضـع دقائـق في الشـارع المخفـي. نظـرت السـيدة ثورنـتِن بقلـق بالـغ إلى وجـه ابنهـا وكأنهـا تسـعى لفهـم هـذا السـكون المفاجـئ مـن جانبـه. كان وجهـه يرسـم خطوطـاً مـن التحـدّي المقـترن بالاحتقـار، ولا يمكـن أن تقـرأ فيـه خوفـاً أو أمـلاً.

نهضت فاني:

"هل ذهبوا" سألت بصوت هامس؟

"ذهبوا!" أجابها. "أنصتي!".

أنصتـت فـاني؛ سـمع الجميـع صـوت تحطـم كبـير؛ طقطقـة الخشـب وهـو ينهـار ببـطء، التـواء الحديـد، والسـقوط الهائـل للبوابـات العملاقـة. وقفـت فـاني تتأرجـح في مكانهـا، ثـم خطـت خطـوة أو خطوتـين نحـو أمهـا وسـقطت بـين ذراعيهـا مغشـياً عليهـا. حملتهـا السـيدة ثورنـتِن بقـوة لا تقـل عـن قـوة الإرادة والجسـد، وأخذتهـا بعيـداً. "حمـداً للـه!" قـال السـيد ثورنـتِن وهـو يتابـع والدتـه تخـرج. "أليـس مـن الأفضـل لـك أن تذهبـي إلى الطابـق العلـوي، يـا آنسـة هيـل؟".

افترّت شفتا مارغريت عن كلمة "لا"، لكنه لم يستطع سماعها بسبب جلبة خطواتٍ لا يحصى عددها كانت تضج تحت جدار المنزل مباشرة، والزمجرة الهادرة لأصوات عميقة منخفضة كان لها دمدمة شرسة يخالطها شعور بالرضى، كانت كلها مرعبة أكثر من صرخاتهم المكبوتة التي كانوا يطلقونها قبل عدة دقائق.

"لا بأس!" قال السيد ثورنتِن في محاولة منه لتشجيعها. "أنا جد آسف لأنك مضطرة لأن تُحشري في هذا الخطر، لكنه لن يستمر طويلاً، دقائق أخرى وسيصل الجنود".

"يا إلهي!" صاحت مارغريت فجأة، "هذا باوتشر. أعرف وجهه، وإن كان ممتقعاً بالغضب، إنه يصارع للوصول إلى المقدمة، انظر! انظر!"

"من يكون باوتشر؟" سأل السيد ثورنتِن ببرود، وهو يقترب من النافذة ليستكشف الرجل الذي أثار اهتمام مارغريت. وحالما لمح الحشد السيد ثورنتِن، بدأوا بالصراخ، وإطلاق النعوت أقلها سوءاً قولهم إنه ليس إنساناً. كانت أشبه برغبة شيطانية لوحش مفترس يسعى إلى طعام مُنع منه. تراجع السيد ثورنتِن مصدوماً بشدة الكراهية التي أثارها.

"دعيهم يصرخون!" قال لها. "في غضون خمس دقائق أخرى... آمل ألا تفزع هذه الضجة المتوحشة الأيرلنديين المساكين وتخرجهم عن طورهم. حافظي على شجاعتك لخمس دقائق، يا آنسة هيل".

"لا تخف علي"، أجابته بسرعة. "لكن ما الذي سيحدث خلال خمس دقائق؟ ألا يمكنك أن تفعل شيئاً لتهدئة هذه المخلوقات البائسة؟ أنه لأمر مريع أن تراهم على هذه الحال".

"سيصل الجنود في الحال، وهذا سيعيدهم إلى المنطق".

"المنطق!" قالت مارغريت بسرعة. "أي نوع من المنطق؟".

"المنطق الوحيد الذي ينفع مع رجال حوّلوا أنفسهم إلى وحوش مفترسة. يا إلهي! لقد توجهوا نحو باب المصنع!"

"سـيد ثورنـتِن"، قالـت مارغريـت وهـي ترتجـف مـن شـدة الانفعـال، "انـزل إليهـم علـى الفـور، إن لم تكـن جبانـاً. انـزل وواجههـم كرجـل. أنقـذ الغربـاء المسـاكين الذيـن اسـتدرجتهم إلى هنـا. تحـدث إلى عمالـك عـلى أنهـم بـشر، تحـدث إليهـم بلطـف. لا تـدع الجنـود يدخلـون ويصرعـون أناسـاً فقـراء دُفـع بهـم إلى الجنـون. وأرى واحـداً بينهـم هنـاك. إنْ لديـك شيء مـن الشـجاعة والنبالـة، اخـرج وتحـدث معهـم رجلاً لرجل".

اسـتدار نحوهـا ونظـر إليهـا وهـي تتكلـم. غطـت وجهـه غمامـة عاتمـة، وشـد عـلى أسـنانه وهـو يسـمع كلماتهـا.

"سـأذهب إليهـم، لكنـي ربمـا سـأطلب منـك أن ترافقينـي إلى أسـفل الـدرج، لتقفـلي البـاب بالمـزلاج خلفـي، أمـي وأختـي يحتاجـان للحمايـة".

"سيد ثورنتِن! لا أدري...قد أكون مخطئة...أنا فقط...".

لكنـه كان قـد ذهـب عـلى الـدرج في الصالـة، وفتـح البـاب الأمامـي. كل مـا كانـت تسـتطيع فعلـه هـو أن تلحـق بـه بسرعـة، وتقفـل البـاب وراءه، وتصعـد عـلى الـدرج ثانيـة بقلـب مهمـوم ورأس يـدور. عـادت مجـدداً إلى مكانهـا بالقـرب مـن أبعـد نافـذة. كان عـلى الـدرج في الأسـفل؛ رأت ذلـك في توجـه ألـف عـين غاضبـة، لكنهـا لم تسـتطع أن تسـمع أو تـرى أي شيء يهـدئ النشـوة الوحشـية للهمهـمات الغاضبـة المتصاعـدة. فتحـت النافـذة عـلى مصراعيهـا. كان العديـد مـن المحتشـدين مجـرد صبيـة، لئيمـين بـلا تفكـير؛ كانـوا كذلـك لأنهـم بـلا تفكـير، ومعهـم بعـض الرجـال النحيلـين كالذئـاب الهائجـة بحثـاً عـن فريسـة. كانـت تـدرك كيـف كان الوضـع، إنهـم مثـل باوتـشر، لديهـم أطفـال يموتـون جوعـاً في المنـزل، وينتظـرون نجـاح الإضراب للحصـول عـلى أجـر أعـلى، واستشـاطوا غضبـاً عندمـا اكتشـفوا أنـه جـيء بعـمال أيرلنديـين ليسرقـوا مـن صغارهـم لقمـة الخبـز. كانـت مارغريـت عـلى معرفـة بـكل ذلـك، فقـد قرأتـه في وجـه باوتـشر، اليائـس التعيـس والممتلـئ بالغضـب. لـو أن السـيد ثورنـتِن يقـول شـيئاً لهـم، أو يدعهـم يسـمعون صوتـه فحسـب، ربمـا بـدا الأمـر أفضـل مـن هـذا الـصراخ والضجيـج مقابـل الصمـت المتحجـر الـذي لا يمنحهـم كلمـة

واحـدة، غضبـاً أو لومـاً. لكنـه ربمـا كان يتكلـم الآن، إذ كان هنـاك هـدوء للحظـة لم يكـن واضحـاً مثـل مـا يصـدر عـن قطيـع مـن الحيوانـات. خلعـت قبعتهـا، وانحنـت للأمـام كي تسـمع. إلا أنهـا لم تـر، وإن حـاول السـيد ثورنـتِن بالفعـل الـكلام، سـوى أن لحظـة اسـتعدادهم للاسـتماع إليـه ولـت ومضـت، وأن غضـب النـاس وهياجهـم بـات أكـثر سـوءاً مـن قبـل. وقـف السـيد ثورنـتِن طاويـاً ذراعيـه، صامتـاً كتمثـال، ووجهـه يمتقـع بانفعـال مكبـوت. كانـوا يحاولـون اسـتفزازه، لجعلـه يهتـز ويتراجـع، وكان كل واحـد منهـم يشـجع الثـاني عـلى القيـام بتـصرف عنيـف. شـعرت مارغريـت تلقائيـاً أن الوضـع سـيتحول إلى فـوضى في لحظـة واحـدة، وأن أول احتـكاك سـيؤدي إلى انفجـار سـتكون فيـه حيـاة السـيد ثورنـتِن في خطـر، وسـط المئـات مـن الرجـال الغاضبـين والصبيـة الطائشـين عندمـا تتجـاوز انفعالاتهـم العاصفـة المضطربـة حدودهـا لتحطـم كل موانـع العقـل والمنطـق، أو حتـى الخـوف مـن العواقـب والتداعيـات. وعندمـا نظـرت إلى المحتشـدين، لمحـت فتيـة في الخلـف ينحنـون فـوق الأرض ليلتقطـوا قطعـاً خشـبية ثقيلـة كمقذوفـات جاهـزة للإطـلاق، لتكـون الـشرارة التـي تشـعل برميـل البـارود، كـما توقعـت. وبصرخـة لم يسـمعها أحـد، اندفعـت خـارج الغرفـة، ونزلـت الـدرج، ورفعـت مـزلاج البـاب الحديـدي بقـوة جبـارة، وفتحـت البـاب، وأصبحـت هنـاك في مواجهـة بحـر مـن الرجـال الغاضبـين وعيناهـا تضربهـم بسـهام التقريـع واللـوم الملتهبـة. التصقـت المقذوفـات بأيـدي حامليهـا، واعتـلى الارتبـاك والحـيرة وجوهـاً كانـت قبـل دقيقـة تمتلـئ عزمـا وتصميـماً، وكأنهـم يتسـاءلون عـن مغـزى هـذا الموقـف الـذي وضـع مارغريـت حاجـزاً بينهـم وبـين عدوهـم. لم تسـتطع الـكلام، لكنهـا مـدت ذراعيهـا نحوهـم، ورفعـت يديهـا في وجوههـم، إلى أن اسـتطاعت اسـتعادة أنفاسـها:

"لا داعـي للعنـف! إنـه رجـل واحـد وأنتـم كـثر". إلا أن كلماتهـا اختفـت، إذ افتقـدت للنـبرة في صوتهـا الـذي لم يكـن سـوى همـس أجـش. انتحـى السـيد ثورنـتِن جانبـاً كي لا يكـون خلفهـا مبـاشرة، وكأنـه لا يـرضى بـأن يحـول أي شيء بينـه وبـين الخطـر. "اذهبـوا!" قالـت، مـرة أخـرى (بـدا صوتهـا هـذه المـرة أشـبه بالبـكاء). "الجنـود قادمـون. اذهبـوا بسـلام، ابتعـدوا! سـيتم حـل شـكاويكم أيـا كانـت".

"وهل سيعود الأوغاد الأيرلنديون من حيث جاؤوا؟" سأل أحد المحتشدين بنبرة لا تخلو من التهديد.

"أبداً، لا آخذ أوامر منك!" قال السيد ثورنتِن. وفي الحال هبت العاصفة، وعلا الصراخ ليملأ المكان، إلا أن مارغريت لم تسمع شيئاً. كانت عيناها مسمرتين على مجموعة الفتية الذين تسلحوا بالقطع الخشبية. رصدت تحركاتهم، وعرفت معناها، ونواياها. قد يتعرض السيد ثورنتِن للضرب في أي دقيقة أخرى. هي من توسلته وشجعته على النزول إلى الخطر، وهي من كانت تحسب أنها تستطيع إنقاذه وحمايته. طوقته بذراعيها، وجعلت من جسدها الدرع الذي يقيه من الناس الغاضبين، لكنه سرعان ما ابتعد عنها.

"ابتعدي"، قال لها بصوت عميق. "هذا ليس مكانك".

"بلى إنه مكاني"، قالت له. "لم تر الذي رأيته". إن كانت تظن أن جنسها سيكون حامياً لها، وإن كان هناك أي أمل في عينيها اللتين أشاحتهما بعيداً عن غضب هؤلاء الرجال، لكان من المفترض أن يتوقفوا ويفكروا، ويبتعدوا. لكنها كانت مخطئة. فطيش انفعالاتهم وغضبهم ساقهم بعيداً من أي احتمال للتراجع، أو على الأقل البعض منهم، لاسيما الفتية المتوحشون، بحبهم للإثارة، الذين تسيدوا حالة الشغب مدفوعين بعدم اكتراثهم لسفك الدماء أيًّا كانت. أزَّت قطعة خشبية وهي تنطلق في الهواء. راقبت مارغريت بعينيها المفزوعتين مسارها الذي أخطأ الهدف، فكاد يغمي عليها من الخوف من دون أن تتزحزح من مكانها لكنها أخفت وجهها في ذراع السيد ثورنتِن، ثم التفتت وقالت مرة أخرى:

"بحق الله! لا تدمروا قضيتكم بهذا العنف. إنكم لا تدركون ماذا تفعلون". حاولت جاهدة أن تجعل صوتها واضحاً مسموعاً.

وفجأة، طارت حجر حادة بالقرب منها وأصابت خدها وجبهتها، فرأت وميضاً يلمع أمام عينيها. ارتمت بلا حراك على كتف السيد ثورنتِن. بسط إحدى ذراعيه، وأحاطها بالأخرى.

"أحسنتم فعلاً" قال السيد ثورنتِن. "جئتم تطردون غريباً بريئاً. اجتمعتم

بالمئات على رجل واحد. وعندما وقفت امرأة أمامكم، تطلب منكم من أجل مصلحتكم أن تكونوا مخلوقات عاقلة، أنزلتم غضبكم الجبان عليها! أحسنتم صنعاً". خيم الصمت عليهم وهو يتكلم. كانوا يراقبون بأعين مفتوحة وأفواه فاغرة خيط الدم الغامق الذي أيقظهم من سكرة الغضب. انسل أولئك الذين كانوا أقرب إلى البوابات بعيداً، يعتريهم الخجل. سرت بين المحتشدين حركة تدل على انسحابهم. وصاح أحدهم بأعلى صوته:

"أنت من كنت المقصود بذاك الحجر، لكنك اختبأت خلف امرأة".

وضعها على الجدار عند عتبة الباب بكل رفق، وأسند رأسها على الباب.

"هل يمكنك أن تستريحي هناك" سألها. لكنه لم ينتظر جوابها، ونزل على الدرج بتمهل إلى وسط المحتشدين. "اقتلني الآن لترضي رغبتك الوحشية. لا امرأة تحميني هنا. يمكنك أن تضربني حتى الموت، لكنك لن تحركني قيد أنملة عما صممت عليه، لست أنت من يجبرني على ذلك!". وقف بينهم وقد طوى ذراعيه، في الوضعية نفسها التي كان عليها عندما كان واقفاً على درجات السلم.

بيد أن حركة التراجع والانسحاب كانت قد بدأت بلا أي تفكير، وربما بشكل أعمى، كما بدأ غضبهم. أو لعل فكرة اقتراب وصول الجنود، ومنظر ذلك الوجه الشاحب المائل بعينيه المغمضتين، ساكناً حزيناً مثل قطعة رخام والدموع تنبجس من تشابك الرموش الطويلة، وينهمر معها ما هو أثقل وأبطأ جرياناً من الدمع خيطٌ من الدم النازف من جرحها المفتوح. حتى أشدهم يأساً، باوتشر نفسه، تراجع وانسحب مغادراً وهو يكيل الشتائم ويصب اللعنات على سيده الذي وقف بثبات يراقب تراجعهم بعينين مليئتين بالتحدي. وعندما انقلبت حركة التراجع إلى الجري هرباً من المكان (بوصفه جزءاً متأصلاً في طبيعتهم)، سارع السيد ثورنتِن إلى مارغريت التي حاولت أن تنهض من دون أن تستعين به.

"لا شيء خطير" قالت له بابتسامةٍ شاحبة. "مجرد خدش، وقد فوجئت لحظتها. حمداً لله إنهم ذهبوا". وبدأت تبكي من دون توقف.

لم يستطع أن يتعاطف معها، فغضبه كان لا يزال متواصلاً، بل ويزداد حدة كلما

كان إحساسه بالخطر الوشيك يبتعد تدريجياً. سُمع صوت الجنود يصلون إلى المكان متأخرين أكثر من خمس دقائق عن واجبهم في تلقين الغوغاء الهاربين معنى الشعور بهيبة السلطة والنظام. كان يأمل أن يرى الهاربون الجنود ويرتدعوا من أنهم نفدوا بأعجوبة هذه المرة. وبينما كانت تراوده هذه الأفكار، تمسكت مارغريت بعمود الباب لتوازن نفسها، لكن الغشاوة داهمت عينيها. وصل إليها في الوقت المناسب ليمسك بها. "أمي، أمي!" صاح بأعلى صوته؛ "انزلي، لقد رحلوا، الآنسة هيل أُصيبت". حملها إلى غرفة الضيوف، ووضعها على الكنبة وهو يتمعن في وجهها الأبيض النقي، وتدافع شعوره بما تعنيه بالنسبة إليه بقوة جعلته يبوح به في ألمه:

"مارغريت يا فتاتي! لا أحد يستطيع أن يصف ما أنت بالنسبة إليَّ! ميتة... باردة وأنت مستلقية هناك، أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي! يا مارغريت". كان يغمغم محدثاً نفسه بالأنين بدلاً من الكلمات وهو يجثو إلى جانبها. شعر بالخجل من نفسه، فنهض على قدميه، حالما دخلت والدته إلى الغرفة. لم ترَ شيئاً سوى ابنها الذي بدا أكثر شحوباً، وتجهماً من المعتاد.

"لقد أصيبت الآنسة هيل، يا أمي. حجر جرح صدغها، وللأسف فقدت كمية كبيرة من الدم".

"تبدو إصابتها بليغة، حتى إني أكاد أحسبها فارقت الحياة". قالت السيدة ثورنتِن بقلق شديد.

"لقد أُغمي عليها فحسب، لقد تكلمت معي". كان دمه يندفع إلى قلبه وهو يتكلم، وجسده يرتعش.

"اذهب ونادِ على جين التي تستطيع أن تجد لي ما أريد، وهلاً ذهبت إلى جماعتك الأيرلنديين الذين يصرخون ويبكون وكأنهم جُنُّوا من الخوف؟". ذهب السيد ثورنتِن وكأن أثقالاً قيدت كل طرف حمله بعيداً عنها. استدعى جين، ونادى على شقيقته. لا بد أن تحظى برعاية نسائية، وبكل عناية لطيفة. لكن كل شيء في داخله كان ينبض وهو يتذكر كيف نزلت ووضعت نفسها في خطر

داهـم. هـل فعلـت ذلـك مـن أجـل إنقـاذه؟ حينـذاك دفعهـا جانبـاً، وتحـدث إليهـا بفظاظـة، لكنـه لم يـر شـيئاً سـوى الخطـر غـير المُسـوَّغ الـذي ألقـت نفسـها فيـه. ذهـب إلى الأيرلنديـين، وكل عصـب في داخلـه كان سـعيداً بالتفكـير بهـا، لكنـه وجـد صعوبـة بـأن يفهـم مـا يقولونـه لتهدئـة روعهـم. وهنـاك، صمـم الأيرلنديـون عـلى عـدم البقـاء والعـودة إلى ديارهـم. كان عليـه أن يفكـر، ويتكلـم، ويتحـلى بالمنطـق.

مسـحت السـيدة ثورنـتِن صـدغ مارغريـت بالكولونيـا التـي لم تكـد تمـس الجـرح الـذي لم تنتبـه السـيدة ولا جـين إليـه، حتـى فتحـت مارغريـت عينيهـا وإن بـدا واضحـاً أنهـا لم تكـن تـدري أيـن هـي، ومـن تكـون هاتـين المرأتـين. غـار البؤبـؤان، وارتعشـت، وتقلصـت شـفتاها ثـم غابـت عـن الوعـي مـرة أخـرى.

"لقـد تلقـت ضربـة رهيبـة"، قالـت السـيدة ثورنـتِن. "هـل هنـاك أحـد يمكنـه أن يذهـب لإحضـار الطبيـب؟"

"ليـس أنـا، يـا سـيدتي، أرجـوك"، قالـت جـين وهـي تتراجـع إلى الخلـف. "ربمـا لا يزالـون في الخـارج؛ لا أظـن أن الجـرح عميـق كـما يبـدو".

"لـن أجـازف. لقـد أصيبـت في منزلنـا. إذا كنـت جبانـة يـا جـين، فأنـا لسـت كذلـك. أنـا سـأذهب".

"أرجـوك يـا سـيدتي، دعينـي أرسـل أحـد رجـال الشرطـة. جـاء العديـد منهـم إلى هنـا، والجنـود أيضـاً".

"أنـت مـن تخافـين الذهـاب! لـن أضيـع وقتهـم بمـا يتوجـب علينـا نحـن أن نقـوم بـه. لديهـم عمـل يكفيهـم للقبـض عـلى بعـض المشـاغبين. لـن تخـشي شـيئاً إن بقيـت في المنـزل" سـألتها السـيدة ثورنـتِن بـازدراء"، "اسـتمري بمسـح جبـين الآنسـة، هيـا! لـن أغيـب لأكـثر مـن عـشر دقائـق".

"ألا تستطيع حنة الذهاب، يا سيدتي؟"

"لِمَ حنة أو أي شخص آخر سواك؟ كلا يا جين، إن لم تذهبي، أنا سأذهب".

ذهبـت السـيدة ثورنـتِن أولاً إلى الغرفـة التـي تركـت فيهـا فـاني ممـدّدة عـلى السريـر.

فزعت فاني عندما دخلت أمها.

"كم أفزعتني، يا أمي! ظننت أن رجلاً اقتحم المنزل".

"ما هذا الهراء! ذهب جميع الرجال. الجنود في كل مكان يتابعون عملهم وقد فات الأوان. الآنسة هيل مستلقية على الكنبة في غرفة الضيوف. تعرضت لإصابة شديدة، وأنا ذاهبة لإحضار الطبيب".

"كلا يا أمي، لا تذهبي، سيقتلونك"، وتعلقت بثوب أمها التي انتزعته منها بعنف.

"جِدي لي أحداً آخر يذهب، لكن لا يمكن أن نسمح لهذه الفتاة أن تنزف حتى الموت".

"تنزف! كم هذا مريع! كيف أصيبت؟"

"لا أعلم، لم يتسنَّ الوقت لي لأسأل. اذهبي إليها، يا فاني، وحاولي أن يكون وجودك مفيداً. جين معها الآن، وأنا واثقة أن حالتها أسوأ مما تبدو. رفضت جين مغادرة المنزل، الجبانة! ولن أضع نفسي موضع الرفض على يد خدمي، لذلك أنا ذاهبة بنفسي".

"آه يا عزيزتي، يا عزيزتي!"، قالت فاني وهي تبكي وتستعد للنزول إلى الطابق السفلي بدلاً من البقاء لوحدها، مع التفكير بالجروح والدماء في المنزل.

"جين!" نادت فاني وهي تزحف نحو غرفة الضيوف، "ما الأمر؟ كم تبدو شاحبة الوجه؟ كيف أصيبت؟ هل قذفوا حجارة على غرفة الضيوف؟"

بالفعل، كانت مارغريت تبدو شاحبة صفراء الوجه على الرغم من أنها بدأت تستعيد وعيها. لكن الدوخة جعلتها ضعيفة بشكل كبير. كانت واعية للحركة الجارية حولها، والانتعاش من الكولونيا، حيث كانت تتمنى أن يستمر مسح الكولونيا على وجهها من دون توقف. لكنهما عندما توقفتا عن الكلام، لم تستطع فتح عينيها أو أن تتكلم أو تطلب المزيد من الكولونيا، أكثر مما يمكن للناس الراقدين في غيبوبة الموت أن يتحركوا، أو يصدروا صوتاً لوقف الترتيبات

الخاصـة بدفنهـم، وهـم يدركـون تماماً ليـس أفعـال وتصرفـات مـن هـم حولهـم فحسـب، بـل والدوافـع وراء مثـل هـذه التصرفـات.

توقفت جين لتجيب عن سؤال الآنسة ثورنتِن:

"لـو بقيـت في غرفـة الضيـوف أو صعـدت معنـا إلى الطابـق العلـوي، لما أصابهـا أذى، يـا آنسـة، كنـا جميعـاً في الأعـلى وشـاهدنا كل شيء بعيـداً عـن الخطـر".

"أيـن كانـت إذن؟" قالـت فـاني وهـي تقـترب منهـا بعـد أن اعتـادت عـلى منظـر وجـه مارغريت الشـاحب.

"أمام المدخل الأمامي، مع السيد"، قالت جين بطريقة تلمح إلى شيء ما.

"مع جون! مع أخي! وكيف وصلت إلى هناك؟"

"لا يـا آنسـتي، لا يمكننـي القـول"، أجابتهـا وهـي تميـل برأسـها قليـلاً. " سـارة هـي مـن..."

"ما بها سارة؟"، قالت فاني بفضول لا يطيق صبراً.

تذكـرت جـين أن عليهـا أن تواصـل مسـح وجـه مارغريـت بالكولونيـا، وكأن مـا قالتـه أو فعلتـه سـارة ليـس هـو تحديـداً مـا تريـد إعادتـه وتكـراره.

"مـاذا عـن سـارة؟" سـألت فـاني، بحـدة. "لا تتكلمـي بأنصـاف الجمـل، لا أسـتطيع أن أفهمـك".

"حسـناً، يـا آنسـة، بمـا أنـك سـتعرفين بالأمـر عـلى أي حـال، كانـت سـارة في موقـع جيـد للمشـاهدة، عنـد النافـذة التـي تقـع عـلى اليمـين، وهـي تقـول، بـل وقالـت حينـذاك أيضـاً، إنهـا رأت الآنسـة هيـل تطـوق بذراعيهـا عنـق السـيد، وتعانقـه أمـام النـاس جميعـاً".

"لا أصـدق ذلـك"، قالـت فـاني. "أعلـم أنهـا مهتمـة بأخـي، ويمكـن لأي شـخص أن يلاحـظ ذلـك، بـل ويمكننـي القـول إنهـا مسـتعدة لأن تقـدم عينيهـا لـه كي يتزوجهـا، وأنـا أؤكـد لهـا بأنـه لـن يفعـل. لكنـي لا أصـدق أن تبلـغ بهـا الشـجاعة والجـرأة إلى حـد أن تطـوق عنقـه بذراعيهـا".

"يـا للشـابة المسـكينة! إن كانـت تلـك غايتهـا، فقـد دفعـت ثمنـاً غاليـاً. أعتقـد أن

الضربـة أدت إلى صعـود الـدم إلى رأسـها، ولا أظنهـا سـتتعافى مـن ذلـك أبـداً. إنهـا تبـدو جثـة هامـدة".

"أتمنـى أن تعـود أمـي"، قالـت فـاني، وهـي تعـصر يديهـا. "لم يسـبق لي أن بقيـت مـع شـخص ميـت في غرفـة واحـدة".

"مهـلاً، يـا آنسـتي، لم تمـت بعـد، جفناهـا يرتعشـان، ودمـوع رطبـة تسـيل عـلى خدهـا، تكلمـي معهـا، يـا آنسـة فـاني!".

"هل تشعرين بتحسن الآن؟" سألتها فاني بصوت متهدج.

لا جـواب؛ أو أي إشـارة عـلى أنهـا واعيـة لمـا يجـري حولهـا، إلا أن لونـاً ورديـاً باهتـاً عـاد إلى شـفتيها، وإن كان وجههـا لا يـزال في معظمـه شـاحباً.

في هـذه اللحظـة، دخلـت السـيدة ثورنـتِن عـلى عجـل، وبرفقتهـا أقـرب طبيـب عـثرت عليـه. "كيـف حالـك؟ هـل أصبحـت في حـال أفضـل، يـا عزيـزتي؟" بينـما كانـت مارغريـت تفتـح عينيهـا المغلقتـين بغشـاوة، وتنظـر إليهـا نظـرة شـاردة. "هـذا هـو السـيد لـو أتى لـيراك".

تحدثـت السـيدة ثورنـتِن بصـوت مرتفـع وواضـح، وكأنهـا كانـت تتحـدث إلى شـخص أصـم. حاولـت مارغريـت النهـوض، وأن تغطـي الجـرح بشـعرها الجميـل المتشـابك. "أنـا أفضـل الآن"، قالـت بصـوت واهـن. "كنـت دائخـة قليـلاً". تركـت الطبيـب يأخـذ يدهـا، ويتحقـق مـن النبـض. عـاد اللـون المـشرق للحظـة إلى وجههـا عندمـا طلـب أن يفحـص الجـرح فـوق جبينهـا، نظـرت إلى جـين وكأنهـا تنفـر مـن تطفلهـا لا مـن الطبيـب.

"ليس خطيراً، حسب ما أظن. أنا أفضل الآن. يجب أن أعود إلى البيت".

" ليس قبل أن أضع لاصقا على الجرح، وترتاحي قليلاً".

جلست بسرعة من دون أيِّ كلمة، وتركته يضمد الجرح.

"الآن، لـو سـمحتم"، قالـت مارغريـت، "يجـب أن أذهـب. لـن تـرى أمـي الجـرح، كـما أعتقـد، إنـه تحـت الشـعر، أليـس كذلـك؟".

"تماماً، لن يراه أحد"، قال الطبيب.

"لكـن لا يمكنـك أن تذهبـي الآن"، قالـت السـيدة ثورنـتِن بتأفـف. "لسـت في وضـع جيـد".

"بـل يجـب عـلي أن أذهـب"، قالـت مارغريـت بـكل حـزم وتصميـم. "فكـري في أمـي، إن سـمعوا بالأمـر. بالإضافـة أنـه يجـب عـلى أن أذهـب"، قالـت بانفعـال. "لا يمكـن أن أبقـى هنـا. هـل يمكننـي أن أطلـب عربـة أجـرة؟".

"أنت لا تزالين منهكة ومحمومة"، تدخل السيد لو في الحديث.

"لأننـي مـا أزال هنـا، في حـين أرغـب بشـدة الذهـاب. الهـواء الطلـق، الخـروج مـن هنـا، سـيكون أفضـل لي مـن أي شيء آخـر".

"أعتقـد أن مـا تقولـه صحيـح"، أجـاب السـيد لـو. "إن كانـت أمهـا مريضـة جـداً كـما أخبرتِنـي ونحـن في الطريـق إلى هنـا، قـد يكـون الأمـر خطـيراً إن سـمعت أمهـا بالشـغب الـذي حـدث هنـا، ولم تـرَ ابنتهـا التـي تنتظـر عودتهـا إلى المنـزل. الجـرح ليـس عميقـاً. سـأحضر عربـة أجـرة، إن كان لا يـزال خدمـك يخشـون الخـروج من المنزل".

"شـكراً لـك!"، قالـت مارغريـت. "سـيكون ذلـك مفيـداً لي أكـثر مـن أي شيء آخـر. إن هـواء هـذه الغرفـة يجعلنـي أشـعر بالتعاسـة والبـؤس".

جلسـت مسـترخية عـلى الكنبـة، وأغمضـت عينيهـا. نـادت فـاني أمهـا خـارج الغرفـة، وأخبرتهـا شـيئاً جعلهـا حريصـة مثـل مارغريـت عـلى مغـادرة هـذه الأخـيرة. صحيـح أنهـا لم تصـدق تمامـاً مـا قالتـه فـاني، لكنهـا اقتنعـت بصحتـه بمـا يكفـي لأن تكـون طريقـة تعاملهـا مـع مارغريـت أكـثر تحفظـاً وهـي تودعهـا.

عاد السيد لو بعربة الأجرة.

"لـو تسـمحين لي آنسـة هيـل سـأرافقك إلى المنـزل. الشـوارع ليسـت هادئـة وآمنـة بعـد".

كانـت أفـكار مارغريـت قـد أصبحـت حيـة نشـطة في الوقـت الحـاضر لتجعلهـا تتـوق وبشـدة لأن تتخلـص مـن العربـة والسـيد لـو قبـل أن تصـل إلى كرامبـتِن خشـية أن تثـير قلـق والديهـا. ومـا عـدا ذلـك، كان الأمـر سـيان بالنسـبة لهـا. إذ لا يمكـن

نسـيان ذلـك الحلـم الكريـه مـن الكلـمات السـفيهة المهينـة التـي قيلـت عنهـا، وإن كان ممكنـاً وضعـه جانبـاً الآن حتـى تسـتعيد عافيتهـا وتصبـح أقـوى. كانـت تشـعر بضعـف رهيـب، وعقلهـا يبحـث عـن حقيقـة حيـة حـاضرة كي يـوازن بهـا نفسـه، ويتجنـب فقـدان الوعـي في غيبوبـة فظيعـة أخـرى.

أخطاء

لم يكن مضى خمس دقائق على رحيل مارغريت حتى عاد السيد ثورنتِن مشرق الوجه.

"تأخرتُ في العودة؛ مفتش الشرطة سوف...أين هي؟" وجال بناظريه غرفة الضيوف، ثم نظر بغضب نحو والدته التي كانت تعيد بهدوء ترتيب أثاث الغرفة المبعثر، ولم تجب عن سؤاله في الحال.

"أين الآنسة هيل؟" سألها مرة ثانية.

"ذهبت إلى بيتها". أجابته باختصار.

"إلى البيت!"

"أجل، تحسّنت كثيراً. وفي الحقيقة، لا أعتقد أنها تأذت كثيراً. بعض الناس يشعرون بالدوار عند أقل شيء يحدث لهم".

"أشعر بالأسف لأنها ذهبت"، قال وهو يجول الغرفة بقلق. "لم تكن في وضع يسمح لها بالمغادرة".

"هي قالت إنها تستطيع، وكذلك السيد لو، أنا من أحضرته بنفسي".

"شكراً لك، يا أمي" توقف، وهو يمد يده وكأنه يريد أن يصافحها تعبيراً عن شكره وامتنانه، لكن والدته لم تنتبه إلى حركته.

"ماذا فعلت مع الأيرلنديين؟"

"أرسلت إلى مطعم دراغون لإعداد وجبة لهم، المساكين. لحسن حظي، قابلت

الأب غـرادي، وطلبـت منهـم أن يقنعهـم بعـدم المغـادرة معـاً في مجموعـة واحـدة. كيـف ذهبـت الآنسـة هيـل؟ أنـا متأكـد أنهـا لم تكـن قـادرة عـلى المـشي".

"اسـتقلت عربـة أجـرة، وتـمَّ كل شيء عـلى خـير مـا يـرام، حتـى أجـرة العربـة. دعنـا نتحـدث في موضـوع آخـر. لقـد تسـببتْ بمـا يكفـي مـن الـضرر".

"لا أدري أين كنت الآن لولاها".

"وهـل أصبحـت عاجـزاً لتـدع فتـاة تدافـع عنـك؟" سـألته أمـه بنـبرة لا تخلـو مـن التعنيـف والاحتقـار.

احمـرَّ وجهـه. "ليـس هنـاك الكثـير مـن الفتيـات اللـواتي كـن سـيتلقين الضربـة التـي كانـت موجَّهـة إلي عمـداً وعـن سـابق إصرار، كـما فعلـت هـي".

"فتاة عاشقة تفعل الكثير"، قالت السيدة ثورنتِن باقتضاب.

"أمي!". وتقدم نحوها خطوة إلى الأمام، ثم توقف، يغلبه الانفعال والاستياء.

ارتعـدت السـيدة ثورنـتِن مـن القـوة الواضحـة الجليـة التـي اسـتخدمها ابنهـا للمحافظـة عـلى هدوئـه. لم تكـن متأكـدة مـن طبيعـة المشـاعر التـي اسـتفزتها في أعماقـه، وإن كان واضحـاً لهـا عنفهـا. هـل كان ذلـك غضبـاً؟ التمعـت عينـاه، وانتفخـت أوداجـه، واسـتحال تنفسـه كثيفـاً متسـارعاً. إنـه مزيـج مـن الفـرح، والغضـب، والزهـو، والمفاجـأة السـعيدة، والشـك اللاهـث المتعـب؛ لكنهـا أخفقـت في قراءتـه. ورغـم ذلـك، أثـار قلقهـا، فحضـور هـذا الشـعور القـوي الطاغـي، لطالمـا كان لـه مثـل هـذا التأثـير، وإن كان سـببه غـير مفهـوم، أو لا يمكـن تفهمـه. توجهـت إلى خزانـة جانبيـة وأخرجـت مـن أحـد الأدراج منفضـةً كانـت تحتفـظ بهـا عنـد الحاجـة. كانـت قـد لمحـت بقعـة مـن الكولونيـا عـلى مسـند الكنبـة، وأرادت برغبـة جارفـة أن تمسـحها. أدارت ظهرهـا لولدهـا لفـترة أطـول مـن الـلازم، وعندمـا بـدأت بالـكلام، خـرج صوتهـا غريبـاً ومخنوقـاً:

"لا بـد أنـك اتخـذت بعـض الخطـوات بشـأن المشـاغبين، حسـب مـا أظـن؟ لا تتوقـع حـدوث مزيـد مـن العنـف، أليـس كذلـك؟ أيـن كانـت الشرطـة؟ لم نجدهـم عندمـا كنـا بحاجـة إليهـم!".

"على العكس تماماً، شاهدت ثلاثة أو أربعة منهم يضربون ويشتبكون مع المشاغبين عندما حطّموا البوابات، وجاء آخرون عندما بدأوا يخلون الساحة. لو كنت واعياً في تلك اللحظة، لأعطيتهم أسماء العديد من المسئولين عما جرى. لكن الأمر لن يكون صعباً، فهناك عدد كبير من الناس القادرين على التعرف عليهم".

"ألن يعودوا مرة ثانية الليلة؟"

"أنا سأعمل على توفير حراسة كافية على المكان. اتفقت مع النقيب هامبر على لقائه في المخفر في غضون نصف ساعة من الآن".

"يجب أن تشرب الشاي أولاً!".

"أجل، الشاي أولاً! إنها السادسة والنصف الآن، وقد أغيب عن المنزل لفترة طويلة. لا داعي لأن تنتظريني، يا أمي".

"هل تتوقعني ان أذهب إلى النوم قبل أن اطمئن عليك؟"

"حسناً، ربما لا". تردد للحظة. "لكن إن كان لدي وقت كاف، سأعرج على كرامبتِن، بعد أن أضع الترتيبات اللازمة مع الشرطة، وألتقي هامبر وكلاركسِن". تلاقت عيناهما وهما يتبادلان النظر بتمعن لمدة دقيقة، ثم سألته:

"لِمَ ستذهب إلى كرامبتِن؟"

"لأطمئن على حالة الآنسة هيل".

"سأرسل ويليامز الذي سيأخذ السرير المائي الذي جاءت من أجله، وهو سيطمئن على حالتها".

"يجب أن أذهب بنفسي".

"ليس لمجرد الاطمئنان عن الآنسة هيل؟".

"لا، ليس لهذا السبب فحسب. أود أن أشكرها على الطريقة التي وقفت فيها بيني وبين الغوغاء".

"ما الذي دفعك أصلاً للنزول إليهم؟ كنت تضع رأسك في فم الأسد". نظر إليها

بحـدة، وأدرك أنهـا لم تكـن تعلـم بمـا دار بينـه وبـين مارغريـت في غرفـة الضيـوف، ثـم رد عليهـا بسـؤال آخـر:

"هـل تخافـين أن تبقـي وحيـدة مـن دوني إلى أن أحـضر بعـض رجـال الشرطـة، أو أنـه مـن الأفضـل أن نرسـل لهـم ويليامـز الآن ليصلـوا هنـا في الوقـت الـذي نكـون انتهينـا مـن شرب الشـاي. لا وقـت لدينـا لنضيعـه. يجـب أن أذهـب في غضـون ربـع سـاعة".

غـادرت السـيدة ثورنـتِن الغرفـة. دُهـش الخـدم مـن ارتبـاك وتخبـط تعليماتهـا التـي عـادة مـا تكـون دقيقـة وواضحـة ومختـصرة.

بقـي السـيد ثورنـتِن في غرفـة الضيـوف وهـو يحـاول التفكـير في مـا كان يجـب عليـه القيـام بـه في مخفـر الشرطـة، لكنـه في الواقـع كان يفكـر بمارغريـت. بـدا لـه كل شيء غامضـاً وملتبسـاً مـن أمـام، وخلـف، وإلى جانـب لمسـة ذراعيهـا تطوقـان عنقـه بنعومـة، فـراح اللـون العاتـم يتنـاوب عـلى وجهـه ذهابـاً وإيابـاً، وهـو يفكـر بمـا جرى.

كان يمكـن لجلسـة الشـاي أن تنقـضي بصمـت لـولا وصـف فـاني الـذي لم يتوقـف لمشـاعرها، وكيـف فزعـت، وأنهـا ظنـت أنهـم رحلـوا، وكيـف أُغمـي عليهـا وسرت الرجفـة في أوصالهـا.

"كفـى"، قـال أخوهـا، وهـو ينهـض عـن الطاولـة. "الواقـع كـما رأيتـه كان كافيـاً". كان عـلى وشـك مغـادرة الغرفـة عندمـا أوقفتـه أمـه بيدهـا عـلى ذراعـه.

"سـتعود إلى هنـا قبـل أن تذهـب إلى منـزل آل هيـل" قالـت لـه بصـوت منخفـض يعتريـه القلـق.

"أنا أعرف ما أعرف"، قالت فاني لنفسها.

"لماذا؟ هل سيكون الوقت متأخراً لزيارتهم، وبالتالي أن أزعجهم؟"

"جـون، عـد لي هـذه الليلـة فقـط. سـيكون الوقـت متأخـراً بالنسـبة إلى السـيدة هيـل، لكـن ليـس هـذا هـو الأمـر المهـم. غـداً يمكنـك... عـد الليلـة يـا جـون!". قلـما توسـلت لـه، كان اعتزازهـا وكبرياؤهـا يمنعانهـا مـن ذلك.

"سـأعود مبـاشرة بعـد أن انتهـي مـن عمـلي. ويجـب عليـك أن تطمئنـي عليهـم... عليها".

لم تكن السيدة ثورنتِن رفيقاً ثرثاراً مع فاني، ولا مستمعاً جيداً عندما يكون ابنها غائباً. لكن عند عودته، كانت عيناها وأذناها مشدودتين لتسمع وترى كل التفاصيل التي بإمكانه أن يقدمها، بما فيها الإجراءات التي سيتخذها لحماية نفسه، وأولئك الذين اختارهم للعمل لديه، ومنع تكرار ما جرى اليوم. كان يرى هدفه بوضوح. العقاب والمعاناة كانا النتيجة الطبيعية لأولئك الذين شاركوا في أعمال الشغب. كل ذلك كان ضرورياً، من أجل حماية الممتلكات بحيث تتوافق الغاية مع إرادة المالك واضحة حادة كما السيف.

"أمي! أتعلمين ما يتوجب علي قوله للآنسة هيل غداً؟" فاجأها السؤال وهي في فترة من الصمت كانت نسيت خلالها مارغريت.

نظرت إليه ملياً

"أجل أعلم، إذ لا يمكنك أن تفعل خلاف ذلك؟"

"أفعل ماذا! أنا لا أفهمك".

"أقصد أنه، بعد أن فسحت المجال أمام مشاعرها كي تتغلب عليها، أرى أنك بتَّ ملزماً بشرف...".

"ملزم بشرف"، قال بازدراء. "أخشى أن الشرف لا علاقة له بالأمر". "غلبتها مشاعرها!". "أي مشاعر تعنين؟"

"لا داعي للغضب يا جون. ألم تندفع للنزول إليك، وتطوقك بذراعيها لتحميك من الخطر؟"

أجل، فعلت" أجابها. "لكن يا أمي"، توقف في مشيته خطواتٍ قبل أن يصل إليها، ووقف قبالتها، "لا آمل في شيء. لم أكن ضعيف القلب من قبل، لكني لا أعتقد أن هذه الفتاة تهتم بي".

"لا تكن مغفلاً يا جو، هذه الفتاة! لِمَ لا، من يسمعك تتحدث عنها، يظن أنها ابنة دوق. أي دليل تريده أوضح مما رأيت عن إعجابها بك؟ أنا واثقة أنك تعاني مشكلة مع طريقتها الارستقراطية المتعالية في النظر إلى الأمور، لكنها

أعجبتني لأنها أخيراً رأت بوضوح. وهذا أمر ليس من السهل علي أن أقوله"، قالت السيدة ثورنتِن وهي تبتسم على مهل، والدموع تتجمد في عينيها؛ "لأنه بعد هذه الليلة، أصبحتُ بالمرتبة الثانية. اعتدت أن تكون لي وحدي، لكن وبعد ساعات، أصبحت أتوسل إليك لو تؤجل زيارتك إليها إلى الغد!".

"أمي، يا أعز الناس!" (يبقى الحب أنانياً، ففي لحظة عاد إلى آماله ومخاوفه على نحوٍ رسم ظلاً بارداً على قلب السيدة ثورنتِن). "لكني أدري بأنها لا تكترث بي. سأضع نفسي عند قدميها، يجب، وسأفعل ذلك ولو لم يكن أمامي سوى فرصة واحدة من ألف، أو مليون".

"لا تخف!" قالت أمه وهي تخفي شعورها بالإهانة لتجاهله الجيشان النادر لمشاعر الأمومة، وغيرتها التي فضحت شدة حبها الذي لا يعيره اهتماماً. "لا تخف، يا جون"، قالت ببرود، وهي تقبله وتتمنى له ليلة طيبة. غادرت الغرفة على مهل بجلالة مهيبة، لكنها ما إن وصلت إلى غرفتها، حتى أقفلت على نفسها الباب، وجلست تذرف دمعاً نادراً ما ينهمر من عينيها.

دخلت مارغريت الغرفة (حيث كان أبوها وأمها جالسين، يتحدثان بصوت منخفض) وهي تبدو شاحبة. اقتربت منهما قبل أن تجد في نفسها الثقة بالتحدث إليهما:

"السيدة ثورنتِن سترسل السرير المائي، يا أمي".

"كم تبدين متعبة! هل الجو حار إلى هذه الدرجة يا مارغريت؟"

استعادت مارغريت نضارة وجهها وحيويته، لكنها سرعان ما اختفت على الفور.

"وصلتك رسالة من بيسي هيغينز تطلب منك أن تذهبي إليها" قالت السيدة هيل. "لكني واثقة بأنك متعبة جداً".

"أجل" قالت مارغريت. "أنا متعبة، لا أستطيع الذهاب".

بقيت صامتة ترتجف وهي تُعد الشاي. حمدت الله لأن والدها كان منشغلاً برعاية والدتها، ولم ينتبه إلى ملامحها. حتى بعد أن ذهبت والدتها إلى السرير، لم يفارقها وظل إلى جانبها يقرأ لها كي تنام. باتت مارغريت بمفردها.

"والآن سـأفكر بمـا جرى...سـأتذكر كل شيء. لم يكـن بمقـدوري أن أفعـل ذلـك مـن قبـل، بـل لم أكـن أجـرؤ". جلسـت سـاكنة في كرسـيها ويداهـا متشـابكتان فـوق ركبتيهـا، وعيناهـا شـاخصتان كمـن يشـاهد رؤيـا. أخـذت نفسـاً عميقـاً.

"أنـا، مـن يكـره الاسـتعراض...أنا، مـن يحتقـر النـاس عندمـا يظهـرون عواطفهـم، ومـن يطالبهـم أن يسـيطروا عـلى أنفسـهم، أنـزل وأرمـي نفـسي في المعمعـة، مثل رومانسـية حمقـاء! هـل مـا فعلتـه كان مفيـداً؟ لـولاي، ربمـا كانـوا ذهبـوا أبعـد مـن ذلـك". لكـن هـذا الخاطـر كان شـطحة تتجـاوز الاسـتنتاج المنطقـي، كـما أجابهـا تفكيرهـا العقـلاني في الحـال. "ربمـا مـا كان لهـم أن يذهبـوا بعيـداً. إذاً قمـت بعمـل مفيـد. لكـن مـا الـذي دهـاني كي أدافـع عـن الرجـل كـما لـو كان طفـلاً عاجـزاً! آه مـاذا فعلـت!" قالـت مارغريـت وهـي تعـصر يديهـا، "لا عجـب أن أولئـك النـاس يظنـوني مغرمـة بـه، بعـد أن أهنـت نفـسي عـلى ذلـك النحـو. أنـا مغرمـة! وبـه أيضـاً!". وفجـأة شـعرت بخديهـا يتقـدان نـاراً، فغطـت وجههـا بكلتـا يديهـا، وعندمـا أبعدتهـما، وجدتهـما مبللتـين بدمـوع حارقـة.

"إلى أي مسـتو وضيـع سـقطت حتـى يقولـوا عنـي مـا يقولـون! مـا كنـت لأتحـلى بتلـك الشـجاعة مـن أجـل أي شـخص آخـر، فقـط لأنـه كان لا يعنـي لي شـيئاً البتـة، إن كنــت ـ فعــلاً ـ لا أكرهــه. مــا جعلنــي أكـثر حرصـاً وقلقـاً هــو شــعوري بــأن تكـون المواجهـة عادلـة بـين الجانبـين، وقـد شـاهدت كيـف كان العـدل. لم يكـن الأمـر منصفـاً"، قالـت مارغريـت بحماسـة، "أن يقـف هنـاك محميـاً، ينتظـر الجنـود الذيـن قـد يصطـادون أولئـك المسـاكين الذيـن فقـدوا عقولهـم وكأنهـم في مصيـدة، مـن دون أن يحـرك سـاكناً مـن جانبـه في أن يعيدهـم إلى رشـدهم. والأسـوأ مـن هـذا الظلـم أن يحاولـوا أيضـا التعـدي عليـه كـما هـددوا. لـن أتـوانى عـن تكـرار مـا فعلـت، وليقولـوا مـا يحلـو لهـم عنـي. إن كنـت قـد نجحـت بـأني منعـت ضرراً، غضبـاً قاسـياً شريـراً كان يمكـن أن يقـع، عندئـذٍ قمـت بمـا تفعلـه أي امـرأة. دعهـم يكيلـون الإهانـات لكبريـائي العـذري كـما يريـدون، سـأبقى طاهـرة أمـام اللـه".

نظـرت إلى الأعـلى، وبـدا مـا يشـبه الطمأنينـة النبيلـة تهبـط عـلى وجههـا حتـى أصبـح "هادئـاً أكـثر مـن نحـت رخامـي".

دخلت ديكسِن عليها:

"آنسة مارغريت، لو سمحت، ها هو السرير المائي من السيدة ثورنتِن. لكن الوقت متأخر جداً الليلة، للأسف، فسيدتي نائمة، لكنه سيكون مفيداً لها غداً".

"حسناً"، قالت مارغريت. "يجب عليك أن ترسلي لهم جزيل شكرنا".

غادرت ديكسِن الغرفة دقيقة واحدة.

"عفواً يا آنسة هيل، قال لي إنه يريد أن يسأل عن صحتك تحديداً. أظن أنه يقصد السيدة، لكنه أكد لي بأنهم طلبوا منه أن يطمئن على الآنسة هيل".

"عني أنا"، أجابت مارغريت، وهي تتمالك نفسها. "أنا بخير. قولي له إني في أحسن حال". غير أن بشرتها كانت شاحبة بيضاء مثل منديلها، وكان رأسها يؤلمها بشدة.

دخل السيد هيل الذي كان قد ترك زوجته نائمة، وأراد، كما تبين لمارغريت، التسلية وكان مهتماً بشيء ما تود أن تخبره به. ومع ذلك الصبر الجميل الذي تحملت به ألمها من دون كلمة شكوى؛ والعدد الذي لا يحصى من الموضوعات التي راحت تفتش فيها عن حديث ما، ما عدا حادثة الشغب، لم تستطع أن تجد شيئاً واحداً تتحدث فيه.

"تصبحين على خير، يا مارغريت. لدي فرصة طيبة لأقضي ليلة هانئة، وأنت تبدين شاحبة جداً بسبب السهر على والدتك. سأنادي على ديكسِن إن احتاجت أمك شيئاً. اذهبي إلى سريرك ونامي بعمق، فأنا واثق بأنك بحاجة ماسة للنوم، يا طفلتي العزيزة!".

"تصبح على خير، يا أبي".

استسلمت لتعبها وتركت نضارتها ولون وجهها يغيبان، ولتلك الابتسامة التي رسمتها قسراً على شفتيها أن تختفي، وباتت عيناها مثقلتين بالألم، وأعفت إرادتها من عملها المضني. وما إن أطل الصباح، كان إحساسها بالمرض والتعب قد غلبها.

استلقت في سريرها من دون حراك. كان مجرد تحريك قدم أو يد، أو حتى أصبع واحدة، مجهوداً يفوق قدرة التصميم أو الحركة. كانت متعبة، مصدومة، حتى تخيل لها بأنه لم يغمض لها جفن تلك الليلة، إذ عاودتها تلك الأفكار المحمومة تتناوب في تنقلها بين حدود اليقظة والنوم، محافظة على ملامحها المزرية. لم يكن بمقدورها أن تختلي بنفسها منهكة، عاجزة كما هي. كوكبة من الوجوه راحت تنظر إليها وتشحذ خيالها بغضب عارم لا حدود له، أو بالشعور بالخطر. بيد أن إحساساً عميقاً بالخزي والعار من أن تكون موضع تلصص العالم بأسره، إحساسٌ بلغ من القسوة حتى بدا وكأنها كانت تفضل أن تجد حفرة في الأرض تختبئ فيها، ومع ذلك لم تجد لنفسها مفراً من تلك العيون المفتوحة على اتساعها ولا يرفُّ لها جفنٌ وهي تواصل التحديق فيها.

تصحيح الأخطاء

في صباح اليوم التالي، حمدت مارغريت الله على انقضاء تلك الليلة وهي تجر نفسها جرّاً من السرير، وتشعر بالراحة، وإن كانت لم تستعد نشاطها بعد. كل شيء في المنزل سار على ما يُرام؛ فوالدتها لم تستيقظ سوى مرة واحدة. نسمة لطيفة كانت تتحرك في الجو الحار. وعلى الرغم من أن لا أشجار تُظهر حركة تمايل الأوراق بفعل الريح، أدركت مارغريت في داخلها كيف أن هناك في مكان ما بين الشجيرات، والغابة الخضراء المتشابكة، صوتاً مرحاً راقصاً يدمدم، وضجة تعلو وتنخفض، كان مجرد التفكير فيها أشبه بصدىً فرِحٍ بعيد يتردد في أعماق قلبها.

جلست مارغريت في غرفة السيدة هيل تعمل على تطريز قطعة من القماش. وحالما تصحو والدتها من قيلولتها قبل الظهر - ستساعدها على تغيير ملابسها بعد الغداء، وتذهب للقاء بيسي. ستطرد من رأسها ذكرى آل ثورنتِن؛ لا داعي للتفكير بهم حتى تراهم أمامها شحماً ولحماً. لكن محاولتها لعدم التفكير بهم، كانت تفرض عليها حضورهم في مخيلتها بقوة أكبر، بين الحين والآخر. اندفع الدفق الحار المتوتر في وجهها ليحوله إلى لون أحمر، كما يبزغ شعاع الشمس من بين سحابتين مُمطرتين ليسطع برشاقة فوق أمواج البحر.

فتحت ديكسِن الباب برفق، وتسللت على رؤوس أصابعها صوب مارغريت التي كانت تجلس بالقرب من النافذة المظللة.

"السيد ثورنتِن، آنسة مارغريت، في غرفة الضيوف"

وضعت مارغريت قطعة القماش من يديها.

"هل سأل عني؟ ألم يستقبله أبي؟"

"بل يطلب أن يراك، والسيد خرج من المنزل".

"حسناً، أنا قادمة"، قالت مارغريت. لكنها تباطأت على نحو مثيرٍ غريب. وقف السيد ثورنتن بجانب إحدى النوافذ وظهره إلى الباب، منشغلاً على ما يبدو بمراقبة شيء ما كان يجري في الشارع. لكنه في الحقيقة، كان خائفاً من نفسه. كان قلبه يخفق متثاقلاً بمجرد التفكير في قدومها لمقابلته. لم يستطع أن ينسى لمسة ذراعيها حول عنقه، التي شعر بها حينذاك على نحو لم يكن قادراً على احتماله. أما الآن، فبدت استعادة تلك اللحظة، عندما طوقته بذراعيها دفاعاً عنه، مصدر فرح وسعادة يذيب كل قوةٍ وحزم، وأيَّ قدرة على التحكم بالنفس، وكأنها شمعة تقترب من النار. كان يخشى ملاقاتها بذراعين مفتوحين برجاءٍ صامت، لتسارع هي إلى الاختباء بينهما كما فعلت بلا اكتراث من أحد، قبل يوم واحد، لكن هذه المرة باهتمام ورغبة. خفق قلبه بدقات سريعة مسموعة. رجل قوي مثله يرتجف من محاولة توقعِ ما يجب عليه قوله، وكيف ستتلقى كلامه. قد تتراخى، وتحمرُّ خجلاً، وترفرف بين ذراعيه وكأنها تعود إلى عشها الطبيعي وموطن راحتها. في لحظةٍ، تألق فرحاً لا يطيق انتظاراً وهي يتخيلها على هذا النحو، وفي لحظةٍ أخرى، اعتراه الخوف من رفض منفعل، الفكرة ذاتها التي أيبست مستقبله بكارثةٍ قاتلة رفض حتى مجرد التفكير فيها. التفت إلى الوراء. كانت مارغريت قد دخلت الغرفة بهدوء ورشاقة حتى إنه لم يسمعها، فضجيج الشارع كان واضحاً لأذنيه المنشغلتين أكثر من مشيتها وهي ترتدي فستان الموسلين الناعم الرقيق.

وقفت بجانب الطاولة، من دون أن تعرض عليه الجلوس. كان جفناها مسدلين بنصف إغماضة فوق عينيها، وتباعدت شفتاها قليلاً، فبان خط الأسنان الأبيض من بين انفراجهما. وساعد تنفسها العميق ببطء على استرخاء منخريها الجميلين، وكانت هذه هي الحركة الوحيدة المرئية في تقاسيم وجهها. أما بشرتها الناعمة،

وخداها المكوران، وفمها المكتنز بطرفيه المثبتين بغمازتين، فكانت جميعها شاحبة باهتة اليوم، وما دل أكثر على فقدانها لنضارتها ولونها الطبيعي المعهود، شعرها الداكن الكثيف المنسدل فوق صدغيها ليخفي آثار الضربة التي تلقتها. ورغم ارتخاء عينيها، بقي رأسها متراجعاً إلى الخلف قليلاً في وضعيته المتعالية المعتادة، فيما أسبلت ذراعيها الطويلين جانباً بلا حراك. بدت بمجملها مثل سجين اتُهم زوراً وبهتاناً بجريمة يأنفها ويزدريها، وينغص عليها الحنق والغضب راحة بالها حتى تبرأ نفسها منها.

تقدم السيد ثورنتِن نحوها خطوة أو خطوتين على عجل، ثم تمالك نفسه وتوجه بخطواتٍ ثابتة هادئة نحو الباب (الذي تركته مفتوحاً)، وأغلقه. عاد ليقف قبالتها لدقيقة يتملى حضورها الجميل أمامه، قبل أن يجرؤ على إزعاجه، وربما استفزازه بما كان يجب عليه أن يقوله:

"أنسة هيل، كم كنت شخصاً ناكراً للجميل البارحة...".

"ليس هناك أي شيء يضطرك كي تكون ممتناً لأجله" قالت له، وهي ترفع عينيها وتنظر إليه مباشرة. "إن كنت تقصد، كما أظن، إنه من الواجب عليك أن تشكرني على ما فعلته بالأمس". رغماً عنها، وتحدياً لشعورها بالغضب، امتقع وجهها، وامتدت حرقته إلى عينيها اللتين حافظتا على نظرتهما الرصينة الثابتة. "كانت غريزة طبيعية، وكان لأي امرأة أخرى أن تفعل الشيء ذاته. فنحن ـ النساء ـ نشعر بقداسة جنسنا كامتياز لنا عندما نواجه الخطر. بل أنا من يجب عليه"، تابعت كلامها بسرعة، "أن يعتذر لك لأنني قلت كلماتٍ طائشة أرسلتك إلى قلب الخطر".

"لا، ليست كلماتك من دفعتني إلى الخطر، بل الحقيقة التي قالوها بالقسوة التي عبروا بها عنها. لكنك لن تبعديني لتهربي من تعبيري عن عميق امتناني و..." هنا وصل إلى الحافة، وكان عليه ألا يتسرع في الكلام تعبيراً عن عاطفته الجياشة، كان يجب عليه أن يزن كل كلمة يقولها. وهذا ما حدث بالفعل، وانتصرت إرادته، وتوقف في منتصف الحديث.

"لا أحاول أن أتهرب من أي شيء، ويمكنني أن أضيف أن كل تعبير عنه يزيدني ألماً لأني أشعر بأني لا أستحقه. على أي حال، إن كان هذا سيريحك حتى من التزام مُتخيل، تكلم وقل ما شئت".

"لا أريد أن أُعفى من أي واجب كان"، قال متشجعاً بنبرتها الهادئة. "سواء أكان خيالاً أو حقيقة، لا أطلب من نفسي أن تعرف، فأنا في كلتا الحالتين مقتنع بأني أدين لك بحياتي؛ أجل، ابتسمي، بل إن أردتِ يمكنك أن تحسبيها مبالغة. لكني أنا على ثقة من ذلك لأنه يضيف قيمة على تلك الحياة، يا آنسة هيل!". تابع حديثه وهو يخفض صوته إلى درجة تتفق مع شدة عاطفته التي لم تجد مارغريت مفراً من الارتجاف والارتعاش أمامها، " تلك الحياة التي جاءت ظروفها على هذه الشاكلة حيث إنني كلما فرحت بوجودي في قادم الأيام، قد أقول لنفسي "كل هذه السعادة في الحياة، والاعتزاز والافتخار بعملي في العالم، بل وإحساسي بوجودي نفسه، أنا مدين لها بهذا الفضل". كما تتضاعف سعادتي، ويزداد اعتزازي توهجاً، ويجعل من إحساسي بالوجود أكثر حدّة إلى درجة لا أعرف معها إن كان ذلك ألماً أم سروراً، لأني أظن بأني مدين لشخص واحد بكل هذا، عليك أن تسمعيني"، قال وهو يتقدم نحوها بإصرار "لشخص أحبه حباً لا أعتقد أن رجلاً شعر به تجاه امرأة". أمسك بيدها وضغط عليها بقوة. كانت أنفاسه تلهث متقطعة وهو يستمع لردها. أبعد اليد باستياء عندما تلقى نبرتها الباردة لأنها كانت أشبه بالجليد، رغم أن كلماتها خرجت مرتبكة تتلعثم، وكأنها لا تعلم أين تجدها.

"طريقتك في الكلام تصدمني، بل وغير لائقة. لا يمكنني تحملها، إن كان هذا شعوري الأول. وقد لا يكون كذلك، إن فهمت طبيعة المشاعر التي تصفها. لا أريد أن أضايقك؛ فضلاً عن أنه يجب أن نتكلم بهدوء لأن والدتي نائمة. لكن أسلوبك كله يهينني".

"كيف!" سألها متعجباً. "يهينك! أنا حقاً سيء الحظ...".

"أجل"، أجابته وقد استعادت كرامتها. "أشعر بالإهانة، ويحق لي ذلك. على ما

يبدو لي أنك تتصور تصرفي البارحة"، عاودها ذلك الاحمرار الوردي في خديها، لكن هذه المرة ليس خجلا واستحياءً، بل غضباً بعينين تتقدان ناراً، "كان فعلاً فردياً بيني وبينك، وأنه يمكنك أن تأتي لتشكرني عليه، بدلاً من أن تفهم كسيد نبيل. نعم كسيد نبيل"، وكرّرت العبارة في تلميح منها إلى حديث سابق جرى بينهما حول هذه الكلمة، "إن أي امرأة، تستحق اسم امرأة، كانت ستندفع، بضعفها المحترم، لتحمي رجلاً من خطر تعرضه للعنف على يد آخرين تكاثروا عليه".

"والسيد النبيل الذي يُنقذ بهذه الطريقة يُحرم من أن يرتاح من عبء الشكر والامتنان" قاطعها بنبرة من التهكم. "أنا إنسان وأطالب بحقي في التعبير عن مشاعري".

"وأنا استسلمت لهذا الحق بقولي بكل بساطة إنك تؤلمني بإصرارك عليه"، ردت عليه بكبرياء، "لكن يبدو أنك تصورت أني لم أكن أتصرف بهديٍ من غريزتي الأنثوية، وإنما" ـ وهنا تجمعت الدموع (التي جاهدت طويلاً في كبحها وقاومتها بشدة) في عينيها، وخنقت صوتها ـ "بتأثير من شعور محدد تجاهك أنت! لماذا، لم يكن هناك رجل، رجل واحد يائس في ذلك الحشد من الناس، لا أكنُّ له تعاطفاً أكبر، ولا أفكر في أن أفعل له شيئاً، ولو كان قليلاً، يمكنني فعله عن طيب خاطر".

"يمكنك أن تتابعي حديثك، يا آنسة هيل. أدرك تماماً عواطفك التي وضعت في غير مكانها. بت واثقاً الآن إن ذلك ليس سوى إحساسك الفطري بالقهر (أجل، أنا يمكن أن أُقهر وإن كنت سيداً) وهذا ما دفعك للتصرف بنبلٍ كما فعلت. أعلم أنك تحتقرينني، اسمحي لي بالقول، لأنك لا تفهمينني".

"ولست مهتمة بأن أفهم" أجابت وهي تمسك بطرف الطاولة كي توازن نفسها، لأنها ظنته قاسياً في كلامه، وهو كان كذلك فعلاً، كما كانت هي ضعيفة بغضبها.

"كلا، لا أعتقد أنك لا تفعلين ذلك. أنت ظالمة وغير عادلة".

ضغطت مارغريت على شفتيها. لم تتكلم رداً على هذه الاتهامات. لكن، مع

كل ذلـك، ومـع كل كلماتـه القاسـية، كان يمكـن لـه أن يرمـي بنفسـه عنـد قدميهـا، ويقبـل طـرف فسـتانها. بقيـت صامتـة، ولم تتحـرك. وبـدأت دمـوع كبريائهـا المجـروح تنهمـر سريعـة حـارة عـلى خديهـا. انتظـر قليـلاً يتلهـف لأن تقـول لـه شـيئاً، حتـى لـو كان تأنيبـاً، يمكـن لـه أن يـرد عليـه. لكنهـا ظلـت صامتـة. أخـذ قبعتـه بـين يديـه.

"كلمـة واحـدة فحسـب. يبـدو كـما لـو أنـك سـتوصمين بالعـار لـو أحبـك رجـل مثـلي. لا يمكنـك أن تهـربي منـه. ولا أسـتطيع، إن أردت، أن أطهـرك مـن هـذا العـار. لكـن إن كان باسـتطاعتي أن أفعـل ذلـك، لـن أقـدم عليـه. لم أحـب امـرأة مـن قبـل. كانـت حيـاتي مشـغولة وأفـكاري منشـغلة بأشـياء أخـرى. أمـا الآن، فأنـا أحـب، وسـأبقى. لكـن لا تخـشي مزيـداً مـن البـوح بـه مـن طـرفي".

"لا أخـشى ذلـك"، قالـت، وهـي تنهـض وتشـد قامتهـا، "لم يتجـرأ أحـد مـن قبـل، ولـن، عـلى أن يكـون سـفيهاً معـي. لكنـك يـا سـيد ثورنـتِن كنـت لطيفـاً معـي أبي"، أضافـت مارغريـت وهـي تغـير نـبرة كلامهـا إلى الرقـة الأنثويـة. "أرجـوك، لا داعـي لأن يجعـل كل واحـد منـا يخـرج غاضبـاً، أرجـوك". لم يلتفـت إلى كلامهـا، وانشـغل بتمسـيد وبـر قبعتـه بكـم معطفـه لدقيقـة، أكـثر أو ربمـا أقـل. رفـض أن يصافـح يدهـا الممـدودة إليـه. متظاهـراً بعـدم الانتبـاه إلى مسـحة النـدم التـي اعتلـت وجههـا، اسـتدار السـيد ثورنـتِن عـلى عجـل وغـادر الغرفـة. لمحـت مارغريـت تقاسـيم وجهـه قبـل أن يغـادر.

بينـما كان يغـادر المـكان، تـراءى لمارغريـت أنهـا رأت لمعـان دمـوع انحبسـت في عينيـه، وهـذا مـا حـوّل كراهيتهـا المتعاليـة إلى شيء مختلـف أكـثر لطفـاً، إن لم يكـن أشـبه بـالألم وتقريـع الـذات، لأنهـا تسـببت بإهانـة كهـذه لأي شـخص كان.

"لكـن كيـف لي أن أتحمـل ذلـك؟" سـألت مارغريـت نفسـها. "لم يكـن شـخصاً يعجبنـي. كنـت مهذبـة، ولم أتجشـم عنـاء إخفـاء عـدم اهتمامـي بـه. بالفعـل، لم أفكـر بـأن أكـون لـه يومـاً، وتصرفـاتي أظهـرت تلـك الحقيقـة، مـا عـدا البارحـة، عندمـا أسـاء فهمـي. لكنهـا مشـكلته، وليسـت مشـكلتي. لـن أتـردد في تكـرار مـا فعلـت، وإن كان سـيقودني ذلـك إلى هـذه المتاعـب وهـذا العـار".

فريدريك

مكتبة
t.me/soramnqraa

راحت مارغريت تتساءل بينها وبين نفسها إن كانت كل عروض الزواج تأتي هكذا فجأة ومن دون سابق إنذار، وتسبب الإزعاج والضيق ساعة حدوثها كما هو الحال مع العرضين اللذين تلقتهما حتى الآن. ودارت في خاطرها مقارنة عفوية طارئة بين السيد لينوكس والسيد ثورنتِن. شعرت بالأسف لأن التعبير عن مشاعر الآخر ـ غير الصداقة تجاهها ـ إنما نشأت من الظروف، كما في حالة السيد لينوكس. لذلك كانت الحسرة والندم هما الشعور الطاغي في أول تجربة لها مع عروض الزواج. لكنها لم تشعر حينذاك بالصدمة والتأثر كما هو الآن حيث لَمَّا يزل صوت السيد ثورنتِن يتردد في أنحاء الغرفة. في عرض السيد لينوكس، بدا هذا الأخير في لحظة ما وقد تجاوز الحد الفاصل بين الصداقة والحب، وفي اللحظة التي تلتها مباشرة، ندم على ما جرى بمقدار ما ندمت هي، ولكن مع اختلاف الأسباب. أما في عرض السيد ثورنتِن، فحسب علمها، لم يكن هناك مرحلة وسطى من الصداقة. كما أن مسار علاقتهما لطالما حفل بسلسلة مستمرة من المواقف المتعارضة. كانت آراؤهما متباينة إلى حدٍ لم تدرك معه مطلقاً إنه كان مهتماً بآرائها بصفتها تعود إليها كفرد. وبقدر ما كانت هذه المواقف والآراء تتحدى قوة شخصيته القاسية كالصخر، وثوران عاطفته، بدا لها وكأنه كان يرمي بها جانباً بكل ازدراءٍ، حتى شعرت بالإنهاك من محاولاتها للاحتجاج العبثي. أما الآن، فقد جاءها حاملاً عاطفة جياشة ليعبِّرَ لها عن حبه. على الرغم من صعقة المفاجأة للوهلة الأولى بأن عرضه جاء قسراً قياساً إلى التعاطف الشديد الذي أظهرته هي، وأساء فهمه مثل الآخرين، إلا

أنها، حتى قبل مغادرته الغرفة، وليس بعد خمس دقائق من ذلك، كانت قد تملكتها قناعة راسخة لا لبس فيها، أطل فجرها وأشرقت بشمسها عليها: بأنه أحبها، ولَمَّا يزل، وسيبقى. ارتعدت مارغريت وارتعشت مفتونة بقوةٍ هائلة، كريهة مُستقبَحة بالنسبة إلى حياتها السابقة بأكملها. هربت واختبأت من هذا الخاطر ولكن عبثاً، في تقليد مشابه لما يقول فيرفاكس[52] في ترجمة تاسو:

"كانت فكرته القوية تتجول في رأسها".

وما زاد من كرهها له أنه تحكَّم بإرادتها من الداخل. كيف واتته الجرأة كي يقول إنه سيبقى يحبها حتى بعد أن رفضته باحتقار؟ تمنت لو قالت في حضوره أكثر مما قالته، وبقوة أكبر. وها هي الآن كلمات حادة قاطعة تندفع في رأسها، لكن بعد فوات الأوان. ما تركته تلك المقابلة من أثر عميق يشبه كابوساً مرعباً يأبى أن يغادر الغرفة حتى بعد أن نصحو من النوم، ونفرك أعيننا، ونجبر شفاهنا على ابتسامة صارمة. إنه ما يزال هناك، مختبئاً يدمدم كلماتٍ غير مفهومة، في إحدى زوايا الغرفة، يتنصت علينا إن كنا نجرؤ على التنفس بوجوده إلى أي شخص آخر، لكننا لا نجرؤ على ذلك: يا لنا من مساكين جبناء!

كما ارتعدت خوفاً من تهديده باستمرار حبه لها. ماذا كان يقصد بذلك؟ ألم تمتلك من القوة الكافية لردعه؟ إن الأمر يتجاوز حدود الجسارة والجرأة بأن يهددها رجل على هذا النحو. هل قال ما قاله بناءً على الأمس التعيس؟ إن دعت الحاجة، لن تتردد مطلقاً أن تكرر غداً ما فعلته بالأمس، لشحاذٍ مُقعد، بكل سعادة وطواعية. أما هو، فستعاود الكَرَّة، بغض النظر عن استنتاجاته، بشجاعة وضِعةِ امرأة سفيهة. لقد فعلت ذلك لأنه كان صواباً، وبسيطاً وصادقاً لإنقاذ أحد ما، متى وأين استطاعت إلى ذلك سبيلاً، بل وحتى أن تحاول إنقاذه.
"افعل ما يتوجب عليك فعله، وليكن ما يكون".

حتى هذه اللحظة، لم تتحرك مارغريت من المكان الذي تركها فيه السيد جون ثورنتِن. لم تحركها أيُّ ظروف من شرود التفكير الذي انغمست فيه بفعل

(52) إدوارد فيرفاكس (1580 - 1635) مترجم إنكليزي.

آخـر كلـمات قالهـا لهـا، ونظـرة عينيـه العميقتـين المتقدتـين حماسـةً وكأن لهيبهـما جعـل عينيهـا تنكـسر أمامهـما. ذهبـت نحـو النافـذة وفتحتهـا عـلى مصراعيهـا لتطـرد الإحسـاس بالقهـر الـذي كان يحاصرهـا، ثـم فتحـت البـاب برغبـة جارفـة لتنفـض عنهـا ذكريـات السـاعة الأخـيرة مـن رفقـة الآخريـن، وفي جهـد مضـنٍ. لم تـود مارغريـت أن تبقـى بمفردهـا. مـا عسـاها تفعـل؟ أن تذهـب وتـرى بيـسي هيغينـز، فكـرت مارغريـت، عندمـا تذكـرت الرسـالة التـي وصلتهـا منهـا بالأمـس.

وذهبت إلى هناك.

عندمـا وصلـت مارغريـت، وجـدت بيـسي مسـتلقية عـلى مقعـد نُقِـلَ إلى جانـب موقـد النـار رغـم أن الجـو كان حـاراً خانقـاً. كانـت بيـسي ممـددة وكأنهـا ترتـاح بعـد نوبـة مـن تشـنجات الألم. شـعرت مارغريـت أنـه مـن الأفضـل أن تجلـس بيـسي في مكانهـا مـما يمنحهـا حريـة التنفـس. ومـن دون أن تقـول أيَّ كلمـة لهـا، رفعتهـا ووضعـت الوسـائد خلـف ظهرهـا لتشـعر بيـسي براحـة أفضـل، وإن بقيـت مسـترخية مـن التعـب.

"ظننـت أني لـن أراك ثانيـة"، قالـت بيـسي وهـي تحملـق في وجـه مارغريـت بيـأس شـديد.

"أخـشى أنـك في حالـة أسـوأ بكثـير. لم أسـتطع القـدوم إليـك البارحـة، أمـي كانـت مريضـة جـداً... ولعـدة أسـباب"، قالـت مارغريـت ووجههـا يتلـون.

"أرجـو ألّا تكـوني قـد حسـبتني تجـاوزت حـدودي عندمـا أرسـلت لـك أختـي مـاري. لكـن الصخـب والأصـوات العاليـة مزقتنـي إربـاً، وتمنيـت، عندمـا غـادر أبي المنـزل، آه يـا إلهـي! لـو أني أسـمع صوتهـا تقـرأ لي بعضـاً مـن كلـمات الأمـل والطمأنينـة، لـكان بمقـدوري أن أمـوت وأتـلاشى في سـكون ورحمـة اللـه، كـما يصمـت الطفـل الصغـير كي ينـام بـين ذراعـي أمـه وهـي تغنـي لـه".

"هل أقرأ لك فصلاً من الإنجيل الآن؟"

"أجـل، قـد لا أنصـت إلى المعنـى، في البدايـة، لأنـه سـيكون بعيـداً، لكـن عندمـا تصلـين

إلى الكلمات التي أحبها، إلى الفقرات التي تريحني، سيكون المعنى قريباً من أذني ويسري في داخلي".

بدأت مارغريت بالقراءة وراحت بيسي تتمايل للأمام والخلف. ورغم أنها استطاعت، بمجهود كبير أن تتابع مارغريت لدقيقة واحدة، بدت وكأنها تعاني قلقاً مضاعفاً في الدقيقة التالية. وأخيراً صاحت "توقفي عن القراءة، لا فائدة، أنا أكفر في عقلي طوال الوقت وأنا أفكر بغضب في ما لا يمكن تحمله...لا بد أنك سمعت بما جرى بالأمس في مصنع مارلبره، مصنع السيد ثورنتِن".

"والدك لم يكن هناك، أليس كذلك؟"، سألتها مارغريت وقد تبدل لون وجهها.

"لا لم يذهب. كان واثقاً أن الأمور لن تمضي على خير. وهذا ما كان يقلقني ويخيفني. كان يبدو محطماً تماماً. لا فائدة من إخباره بأن الأغبياء يتجاوزون الحدود دائماً. لن تري في حياتك رجلا محزوناً مثله".

"لماذا؟"، سألتها مارغريت. "لا أفهمك".

"أنت تعلمين بأنه عضو لجنة الإضراب، والاتحاد وضعه في هذه اللجنة ـ رغم أنه لا يجب أن أقول هذا ـ لأنه يرى في أبي رجلاً صادقاً وأميناً حتى النخاع. ووضع أبي وأعضاء اللجنة خطتهم للإضراب. واتفقوا على أن يتخذوا موقفاً موحداً أيا كانت الظروف، وأن يتفقوا على ما يجب القيام به. بالإضافة إلى ذلك، شددت اللجنة على معارضة أي تصرف مخالف للقانون. وأن يذهب أعضاء اللجنة مع العمال المشاركين في الإضراب بشرط أن يكافحوا ويجوعوا بصبر صامت، لكن إن حدث أي اشتباك أو قتال، حتى مع رجال الشرطة، سينتهي الأمر بالفشل كما حدث مراراً في المرات السابقة. لذلك كانوا سيحاولون الحديث مع رجال الشرطة وإقناعهم بالمنطق أياً كانت العواقب. وطالبت اللجنة جميع أعضاء الاتحاد أن يجلسوا أرضاً ويموتوا، إن لزم الأمر، وألا يردوا على الضرب بالضرب، وكانوا واثقين أن ذلك سيزيد من تعاطف وتأييد الناس لهم. وكانت اللجنة تدرك تماماً أن مطالبها محقة ولا يريدون للحق أن يختلط مع الباطل حتى لا يمكن للناس التمييز بينهما كما هو الحال عندما تمزجين البودرة مع الهلام. ها قد أخبرتك

بالتفصيل عن هذا الموضوع، لكنني متعبة جداً. يمكنك أن تتخيلي كيف يمكن لأب أن يكون عندما يخفق في ما خطط له، وبسبب شخص أحمق مثل باوتشر الذي خالف أوامر اللجنة، وأفشل الإضراب وكأنه أراد لنفسه أن يكون مثل يهودا. لكن أبي ذهب إليه البارحة وعنفه، بل وصل به الحد للقول إنه سيخبر الشرطة أين يمكن أن يجدوا من قاد أعمال الشغب، بل ويسلمه لأصحاب المصنع ليفعلوا به ما يشاؤون، كي يثبت للعالم أجمع أن قادة الإضراب الحقيقيين ليسوا على شاكلة باوتشر، بل رجال عقلاء، وعمال بارعون، ومواطنون صالحون يلتزمون بالقانون والعدل والنظام، ولا يريدون شيئاً سوى الأجر العادل، وأنهم لن يعودوا للعمل حتى لو ماتوا جوعاً، إلى أن يحصلوا على حقوقهم، لكنهم لن يسببوا الأذية والضرر لحياة الناس أو ممتلكاتهم، إذ يقولون". وهنا أخفضت بيسي صوتها، "إن باوتشر قذف شقيقة السيد بحجرٍ كاد يقتلها".

"هذا ليس صحيحاً"، قالت مارغريت. "لم يكن باوتشر هو من رمى الحجر"، احمر وجه مارغريت أولاً، ثم ابيض.

"إذاً كنت هناك، أليس كذلك؟" سألتها بيسي باسترخاء، ولطالما كانت تتوقف أثناء الكلام الذي بدا بالنسبة إليها عملاً شاقاً بشكل غير عادي.

"لا بأس، تابعي، لكن بالفعل لم يكن هو باوتشر. ماذا قال لأبيك؟".

"لم ينطق بكلمة واحدة، بل كان يرتجف بانفعال وهياج حتى إنني لم أحتمل النظر إليه. سمعت أنفاسه تخرج من صدره سريعة وظننت للوهلة الأولى أنه كان يبكي. لكن عندما قال له أبي إنه سيسلمه للشرطة، أطلق صرخة مدوية، ولكم أبي على وجهه، وفر هارباً بسرعة البرق. صُعق أبي، في البداية، من هول الضربة، فباوتشر كان ضعيفاً مشحوناً بالغضب، ويتضور جوعاً. جلس لفترة من الزمن وهو يضع يديه أمام عينيه، ثم نهض وتوجه نحو الباب. لا أدري من أين جاءتني تلك القوة لأرمي بنفسي من على المقعد، وأتمسك به. "أبي، أبي" قلت له. "لا يمكن لك أن تذهب لتخبر عن رجل فقير يتضور جوعاً. لن أتركك حتى تقول لي إنك لن تفعل ذلك". "لا تكوني حمقاء"، قال لي، "فالأقوال تسبق

الأفعال عند معظم الرجال. لم يخطر على بالي أبداً أن أخبر الشرطة عنه، رغم أنه بحق الل...يستحق ذلك، بل ولا أمانع أن يقوم أحد غيري بهذا العمل القذر، ليقبضوا عليه. أما الآن، وبعد أن ضربني، لن أفعل ذلك، ليس الآن ولا غداً، لأن هناك رجال آخرون سيتولون هذه المهمة. لكن وحالما يتخلص من جوعه، ويصبح في حالة جيدة، سيكون بيني وبينه نزال عنيف، وسأرى ما بوسعي أن أفعل له". دفعني أبي بعيداً عنه. كنت متعبة، وخائرة القوى، وكان وجهه أبيضَ لا دماء فيه فلم أستطع النظر إليه. ولم أدرِ بنفسي إن كنت نائمة أم صاحية، أم في غيبوبة، حتى جاءت ماري وطلبت منها أن تحضرك إلي. والآن توقفي عن الكلام، وأكملي قراءة الفصل. ارتاح رأسي بعد أن فضفضت عن نفسي، وأريد بعض الأفكار من العالم البعيد أن تمحو مذاق التعب عن لساني، لا تقرأي من فصول التراتيل والصلوات، بل من القصص، لأن فيها صوراً أراها عندما أغمض عيني. اقرأي لي عن السماء الجديدة والأرض الجديدة، لعلي أنسى كل هذا".

بدأت مارغريت تقرأ بصوتها العذب. ورغم أن عينيها كانتا مغمضتين، استمعت بيسي لفترة من الوقت بينما كانت دموعها تتجمع بكثافة فوق رموشها. وأخيراً نامت، مع نوبات من الألم، والتوسلات. قامت مارغريت بوضع الغطاء عليها، وتركتها تحت تأنيب الضمير لشعورها بأنهم ربما يحتاجونها في البيت، لكن ورغم ذلك شعرت بالأسى لمفارقة هذه الفتاة التي كانت تحتضر. وعندما عادت إلى البيت، كانت والدتها في غرفة الضيوف. كان واحداً من أفضل أيامها، وكانت سعيدة بالسرير المائي الذي رأت فيه شبيهاً بالأسِّرة الي كانت تنام عليها في منزل السير جون بيريسفِرد. لم يكن لديها معرفة بنوعية هذا السرير، لكن بدا واضحاً لها أن الناس في الوقت الحاضر فقدوا فن صناعة الأسِّرة التي كانت رائجة في صباها. قد يظن المرء أنه مريح بما فيه الكفاية، ومن نوع الأسِّرة نفسها المحشوة بالريش. ومع ذلك وحتى الليلة الماضية، لم تعرف السيدة هيل نوما هادئاً عميقاً. أشار السيد هيل إلى أن شيئاً ما من مزايا أسِّرة الريش في

الأيـام الخـوالي إنمـا تعـود أصـلاً إلى نشـاط وحيويـة الشـباب الـذي يدفـع المـرء إلى التلـذذ بالاسـترخاء والراحـة، إلا أن هـذه الفكـرة لم تلـق قبـولاً كبـيراً لـدى زوجتـه.

"لا، يـا سـيد هيـل، في الحقيقـة إنهـا تلـك الأسِّرة في منـزل السـير جـون. مارغريـت، أنـت لا تزالـين شـابة، وتتمتعـين بالنشـاط، هـل هـذه الأسرة مريحـة؟ ناشـدتك أن تصدقينـي القـول. هـل تمنحـك شـعوراً بالاسـترخاء عندمـا تسـتلقين عليهـا، أم أنـك تتقلبـين فيهـا وتحاولـين عبثـاً أن تجـدي فيهـا وضعـاً مريحـاً، وتسـتيقظين في اليـوم مُتعبـة كـما كنـتِ عندمـا ذهبـت إلى النـوم الليلـة السـابقة؟".

ضحكـت مارغريـت. "صدقـاً، يـا أمـي، لم أفكـر مطلقـاً بسريـري ونوعيتـه. أنـام مـلء جفـوني حالمـا أتمـدد في السريـر. لا أظـن أني شـاهد مفيـد في هـذه المسـألة. كـما أنـه لم تُتـح لي الفرصـة كي أجـرب النـوم عـلى أسرة السـير جـون بيريسـفِرد. لم يسـبق لي أن عشـت في أوكسِـنهام".

"لسـت أنـت؟ صحيـح، بـل حبيبـي فريـدرك، تذكـرت. ذهبـت إلى أوكسـنهام مـرة واحـدة بعـد زواجـي، لأحـضر زفـاف خالتـك شـو، واصطحبـت معـي فريدريـك. كان طفـلاً صغـيراً. كنـت أعلـم أن ديكسِـن لم تكـن لـترضى أن تتحـول مـن خادمـة للسـيدة إلى مربيـة للأطفـال، وكنـت أخـشى لـو أخذتهـا معـي بالقـرب مـن منزلهـا القديـم، ووسـط أهلهـا، أنهـا قـد تفكـر في تـركي. ولأن فريدريـك كان مريضـاً بسـبب أسـنانه، وانشـغالي بآنـا قبـل زواجهـا، بالإضافـة إلى أني لم أكـن بحـال جيـدة، تولـت ديكسِـن رعايتـه أكـثر مـما كان مطلوبـاً منهـا مـن قبـل، وهـذا مـا جعلهـا تتعلـق بـه، وتشـعر بالفـرح والفخـر عندمـا كان يـترك الجميـع، ويتمسـك بهـا إلى حـد بـثُ مقتنعـة بأنهـا لـن تفكـر أبـداً في تـركي عـلى الرغـم مـن أن الوضـع كان مختلفـاً عـما اعتـادت عليـه. فريدريـك المسـكين! أحبـه الجميـع. كان يتمتـع بموهبـة كسـب القلـوب منـذ ولادتـه. هـذا مـا يجعلنـي أظـن سـوءاً بالنقيـب ريـد عندمـا أدرك أنـه يكـره ابنـي. وأعتقـد أن هـذا دليـل واضـح عـلى طبيعتـه الشريـرة الخبيثـة. آه! أبـوك المسـكين يـا مارغريـت، غـادر الغرفـة. لا يحتمـل أن يسـمع أحـداً يتكلـم عـن فريدريـك".

"أنـا أحـب أن أسـمع عنـه، يـا أمـي. أخبرينـي بـكل مـا تريديـن، ولـن أشـعر بالملـل مهـما تحدثـت عنـه. هيـا قـولي لي كيـف كان يبـدو وهـو طفـل صغـير".

"يجب عليك ألا تنزعجي من كلامي، يا مارغريت، فقد كان أجمل منك بكثير. أذكر أنني عندما رأيتكِ أول مرة بين ذراعي ديكسِن، قلت لها: "يا عزيزتي، يا له من شيء صغير قبيح!"، فأجابتني حينذاك: "ليس كل طفل مثل السيد فريدريك، باركه الله!" كنت أحمله بين ذراعي كل دقيقة في النهار، وكان مهده بالقرب من سريري. أما الآن، الآن يا مارغريت، لا أعرف أين هو ابني، وأفكر أحياناً بأني لن أراه ثانية".

جلست مارغريت على كرسي صغير بجانب أمها، وأمسكت بيدها تداعبها وتقبلها لتواسيها وتخفف عنها. بكت السيدة هيل، ثم انتصبت في جلستها وهي تشد ظهرها على الكنبة، والتفتت إلى ابنتها، وقالت لها بجدية مهيبة، دامعة "مارغريت، إن تحسنت حالتي، ومنحني الله فرصة العافية، فلا بد أن يكون من أجل أن أرى ابني مرة ثانية. فرؤيته هي من ستُحيي ينابيع العافية والصحة في جسدي".

توقفت عن الكلام، وبدت وكأنها تحاول استجماع قوتها لقول المزيد. كان صوتها متهدجاً عندما تابعت الحديث ويرتعش وهي تتأمل فكرة غريبة خطرت لها.

"إن كنت سأموت، إن كنت واحدة من الذين كتب عليهم الموت خلال أسابيعٍ من الآن، فلا بد أن أرى ولدي، لا أعلم كيف يمكن تدبير الأمر، لكني أوصيك يا مارغريت، كما تأملين أن تجدي الراحة في مرضك الأخير، أن تأتيني بولدي كي أباركه. خمس دقائق فقط، يا مارغريت. لن يكون هناك خطر عليه في خمس دقائق. آه يا مارغريت، دعيني أرى ابني قبل أن أموت!".

لم تر مارغريت أي شيء قد يعارض المنطق في كلام والدتها. فنحن عادة لا نفتش عن سبب أو منطق في توسلات وطلبات أولئك المرضى على فراش الموت، بل نُفاجأ باستذكار آلاف الفرص والاحتمالات لتحقيق رغبات من سيرتحلون عن دنيانا، ويطلبون من ما يطلبون من أجل سعادة حياتنا مستقبلاً، ونضعها تحت أقدامهم. لكن هذه الرغبة التي طالبت بها السيدة هيل كانت جد طبيعية، ومحقة، وصائبة لكلا الطرفين حتى أن مارغريت شعرت، بالنسبة

لفريدريك ووالدتها على حد سواء، وكأنه يتعين عليها أن تتجاهل احتمالات الخطر الوشيكة، وتلزم نفسها بأن تفعل ما بوسعها لتحقيق رغبة والدتها. فتينك العينان الناعستان المتوسلتان كانتا تحدقان فيها بثبات وإن كانت شفتاها ترتعشان كشفتي طفل صغير. نهضت مارغريت ووقفت على قدميها قبالة أمها التي أتعبها المرض، لعلها تستمد الثقة الأكيدة بتحقيق رغبتها من قوة وثبات وجه ابنتها.

"سأكتب إليه الليلة، وأخبر فريدريك ما قلته لي. وأنا واثقة بأنه سيأتي إليك على الفور، كما أنا واثقة من حياتي. لا تقلقي يا أمي سترينه مثل أي شيء محتمل يُمكن أن نُوعد به".

"ستكتبين الرسالة الليلة؟" مارغريت! يخرج البريد الساعة الخامسة، أي إنك ستكتبين له حينذاك؟ لم يتبق لي سوى بضع ساعات؛ أشعر يا عزيزتي وكأني لن أتعافى من مرضي، على الرغم من أن والدك أحياناً يحاول إقناعي بالأمل. ستكتبين له الآن، أليس كذلك؟ يجب أن لا تفوتي بريداً واحداً، لأنه وفي موعد هذا البريد الذي تفوتينه، قد تفوتني رؤياه".

"لكن يا أمي، أبي لم يعد بعد".

"وإن كان! هل تقصدين أنه سيحرمني من رغبتي الأخيرة، يا مارغريت؟ ما كنت لأمرض، وها أنذا أحتضر، لو لم يأخذني بعيداً عن هِلْستِن إلى هذا المكان الضار، المعتم، المشبع بالدخان".

"أمي، ما هذا الكلام!"

"أجل، إنها الحقيقة، وهو يعلم ذلك بنفسه، وقالها أكثر من مرة. إنه سيفعل أي شيء من أجلي، لا تقصدين حتماً أنه سيرفض أن يلبي لي هذه الرغبة الأخيرة، الدعاء. وفي الحقيقة، يا مارغريت، أن لهفتي لرؤية فريدريك تقف حائلاً بيني وبين الله. لا أستطيع أن أصلي قبل أن تتحقق هذه الرغبة. لا تضيعي الوقت، يا عزيزتي مارغريت. ابعثي الرسالة مع البريد التالي. ربما يكون فريدريك هنا، هنا، في غضون اثنين وعشرين يوماً! أنا متأكدة أنه سيأتي. لا قيود ولا سلاسل ستمنعه

مـن المجـيء. في اثنـين وعشريـن يومـاً، سـأرى ولـدي". واسـتلقت عـلى ظهرهـا، ولم تنتبـه لفـترة قصـيرة مـن الزمـن أن مارغريـت كانـت جالسـة بـلا حـراك، ويداهـا تغطيـان عينيهـا.

"ألم تبـدأي بالكتابـة بعـد!" صاحـت أمهـا. "أحـضري لي أقلامـاً وورقـة، سـأكتب لـه بنفـسي". جلسـت في سريرهـا وهـي ترتجـف بحماسـة محمـوم. هـدأت مارغريـت مـن روعهـا ونظـرت إليهـا بـأسى.

"انتظري حتى يعود أبي، ونسأله عن الطريقة الأفضل لفعل ذلك".

"أنـت يـا مارغريـت مـن وعدتنـي، قبـل أقـل مـن ربـع سـاعة مـن الآن، قلـت لي إنـه سيأتي".

"سـيأتي يـا أمـي، لا تبـكي يـا عزيـزتي. سـأكتب الرسـالة، هنـا والآن، وسـتريني أكتبهـا أمامـك، وسأرسـلها بالبريـد في الحـال، وإن وجـد والـدي الأمـر مناسـباً، يمكنـه أن يكتـب لـه رسـالة أخـرى، سـيكون الفـارق بـين الرسـالتين يومـاً واحـداً فقـط. آه يـا أمـي، لا تبـكي، إنـك تقطعـين قلبـي".

لم تسـتطع السـيدة هيـل أن تمنـع نفسـها مـن البـكاء، بـل إنهـا وفي الحقيقـة لم تبـذل أي جهـد لوقـف بكائهـا الهسـتيري، وراحـت تسـتعيد في ذاكرتهـا صور الماضي السـعيد، والمسـتقبل المحتمـل وتتصـور المشـهد الـذي ترقـد فيـه جثـة هامـدة وولدهـا الـذي تتشـوق لرؤيتـه في الحيـاة يبـكي فـوق رأسـها مـن دون أن تشـعر بوجـوده. وبقيـت السـيدة هيـل عـلى هـذه الحـال حتـى غرقـت في شـعور مـن الشـفقة عـلى نفسـها، ثـم بـدأت بالنحيـب والتأوهـات مـما جعـل قلـب مارغريـت ينفطـر ألمـاً. أخـيراً اسـتعادت الأم هدوءهـا، وراحـت تتابـع بشـغف ابنتهـا وهـي تكتـب الرسـالة التـي بدأتهـا بتوسـلات عاجلـة، ثـم أغلقتهـا خشـية أن تطلـب والدتهـا أن تراهـا. وزيـادة في الاطمئنـان، وتلبيـة لطلـب والدتهـا، أخـذت مارغريـت الرسـالة بنفسـها إلى مكتـب البريـد. وكانـت في طريـق عودتهـا إلى المنـزل عندمـا لحـق بهـا والدهـا.

"أين كنت يا ابنتي الجميلة؟"

" في مكتـب البريـد، أضـع رسـالة لفريدريـك. ربمـا قمـت بتـصرف خاطـئ يـا أبي، لكـن

رغبـة جارفـة اسـتولت عـلى أمـي شـوقاً لرؤيتـه، وقالـت إن ذلـك سيسـاعدها عـلى استعادة عافيتهـا، كـما قالـت إنهـا تريـد أن تـراه قبـل أن تمـوت، لا يمكننـي أن أصـف لـك كيـف كانـت تلـح عـلي! هـل مـا فعلتـه كان خطـأً؟" لم يجـب السـيد هيـل في البدايـة، ثـم قـال:

"كان يجب عليك أن تنتظريني حتى أعود، يا مارغريت".

"حاولت إقناعها..." قالت مارغريت ثم صمتت.

"لا أدري" قـال السـيد هيـل بعـد توقـف قصـير. "يجـب أن تـراه إن كانـت هـذه رغبتهـا، وأعتقـد أن ذلـك سـيفيدها أكـثر مـن عـلاج الأطبـاء، وربمـا يعيـد لهـا عافيتهـا، لكـن الخطـر بالنسـبة إليـه سـيكون كبـيراً".

"حتى بعد مرور كل هذه السنوات على حادثة التمرد؟"

"أجـل؛ مـن الـضروري بالتأكيـد بالنسـبة إلى الحكومـة أن تتخـذ إجـراءات قاسـية لقمـع المخالفـات والتجـاوزات ضـد سـلطتها، وتحديـداً في البحريـة حيـث يحتـاج القـادة لأن يكونـوا محاطـين برجـال يدركـون جيـداً قـوة السـلطة التـي تدعـم هـؤلاء القـادة في الوطـن، ويتابعـون قضيتهـم ويثـأرون لأي ضرر أو أذى يلحـق بهـم، إن لـزم الأمـر. لا فـرق عندهـم إن كانـت السـلطة المعطـاة لهـؤلاء القـادة قـد تحولـت إلى اسـتبداد ظـالم، أو مـزاج سريـع الانفعـال أو حتـى الجنـون، أو إن كان ذلـك مُسـوَّغاً بعـد ذلـك. فهـذا غـير مسـموح بـه البتـة في المقـام الأول؛ فهـم لا يوفـرون جهـدا ولا مـالاً، يبعثـون بسـفنهم لتمشـيط البحـار لاعتقـال المخالفـين، كـما أن مـرور السـنين لا يمحـو ذاكـرة المخالفـات التـي تبقـى جريمـة حيـة في سـجلات البحريـة ولا تُشـطب إلا بالـدم".

"يـا إلهـي مـا ذا فعلـت! رغـم أني مـا فعلتـه في حينـه كان صحيحـاً. أنـا واثقـة مـن أن فريدريـك نفسـه سـيخاطر بالمجـيء".

"أجـل، سـيفعل ذلـك حتـماً، وهـذا مـا يجـب عليـه أن يفعلـه. لا تقلقـي يـا مارغريت، أنـا سـعيد أنـك كتبـت إليـه، رغـم أني مـا كنـت لأجـرؤ عـلى القيـام بذلـك. حمـداً

لله على ما جرى. كنت سأتردد وأتريث حتى يكون قد فات الأوان. عزيزتي مارغريت، لقد فعلت عين الصواب، أما خاتمة الأمور فهي خارج إرادتنا".

جرى كل شيء على خير ما يرام، لكن وصف أبيها للطريقة التي تُعاقب فيها حالات التمرد جعلت مارغريت ترتعد فزعاً. إن كانت استدرجت شقيقها لمحو ذاكرة الخطأ بدمه! فقد رأت قلق أبيها يرقد على نحو أعمق من كلماته المبتهجة التي قالها. تأبطت ذراعه ومشت إلى جانبه بحالة من الشرود والقلق.

الأم والابن

عندمـا غـادر السـيد ثورنـتِن المنـزل ذلـك الصبـاح، كان مشوشـاً بفعـل عواطفـه المرتبكـة. كان يشـعر بالـدوار وكأن مارغريـت، بـدلاً مـن أن تنظـر إليـه وتتحـرك أمامـه كامـرأة رقيقـة رشـيقة، كانـت زوجـة نكـوداً سـددت لـه لكمـة بكلتـا يديهـا. كان يشـعر بـألم حـاد في بدنـه، وصـداع عنيـف في رأسـه، ونبـض متقطـع حـاد في قلبه. لم يسـتطع احتـمال الضجيـج، والضـوء المبهـر، وحركـة الشـارع. عـدَّ نفسـه أحمـقَ بسـبب مـا يعانيـه، لكنـه لم يقـدر، في تلـك اللحظـة، عـلى اسـتذكار سـبب معاناتـه. كـم كان مريحـاً لـه لـو جلـس عـلى عتبـة بـاب وبـكى إلى جانـب طفـل صغـير كان يثـور ويفـور بدموعـه الهائجـة بسـبب إصابـة تعـرض لهـا. قـال لنفسـه إنـه بـات يكـره مارغريـت، غـير أن إحساسـاً قويـاً مـن الحـب اخـترق مشـاعره الكئيبـة الهـادرة كـما الـبرق حتـى وهـو يصـوغ عبـارات الكراهيـة. وجـد راحتـه الكـبرى في معانقـة عذابـه وآلامـه، وفي أحاسيسـه كـما قـال لهـا إنـه لـن يبـدل مشـاعره ولـو ذرة واحـدة، حتـى لـو كرهتـه، واحتقرتـه، وعاملتـه بتجاهلهـا المتعجـرف المتعـالي. لا يمكنهـا أن تجعلـه يتغـير. فقـد أحبهـا وسـيظل يحبهـا، ويتحداهـا، ويتحـدى هـذا الألم المـبرح في جسـده.

وقـف سـاكناً لدقيقـة ليجعـل هـذا القـرار ثابتـاً واضحـاً. كانـت هنـاك عربـة لنقـل المسـافرين تمـر في الشـارع في طريقهـا إلى الريـف ظـن سـائقها أنـه يريـد الصعـود فتوقـف بالقـرب مـن الرصيـف. وجـد مشـقة كبـيرة في الـشرح والاعتـذار، فصعـد إلى العربـة التـي حملتـه بعيـداً، وتجـاوزت صفوفـاً طويلـة مـن المنـازل، وفيـلات بعيـدة منعزلـة ذات حدائـق مشـذبة، إلى أن وصلـوا إلى تخـوم الريـف، ومنهـا تدريجيـاً إلى

بلدة ريفية صغيرة. بدأ الركاب يغادرون العربة، فترجل السيد ثورنتِن معهم، وسار بعيداً مثلما فعلوا. وصل إلى الحقول وهو يمشي بسرعة لأن الحركة النشيطة أراحت ذهنه. وبات قادراً على تذكر كل شيء الآن؛ الحالة المثيرة للشفقة التي كان يجب عليه أن يتخلص منها، والطريقة العبثية التي ذهب فيها وأقدم على الشيء ذاته الذي طالما اتفق مع نفسه على عدِّه أكثر الأشياء حماقة في العالم، والعواقب ذاتها تماماً التي - في مثل هذه الحالات الحكيمة من التفكير - طالما تنبأ بوقوعها لو أنه وضع نفسه في هذا الموقف السخيف. لكن ماذا دهاه، هل سحرته تلك العيون الجميلة، وذاك الفم الرقيق المنفرج عن تنهيدة وهو يستلقي على مقربة من كتفه البارحة؟ لم يستطع حتى أن يتخلص من تذكرها هناك تطوق عنقه بذراعيها، مرة على الأقل، إن استحال تكرارها مرة أخرى. راودته بعض من ملامحها على عجل؛ لم يفهمها كلها مجتمعة. تارة كانت شجاعة، وتارة أخرى وديعة، والآن رقيقة ناعمة، ومن ثم متعالية متكبرة بخُيلاءٍ ملكي. وعندئذ فكر ملياً، في كل مرة كانت قد سُنحت له الفرصة كي يراها مرة أخرى، بأن ينساها في نهاية المطاف. تخيلها في كل فستان، وفي كل حالة، لكنه لم يعرف أيَّ صورة هي الأفضل. حتى هذا الصباح، كم كانت رائعة بطلَّتِها، وعيناها تلتمعان بالنظر إليه وتقولان إنها كانت مهتمة به لأنها تقاسمت معه قبل يوم واحد محنة الخطر.

إن كان السيد ثورنتِن أحمقَ في الصباح، كما أكد هو لنفسه عشرين مرة على الأقل، فإنه لم يكن أكثر حكمة بعد الظهر. فكل ما كسبه من رحلة العربة التي كلفته ستة بنسات، كان مجرد قناعة أكثر نشاطاً وحيوية بأنه لم يكن، ولن يكون هناك امرأة مثل مارغريت لم ولن تحبه، لكنها لا هي ولا العالم بأسره يجب أن يمنعاه من أن يبقى يحبها. لذلك عاد إلى السوق الصغير وصعد العربة عائدا إلى ميلتِن.

كان الوقت متأخراً عصر ذلك اليوم عندما ترجل من العربة بالقرب من مستودعه. أعادته هذه الأماكن المعتادة إلى عاداته وسلسلة الأفكار المعهودة. كان يدرك حجم ما يتوجب عليه من أعمال تفوق نظيرتها المعتادة بسبب

الهيجان الذي حدث قبل يوم. كان عليه أن يلتقي أخوته الأعضاء في هيئة القضاة، ويستكمل الإجراءات التي لم يكملها في الصباح بخصوص راحة العمال الايرلنديين وسلامتهم الذين أحضرهم، ويحميهم من أي احتكاك مع عماله المضربين عن العمل. وأخيراً، كان يتوجب عليه الذهاب إلى المنزل لمواجهة والدته.

جلست السيدة ثورنتِن في غرفة الضيوف طوال النهار تتوقع في كل دقيقة أنباء عن قبول الآنسة هيل بابنها. وكم من مرة كانت ترفع رأسها عند سماعها جلبة مفاجئة في المنزل، ثم تعاود العمل على تطريز القماش وتُدخل الإبرة بعناية ومهارة رغم نظارتيها المُغبشتين، ويدها المرتجفة. وكم من مرة فُتِح الباب ليدخل أحد لا على التعيين من أجل مهمة ليست ذات قيمة. عندها تخلى وجهها عن منظره البارد الكئيب، واسترخت ملامحه في نظرة من اليأس والحزن لا تتفق عادة مع صرامته. انتزعت نفسها عنوة من التأمل بكل التغييرات المتعبة التي ستواجهها بسبب زواج ابنها، وقسرت نفسها على التفكير بحاجيات المنزل المعتادة. إذ سيحتاج العروسان أغطية ومفارش جديدة، وكان لدى السيدة ثورنتِن سلالاً فوق سلالٍ من الأقمشة مليئة بمفارش الطاولة ومناديل المائدة التي أحضرتها لتستكشف ما لديها من مخزون من هذه الأشياء. لم تكن الأغراض مرتبة على نحو يفصل بين ما كان يخصها ووضعت عليه الأحرف الأولى من اسمها واسم زوجها الراحل ج. ح. ث (جورج حنة ثورنتِن)، وبين ما كان يخص ابنها الذي اشتراه بماله الخاص وعليه الأحرف الأولى من اسمه. بعض من هذه الأقمشة كان من الدامسك الهولندي الفاخر من النوع القديم الذي لم يعد له مثيل في الوقت الحاضر. وقفت السيدة ثورنتِن طويلاً أمام هذه المقتنيات التي طالما كانت مصدر فخرها عندما كانت عروساً. قطبت حاجبيها، وشدت على شفتيها، وأخرجت الأقمشة التي تعود لها ولزوجها. وراحت تبحث عن الخيط الأحمر لتطرز الأحرف الأولى الجديدة، لكنها اكتشفت أنها قد استخدمته كله، وليس لديها رغبة لتطلب المزيد في الوقت الحاضر على الأقل. ثبتت نظرها في الفراغ تتأمل سلسلة من الصور تمر

أمامها بدا لها ابنها فيها المشهد الأساسي الأوحد؛ ابنها، مصدر عزتها، وخاصتها. لم يعد حتى الآن. لا بد أنه مع الآنسة هيل؛ الحب الجديد الذي يزيحها عن مكان الصدارة في قلبه. ألم فظيع، والغيرة تنشب أنيابها عميقاً في داخلها؛ حتى أنها لم تستطع التمييز إن كان هذا الألم في الجسد أما في الروح، لكنه أجبرها على الجلوس. وبعد دقيقة واحدة، نهضت مرة أخرى منتصبة القامة مثل عادتها، وعلى وجهها ابتسامة متجهمة لأول مرة هذا اليوم استعداداً لفتح الباب، وابتهاجاً بالعائد المنتصر الذي يجب عليه ألا يعرف أبداً الحسرة المُرة التي تشعر والدته بها بسبب زواجه. وفي غمرة كل هذه التفاصيل، لم يكن هناك سوى مساحة محدودة من التفكير في كنة المستقبل، زوجة جون. لم يكن التفكير في أنها ستحتل مكانها كسيدة للمنزل واحدة من النتائج الكثيرة التي ستزين المجد السامي، المنزل براحته ووفرة مقتنياته، المفارش والأغطية الأرجوانية الفاخرة، الشرف، الحب، الطاعة، وجيوش الأصدقاء، التي تأتي جميعها كجواهر في رداء الملك، وإن كانت لا تلقى اهتماماً إن قيست قيمة كل واحدة منها بشكل منفصل. أن يختارها جون يكفي لأن يفصل فتاة مطبخ عن بقية العالم. والآنسة هيل ليست سيئة إلى هذه الدرجة، لكن السيدة ثورنتِن كانت ستحبها بالتأكيد لو كانت من ميلتِن. صحيح أنها فتاة لاذعة، وذات ذوق، وروح ونكهة خاصة بها، وجاهلة وذات حكم سيء، لكن ذلك أمر متوقع نظراً لنشأتها الجنوبية. راودت السيدة ثورنتِن مقارنة محرجة بين مارغريت وابنتها فاني، ولأول مرة تحدثت بقسوة إلى ابنتها، وعنفتها بشدة، لكنها، ومن باب الندم وتقريع الذات، حملت كتاب تفاسير هنري، وحاولت تركيز انتباهها عليه، بدلاً من متابعة الأمور التي ترضي كبريائها، وتمنحها السرور، ومن مواصلة البحث والتنقيب في مخزونها من مفارش الطاولة.

وأخيراً هذه هي خطوته! سمعتها حتى بينما كانت تظن أنها تنهي جملة من الكتاب مرت عليها عيناها، وكررتها ذاكرتها تلقائياً كلمة كلمة. سمعته يدخل إلى الرواق، واستطاعت أن تخمن بإحساسها المتسارع صوت كل حركة منه: إنه

الآن عند مشجب القبعات، والآن عند الباب. لِمَ توقف؟ دعها تعرف بالأسوأ. لكنها لم ترفع رأسها عن الكتاب. اقترب منها بجانب الطاولة، وتسمَّر هناك منتظراً حتى تنهي الفقرة التي كانت مستغرقة في قراءتها. نظرت إليه بعد جهد واضح. "حسناً يا جون؟"

كان يدري ما يعنيه ذلك الكلام المختصر. كان يتوق لو يجيبها بنكتة أو مقلب يمكن لقلبه الذي يغص بالمرارة أن ينطق به، لكن والدته تستحق ما هو أفضل. استدار ووقف وراءها مباشرة كيلا ترى نظراته، وأحنى أمه بوجهها البارد المتحجر إلى الخلف وقبله وهو يتمتم:

"لا أحد يحبني ويهتم لأمري إلا أنت، يا أمي".

التفت بعيداً ووقف وهو يسند رأسه على رف الموقد، والدموع تشق طريقها قسراً من عينيه الرجوليتين. وقفت وترنّحت. لأول مرة في حياتها ترنّحت المرأة القوية. وضعت يديها على كتفيه؛ كانت امرأة طويلة القامة. نظرت إلى وجهه، وجعلته ينظر إليها:

"حب الأم هبة من الله، يا جون. ويبقى صامداً ثابتاً للأبد. أما حب فتاة فهو سحابة دخانٍ تتبدل مع كل ريح. لم تقبل بك إذاً يا ولدي، أليس كذلك؟" وشدت على أسنانها فبدت أشبه بكلب يكشر عن أنيابه. هز رأسه.

"لست لائقاً لها يا أمي، كنت أعلم ذلك".

راحت السيدة ثورنتِن تطحن الكلمات بين أسنانها المغلقة حتى إنه لم يستطع أن يسمع ما قالته، لكنه علم من تلك النظرة في عينيها أنها كانت تكيل لها الشتائم واللعنات، وإن لم تكن في ألفاظ جارحة أو نابية في مقصدها. ورغم ذلك، رقص قلبها فرحاً لأنه عاد ليكون مُلكاً لها مرة أخرى.

"أمي!" قال جون باندفاع، "لا يمكنني أن احتمل كلمة واحدة ضدها. إعفِني من هذا الأمر. أشعر بالضعف في قلبي الموجوع؛ ما زلت أحبها، بل وأحبها أكثر من أي وقت مضى".

"وأنا أكرهها"، قالت السيدة ثورنتِن بصوت خشن منخفض. "حاولت ألا أكرهها عندما وقفت حاجزاً بيني وبينك لأنها ـ قلتُ لنفسي ـ ستجعله سعيداً، وكنت راضية أن أبذل دم قلبي من أجل ذلك. أما الآن، فأنها أكرهها لأنها سبب شقائك. أجل يا جون، لا جدوى من إخفاء قلبك الموجوع عني. أنا الأم التي حملتك، وألمُك عذابٌ لي، وإن كنت لا تكرهها، فأنا أكرهها".

"إذن، يا أمي، ستجعلينني أحبها أكثر. كنت ظالمة في معاملتك لها، وأنا من يجب عليه أن يدفع ثمن هذا الظلم. لكن علام نتحدث عن الحب والكراهية؟ إنها لا تهتم بي، وهذا يكفي، ويزيد. دعينا لا نذكر اسمها مرة ثانية. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تقومي به في هذه المسألة. دعينا لا نذكر اسمها".

"ولك ذلك من كل قلبي. ما أتمناه فحسب أن تُجرف هي وكل ما يمت لها بصلة إلى المكان الذي جاؤوا منه".

جمد في مكانه يحدق في النار لدقيقة أو أكثر. امتلأت عيناها الجافتان المعتمتان بدموع غير مألوفة وهي تنظر إليه، لكنها كانت هادئة متجهمة كالعادة عندما تكلم ثانية.

"صدرت مذكرات اعتقال بحق ثلاثة رجال شاركوا في المؤامرة، يا أمي. أعمال الشغب التي جرت أمس أفشلت الإضراب".

وبعد ذلك، لم يُذكر اسم مارغريت بين السيدة ثورنتِن وابنها اللذين عادا للتحدث عن الموضوعات المعتادة؛ عن الحقائق لا الآراء، وعلى درجة أقل، عن المشاعر. كانت نبرة صوتيهما هادئة باردة إلى درجة ربما تدفع غريباً عابراً للظن بأنه لم يسبق له في حياته أبداً أن شاهد مثل هذا التصرف البارد اللامبالي بين شخصين تربطهما مثل هذه الدرجة من القرابة.

سلة فواكه

انخـرط السـيد ثورنـتِن مبـاشرة وبشـكل واضـح في مشـاغل اليـوم التـالي. كان هنـاك طلـب محـدود عـلى البضائـع الجاهـزة، وبمـا أن ذلـك أثّـرَ عـلى جـزء مـن عملـه، فقـد دخـل في مفاوضـات شـاقة. التـزم بموعـد اجتـماع هيئـة القضـاة، ليكـون خـير معـين لهـم بمنطقـه القـوي، وقدرتـه الفـذة عـلى اسـتشراف العواقـب بلمـح البـصر، ومـن ثـم التوصـل إلى قـرار سريـع. أمـا الرجـال الأكـبر سـناً، مـن لهـم بـاع طويـل في المدينـة ـ مـن أصحـاب الـثروات الأكـبر، ممـن أدركـوا الواقـع، وتحولـوا إلى الأراضي، بينـما بقيـت ثروتـه مجـرد رأس مـال عائـم ـ فقـد توجهـوا للاسـتثمار في مجـال عملـه طالبـين مشـورة حكمتـه السريعـة المسـتعدة. كـما كان واحـداً ممـن فُوضـوا إجـراء الترتيبـات اللازمـة مـع الشرطـة، وأن يكـون القائـد في كل الخطـوات المطلوبـة. ومـع ذلـك، لم يبـال السـيد ثورنـتِن بمـا يكنـون لـه مـن احـترام وتقديـر ضمنـي أكـثر مـما كان يبـالي بالريـح الغربيـة اللطيفـة التـي كانـت لا تسـمح للدخـان المنبعـث مـن مداخـن المصنـع الطويلـة بالانحـراف عـن مسـار صعـوده إلى الأعـلى. لم يكـن مـدركاً لهـذا الاحـترام الصامـت الـذي لـو كان غـير ذلـك، لشـعر بـه عقبـة في طريقـه نحـو تحقيـق الهـدف الـذي كان يتطلـع إليـه. وبمـا أن الأمـر كان كذلـك، فقـد صـبَّ جهـده كامـلاً عـلى تحقيـق أهدافـه بسرعـة. إلا أن والدتـه هـي مـن كانـت تلتقـط الأخبـار بأذنيهـا مـن النسـوة اللـواتي تربطهـن علاقـات بالقضـاة والأثريـاء، وكيـف أن السـيد فـلان والسـيد عـلان يقـدرون عاليـاً السـيد ثورنـتِن الـذي لـولاه، لجـرت الأمـور بطريقة مختلفـة، وعـلى نحـو سيء. وبالفعـل، راح السـيد ثورنـتِن ينظـم عملـه يمنـة ويسـاراً ذلـك اليـوم. كان ذلـك واضحـاً رغـم الإهانـة التـي لحقـت بـه في الصميـم البارحـة،

والمسار الهائم المصدوم للساعات اللاحقة، التي ساهمت في طرد الغشاوة من رأسه، وعاد ليشعر بقوته ونفوذه. بل كاد ينجح في تحدي قلبه. لو عرف ذلك فعلاً ـ لكان أنشد أغنية[53] ذلك الطحان الذي يعيش بالقرب من نهر دي:

"لا أهتم بأحد، لأن أحداً لا يهتم بي".

قدمت له الشرطة دليلاً على تورط باوتشر وثلاثة آخرين من قادة المجموعة التي قامت بأعمال الشغب، إلا أنها فشلت في تقديم أي دليل على تورط الآخرين الثلاثة في المؤامرة. لكن السيد ثورنتِن طالب الشرطة بكل إصرار وحزم بأن تبقى مستيقظة لأنه يتعين على ذراع القانون اليمنى أن تكون مستعدة لتضرب بيد من حديد حالما يتبين لها أي خلل. غادر الغرفة الحارة ذات الرائحة العطنة في محكمة البلدة، إلى الشارع الأكثر نقاوة، وإن كان الجو لا يزال حاراً. مشى وكأنه قد تخلص من كل ما كان يشغل باله. كان متعباً إلى درجة عجز عن السيطرة على أفكاره التي راحت تتجه نحوها، وتستعيد المشهد، لا ذاك الذي شهد فيه رفضه قبل يوم واحد، بل اليوم الذي سبقه. راح يجول في الشوارع المكتظة بطريقة آلية، يدخل ويخرج من بين جموع الناس، من دون أن يراهم مأخوذاً بتلك اللهفة والحنين إلى نصف الساعة؛ لو تعود تلك البرهة من الزمن عندما تمسكت به، وقلبها ينبض فوق قلبه.

"لِمَ تعاملني بهذا الجفاء يا سيد ثورنتِن، عذراً إن قلت؟ وكيف حال السيدة ثورنتِن؟ يا له من طقس سيء! نحن، الأطباء، لا نحبه".

"أستميحك عذراً يا دكتور دونالدسِن، لم أرك. أمي بخير، شكراً لك. إنه يوم جميل، مناسب للحصاد كما آمل، إن كان موسم القمح جيداً هذه السنة، ستنتعش تجارتنا العام المقبل، رغماً عن الأطباء".

"أجل، كلٌ يغني على ليلاه، مصائب قوم عند قوم فوائد. عندما تنتكس التجارة، تتراجع الصحة، وتزدهر الاستعدادات للموت بين رجال ميلتِن، أكثر مما تتخيل".

---

(53) أغنية شعبية من التراث الفلكلوري لمنطقة تشيستَر شمال غرب إنكلترا، وعادة ما تُعرف بعنوان "طحّان دي" أو "الطحان السعيد". الأغنية بالأصل كانت جزءاً من مسرحية "حب في القرية" للكاتب الإيرلندي إيزاك بيكرستاف (1733 - 1808). (م)

"ليس معي أنا، يا دكتور. أنا مصنوعٌ من الحديد، فأنباء أسوأ الديون التي مرت في حياتي لم تهز فيَّ شعرة. هذا الإضراب، الذي أضرني أكثر من أي شخص آخر في ميلتِن، بل وأكثر من هامبَر، لم يؤثر حتى على شهيتي للطعام. أنصحك بالذهاب إلى مكان آخر بحثاً عن مريض، يا دكتور".

"بالمناسبة، لقد زكيتني عند مريضة طيبة، السيدة المسكينة! ليس من باب الكلام الخالي من الرحمة، ولكن أعتقد حقاً أن السيد هيل، السيدة التي تقيم في كرامبتِن، أنت تعرفها، لم يتبق لها في هذه الحياة سوى أسابيع معدودات. لا أمل في الشفاء. زرتها اليوم، ووضعها في غاية السوء".

صمت السيد ثورنتِن وحار جواباً، فتبجحه بزهو قوته خانه للحظة.

"هل يمكنني أن أفعل شيئاً يا دكتور؟"سأله بنبرة مختلفة. "قل لي وسترى، قد لا يكون هناك وفرة من المال، ولكن هل هناك من أشياء توفر لها الراحة، أو أطعمة يستحسن أن تتناولها؟"

"لا"، أجابه الدكتور دونالدسِن وهو يهز برأسه أسفاً. "إنها تشتهي الفواكه، وتعاني من حمى دائمة، لكن الأجاص سيكون مفيداً لها مثل أي شيء آخر، وهو متوفر في السوق بكميات كبيرة".

"أنا واثق بأنك ستخبرني بأي شيء تحتاجه السيدة هيل"، قال السيد ثورنتِن.

"كن مطمئناً، لن أوفر محفظة نقودك، فأنا أعلم أنها كبيرة ومنتفخة. أتمنى لو تعطيني الضوء الأخضر لجميع مرضاي واحتياجاتهم".

لم يكن السيد ثورنتِن ذلك الرجل الذي يتمتع بكرم حاتمي، ولا مُحسناً خيِّراً، لأنه لو كان لديه بعض من هذه الخصال، لمنحته فضيلة المشاعر النبيلة. لكن هذا لم يمنعه من التوجه إلى أول دكان لبيع الفواكه، وانتقى عنباً أرجوانياً بحبات طرية، ودراقاً زاهي الألوان، وكمية من أوراق العنب الغضة الطازجة، ووُضعت جميعها في سلة بينما انتظر صاحب الدكان من يجيبه على سؤاله: "إلى أين نرسلها يا سيدي؟".

لم يرد عليه أحد. "هل نرسلها إلى مصنع مارلبره، يا سيدي؟".

"لا" قال السيد ثورنتِن. "أعطني السلة، أنا سآخذها".

اضطر أن يحمل السلة بكلتا يديه، ويعبر أكثر أحياء المدينة ازدحاماً بالنساء اللواتي كن يتسوقن. وكم من سيدة شابة التفتت لتراقبه، واستغربت أن يقوم بعمل حمّال أو صبي دكان يوصل الطلبات.

كان يفكر بينه وبين نفسه وهو يقول: "لن يمنعني التفكير بها من القيام بعمل اخترته طواعية. أحب أن آخذ هذه الفواكه إلى الأم المسكينة، ومن الصواب أن أقوم بذلك. يا لها من نكتة إن كنت أعجز عن القيام بفعل طيب لرجل أحبه، لأني أخاف من فتاة متعجرفة. إنما أفعل هذا من أجل السيد هيل، وتحدياً لها".

انطلق بإيقاع غير معتاد، وسرعان ما وصل إلى كرامبتِن. صعد السلم درجتين معاً، ودخل غرفة الضيوف قبل أن تعلن ديكسِن عن وصوله، احمر وجهه، والتمعت عيناه بحماسة عطوف. كانت السيدة هيل مستلقية على الكنبة وحرارتها مرتفعة بسبب الحمى، وكان السيد هيل يقرأ بصوت مرتفع. كانت مارغريت منكبة على تطريز الكنفا وهي جالسة على مقعد صغير بجانب والدتها. خفق قلبها، إن لم يخفق قلبه، في هذا اللقاء، لكنه لم يلتفت إليها، بل توجه إلى السيدة هيل مباشرة وقدم لها سلة الفواكه وهو يقول بنبرة لطيفة منخفضة مؤثرة خاصة عندما يستخدمها رجل نشيط معافى في حديثه مع مريض متعب:

"قابلت الدكتور دونالدسِن، يا سيدتي، وحالما أخبرني أن الفواكه مفيدة لك، سمحت لنفسي بحرية بالغة أن أحضر لك بعضاً منها ارتأيت أنها ستكون مناسبة لك". فوجئت السيدة هيل وسُرت سروراً كبيراً حتى اعترتها رجفة من الحماسة. وأعرب السيد هيل بكلمات معدودة عن خالص امتنانه.

"مارغريت! أحضري طبقاً، سلة، أي شيء". وقفت مارغريت بالقرب من الطاولة وهي تخشى أن تتحرك أو تصدر ضجة قد تلفت انتباه السيد ثورنتِن إلى وجودها في الغرفة. وظنت أنه سيكون مُحرجاً لهما أن يلتقيا في مسار تصادمي

وجهاً لوجه، وتخيلت، بسبب جلوسها على مقعد واطئ في البداية، ووقوفها الآن خلف أبيها، أنه تجاهلها بسبب استعجاله، مع العلم أنه لم ينظر نحوها أبداً.

"علي أن أذهب" قال السيد ثورنتِن. "لا يمكنني البقاء. سامحوني أن سمحت لنفسي بهذا التصرف، بطريقتي الخشنة الفظة، والمفاجئة، لكني المرة القادمة سأكون أكثر لطفاً. لو تفضلتِ علي بالسماح لي أن أحضر لك بعض الفواكه مرة ثانية، إن رأيت فيها ما يُغري. نهاركم سعيد سيد هيل. وداعاً سيدتي". وغادر من دون كلمة واحدة أو حتى نظرة إلى مارغريت التي كانت تحسب أنه لم يرها. ذهبت لإحضار طبق بكل صمت، وراحت تضع الفواكه بأطراف أصابعها الرقيقة الرفيعة. كان تصرفاً لطيفاً منه أن يحضر الفواكه، وخاصة بعد كل ما جرى البارحة!

"يا الله ما ألذها!" قالت السيدة هيل بصوت مُتعَب. "كم لطيف منه أن يفكر بي! حبيبتي مارغريت، تذوقي هذا العنب! أليس لطيفاً منه أن يفعل ذلك؟".

"أجل" أجابتها مارغريت بهدوء.

"مارغريت!" قالت السيدة هيل بنبرة شاكية، "أنت لا يعجبك أي شيء يفعله السيد ثورنتِن. لم أرى أحداً متحاملاً إلى هذه الدرجة".

كان السيد هيل يقشر دراقة لزوجته، ويقطع قطعة صغيرة لنفسه، عندما قال:

"إن كان عندي أي ضغينة تجاه أحد ما، فهدية من الفواكه اللذيذة مثل هذه كفيلة بأن تمحوها. لم أذق في حياتي فاكهة لذيذة كهذه، ولا حتى في هامشاير، منذ كنت صبياً، وبالنسبة إلى الصبية، كما أتصور، كل الفواكه لذيذة. لا زلت أذكر كيف كنا نأكل سمك موسى والسلطعون بفرح عارم. هل تذكرين شجيرات التوت البري الكثيفة عند زاوية السور الغربي في حديقة البيت؟"

ألم تتذكر؟ ألم تتذكر كل بقعة تركها الطقس على السور الحجري؛ الأشنيات الصفراء والرمادية التي امتدت فوق السور وكأنها خارطة؛ ونباتات إبرة الراعي التي نمت بين الشقوق والتجاويف؟ هزتها أحداث اليومين الماضيين حتى باتت حياتها بأكملها أشبه بعبء ثقيل ينهك قوتها؛ بل إن كلمات

والدهـا غـير المكترثـة التـي لامسـت ذكـرى الأيـام المشمسـة القديمـة جعلتهـا تنتفـض، وترمـي القـماش مـن يدهـا، وتندفـع مسرعـة نحـو غرفتهـا الصغـيرة. ومـا إن أطلقـت أولى تأوهاتهـا حتـى أحسـت بوجـود ديكسِـن تبحـث عـن شيء مـا في أدراج الخزانـة.

"باركك الله يا آنسة! لقد أفزعتني! هل أصاب السيدة أي مكروه؟ ما الأمر؟".

"لا، لا شيء. أنـا سـخيفة فحسـب، يـا ديكسِـن، وأريـد كأس مـاء. عـما تبحثـين؟ أنـا أحتفـظ بفسـاتين الموسـلين في ذلـك الـدرج".

لم تجبهـا ديكسِـن، وواصلـت البحـث. فاحـت رائحـة الخزامـى في أرجـاء الغرفـة، واسـتدارت ديكسِـن نحـو مارغريـت وقالـت لهـا:

"لا أود أن أخـبرك بمـا أريـد، لأنـه لديـك مـا يكفيـك مـن الهـم والقلـق، وأعلـم أنـك ستشـعرين بحـزن بالـغ إن أخبرتـك. كنـت أريـد أن أحتفـظ بالأمـر حتـى المسـاء، أو إلى ذلـك الحـين تقريبـاً".

"ما الأمر يا ديكسِن؟ أرجوك أخبريني في الحال".

"تلك الفتاة التي تذهبين لزيارتها، أقصد هيغينز".

"أجل؟"

"توفيـت هـذا الصبـاح، وأختهـا هنـا الآن، جـاءت تطلـب شـيئاً غريبـاً. عـلى مـا يبـدو أن الفتـاة ـ التـي توفيـت ـ كانـت تتمنـى لـو تُدفـن بـشيء مـا يخصـك، وجـاءت أختهـا لتطلـب ذلـك. كنـت أبحـث عـن رداء للنـوم مـع قلنسـوة يمكـن التخلي عنهما".

"دعينـي أجـد واحـداً"، قالـت مارغريـت والدمـوع تنهمـر مـن عينيهـا. "مسـكينة بيـسي! لم أتخيـل يومـاً أني لـن أراهـا ثانيـة".

"وهناك شيء آخر، طلبت مني أختها أن أسألك إن كنت تودّين رؤيتها".

"لكنهـا ماتـت!" قالـت مارغريـت وقـد اصفـرّ وجههـا قليـلاً. "لم أرَ في حيـاتي شـخصاً ميتـاً. لا! لا أرغـب في ذلـك".

"ما كنت لأخبرك بكل هذا، لو لم تدخلي إلى الغرفة. أنا أخبرتها بأنك لن تذهبي".

"سأنزل وأتحدث معها"، قالت مارغريت خشية أن تجرح فظاظة ديكسِن الفتاةَ المسكينة. أخذت معها رداء النوم، وذهبت إلى المطبخ. كان وجه ماري متورماً من شدة البكاء، وما إن رأت مارغريت حتى انفجرت بموجة أخرى.

"آه يا سيدتي، لقد أحبتك، أحبتك من كل قلبها!". ولفترة طويلة، لم تستطع مارغريت أن تجعلها تقول أكثر من ذلك. أخيراً، وبفضل تعاطفها معها، وتحت تأثير تأنيب ديكسِن، انتزعت منها مارغريت معلومات جديدة. كان نيكولاس هيغينز قد غادر المنزل تاركاً ابنته بيسي على خير ما يرام كما كانت في اليوم السابق. لكن في غضون ساعة، ساءت حالتها، وهرع بعض الجيران إلى حيث كانت تعمل ماري، لأنهم لم يعرفوا أين يجدون أبيها، وعادت ماري إلى البيت قبل خمس دقائق من وفاة أختها.

"قبل يوم أو يومين طلبت أن تُدفن بشيء يخصك. لم تمل عن الحديث عنك أبداً. كانت تقول إنك أجمل شيء رأته عيناها. لقد أحبتك كثيراً. وكانت آخر كلماتها: "أبلغيها خالص ودّي ومحبتي، وامنعي أبي من الشرب. ستأتين لترينها، كانت لتقدر لك هذا الفعل كثيراً، أنا أعلم".

حاولت مارغريت أن تتملص من الإجابة.

"أجل، ربما. لا، لا، سآتي قبل موعد الشاي. أين والدك، يا ماري؟"

هزت ماري رأسها بالنفي، ووقفت استعداداً للرحيل.

"آنسة هيل"، همست ديكسن، "ما الجدوى من ذهابك لرؤية فتاة ميتة؟ لا اعتراض لدي ضد ذهابك إليها لو كان يفيدها في شيء، بل ولا أمانع أن أذهب أيضاً بنفسي، إن كان ذلك يرضيها. هؤلاء الناس هنا يعتقدون أن في ذلك احتراماً للفقيدة". واستدارت نحو ماري بحدة وقالت لها "سآتي لرؤية أختك، الآنسة هيل مشغولة، لا يمكنها أن تأتي، وإلا لفعلت ذلك".

نظرت ماري بحزن وأسى إلى مارغريت. قد يكون قدوم ديكسِن تقديراً لأختها، ولكن

ليس بالقذْر نفسه إن جاءت مارغريت، بالنسبة إلى الفتاة المسكينة التي كانت أحيانا تشعر بالغيرة من أختها، في حياتها، بسبب علاقتها الحميمة مع السيدة الشابة.

"لا يا ديكسِن!" قالت مارغريت بحزم. "أنا سأذهب، سآتي إليكم بعد الظهر يا ماري". وخشية أن يتغلّب عليها جبنها، ابتعدت مارغريت حتى لا تعطي نفسها أيَّ فرصة لتغيير قرارها.

السلوى في الشجن

في عصر ذلك اليوم، سارت مارغريت بخطاً سريعة إلى منزل آل هيغينز. كانت ماري تترقّب قدومها بوجه يكسوه شك في احتمال مجيئها. ابتسمت لها مارغريت لتطمئنها. عبرتا ساحة البيت بسرعة، وصعدتا الدرج، ومن ثم إلى حضرة الميت الهادئة. شعرت مارغريت بالسعادة لأنها جاءت. فهذا الوجه الذي طالما كان مُنهَكاً من الألم، وقلِقاً من الأفكار المضطربة، بات يرسم الآن ابتسامة الراحة الأبدية الناعمة الباهتة. تجمعت الدموع بطيئة في عيني مارغريت، لكن هدوءاً عميقاً تسلل إلى روحها. وهكذا كان الموت! لقد بدت أكثر طمأنينة مما كانت عليه في حياتها. وتذكرت أجمل المقاطع في الكتاب المقدس: "يستريحون من أتعابهم"[54]، "هناك يستريح المتعبون"[55]، "لكنه يعطي حبيبه نوماً"[56].

وببطء شديد، استدارت مارغريت وابتعدت عن السرير. كانت ماري تنتحب بخشوع في الخلف. نزلتا الدرج من دون أن تنطقا بكلمة واحدة.

كان نيكولاس هيغينز يقف في وسط الصالة ويداه على الطاولة، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما وقد أفزعتهما الأنباء التي سمعها من أناس كثر، وهو في طريقه إلى ساحة المنزل. كانت عيناه جافتين قاسيتين وهو يتأكد من حقيقة موتها، ويحاول أن يقنع نفسه أن هذا المكان لم يعد مكانها. وعلى الرغم من أنها

(54) سفر الرؤيا (13: 14).

(55) سفر أيوب (3: 17).

(56) المزامير (127: 2) (م)

كانت مريضة تحتضر منذ وقت طويل، كان مقتنعاً في داخله بأنها لن تموت بل "ستصمد وتتجاوز المرض".

شعرت مارغريت بأن لا مُسوِّغَ لوجودها هناك، وهي تتعرف على أجواء الموت الذي سمع به الأب للتّو. عندما رأته، توقفت للحظة على الدرج الملتوي شديد الانحدار، ثم حاولت أن تختلس النظر إلى عينيه الفارغتين، وأن تتركه في دائرة الحزن المهيب، وتعاسة أهل بيته.

جلست ماري على أول كرسي صادفته في طريقها، ورمت بمريولها فوق رأسها وراحت تجهش بالبكاء.

أثارته الضجة، فأمسك فجأة بذراع مارغريت، وظل متشبثاً بها حتى تمكّن من تجميع الكلمات التي يريد قولها. كانت حنجرته جافة، فخرج الكلام ثقيلاً مخنوقاً وخشناً:

"هل كنتِ معها؟ هل رأيتِها عندما لفظت أنفاسها الأخيرة؟"

"لا" أجابت مارغريت، وهي تقف جامدة في مكانها بصبر كبير، وقد أدركت بأنه يعلم تماماً من تكون. مضت فترة من الوقت قبل أن يتابع كلامه، لكنه ظل ممسكاً بذراعها.

"الموت قدر الجميع"، قال أخيراً، بنبرة تتسم بنوع غريب من الجدية والوقار أعطت مارغريت للوهلة الأولى انطباعاً بأنه كان يعاقر الخمر لكن ليس إلى حد الثمالة، بل بما يكفي لأن يجعل أفكاره مشوشة. "لكنها كانت أصغر مني سناً". كان يفكر بما جرى من دون أن ينظر إلى مارغريت رغم أنه كان يشد على ذراعها بقوة. وفجأة نظر إليها وفي عينيه نظرة موحشة مشكِكة. "هل تأكدت من أنها ميتة، وليست في غيبوبة أو إغماءة؟ فغالباً ما كانت تغيب عن الوعي".

"أجل، لقد فارقت الحياة"، أجابته مارغريت من دون أن يخالجها شعور بالخوف من التحدث إليه رغم أن قبضته آلمت ذراعها، وذلك اللمعان المتوحش في بلاهة عينيه .

"نعم، ماتت"، قالت مرة أخرى.

ظل ينظر إليها بتلك النظرة المستفسرة التي راحت تخبو في عينيه وهو يحدق بها. وفجأة أفلت مارغريت من قبضته، وانحنى بجسده فوق الطاولة يهزّها وكل قطعة أثاث في الغرفة ببكائه الهستيري العنيف، فأسرعت إليه ماري وهي ترتجف.

"اذهبي! انصرفي عني!" صاح بها، وهو يحاول ضربها بعنف كيفما اتفق. "ما عساي أفعل لك؟". أخذت مارغريت يد ماري بين يديها وأمسكت بها بكل رقّة. نتف شعره، وخبط رأسه بالخشب القاسي، ثم ارتمى مُنهَكاً فاقد الحس. جمدت مارغريت وابنته في مكانهما. كانت ماري ترتعد خوفاً من قمة رأسها حتى أخمص قدميها.

أخيراً، ربما بعد ربع ساعة أو ساعة، نهض على قدميه. كانت عيناه متورمتين تحتقنان دماً، وبدا أنه نسي وجود أحد إلى جانبه. راح يصرخ على المتطفلين الذي تجمعوا عند المنزل. اهتز جسده بتشنّجات عنيفة، ورمقهم بنظرة مُفزِعة، ثم توجه نحو الباب من دون أن ينطق بكلمة واحدة.

"أبي، أبي!" صرخت ماري، ورمت بنفسها فوق ذراعه، "ليس الليلة، أي ليلة أخرى إلا هذه الليلة. ساعديني! إنه ذاهب ليشرب مرة أخرى. لن أتركك. اضربني إن شئت، لكني لن أدعك تذهب. طلبت مني في آخر كلماتها أن أمنعك من الشرب".

لكن مارغريت وقفت في طريقه، صامتة حازمة. نظر إليها نظرة تحدٍ.

"هذا بيتي، ابتعدي عن طريقي، يا فتاة، أو أجبرك على ذلك!" دفع ماري بعنف، وبدا مستعداً ليضرب مارغريت. لكن لم يهتز لها جفن، أو يحرك ساكناً في عينيها اللتين واصلتا التحديق إليه بثبات. فبادلها نظرة مليئة بشراسة كئيبة. لو حركت يداً أو قدماً، لدفعها جانباً بعنفٍ فاق ما فعله مع ابنته التي سال الدم من وجهها إثر سقوطها على كرسي قريب.

"لِمَ تنظرين إليّ بهذه الطريقة؟" سألها أخيراً، مُحبطاً مُصدوماً بهدوئها. "إن كنت تظنين أنك ستمنعينني من الذهاب حيث أريد لأنها كانت تحبك، وفي بيتي

أيضاً الذي لم أطلب منك المجيء إليه، فأنت مخطئة. من الصعب على الرجل أن يُمنع من الذهاب إلى المكان الوحيد الذي يجد فيه السلوى والراحة".

أدركت مارغريت أنه استسلم لتأثيرها عليه. ماذا يمكنها أن تفعل بعد هذا؟ جلس على كرسي على مقربة من الباب موزَّعاً بين الإحساس بالهزيمة والامتعاض، وقد عقد النية على الذهاب حالما تغادر مكانها، لكنّه تراجع عن استخدام العنف الذي كان يهدد به قبل خمس دقائق.

"تعال معي"، قالت له. "تعال لنراها".

تكلمت بصوت منخفض وقور يخلو في ما عبرت عنه سواءً من الخوف منه، أو الشك بانصياعه لها. نهض متثاقلاً متجهم الوجه، متردّداً وعلى وجهه حيرة وارتباك. انتظرته، انتظرت زمانه أن يتحرك. كان لديه لذة غريبة في أن يجعلها تنتظر، لكنه أخيراً تحرك نحو الدرج.

وقفا إلى جانب الجسد المسجى.

"آخر ما نطقت به في حياتها (لا تدعي أبي يشرب)".

"لن يضرها هذا الأمر الآن"، أجابها هامساً، "لا شيء يستطيع أن يؤذيها الآن". رفع صوته بالنحيب والعويل، وتابع كلامه: "ربما كنا نتشاجر ونتخاصم ثم نتصالح ونعود أصدقاء، وربما كنا نتضور جوعاً حتى نصبح جلداً وعظماً. أما الآن فلن يمسها أي شيء من مآسينا، فقد نالت نصيبها، سواء بالعمل الشاق أولاً، وبالمرض أخيراً. لقد عاشت عيشة الكلاب. وماتت من دون أن تعرف طعم الفرح في حياتها! لا، أيتها الفتاة، أياً كان ما قالته، من يدري أيَّ شيء عنه الآن، لذا يجب علي أن أشرب كي أتحمّل هذا الحزن كله".

"لا"، قالت له وقد خففت من حدّة كلامها مع تراجع حدة كلامه. "لا لن تذهب للشرب. إن كانت حياتها كما قلت، فهي على الأقل لم تخشَ الموت كما يخشاه بعضهم. كان يجب عليك أن تسمعها تتحدث عن الحياة التي ستأتي؛ الحياة الموعودة مع الله التي رحلت إليها الآن".

هزَّ رأسه وهو يختلس النظر يمنة ويساراً إلى مارغريت التي راعها منظر وجهه المتعب.

"أنت متعب جداً. أين كنت طوال النهار، لم تكن في العمل؟".

"لا لم أكن في العمل، بالتأكيد"، قال وهو يطلق ضحكة مقتضبة عبوسة "أو ما يمكن أن تسميه عملاً. كنت في لجنة الاتحاد، حتى سئمت حياتي وأنا أحاول أن أعيد أولئك الحمقى إلى رشدهم. كنت قد ذهبت قبل الساعة السابعة صباحاً إلى زوجة باوتشر التي كانت طريحة الفراش. اهتاجت وماجت وهي تسألني أين هو زوجها الشهواني المتوحِّش، وكأني أنا من أخفيه عنها، أو لديَّ القدرة على ضبطه والسيطرة عليه. ذلك الأحمق الغبي الذي أطاح بخططنا كلها! ومن ثم مشيت وقدماي تؤلمانني لأقابل أشخاصاً لا يمكن لأحد أن يراهم، لقد أصبح القانون يقف ضدنا. كنت موجوع القلب، وهو أسوأ وأشد إيلاماً من وجع القدمين، ولو رأيت صديقاً خاطر بالتحدث إليَّ، لما علمت بمن يرقد ميتاً هنا. بيس، يا فتاتي، ألا تصدقيني، أنت تصدقيني أليس كذلك؟" والتفت يحادث الجسد الصامت بتوسلٍ هستيري.

"أنا متأكدة"، قالت مارغريت، "أنا متأكدة أنك لم تكن تعلم، حدث كل شيء فجأة. أما الآن، كما ترى، الأمر بات مختلفاً، أنت تعلم، وتراها راقدة هناك، وتسمع ما قالته مع آخر نفس في صدرها. لن تذهب".

لم يرد عليها. أين سيبحث عما يمكن أن يواسيه؟

"تعال معي إلى البيت"، قالت له أخيراً، بمغامرة جريئة، وهي تكاد ترتجف من الاقتراح الذي قدمته. "على الأقل ستحصل على طعامٍ أنا واثقة أنك بحاجة إليه".

"والدك قسٌّ؟" سألها في تحول مفاجئ في ما كان يجول برأسه من أفكار.

"كان قساً"، أجابت مارغريت باختصار.

"سأذهب لتناول الشاي معه، بما أنك طلبتِ مني. لدي الكثير من الأشياء التي طالما تمنيت قولها لقسٍّ، ولا يهمني إن كان ما يزال يلقي العظات أم لا".

ارتبكت مارغريت، فشرب الشاي مع والدها الذي لن يكون مستعداً لهذه الزيارة، ووالدتها المريضة، كل هذا بدا لها غير مناسب على الإطلاق. لكنها إن

تراجعت، سيكون الأمر أكثر سوءاً إلى درجة تدفعه إلى الحانة. لذلك رأت أن مجرد أن تقنعه بالذهاب معها إلى منزلها، كان خطوة كبيرة يمكن لها أن تُعوِّل عليها في ما سيأتي من أحداث لاحقاً.

"وداعاً يا فتاة، ها قد افترقنا أخيراً. لكنك كنت بركة لوالدك منذ وُلدت. بوركت شفتاك البيضاوان أيتها الجميلة، وها هي الابتسامة عليهما الآن، وأنا سعيد لأن أرى هذه الابتسامة مرة أخرى، وإن كنت سأبقى وحيداً حزيناً للأبد".

انحنى وقبَّل ابنته، ثم غطى وجهها، واستدار ليلحق بمارغريت التي سبقته بالنزول على الدرج لتخبر ماري بما اتفقت عليه مع والدها، وتقول لها إن منزلها هو المكان الوحيد الذي خطر على بالها لمنعه من الذهاب إلى الحانة. طلبت من ماري أن ترافقهما، إذ شعرت بالألم يعتصر قلبها لمجرد التفكير بترك هذه المسكينة المفجوعة لوحدها في المنزل. لكن ماري أخبرتها بأن لديها أصدقاء بين الجيران سيأتون ويجلسون معها، وسيكون الأمر على ما يرام؛ خلافاً لحالة أبيها. فهو كان هناك مع الجيران، وإلا كانت ستقول المزيد. فقد تخلّص من مشاعره وكأنه يشعر بالعار من البوح بها، بل حتى إنه أطلق العنان لنفسه إلى درجة أطلق ضحكة مريرة أشبه بطقطقة الشوك اليابس المحترق تحت القِدْر[57].

"أنا ذاهبٌ لتناول الشاي مع والدها".

أرخى نيكولاس قبعته فوق جبينه حالما وصل إلى الشارع، ولم يلتفت شمالاً أو يميناً وهو يمشي إلى جانب مارغريت. كان يخشى أن تزعجه كلمات الجيران المتعاطفين معه ونظراتهم. وتابع مع مارغريت مسيرهما في صمت مطبق.

وما إن اقترب من الشارع الذي كان يعلم أنها تسكن فيه، حتّى ألقى نظرة على ملابسه، ويديه، وحذائه.

"كان يجب أولاً أن أنظف نفسي".

بالطبع لم يكن الأمر مقبولاً، لكن مارغريت أكّدت له أنه سيُسمح له بالدخول إلى الباحة، ويُقدم له الصابون والمنشفة. لم تكن تريده أن يتملّص منها الآن.

---

(57) إشارة إلى: "لأنه كصوت الشوك تحت القدر، هكذا ضحك الجُهَّال، هذا أيضاً باطل (سفر الجامعة، الإصحاح السابع)

وبينـما كان يتبـع الخادمـة عـلى طـول الممـر، وهـو يعـبر المطبـخ، كان يخطـو بـكل حـرص وحـذر فـوق كل علامـة قاتمـة في نقـوش القـماش الزيتـي مـن أجـل أن يخفـي آثـار قدميـه المتّسـخة. صعـدت مارغريـت الـدرج، والتقـت بديكسِـن عنـد الفسـحة.

"كيف حال أمي؟ وأين أبي؟".

شـعرت السـيدة هيـل بتعـب شـديد وأرادت الذهـاب إلى غرفتهـا لتنـام، لكن ديكسِـن أقنعتهـا بالاسـتلقاء عـلى الكنبـة، وأن تحـضر لهـا الشـاي بـدلاً مـن أن تشـعر بالضيـق مـن المكـوث في السريـر لفـترة طويلـة.

تبـدو الأمـور عـلى مـا يـرام، حتـى الآن. لكـن أيـن السـيد هيـل؟ كان في غرفـة الضيوف فسـارعت مارغريـت إليـه لاهثـة لتخـبره بحكايتهـا المسـتعجَلة. بالطبـع، لم تخـبره الحكايـة كاملـة، وفوجـئ والدهـا بفكـرة أن حائـكاً ثمِـلاً كان ينتظـره في غرفـة المكتـب، ومـن المفـترض أن يـشرب الشـاي معـه، وكانـت ابنتـه تتوسـله مـن أجـل أن يقابلـه. مـا كان السـيد هيـل طيـب القلـب ليـتردّد في مواسـاة الرجـل في حزنـه، لكـن، لسـوء الحـظ، أن الأمـر الـذي أصرت عليـه مارغريـت كان يتصـل بمسـألة إحضارهـا رجـلاً كان يـشرب إلى المنـزل كإجـراء أخـير لمنعـه مـن العـودة إلى الحانـة. تتـالي الأحـداث عـلى هـذا النحـو الطبيعـي كان كفيـلاً بـأن يجعـل مارغريـت لا تعـي تمامـاً مـا قامـت بـه حتـى رأت نظـرة الاسـتياء تلـك عـلى وجـه أبيهـا.

"أبي، أنه شخص لن تكرهه، إن لم تكن مصدوماً به منذ البداية".

"لكن يا مارغريت، هل يُعقل أنت تحضري رجلاً ثملاً إلى المنزل وأمك مريضة!".

امتقـع وجـه مارغريـت. "أنـا آسـفة يـا أبي. إنـه هـادئ تمامـاً، وليـس سـكرانَ عـلى الإطـلاق. كان يتـصرف بغرابـة نوعـاً مـا في البدايـة، ربمـا بسـبب صدمتـه مـن وفـاة ابنتـه بيـسي". قالـت مارغريـت وقـد اغرورقـت عيناهـا بالدمـوع. أحـاط والدهـا وجههـا المتوسـل بكلتـا يديـه، وقبّـل جبينهـا.

"حسـناً، يـا عزيـزتي. سـأقابله وأحـاول التخفيـف عنـه قـدر مـا اسـتطيع، واذهبـي أنت لرعايـة أمـك. لكنـي سـأكون سـعيداً إن وافيتنـي إلى المكتـب لتجعـلي اللقـاء ثلاثيـاً".

"أجـل يـا أبي، شـكراً لـك". لكـن وبينـما كان السـيد هيـل يغـادر الغرفـة، لحقـت بـه مارغريـت.

"أبي، لا تتعجب مما يقوله: فهو... أقصد لا يؤمن كثيراً بما نؤمن به نحن"

"يـا سـلام، حائـك سـكير وكافـر!" تمتـم السـيد هيـل بامتعـاض شـديد، ثـم التفـت نحـو مارغريـت وقـال لهـا: "إن ذهبـت أمـك للنـوم، تعـالي إلي فـوراً".

ذهبت مارغريت إلى غرفة والدتها التي كانت قد صحت من غفوة قصيرة.

"متى كتبت الرسالة إلى فريدريك، يا مارغريت؟ البارحة، أم أول البارحة؟".

"البارحة، يا أمي".

"البارحة، وذهبت الرسالة؟".

"أجل، أخذتها بنفسي إلى مكتب البريد".

"آه يـا مارغريـت، كـم أنـا خائفـة مـن مجيئـه إلى هنـا! إن تعـرف عليـه أحـد، أو اعتقلـوه، أو أعدمـوه، بعـد كل هـذه السـنوات التـي أمضاهـا بعيـداً بأمـان وسـلام. غالبـاً مـا أغـط في النـوم ويـراودني حلـم بأنهـم اعتقلـوه ويحاكمونـه".

"لا تخـافي يـا أمـي. لـن يخلـو الأمـر مـن بعـض المخاطـرة، بالتأكيـد، لكننـا سـنحاول قـدر الإمـكان التقليـل مـن احتـمال الخطـر. وهـو محـدود جـداً. لـو كنـا الآن في هِلْسـتِن، لـكان الخطـر أكـبر عشريـن، بـل مئـة مـرة. فهنـاك سـيتذكره الجميـع، وإن علمـوا أن شـخصاً غريبـاً في المنـزل، سـيعرفون بالتأكيـد أنـه فريدريـك. أمـا هنـا، فـلا أحـد يعرفنـا، أو يكـترث بمـا نفعـل. كـما أن ديكسِـن سـتحرس البـاب مثـل التنـين عندمـا يكـون فريدريـك هنـا، أليـس كذلـك يـا ديكسِـن؟".

"سـيكونون أذكيـاء جـداً إن حاولـوا تجـاوزي!" قالـت ديكسِـن وهـي تكـشر عـن أسـنانها.

"ويُستحسن ألا يخرج إلا بعد حلول الظلام، المسكين!".

"المسـكين!" رددت السـيدة هيـل. "كنـت أتمنـى لـو لم تكتبـي إليـه. هـل سـيكون الوقـت قـد فـات لمنعـه مـن المجيء، إن أرسـلت لـه رسـالة ثانيـة، يـا مارغريـت؟".

"للأسـف، نعـم"، أجابـت مارغريـت، وهـي تتذكـر اسـتعجال والدتهـا في التوسـل إليـه للقـدوم، إن أراد رؤيـة والدتـه عـلى قيـد الحيـاة.

"أنا أكره هذا الاستعجال".

بقيت مارغريت صامتة.

"مهلاً يا سيدتي"، قالت ديكسِن، بنوع من التفويض المبتهج، "أنت تعلمين تماماً أن رؤية السيد فريدريك هي أكثر شيء تتوقين إليه. وأنا سعيدة لأن الآنسة مارغريت كتبت إليه على وجه السرعة دونما تردّد أو تأخير. بل كنت أودُّ لو أكتب له بنفسي. سنحميه برمش العين، لا تخافي. لا يوجد أحد غريب في المنزل سوى مارتا التي لن يكون لها دور في رعايته عند الضرورة، بل كنت أفكر لو تذهب لزيارة والدتها عندما يكون فريدريك هنا. لقد كرّرت على مسامعي مرّة أو مرّتين رغبتها بالذهاب إلى والدتها التي أصابتها نوبة من الحزن منذ أن جاءت ابنتها إلى هنا، لكنها خجلت أن تطلب الإذن. وأرى أنه من الأفضل أن نرسلها لترى والدتها، حالما نعلم بوصول السيد فريدريك، باركه الله! اشربي الشاي يا سيدتي وأنت مطمئنة، ودعي الأمر لي".

وثقت السيدة هيل بديكسِن أكثر مما وثقت بمارغريت. فكلام ديكسِن طمأن مخاوفها حالياً. صبت مارغريت الشاي بصمت وهي تحاول التفكير بأن تقول شيئاً مناسباً، لكن أفكارها قادتها إلى أجوبة مثل ما أجاب به دانييل أورورك[58] عندما طلب منه الرجل ـ في ـ القمر أن يتخلص من منجل الحصاد قائلاً: "كلما قطعتنا، لن نحرك ساكناً". كلما حاولت مارغريت التفكير بشيء ما، إلى جانب الخطر الذي قد يتعرض له فريدريك، تعلق خيالها أكثر بتلك الفكرة البائسة. انشغلت والدتها بالحديث، ونسيت احتمال محاكمة فريدريك وإعدامه، نسيت ذلك تماماً بمحض إرادتها، وإن كان، نتيجة لما فعلته مارغريت نفسها، قد استُدعي إلى مكمن الخطر عينه. كانت والدتها من النوع الذي يرمي الاحتمالات المرعبة، والبائسة، والتعيسة من كل شكل ولون، كما يرمي صاروخ الألعاب النارية الشرر الذي ما إن يقع على مادة قابلة للاشتعال، حتى يحولها إلى كرة من اللهب في نهاية المطاف، مهما كان احتراقها بطيئاً في البداية. وبعد أن أدت واجب الرعاية تجاه والدتها، شعرت مارغريت بالسعادة لأنها بات بمقدورها الآن

---

(58) إشارة إلى حكاية دانييل أورورك التي وردت في كتاب الأيرلندي توماس كروفتِن كروكر (1798 - 1854) الشهير بعنوان "حكايات وقصص شعبية من تراث الجنوب الأيرلندي". (م)

الذهـاب إلى المكتـب، مدفوعـة بالرغبـة لمعرفـة كيـف كان يسـير اللقـاء بـين والدهـا وهيغينـز.

منـذ البدايـة، تمكّـن السـيد الخلـوق المهـذّب طيـب القلـب، بلباقتـه وتهذيبـه، أن يسـتدعي مـن دون قصـد لـدى ضيفـه تأدبـاً صريحـاً.

دأب السـيد عـلى معاملـة الجميـع عـلى قـدر متسـاوٍ مـن الاحـترام، ولم يفكّـر مطلقـاً في الفـوارق التـي يفرضهـا المركـز أو الطبقـة. قـدم كرسـياً إلى هيغينـز وظـل واقفـاً حتـى جلـس الأخـير بطلـب مـن السـيد هيـل. كـما نـاداه بــ "السـيد هيغينـز"، بـدلاً مـن اسـمه الصريـح "نيكـولاس" أو كنيتـه "هيغينـز" الـذي كان "الحائـك السـكير الكافـر" معتـاداً عليـه. لكـن هيغينـز لم يكـن مدمنـاً عـلى الـشراب أو حتـى كافـراً بالمعنـى المطلـق. كان يعاقـر الـشراب، كـما عـبر عـن ذلـك ذات مـرة، لينـسى همومـه؛ وكان كافـراً لأنـه لم يجـد حتـى الآن أي شـكل مـن أشـكال الإيمـان يمكـن لـه أن يتعلـق بـه بـكل قناعـة وحماسـة.

فوجئـت مارغريـت قليـلاً، لكـن سرورهـا كان أكـبر عندمـا وجـدت أباهـا وهيغينـز منغمسـين في حديـث حـماسي، كل واحـد منهـما يتحـدث بـأدب جـم مـع الآخـر، وإن تعارضـت آراؤهـما. بـدا لهـا نيكـولاس النظيـف المرتـب (بفضـل مضخـة المـاء في باحـة المنـزل)، وحديثـه الهـادئ، كائنـاً جديـداً لم يسـبق لهـا أن رأتـه إلا في بيئتـه القاسـية داخـل منزلـه. كان قـد بلـل شـعره بمـاء نظيـف، وعـدّل وضعيـة المنديـل عـلى رقبتـه، واسـتعار عُقـب شـمعة ليلمـع بـه صندلـه. كان جالسـاً قبالـة أبيهـا يحـاول فـرض رأيـه عليـه، ولكـن بصـوت منخفـض بلهجـة أهـل داركشـاير الثقيلـة، وهـدوء واضـح عـلى وجهـه. كذلـك كان أبوهـا مهتـماً بمـا يقولـه ضيفـه. عندمـا دخلـت مارغريـت، تلفّـت السـيد هيـل حواليـه، ثـم قـدّم لهـا كرسـيه، وجلـس بسرعـة محنيـاً رأسـه لضيفـه تعبـيراً عـن اعتـذاره لمقاطعـة كلامـه. أومـأ هيغينـز برأسـه مُحييـاً مارغريـت التـي وضعـت قـماش الكنفـا بلطـف عـلى الطاولـة وهـي تُعـدُّ نفسـها للاسـتماع للحديـث.

"كـما كنـت أقـول لـك يـا سـيدي، أظـن أنـك مـا كنـت لتؤمـن كثـيراً بمـا تعتقـد بـه الآن لـو أنـك عشـت، أو نشـأت وترعرعـت هنـا. أسـتميحك عـذراً إن كنـت أسـتخدم عبـاراتٍ غـير مناسـبة، لكـن مـا أعنيـه بالإيمـان الآن هـو التفكـير بالأقـوال والوعـود

التي يطلقها أناسٌ لم ترهم في حياتك، وحول أمور وحياة لم ترها من قبل، ولا أحد آخر عرفها. وأنت تقول إنها أمور، وأقوال، وحياة حقيقية صادقة، وأنا سأقول لك: أين الدليل والبرهان على ذلك؟ هناك من حولي أناسٌ يفوقونني حكمة، وعلماً عشرات المرات، أناس كرّسوا وقتهم للتفكير بهذه الأشياء، بينما كرّست وقتي للبحث عن لقمة العيش. حسناً، أنا أرى هؤلاء الناس وحياتهم مفتوحة أمامي بشكل واضح. إنهم أناسٌ حقيقيون. لا يؤمنون بالإنجيل. ربما يقولون عكس ذلك تظاهراً فحسب، لكن هل تظن يا سيدي أن أول صرخة لهم في الصباح هي "يا رب! كيف أنال الحياة الأبدية؟" أم "ماذا عساني أفعل لأملأ محفظة نقودي في هذا اليوم المبارك؟ أين أذهب؟ وأيَّ صفقة سأعقد؟". المحفظة، والمال، والذهب أشياء حقيقية تشعر بها وتلمسها بيديك، هي الواقع، أما الحياة الأبدية مجرد كلام، اعذرني، فأنا أعلم أنك كنت راعي أبرشية، والآن من دون عمل. طبعاً لن أتحدث بقلّة احترام مع شخص يعاني المشكلة ذاتها مثلي، لكني أودُّ أن أسألك سؤالاً آخر، يا سيدي، ولا أريدك أن تجيبني عليه الآن، بل فكّر به جيداً قبل أن تحكم علينا بأننا حمقى وأغبياء لأننا نؤمن ونصدق ما نراه. إن كان الخلاص والآخرة، وما إلى هنالك، صحيحاً، ليس على اللسان بل في القلوب، ألا تظن بأنهم كانوا سيصرعون رؤوسنا به كما يفعلون الآن مع الاقتصاد السياسي؟ هم يحرصون على إقناعنا بهذه الحكمة، لكن الحكمة الأولى قد تكون تحوّلاً أكبر إلى إيمان مختلف، لو كانت صحيحة".

"لكن لا علاقة للسادة أرباب العمل بدينكم. كل ما يهمهم هو العمل، كما يظنون، وبالتالي فإن ما يشغلهم لتغيير آرائكم هو علم التجارة".

كم أنا مسرور، يا سيدي" قال هيغينز برمشة غريبة من عينيه، "لأنك قلت "كما يظنون". لو لم تقل هذه العبارة، لحسبتك منافقاً، آسف، لأنك قس، أو من أجل موقعك كقسّ. لو أنك تحدثت حول الدين كشيء، إن كان صحيحاً، لا يهم كل الناس ليُفرض عليهم فوق أي شيء آخر في هذه الدنيا الواسعة، لكنت ظننت بأنك محتال كي تكون قسّاً، وفي الحقيقة أن أرى بأنك أحمق أكثر من كونك محتالاً، أرجو ألا تنزعج مني، آمل ذلك، يا سيدي".

"على الإطلاق، أنت تراني مخطئاً، وأنا أراك ترتكب خطأ قاتلاً. لا أتوقع أن أقنعك في يوم، أو في حديث واحد، لكن دعنا نتعرف إلى بعضنا البعض بشكل أفضل، وأن نتكلم بصراحةٍ عن هذه الأمور، والحقيقة هي التي ستسود في النهاية. ما كنت لأؤمن بالله إن لم أكن أصدق ذلك، بل أنا واثق، يا سيد هيغينز، أياً كان ما تخليت عنه من قناعتك الأخرى، أنك تؤمن به أيضاً، (أخفض السيد هيل صوته بوقار)، "أنت تؤمن بالله".

"يا رجل! بإمكاني أن أطرحك أرضاً لمحاولتك غوايتي. ما غرضك في أن تجربّني بشكوكك؟ فكِّر بتلك المسجاة هناك، بعد الحياة التي عاشتها، وبعدها فكِّر كيف تحرمني من السلوى الوحيدة المتبقية لي؛ بقولك إن هناك إلهاً، أعد لها حياتها. أنا لا أؤمن بأنها ستحيا مرة أخرى"، قال هيغينز، وعاد للجلوس، وتابع حديثه بأسى وكأنه يتحدث إلى نارٍ غير متعاطفة. "أنا لا أؤمن بوجود حياة أخرى غير هذه الحياة التي قاست الكثير فيها، وعانت هماً لا ينتهي، ولا أستطيع احتمال التفكير بأن كل هذا مجرد مجموعة من الفرص والاحتمالات التي يمكن تغييرها بهبّة ريح. كم من مرة اعتقدت بأني لا أؤمن بوجود الله، لكنني لم أعبر عن ذلك في الكلام، مثل آخرين كثر. ربما سخرت من أولئك الذين فعلوا ذلك، أن يتجرأوا على البوح به، لكنني كنت التفت حولي لأرى إن كان يسمعني، إن كان بالفعل موجوداً؛ أما اليوم، عندما أُترك وحيداً، لن أستمع إليك، إلى كلماتك وتساؤلاتك، وشكوكك. هناك شيء وحيد وثابت في هذا العالم المترنّح، المنطق أو اللامنطق، وسأبقى متمسكاً بهذه القناعة. فهو مناسب للناس السعداء".

لمست مارغريت ذراعه برفق. لم تنطق بحرف واحد من قبل، ولم يسمعها وهي تنهض من على كرسيها.

"نيكولاس، نحن لا نريد أن نحلل بالمنطق، لقد أسأت فهم ما قاله أبي. نحن لا نفكّر بل نؤمن، وكذلك أنت. إنّه العزاء الوحيد في مثل هذه الظروف".

التفت إليها وأمسك يدها. "أجل إنه كذلك، أجل"، (وراح يمسح دموعه بظاهر يده) "ولكن أنت تعلمين، أنها ترقد ميتة في المنزل، وأنا غارق في حزني، وفي

بعض الأوقات لا أدري ما أقول. وكأنه كلام يقوله الناس، ذكي ومنمّق كما كنت أظن حينذاك، وخرج من قلبي المثقل بالحزن الآن. والإضراب أخفق، ألم تعلمي بذلك، يا آنسة؟ كنت عائداً إلى المنزل لأسألها، كمتسول كما أنا، قليلاً من الراحة في هذه الورطة، فجاء أحدهم وأسقطني أرضاً عندما أخبرني، بكل بساطة، أنها ماتت. هذا كل ما جرى، لكنه كان كافياً بالنسبة إلي".

مخط السيد هيل أنفه، ونهض لينزع الفتيل المحروق من الشموع كي يخفي مشاعره. "ليس كافراً، يا مارغريت، كيف يمكن لك أن تقولي ذلك؟" تمتم السيد هيل معاتباً. "أشعر برغبة قوية لأن أقرأ له الفصل الرابع عشر من سِفْر أيوب".

"ليس الآن، يا أبي، ولا حتى لاحقاً، ربما. دعنا نسأله عن الإضراب، ونمنحه التعاطف الذي يحتاجه بشأن بيسي المسكينة".

سألاه واستمعا. استندت حسابات العمال (مثل العديد من السادة أصحاب المعامل) على أسس غير صحيحة. فقد اعتمدوا على زملائهم وكأنهم يمتلكون القوى المحسوبة للآلات، لا أكثر ولا أقل، من دون الانتباه إلى العواطف البشرية التي قد تحل محل التفكير السليم، كما هو في حالة باوتشر ومثيري الشغب، وأن التعبير عما أصابهم من أضرار له التأثير نفسه على الغرباء البعيدين، مثل الأضرار (حقيقية كانت أم متخيّلة) التي لحقت بهم. لذلك فوجئوا، وصبّوا جام غضبهم على الأيرلنديين المساكين الذين سمحوا لأنفسهم أن يُحضَروا كي يأخذوا مكان العمال المضربين. وزاد من حدة هذا الغضب احتقار "الأيرلنديين"، والاحتفاء بالطريقة الخرقاء التي سيبدأون بها العمل، والإرباك الذي أصاب السادة من جهلهم وغبائهم، والحكايات الغريبة المبالغ بها التي كانت تنتشر في البلدة. لكن ما كان أشد سوءاً ولؤماً من كل ذلك هو ما وقع من عمال ميلتِن الذين تحدُّوا وعصوا أوامر الاتحاد بالمحافظة على الأمن والسلام، أيا كانت النتائج، الأمر الذي تسبّب بخلق الخلافات داخل المعسكر الواحد، ونشر الرعب من أن القانون بات يقف ضدهم.

"وهكذا انتهى الإضراب".

"أجل، يا آنسة، ستُفتح أبواب المصنع غداً لدخول من يريد العمل، ولو كان

ذلك من أجل أن يظهروا أن لا علاقة لهم بالإضراب الذي لو أحسنا التصرف فيه كنا سنرفع الأجور إلى مستو غير مسبوق منذ عشر سنوات".

"ستجد عملا، أليس كذلك؟" سألته مارغريت. "أنت عامل مشهور، أليس كذلك؟".

"لن يسمح لي هامبِر بالعمل في مصنعه ولو قطعوا يده اليمنى"، قال نيكولاس، بهدوء. بقيت مارغريت صامتة والحزن يعلو وجهها.

"بشأن الأجور"، قال السيد هيل. "أرجو ألا تنزعج من كلامي، لكني أرى بأنكم ارتكبتم بعض الأخطاء الفادحة. أود أن أقرأ لك بعض الملاحظات في كتاب". نهض، وتوجه إلى رف الكتب.

"لا داعي لأن تزعج نفسك، يا سيدي"، قال نيكولاس. "فكتبهم تدخل من هذه الأذن لتخرج من الأخرى. وقع خلاف من قبل بيني وبين هامبِر الذي أخبره أحد مراقبي العمال أني أُحرِّض الرجال للمطالبة بأجر أعلى. وذات يوم، التقينا في باحة المصنع، وكان في يده كُتيِّب، وقال لي: هيغينز، علمت أنك واحد من أولئك الحمقى المغفلين الذين يظنون أن باستطاعتهم الحصول على أجرٍ أعلى من خلال المطالبة به وتشجيعهم على ذلك أيضاً. الآن سأعطيك فرصة لتحاول إن كان لديك عقل في رأسك. هذا كُتيِّب كتبه أحد أصدقائي. عندما تقرأه ستجد كيف يُحدد مستوى الأجور، من دون أن يكون سواء لأصحاب المصانع، أو العمال، أي علاقة بهذا الأمر، عدا أن يقطع العمال رزقهم بالإضراب عن العمل، لأنهم حمقى وأغبياء. والآن يا سيدي، سأسألك بصفتك قسّاً، وكنت تلقي العِظات على الناس، وتحاول أن تقربهم إلى ما تعتقد أنه الصواب؛ هل كنت تبدأ بوصف الناس بالأغبياء، أم كنت تقول لهم كلاماً طيباً منذ البداية لتجعلهم مستعدين للاستماع والاقتناع بما تقول. وهل كنت، وأنت تعظ الناس، تتوقف عن الكلام بين الحين والآخر، وتقول لنفسك ولهم لستم سوى قطيع من الحمقى لا جدوى من أن أساعدكم في فهم الأمور بطريقة صحيحة؟ صحيح، لم أكن في حالة تساعدني في فهم ما يريد صديق السيد هامبر قوله، لكني

استشـطت غضبـاً مـن الأسـلوب الـذي قـدم بـه الكتـاب لي، لكنـي فكـرت بينـي وبـين نفـسي: "هيـا، لـنرَ مـا في هـذا الكتـاب، لأعـرف إن كانـوا هـم الأغبيـاء أمـا أنـا. أخـذت الكتـاب، لكـن ليبـاركك الـرب، كان الكتـاب عـن العمـل ورأس المـال، رأس المـال والعمـل، حتـى أنعسـني ودفعنـي للنـوم. لم أسـتطع أن أفهـم مـاذا يكـون هـذا ومـاذا يكـون ذاك، بـل إن الكتـاب تحـدّث عنهـما وكأنهـما إمـا فضيلـة أو رذيلـة، وكل مـا كنـت أريـده فحسـب هـو أن أفهـم حقـوق النـاس، فقـراء كانـوا أم أغنيـاء، أو حتـى لـو كانـوا مجـرد عـمال".

"مـن أجـل هـذا كلـه"، قـال السـيد هيـل، "والوقاحـة، والحماقـة، والطريقـة غـير المسـيحية في كلام السـيد هامـبِر معـك وهـو يوصيـك بقـراءة كتـاب صديقـه، لكنـه إن قـال الكتـاب مـا قـال السـيد هامـبِر بأنـه يـشرح الطريقـة التـي يتحـدّد بهـا مسـتوى الأجـور، وإن الإضراب لا يسـتطيع سـوى أن يفـرض عليهـم مسـتوى الأجـور لفـترة محـدودة، لتنخفـض في مـا بعـد بنسـبٍ كبـيرة لاحقـاً كنتيجـة مباشرة لـلإضراب، عندئـذ يكـون الكتـاب قـد أخـبرك بالحقيقـة فعـلاً".

"حسـناً يـا سـيدي"، قـال هيغينـز، بـإصرار أكـثر؛ "قـد يكـون ذلـك صحيحـاً أو لا يكون. هنـاك رأيـان في مـا يتعلـق بهـذه النقطـة. لكـن افـترض أن الحقيقـة كانـت صحيحـة لا لبـس فيهـا، لكنهـا تبقـى غـير ذلـك بالنسـبة إليَّ إن لم أكـن قـادراً عـلى فهمهـا. يمكننـي القـول إن هنـاك حقيقـة كـبرى في كتـاب باللغـة اللاتينيـة في رفـوف هـذه الكتـب، لكنـه يبقـى مجـرد طلاسـم بالنسـبة إليَّ ولا يقـدم أيَّ حقيقـة، إلا إن كنـت أعلـم معـاني الكلـمات. لـو تـأتي إليَّ يـا سـيدي، أو أي شـخص آخـر مثقـف، صبـور، ويقـول إنـه سـيعلمني مـا تعنيـه تلـك الكلـمات، ولا تفقـد أعصابـك لأني غبـيّ نوعـاً مـا، أو أنـسى كيـف يتعلـق شيء بـشيء آخـر، ربمـا مـع الوقـت قـد أرى تلـك الحقيقـة، أو لا أراهـا. لا يمكننـي القـول إن الأمـر سـينتهي بي لأفكـر بالطريقـة نفسـها التـي يفكـر بهـا أي شـخص آخـر. وأنـا لسـت شـخصاً يـرى أنـه يمكـن تشـكيل الحقيقـة في كلـمات. فالعظـام نفسـها لا تنـزل في جـوف المـرء بالطريقـة نفسـها لـدى كل النـاس. فهنـاك مـن تعلـق في حلقومـه، وفي مـكان آخـر عنـد شـخص آخـر. ناهيـك عـن أن هـذه العظـام، عندمـا تنـزل، قـد تكـون قويـة ثقيلـة عـلى هـذا الشـخص، وسـهلة يسـيرة

على ذاك. فالناس الذين يطمحون إلى مداواة العالم بما يعتقدون أنها الحقيقة، عليهم اتباع أساليب مختلفة مع عقول مختلفة، وأن يكونوا لطفاء في تقديم الدواء، وإلا فإن المريض المسكين سيبصقه في وجوههم. هامبِر يلكمني على أذني، ثم يرمي لي قرص دوائه الكبير ويقول لي إنه لن ينفعني، لأنني غبي".

"أتمنى أن يلتقي بعضٌ من أحْكم السادة من أصحاب المصانع وأكثرهم لطفاً مع بعض منكم؛ أنتم العمال، لإجراء حوار طيب حول هذه الأمور، لأنها ستكون بكل تأكيد الطريقة المثلى لتجاوز مصاعبكم التي، كما أعتقد، ليست سوى نتيجة لجهلكم، اعذرني يا سيد هيغينز، بموضوعات من المستحسن أن يفهمها العمال وأرباب العمل، لما في ذلك من خدمةٍ للمصالح المشتركة للطرفين. أتساءل"، التفت السيد هيل إلى مارغريت، إن كان ممكناً إقناع السيد ثورنتِن للقيام بشيء من هذا القبيل؟".

"تذكر يا أبي"، قالت مارغريت بصوت منخفض، "ما قاله حول الحكومات". لم تشأ أن تعطي إشارة أكثر وضوحاً عن الحوار الذي جرى بين السيد ثورنتِن ووالدها حول نمط حكم العمال، من خلال إعطاء العمال المعلومات التي تكفيهم ليحكموا أنفسهم، أو عن طريق الاستبداد الحكيم العادل من جانب السادة. تنبهت مارغريت إلى أن هيغينز التقط اسم ثورنتِن، إن لم يكن قد سمع الكلام كله. بالفعل، هذا ما جرى وبدأ هيغينز بالحديث عنه.

"ثورنتِن! الشاب الذي سارع إلى إحضار الأيرلنديين، وتسبب بأعمال الشغب التي أفشلت الإضراب. حتى هامبِر، مع كل تنمّره وتصرفاته المستفزة، كان سينتظر لفترة أطول، أما مع ثورنتِن؛ كلمة وضربة. والآن، وفي الوقت الذي كان سيشكر الاتحاد السيد ثورنتِن على ملاحقة باوتشر، والآخرين الذين خالفوا تعليمات الاتحاد، تقدم ثورنتِن وبكل برود ليقول إنه بصفته الطرف المتضرر، وبما أن الإضراب انتهى، لا ينوي أن يتقدم بأيٍّ شكوى ضد المشاغبين. وقال (كما أخبرني أحدهم يعمل في المحكمة بما قاله) "إنهم معروفون، وسينالون عقابهم الطبيعي على تصرفهم بأنهم لن يجدوا أحداً يرضى بتشغيلهم بعد الآن، وهذا سيكون قاسياً بما فيه الكفاية". تمنيّت لو أنهم قبضوا على باوتشر، وسلموه إلى هامبِر،

فالنمـر العجـوز يتصيّـد الفرصـة للانقضـاض عليـه! هـل كان سـيتركه يفلـت؟ ليـس هـو بالتأكيـد مـن يفعـل ذلـك".

"كان السـيد ثورنـتِن محقـاً"، قالـت مارغريـت. أنـت غاضـب عـلى باوتـشر، يـا نيكـولاس، وإلا لكنـت أول مـن تـرى أنـه حيـث يكـون العقـاب الطبيعـي قاسـياً بمـا فيـه الكفايـة بالنسـبة للخطـأ، فـإن أي عقـاب إضـافي سـيكون أشـبه بالثأر أو الانتقام".

"ليسـت ابنتـي صديقـة للسـيد ثورنـتِن"، قـال السـيد هيـل وهـو يبتسـم لمارغريـت التـي بـات وجههـا أحمـر بلـون القرنفـل، وانهمكـت تعمـل بجهـد مضاعـف عـلى تطريـز النسـيج بـين يديهـا. "لكـن أعتقـد أن مـا تقولـه عـين الحقيقـة. أنـا معجب بموقفه".

"حسـناً يـا سـيدي، كان هـذا الإضراب عمـلاً متعبـاً لي، ولـن تتعجـب إن كنـت مُحطّـماً لرؤيتـه يخفـق عـلى هـذا النحـو مـن أجـل بضعـة رجـال يعانـون بصمـت وشجاعة وثبات".

"أنسـيت!". قالـت مارغريـت. "لا أعـرف الكثـير عـن باوتـشر، لكـن المـرّة الوحيـدة التـي رأيتـه فيهـا، لم أسـمعه يتحـدث عـن معاناتـه، بـل عـن معانـاة زوجتـه المريضة وأطفاله".

"صحيـح، لكنـه لم يكـن هـو نفسـه قويـاً صلبـاً، لقـد بـكى وصرخ مـن آلامـه، لم يكـن قـادراً عـلى التحمّـل".

"كيـف انضـم إلى الاتحـاد؟"، سـألته مارغريـت. "لا يبـدو أنـك تكـن لـه احترامـاً كبـيراً، ولم تسـتفد كثـيراً مـن انضمامـه إليكـم".

قطّب هيغينز حاجبيه وبقي صامتاً لدقيقة أو دقيقتين، ثم قال باختصار:

"لا يحـق لي أن أتكلـم عـن الاتحـاد. مـا يفعلونـه شـأن يخصهـم. مـا يهمهـم أن يبقـى أبنـاء المهنـة الواحـدة متكاتفـين، وإن لم يكونـوا راغبـين في اسـتغلال الفرصـة مـع البقيـة، فللاتحـاد أسـاليبه ووسـائله".

لاحـظ السـيد هيـل أن هيغينـز بـدا متضايقـاً مـن تغيُّر مسـار الحديـث. لكـن الأمـر

لم يكـن كذلـك بالنسـبة إلى مارغريـت عـلى الرغـم مـن أنهـا فهمـت مشـاعر هيغينـز بشــكل واضــح مثــل أبيهــا. فقــد أحســت ضمنيــاً لــو كان بمقــدوره أن يعــبّر عــن نفســه بكلــمات واضحــة فحســب، شيء واضــح يمكــن اســتغلاله في النقــاش مــن أجــل الحق والعدل.

"وما هي أساليب الاتحاد ووسائله؟".

نظـر إليهـا وكأنـه عـلى وشـك أن يحـاول مقاومـة رغبتهـا بالحصـول عـل معلومـات. لكــن وجههــا الهــادئ الــذي بقــي مثبتــاً عليــه، كان صبــوراً واثقــاً وأجــبره عــلى أن يجيــب عــن ســؤالها.

"حســناً! إن لم يكــن عامــل مــا ينتمــي إلى الاتحــاد، تــأتي الأوامــر إلى أعضــاء الاتحــاد الذيــن يعملــون عــلى الأنــوال المجــاورة لــه بعــدم التحــدث معــه، حتــى وإن كان مريضــاً أو محزونــاً، لا يتغــير الأمــر. هــو خــارج الحــدود، ليــس منــا، يكــون بيننــا ويعمــل معنــا، لكنــه ليــس واحــداً منــا، بــل في بعــض الأماكــن يُعاقــب الشــخص الــذي يتكلــم معــه. حــاولي يــا آنســة أن تعيــشي ســنة أو ســنتين بينهــم وهــم يشــيحون بنظرهــم بعيــداً عنــك إن نظــرت إليهــم، حــاولي أن تعمــلي في مســاحة لا تزيــد عــن متريــن وســط مجموعــة مــن النــاس تعرفينهــم، لكنهــم يكنّــون لــك في قلوبهــم الكــره والضغينـة، وإن قلـت لهـم إنـك سـعيدة، لـن تلمـع عيونهـم، ولـن تتحـرك شـفاههم. وإن كان قلبـك مثقـلاً بالحـزن، لا تسـتطيعين أن تقـولي لهـم شـيئا، لأنهـم لا يكترثـون لآهاتـك، أو نظراتـك الحزينـة (ولـن يكـون رجـلاً ذاك الـذي يـئن بصـوت عـالٍ عندمـا يسـأله الآخـرون مـا المشـكلة؟)، فقـط جـرِّبي هـذا، يـا آنسـة عـشر سـاعاتٍ لثلاثمائـة يــوم، عندهــا ســتعلمين مــا هــو الاتحــاد".

"لمــاذا؟"، قالــت مارغريــت، "مــا هــذا الظلــم! كلا يــا هيغينــز، لا أبــالي بغضبــك ولــو بمقــدار قشــة. وأعلــم أنــك لــن يكــون بمقــدورك أن تغضــب منــي حتــى لــو أردت، ويجــب عــلي أن أقــول لــك الحقيقــة: لم أقــرأ أبــداً، في كل التاريــخ الــذي قــرأت عنــه أبشـع وأسـوأ مـن هـذا التعذيـب البطـيء. وأنـت عضـو في هـذا الاتحـاد! بـل وتتحــدث عــن ظلــم الســادة واســتبدادهم!".

"لا،" قــال هيغينــز، "يمكنــك أن تقــولي مــا شــئت. فتلــك الفتــاة الراقــدة هنــاك تقــف

حاجـزاً أمـام كل كلمـة غضـب منـي. هـل تعتقديـن أني نسـيت مـن ترقـد هنـاك، وكـم أحبتـك؟ السـادة هـم مـن جعلونـا نخطـئ، إن كان الاتحـاد خطيئـة. ربمـا ليـس الجيـل الحـالي منهـم، بـل آباؤهـم. آباؤهـم الذيـن سـحقوا آباءنـا، وطحنونـا طحنـاً. يـا قـس! أظـن أني سـمعت يومـاً أمـي تقـرأ نصـاً بصـوت عـال "الآبـاء يأكلـون الحصـرم، والأبنـاء يضرسـون". وهـذا مـا حـدث. في تلـك الأيـام مـن الظلـم المريـر بـدأ الاتحـاد؛ كان ضرورة. وهــو ضرورة الآن، بالنسـبة إلي. إنــه يعنــي الوقــوف في وجــه الظلــم ماضيـاً وحـاضراً ومسـتقبلاً. قـد يكـون أشـبه بحـرب؛ ومعهـا تقـع الجرائـم، لكنـي أعتقـد أن الجريمـة الأكـبر هـي سـكوتنا عـلى الظلـم. لا فرصـة لنـا إلا في جمـع العـمال في مصلحــة مشــتركة، وإن كان بعضهــم جبانــاً، وبعضهــم أحمــقَ، لا بــد لهــم مــن الانضــمام إلى المسـيرة الكـبرى التـي لا تكـون قوتهـا إلا في كـثرة أفرادهـا".

"آه"، تنهّـد السـيد هيـل. "كـم كان اتحادكـم بحـد ذاتـه جميـلاً، مجيـداً، بـل المسـيحية نفسـها، لـو كانـت غايتـه تسـعى إلى خـير الجميـع، بـدلاً مـن أن تكـون لصالـح طبقـة واحـدة ضـد طبقـة أخـرى".

"أظـن أن الوقـت حـان كي أذهـب، يـا سـيدي"، قـال هيغينـز، والسـاعة تشـير إلى العــاشرة.

"إلى البيـت؟" قالـت مارغريـت بلطـف. فهـم مـا ترمـي إليـه، وأخـذ يدهـا الممـدودة إليـه. "إلى البيـت، يـا آنسـة، ثقـي بي، رغـم إني عضـو في الاتحـاد".

"أنا أثق بك تماماً، يا نيكولاس".

"انتظـر!" قـال السـيد هيـل، وهـو يـسرع إلى رفِّ الكتـب. "سـيد هيغينـز! أنـا واثـق بأنـك سـتنضم إلينـا في صـلاة العائلـة؟"

نظـر إلى مارغريـت نظـرة شـك. قابلتـه عيناهـا الجميلتـان الوقورتـان، لم يكـن فيهـما أي قـوة بـل مجـرد اهتـمام عميـق. لم يقـل شـيئاً، وبقـي في مكانـه. مارغريـت المؤمنـة بالكنيسـة، ووالدهـا المنشـق، وهيغينـز الكافـر، ركعـوا معـاً.

شعاع الشمس

جلب صباح اليوم التالي معه رسالة من إيديث إلى مارغريت. كانت رسالة عاطفية مؤثرة تفتقد التسلسل المنطقي، مثل كاتبتها. لكنها كانت ساحرة بدفئها وحميميتها بالنسبة إلى مارغريت التي نشأت وترعرعت مع غياب الترابط في الأفكار، فلم تنتبه إليه. وجاءت الرسالة على الشكل الآتي:

"يستحق ابني منك رحلة من إنكلترا إلى هنا كي تريه! إنه طفل صغير رائع، وخاصة عندما يرتدي قبعاته، وتحديداً تلك التي أرسلتِها له أنت؛ السيدة الصغيرة المثابرة، صاحبة الأصابع الرفيعة! بعد أن أكل الحسد قلوب جميع الأمهات هنا، كم أود أن أريه لشخص جديد، وأسمع عبارات الإعجاب الجديدة، ربما يكون هذا هو السبب، وقد لا يكون، وربما يكون ممتزجاً بحب ابنة الخالة، الذي يجعلني أتوق إلى أن تأتي لزيارتنا، يا مارغريت! كما أعتقد أن ذلك سيكون أفضل شيء يناسب صحة خالتي هيل. فكل شخص هنا يتمتع بالصحة والشباب، وسماؤنا زرقاء على الدوام، والشمس مشرقة، والفرقة الموسيقية لا تتوقف عن عزف الألحان الجميلة من الصباح وحتى حلول الليل. وبالعودة إلى أعباء أنشودتي الصغيرة، طفلي مبتسمٌ دائماً. كم أتوق لو تسحبينه مني، يا مارغريت. هذا لا يدل على ما يفعله، لكنه يبقى الأجمل والأروع. وأظن أني أحبه حباً يفوق بكثير حبي لزوجي الذي بدأ يكتسب وزناً، وسرعة في الغضب، أو ما يسميه هو "مشغول". لا، ليس الأمر كذلك. لقد عاد للتو بأنباء مثل نزهة رائعة مع ضباط سفينة هازارد الراسية في الخليج. وبما أنه عاد لتوه بهذه الأنباء، سأسحب ما قلته عنه قبل قليل. ألم يحدث أن أحداً ما أحرق يده

لأنه قال أو فعل شيئاً ندم عليه؟ بالطبع لن أحرق يدي، لأن ذلك سيؤلمني للغاية، وسيكون أثره قبيحاً؛ لكني سأسحب ما قلت بأسرع ما يمكن. كوزمو حبيب رائع مثل طفل، وليس سميناً ـ ولا غضوباً مثل أيِّ زوج آخر، لكنّه أحياناً يكون مشغولاً جداً جداً. يمكنني القول إنه من دون الحب...تصبح الواجبات الزوجية... لا أدري عن أي شيء كنت أتحدث؟ لدي شيء محدد لأقوله لك، أعلم أنه في ذات مرة. نعم تذكرت، يا عزيزتي مارغريت، يجب أن تأتي لزيارتي، فهذا سيكون مناسباً لصحة خالتي هيل، كما قلت قبل قليل. دعي الطبيب يأمر لها بهذه الرحلة. قولي له إن دخان ميلتِن يضر بصحتها، ولا شك لدي بأن هذا هو السبب فعلاً. يجب أن تأتي وتقضي معي ثلاثة أشهر (وليس أقل من ذلك) من الجو اللذيذ، المنعش المفعم بأشعة الشمس، والعنب الذي يكثر هنا مثل التوت البري، سيكون مفيداً لها. لن أدعو العم هيل للمجيء (تحولت لهجة الرسالة هنا لتصبح أكثر تحفظاً، وأفضل كتابة. فالسيد هيل يقف في الزاوية مثل طفل مشاكس، بعد أن تخلى عن مصدر رزقه) لأنه، يمكنني القول، يكره الحرب والجنود والفرق الموسيقية؛ على الأقل، كما أعلم أن العديد من المنشقين عن الكنيسة ينتمون لمجتمع السلام، ومن ثَم فهو لن يرغب، للأسف، بالمجيء. لكن إن كان يرغب بزيارتنا فعلاً، سأعمل أنا وكوزمو ما بوسعنا ليكون سعيداً، وسأخفي رداء كوزمو الأحمر وسيفه، وأطلب من الفرقة أن تعزف الألحان الرصينة الجادة. وإن كان لا بد من أن تعزف عن متاع الدنيا وغرورها، فسأجعلهم يعزفونها بإيقاع بطيء. عزيزتي مارغريت، إن وافق السيد هيل على القدوم معك ومع خالتي، لن نوفّر جهداً بأن نجعل هذه الرحلة مصدر سعادة لكم، رغم أني أخشى من أي شخص قام بأي فعل لإرضاء ضميره. أنت لم تقدمي على مثل هذا الفعل، آمل ذلك. قولي لخالتي هيل ألا تحضر معها ملابس سميكة، رغم أنني أخشى أننا سنكون في آخر السنة قبل أن تتمكنوا من القدوم إلى هنا. ليس لديك أيُّ فكرة عن الحرارة هنا. ذات مرة في إحدى النزهات، حاولت ارتداء واحد من الشالات الهندية. وأحطت نفسي بأمثلة وحكم على شاكلة "لا بد للكبرياء أن يخضع"، وغيرها، لكن من دون جدوى. كنت مثل

"تايني" كلب أمي الصغير وعليه البهارج والزخارف التي توضع على الفيل، مختبئة، مخنوقةً بأبهى ملابسي، فحوّلته إلى بساطٍ جلسنا عليه جميعنا. هذا هوذا طفلي، يا مارغريت، إن لم تحزمي حقائبك فور استلامك هذه الرسالة، والقدوم لرؤيته، سأحسبك عندئذٍ من سلالة الملك هيرودِس[59]!".

لطالما اشتاقت مارغريت لأن تمضي يوما واحداً من حياة إيديث؛ التخلص من الهموم، والمنزل البهيج، والسماء المشمسة. لو كانت الأمنيات قادرة على تحريكها من مكانها، لذهبت إليها ولو ليوم واحد. كانت تواقة للقوة التي يمكن لهذا التغيير أن يمنحها، حتى ولو لساعات معدودات وسط تلك الحياة الصافية وتشعر بالشباب من جديد. صحيحٌ أنها لم تبلغ العشرين بعد! لكنها كانت مجبرة على تحمُّل هذا الضغط القاسي إلى حد أحسّت معه بأنها باتت عجوزاً. هذا أول شيء أحست به بعد أن قرأت رسالة إيديث. وقرأتها مرة أخرى، ونسيت نفسها، واستمتعت بهذا الشبه بين الرسالة وصاحبتها، وراحت تضحك بفرح عليها، عندما دخلت والدتها تستند على ذراع ديكسِن. سارعت مارغريت إلى تهيئة الوسائد لوالدتها التي بدت ضعيفة متعبة أكثر من المعتاد.

- "علامَ كنت تضحكين، يا مارغريت؟" سألتها والدتها بعد أن استراحت من الجهد الذي بذلته في الاستلقاء على الكنبة.

- "رسالة وصلتني صباح اليوم من إيديث. هل أقرأها لك، يا أمي؟".

قرأتها بصوت مرتفع، وبدا الأمر لفترة ما مسليّاً لوالدتها التي راحت تتساءل عن الاسم الذي أطلقته إيديث على ابنها، وتقترح كل الأسماء المحتملة، وكل الأسباب التي تُسوِّغ إطلاق كل واحد من هذه الأسماء. ووسط هذه المعمعة من التساؤلات والمقترحات، دخل السيد ثورنتِن حاملاً هدية أخرى من الفواكه للسيدة هيل. لم يستطع، أو بالأحرى، لم يكن يرغب بحرمان نفسه من فرصة الاستمتاع برؤية مارغريت. لم يكن لديه أيُّ غاية أخرى غير إشباع هذه الرغبة

(59) هوردس أو هِيرُودِسُ (73ق.م- 2م) كان حاكمًا على الجليل ثم أصبح ملك اليهود. تعدُّ المصادر المسيحية ملكاً طاغية، إذ يذكر إنجيل متى أنه أمر بذبح كل مواليد بيت لحم عندما علم أن المسيح وُلد فيها.

التـي كانـت تعـبّر عـن إرادة قويـة لرجـل منطقـي وقـادر عـلى التحكـم بذاتـه. دخـل إلى الغرفـة ولاحـظ وجـود مارغريـت في لمحـة واحـدة، لكـن وبعـد الانحنـاءة الأولى البـاردة التـي حياهـا فيهـا عـن بعـد، لم ينظـر نحوهـا ثانيـةً. مكـث في الغرفـة ليقـدّم الـدرّاق، ويتكلـم بعبـارات لطيفـة، ثـم قابلـت عينـاه الباردتـان المنزعجتـان عينـي مارغريـت بتحيـة وداع عابسـة، وغـادر المـكان. وحالمـا غـادر الغرفـة، جلسـت مارغريـت صامتـة شـاحبة الوجـه.

"هل تعلمين، يا مارغريت، بدأت حقاً أُعجب بالسيد ثورنتِن".

لم تجب مارغريت في البداية، لكنها نطقت أخيراً ببرود "حقاً؟".

"أجل، بات أكثر تهذيباً في تصرفاته".

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدا صوت مارغريت أكثر انتظاماً الآن، وأجابتها:

"لا شك بأنه شخص لطيف ويعرف الواجب".

"استـغرب عـدم قـدوم السـيدة ثورنـتِن لزيـارتي. لا بـد أنهـا تعـرف بـأني مريضـة، مـن السريـر المـائي".

"ربما تطمئن على أخبارك من ابنها".

"وإن كان، أود أن أراها. ليس لديك الكثير من الأصدقاء هنا، يا مارغريت".

أدركـت مارغريـت مـا يـدور في رأس والدتهـا؛ لهفـة تـدل عـلى رعايـة امـرأة ولطفِهـا مـا تجـاه ابنتهـا التـي سـتفقد والدتهـا في القريـب العاجـل.

"هـل تعتقديـن"، قالـت السـيدة هيـل بعـد فـترة مـن الصمـت، "أنـه بإمكانـك الذهـاب وتطلبـين مـن السـيدة ثورنـتِن أن تـأتي وتـراني؟ مـرة واحـدة فقـط، لا أريـد أن أثقـل عليهـا".

"سأفعل أي شيء، إن أردت يا أمي، ولكن، عندما يأتي فريدريك..."

"أجـل صحيـح، علينـا أن نغلـق أبوابنـا، ولا نـدع أحـداً يدخـل. لا أدري إن كنـت أجـرؤ عـلى تمنـي مجيئـه، أو لا. أحيانـاً أفكـر بأنـه لا داعـي لقدومـه، وأحيانـاً تـراودني أحـلامٌ مرعبة بشـأنه".

"لا يـا أمـي، سـنحيطه برعايـة كاملـة. لـن أتـردّد عـن وضـع ذراعـي بـين مصراعـي

الباب قبل أن يصيبه خدش صغير. اتركي لي أمر رعايته، يا أمي، سأحرسه كما تحرس اللبوة أشبالها".

"ومتى يصلنا منه أي ردّ؟".

"ليس قبل أسبوع، بالتأكيد، وربما أكثر".

"يجب علينا أن نرسل مارثا في الوقت المناسب. لا أودُّ أن تبقى هنا عند وصوله، وأضطر إلى إرسالها على عجل".

"يجب على ديكسِن أن تذكرنا بذلك. كنت أفكر بهذا الأمر، إن أردنا أيَّ مساعدة في المنزل عندما يكون فريدريك هنا، يمكننا أن نحضر ماري هيغينز. إنها رخوة في العمل، لكنها فتاة طيبة، وأنا واثقة من أنها ستبذل قصارى جهدها، ويمكن أن تنام في منزلها، ولا داعي لأن تصعد إلى الطابق العلوي، ومن ثم لن تعرف من يوجد في المنزل".

"كما تريدين أنت وديكسِن. لكن يا مارغريت، لا تستخدمي كلمات ميلتِن المريعة "رخوة في العمل" إنها لهجة محلية. ماذا ستقول خالتك شو إن سمعتك تستخدمين هذه الكلمات عندما تعود؟".

"رجاء يا أمي لا تحاولي أن تجعلي من خالتي شو بعبعاً مخيفاً"، قالت مارغريت ضاحكة. "هاهي إيديث تعلمت جميع مفردات اللغة العسكرية العامية من النقيب لينوكس، ولم تنتبه إليها الخالة شو".

"لكن ما تقولينه لغة المصانع السوقيّة".

"ما دمت أعيش في بلدة مصانع، يجب علي أن أتكلم لغة المصنع متى أردت، يا أمي. سأدهشك بعدد هائل من الكلمات التي لم تسمعي بها في حياتك. لا أعتقد أن أنك تعرفين كلمة (هراوة)".

"بالطبع لا، لكني أعرف أنها كلمة فظة، ولا أريد أن أسمعك تتلفظين بها".

"حسناً، يا أعز أم، لن أفعل. لكني في هذه الحالة سأضطر لاستخدام جملة لشرح معناها".

"لا أحب هذه البلدة؛ ميلتِن"، قالت السيدة هيل. "كانت إيديث محقة بقولها إن الدخان هو ما جعلني مريضة إلى هذا الحد".

فزعت مارغريت عندما سمعت والدتها تقول ذلك. كان والدها قد دخل للتّو إلى الغرفة، وكانت حريصة على عدم تأكيد ذلك الانطباع المحدود الذي سبق ورأته يؤثر على تفكيره بأن هواء ميلتِن كان السبب في تدهور صحة والدتها. لم تكن واثقة إن كان والدها سمع ما قالته والدتها أم لا، فراحت تتحدث بسرعة عن أشياء أخرى، وهي لا تدرك أن السيد ثورنتِن كان يسير خلف والدها.

"تتهمني أمي بأني التقطت قدراً كبيراً من السوقية والفظاظة منذ أن جئنا إلى ميلتِن".

كانت "الفظاظة" التي تحدثت عنها مارغريت تعني استخدام الكلمات المحليّة، والتعبير الذي ورد في الحوار الذي كان يجري بينهما. لكن السيد ثورنتِن سرعان ما قطب حاجبيه، وشعرت مارغريت أنه ربما أساء فهم كلامها. لذلك ورغبة منها في تجنب ألم لا داعي له، أجبرت نفسها على أن تبادره بتحية صغيرة، وتتابع ما كانت تقوله وهي تخاطبه مباشرة.

"والآن، يا سيد ثورنتِن، أليست "هراوة" كلمة معبرة، وإن كان وقعها ليس جميلاً؟ هل يمكنني الاستغناء عنها في التحدث عن الشيء الذي تدل عليه؟ إن كان استخدام الكلمات المحلية يُعدُّ سوقياً، فأنا كنت سوقية في الغابة، أليس كذلك يا أمي؟".

لم يكن من عادة مارغريت أن تفرض موضوع حديثها على الآخرين، لكن في هذه الحالة، كانت حريصة على أن تمنع السيد ثورنتِن من الانزعاج من الكلمات التي سمعها مصادفة ولم تتضح له إلا بعد أن تكلمت، لاسيما أن السيد ثورنتِن على ما يبدو لم يفهم المغزى أو الفكرة التي كانت تقولها، وتجاوزها بتحفظ بارد بحركة رسمية ليتحدث إلى السيدة هيل.

عندما رآته، تذكرت السيدة هيل رغبتها بأن ترى والدته وتوصيها برعاية مارغريت. جلست مارغريت يلفّها صمت حارق، وإحساس بالاستياء والخجل بسبب صعوبة الحفاظ على مكانتها المناسبة، وغيبوبة قلبها الساكنة، عندما مرَّ السيد ثورنتِن بجانبها، وسمع توسل والدتها البطيء بأن تأتي السيدة ثورنتِن وتراها، أن تراها عاجلاً؛ في الغد، إن أمكن. وعد السيد ثورنتِن بأنها ستأتي، تحدث

قليلاً، ثم استأذن بالانصراف، فبدت حركة مارغريت وصوتها وكأنهما قد تخلصا دفعة واحدة من قيود مخفية. لم ينظر إليها، ومع ذلك، كان هذا الحرص في عينيه على تجنبها يدل بطريقة ما على أنه كان يدري أين هي بالضبط، وبالتالي لو أن عينيه التفتتا مصادفة، لوقعتا عليها. إن تكلمت، كان يُحجم عن إبداء أيِّ إشارة تدل على انتباهه لحديثها، لكن حديثه التالي مع أي شخص آخر كان يتضمن ما قالته، بل وكان في كلامه أحياناً رد صريح على ما كانت قد علقت عليه، لكنه موجّه إلى شخص آخر، وكأنها لم تقل شيئاً. لم يكن هذا كله نابعاً من سلوكيات الجهل المشينة بقدر ما كان تعبيراً عن سلوك مقصود ينبع من ألم عميق في داخله. كان تصرفاً متعمداً في حينه، وندم عليه لاحقاً. لكن ما كان لخطة مبيّتة ولا دهاء حذر أن يضعاه في هذا الموقف الجيد. إذ راحت مارغريت تفكر فيه أكثر من أي وقت مضى؛ من دون أي تأثر بما يدعى الحب، بل بالحسرة والندم على الجرح العميق الذي تسببت به، وبسعي صبور هادئ للعودة إلى موقعهما السابق في صداقتهما المتعارضة، لأنها وجدت أنه كان يحظى بنظرها بموقع الصديق، كما هو فعلاً بالنسبة لبقية أفراد العائلة. كان في تصرفها تجاهه ثمة تواضع واضح كما لو كانت تعتذر بصمت عن الكلمات القاسية التي قالتها رداً على ما جرى يوم المظاهرة.

لا شك أنه أحس بالضيق الشديد من تلك الكلمات التي كانت ترن في أذنيه. كان فخوراً بإحساسه بالعدالة التي جعلته يندفع إلى كل تصرف طيب كان بمقدوره أن يقدمه لوالديها. بالغ في إظهار قوته على إجبار نفسه على مواجهتها كلما فكر بأي فعل من شأنه أن يدخل السرور على الأم والأب. كان يظن بأنه يكره رؤية من وجهت له إهانة لا تُحتمل؛ لكنه كان مخطئاً. كانت لذة مؤلمة أن يكون معها في الغرفة نفسها، ويشعر بحضورها، لكنه لم يكن محللاً ناجحاً لدوافعه، وكان مخطئاً، كما قلت.

وأخيراً، في الوطن

جاءت السيدة ثورنتِن في صباح اليوم التالي لزيارة السيدة هيل التي كانت في حالة أسوأ. إذا بدت في واحدة من التغييرات المفاجئة أنها خطت أثناء الليل خطوات ظاهرة للعيان نحو الموت، وارتعدت أسرتها فزعاً من تلك النظرة الضبابية الغائرة التي اكتستها ملامحها على مدى الاثنتي عشرة ساعة الماضية. وعلى الفور رقَّ قلب السيدة ثورنتِن التي لم تكن قد رأتها منذ أسابيع عدة. جاءت لزيارتها لأن ابنها طلب منها أن تسدي إليه معروفاً شخصياً، ولكن من دون أن تتخلى عن مشاعر الكبرياء الجريحة سلاحاً ضد عائلة تنتمي إليها مارغريت. شككت بحقيقة مرض السيدة هيل، وشككت بكل رغبة من تلك السيدة بوصفها مجرد تخيلات آنية ستبعدها عن المسار المخطط لمشاغل ذلك اليوم. قالت لابنها إنها تمنت لو أن هذه الأسرة لم تقترب من هذا المكان، وليته لم يتعرف عليهم، ولم تُخترع لغات عديمة الجدوى مثل اللاتينية والإغريقية. لكنها عندما انتهت من سخريتها من اللغات الميتة، عاد ابنها إلى التعبير الحاسم والمختصر والحاد عن رغبته بأن تذهب لزيارة السيدة هيل في الموعد المحدد بما يتناسب مع وضعها الصحي. خضعت السيدة ثورنتِن على مضض لرغبة ابنها، مع محبتها له لامتلاك هذه الرغبة، ومبالغتها في الفكرة التي تعشعش في رأسها بشأن الطيبة الهائلة التي يتمتع بها ولدها في مثابرته وإصراره في علاقته مع آل هيل.

طيبته التي تقارب حافة الضعف (مثل كل الفضائل اللطيفة برأيها)، إلى جانب تعاليها على السيد والسيدة هيل، وبالطبع كرهها المؤكد لمارغريت، كلها كانت

أفـكاراً تشـغل بالهـا إلى أن ولجـت إلى داخـل الفـراغ أمـام الظـل الأسـود لجناحـي ملـك المـوت. هنـاك كانـت السـيدة هيـل، أُمّـاً مثلهـا وامـرأةً تصغرهـا سـناً، راقـدة في سريرهـا الـذي خـلا مـن أيِّ بارقـة أمـل في احتـمال أن تنهـض منـه ثانيـة. إذ لم يعـد يعنيهـا تبـدل النـور والظـل، ولا القـدرة عـلى الفعـل، ولا حتـى مـا نـدر مـن تغـير الحركـة، والتنـاوب الباهـت مـا بـين الصـوت والصمـت المطبـق، ومـع ذلـك بـدت تلـك الحيـاة الرتيبـة لا تطـاق. عندمـا دخلـت السـيدة ثورنـتِن القويـة المفعمـة بالحيـاة، كانـت السـيدة هيـل ترقـد بـلا حـراك، لكـن كان واضحـاً مـن ملامـح وجههـا أنهـا عرفـت هويـة الزائـر، لكنهـا لم تسـتطع أن تفتـح عينيهـا حتـى لدقيقـة أو دقيقتـين. علقـت قطـرات كثيفـة مـن الدمـوع عـلى رموشـها قبـل أن تنظـر إليهـا. عندهـا مـدت يدهـا المتهالكـة تمسـك بغطـاء السريـر لتلمـس أصابـع السـيدة ثورنـتِن الصلبـة والكبـيرة، وقالـت بصـوت خافـت اضطـرت معـه السـيدة ثورنـتِن للانحنـاء كي تسمعها:

"مارغريت...لديـك ابنة...أختـي في إيطاليـا. وابنتـي سـتصبح يتيمـة الأم؛ في مـكان غريـب...، إن وافـاني الأجل...هـل لـك...".

تسـمرت عيناهـا التائهتـان والغشـاوة تعلوهـما عـلى وجـه السـيدة ثورنـتِن بـأسىً عميـق. لم يبـدُ أي تغـير عـلى وجـه السـيدة ثورنـتِن لمـدة دقيقـة، ظـل قاسـياً، لم يتأثـر؛ لكـن عينـي السـيدة المريضـة كانتـا تفقـدان بريقهـما بسـبب الدمـوع التـي كانـت تتجمـع ببـطء، وربمـا رأت سـحابة سـوداء تعـبر الملامـح البـاردة لذلـك الوجـه. لم يكـن التفكـير بابنهـا أو ابنتهـا فـاني هـو مـا حـرك قلبهـا أخـيراً، بـل ذكـرى مفاجئـة راودت عقلهـا عندمـا فطنـت إلى ترتيـب معـين في الغرفـة، لابنـة صغـيرة ماتـت قبـل سـنوات، فكانـت أشـبه بشـعاع شـمس أذاب عـلى حـين غـرة قـشرة مـن الجليـد كانـت تختبـئ خلفهـا امـرأة حقيقيـة رقيقـة.

"تريدينني أن أكـون صديقـة للآنسـة هيـل"، قالـت السـيدة ثورنـتِن بصوتهـا المتكلـف الـذي رفـض أن يلـين كـما فعـل قلبهـا، فخـرج واضحـاً بنـبرة مميـزة.

بقيـت عينـا السّـيدة هيـل مثبتتـين عـلى وجـه السـيدة ثورنـتِن وهـي تشـدُّ عـلى

اليـد التـي كانـت تحـت يدهـا فـوق الغطـاء. لم تسـتطع الـكلام. تنهّـدت السـيدة ثورنتِن،"سـأكون صديقتهـا الصـدوق، إن دعـت الظـروف. لكـن لـن أكـون تلـك الصديقـة الرقيقـة المحبـة التـي لا يمكننـي أن أكـون ("لهـا"، كانـت عـلى وشـك أن تضيـف هـذه الكلمـة، لكنهـا تراجعـت أمـام منظـر ذلـك الوجـه المسـكين القلـق)... إذ ليـس مـن طبيعتـي أن أُظهـر عواطفـي حتـى عندمـا أشـعر بهـا فعـلاً، ولا أتطـوع بإبـداء النصيحـة بشـكل عـام. لكـن، وتلبيـة لطلبـك، إن كان هـذا ما يجعلك تشـعرين بالارتيـاح، سـأعدك بذلـك". كانـت السـيدة ثورنـتِن حريصـة أشـد الحـرص عـلى الوعـد بمـا لا تنـوي الوفـاء بـه، وبالتـالي كان القيـام بـأي شيء عـلى سـبيل العطـف نيابـة عـن مارغريـت التـي كانـت تكرههـا، في تلـك اللحظـة، أكـثر مـن السـابق، أمـراً صعبـاً، وعـلى الأغلـب مسـتحيلاً.

"أعـدك"، قالـت بجـدّة ألهمـت في نهايـة المطـاف السـيدة التي كانـت تحتـضر الإيمـان بـشيء أكـثر اسـتقراراً مـن الحيـاة نفسـها، الحيـاة المضطربـة، القلقـة. "أعـدك أنـه وفي حـال واجهـت الآنسـة هيـل أي صعوبـة..."

"نادِها مارغريت"، تنهدت السيدة هيل.

"ولجـأت إليّ لمسـاعدتها، سأسـاعدها بـكل طاقتـي، كـما لـو كانـت ابنتـي. كـما أعـدك إن رأيـت تفعـل مـا أظنـه أمـراً خاطئـاً..."

"لكـن مارغريـت لا تقـوم بأفعـال خاطئـة، عـن عمـد"، توسـلت إليهـا السـيدة هيـل. تابعـت السـيدة ثورنـتِن عـلى النحـو نفسـه، وكأنهـا لم تسـمع:

"إن رأيتهـا تقـدم عـلى مـا أعتقـد أنـه خطـأ، خطـأ لا يمسـني أو يمـس مـا يخصنـي، وفي هـذه الحالـة مـن المفـترض أن يكـون لـدي دافـع للاهتـمام بالأمـر، سـألفت انتباههـا إليـه بصـدق ووضـوح، كـما يجـب أن أتمنـى لأحـد أن يلفـت انتبـاه ابنتـي".

مـرت فـترة طويلـة مـن الصمـت. شـعرت السـيدة هيـل أن هـذا الوعـد لم يكـن كامـلاً، ورغـم ذلـك كان كثـيراً. إذ تضمـن الوعـد تحفّظـات لم تفهمهـا، لكنهـا عندئـذ شـعرت بالتعـب والغثيـان. كانـت السـيدة ثورنـتِن تسـتعرض كل الحـالات المحتملـة التـي تعهـدت فيهـا بالتـصرف. أحسـت بفـرح عـارم مـن أنهـا سـتقوم بإبـلاغ مارغريـت

بحقائق غير مرغوبة تحت اسم أداء الواجب. بدأت السيدة هيل بالكلام: "شكراً لك. سأدعو الله أن يباركك. لن أراك مرة ثانية في هذه الدنيا. لكن كلماتي الأخيرة لك: أشكرك على وعدك بالعطف على ابنتي".

"لا ليس عطفاً!" أكدت السيدة ثورنتِن التي كانت صادقة بشكل كريه حتى آخر لحظة. وبما أنها أراحت ضميرها بقولها هذه الكلمات، لم تشعر بالأسف لأن السيدة هيل لم تسمعها. شدت على يد السيدة هيل الرخوة، ونهضت ثم غادرت المنزل من دون أن ترى أحداً.

عندما كانت السيدة ثورنتِن تجري حديثها مع السيدة هيل، انهمكت مارغريت وديكسِن في التشاور بشأن كيفية إبقاء خبر وصول السيد فريدريك سرّاً على الجميع خارج المنزل. فمن المتوقع أن تصل رسالة منه في أي يوم، ومن المؤكد أنه سيصل إلى هنا في وقت قصير. يجب إرسال مارثا في إجازة، ويتعيّن على ديكسِن أن تحرس الباب الأمامي ولا تسمح لأحد بالدخول سوى لبضعة زوار يأتون إلى مكتب السيد هيل في الطابق العلوي، ويُعدُّ مرض السيدة تسويغاً مناسباً. إن تطلب عمل المنزل استدعاء ماري هيغينز لتقديم المساعدة لديكسِن في المطبخ، فيجب ألا تسمع أو ترى فريدريك قدر الإمكان، وإن دعت الضرورة، أن يشار إليه أمامها باسم السيد ديكنسِن، مع العلم أن طبيعتها الكسولة، وغير الفضولية، كانت أكبر ضمانة من أي شيء آخر.

وأخيراً قررتا أن تُرسل مارثا في إجازة عصر ذلك اليوم لتزور والدتها. كانت مارغريت تتمنى لو منحتها الإجازة في اليوم السابق، لأنها تصورت أنه سيبدو غريباً أن تعطي خادمة إجازة في الوقت الذي يستدعي وضع سيدتها الصحي عناية فائقة.

مسكينة مارغريت! كانت مضطرة طوال عصر ذلك اليوم لأن تلعب دور الابنة الرومانية[60]، وتمنح أبيها القوة من مخزونها الشحيح. كان السيد هيل لا ييأس،

(60) حكاية امرأة رومانية تدعى بيرو أرضعت أباها سراً بعد أن سُجن وحكم عليه بالإعدام جوعاً. وردت هذه الحكاية في كتابٍ للمؤرخ الروماني فاليروس ماكسيموس (20 ق.م-50) بعنوان "تسعة مجلدات عن أفعال وأقوال لا تُنسى للرومان القدماء". (م)

متعلقاً بالأمل، حتى إنه كان يستعيد تماسكه بين توقف نوبات الألم التي كانت تجتاح جسد زوجته، معتقداً أنها بداية التعافي الكامل. لكن عندما تعود التشنجات لتداهمها، كل واحدة أشد وأقسى من سابقتها، كان يعاوده العذاب، وإحساسه بخيبة أكبر. في عصر ذلك اليوم، جلس في غرفة الضيوف لا يطيق وحشة غرفة المكتب، أو غير قادر على أن يشغل نفسه بأي شيء. دفن رأسه بين ذراعيه اللتين طواهما فوق الطاولة. تألم قلب مارغريت عندما رأته على هذه الحال، وبما أنه ظل صامتاً، لم تشأ أن تبادر بأيٍّ محاولة لمواساته والتخفيف عنه. كانت مارثا قد ذهبت، وبقيت ديكسِن مع السيدة هيل التي خلدت إلى النوم. كان المنزل ساكناً هادئاً، وبدأ الظلام من دون أي حركة لإحضار الشموع. جلست مارغريت عند النافذة تنظر إلى الشارع والمصابيح، لكنها لا ترى شيئاً، ولا تسمع سوى تنهدات أبيها. لم تحبِّذ فكرة النزول إلى الطابق السفلي من أجل الضوء خشية أن يختفي ذلك القيد السّري الذي يفرضه وجودها على أبيها مما يفسح المجال له للاندفاع بمشاعر أكثر عنفاً، من دون أن تكون إلى جانبه لمواساته. خطر على بالها أنه ينبغي عليها أن تنزل إلى المطبخ لتتأكد من نار الموقد التي لم يكن هناك أحد غيرها قادراً على تفقدها. وفجأة سمعت صوت جرس الباب يرن بحركة جذب عنيفة طاولت أسلاكه التي راحت تجلجل في أرجاء المنزل، رغم أن الصوت لم يكن قوياً. تحركت بسرعة، ومرّت بجانب أبيها الذي بقي ساكناً ولم يلتفت إلى الصوت المكبوت. عادت إليه، وقبّلته برقة وحنان، لكنه لم ينتبه إلى لمستها الحانية المُحبة. نزلت الدرج بخطوات هادئة في الظلام باتجاه الباب. لو كانت ديكسِن مكانها، لأحكمت ربط السلسلة بين دفتي الباب قبل أن تفتحه، لكن الخوف لم يتسرب إلى مارغريت التي كان رأسها مشغولاً بأفكار أخرى. وقف رجل طويل القامة بينها وبين الشارع المُضاء. كان ينظر بعيداً، لكن صوت رفع المزلاج عن الباب جعله يلتفت بسرعة.

"هل هذا منزل السيد هيل؟" سألها بصوت واضح يشوبه التردد.

ارتعشت مارغريت. لم تجب عن سؤاله في البداية. وفي لحظة صاحت:

"فريدريك!" ومدت يداها لتمسك بيديه وتسحبه إلى الداخل.

"مارغريـت!"، أجابهـا وهـو يمسـك بكتفيهـا، بعـد أن قبَّـل أحدهـما الآخـر، كـما لـو أنـه كان قـادراً عـلى رؤيـة وجهها في الظـلام، وأن يقـرأ في ملامحـه جوابـاً عـن سـؤال بسرعـة أكـبر مـما قـد تقدمـه الكلـمات:

"كيف حال أمي، هل لا تزال على قيد الحياة؟"

"أجل، يا أخي العزيز، إنها حية! هي مريضة جداً، لكنها حية، حية!".

"الحمد لله!" قال فريدريك.

"أبي محطم تماماً حزناً عليها".

"كنتم تتوقعون وصولي، أليس كذلك؟"

"كلا، لم تصلنا أيُّ رسالة".

"إذن، وصلتُ قبلها، لكن أمي كانت تعلم بقدومي".

"أجـل، جميعنـا كنـا نعلـم. لكـن انتظـر قليـلاً! تقـدم. أعطنـي يـدك. مـا هـذا؟ إنهـا حقيبتـك القماشـية. ديكسِـن أغلقـت مصاريـع النوافـذ، هـذه غرفـة مكتـب والدنـا، سـآخذك إلى كـرسي لتسـتريح عليـه بضـع دقائـق، بينـما أذهـب لأخبره بوصولـك".

تحسسـت طريقهـا في العتمـة بحثـاً عـن شـمعةٍ وعيـدان الثقـاب. وفجـأة شـعرت بالخجـل عندمـا جعلهـما الضـوء الباهـت ظاهريـن. كل مـا اسـتطاعت رؤيتـه وجـه أخيهـا الـذي كان داكنـاً عـلى نحـو غريـب، ولمحـت تلـك النظـرة الخفيـة لعينيـن زرقاويـن طولانيتـين بشـكل ملحـوظ. وعـلى الرغـم مـن أن الأخ والأخـت حظيـا بلحظـة مـن التعاطـف في نظراتهـما المتبادلـة، إلا أنهـما لم يقـولا أيَّ كلمـة، غـير أن مارغريـت شـعرت أنهـا سـتحبه كصديـق بعـد أن أحبتـه أخـاً فحسـب. كان قلبهـا فرِحـاً وهـي تصعـد الـدرج، وإن كان لا يـزال يشـعر بـالأسى والحـزن، لكنـه كان أقـل وطـأة بعـد أن جـاء مـن يشـاركها تحديـداً الموقـع ذاتـه في المنـزل، كـما لم يكـن يـأس والدهـا قـادراً عـلى إخـماد هـذه الفرحـة الآن. كان لا يـزال جالسـاً عنـد الطاولـة في عجـز لم يسـبق لـه مثيـل، غـير أنهـا هـذه المرة حملـت معهـا تعويـذه سـتوقظه مـن سـباته، ربمـا اسـتخدمتها بشـدة أكـبر للتنفيـس عـن نفسـها.

"أبي"، قالـت لـه وهـي تطـوق عنقـه بذراعيهـا بمحبـة ورقـة، وترفـع رأسـه عاليـاً

بعنف لطيف حتى استقر بين ذراعيها، واستطاعت أن تنظر في عينيه لتكتسبا القوة والطمأنينة من عينيها.

"أبي، إحزر من جاء؟".

نظر إليها، ولمحت فكرة الحقيقة تلمع في حزن عينيه، ثم تغيب وكأنها شطحة من الخيال. ألقى بنفسه إلى الأمام وخبأ وجهه مرة أخرى بين ذراعيه الممدودتين باسترخاء فوق الطاولة. سمعته يهمس، وانحنت فوقه بحنان لتستمع إليه.

"لا أدري، لا تقولي إنه فريدريك، لا ليس فريدريك. لا أحتمل هذا. أنا متعب وضعيف، وأمه تحتضر!".

راح يبكي وينتحب مثل طفل صغير. كان أمراً مختلفاً عما كانت مارغريت تتوقعه وتأمل به إلى حد جعلها تشعر بالخيبة، واضطرها إلى الصمت للحظة. تحدثت إليه ثانية، بطريقة مختلفة لكن ببهجة أقل، وبحنان وحرص أكبر مما سبق.

"بلى، يا أبي، إنه فريدريك! فكر بأمي وكم ستكون سعيدة! وكم سنكون سعداء من أجلها أيضاً، ومن أجله من أجل الفتى المسكين!".

لم يغير الأب موقفه، لكنه بدا وكأنه يحاول أن يفهم الحقيقة.

"أين هو؟" سألها أخيراً، ووجهه لا يزال بين ذراعيه المسترخيتين.

"في غرفة المكتب، لوحده. أشعلت شمعة، وجئت لإخبارك، أنه بمفرده، وسيتساءل حتماً...".

"سأذهب إليه"، قاطعها والدها، ونهض مستنداً على ذراعها وكأنه ذراع دليل مرشد.

قادته إلى غرفة المكتب، لكن مشاعرها كانت في حالة من الانفعال جعلتها تشعر بعجزها عن حضور اللقاء. استدارت، وصعدت الدرج، وهي تبكي بحرقة. كانت المرة الأولى، منذ عدة أيام، التي سمحت لنفسها أن تطلق حبيس مشاعرها. كانت ترزح تحت وطأة حزن رهيب، كما شعرت به الآن. لكن فريدريك عاد! الأخ العزيز الغالي عاد بينهم سالماً مرة ثانية! لم تصدق ذلك. توقفت عن

البكاء وفتحت باب غرفة نومها. لم تسمع صوتاً، حتى أنها خشيت أن تكون في حلم. نزلت إلى الطابق السفلي ووقفت عند باب غرفة المكتب، وسمعت جلبة من الأصوات، وكان ذلك كافياً. اتجهت نحو المطبخ، وحركت النار وأضاءت المنزل، وأعدت ما ينعش تعب المسافر. يا لحسن الحظ أن والدتها كانت نائمة! أدركت ذلك من وهج مُشعل الشموع عبر ثقب باب غرفة نومها. وقبل أن تدرك والدتها وجود شيء غير عادي في المنزل، سيكون المسافر قد ارتاح واستعاد نشاطه، وانقضت فرحة اللقاء مع أبيها.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، فتحت مارغريت باب غرفة المكتب، ودخلت كما الخادمة تحمل بكلتا يديها صينية ثقيلة. كانت مزهوة بخدمة أخيها فريدريك الذي ما إن رآها حتى هبَّ واقفاً وساعدها في التخلص من حملها. كان ذلك نموذجاً، إشارة إلى الراحة التي سيمنحها حضوره. تعاون الشقيقان على إعداد المائدة بقليل من الكلام، ويداهما تتلامسان، وعيناهما تتكلمان لغة التعبير الطبيعية التي لا يفهمها إلا أبناء الدم الواحد. انطفأت نار الموقد، فانشغلت مارغريت في إشعالها، إذ بدأ المساء يميل إلى البرودة، لكن كان من المستحسن إبعاد أي ضجيج قدر الإمكان عن غرفة السيدة هيل.

"تقول ديكسِن إن إشعال النار موهبة، لا فناً يتعلمه المرء".

"الشاعر يُولد، لا يُصنع"، تمتم السيد هيل، وشعرت مارغريت بالسعادة لتسمع منه من جديد اقتباساً، بغضِّ النظر عن الطريقة المُحبَطة التي قيل بها.

"عزيزتي ديكسِن العجوز! كيف سنقبل بعضنا بعضاً!" قال فريدريك. "كانت تقبّلني، ومن ثم تنظر في وجهي لتتأكد من أني هو الشخص الذي تريده، ثم تعاود من جديد! أما أنت يا مارغريت، فيا لك من خرقاء! لم أرَ في حياتي يدين مرتبكتين لا تنفعان لشيء مثل يديك. اذهبي واغسليهما لتقطعي لي الخبز والزبدة، واتركي النار لي، فإشعال النار واحدة من مواهبي الطبيعية".

ذهبت مارغريت وعادت، وعاودت الخروج والدخول من وإلى الغرفة بقلق مُفرح حتى إنها لم تكن راضية بالجلوس ساكنة في كرسيها. كلما طلب فريدريك

منهـا المزيـد، ازدادت سروراً، وأدرك أخوهـا ذلـك تلقائيـاً. كان فرحـاً انتُـزِعَ انتزاعـاً في بيـت يسـكنه الحـداد، وكانـت اللهفـة إليـه أشـد مـرارة، لأنهـم كانـوا يعلمـون في أعـماق قلوبهـم الحـزن المحتـوم الـذي كان ينتظرهـم.

وفي وسـط هـذه البهجـة، سـمعوا صـوت وقـع خطـوات ديكسِـن عـلى الـدرج. انتفـض السـيد هيـل مـن جلسـته المسـترخية في الكـرسي الكبـير الـذي كان يراقـب منـه ولديـه بطريقـة حالمـة وكأنهـما يؤديـان مسرحيـة مـا، لا دور لـه فيهـا، عـن السـعادة، جميـل أن تشـاهدها رغـم أنهـا تجـافي الواقـع تمامـاً. وقـف الأب ووجهـه نحـو البـاب تعلـوه مسـحة مـن قلـق غريـب داهمـه فجـأة حرصـاً منـه عـلى إخفـاء فريدريـك عـن أنظـار أي شـخص يدخـل الغرفـة، حتـى لـو كانـت العزيـزة الوفيـة ديكسِـن. ارتجـف قلـب مارغريـت، فقـد ذكّرهـا الموقـف بالخـوف الجديـد الـذي دخـل حياتهـم. تمسّـكت بـذراع فريدريـك، وتشـبثت بهـا بقـوة، وراودهـا خاطـر مفـزع جعلهـا تقطـب حاجبيهـا وتـصر عـلى أسـنانها، رغـم أنهـم كانـوا يعلمـون أن هـذه الخطـوات الموزونـة هـي خطـوات ديكسِـن. سـمعوها تمـشي عـلى طـول الممـر، وتدخـل المطبـخ. نهضـت مارغريـت.

"سـأذهب وأخبرهـا، وأطمـئن منهـا عـلى أمـي". كانـت السـيدة هيـل قـد اسـتيقظت. تلـوّت وتقلّبـت في البدايـة، لكـن بعـد ان أسـقوها شـاياً، ارتاحـت لكـن مـن دون رغبـة بالـكلام. كان مـن الأفضـل أن تنقـضي الليلـة أولاً قبـل أن يخبروهـا بوصـول ابنهـا. كـما أن زيـارة الدكتـور دونالدسِـن سـتزيد مـن التوتـر والانفعـال بمـا يكفـي خـلال المسـاء، وربمـا يعطيهـم النصيحـة بشـأن تهيئتهـا لرؤيـة فريدريـك الـذي كان في المنـزل، ويمكـن مناداتـه في أيِّ لحظـة.

لم تسـتطع مارغريـت البقـاء سـاكنة مـن دون حـراك. لذلـك كان أمـراً مريحـاً لهـا أن تسـاعد ديكسِـن في كل ترتيباتهـا للقـاء "السـيد فريدريـك". بـدت وكأنهـا لـن تشـعر بالتعـب مطلقـاً بعـد الآن. لم تكـن لتكـترث بمـا كان يتحـدث هـو ووالـده، ولم تكـن تـدري عـن أي موضـوع يتحدثـان. كانـت كل نظـرة إلى داخـل الغرفـة وهـو جالـس عـلى كرسـيه بجانـب أبيـه تزيدهـا قـوة ونشـاطاً. سـيأتي وقـت تتحـدث معـه

وتستمع إليه، تملؤها ثقة كبيرة لا تستحثها كي تستعجل قدوم تلك اللحظة. تفحصت ملامحه، وأعجبتها. كان يمتاز بملامح رقيقة مستمدة من المنظر الأنثوي لسُمرة بشرته، وحدة تعابيره السريعة. كانت عيناه عموماً تبدوان فرحتين، لكنهما أحياناً تتغيران فجأة مع فمه على نحوٍ أعطاها انطباعاً عن غضب دفين وهذا ما أدخل الخوف إليها. لكن هذه النظرة لم تدم طويلاً، ولم تنم عن تزمت أو رغبة بالانتقام، بل كانت أشبه بحدّة عابرة في ملامح وجوه السكان الأصليين في البلدان الجنوبية، أو البقاع المتوحشة، تلك الحدّة التي تزيد من سحر ما يشبه نعومة الأطفال التي تذوب فيها هذه الملامح وتختفي. ربما كانت مارغريت تخشى عنف وقساوة الطبيعة الانفعالية التي تظهر أحياناً، لكن لم يكن فيها ما يدعوها لعدم الثقة أو تجنبها على أقل تقدير من أخيها العائد. بل على العكس تماماً، فقد كان لقاؤهما ساحراً بامتياز منذ البداية. أدركت مارغريت حجم المسؤولية التي كان عليها تحملها، وذلك من إحساسها بالارتياح الذي شعرت به في وجود فريدريك. امتلك قدرة فذة على فهم والديه، شخصيتيهما، وضعفهما، وتماشى مع ذلك بحرية مطلقة كانت حريصة بشكل حسّاس على ألا تؤذي أو تجرح مشاعرهما. بدا واضحاً أنه كان يعلم غريزياً متى لا يمكن لقدر محدود من الذكاء الطبيعي لتصرفاته وحديثه أن يتصادم مع حزن أبيه العميق، أو أن يواسي ألم والدته المريضة. وكلما كان ذلك لا يتفق مع الجو السائد، والوقت المناسب، يتدخل تفانيه الصبور، ورعايته لهما ليجعلا منه مربية تستحق الإعجاب. تأثرت مارغريت حتى كادت تبكي بتلميحاته إلى أيام الطفولة في نيو فوريست؛ لم ينسها أو ينسى هِلْستِن، طوال الوقت الذي كان فيه يجول على بلدان بعيدة، وشعوب غريبة. كان بمقدورها أن تحدثه عن تلك البقعة القديمة ولا تخشى من أن تسبب له التعب أو الملل. كانت تخاف منه قبل أن يعود، حتى عندما كانت تتلهف شوقاً لعودته. شعرت مارغريت أن سبع أو ثماني سنوات غيّرت فيها الكثير من الأشياء حتى باتت تتساءل عمّا بقي من مارغريت الأصلية. وفكرت ملياً إن كانت مشاعرها وذوقها قد تغيّرا بشكل محسوس، سواء في فترة بقائها في المنزل، أو عندما كان أخوها في مهنته

القاسية التي لم تكن تعرف عنها حينذاك الشيء الكثير، فلا بد أنها غيرت فريدريك ذلك الصبي المراهق طويل القامة الذي تتذكره في زي الظهيرة، وتنظر إليه بإعجاب. لكنهما وفي أثناء غيابهما، كبرا ليصبحا متقاربين في السن وفي أشياء أخرى. وكذلك ينسحب الأمر على هذا الهم، هذا الوقت العصيب الذي أصبح بالنسبة إلى مارغريت أقل وطأة وقسوة. إذ أن حضور فريدريك هو أخف شيء بالنسبة إليها. وخلال بضع ساعات، أسرعت الأم لرؤية ابنها. جلست إلى جانبه ويده بين يديها، ولم تتركه حتى وهي نائمة، ما أجبر مارغريت على إطعامه مثل طفل صغير كيلا تزعج والدتها ولو حتى بتحريك أصبع واحدة. استيقظت الأم وهما على هذه الحالة، وأدارت رأسها ببطء على الوسادة، وابتسمت لولديها بعد أن فهمت ما كانا يفعلانه، ولماذا.

"أنا شخص أناني"، قالت الأم؛ "لكن ذلك لن يدوم طويلاً". انحنى فريدريك وقبل يد أمه الواهنة التي كانت تقيد يده.

أكد الدكتور دونالدسِن لمارغريت أن هذه الحالة من الهدوء لن تدوم لأيام، ولا لساعات على الأرجح. بعد أن غادر الطبيب، هرعت مارغريت إلى أخيها الذي ناشدوه أن يبقى هادئاً في الممر الخلفي، في غرفة نوم ديكسِن التي صارت الآن غرفته.

قالت مارغريت له ما أخبرها به الدكتور دونالدسِن.

"لا أصدق ذلك"، قال متعجباً. "نعم هي مريضة، وقد تكون حالتها سيئة وفي خطر وشيك أيضاً، لكنني لا أتخيل أن تكون على هذه الحال، إن كانت على وشك الموت. مارغريت! لا بد أن تحصل والدتي على استشارة طبية أخرى، عند طبيب في لندن. ألم تفكري في ذلك؟".

"بلى فكرت"، قالت مارغريت، "وأكثر من مرة، ولكن لا أظن أن الأمر سيكون مفيداً. وكما تعلم، ليس لدينا ما يكفي من المال لإحضار طبيب مشهور من لندن، وأنا واثقة من أن الدكتور دونالدسِن لا يقل كثيراً في مهارته عن أفضل طبيب، إن لم يكن واحداً منهم فعلاً".

راح فريدريك يتجول في الغرفة بضيق شديد.

"لـدي رصيـد في كادِز"، قـال لهـا، "لكـن ليـس هنـا، بسـبب تغيـير الاسـم. لِـمَ تـرك والـدي هِلْسـتِن؟ كان ذلـك خطـأ جسـيماً".

"لا لم يكـن خطـأ"، ردت عليـه مارغريـت بـأسى، "حـاول في أي فرصـة محتملـة ألا تـدع أبـاك يسـمع شـيئاً مـما كنـت تقولـه الآن. فأنـا أدرك تمامـاً بـأن يتعـذب بسـبب اعتقـاده أن والدتنـا مـا كانـت لتصـاب بهـذا المـرض، لـو بقينـا في هِلْسـتِن. وأنـت لا تعلـم قـدرة أبي عـلى تعذيـب نفسـه بهـذا النـوع مـن لـوم الـذات".

مـشى فريدريـك مبتعـداً عنهـا وكأنـه عـلى ظهـر سـفينة. ثـم توقـف أخـيراً قبالتهـا، ونظـر إلى وقفتهـا اليائسـة الواهنـة.

"يـا أختـي الصغـيرة مارغريـت"، قـال لهـا وهـو يداعبهـا. "دعينـا نأمـل خـيراً قـدر المسـتطاع. أيتهـا المـرأة الصغـيرة المسـكينة! مـا بـك! لِـمَ هـذا الوجـه كلـه مبلـل بالدمـوع؟ سأتمسـك بالأمـل. أجـل سأتمسـك بالأمـل رغـماً عـن ألـف طبيـب. تماسـكي، يـا مارغريـت، وكـوني شـجاعة بمـا يكفـي لتتعلقـي بالأمـل!".

تهدج صوت مارغريت وهي تحاول الكلام، وعندما تكلمت جاء صوتها منخفضاً:

"يجـب عـلي أن أحـاول أن أكـون مستسـلمة بمـا يكفـي كي أصـدق.آه يـا فريدريـك! كانـت أمـي قـد عـادت لتحبنـي مـن جديـد، وبـدأت أفهمهـا. وهـا هـو المـوت يـأتي ليفرقنـا عـن بعضنـا بعضـاً".

"تعـالي، تعـالي! هيـا بنـا نصعـد إلى الأعـلى، ونفعـل شـيئاً مـا بـدلاً مـن أن نضيـع وقتـاً قـد يكـون ثمينـاً. فطـوال حيـاتي، كـم مـن مـرة، جعلنـي التفكـير حزينـاً، يـا عزيـزتي، أمـا الفعـل فـلا. نظريتـي نـوع مـن المحـاكاة السـاخرة للقـول المعـروف "يـا بنـي، احصـل عـلى المـال بـشرف إن اسـتطعت؛ المهـم أن تحصـل عليـه". أمـا مبـدأي فيقـول افعـلي شـيئاً يـا أختـي، خـيراً إن اسـتطعت، لكـن عـلى أي حـال، افعـلي شـيئاً".

"مـن دون اسـتثناء الأفعـال المشاكسـة"، قالـت مارغريـت، وهـي ترسـم بدموعهـا ابتسـامة خفيفـة.

"قطعـاً لا، مـا اسـتثنيه هـو النـدم لاحقـاً. اشـطبي أعمالـك الشريـرة (إن كنـت حيَّـة الضمـير) بأفعـال الخـير بـأسرع وقـت، كـما كنـا نفعـل في المدرسـة عندمـا نصحـح رقـماً

على السبورة، ويبقى الجزء الخطأ غير ممسوح بالكامل. كان ذلك أفضل من أن نبلل الاسفنجة بدموعنا، لأن في ذلك تبديد أقل للوقت حيث كان يتعين علينا انتظار الدموع، ونتيجة أفضل في نهاية المطاف".

إن ظنت مارغريت أن نظرية فريدريك قاسية إلى حد ما في البداية، فإنها شاهدت بأم العين كيف حوّلها أخوها إلى إنتاج لا يتوقف من الحنان والعطف. فبعد ليلة عصيبة مع والدته (أصر فيها على أن يشاركهم السهر عليها)، انشغل فريدريك صباح اليوم التالي قبل الفطور بإعداد ما يساعد على إراحة ساقي ديكسِن التي بدأت تشعر بالتعب من السهر. وعلى الفطور، أمتع فريدريك أباه بوصف حي وتفصيلي للحياة القاسية التي عاشها في المكسيك، وفي أميركا الجنوبية، وأماكن أخرى. لو كان الأمر متروكاً لمارغريت، ليئِست من القيام بأي جهد لإخراج السيد هيل من حزنه، بل وتأثرت هي نفسها لتصبح عاجزة عن تحمّل الأمر. أما فريدريك، ملتزماً بنظريته، فكان مبادراً على الدوام للقيام بشيء ما، ولم يكلفه ذلك سوى الكلام، إلى جانب تناول طعام الفطور.

وقبل حلول ليل ذلك اليوم، ثبتت صحة رأي الدكتور دونالدسِن. عادت التشنجات التي ما إن توقفت، حتى كانت السيدة هيل قد دخلت في غيبوبة. بمقدور زوجها أن يستلقي إلى جانبها يهز السرير بنحيبه، ويمكن لذراعي ابنها القويتين أن ترفعاها برفق إلى وضع مريح لها، وأن تمسح يدا مارغريت وجهها، لكنها لم تكن تعرف أحداً منهم، ولن تتعرف على إي منهم ثانية، إلى أن يلتقوا جميعا في العالم الآخر.

ومع حلول الصباح، بات كل شيء أمراً مَقضياً.

استفاقت مارغريت من خوفها ويأسها، واستحالت ملاكاً قوياً لمواساة أبيها وأخيها. انهار فريدريك، ولم تُجدِه كل نظرياته نفعاً. بكى بعنف وحرقة عندما أغلق على نفسه باب غرفته الصغيرة تلك الليلة، فهرعت إليه مارغريت وديكسِن بدافع الخوف عليه لتحذيره من أن جدران البيت ليست سميكة، مما يتيح للجيران سماع صوت نحيبه القوي الذي يختلف كثيراً عن صوت التفجع

والحسرة المرتعشة البطيئة لما بعد الموت عندما نُدمن على الحزن، وألا يتمرد على القدر المحتوم طالما أنه يعلم علم اليقين من كتبه علينا.

جلست مارغريت مع أبيها في غرفة والدتها المُسجَّاة في سريرها. لو بكى والدها، لحمدت الله على ذلك، لكنه ظل ساكتاً هادئاً، لا ينفك، بين الحين والآخر، يكشف الغطاء عن وجه زوجته، ويربت عليه بلطف، ويصدر غمغمة ناعمة، شبيهة بتلك التي تطلقها أنثى الحيوان عندما تداعب صغارها. لم ينتبه إلى وجود مارغريت التي جاءت إليه وقبلته مرتين، واستسلم لها وهو يبعدها قليلاً عنه، وكأن عاطفتها هذه أقلقت استغراقه مع الراحلة العزيزة. هز رأسه عندما سمع بكاء فريدريك، وقال: "يا للفتى المسكين! يا للفتى المسكين!"، وعاد إلى شروده مرة أخرى. تألم قلب مارغريت، لم تفكر في مُصابها بسبب قلقها على والدها. كان الليل يستعد للرحيل، والنهار على وشك الوصول، عندما انطلق صوت مارغريت، من دون مقدمات، مخترقاً سكون الغرفة بنبرة قوية واضحة أفزعتها قبل الآخرين، قائلة: "لا تضطرب قلوبكم"[61]؛ ومضت بصلابة وثبات عبر هذا الفصل الرهيب الذي لا يوصف من المواساة والعزاء.

(61) إشارة إلى ما ورد في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا:1)-لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي.2-فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا). (م)

"وهل يُنسى ما مضى!"[62]

جاء صباح تشرين الأول/ أكتوبر البارد المرتجف؛ ليس صباح تشرين في الريف بغبشته الفضية التي كانت تتلاشى أمام أشعة الشمس التي ترسم جمالاً أخاذاً من الألوان، بل صباح تشرين ميلتِن التي تستحيل فيه الغبشة الفضية إلى ضباب كثيف لا تستطيع الشمس فيه أن ترسم سوى شوارع طويلة قاتمة، إن أشرقت واخترقت الضباب. مضت مارغريت منهكة القوى تساعد ديكسِن في ترتيب المنزل. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، لكن لم يكن لديها الوقت للبكاء. فوالدها وشقيقها اللذان استسلما للحزن يعتمدان عليها، فلابد لها أن تعمل، وتخطط، وتفكر، بل حتى أن تتولى الترتيبات الضرورية لمراسم الجنازة. بعد أن أُشعلت النار التي راحت تتوهج وتطقطق، وبات كل شيء جاهزاً للفطور، وغلاية الشاي تطلق صفيرها، تلفتت مارغريت حولها في أرجاء الغرفة قبل أن تذهب لتنادي على السيد هيل وفريدريك. أرادت أن يبدو كل شيء مبهجاً قدر المستطاع، ومع ذلك، كانت المقارنة بين ما هو حولها وما في داخلها كفيلة بإرغامها على أن تنفجر في نوبة بكاء مفاجئة. كانت جاثية على ركبتيها بجانب الكنبة، تدفن رأسها بين الوسائد، عندما اقتربت منها ديكسِن ولمست كتفيها.

"تعالي، يا آنسة هيل، هيا يا عزيزتي! يجب أن تبقي قوية متماسكة، وإلا سننهار جميعاً، وماذا سيكون حالنا عندها؟ لا يوجد في المنزل شخص واحد

---

(62) عبارة اسكوتلندية الأصل (Auld Lang Syne) كانت تستخدم في الأغنيات والأناشيد احتفالًا بنهاية رأس السنة والوداع وحتى الجنازات وتعني "قد ننسى ما مضى لكن لن ننسى الأصدقاء".

قادر على إعطاء أي توجيه من أي نوع، وهناك عمل كثير يجب القيام به. من سيتدبر أمر الجنازة، من سيحضرها، وأين سيتم الدفن؟ يجب تسوية كل هذه الأمور، والسيد فريدريك يبدو كالمجنون من شدة البكاء، أما السيد هيل فلم يكن في حياته الشخص المناسب لاتخاذ قرار، وأصبح الآن تائهاً تماماً. أعلم يا عزيزتي أن المُصاب كبير، لكن لا مفر من الموت، وأنت محظوظة أنك لم تفقدي صديقاً عزيزاً حتى الآن".

قد يكون هذا صحيحاً، إلا أن وفاة والدتها كانت بحد ذاتها خسارة لا تحتمل المقارنة مع أي حدث آخر في العالم. لم تجد مارغريت راحة في كلام ديكسِن، لكن هذه الرقة الغريبة في سلوك الخادمة العجوز الصارمة لامست شغاف قلبها. ورغبة منها في التعبير عن امتنانها لها أكثر من أي شيء آخر، نهضت مارغريت وابتسمت في وجه ديكسِن التي كانت تنظر إليها بقلق، وذهبت لتخبر والدها وأخاها أن الفطور أصبح جاهزاً.

دخل السيد هيل، كأنه في حلم، أو بالأحرى غائباً عن الوعي مثل من يمشي في نومه، وعيناه وعقله يتخيلان أشياء لا علاقة لها بالحاضر. جاء فريدريك مسرعاً مصطنعاً الفرح، وأمسك بيد مارغريت ونظر في عينيها، ثم انفجر بالبكاء. كان عليها أن تحاول وتفكر بألا تقول أشياء مهما كانت صغيرة طوال الفطور كي تجنب جليسيها على المائدة استذكار آخر فطور لهم عندما كانت أذانهم مشدودة لأي صوت أو إشارة تصدر من غرفة الأم المريضة.

بعد الفطور، قررت مارغريت التحدث إلى والدها عن ترتيبات الجنازة. هزَّ رأسه موافقاً على ما اقترحته على الرغم من أن العديد من مقترحاتها كانت متناقضة. لم تحصل مارغريت من والدها على أي قرار، وكانت في طريقها للخروج من الغرفة للتشاور مع ديكسِن، عندما طلب منها العودة إلى جانبه.

"اسألي السيد بيل"، قال لها بصوت متثائب.

"السيد بيل"، قالت مارغريت وقد فاجأها طلب أبيها. "السيد بيل من أكسفورد؟".

"أجل السيد بيل"، أعاد ما قاله مرة أخرى. "كان إشبيني".

فهمت مارغريت العلاقة بين الأمرين.

"سـأكتب لـه اليـوم"، أجابـت مارغريـت. وعـاد والدهـا ليغـرق في شروده. تعبـت وهـي تعمـل طـوال الصبـاح، تتـوق إلى الراحـة، ولكـن في دوامـة لا تتوقـف مـن الحـزن والكآبـة.

ومع اقتراب المساء، قالت لها ديكسِن:

"أنجـزتُ مـا طلبتِـه منـي، يـا آنسـة. كنـت خائفـة عـلى سـيدي مـن أن يصـاب بنوبـة مـن الجنـون بسـبب الحـزن. كان طـوال النهـار مـع السـيدة المسـكينة. عندمـا تنصـتُ عـلى البـاب، سـمعته يكلمهـا، ويكلمهـا، كـما لـو كانـت حيـة. وعندمـا دخلـت، صمت تمامـاً، وكان هادئـاً، وكأنـه في متاهـة. لذلـك قلـت لنفسـي، لا بـد مـن إيقاظـه، حتـى ولـو كان يعنـي ذلـك أن نصدمـه أولاً، لكـن وعـلى الأرجـح سـيكون ذلـك في صالحـه فيـما بعـد. وهـذا مـا جـرى، إذ قلـت لـه إني لا أعتقـد أن المـكان بـات آمنـاً بالنسـبة للسـيد فريدريـك. وأنـا واثقـة مـن كلامـي. عندمـا خرجـت مـن المنـزل يـوم الثلاثـاء المـاضي، التقيـت رجـلاً مـن سـاوثمبتِن، وهـذه أول مـرة أراه منـذ جئنـا إلى ميلتِن، فهـم لا يأتـون إلى هنـا كثـيراً، حسـب علمـي. إنـه الشـاب جـورج ليـنِردز ـ ابـن السـيد ليـنِردز العجـوز بائـع الأقمشـة ـ الـذي لـن تـري لـه نظـيراً في الخِسّـة والحقـارة حتـى أنـه كاد أن يسـبب المـوت قهـراً لوالـده بسـبب تصرفاتـه، ثـم هـرب إلى البحـر. لم أكـن أطيقـه أبـداً. كان عـلى مـتن السـفينة أوريـون في الفـترة نفسـها مـع فريدريـك، أنـا متأكـدة مـن ذلـك، لكنـي لا أتذكـر إن كان حـاضراً عندمـا وقـع التمـرد".

"هل تعرَّف عليك؟" سألتها مارغريت بلهفة.

"هـذا أسـوأ مـا في الأمـر. لا أظـن أنـه كان سـيتعرف عـلي، لـو لم أكـن حمقـاء عندمـا ناديتـه باسـمه. كان مجـرد رجـل مـن سـاوثمبتِن في مـكان غريـب، وإلا مـا كنـت لأتـودّد إليـه، ذلـك الشـخص الكريـه، عديـم الجـدوى. قـال لي: "آنسـة ديكسِـن! مـن كان يتوقـع أن يـراك هنـا؟ أو ربمـا أنـا مخطـئ وأنـت لسـت الآنسـة ديكسِـن؟" قلـت لـه إنـه يمكـن لـه أن يخاطبنـي كسـيدة عزبـاء، لأنننـي لـو لم أكـن دقيقـة في اختياراتي،

لحصلت على فرص جيدة للزواج. كان مؤدباً بما فيه الكفاية: "لم يستطع أن ينظر إلي، ويشك بي". لكن لست أنا من يقع في مزحة كهذه مع شخص مثله، وهذا ما قلته له، ولكي نكون متعادلين، سألته عن أبيه (الذي أعلم أنه طرده من بيته)، وكأنهما أفضل الأصدقاء. عندها، لكي يغيظني، فكما ترين أننا أصبحنا نزقين في الحديث، بعد أن كنا مهذبيْن، بدأ يسألني عن السيد فريدريك، وقال لي أيّ ورطة أوقع نفسه فيها (وكأن مكشطة السيد فريدريك ستمسح بياض جورج ليِنردز، أو ستجعله يبدو على غير لونه الأسود القذر)، وأنه سيُشنق لمشاركته في التمرد إن أمسكوا به، وأنهم رصدوا خمسين جنيهاً مكافأةً لمن يدل عليه، وأنه ألحق بعائلته العار، وكل هذا كي يغيظني، كما ترين يا عزيزتي، لأنني، ساعدت في ما مضى السيد ليِنردز العجوز على أن يعطي جورج تصنيفاً جيداً في ساوثمبتِن. قلت له إن هناك عدداً كبيراً من العائلات، كما أعلم، لديهم أكثر من سبب ليخجلوا من أبنائهم، ويشكروا الله إن استطاعوا أن يتصوروا أبناءهم يكسبون لقمة شريفة بعيداً عنهم. عندها أجابني، مثل شاب فظ وقح ـ وهو كذلك فعلاً ـ بأنه في وضع سري، وإن عرفتُ أي شخص كان سيء الحظ ليسلك دروب الرذيلة، وأراد العودة إلى السلوك القويم، فلن يعترض على منحه رعايته. هو، حقاً! القادر على إفساد قديس! لم أشعر منذ سنوات بأني على هذه الدرجة من السوء، كما شعرت وأنا أتحدث إليه ذلك اليوم. كان باستطاعتي أن أبكي لأنني لم استطع إغاظته أكثر مما فعلت، لأنه لم يتوقف عن الابتسام في وجهي، وكأنه أخذ مجاملاتي له على محمل الجد، ولم يبالِ بما قلته له، في حين كنت سأجن من كلامه".

"لكنك لم تخبريه أيَّ شيء عنا، وعن فريدريك؟"

"ليس أنا من يفعل ذلك"، قالت ديكسِن. "لم يكن يتمتع بهذا القدر من التهذيب ليسألني أين أقيم، وما كنت لأخبره حتى لو سألني، كما أنني لم أسأله عن وضعه الخاص الثمين. كان واقفاً ينتظر العربة، وعندما وصل، نادى على السائق. وبدافع الرغبة لإغاظتي حتى آخر لحظة، التفت نحوي قبل أن يصعد إلى العربة، وقال لي "إن كان بمقدورك مساعدتي بالقبض على الملازم هيل،

يـا آنسـة ديكسِـن، سـنكون شركاء في المكافـأة، وأنـا أعلـم بأنـك توديـن أن تكـوني شريكتـي الآن، أليـس كذلـك؟ لا تخجـلي، قـولي نعـم فحسـب"، وقفـز إلى العربـة، وشـاهدت وجهـه القبيـح يلتفـت نحـوي بابتسـامة خبيثـة لتكـون لـه الكلمـة الأخـيرة في إغاظتـي".

شعرت مارغريت بالقلق مما أخبرتها به ديكسِن.

"هل أخبرت فريدريك بذلك؟".

"لا"، قالـت ديكسِـن. "عندمـا علمـت أن ليـنِردز سيء الذكـر هنـا في المدينـة، شـعرت بالقلـق، لكـن كانـت هنـاك أشـياء أخـرى لأفكـر بهـا ولم أسـتقر عـلى رأي محـدد بشـأنها. لكـن عندمـا رأيـت سـيدي جالسـاً بهـذه الحالـة مـن التشـنج، وعينـاه حزينتـان تائهتـان، قلـت لنفـسي إن هـذه الحادثـة سـتخرجه مـن حالتـه وتجـبره عـلى التفكـير في إخفـاء السـيد فريدريـك. يجـب عليـه أن يرحـل، الفتـى المسـكين، قبـل أن يـأتي السـيد بيـل".

"لسـت خائفـة مـن السـيد بيـل؛ بـل مـن ليـنِردز. يجـب أن أخـبر فريدريـك. كيـف يبـدو ليـنِردز؟

"قبيـح المنظـر، بـكل تأكيـد، يـا آنسـة. لديـه شـعر شـديد الاحمـرار كنـت سأشـعر بالخجـل منـه لـو كان عـلى رأسي. وكل مـا قالـه لي إنـه حصـل عـلى وضـع خـاص، وكان يرتـدي ملابـس مـن قـماش الفُسـتيان مثـل التـي يرتديهـا العـمال".

بـات واضحـاً أن عـلى فريدريـك أن يرحـل. أن يرحـل بعـد أن عـاد إلى مكانـه في العائلـة، ووعـد أن يكـون مثـل الخبـز والمـاء لوالـده وأختـه. أن يرحـل بعـد أن جعلـه قلقـه عـلى والدتـه حيـة، وحزنـه عليهـا ميتـة، واحـداً مـن أولئـك النـاس المميزيـن الذيـن يرتبطـون بنـا بحـب مشـترك أُخـذ بعيـداً. وبينـما كانـت مارغريـت جالسـة قـرب النـار في غرفـة الضيـوف تفكـر في هـذا الأمـر، يعـتري القلـق والاضطـراب والدهـا مـن هـذا الخـوف الجديـد الـذي لم يتحـدث عنـه بعـد، دخـل فريدريـك، وقـد بَهُتـت إشراقـة وجهـه، مـع تـلاشي الاضطـراب الحـاد الـذي رافـق حزنـه عـلى والدتـه. توجـه نحـو مارغريـت، وقبّـل جبينهـا.

"كـم تبديـن متعبـة، يـا مارغريـت!" قـال لهـا بصـوت منخفـض. "كنـت تفكريـن بالجميـع، ولا أحـد يفكـر بـك. اسـتلقي عـلى هـذه الكنبـة، فلـم يعـد لديـك شيء تقومـين بـه".

"وهـذا هـو الأسـوأ"، قالـت مارغريـت بهمـس حزيـن. لكنهـا ذهبـت واسـتلقت عـلى الكنبـة. أحـضر فريدريـك شـالاً وغطّـى قدميهـا، ثـم جلـس عـلى الأرض إلى جانبهـا، وراح الاثنـان يتحدثـان بصـوت منخفـض.

أخبرتـه مارغريـت بمـا جـرى مـع ديكسِـن ولقائهـا مـع الشـاب ليـنِردز. مَـطَ فريدريـك شـفتيه امتعاضاً.

"كان عـلي أن أسـوي المسـألة مـع ذلـك الشـاب. أسـوأ بحـار عـلى ظهـر سـفينة، وأسـوأ مخلـوق عـلى الأرض. هـل علمـت بظـروف وملابسـات القضيـة، يـا مارغريـت؟".

"أجل، أخبرتني والدتي".

"عندمـا كان البحـارة الذيـن لا يصلحـون لـشيء مسـتاءين مـن النقيـب، كان هـذا الشـاب ينافقـه ويتملـق لـه. أن أفكـر بوجـوده هنـا! لـو كان يعلـم أنننـي عـلى بعـد عشريـن ميـلاً منـه، لقلـب الدنيـا بحثـاً عنـي لتصفيـة أحقـاده القديمـة. كـم أتمنـى لـو أن أحـداً غـير هـذا الحثالـة ينـال المكافـأة التـي يعتقـدون أني أسـتحقها. يـا للمسـكينة ديكسِـن التـي لا يمكـن إقناعهـا بتسـليمي لتأخـذ مـا يحميهـا في شـيخوختها!".

"فريدريك! لا تقل مثل هذا الكلام".

تقـدم السـيد هيـل منهـما يرتجـف قلقـاً. سـمع مـا كانـا يقولانـه. أخـذ يـد فريدريـك بـين يديـه:

"بُنـي، يجـب أن تغـادر المـكان. أعلـم أن هـذا أمـر سيء للغايـة، ولكنـي لا أرى مفـرّاً منـه. فعلـت مـا بوسـعك، كنـت مصـدر راحـة لهـا".

"أبي، هل يجب عليه أن يرحل؟" قالت مارغريت تتوسله على عكس قناعتها.

"أقـول لكـم صراحـة، لـدي مـن الشـجاعة لمواجهـة الأمـر، والمثـول أمـام المحكمـة. لـو أسـتطيع فقـط أن أجـد الدليـل! لا أسـتطيع تحمـل فكـرة أن أبقـى تحـت رحمـة وغـدٍ مثـل ليـنِردز. كان بإمـكاني، في ظـروف أخـرى، أن أسـتمتع بهـذه الزيـارة المسروقـة التـي تتمتـع بـكل السـحر الـذي يُعـزى للملـذات المحرمـة للمـرأة الفرنسـية".

"واحدة من الأشياء القديمة التي أذكرها عنك"، قالت مارغريت، "إنك قمت يوماً بفعل مشين، يا فريدريك، عندما سرقت بضع تفاحاتٍ، في حين كانت أشجارنا وافرة الثمار، لمجرد أن أحداً ما قال لك إن الفواكه المسروقة ألذ طعماً، فأخذت القول بمعناه الحرفي، وذهبت لتسرق. يبدو أن مشاعرك لم تتغير منذ ذلك الحين".

"أجل يا بني، يجب أن ترحل"، قال السيد هيل رداً على السؤال الذي طرحته مارغريت منذ فترة من الوقت. كانت أفكاره تركز على موضوع واحد، ويصعب عليه مجاراة التلميحات الملتوية لولديه التي تتطلب منه جهداً لا يستطيع احتماله.

نظر فريدريك ومارغريت إلى بعضهما بعضاً. هذا الشعور الآني بالتعاطف المتبادل لن يدوم طويلاً إن غادر المنزل، ولذلك كان مفهوماً بلغة العيون أكثر مما كانت ستوضحه الكلمات. تشارك الاثنان هذه الفكرة حتى ضاعت في الحزن. كان فريدريك أول من أبعدها عن ذهنه:

"هل تعلمين، يا مارغريت. كنت على وشك أن أسبب لنفسي ولديكسِن الخوف والفزع عصر هذا اليوم. كنت في غرفة نومي، عندما قُرع جرس الباب الأمامي، وظننت أن الطارق لا بد وأنه أنهى مهمته، وذهب في حال سبيله منذ وقت طويل. كدت قاب قوسين أو أدنى من الخروج إلى الممر، وحالما فتحت الباب، رأيت ديكسِن تنزل الدرج عابسة الوجه، ثم دفعتني للعودة إلى مخبأي. أبقيت الباب مفتوحاً، وسمعتها تنقل رسالة إلى رجل كان في غرفة مكتب والدي، ثم رحل. من كان هذا الرجل؟ هل هو صاحب دكان؟".

"من المحتمل جداً"، قالت مارغريت بلا اكتراث. "هناك رجل صغير هادئ يأتي إلينا حوالي الساعة الثانية لتسلم طلباتنا".

"لكن من رأيته لم يكن رجلاً صغيراً، بل ضخم الجثة، كما كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة".

"إنه السيد ثورنتِن"، قال السيد هيل وسط فرحة ولديه بمشاركته في الحديث.

"السيد ثورنتِن!"، قالت مارغريت، وقد فوجئت نوعاً ما. "ظننت..."

"نعم أيتها الصغيرة، ماذا ظننت؟" سألها فريدريك لأنها لم تكمل عبارتها.

"لا شيء سوى" احمرت، ونظرت إليه مباشرة، "تخيلت أنك كنت تعني شخصاً آخرَ من طبقة مختلفة، ليس سيداً، بل مجرد أحد الأشخاص جاء في مهمة ما لا على التعيين".

"لقد بدا لي شخصاً من هذا النوع"، قال فريدريك ببرود، "حسبته صاحب دكان، وإذ به صاحب مصنع".

بقيت مارغريت صامتة، وتذكرت، قبل أن تعرف هذه الشخصية، كيف تحدثت عنه وظنته كما فعل فريدريك تماماً. لم يكن الأمر سوى انطباع عادي عن هذا الشخص، ورغم ذلك أحست بالانزعاج قليلاً منه. لم تكن راغبة في الحديث بقدر ما كانت تريد أن يدرك فريدريك أي نوع من الأشخاص يكون السيد ثورنتِن، لكن شيئاً ما ربط لسانها.

تابع السيد هيل كلامه. "أتى يعرض علينا أيَّ مساعدة يمكنه تقديمها، كما أعتقد. لكنني لم أكن قادراً على مقابلته. أخبرت ديكسِن أن تسأله إن كان يريد مقابلتك يا مارغريت، بل وطلبت منها أن تجدك، وأن تذهبي إليه. في الحقيقة لا أدري ما قلتُ لها".

"يبدو أنه صديق جيد، أليس كذلك؟" ألقى فريدريك سؤاله ككرة في الهواء ليلتقطها من يريد.

"صديق لطيف جداً"، قالت مارغريت، عندما امتنع والدها عن الجواب.

صمت فريدريك قليلاً، وقال أخيراً:

"مارغريت، كم هو مؤلم بالنسبة إليّ ألّا أستطيع أن أشكر الناس الذين كانوا لطيفين معكم. يجب أن يبقى أصدقائي وأصدقاؤكم منفصلين، إلا إن خاطرت بالمثول أمام محكمة عسكرية، أو تأتين أنت وأبي إلى أسبانيا". رمى عبارته الأخيرة بغية جس النبض، ثم أدلى بدلوه. "لا تعلمان كم أتمنى لو تأتيان معي إلى أسبانيا، فأنا أتمتع بمكانة كبيرة هناك، والقادم أفضل"، تابع حديثه محمرَّ الوجه مثل فتاة. "إنها دولوريس بربور التي كلمتك عنها يا مارغريت. كم أتوق لتتعرفي إليها. أنا واثق بأنك ستعجبين بها، بل ستحبينها. إنها فتاة

طيبـة، وسـتحبها يـا أبي إن عرفتهـا. لم تتعـد بعـد الثامنـة عـشرة، وإن لم تغـير موقفهـا العـام القـادم، سـتكون زوجتـي. لـن يسـمح لنـا السـيد بربـور بفـترة خطوبـة. لكـن إن جئتـما، سـتجدان العديـد مـن الأصدقـاء هنـاك يـا أبي، وسـتكون مارغريـت إلى جانبـي، فَكِّـر بالأمـر يـا والـدي".

"لا مزيـد مـن التنقـل والترحـال بالنسـبة إلي"، أجابـه السـيد هيـل "يكفـي أننـي خـسرت زوجتـي في انتقالنـا إلى هنـا. لـن يكـون هنـاك رحيـل آخـر في حيـاتي هـذه. أختـك سـتبقى هنـا، وأنـا أيضـاً حتـى ينتهـي أجـلي".

"فريدريـك"، قالـت مارغريـت،" أخبرنـا المزيـد عنهـا. لم أكـن أتوقـع هـذا الأمـر، لكنـي سـعيدة. سـيكون لديـك مـن يحبـك ويرعـاك هنـاك. هيـا أخبرنـا".

"أولاً، هـي مـن الـروم الكاثوليـك، وكنـت أتوقـع أن يكـون هـذا اعتراضكـم الوحيـد. لكـن وبعـد أن تغـير موقـف أبي، لا يـا مارغريـت، لا تتحـسري".

كان لـدى مارغريـت سـببٌ للحـسرة قليـلاً قبـل أن ينتهـي الحديـث. فريدريـك نفسـه كان مـن الـروم الكاثوليـك في واقـع الأمـر، وإن كان ليـس بالعقيـدة بعـد. هـذا هـو السـبب الـذي جعلـه لا يكـترث في رسـائله إليهـا بانشـقاق والـده عـن الكنيسـة. ظنـت الأمـر في البدايـة مجـرد طيـش بحّـار، لكـن وفي الحقيقـة أن فريدريـك وعـلى الرغـم مـن أنـه كان، حتـى في تلـك الأثنـاء، ميـالاً لـترك العقيـدة التـي تعمَّـد عـلى أسـاس مبادئهـا، كانـت آراؤه تسـير في الوجهـة المعاكسـة لآراء أبيـه. لكـن كـم كان كبـيراً هـذا الحـب الـذي أدى إلى هـذا التغيـير وإلى حـدٍ مـا كان لفريدريـك نفسـه أن يفصـح عنـه. تخلـت مارغريـت عـن الخـوض في الموضـوع، وعـادت للحديـث عـن الخطوبـة، وبـدأت تنظـر إليهـا بمنظـار جديـد.

"ولكـن مـن أجلهـا، يافريدريـك، يجـب عليـك بـكل تأكيـد أن تـبرئ اسـمك مـن التهـم الموجهـة إليـك، حتـى لـو كانـت تهمـة التمـرد بحـد ذاتهـا صحيحـة. إن كنـت سـتمثل أمـام محكمـة عسـكرية، واسـتطعت أن تـأتي بشـهودك، ربمـا، عـلى أقـل تقديـر، سـتثبت أن عصيانـك للسـلطة كان بسـبب سـوء اسـتخدام هـذه السـلطة".

اعتدل السيد هيل في جلسته ليسمع رد ابنه.

"أولا وقبـل أي شيء آخـر، يـا مارغريـت، مـن سـيجمع شـهودي؟ جميعهـم بحـارة

أُرسلوا إلى سفن أخرى، باستثناء أولئك الذين لن تقدم إفادتهم دليلاً مهماً لأنهم إما شاركوا أو تعاطفوا مع القضية. ثانياً، اسمحوا لي أن أخبركم بأنكم لا تعرفون ما هي المحكمة العسكرية، وتعدُّونها هيئة يتم فيها تطبيق العدالة، خلافاً لما هي عليه في الواقع. إنها محكمة تشكّل السلطة في ميزانها تسعة أعشار، والدليل العشر الباقي. وفي هذه الحالة، لا يمكن للدليل أن ينجو من تأثير نفوذ السلطة".

"لكن ألا يستحق الأمر المحاولة، كي نرى كم من الأدلة التي يمكن اكتشافها، وعرضها نيابة عنك؟ في الوقت الحاضر، كل من كان يعرفك سابقاً يعتقدون بأنك مذنب من دون أي عذر أو تسويغ. فأنت لم تحاول أن تُسوِّغ ما فعلت، ونحن لم نعرف أين يمكن لنا أن نبحث عن الأدلة لتبرئة ساحتك. أما الآن، ومن أجل الآنسة بربور، اجعل سجلك طاهراً قدر الإمكان في نظر العالم. قد لا تهتم للأمر، وأنا على يقين بأنها تثق بك كما نثق جميعنا، لكن عليك ألا تدعها ترتبط بشخص يرزح تحت تهمة خطيرة كهذه. أنت عصيت السلطة، وكان ذلك تصرفاً سيئاً، لكن الأسوأ منه بكثير أن تقف عاجزاً، قولاً وفعلاً، عندما كانت تلك السلطة تُمارس بوحشية. الناس يعلمون ما فعلت، لكن لا يعلمون الدوافع التي تُخرج هذا الفعل من خانة الجريمة إلى عمل بطولي لحماية الضعفاء. من أجل دولوريس، من الأفضل لهم أن يعرفوا".

"وكيف يجب عليَّ أن أجعلهم يعرفون؟ أنا لست واثقا بما فيه الكفاية من نزاهة وعدالة الذين سيكونون قضاة، كي أُسلّم نفسي لمحكمة عسكرية، حتى ولو أحضرت معي كتيبة من الشهود الذين سيقولون الحقيقة. لا يمكنني أن أرسل منادياً بين الناس يصرخ بأعلى صوته ليعلن في الشوارع ما تسعدين أنت بتسميته عملي البطولي. لن يقرأ أحد منشوراً عن تبرير فعل ما بعد مضي وقت طويل على وقوعه، حتى لو نشرت واحداً".

"هل يمكن لك أن تستشير محامياً بشأن فرصتك للحصول على عفو؟" سألته مارغريت، وهي تنظر إليه، وقد احمرَّ وجهها.

"عليَّ أولاً أن أجد هذا المحامي، وأقابله وأرى كيف يمكنني أن أضع ثقتي فيه.

هناك كثير من المحامين الذين ليس لديهم موكلين، قد يبيعون ضميرهم للحصول على مئة جنيه بسهولة بالقيام بعمل مشرف، تسليم مجرم إلى العدالة".

"ما هذا الكلام السخيف يا فريدريك! فأنا أعرف محامياً أستطيع الاعتماد على شرفه، ويتمتع بذكاء في مهنته يتحدث عنه الناس جميعاً، وسيكون حريصاً على ألا يزعج أحداً من أقرباء الخالة شو. السيد هنري لينوكس، يا أبي".

"إنها فكرة جيدة"، قال السيد هيل. "لكن لا تقترحي أي شيء يطيل من بقاء فريدريك في إنكلترا، لا تفعلي ذلك كُرمى لوالدتك".

"يمكنك الذهاب إلى لندن في قطار الليل"، قالت مارغريت وهي تزداد حماسةً بخطتها. "يجب أن يرحل غداً، للأسف يا أبي"، قالت برقة، "بسبب السيد بيل، وذلك الشاب سيء الذكر أحد معارف ديكسن القدماء".

"أجل يجب أن أرحل غداً"، قال فريدريك بتصميم وعزم.

تأوه السَّيد هيل. "كم يشق علي فراقك، وكم أشعر بالبؤس والقلق طالما بقيت هنا"

"حسناً"، قالت مارغريت، "ها هي خطتي. سيغادر إلى لندن صباح الجمعة، أنا سوف...أو يمكنك أنت...لا! من الأفضل أن تعطيه رسالة للسيد لينوكس. ستجده في أحد المكاتب في قصر العدل"

"سأكتب لائحة بأسماء من أتذكر أنهم كانوا على ظهر السفينة أوريون، وأتركها له كي يبحث عنهم. إنه شقيق زوج إيديث، أليس كذلك؟ أذكر أنك ذكرت اسمه في إحدى رسائلك. لدي مال في يدي السيد بربور، ويمكنني أن أسدد فاتورة كبيرة، إن كان هناك فرصة للنجاح. هذا المال، يا أبي، الذي خبأتُه لغرض مختلف، لذا سأعدُّه ديناً منك ومن مارغريت".

"لا داعي لأن نفعل ذلك"، قالت مارغريت. " لن تجازف به إن فعلت، وسيكون مجازفة من أجل شيء يستحق المحاولة. يمكنك أن تبحر من ليفربول أو من لندن؟"

"اطمئني، أيتها الإوزة الصغيرة. حيثما أشعر باهتزاز الموج تحت ألواح الخشب،

أشعر أني في بيتي. سأستقل مركباً، أو ما شابه، لا تخافا. لن أبقى في لندن أكثر من أربع وعشرين ساعة، بعيداً عنكم، وعن أي شخص آخر".

شعرت مارغريت بالراحة والطمأنينة لأن فريدريك وقف إلى جانبها وهي تكتب الرسالة إلى السيد لينوكس. لو لم تجبر على الكتابة على هذا النحو من الدقة والجدية، لربما كانت قد ترددت عند بعض الكلمات، واحتارت بين العبارات، وشعرت بالحرج من كونها البادئة في وصل ما انقطع بينهما بعد تلك الحادثة التي لم تكن سعيدة على الإطلاق بالنسبة للطرفين. على كل حال، انتزع الرسالة من يدها حتى قبل أن تراجعها، ووضعها في مفكرة جيب سقط منها ضفيرة شعر طويلة كان منظرها كفيلا في جعل عيني فريدريك تلتمعان سروراً.

"لا بد أنك تودين رؤية ذلك، أليس كذلك؟" قال لها. "لا، عليك أن تنتظري حتى ترينها، إنها أجمل بكثير من أن تتعرفي عليها جزءاً جزءاً. فقصري لن يتخيَّر إلا أفضل الحجارة".

الحظ العاثر

جلس الثلاثة معاً طوال اليوم التالي. لم يتكلم السيد هيل إلا عندما كان ولداه يسألانه ويجبرانه، إن جاز التعبير، على العودة إلى الحاضر. لم يعد حزن فريدريك مرئياً أو مسموعاً، إذ اختفت التشنجات الأولى، وبات الآن يشعر بالخجل لأنه انهار أمام مشاعره، وعلى الرغم من أن حزنه على فقد أمه كان شعوراً عميقاً، وسيرافقه طوال حياته، لم يعد يتحدث عنه ثانية. أما مارغريت التي كانت قادرة على ضبط مشاعرها في البداية، فباتت تشعر بالألم والمعاناة الآن، وراحت تبكي في بعض الأحيان. وكانت طريقتها في الكلام، حتى عندما كانت تتحدث في موضوعات شتى، تتسم برقة محزونة تزداد عمقاً كلما وقعت عيناها على فريدريك، وفكرت برحيله الوشيك. كانت سعيدة لرحيله، كما قال أبوها، أياً كان مقدار حزنها على فراقه. فالقلق المرعب الذي عاشه السيد هيل من احتمال تعقب ابنه واعتقاله فاق بكثير سعادته بوجوده بينهم. كما ازداد التوتر حدة منذ وفاة السيدة هيل، ربما بسبب استغراقه في هذا المُصاب الكبير. كان يجفل مع كل صوت غريب، ولا يشعر بالراحة حتى يغيب فريدريك عن ناظري أي شخص يدخل الغرفة. ومع اقتراب المساء قال:

"ستذهبين مع فريدريك إلى المحطة، يا مارغريت؟ أريد أن أعرف أنه غادر بأمان. وأياً كانت الظروف، ستخبريني بأنه خرج من ميلتِن؟".

"بالتأكيد، يا أبي"، قالت مارغريت. "أود مرافقته إلى المحطة، لكن لا أريد أن أتركك لوحدك، يا أبي".

"لا، لا! سأبقى أشعر بالقلق عليه، وأتخيل أن أحداً ما تعرف عليه واعتقلوه

حتى تأتيني وتخبريني بأنه أصبح في أمان. اذهبا إلى محطة آوتوود. إنها قريبة، ولا يرتادها عدد كبير من الناس. خذا عربة أجرة، للتقليل من احتمال أن يراه أحد. متى ينطلق القطار، يا فريدريك؟".

"السادسة وعشر دقائق، مع حلول الظلام تقريباً. ماذا ستفعلين، يا مارغريت؟".

"سأتدبر أمري. أصبحت أكثر شجاعة وصلابة. كما أن الشارع من المحطة إلى البيت مضاء بشكل جيد، إن كنت سأعود بعد حلول الظلام، مع أني خرجت الأسبوع الماضي في وقت متأخر أكثر من هذا".

حمدت مارغريت الله على انتهاء مراسم الوداع، مع الأم الميتة، والأب الحي. استعجلت فريدريك في الصعود إلى عربة الأجرة، لتختصر مشهداً رأته مؤلماً بمرارة بالنسبة لأبيها الذي رافق ابنه ليلقي نظرة الوداع الأخيرة على والدته. وبسبب مراسم الوداع هذه من ناحية، وواحدة من الأخطاء المعتادة في دليل مواعيد وصول القطارات إلى المحطات الصغيرة، اكتشف الاثنان، لدى وصولهما إلى محطة آوتوود، أنه لا يزال أمامهما عشرون دقيقة تقريباً من الانتظار. كما كان مكتب قطع التذاكر مغلقاً، فلم يستطيعا الحصول على تذكرة. هبطا مجموعة من الدرجات نزولاً إلى مستوى الأرض أسفل السكة الحديد. كان هناك درب من الفحم المستخدم يقطع بشكل بيضوي حقلاً يمتد على طول طريق العربات، فذهبا إلى هناك، وراحا يتمشيان جيئة وذهاباً لتمضية الوقت بانتظار القطار.

وضعت مارغريت يدها في ذراع فريدريك الذي قبض عليها بيده بكل حب وحنان.

"مارغريت! أنوي استشارة السيد لينوكس حول إمكانية الحصول على عفو يمكنني من العودة إلى إنكلترا متى شئت، من أجلك أنت، أكثر من أي شخص آخر. لا أستطيع احتمال التفكير بكونك وحيدة إن حدث أي مكروه لوالدي. لقد تغير بشكل حزين، وبات مهزوزاً. أتمنى لو تستطيعين إقناعه بالتفكير في مجيئكما إلى كادِز، لعدة أسباب. ماذا ستفعلين إن توفي والدي؟ لا أصدقاء لكم هنا، وليس لدينا أقارب".

لم تستطع مارغريت أن تمنع نفسها من البكاء بسبب القلق الرقيق الذي أبداه فريدريك أمامها على أمر شعرت هي نفسها أنه ليس بعيد الاحتمال، نظراً إلى الهموم التي أصابت السيد هيل في الشهور القليلة الماضية. لكنها استطاعت أن تتماسك وتقول له:

"كانت هناك العديد من التغييرات المفاجئة في حياتي على مدى السنتين الماضيتين، حتى بت أشعر، أكثر من أي وقت مضى، بأنه لا جدوى من التفكير بما يتوجب علي أن أفعله إن حدث أمر ما في المستقبل، كل ما يهمني هو الحاضر". توقفت عن الحديث. كان لا يزالان واقفين من دون حراك لدقيقة بالقرب من الحقل بجانب مرتفع صغير يؤدي إلى طريق العربات، وأشعة الشمس الغاربة تنعكس على وجهيهما. كان فريدريك يمسك بيدها، ويتملى وجهها بقلق كبير يقرأ فيه من الهم والاضطراب أكثر ما تستطيع كلماتها التعبير عنه. تابعت حديثها:

"سنبقى على تواصل عبر الرسائل، وأعدك ـ لأني أرى أن هذا سيجعلك مرتاح البال ـ بأن أطلعك على كل ما يقلقني، والدي..." ارتجفت قليلاً من دون أن يظهر عليها، لكن فريدريك أحس بحركة يدها المفاجئة بين يديه، وأدار وجهه نحو الطريق حيث كان رجلٌ يمتطي حصاناً يسير على مهل بالقرب من المرتفع حيث كانا يقفان. أحنت مارغريت رأسها، ورد عليها بانحناءة باردة، متكلفة.

"من هو ذلك الرجل؟" سألها فريدريك، قبل أن يبتعد الرجل تقريباً عن مجال السمع.

احمر وجه مارغريت قليلاً، وبدت خائرة القوى، وهي تجيب: "السيد ثورنتِن، رأيتَه من قبل".

"رأيت ظهره فقط. إنه شخص غير مريح، يا له من وجه عبوس كالح!".

"لا بد أن شيئاً ما أزعجه"، قالت مارغريت وكأنها تبرر لأخيها ما شاهد. "لو شاهدته كيف كان يتعامل مع والدتي، لما حسبته شخصاً غير مريح".

"أظن أن الوقت حان لأشتري التذكرة. لو كنت أعلم أن الظلام سيكون حالكاً، لأبقينا عربة الأجرة هنا، يا مارغريت".

"لا تقلق، سأستقل عربة من هنا، إن أردت، أو أعود من الطريق بجانب السكة الحديد حيث توجد المحلات، والناس يمشون، كما أن الشارع من محطة ميلتِن مضاء بالمصابيح على طول طريق العودة إلى المنزل. لاتقلق بشأني؛ انتبه إلى نفسك. كم أنا قلقة من احتمال أن يكون ليـنِردز معك في القطار نفسه. تفحص العربة جيداً قبل الصعود إليها".

عادا إلى المحطة. أصرت مارغريت على الذهاب إلى البقعة المُضاءة بالمصباح في الداخل لشراء التذكرة. كان هناك مجموعة من الشبان بوجوههم المسترخية يتحلقون حول مدير المحطة. ظنت مارغريت أنها رأت أحدهم من قبل، ونظرت إليه بشزر رداً على تحديقه فيها بإعجاب واضح. أسرعت نحو أخيها الذي كان يقف في الخارج، وأمسكت بذراعه. "هل أحضرت حقيبتك، دعنا نتمشى على الرصيف"، قالت له، وقد سكنها هاجس القلق من أنها ستبقى لوحدها عاجلاً، وشجاعتها تتسرب منها بسرعة أكبر مما كانت تود الاعتراف به حتى لنفسها. سمعت وقع خطوات تتبعهما على الرصيف ثم توقفت تلك الخطوات حالما توقفا وهما ينظران إلى السكة الحديد ويسمعان صوت القطار القادم. لم ينطقا بكلمة واحدة؛ فقلباهما كانا مُتْخَمين بالحزن. دقيقة أخرى سيصل القطار، وبعدها بدقيقة سيكون قد غادر. أحست مارغريت بالندم على استعجالها رحيل أخيها إلى لندن لما في ذلك من احتمال اكتشاف أمره. لو أبحر إلى إسبانيا من ليفربول، لكان قد غادر خلال ساعتين أو ثلاثة.

استدار فريدريك بوجهه قبالة الضوء مباشرة الذي كان يتأرجح مع اقتراب القطار. تقدم رجل يرتدي زي الحمالين في المحطة. كان قبيح المنظر، وبدا مخموراً رغم أن حواسه كانت في حالة جيدة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

"لو سمحت يا آنسة!" ودفع بمارغريت جانباً بكل وقاحة، وأمسك بياقة فريدريك.

"اسمك هيل، كما أعتقد".

وفي لحظة، لم تر مارغريت شيئاً، فقد بدا كل شيء يتراقص أمام عينيها، لكن

وبحركـة مصارعـة خفيفـة، دفـع فريدريـك الرجـل الـذي سـقط مـن عـلى الرصيـف الـذي كان يرتفـع عـن الأرض ثلاثـة أو أربعـة أقـدام، بجانـب سـكة القطـار دون حـراك.

"اركـض، اركـض!". "وصـل القطـار. هـذا كان ليـنِردز، أليـس كذلـك؟ اركـض! أنـا سـأحمل الحقيبـة. وأخذتـه مـن ذراعـه ودفعتـه بـكل قوتهـا الواهنـة. فُتـح بـاب إحـدى العربـات، فقفـز إلى داخلهـا، وعندمـا مـد رأسـه مـن النافـذة ليقـول لهـا" بـاركك اللـه يـا مارغريـت!" انطلـق القطـار بسرعـة مـن أمامهـا، وبقيـت لوحدهـا عـلى الرصيـف. كانـت منهكـة القـوى إلى حـد حمـدت اللـه أنهـا لا تـزال قـادرة عـلى العـودة إلى غرفـة انتظـار السـيدات، والجلـوس فيهـا ولـو للحظـة واحـدة. للوهلـة الأولى، لم يكـن بمقدورهـا أن تفعـل شـيئاً أكـثر مـن أن تلتقـط أنفاسـها. جـرى كل شيء بسرعـة، إنـذار خاطـف، نجـا بأعجوبـة. لـو لم يصـل القطـار إلى المحطـة في تلـك اللحظـة، لـكان الرجـل قـد نهـض مـرة ثانيـة، وطلـب المسـاعدة للقبـض عـلى أخيهـا. تسـاءلت إن كان الرجـل قـد نهـض مـن سـقطته عـلى الأرض. حاولـت أن تتذكـر إن كانـت رأتـه يتحـرك مـن مكانـه. غامـرت بالخـروج؛ كان الرصيـف مُضـاءً، لكـن لا يـزال خاليـاً مـن النـاس. مشـت إلى نهايـة الرصيـف، ونظـرت خائفـة. لم تجـد أحـداً هنـاك عـلى الأرض. شـعرت بالسـعادة، وتابعـت تفحـص المـكان، وإلا لكانـت الأفـكار المرعبـة لاحقتهـا في أحلامهـا. ورغـم شـعورها بالارتيـاح، كانـت ترتجـف خوفـاً وشـعرت أنهـا غـير قـادرة عـلى العـودة مشـياً إلى البيـت في الطريـق الـذي بـدا بالفعـل موحشـاً معتـماً، حالمـا ألقـت نظـرة عليـه مسـتعينة بوهـج مصابيـح المحطـة. لم يكـن أمامهـا سـوى الانتظـار حتـى وصـول القطـار القـادم لتسـتقله وتعـود إلى البيـت. لكـن مـاذا لـو أن ليـنِردز تعـرف عليهـا بأنهـا كانـت مـع فريدريـك! تلفتـت حولهـا قبـل أن تدخـل إلى مكتـب التذاكـر لـشراء تذكرتهـا. كان في الداخـل بعـض موظفـي المحطـة يتحدثـون بصـوت مرتفـع.

"إذاً عـاد ليـنِردز إلى الـشرب مجـدداً!"، قـال أحدهـم يبـدو أنـه يشـغل منصبـاً هامـاً في المحطـة. "هـذه المـرة سـيكون بحاجـة إلى نفـوذه الـذي يتبجـح بـه كي يحتفـظ بعملـه هنـا".

"أيـن هـو؟"، سـأل الآخـر، بينـما كانـت مارغريـت تديـر ظهرهـا لهـما، وتعـد النقـود بيـد مرتجفـة، ولا تجـرؤ عـلى الالتفـات حتـى سـمعت الإجابـة عـن السـؤال.

"لا أدري، جـاء قبـل خمـس دقائـق ومعـه قصـة طويلـة عـن سـقوطه، ويكيـل الشـتائم، وأراد أن يقـترض مـالاً منـي للذهـاب إلى لنـدن في القطـار القـادم. قـدم لي وعـوداً معسـولة، لكـن كان لـدي أشـياء أخـرى لأقـوم بهـا غـير الاسـتماع إليـه. طلبـت منـه أن يهتـم بعملـه، فغـادر مـن البـاب الأمامـي".

"لا بـد أنـه قـرب إحـدى الحانـات، أنـا واثـق مـن ذلـك"، قـال المتحـدث الأول. "كانـت نقـودك سـتطير إلى هنـاك، لـو كنـت مغفـلا وأعطيتـه".

"أنـا أعلـم تمامـاً مـاذا كان يقصـده بلنـدن. حتـى أنـه لم يُعِـدْ لي خمسـة شـلنات كنـت قـد أعطيتـه إياهـا مـن قبـل، وبالتأكيـد طـارت في الهـواء".

لم تعـد مارغريـت قلقـة مـن أي شيء آخـر سـوى انتظـار وصـول القطـار. عـادت إلى غرفـة انتظـار السـيدات، وهـي تتخيـل أن كل خطـوة، وكل صـوت قـوي صاخـب لا بـد أن يكـون لليـنِردز، لكـن أحـداً لم يقـترب منهـا حتـى جـاء القطـار، وسـاعدها أحـد الحمالـين بـكل تهذيـب بالصعـود إليـه، لكنهـا لم تتجـرأ عـلى النظـر في وجهـه حتـى تحـرك القطـار، وعندهـا اطمأنـت أنـه لم يكـن ليـنِردز.

السلام

مكتبة
t.me/soramnqraa

بـدا المنـزل هادئـاً عـلى نحـو غـير طبيعـي بعـد كل هـذا الرعـب والضجيـج. كان والدهـا قـد أعـد كل مـا يسـاعد عـلى إنعاشـها وراحتهـا لـدى عودتهـا، ثم عـاد ليجلس في كرسـيه المعتـاد، ويغـرق في واحـد مـن أحـلام اليقظـة الحزينـة. ديكسِـن راحـت توبـخ مـاري هيغينـز، وتلقـي عليهـا التعليـمات في المطبـخ، ولم يكـن توبيخهـا للفتـاة الصغـيرة عـلى الأقـل صاخبـاً لأنهـا تحدثـت إليهـا بهمـس غاضـب، لأنهـا اعتقـدت أن التحـدث بصـوت عـالٍ كان بمثابـة قلـة احـترام لحرمـة الميـت الراقـد في المنـزل. قـررت مارغريـت ألا تذكـر شـيئاً لأبيهـا عـما جـرى في المحطـة والرعـب الـذي عاشـته هـي وشـقيقها هنـاك. إذ لا جـدوى مـن التحـدث بالأمـر بعـد أن انقـضى بخـير وسـلام، وإن كانـت لا تـزال تخـشى مـن احتـمال أن ينجـح ليـنِردز في اسـتدانة مـا يكفـي مـن المـال للحـاق بفريدريـك إلى لنـدن، ومحاولـة اصطيـاده هنـاك. لكـن كانـت هنـاك عقبـات كثـيرة تحـول دون نجـاح هـذه الخطـة، فضـلاً عـن أن مارغريـت قـررت ألا تعـذب نفسـها في التفكـير بمـا لا يمكـن لهـا أن تفعـل شـيئاً لمنـع وقوعـه. كـما أن فريدريـك سـيكون حـذراً ومسـتعداً لأي طـارئ، كـما تريـده أن يكـون، وفي غضـون يـوم أو يومـين عـلى الأغلـب، سـيكون بأمـان خـارج إنكلـترا.

"من المفترض أن نسمع شيئاً من السيد بيل غداً"، قالت مارغريت.

"أجل"، قال والدها. "أتوقع ذلك".

"إن كان قادراً على المجيء، فسيكون هنا مساء الغد، حسب ما أظن".

"وإن لم يكـن قـادراً، سـأطلب مـن السـيد ثورنـتِن أن يرافقنـي في الجنـازة. لا أسـتطيع أن أذهـب بمفـردي، سـأنهار حتـماً".

"لا تطلب ذلك من السيد ثورنتِن، يا أبي. دعني أذهب معك"، قالت مارغريت باندفاع.

"أنت يا عزيزتي! لكن النساء عادة لا يذهبن إلى الجنازات".

"كلا، لأنهن لا يستطعن السيطرة على أنفسهن. النساء من طبقتنا لا يذهبن إلى الجنازات لأنهن يفتقدن القوة للتحكم بمشاعرهن، ويخجلن من إظهارها للعلن. لكن النساء الفقيرات يذهبن ولا يكترثن إن شوهدن مقهوراتٍ وقد تملكهن الحزن والأسى. لكني أعدك يا أبي، إن تركتني أذهب معك، لن أسبب لك أي إحراج. لا تدع غريباً يرافقك، وتتركني. أبي العزيز! إن كان السيد بيل لا يستطيع المجيء، أنا من سيرافقك في الجنازة. أما إن كان سيأتي، فلن أضع رغبتي ضد إرادتك".

لم يتمكن السيد بيل من الحضور، بسبب نوبة من التهاب المفاصل. وجه رسالة مؤثرة عبر فيها عن صادق أسفه الشديد لعدم قدرته عل المجيء. وأمل أن يأتي لزيارتهم في القريب العاجل، إن كانوا يرغبون في استقباله، لأن عقاراته في ميلتِن كانت تحتاج لبعض الرعاية كما أخبره وكيله الذي أبلغه أن حضوره بات ضرورياً، لكنه تجنب القدوم إلى ميلتِن قدر المستطاع. أما الآن، فإن السبب الوحيد الذي يجعله يتقبل فكرة هذه الزيارة الضرورية هو واجب زيارة صديقه القديم و ومواساته.

واجهت مارغريت كل مصاعب الدنيا لتقنع والدها بعدم دعوة السيد ثورنتِن. راودها نفور لا يوصف من هذه الخطوة. وفي الليلة السابقة للجنازة، تسلمت مارغريت رسالة مهيبة من السيدة ثورنتِن تقول فيها إن عربتهم، بناء على رغبة ابنها، ستشارك في مراسم التشييع، إن لم يكن هناك أي مانع لدى العائلة. رمت مارغريت بالرسالة إلى أبيها.

"لا داعي لكل هذه الشكليات، يا أبي"، قالت له. "دعنا نذهب لوحدنا، أنا وأنت، يا أبي. إنهم لا يهتمون بنا، وإلا لكان عرض الذهاب بنفسه، بدلاً من إرسال عربة فارغة".

"حسبتك تعارضين حضوره بشدة، يا مارغريت"، قال السيد هيل بنبرة لا تخلو من الدهشة.

"وأنا كذلك فعلاً. لا أريده أن يأتي على الإطلاق، ولا أحبذ على وجه الخصوص فكرة دعوته. لكن هذا يبدو حزناً مزيفاً لم أكن أتوقعه منه". وانفجرت بالبكاء مما أثار فزع أبيها. إذ كانت مارغريت متحكمة في حزنها، وحريصة على الآخرين، ولطيفة وصبورة في جميع الأمور، حتى أنه لم يفهم تصرفاتها المنفعلة هذه الليلة، إذ بدت قلقة، متضايقة. ورغم كل تلك الرقة والحنان التي أفرط والدها في محاولته تهدئتها، راحت مارغريت تبكي أكثر وأكثر.

أمضت مارغريت ليلة سيئة للغاية إلى درجة لم تكن مستعدة لتحمل قلق إضافي حملته رسالة من فريدريك يقول فيها إن السيد لينوكس خارج لندن حالياً. وأبلغه أحد الموظفين أن السيد لينوكس لن يعود إلى المكتب حتى يوم الثلاثاء القادم على أقل تقدير، حيث من المحتمل أن يرجع إلى لندن يوم الاثنين. لذلك ارتأى فريدريك، بعد التفكير بالأمر، البقاء في لندن يوماً أو يومين أكثر مما كان مقرراً. خطرت على باله فكرة العودة إلى ميلتِن. كانت الفكرة مغرية جداً، إلا أن وجود السيد بيل في المنزل، وما جرى معه في محطة القطار، دفعا فريدريك إلى البقاء في لندن. ربما كانت مارغريت مطمئنة إلى أن فريدريك سيتخذ كل احتياطاته كيلا يتعقبه ليِنردز. كذلك حمدت الله أن أباها كان في غرفة والدتها عندما تسلمت رسالة فريدريك. لو كان حاضراً، لانتظر منها أن تقرأ الرسالة بصوت عال، الأمر الذي كان سيسبب له حالة من القلق والخوف لم تكن مارغريت قادرة على تبديدها. ولم يكن هذا السبب الوحيد الذي أزعجها إلى حد كبير بشأن بقاء فريدريك في لندن فحسب، بل تلميحاته إلى التعرف عليه في ميلتِن، واحتمال مطاردته، وهو ما جعل الدماء تتجمد في عروقها، وكيف كان ذلك سيؤثر على والدها. كم من مرة ندمت مارغريت على اقتراح واستعجال خطتها لاستشارة السيد لينوكس. وبات واضحاً الآن أن هذه الخطة تواجه تأخيراً طفيفاً من شأنه أن يزيد، ولو بشكل محدود، الاحتمالات الضعيفة لتعقب فريدريك، ومع ذلك كل ما جرى حتى الآن يميل لجعل هذه الخطة غير مرغوب بها كثيراً. حاولت مارغريت ما بوسعها مقاومة شعورها بالندم الذي لا يمكنها منعه الآن؛ لأن تلوم نفسها على قول شيء بدا في حينه حكيماً، لكن

ما جرى من أحداث لاحقاً أثبت أنه كان تصرفاً أحمقَ إلى حد كبير. غير أن والدها كان في حالة جسدية وذهنية مكتئبة لا تسمح له بأن يبقى متماسكاً. كان سيستسلم لندم شديد على شيء لا يمكن معه إعادة عقارب الساعة إلى الوراء. استدعت مارغريت كل قواها كي تكون خير مُعين لها.إلا أن والدها، كما يبدو، نسي تماماً وجود ما يستدعي توقع رسالة من ابنه ذلك الصباح. كان غارقاً في فكرة واحدة؛ ألا وهي أن آخر دليل على وجود زوجته في حياته كان سيُحمل بعيداً عنه، ويُخفى عن ناظريه. ارتعش على نحو يثير الشفقة بينما كان الحنّاز يرتب الأقمشة. نظر إلى مارغريت بأسى شديد، ثم مشى نحوها مترنحاً وهو يدمدم، "صل من أجلي، يا مارغريت، لم يعد لي قوة على الاحتمال. لا أستطيع أن أصلي. تخليت عنها، لأنه لا خيار لي. سأحاول احتمال هذا الأمر، وأعلم أنها إرادة الله. لكنني لا أفهم لماذا ماتت. صلِّ لأجلي، يا مارغريت، فربما يعود الإيمان لي كي أصلي. إنها محنة كبرى، يا طفلتي".

جلست مارغريت إلى جانب أبيها في العربة وهي تسنده بذراعيها، وتردد ما تذكرته من الآيات عن الراحة المقدسة، أو النصوص التي تعبر عن الخضوع والاستسلام لمشيئة الله. كان صوتها ثابتاً، واكتسبت هي نفسها قوة بما كانت تردده. تحركت شفتا أبيها تردد وراءها النصوص المعروفة كما كانت تقرأها. كان منظره مريعاً وهو يحاول، بما أوتي من صبر، أن ينال القدرة على الاحتمال التي كان يفتقد القوة لاستدراجها إلى داخل قلبه كجزء لا يتجزأ منه.

تراخت صلابة مارغريت إلى حد ما عندما لفتت ديكسِن انتباهها بإشارة من يدها نحو نيكولاس هيغينز وابنته ماري اللذين وقفا في مكان منعزل قليلاً عن الآخرين، يتابعان بانتباه مراسم القداس. كان نيكولاس يرتدي ملابسه الاعتيادية المصنوعة من قماش الفُستيان، لكنه وضع إشارة سوداء على قبعته تعبيراً عن حزنه وهو ما لم يفعله في جنازة ابنته بيسي. لكن السيد هيل لم يلحظ شيئاً. واصل بينه وبين نفسه ترديد قداس الجنازة بشكل آلي وراء القس، ثم تنهد مرتين أو ثلاثاً عند انتهاء المراسم، ثم وضع يده فوق ذراع مارغريت، وتوسلها بصمت أن تأخذه بعيداً كما لو كان رجلاً ضريراً، وهي دليله المخلص الوفي.

انتحبت ديكسِن بصوت عالٍ، وغطت وجهها بمنديلها، وغرقت في حزنها إلى درجة لم تنتبه إلى أن جموع الناس الذين تجتذبهم مثل هذه المناسبات بدأوا يتفرقون، حتى سمعت أحداً على مقربة منها يكلمها.

لم يكن هذا الشخص سوى السيد ثورنتِن. كان حاضراً خلف مجموعة من الناس مُحنياً رأسه، ولذلك لم يتعرف عليه أحد.

"عفواً، هل لك أن تخبريني كيف حال السيد هيل؟ والآنسة هيل أيضاً؟ أود الاطمئنان عليهما".

"بالطبع، يا سيدي. إنهما، كما هو متوقع، في حزن شديد. السيد هيل منهارٌ تماماً، أما الآنسة هيل فهي تواجه هذه المحنة على نحو أفضل مما كان متوقعاً".

كان يفضل السيد ثورنتِن لو سمع أنها كانت تعاني حزناً طبيعياً. أولاً، كان في داخله ما يكفي من الأنانية للشعور باللذة من مجرد التفكير بأنه يمكن له أن يهرع لمواساة حبه الكبير والتخفيف عنه، وعلى نحو لا يختلف عن ذلك النوع من الفرح العاطفي الذي يخالج قلب الأم وهي ترى رضيعها الصغير واهن القوى يرقد إلى جانبها، ويتكل عليها في كل شيء.

غير أن هذا التصور الرائع لما يمكن أن يكون عليه الحال الذي - على الرغم من نفور مارغريت - كان سيستمتع به قبل بضعة أيام، سرعان ما انقلب ضيقاً على نحو كريه عندما تذكر ما رآه بالقرب من محطة آوتوود. "على نحو كريه!" لا ليست عبارة قوية بما يكفي. كان مسكوناً بهاجس تذكر ذلك الشاب الوسيم الذي كانت تقف إلى جانبه في موقف من الطمأنينة المعتادة، وكيف اخترقته تلك الذكرى بعذابٍ مبرح جعله يعصر كلتا يديه عصراً ليكبح ذلك الألم. في تلك الساعة المتأخرة، وبعيداً عن منزلها! استحق المشهد جهداً أخلاقياً كبيراً ليعيد ثقته - التي كانت لا تشوبها شائبة قبل فترة وجيزة - بعفة وطهارة مارغريت إلى الحياة مجدداً. لكن وما أن توقف هذا الجهد حتى سقطت تلك الثقة جثة هامدة. وهنا تحديداً كان بيديه دليل مؤلم مُذِل. "تواجه محنتها على نحوٍ أفضل مما كان متوقعاً". إذاً كان لديها أملٌ تتطلع إليه، أملٌ مشرق إلى

حدٍ قادر على إضاءة الساعات المعتمة، حتى في قلب طبيعتها الحساسة، لابنة فقدت والدتها مؤخراً. أجل كان يدري كيف تحب. فهو لم يكن ليحبها لو لم يكتسب تلك المعرفة الغريزية بالقدرات الكامنة في أعماقها. كانت لتمشي تحت أشعة الشمس المهيبة، إن كان هناك رجل يستحق، بما امتلك من قوة الحب، أن يفوز بحبها. وحتى في مصابها وحزنها، كانت ستجد الراحة، بقناعة مطمئنة، على يدي تعاطفه معها. تعاطفه! من؟ ذلك الرجل الآخر. وكان هذا الآخر كفيلاً بأن يجعل وجه السيد ثورنتِن الشاحب المتجهم يزداد عبوساً وصرامةً لدى سماعه جواب ديكسِن عن سؤاله.

" ربما أقوم بزيارتهم، أقصد السيد هيل، عله يستقبلني بعد غد أو بعده".

تكلم وكأن الجواب لا يعنيه، رغم أنه كان عكس ذلك تماماً. فرغم ألمه، كان تواقاً لرؤية من تسبب له بهذا الألم. وعلى الرغم من كرهه لمارغريت، في بعض الأحيان وهو يتذكر ذلك الموقف اللطيف المألوف وما تبعه من ظروف وأحداث، إلا أن رغبة محمومة كانت تختلج في داخله لتجديد صورتها في خياله، بل كانت تعتريه لهفة حتى للهواء الذي تتنفسه. كان يتخبط في دوامة مشاعره ويتوجب عليه، بحكم الضرورة والظروف القاهرة، أن يدور ويدور مقترباً أكثر من مركزها الفتاك.

"أنا واثقة من أن السيد سيراك. كان في غاية الأسف لعدم قدرته على مقابلتك ذلك اليوم، لكن الظروف لم تكن مناسبة حينذاك".

لسبب ما، لم تذكر ديكسِن هذه المقابلة مع السيد ثورنتِن لمارغريت. ربما كان الأمر مجرد مصادفة، لكن مارغريت، أيا كان السبب، لم تعلم بأنه حضر وشارك في تشييع والدتها.

المزيف والحقيقي

باتـت قدرتهـا عـلى "مواجهـة المحنـة عـلى نحـوٍ أفضـل مـما كان متوقعـاً" قيـداً ثقيـلاً عـلى مارغريـت. خطـر لهـا في بعـض الأحيـان أن تستسـلم للحـزن، وتطلـق السـراح لنفسـها كي تبـكي بحرقـة وألم، حالمـا راودتهـا تلـك الصـورة المفاجئـة المؤلمـة، حتـى وهـي تتحـدث إلى أبيهـا بفـرح ظاهـر، بأنهـا أصبحـت يتيمـة الأم. كذلـك لم يكـن قلقهـا عـلى فريدريـك أقـل شـأناً. فهـا قـد جـاء بريـد الأحـد وتأخـر بريـد لنـدن، وفوجئـت مارغريـت، وشـعرت بالضيـق، مـن أنـه وحتـى حلـول الثلاثـاء، لم تصلهـا أي رسـالة مـن أخيهـا. كانـت لا تعلـم مـا هـي مخططاتـه، ووالدهـا كان في حالـة تعيسـة مـن القلـق والتخبـط تحولـت إلى مـا يشـبه العـادة بجلوسـه شـارداً في كرسـيه المريـح لمـا يقـارب نصـف النهـار. مـا انفـك يـزرع الغرفـة جيئـة وذهابـاً، ومـن ثـم يخـرج منهـا فجـأة. سـمعت خطواتـه عنـد فسـحة الـدرج، وهـو يغلـق أبـواب غـرف النـوم، مـن دون سـبب واضـح. حاولـت تهدئتـه بـأن تقـرأ بصـوت عـال، لكـن كان واضحـاً أنـه لم يكـن قـادراً عـلى الإنصـات لفـترة طويلـة مـن الزمـن. حمـدت اللـه كثـيراً بأنهـا احتفظـت لنفسـها بقلـق إضـافي مـن المواجهـة التـي جـرت مـع ليـنِردز. كـما شـكرت اللـه عـلى وصـول السـيد ثورنـتِن الـذي يمكـن لزيارتـه أن تجـبر والدهـا عـلى توجيـه أفـكاره في مسـار مختلـف.

توجـه إلى والدهـا مبـاشرة وشـد عـلى يديـه ممسـكاً بهـما لدقيقـة أو دقيقتـين كان خلالهـا وجهـه وعينـاه وملامحـه تعـبر عـن تعاطـف أكـبر مـن أن يُوصـف في كلـمات. ثـم التفـت إلى مارغريـت التـي بـدت في حالـة ليسـت "أفضـل مـما كان متوقعـاً". جمالهـا الفاتـن كان منطفئـاً بسـبب السـهر، والدمـوع. طغـى عـلى ملامـح وجههـا

تعبير من الحزن الرقيق الصبور، وليس عن معاناة في الوقت الراهن. لم يكن يقصد تحيتها بأكثر من برودته التي بات يتقصدها في الآونة الأخيرة، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التوجه إليها بينما كانت تقف جانباً وقد بدت قلقة من تقلبات تصرفاته الأخيرة، وقوله بضع كلمات شائعة في مثل هذا الموقف بصوت رقيق جعل الدموع تفيض في عينيها، قبل أن تشيح بوجهها عنه لتخفي مشاعرها. أخذت قماش الكنفا بين يديها، وجلست بهدوء وصمت. راح قلب السيد ثورنتِن يخفق بسرعة وقوة، ونسي تماماً ما جرى في محطة آوتوود. حاول أن يتكلم مع السيد هيل، وكان حضوره ـ الذي عادة ما يكون مصدر سعادة للسيد هيل، بالطريقة نفسها التي جعلت آراءه ملاذا آمناً ـ موضع ترحيب على نحو استثنائي لدى والدها، كما لاحظت مارغريت.

وفي الحال، جاءت ديكسِن عند الباب وقالت، "آنسة هيل، أنت مطلوبة".

كانت طريقتها تتسم بالعصبية على نحو أثارت قلق مارغريت. شيء ما حدث لفريدريك. كانت واثقة من ذلك. لحسن الحظ، كان والدها والسيد ثورنتِن منشغلين بالحديث.

"ما الأمر يا ديكسِن؟"سألت مارغريت حالما أغلقت باب غرفة الضيوف.

"تعالي إلى هنا، يا آنسة"، أجابتها ديكسِن وهي تفتح ما كانت في السابق غرفة نوم السيدة هيل، وأصبحت الآن لمارغريت بعد أن رفض السيد هيل النوم فيها بعد وفاة زوجته. "لا شيء، يا آنسة"، قالت ديكسِن بصوت يتهدج قليلاً. "إنه مفتش الشرطة، يريد مقابلتك، يا آنسة. لكني واثقة من أنه لا يوجد أي شيء على الإطلاق".

"هل ذكر اسماً..." سألتها مارغريت بصوت غير واضح.

"كلا يا آنسة، لم يقل شيئاً. سألني إن كنت تسكنين هنا فحسب، وإن كان بإمكانه أن يتحدث إليك. فتحت مارثا له الباب، وأدخلته إلى غرفة مكتب السيد هيل. ذهبت إليه بنفسي لأتكلم معه وينتهي الأمر، لكنه يريدك أنت تحديداً".

لم تقل مارغريت شيئاً حتى وضعت يدها على قفل باب غرفة المكتب. استدارت وقالت: "احرصي على ألا ينزل أبي إلى هنا، إنه مع السيد ثورنتِن الآن".

شعر المفتش بفتور همته بسبب تصرفها المتعجرف عندما دخلت. كان هناك شيء من الغضب، وإن كان منضبطاً وتحت السيطرة، عبرت عنه ملامح وجهها، مما أكسب استياءها مظهراً متميزاً. لم يبدُ عليها أي شيء من الفضول أو المفاجأة، بل اكتفت بالوقوف تنتظر منه أن يبدأ مهمته، من دون أن تسأله سؤالاً واحداً.

"أرجو المعذرة، يا سيدتي، لكن واجبي يلزمني بأن أطرح عليك بضعة أسئلة واضحة. توفي رجل في المستشفى نتيجة تعرضه لدفع أدى إلى سقوطه في محطة آوتوود بين الساعة الخامسة والسادسة من مساء الخميس السادس والعشرين من الشهر الحالي. لم يكن هناك، على ما يبدو، أيُّ مضاعفات لتلك السقطة، لكن الأطباء أكدوا لاحقا أنها كانت قاتلة بسبب علة داخلية لديه، وإدمانه على الكحول".

توسعت عيناها السوداوان الكبيرتان قليلاً وهي تحدق مباشرة في وجه المفتش. عدا ذلك، لم يكن هناك أي حركة يمكن لعينيه المتمرستين بالتعقب والملاحظة أن ترصدها. انتفخت شفتاها قليلاً في ثنيةٍ أكثر اكتنازا من المعتاد، بسبب تقلص العضلة، لكنه لم يكن يعلم ما هو شكل شفتيها المعتاد كي يستطيع تمييز هذا الانتفاخ المفاجئ من التحدي في تلك الخطوط الثابتة. لم يتغير لون وجهها، ولم ترتجف، بل حدجته بنظرة ثاقبة. وعندما توقف عن الكلام، قالت له لتشجيعه على إكمال قصته:

"حسناً، وماذا بعد!"

"لا بد من إجراء تحقيق بسبب وجود دليل ضئيل على أن الضربة، أو الدفع، أو العراك الذي تسبب بسقوطه، كان نتيجة وقاحة هذا الرجل نصف المخمور مع سيدة شابة كانت برفقة الشخص الذي دفع المتوفى من على رصيف المحطة. تابع أحد الحاضرين ما جرى على الرصيف، لكنه لم يكترث للموضوع لأن الضربة لم تكن لها ذلك التأثير الكبير. وهناك سبب ما للاعتقاد بأن تلك السيدة الشابة كانت أنت، وفي هذه الحالة...".

"لم أكـن موجـودة هنـاك"، قالـت مارغريـت وهـي تُثبِّـت عينيهـا الخاليتـين مـن أي تعبيـر عـلى وجهـه بنظـرة هائمـة تشـبه نظـرة شـخص يمـشي وهـو نائـم.

أحنـى المفتـش رأسـه مـن دون أن يتكلـم. فالسـيدة الواقفـة أمامـه لم تُبـدِ أي انفعـال، أو خـوف، أو قلـق، ولا حتـى رغبـة في إنهـاء المقابلـة. لكـن المعلومـات التـي تلقاهـا كانـت ملتبسـة. فقـد ذكـر أحـد الحمالـين الـذي اندفـع إلى رصيـف المحطـة اسـتعداداً لوصـول القطـار، أنـه شـاهد عـراكاً عـلى الطـرف الثـاني مـن الرصيـف، بـين ليـنِردز وشـاب ترافقـه سـيدة شـابة، لكنـه لم يسـمع أي ضجـة. وعندمـا انطلـق القطـار بأقـصى سرعتـه مغـادراً المحطـة، كاد هـذا الحـمال أن يسـقط أرضـاً عندمـا اصطـدم بـه ليـنِردز ـ الغاضـب وشـبه المخمـور ـ بركضـه الأهـوج وهـو يطلـق سـيلاً مـن السـباب والشـتائم. لم يكـترث للموضـوع، حتـى وقـع المفتـش عـلى هـذا الدليـل. فقـد أخـبره مديـر المحطـة أنـه، في ذلـك الوقـت تقريبـاً، شـاهد سـيدة شـابة ـ جميلـة، كـما ذكـر لـه صبـي يعمـل في محـل لبيـع الخـضروات ـ كان موجـوداً في المحطـة حينـذاك ـ أن تلـك الشـابة كانـت الآنسـة هيـل التـي تقيـم في كرامبـتِن، وغالبـاً مـا تتعامـل أسرتهـا مـع المحـل الـذي يعمـل فيـه. لم يكـن لـدى المفتـش مـا يؤكـد أن أوصـاف السـيدة والشـابة التـي كانـت في المحطـة تنطبـق عـلى الآنسـة هيـل، لكـن الاحتـمال كان وارداً. فحسـب مـا جـرى بعـد ذلـك، ذهـب ليـنِردز إلى أقـرب حانـة، إلا أن كلماتـه السـفيهة لم تلـق أذنـا صاغيـة عنـد نُـدُل الحانـة، لكنهـم تذكـروا هياجـه وكيلـه الشـتائم لنفسـه لأنـه لم يرسـل برقيـة لغايـة غـير معروفـة، وظنـوا أنـه غـادر الحانـة لهـذا السـبب. وفي طريقـه سـقط عـلى الأرض مـن شـدة الألم أو بسـبب إفراطـه في الـشراب. وبقـي مسـتلقياً عـلى قارعـة الطريـق إلى أن وجدتـه الشرطـة ونقلتـه إلى المستشـفى، لكنـه لم يصـحُ مـن غيبوبتـه عـلى نحـو يسـاعده عـلى تقديـم وصـف واضـح لسـقوطه، عـلى الرغـم مـن أنـه اسـتعاد الوعـي نوعـاً مـا مـرة أو مرتـين مـا دفـع السـلطات إلى اسـتدعاء أقـرب قـاض عـلى أمـل أن يأخـذ منـه إفـادة تكشـف سـبب موتـه. لكـن عندمـا وصـل القـاضي، كان الرجـل يهـذي بأنـه كان في البحريـة وهـو يتحـدث عـن أسـماء نقبـاء وملازمـين بطريقـة مشوشـة. أمـا آخـر كلماتـه فكانـت شـتيمة

أطلقها على ما أسماه "خدعة كورنوول[63]" التي جعلته أفقر بمائة جنيه مما كان مفترضاً. أدار المفتش كل هذه الأفكار في رأسه: غموض الدليل الذي يثبت أن الآنسة هيل كانت في المحطة، وإنكارها الحاسم والقاطع رداً على هذه الفرضية. وقفت مارغريت تنتظر منه أن يتابع كلامه برباطة جأش وصلابة قل نظيرهما. "إذاً تُنكرين يا سيدتي أنك أنت تلك السيدة التي كانت برفقة الشاب الذي ضرب أو دفع الرجل المسكين مما أدى إلى وفاته".

فجأة، اخترق دماغ مارغريت ألم سريع حاد. "شكراً يا رب! لأني علمت بأن فريدريك بات بأمان". كان بإمكان أي مراقب عميق النظرة أن يلمح هذا الألم الحاد يتوهج من عينيها الكبيرتين الغائمتين، مثل تعذيب مخلوق حوصر من كل الجهات. إلا أن المفتش لم يكن ذلك المراقب صاحب النظرة العميقة. وعلى الرغم من ذلك، فوجئ قليلاً بشكل جوابها الذي بدا تكراراً آلياً لجوابها الأول، من دون تغيير أو تعديل في الشكل ليتناسب مع سؤاله الأخير.

"لم أكن موجودة هناك"، قالت بنبرة متثاقلة. وبقيت طوال الوقت تحدق فيه مفتوحة العينين، ولم تتخل عن نظرتها الزجاجية شبه الحالمة. أثارت شكوكه بهذا الصدى الباهت لجوابها الأول، كما لو أنها أجبرت نفسها على التمسك بالكذبة نفسها، وصُدمت من عدم القدرة على تبديلها.

أغلق مفكرته بطريقة مدروسة، ثم نظر إليها. لم تتحرك كما لو كانت تمثالاً مصرياً هائل الحجم.

"آمل ألا تظنيني وقحاً عندما أقول بأني ربما سأضطر لزيارتك ثانية، أو أستدعيك للحضور أمام التحقيق، وإثبات صحة أقوالك، إن أصر الشهود" (لم يكن هناك سوى شاهد واحد تعرف عليها) على أنك كنت موجودة ساعة وقوع الحادث المشؤوم". نظر إليها بحدة. ظلت هادئة، لم يتغير لونها، أو اكتسى وجهها المتعالي ظلاً قاتماً من الإحساس بالذنب. تخيل أنه لمحها ترتعش؛ لكنه لم يكن على معرفة كافية بمارغريت هيل. صدمه هدوءها وتماسكها. لابد أنه أخطأ في تحديد الهوية. تابع كلامه:

---

(63) مقاطعة في أقصى الجنوب الغربي من بريطانيا. (م)

"من غير المحتمل يا سيدتي أن أُقدم على أي تصرف من هذا النوع. آمل أن تعذريني على القيام بما هو واجبي فحسب، وإن بدا وقحاً".

أحنت مارغريت رأسها حالما توجه نحو الباب. كانت شفتاها متصلبتين جافتين حتى أنها لم تستطع أن تتفوه بكلمات الوداع المعتادة. وفجأة تحركت إلى الأمام، وفتحت باب غرفة المكتب، وسبقته إلى باب المنزل الذي فتحته على مصراعيه كي يخرج. ظلت تراقبه بالنظرة الباهتة الجامدة بنفسها حتى غاب عن ناظريها. أغلقت الباب، وسارت خطوات داخل غرفة المكتب ثم عادت أدراجها، وكأنها تحت تأثير رغبة جارفة، وأقفلت الباب من الداخل.

دخلت غرفة المكتب، توقفت، ترنّحت، توقّفت ثانية، وتمايلت للحظة في مكان وقوفها، ثم وقعت على الأرض مغشياً عليها.

التكفير عن الذنب

جلس السيد ثورنتِن مع السيد هيل لفترة طويلة. شعر بأن صحبته منحت السيد هيل السرور، وتأثر بتوسل الأخير إليه بأن يبقى لفترة أطول بعبارة حزينة "لا تذهب الآن" التي كان صديقه يرددها من وقت لآخر. تعجب من تأخر مارغريت بالعودة، لكنه لم يكن يتوقع رؤيتها، رغم تلهفه إلى ذلك. وعلى مدى ساعة من الوقت، وفي حضور من كان يشعر بخواء العالم من حوله، كان السيد ثورنتِن منطقياً متحكماً بنفسه، ومهتماً بكل ما قاله والدها:

"عن الموت والسكون الثقيل،

"وعن الدماغ الذي يرقد راكداً"

كان أمراً مثيراً للفضول كيف أن حضور السيد ثورنتِن امتلك هذا التأثير على السيد هيل ليجعله يُفصح له عن أفكاره السرية التي أخفاها حتى عن ابنته مارغريت. سواء أكان تعاطفها الذي كان سيبدو شديد الحماسة، أو الطريقة المفعمة بالحياة التي سيظهر عليها هو ما كان يخشاه السيد هيل كردة فعل عليه، أو كانت تكهناته بمختلف أنواع الشكوك التي خطرت على باله في ظرف كهذا، تستصرخ وتتوسل بصوت عالٍ لتستقر في اليقين، أو لأنه كان يعلم أنها كانت ستنفر من التعبير عن أي من هذه الشكوك، لا بل ومن نفسه لكونه قادراً على التعبير عنها، أيا كان السبب، كل هذا كان كافياً ليرى أنه من الأفضل له أن يُسِّرَ بمكنوناته إلى السيد ثورنتِن من أن يقول لابنته كل أفكاره وتخيلاته ومخاوفه التي تجمّدت في رأسه حتى الآن.

لم يقل السيد ثورنتِن إلا القليل من الكلام، لكن كل جملة تلفَّظ بها زادته ثقة

واحتراماً عند السيد هيل. فإن توقف هذا الأخير عن الكلام تعبيراً عن ذكرى مؤلمة تعذبه، كان يكفي السيد ثورنتِن أن يقول كلمتين أو ثلاثة ليكمل الجملة، ويُظهر عمق معناها. وإن خالجه شك، أو خوف، أو قلق مضطرب ينشد الراحة ولا يجدها، أو دموعٌ تُغشي عينيه. بدا السيد ثورنتِن وكأنه مر بالمرحلة نفسها من التفكير، بدلا من أن يكون مصدوماً، بل ويشير عليه أين يجد شعاع الضوء الذي من شأنه أن ينير الأماكن المعتمة.

وبما أنه كان رجل الأفعال لا الأقوال، منهمكاً في معركة العالم الكبرى، كان هناك ثمة دين في قلبه يربطه مع الله، على الرغم من إرادته القوية، عبر أخطائه كلها، أعمق بكثير مما حَلُمَ به وتمناه السيد هيل طوال حياته. لم يتحدثا عن هذه الأشياء مرة ثانية أبداً بالطريقة التي جرت فيها، لكن هذا الحديث جعلهما شخصين استثنائيين بالنسبة إلى بعضهما بعضاً، وربطهما برباط قوي على نحو لا يمكن لأي حديث عشوائي حول أشياء مقدسة أن يصنعه. عندما يتم الإفصاح عن كل هذه الأشياء، كيف يمكن أن يكون هناك ما يسمى بقدس الأقداس؟

جرى كل هذا بينما كانت مارغريت هامدة شاحبة على أرض غرفة المكتب! فقد غاصت تحت أعباء ثقيلة تحمّلتها بصبر وخضوع لفترة طويلة، إلى أن خانها إيمانها، وراحت تفتش عبثاً عمن يساعدها. ارتسم على حاجبيها الجميلين انقباض ألم مثير للشفقة، على الرغم من غياب أي مؤشر على استعادتها لوعيها. أما فمها الذي كان قبل فترة وجيزة يمتلأ تحدّياً، بدا مسترخياً شاحب اللون.

"بدت وكأن شفتيها تتحركان

روحاً عذبة مفعمة بحبٍ

لا ينفك يقول للروح: تنهّدي".

كان ارتعاش الشفتين أولى علامات عودة الحياة، محاولة صامتة للكلام، لكن عينيها ظلتا مغلقتين، ثم سكنت رعشة الشفتين. عندئذٍ، استندت مارغريت على ذراعيها الواهنتين لتوازن نفسها، قبل أن تستجمع قواها وتنهض. سقط المشط من شعرها وراحت بغريزة عفوية تبحث عنه سعياً منها لتمحو آثار الضعف،

وتعيد التوازن إلى نفسها. وبينما كانت تبحث عن المشط، لم تجد مفراً من الجلوس، من وقت إلى آخر، لاسترجاع قوتها. انحنى رأسها إلى الأمام، واستقرت يداها باستسلام فوق بعضهما بعضاً. حاولت أن تسترد نشاطها بالسعي جاهدة لتذكر التفاصيل التي ألقتها في خوف مهلك كهذا، لكنها لم تستطع. كل ما كانت تدركه وتعيه جيداً حقيقتان لا ثالث لهما؛ وهما أولاً أن فريدريك كان مهدداً باحتمال تعقبه ومطاردته في لندن، ليس لأنه مسئول عن جريمة قتل فحسب، بل لأنه قائد تمرد لا يمكن العفو عنه، وثانياً أنها كذبت لتحميه. لكن كذبتها لم تساعدها في إنقاذ أخيها إلا بكسب المزيد من الوقت. إن عاد المفتش ثانية غداً بعد أن تكون قد تسلّمت رسالة من أخيها تتلهف إليها لتطمئنها على سلامة أخيها، فلن تتردد ـ مارغريت المتعجرفة ـ أن تقف خجلة بتوبة مريرة لتعترف أمام غرفة العدالة المكتظة بالحضور، إن دعت الحاجة، بأنها كانت مثل "كلبٍ وفعلت هذا الشيء". لكن إن عاد المفتش، كما هدد قبل ساعات، قبل أن تتسلم الرسالة، ستكرر الكذبة ذاتها. لكن كيف ستخرج الكلمات من فمها، بعد هذا التوقف المرعب للتفكير، ولوم الذات، من دون أن تكشف عن كذبها، فهو ما كانت تجهله تماماً ولا يمكنها التأكد منه. على أي حال، تكرار الكذبة سيمنح فريدريك مزيداً من الوقت.

صحت مارغريت بدخول ديكسِن إلى الغرفة، بعد أن رافقت السيد ثورنتِن إلى باب المنزل الأمامي.

ولم يقطع عشر خطوات في الشارع حتى توقفت على مقربة منه عربة ترجل منها رجل وتوجه إليه مباشرة يلمس قبعته تحيةً له. كان مفتش الشرطة.

كان السيد ثورنتِن هو من ساعده في الحصول على أول منصب له في الشرطة، وكان يسمع من حين لآخر عن تطور هذا الشخص المحسوب عليه في مركزه، لكنهما لم يلتقيا كثيراً ولم يكن السيد ثورنتِن يتذكره جيداً.

"اسمي واطسُن، جورج واطسُن، يا سيد، أنت...".

"أجل! بت مشهوراً، كما أسمع".

"أجل يا سيدي، وأدين لك بالشكر. لكني حالياً في مهمة دفعتني لأتجرأ على الحديث معك. أعتقد أنك أنت القاضي الذي حضر لتدوين إفادة الرجل الذي توفي في المستشفى ليلة أمس".

"أجل"، قال السيد ثورنتِن. "ذهبت وسمعت كلاماً مشوشاً قال الموظف إنه لا يفيد بشيء. للأسف لم يكن سوى رجل مخمور، وعلى الرغم من أنه من دون أدنى شك لقي حتفه بسبب عنف ما. واحدة من خادمات أمي كانت خطيبته، كما أظن، وهي الآن في حالة يرثى لها. ماذا عنه؟".

"أظن يا سيدي أن وفاته ترتبط بشخص يسكن في المنزل الذي رأيتك تخرج منه للتو؛ إنه منزل السيد هيل كما أظن".

"نعم!"، قال السيد ثورنتِن وهو يستدير بحدة، وينظر في وجه المفتش باهتمام مفاجئ. "وما علاقتهم بهذا الموضوع؟".

"يبدو أن لدي سلسلة من الأدلة القوية التي تورط شاباً، كان يمشي مع الآنسة هيل تلك الليلة في محطة آوتوود، على أنه الرجل الذي ضرب أو دفع ليِنردز من على رصيف المحطة، وتسبب بوفاته. لكن الآنسة هيل تنكر أنها كانت هناك في ذلك الوقت".

"الآنسة هيل تنكر أنها كانت هناك!" كرر السيد ثورنتِن العبارة بصوت مغاير. "أخبرني، أي مساء كان، ومتى؟".

"حوالي الساعة السادسة من مساء يوم الخميس، السادس والعشرين".

واصلا سيرهما جنباً إلى جنب بصمت لدقيقة أو دقيقتين. كان المفتش هو من بادر بالكلام أولاً.

"كما ترى، يا سيدي، لا بد أن يكون هناك تحقيق جنائي؛ ولدي شاب متأكد تماماً ـ على الأقل كان كذلك في البداية قبل أن يسمع إنكار الآنسة هيل ولا يريد أن يُقسِم ـ أنه رأى الآنسة هيل في المحطة تمشي مع ذلك الشاب خمس دقائق على الأقل قبل أن رأى أحد الحمالين شجاراً ـ بسبب وقاحة ليِنردز ـ أدى إلى سقوطه الذي كان سبباً بوفاته. وعندما رأيتك تخرج من المنزل ذاته، يا سيدي،

قلت لنفسي أن أتجرأ وأسألك إن...كما تعلم، من المحرج جداً أن تتعامل مع قضايا في نوع من التشابه أو الخطأ في تحديد هوية الشخص، ولا أحد يريد أن يشكك بكلمة شابة محترمة، ما لم يكن لديه دليل قوي على ذلك".

"وهي أنكرت وجودها في المحطة ذلك المساء!" أعاد السيد ثورنتِن ترديد العبارة بصوت رخيم منخفض.

"أجل يا سيد، مرتين وبشكل صريح وواضح. قلت لها بأني سأعود لمقابلتها، لكن عندما رأيتك وأنا في طريق عودتي من استجواب الشاب الذي يقول إنه رآها، فضلت أن أسألك النصيحة بصفتك القاضي الذي رأى ليٖنِردز على فراش الموت، والسيد النبيل الذي ساعدني للحصول على مركزي في سلك الشرطة".

"حسناً فعلت" قال السيد ثورنتِن. "لا تتخذ أيَّ خطوة أخرى قبل أن تراني مرة ثانية".

"السيدة الشابة تتوقع زيارتي".

"لا أود أن أؤخرك سوى ساعة واحدة فقط. إنها الثالثة الآن. تعال إلى مستودعي عند الرابعة".

"حسناً، يا سيدي".

افترق الرجلان كلٌ في طريقه. أسرع السيد ثورنتِن إلى المستودع، وأمر موظفيه بصرامة تامة بعدم السماح لأي شخص بمقاطعته، ثم تابع طريقه إلى غرفته الخاصة وأقفل عليه الباب. غرق في عذاب التفكير بما سمع، وهو يراجع كل شاردة وواردة. كيف أمكنه أن يستكينٍ في هدوء لا يثير الشك انعكست فيه صورتها الدامعة ليس أكثر من ساعتين قبل الآن، حتى أنه أشفق عليها، وازداد شوقاً إليها، ونسي تلك الغيرة المفترسة المريبة التي أثارها في داخله منظر ذلك الشخص المجهول بالنسبة إليه واقفاً معها في مثل تلك الساعة، وفي مكان كهذا. كيف يمكن لامرأة بهذا النقاء أن تنحدر من سلوكها النبيل المحتشم! لكن هل كان محتشماً، هل كان؟ كره نفسه بسبب هذه الفكرة التي فرضت نفسها عليه، للحظة واحدة لا أكثر، ومع ذلك، وبينما كانت ماثلة في خاطره، أسعده

بقوة تأثير جاذبيتها القديم نحو صورتها. ومن ثم هذا الكذب والزيف، كم هو مرعبٌ ذلك الخوف من افتضاح العار، لأنه وبعد كل شيء، ربما كان الاستفزاز على يد رجل مثل ليـنِردز، تحت تأثير الشراب، في احتمالاته كافة، أكثر من كافٍ ليسوِّغ لأي شخص تقدم ليوضح الظروف بشكل واضح من دون تحفظ! كم هو مخيفٌ وقاتل ذلك الشعور بالخوف الذي أجبر مارغريت على الكذب والإنكار! كان يشفق عليها. كيف سينتهي الأمر؟ لا بد أنها لم تدرك ما كانت تتورط فيه، إن جرى تحقيق في الموضوع، وتقدم الشاب بشهادته. انتفض فجأة. يجب ألا يكون هناك أي تحقيق. سينقذ مارغريت، ويتحمل مسؤولية منع إجراء التحقيق الذي يستند في أساسه على ضبابية الشهادة الطبية (التي سمع بها بشكل غير واضح من الطبيب) التي يمكن التشكيك بها طالما أن الأطباء اكتشفوا مرضاً داخلياً في حالة متقدمة كان بلا شك مميتاً، وإن كانوا أشاروا إلى أن السقوط ربما سرَّع في وفاته، أو ربما يكون الشراب والتعرض للبرد سبباً في ذلك.

لو علم كيف كانت ستتورط مارغريت في القضية، أو تنبأ بأنه كانت ستلطخ نقاءها بكذبة، لكان بمقدوره أن ينقذها بكلمة واحدة؛ لأن مسألة إجراء تحقيق أو عدمه كانت معلقة تتأرجح في الميزان قبل ليلة واحدة فقط. قد تكون الآنسة مغرمة بشخصٍ آخر، لا يكترث له ومحط احتقار لديه، لكنه رغم ذلك كان سيسدي إليها صنيعاً لا يجب أن تعلم عنه شيئاً. قد يزدريها، لكن لا بد من تجنيب المرأة التي أحبها يوماً عار الفضيحة، العار الذي سيجبرها على الكذب أمام محكمة عامة، أو أن تقف لتعترف بالسبب الذي دفعها إلى اشتهاء العتمة بدلاً من النور.

بدا السيد ثورنتِن متجهماً كئيباً وهو يخرج من غرفته وسط دهشة موظفيه. غاب نصف ساعة، وعندما عاد لم يكن حاله أفضل على الرغم من نجاح مهمته. كتب سطرين على قصاصة من ورق، ووضعها في مغلف أحكم إغلاقه، ثم أعطاها إلى أحد الموظفين قائلاً:

"طلبت من واطسُن (الذي كان عتالاً في المستودع قبل أن يعمل في الشرطة)

أن يوافيني هنا عند الساعة الرابعة. التقيت لتوي سيداً من ليفربول يريد مقابلتي قبل مغادرته المدينة. كن حريصاً على تسليم واطسُن هذه الرسالة عندما يأتي".

وكانت الرسالة تحتوي على هذه الكلمات:

"لا داعي لإجراء تحقيق، فالدليل الطبي ليس كافياً لتسويغ ذلك. لا تتخذ أيَّ خطوات إضافية. لم أرَ المحقق الجنائي بعد، لكني سأتحمل المسؤولية".

"حسناً"، قال واطسُن لنفسه، "هذا يُعفيني من عمل محرج. لا أحد من الشهود يبدو متأكداً من أي شيء، ما عدا السيدة الشابة التي كانت واثقة وواضحة. حمَّال المحطة رأى شجاراً! أو هذا ما فهمه عندما أراد استدعاءه كشاهد، لكن ربما لم يكن هناك شجار بل مجرد احتكاك بسيط، وربما سقط ليِنِردز من على الرصيف من تلقاء نفسه، لم يثبت الحمال على رواية واحدة. أما جينينغس، الفتى الذي يعمل في دكان الخضروات، فلم يكن سيئاً، لكني أشك في إمكانية إقناعه بحلف اليمين بعد ما سمع إنكار الآنسة هيل. إنه عمل مزعج من دون فائدة. يجب أن أذهب الآن لأخبرهم بأنهم لم يعودوا مطلوبين للتحقيق".

وفي ذلك المساء، توجه المفتش إلى منزل السيد هيل الذي كان ومعه ديكسِن يحاولان جاهدين أن يقنعا مارغريت بالذهاب إلى السرير، لكنهما لم يعلما سبب رفضها المتواصل لهذا الطلب. كانت ديكسِن قد علمت بجزء من الحقيقة فحسب، لأنه لم يكن وارداً بالنسبة إلى مارغريت أن تخبر أي مخلوق كان بما قالته، أو تكشف مصير ليِنِردز بعد سقوطه من على رصيف المحطة. لذلك اجتمع فضول ديكسِن مع حرصها على مناشدة مارغريت نيل قسط من الراحة التي كان واضحاً بأنها بحاجة إليها، كما بدا من مظهرها عندما كانت مستلقية على الكنبة. لم تتحدث إلى أحد ما لم يوجه أحدهما الحديث لها. حاولت أن تبتسم رداً على نظرات أبيها القلقة وتساؤلاته الرقيقة، لكن وبدلاً من الابتسام، كانت شفتاها تنفرجان عن تأوه مسموع. شعر بالقلق الشديد عليها، ما اضطرها في نهاية المطاف إلى الموافقة على الذهاب إلى غرفتها استعداداً للنوم. كانت تميل بالفعل للتخلي عن فكرة أن المفتش سيزورها مرة أخرى تلك الليلة، بعد أن

تجـاوزت السـاعة التاسـعة.

وقفت بجانب والدها وهي تمسك بظهر الكرسي الذي يجلس عليه.

"ستذهب إلى السرير فوراً، يا أبي، أليس كذلك؟ لا تسهر لوحدك!"

لم تسـمع مـا قالـه لهـا رداً عـن سـؤالها، فقـد ضاعـت كلماتـه في فضـاء صـوت صغـير ضخَّـمَ نفسـه بالنسـبة إلى مخاوفهـا، واسـتبد بتفكيرهـا. كان هنـاك قـرع خفيـف عـلى جـرس البـاب.

قبلـت والدهـا، ونزلـت عـلى الـدرج بسرعـة مـا كان يتصـور أحـد رآهـا قبـل دقيقـة أن تكـون قـادرة عليهـا. أبعـدت ديكسِـن جانبـاً.

"ابـق مكانـك، أنـا سـأفتح البـاب. إنـه هـو، أعلـم ذلـك. باسـتطاعتي...بل يجـب علي أن أتدبـر الأمـر بنفسـي".

"كـما تريديـن، يـا آنسـة!" قالـت ديكسٍـن بامتعـاض، ثـم أضافـت بعـد دقيقـة، "لكنـك لسـتِ قـادرة عـلى ذلـك، تبديـن ميتـة أكـثر مـما تكونـين حيـةً".

"حقـاً!" التفتـت مارغريـت إليهـا وعيناهـا تتوهجـان بنـار غريبـة، وخداهـا يحتقنـان دمـاً، وإن كانـت شـفتاها لا تـزالان شـاحبتين متيبسـتين.

فتحـت البـاب للمفتـش، وسـبقته إلى غرفـة المكتـب. وضعـت الشـمعة عـلى الطاولـة، وأزالـت بـكل حـرص الجـزء المحـترق مـن الفتيـل قبـل أن تسـتدير نحـوه.

"لقد تأخرت!" قالت له. "حسناً؟"، وأمسكت أنفاسها بانتظار الرد.

"آسـف إن كنـت قـد سـببت لـك أي إزعـاج لا داعٍ لـه، يـا سـيدتي، فبعـد كل شيء، تراجعـوا عـن فكـرة التحقيـق. كان لـدي عمـل آخـر يجـب القيـام بـه وأنـاسٌ آخـرون لأقابلهـم، وإلا لكنـت جئتـك قبـل الآن".

"إذاً انتهى الأمر"، قالت مارغريت. "لن يكون هناك تحقيق إضافي".

"أظـن أني مـا زلـت أحتفـظ برسـالة السـيد ثورنـتِن معـي"، قـال المفتـش وهـو يبحـث في مفكرتـه.

"السيد ثورنتِن!

"أجل، إنه قاضٍ...ها هي الرسالة".

لم تتمكن من رؤية الرسالة لتقرأها، ليس لأنها لم تكن قريبة من الشمعة. طافت الكلمات أمام عينيها. لكنها أمسكت الرسالة بين يديها وتفحصتها كما لو كانت تدرسها بحرص شديد.

"أنا متأكد، يا سيدتي، عبءٌ ثقيل انزاح عن كاهلي، لأن الدليل لم يكن مؤكداً، كما ترين، بأن هذا الرجل قد تعرض لأي ضربة على الإطلاق، وإن طُرحت مسألة تحديد هوية شخص ما، ستصبح القضية معقدة، كما قلت للسيد ثورنتِن..."

"السيد ثورنتِن!" قالت مارغريت مرة أخرى.

"قابلته صباح اليوم خارجاً من هذا المنزل، وبصفته صديقاً قديماً، إلى جانب كونه القاضي الذي رأى ليِنردز الليلة الماضية، تجرأت وأخبرته عن صعوبة هذه القضية".

تنهدت مارغريت بعمق. لم تشأ أن تسمع المزيد؛ إذا كانت تخشى ما سمعته حتى الآن، وما قد تسمعه. تمنت لو يغادر الرجل. وأخيراً أجبرها على مقاطعته. "شكراً على الزيارة، لكن الوقت أمسى متأخراً، فقد تجاوزت الساعة العاشرة. عفواً! ها هي الرسالة"، تابعت كلامها وهي تفسر معنى اليد التي امتدت لتستلمها. كان يضع الرسالة في مفكرته عندما قالت "أظن الخط ليس واضحاً. لم أستطع قراءتها؛ هلا قرأتها لي؟".

وقرأ المفتش الرسالة بصوت عال.

"شكراً لك. هل أخبرت السيد ثورنتِن بأني لم أكن موجودة هناك؟".

"بالطبع يا سيدتي. وأنا آسف لأني تصرفت بناء على معلومات اتضح أنها مغلوطة. في البداية كان الشاب متأكداً، أما الآن فهو يشك في ما قاله، ويأمل أن لا يكون خطأه قد تسبب لك بأي إزعاج قد يترتب عليه خسارتكم كزبون للمحل. طابت ليلتك يا سيدتي".

"طابت ليلتك". قرعت مارغريت الجرس من أجل أن ترافقه ديكسِن إلى الباب. وعندما عادت ديكسِن، مرت مارغريت بسرعة بجانبها.

"كل شيء على ما يرام"، قالت لها من دون أن تلتفت إلى ديكسِن. وقبل أن تحاول ديكسِن اللحاق بها لتطرح عليها مزيداً من الأسئلة، كانت مارغريت قد سبقتها صعوداً على الدرج، ودخلت غرفة نومها، وأقفلت الباب وراءها. ألقت نفسها، كما هي في ثيابها، على السرير. كانت منهكة إلى درجة منعتها من التفكير. مضت نصف ساعة أو أكثر قبل أن تمتلك وضعية استلقائها المتشنجة، والبرودة وما تلاهما من تعب، القدرة على تنشيط ذهنها الخدِر. بدأت تتذكر، وتجمع، وتتساءل. أول ما جال في خاطرها أن ذلك القلق المقيت بشأن فريدريك انتهى، وانقضت المحنة. أما الفكرة الثانية فكانت رغبتها المحمومة لتتذكر كل كلمة قالها المفتش بخصوص السيد ثورنتِن. متى قابله؟ ماذا قال؟ وماذا فعل السيد ثورنتِن؟ ما هي بالضبط الكلمات التي كتبها في الرسالة؟ حتى أنها حاولت تذكر كل تعبير استخدمه في رسالته، حتى لو كان مجرد وضع أو حذف أداة تعريف أو نكرة، لكن عقلها رفض الاستمرار بهذه المهمة. لكن القناعة التالية التي توصلت إليها كانت واضحة لا لبس فيها؛ ألا وهي أن السيد ثورنتِن رآها بالقرب من محطة آوتوود في ليلة الخميس المشؤومة، وأُبلغه المفتش بإنكارها أنها كانت هناك. فهي كاذبة بنظره. إنها كاذبة. بيد أنها لم تفكر في التوبة أمام الله؛ لاشيء سوى الفوضى والليل كانا يحيطان بحقيقة واحدة ساطعة وهي أنها، في عيني السيد ثورنتِن، شخص منحط. لم تهتم بالتفكير حتى بينها وبين نفسها، بحجم العذر أو التسويغ الذي يمكن لها أن تقدمه. الأمر لا يتعلق بالسيد ثورنتِن، لأنها لم تتصور أنه، أو أي شخص آخر، قد يجد السبب الكافي للشك بما كان أمراً طبيعياً مثل المشي مع أخيها. غير أن الفارق بين ما كان بحق مزيفاً وحقيقياً، لم يكن معلوماً بالنسبة إليه، مما يعطيه الحق لأن يحكم عليها. "آه يا فريدريك! فريدريك!" صرخت مارغريت، "ما هو الشيء الذي لم أضحِ به من أجلك!". حتى عندما خلدت إلى النوم، كانت أفكارها مجبرة على الترحال في الدوامة ذاتها، ولكن مع جولات أشد وأقسى من ألم متوحش.

عندما استيقظت، راودتها فكرة جديدة مع إشراقة الصباح. السيد ثورنتِن، قالت لنفسها، علم بكذب ادعاءاتها قبل أن يذهب إلى المحقق الجنائي، مما يدل

على أنه على الأرجح كان متأثراً بوجهة نظره لضرورة تجنيبها تكرار إنكارها للواقعة. غير أنها سرعان ما أبعدت هذه الفكرة جانباً بعناد طفولي. إن كان الأمر كذلك، لم تشعر بالامتنان له، لأنه يثبت لها أنه ولا بد كان مقتنعاً بأنها ألحقت العار بنفسها، قبل أن يتحمل تلك الآلام المكروهة ليجنّبها محاكمة أخرى لقول الصدق والتي أخفقت أصلاً فيها إخفاقاً ذريعاً. كانت ستتحمل كل هذا، وتكذب لتحمي فريدريك، أبعد بكثير مما يعرفه السيد ثورنتِن، ودفعه للتدخل من أجل إنقاذها. ما هو ذلك القدر الذي ساقه ليلتقي بالمفتش؟ وما الذي جعله يكون القاضي الذي يُرسل لأخذ إفادة ليـنِردز؟ وماذا قال له ليـنِردز؟ وكم كانت تلك الإفادة واضحة بالنسبة للسيد ثورنتِن الذي ربما يكون أصلاً، من دون أن تدري هي شيئاً، على معرفة بالاتهامات القديمة الموجّهة لأخيها من صديقهما المشترك السيد بيل؟ إن صح هذا الافتراض، فهذا يعني أنه سعى جاهداً لحماية الابن الذي تحدى القانون ليرى أمه على فراش الموت. واستناداً إلى هذه الفكرة، قد تكون ممتنة له ولكن لا، إن وجب عليها ذلك، ليس إن كان الاحتقار هو من دفعه للتدخل. هل يعقل أن يكون لدى أي شخص كان سبب لاحتقارها؟ فالسيد ثورنتِن، تحديداً دون الجميع، طالما نظرت إليه من عليائها حتى الآن! وفجأة ترى نفسها عند قدميه، والأغرب من ذلك يشعر بالألم والضيق على سقوطها المريع. تجنبت ربط الأسباب بالنتائج، مما يدل على اعترافها أمام نفسها كم كانت تقدر احترامه وحسن ظنه. وكلما راودتها هذه الفكرة في نهاية مشوار طويل من الهواجس والأفكار، كانت تتحاشى المسير فيه، لأنها لم تكن مقتنعة به.

وبعد كل القلق والاضطراب الذي رافقها الليلة الماضية، نسيت مارغريت أن تربط منبّه الساعة، وكان السيد هيل قد أعطى أوامر خاصة بعدم إيقاظها في الموعد المعتاد صباحاً. فتحت ديكسِن الباب رويداً رويداً ومدّت رأسها. وعندما تأكدت أن مارغريت كانت مستيقظة، تقدمت وبيدها رسالة.

"ها هنا شيء سيفرحك يا آنسة. رسالة من السيد فريدريك".

"شكراً لك، يا ديكسِن. كم الساعة الآن؟".

خرجت منها الكلمات متثاقلة، ثم طلبت من ديكسِن أن تضع الرسالة على غطاء السرير أمامها، من دون أن تمد يدها لأخذها.

"لا بد أنك تريدين فطورك. سأحضره في دقيقة. السيد هيل هو من جهز لك الفطور".

لم ترد مارغريت، وتركتها تذهب، إذ راودها شعور بضرورة أن تبقى لوحدها كي تفتح الرسالة. وأخيراً فتحتها. أول ما استرعى انتباهها أن تاريخ كتابة الرسالة كان قبل يومين من استلامها. لو أنه كتب الرسالة كما كان قد وعد من قبل، لوفر عليها القلق والخوف اللذين عاشتهما. لكن يمكنها على أي حال قراءتها. كان واضحاً أنها كُتبت على عجل، لكنها احتوت على أخبار مُرضية. التقى فريدريك بالسيد هنري لينوكس الذي كان على اطلاع كاف على القضية ليهز رأسه أولاً قبل أن يخبر فريدريك أن عودته إلى إنكلترا كانت مجازفة مع تلك الاتهامات المنسوبة إليه والتي تؤيدها سلطة نافذة. لكن عندما بدآ التحدث بشأن تلك الاتهامات، أقر السيد لينوكس بوجود احتمال حصول فريدريك على البراءة، إن استطاع إثبات صحة أقواله بشهود موثوقين، الأمر الذي يمكن له، في هذه الحالة، المثول أمام المحكمة، وإلا سيكون الأمر مجازفة خطيرة. وأكد لفريدريك أنه لن يدخر جهداً في مساعدته. "ما فاجأني" قال فريدريك، "أن ترشيحك لهذا المحامي، يا أختي الصغيرة، كان جيداً. أليس كذلك؟ لقد استفسر عن كل شاردة وواردة، أؤكد لك ذلك. بدا لي شخصاً ذكياً، حاذقاً، ومحامياً متمرساً بحكم ما رأيته في مكتبه، وعدد موظفيه. وربما يكون كل هذا جزءاً من ألاعيب المحامين. عثرت لتوي على سفينة صغيرة على وشك الإبحار، وسأنطلق خلال خمس دقائق. قد اضطر للعودة إلى إنكلترا مرة أخرى من أجل القضية، لذا احتفظي بالأمر سراً بيننا. سأرسل إلى والدي بعضاً من النبيذ الإسباني المعتق الذي لا يمكن أن تجدوه في إنكلترا (مثل الزجاجة التي تقف أمامي الآن). إنه بحاجة لشيء من هذا القبيل ـ كل حبي له ـ باركه الله. وصلت عربة الأجرة. ملاحظة: نجوت بأعجوبة! لا تخبري أحداً عن زيارتي، ولا حتى لخالتي شو".

تفحصت مارغريت مغلف الرسالة الذي كان قد كُتب عليه "متأخر". يبدو أن الرسالة، على الأرجح، تُركت في عهدة نادل لم يكترث بها، ونسي أن يضعها في البريد. كم هي واهية خيوط الاحتمالات التي تقف بيننا وبين وقوعنا في شرك الخطيئة! بات فريدريك بأمان، وغادر إنكلترا قبل عشرين، بل قبل ثلاثين ساعة، وبالتالي لم يمض سوى سبع ساعات على كذبتها لمنع ملاحقته التي لم تكن ذات جدوى حتى في تلك الفترة. كم باتت تفتقد إلى الصدق والإيمان! وأين أصبح شعارها"افعل ما يتوجب عليك فعله، وليكن ما يكون؟". لو أنها تجرأت على قول الحقيقة، بكل شجاعة، في ما يخصها، وبقيت تتحداهم أن يكتشفوا ما رفضت إخبارهم بما يخص شخصاً آخر، لكانت الآن تشعر بالراحة من عبء ثقيل. لا تشعر بالمهانة أمام الله لأنها أخفقت في إيمانها وثقتها به، ولا بالعار والإذلال بنظر السيد ثورنتِن. هنا اعترتها رعشة بائسة لأنها وضعت نظرته الدونية لها جنباً إلى جنب مع معصية الله. ما السر في أنه بات يسكن مخيلتها بهذا القدر من الإصرار؟ ما يمكن أن يكون كل هذا؟ لِمَ تهتم بما يفكر، على الرغم من كبريائها، ورغماً عنها؟ ظنت أنه كان بمقدورها أن تتحمل وطأة الإحساس بغضب الله، لأنه يعلم كل شيء ويستطيع أن يقرأ توبتها، ويسمعها تصرخ طالبة العون في قادم الأيام. أما السيد ثورنتِن، لماذا ترتجف، وتخفي وجهها في الوسادة؟ ما هذا الشعور الذي بات يستولي عليها الآن؟

نهضت من السرير، وانغمست في الصلاة طويلاً بخشوع. كانت الصلاة كفيلة بتهدئة قلقها لينفتح قلبها. لكن وحالما راجعت ما آل عليه حالها، أحست مارغريت بلسعة ألم؛ أي أنها لم تكن صالحة ونقية بما يكفي لتتجاهل رأي مخلوق فيها. فمجرد التفكير بأنه ولا بد كان ينظر إليها باحتقار، كان يقف بينها وبين شعورها بالإثم. ارتدت ملابسها، وأخذت الرسالة إلى والدها. كانت هناك إشارة طفيفة إلى ما جرى في المحطة لم يعرها السيد هيل اهتماماً. وفي الواقع، وبعيداً عن حقيقة أن فريدريك نجح في الإبحار من دون اكتشاف هويته، لم يستوعب السيد هيل الشيء الكثير مما ورد في رسالته، بل كان قلقاً على

مارغريت وملامحها الشاحبة المنهكة، لاسيما أنها بدت، وعلى نحو متواصل، كما لو كانت على وشك البكاء.

"أنت حزينة بشكل لا يصدق، ولا عجب من ذلك. عليك أن تدعيني أرعاك وأهتم بك".

طلب منها أن تستلقي على الكنبة، وأحضر لها شالاً ليغطيها به. هذه الرقة التي أبداها تجاهها جعلت الدموع تنساب في عينيها، فراحت تبكي بمرارة.

"يا طفلتي المسكينة! يا طفلتي المسكينة!" قال لها، وهو ينظر إليها بعطف غامر وهي مستلقية ووجهها إلى الحائط وهي تجهش بالبكاء. وبعد فترة من الوقت، توقفت عن البكاء وبدأت تتساءل إن كان بمقدورها التخفيف عن نفسها بأن تخبر أباها بكل ما يقلقها. لكنها وجدت أكثر من سبب واحد يمنعها عن القيام بذلك. صحيح أنها ستشعر بالارتياح، لكنها ستضيف على كاهل والدها عبئاً يزيد من توتره، لاسيما إن اضطر فريدريك للعودة إلى إنكلترا مرة أخرى، الأمر الذي سيشغل بال والده لجهة الظروف التي جعلت ابنه سبباً في وفاة رجل، حتى ولو كان عن غير قصد. إذ كانت تكفيه معرفة هذا الأمر ليعاوده الهم والقلق دائماً وأبداً وبأشكال مختلفة من المبالغة والتضخيم وتشويه الحقيقة البسيطة. أما بالنسبة لخطئها الكبير، فلن يكون همُّه أقل ثقلاً على حاجتها للشجاعة والإيمان، وسيبقى على الدوام قلقاً لإيجاد الأعذار والتبريرات. كان بمقدور مارغريت في الماضي أن تأتي إليه بصفته قسّاً وأباً لتعترف بخطيئتها، لكنهما لم يعودا يتحدثان حول مثل هذا الموضوعات. كما أنها كانت تعلم، بعدما أن تبدل موقف والدها من الكنيسة، كيف سيكون رده، إن كشفت له ما يضطرم في أعماقها. كلا، ستحتفظ بالسر لنفسها، وتتحمل وزره وحدها. وحيدةً ستقف أمام الله، وتستصرخ عفوه ورضاه. وحيدةً ستتحمل عبء مذلتها في نظر السيد ثورنتِن. تأثرت تأثراً لا يمكن وصفه بمحاولات والدها اللطيفة للتفكير بموضوعات مفرحة للتحدث فيها، وإبعادها عن التفكير بما جرى مؤخراً. مضت شهور منذ أن كان أبوها كثير الكلام كما هو اليوم. لم يدعها تنهض من مكانها، الأمر الذي أثار حفيظة ديكسِن بإصراره على رعاية ابنته بنفسه.

وأخيراً ابتسمت ابتسامة ضعيفة حزينة، لكنها كانت كافية لإدخال السرور على قلبه .

"من المستغرب أن تعتقد بأن ما سيعطينا الأمل في المستقبل لا بدَّ أن يكون اسمه دولوريس"، قالت مارغريت. كانت هذه الملاحظة تنسجم مع طبع والدها أكثر من طبعها، لكنهما اليوم، على ما يبدو، تبادلا حتى الطبائع. "كانت والدتها إسبانية، حسب ما اعتقد، كما يدل على ذلك دينها. أما والدها، فكان، عندما عرفته، واحداً من أتباع الكنيسة المشيخية[64] المتشددين. لكن الاسم جميل وناعم".

"لكنها صغيرة في السن! أصغر مني بعام وشهرين، أي بعمر إيديث عندما خطبها النقيب لينوكس. أبي، سنذهب لزيارتهم في إسبانيا".

هز رأسه. لكنه عاد وقال، "إن أردت ذلك، لكن دعينا نعود إلى هنا. فمن الظلم والقسوة أن نترك والدتك الآن ـ التي طالما كرهت للأسف ميلتِن كثيراً ـ راقدة هنا، ولا تستطيع الذهاب معنا. كلا، يا عزيزتي؛ ستذهبين أنت وتزورينهم، وتعطيني عند عودتك تقريراً مفصلاً عن كنّتي الإسبانية".

"لا، يا أبي، لن أذهب من دونك. من سيرعاك في غيابي؟".

"أود أن أعرف من يرعى من. لكن إن ذهبت، سأقنع السيد ثورنتِن بإعطائه دروساً مضاعفة. سنعمل على دراسة النصوص الكلاسيكية على وجه الخصوص. وهذا سيكون عملاً متواصلاً. يمكنك، إن أحببت، الذهاب لزيارة إيديث في كورفو".

لم ترد عليه مارغريت مباشرة، ثم قالت بنبرة حزينة: "شكراً، يا أبي. لكني لا أريد الذهاب. آمل أن ينجح السيد لينوكس كي يتمكن فريدريك من اصطحاب دولوريس إلى هنا عندما يتزوجان. أما بالنسبة إلى إيديث، فلن تبقى فرقة زوجها هناك لفترة أطول في كورفو. ربما نراهم هنا قبل أن ينقضي عام آخر".

---

(64) المشيخية أو النظام المشيخي أو البريسبيتاريّة (*Presbyterian*) تشير إلى كنائس مسيحية عدة تتبع تعاليم العالم اللاهوتي البروتستانتي جون كالفين (1509-1564)تُعدُّ جزءاً من التقليد المُجَدَّد في البروتستانتية ترجع أصوله إلى المملكة المتحدة، وتحديداً إلى اسكوتلندا. يركّز لاهوت المشيخيّة عادةً على مقدرة الله، وحُكم النصّ، وضرورة البركة عن طريق الإيمان بالمسيح. (م)

وصلـت موضوعـات السـيد هيـل إلى نهايتهـا. اسـتولت عـلى ذهنـه ذكريـات مؤلمـة دفعتـه إلى الصمـت. راحـت مارغريـت تدريجيـاً تحدثـه:

"أبي...هـل رأيـت نيكـولاس هيغينـز في الجنـازة؟ كان حـاضراً، ومـاري أيضـاً. المسـكين، هكـذا كانـت طريقتـه في التعبـير عـن تعاطفـه معنـا. لديـه قلـب حنـون دافـئ رغـم مـا يُظهـره مـن خشـونة وقسـوة".

"لا شـك لـدي في ذلـك"، أجـاب السـيد هيـل. رأيـت كل ذلـك فيـه حتـى عندمـا حاولتِ أن تقنعينـي بـكل الصفـات السـيئة فيـه. سـنذهب غـداً لزيارتهـم، إن كنـت قويـة بمـا يكفـي لتمـشي كل تلـك المسـافة".

"بـلى، أريـد زيارتهـم. لم ندفـع لمـاري أجرهـا...أو بالأحـرى رفضـت أن تأخـذه كـما قالـت ديكسِـن. سـنذهب للقائـه بعـد العشـاء، وقبـل أن يذهـب إلى العمـل".

ومع اقتراب حلول المساء، قال السيد هيل:

"كنـت إلى حـد مـا أتوقـع قـدوم السـيد ثورنـتِن. تحـدث أمـس عـن كتـاب لديـه أريـد أن أراه. قـال لي إنـه سـيحاول أن يجلبـه لي اليـوم".

تنهّـدت مارغريـت. كانـت تعلـم أنـه لـن يـأتي. سـيكون أقـوى مـن أن يجـازف بفرصـة اللقـاء بهـا وعاَرهـا الـذي لَـمَّا يـزل غضـاً طريـاً في ذاكرتـه. كان مجـرد ذكـر اسـمه كافيـاً كي يجـدّد اضطرابهـا، ويعيدهـا إلى الشـعور بالإنهـاك المهمـوم والمُحبـط. استسـلمت لحالـة مـن التراخـي والكسـل. وفجـأة خطـر لهـا أن هـذه طريقـة غريبـة لتُظهـر صبرهـا، أو تكافـئ والدهـا عـلى رعايتـه لهـا طـوال النهـار. فجلسـت مشـدودة الظهـر، وعرضـت عـلى والدهـا أن تقـرأ لـه بصـوت عـال. كانـت عينـاه متعبتـين، وقبـل عرضهـا بـسرور. قـرأت جيـداً، وشـددت عـلى المقاطـع المناسـبة، لكـن لـو أن أحـداً سـألها متـى انتهـت، ومـا معنـى الـذي كانـت تقـرأه، لمـا اسـتطاعت أن تجيبـه. فقـد عصـف بهـا شـعور بعـدم الامتنـان للسـيد ثورنـتِن، يـوازي مقـدار رفضهـا، هـذا الصبـاح، قبـول العطـف الـذي أبـداه في الاستفسـار مجـدداً مـن الأطبـاء كي يمنـع إجـراء تحقيـق. كانـت ممتنـة لـه! كانـت جبانـة وكاذبـة، وأظهـرت جبنهـا وزيفهـا عمليـاً وعـلى نحـو لا يمكـن وصفـه، لكنهـا لم تكـن ممتنـة لـه. كان هـذا كافيـاً كي يتوهـج قلبهـا لتعـرف شـعورها حيـال شـخص يمتلـك سـبباً لازدرائهـا. لديـه سـبب

منصـف كي يحتقرهـا إلى درجـة كانـت سـتحترمه عـلى نحـو أقـل لـو أنهـا ظنـت أنـه لا يحتقرهـا. كان أمـراً مفرحـاً لهـا أن تشـعر باحترامهـا لـه. لم يسـتطع أن يمنعهـا مـن فعـل ذلـك، فهـذه كانـت الراحـة الوحيـدة في هـذا البـؤس الـذي كانـت تشـعر فيـه. وفي وقـت متأخـر مـن ذلـك المسـاء، وصـل الكتـاب المنتظَـر "مـع تحيـات السـيد ثورنـتِن، ورغبتـه بالاطمئنـان عـلى صحـة السـيد هيـل".

"قولي له يا ديكسِن، أنا أفضل حالاً، لكن الآنسة هيل..."

"كلا يا أبي، لا تقل شيئاً عني. هو أصلاً لم يسأل".

"يـا طفلتـي العزيـزة، إنـك ترتجفـين!" قـال والدهـا بعـد دقائـق عـدة. "عليـك الذهـاب إلى السريـر فـوراً. لقـد أصبحـت شـاحبة".

لم ترفـض مارغريـت هـذه المـرة الذهـاب إلى النـوم، رغـم أنهـا كانـت ممتعضـة مـن تـرك والدهـا لوحـده. كانـت بحاجـة للاختـلاء بنفسـها بعـد يـوم مـن التفكـير المُضنـي، والتوبـة الأشـد إرهاقـاً.

غـير أن شـيئاً كبـيراً لم يتغـير في اليـوم التـالي، فالقلـق والحـزن والهـم والـشرود بـين الحـين والآخـر لم تكـن علامـات غـير طبيعيـة في الأيـام الأولى مـن الحـزن. وبالتـوازي مـع اسـتعادتها عافيتهـا، عـاد والدهـا إلى تأملاتـه الشـاردة بزوجتـه التـي فقدهـا، وعـن تلـك الحقبـة مـن المـاضي التـي أُغلقـت مـن حياتـه للأبـد.

الاتحاد لا يعني دائماً القوة

في الموعد المتفق عليه في اليوم السابق، انطلقا في مسيرهما لزيارة نيكولاس هيغينز وابنته. تذكرا ما فقداه مؤخراً بنوع من الخجل الغريب من ملابسهما الجديدة، وفي الواقع كانت هذه هي المرة الأولى منذ أسابيع عدة التي يخرجان فيها سوية عن قصد. وكانا قريبين جداً من بعضهما بعضاً بتعاطف صامت.

كان هيغينز جالساً بجانب موقد النار في زاويته المعتادة، لكن من دون غليونه. كان يسند رأسه على يده وذراعه على ركبته. لم ينهض من جلسته عندما رآهما، على الرغم من أن مارغريت لمحت ترحيبه بقدومهما في عينيه.

"اجلسا، اجلسا، النار مشتعلة" قال وهو يحرك الحطب، وكأنه يريد أن يصرف الانتباه عنه. كان مرتبكاً إلى حد كبير بلحية سوداء لم تمسها الموسى منذ عدة أيام، مما زاد وجهه شحوباً وكان يرتدي جاكيتاً يحتاج إلى الرتق.

"ارتأينا أننا نملك فرصة جيدة لرؤيتك بعد الغداء"، قالت مارغريت.

"كان لدينا أحزاننا أيضاً منذ أخر مرة رأيتك فيها"، قال السيد هيل.

"أجل، أصبحت الأحزان أكثر من وجبات الطعام الآن، كما أظن، فقد أصبح غدائي يمتد على النهار بطوله، لذلك كوني واثقة بأنك ستجدينني في المنزل".

"أنت عاطل من العمل؟" سألته مارغريت.

"نعم"، أجابها باختصار، وبعد فترة من الصمت، أضاف وهو ينظر إليها للمرّة الأولى: "لا أحتاج إلى النقود. ألا تعتقدين كذلك. بيسي، الفتاة المسكينة، كانت تخبئ صرة من النقود تحت وسادتها، وقعت في يدي في آخر دقيقة، وماري تعمل في قص نسيج الفُستيان. لكني ما أزال عاطلاً من العمل، كما كنت".

"نحـن مدينـون لمـاري ببعـض المـال". قـال السـيد هيـل، قبـل أن تضغـط مارغريـت عـلى ذراعـه بقـوة لتمنعـه مـن الـكلام.

"إن أخـذت المـال، سـأطردها خـارج البيـت. سـأبقى داخـل هـذه الجـدران الأربعـة، وهـي سـتبقى خارجهـا، هـذا..."

"لكننـا مدينـون بالشـكر لهـا عـلى خدمتهـا الطيبـة". بـدأ السـيد هيـل الـكلام مـرة ثانيـة.

"لم أشـكر يومـاً ابنتـك عـلى حبهـا لابنتـي المسـكينة. لم أسـتطع أن أجـد الكلـمات المناسـبة، ويبـدو سـأبدأ بالمحاولـة الآن، إن بـدأت تعمـل مـن الحبـة قبـة حـول القليـل الـذي اسـتطاعت مـاري أن تخدمكـم بـه".

"هل أنت من دون عمل بسبب الإضراب؟"

"انتهـى الإضراب، في الوقـت الحـالي. لكنـي مـا أزال مـن دون عمـل، لأننـي لم أطلبـه، ولم أطلبـه لأن الكلـمات الطيبـة باتـت نـادرة، أمـا الخبيثـة، فـما أكثرهـا".

كان في مـزاج مناسـب ليسـتمتع بتقديـم أجوبـة شـبيهة بالألغـاز. لكـن مارغريـت رأت أنـه يحـب أن يُطلـب منـه التوضيـح.

"والكلمات الطيبة هي...؟"

"أن تطلـب عمـلاً. أظـن أنهـا تـكاد تكـون أفضـل الكلـمات التـي يسـتطيع الرجـال قولهـا. "أعطنـي عمـلاً" تعنـي "وأنـا سـأقوم بـه كرجـل". هـذه هـي الكلـمات الطيبـة".

"والكلمات الخبيثة هي تلك التي تحرمك العمل عندما تطلبه".

"أجـل. تقـول الكلـمات الخبيثـة "أيها الشـاب الرائـع! كنت صادقـاً ومخلصـاً لجماعتك، وأنـا سـأكون كذلـك مـع جماعتـي. فعلـت أفضـل مـا اسـتطعت لتسـاعدهم؛ أي كنـت مخلصـاً لمـن هـم مـن طينتـك إلى حدٍّ كبـير، وسـأكون كذلـك لمـن هـم مـن طينتـي. كنـت أحمـقَ مسـكيناً، لم تعـرف مـا هـو الأفضـل، ولم تكـن أحمـقَ صادقـاً مخلصـاً. اذهـب، وأمِّـن قروشـك بنفسـك، لا عمـل لـك هنـا". هـذه هـي الكلـمات الخبيثـة. لسـت أحمـقَ، وإن كنـت حقـاً، كان يجـب عـلى هـؤلاء النـاس أن يعلمـوني كيـف أكـون حكيـماً عـلى طريقتهـم. ربمـا كنـت تعلمـت لـو أن أحدهـم حـاول أن يعلمني".

"ألـن يكـون مـن الأجـدى"، سـأله السـيد هيـل، "أن تطلـب مـن سـيدك القديـم أن يعيـدك إلى العمـل؟ قـد تكـون فرصـة ضعيفـة، لكنهـا تبقـى فرصـة".

نظر مرة أخرى، نظرة حادة إلى السائل، ثم أطلق ضحكة مريرة مكبوتة.

"يا سيد! إن لم يكن هناك أي إزعاج، سأسألك بدوري سؤالاً أو اثنين".

"تفضل"، قال السيد هيل.

"أظـن أن لديـك طريقـة مـا لتكسـب لقمـة عيشـك. إذ قلـما يعيـش النـاس في ميلـتِن مـن أجـل المتعـة، إن كان بمقدورهـم العيـش في مـكان آخـر".

"أنـت محـق تمامـاً، فلـدي عقـار خـاص بي، لكنـي أتيـت للاسـتقرار في ميلـتِن كي أصبح مدرسـاً خاصاً".

"كي تـدرس النـاس. حسـناً! وأظـن أنهـم يدفعـون لـك مقابـل تدريسـهم، أليـس كذلـك؟".

"نعم"، أجاب السيد هيل مبتسماً. "أدرسهم كي يدفعوا لي المال".

"وأولئـك النـاس الذيـن يدفعـون لـك، ألا يقولـون لـك مـاذا عليـك أن تفعـل، أو لا تفعـل بالمـال الـذي يدفعونـه مقابـل أتعابـك، في مقايضـة عادلـة؟".

"لا، بالتأكيد لا!".

"ألا يقولـون لـك، "قـد يكـون لديـك أخ، أو صديـق عزيـز بمنزلـة الأخ الـذي يحتـاج نقـوداً لغايـة مـا تراهـا أنـت وهـو محقـة، ولكـن يجـب عليـك أن تتعهـد بعـدم تقديـم المـال لـه. ربمـا تـرى ذلـك أمـراً صالحـاً، كـما تعتقـد، بـأن تقـدم لـه المـال، لكننـا لا نـراه كذلـك، فـإن أنفقـت المـال لهـذا الغـرض، لـن نتعامـل معـك، ألا يقولـون ذلـك؟".

"قطعاً لا!"

"هل ستقبل ذلك، إن قالوها؟".

"سـيكون ذلـك نوعـاً مـن القـسر الـذي سـيجعلني أفكـر حتـى في الخضـوع لهـذه الإمـلاءات".

"لا توجـد قـوة في هـذه الأرض الواسـعة تجعلنـي أخضـع"، قـال نيكـولاس هيغينـز.

"الآن أدركت ما أعنيه. لقد أصبت عين الحقيقة. فالسيد هامبر الذي كنت أعمل لديه، يجبر العمال على التعهد بعدم تقديم المال للاتحاد، أو إنقاذ المضربين عن العمل من التضور جوعاً. يمكنهم أن يتعهدوا ويتعهدوا"، تابع كلامه بنبرة تعبر عن الاحتقار؛ "لكنهم بذلك لا يصنعون إلا الكذابين والمنافقين، وهذا أقل الخطايا، بالنسبة لي، أن تجعل قلوب الناس قاسية حتى لا يتعاطفوا مع بعضهم بعضاً، عند الحاجة، أو أن يقدموا يد العون في قضية عادلة، حتى يعودوا أقوياء مرة ثانية. لكني لن أقبل على نفسي عملاً يعطيني إياه الملك. أنا عضو في الاتحاد، وأعتقد أنه الشيء الوحيد الذي يخدم صالح العمال. وأنا كنت واحداً من المضربين عن العمل، وأعرف كيف يكون التضور جوعاً، فإن كان عندي شلن واحد، سأعطي ست بنسات منه للاتحاد، إن طلبوها مني. والنتيجة، لا أعرف أين أحصل على هذا الشلن[65]".

"وهل هذا الأمر بعدم مساعدة الاتحاد بات مُطبقاً في جميع المصانع؟".

"لا أستطيع الجزم بذلك. إنه قانون جديد في مصنعنا. لكن سيكتشفون أنهم لن يستطيعوا الالتزام به. لكنه مطبق حالياً. وشيئاً فشيئاً، سيجدون أن الطغاة يصنعون المنافقين".

سادت فترة من الصمت. ترددت مارغريت إن كان يجب عليها أن تقول ما يجول في خاطرها؛ إذ لم تكن ترغب في مضايقة شخصٍ طالما كان يائساً وكئيباً بما فيه الكفاية. لكنها نطقت أخيراً، ولكن بنبرة لطيفة، وبطريقتها المترددة التي تُظهر أنها لا تريد أن تقول شيئاً مُسيئاً، أو يثير حفيظة هيغينز، وإنما إرباكه فحسب.

"هل تتذكر باوتشر عندما قال إن الاتحاد طاغية؟ بل أظنه قال أسوأ الطغاة على الإطلاق. كما أذكر أني وافقته الرأي حينذاك".

صمت لفترة طويلة قبل أن يتكلم. كان يضع رأسه بين يديه ويحملق في النار، فلم تستطع مارغريت أن تقرأ تعابير وجهه.

---

(65) حتى العام 1971 كان الجنيه الإسترليني يضم عشرين شلناً، وكل شلن يضم اثني عشر بنساً. (م)

"لـن أنكـر إلا مـا يجـده الاتحـاد ضروريـاً لإجبـار العامـل عـلى مـا يخـدم مصلحـة هـذا العامـل. سـأقول الحقيقـة. يعيـش العامـل حيـاة صعبـة، إن لم يكـن في الاتحـاد. لكـن حالمـا ينضـم إلى الاتحـاد، سـتُراعى مصالحـه عـلى نحـو أفضـل مـما لـو كان يرعاهـا بنفسـه، أو مـن أجـل نفسـه. إنهـا الطريقـة الوحيـدة التـي يمكـن للعـمال بوسـاطتها تحصيـل حقوقهـم، مـن خـلال توحدهـم. كلـما زاد عـدد الأعضـاء، زادت فرصـة كل واحـد منهـم منفـرداً للحصـول عـلى حقـه. تعتنـي الحكومـة بالحمقـى والمجانـين، وإن حـاول أي واحـد منهـم أن يـؤذي نفسـه أو جـاره، تضـع لـه حـداً وتمنعـه، شـاء أم أبى. وهـذا مـا يقـوم بـه الاتحاد.صحيـح أننـا لا نسـتطيع أن نـزج أحـداً بالسـجون، لكـن باسـتطاعتنا أن نجعـل حياتـه صعبـة لا تُطـاق، حتـى ينصـاع، ويصبـح حكيـماً وصالحـاً رغـماً عنـه. باوتـشر كان أحمـقَ عـلى الـدوام، وليـس أكـثر حماقـة مـما كان عليـه في النهايـة".

"لقد آذاك؟" سألته مارغريت.

"أجـل، آذاني. كان الـرأي العـام معنـا، حتـى بـدأ ومـن هـم عـلى شـاكلته أعـمال الشـغب ومخالفـة القانـون. وهكـذا انتهـى الإضراب".

"ألم يكـن مـن الأفضـل لـو تركتـه وشـأنه، ولم تجـبره عـلى الانضـمام إلى الاتحـاد. لم يكـن ذلـك في صالحـك، وأنـت أثـرت جنونـه".

"مارغريـت" نبّههـا والدهـا بصـوت منخفـض، لأنـه رأى العاصفـة تتجمـع عـلى وجـه هيغينـز.

"تعجبنـي" قـال هيغينـز فجـأة. "إنهـا تتكلـم بصراحـة عـما يجـول في رأسـها. لكنهـا لا تسـتوعب مـا الهـدف مـن الاتحـاد. إنـه قـوة عظيمـة، بـل قوتنـا الوحيـدة. قـرأت ذات مـرة شـعراً عـن فـلاح يدمـر حقـلاً مـن الأقحـوان، جعـل الدمـع ينسـاب مـن عينـي، قبـل أن يكـون لـدي سـبب آخـر للبـكاء. لكـن الفـلاح لم يوقـف محراثـه، كـما كنـت أتمنـى، لأنـه لم يكـن يكـترث للأقحـوان. الاتحـاد هـو المحـراث الـذي يعـد الأرض مـن أجـل الحصـاد. ومثـل باوتـشر ـ الـذي سـترفعين مـن شـأنه كثـيراً إن عددتـه أقحوانـاً، فهـو ليـس أكـثر مـن عشـب ضـار يزحـف عـلى الأرض ـ يجـب أن نزيحهـم

مـن الطريـق. أنـا في خـلاف كبـير معـه الآن، ولذلـك لا أتكلـم عنـه بإنصـاف. لـدي رغبـة بـأن أمـرر محراثـاً فوقـه، بـكل فـرح وسرور".

"لماذا؟ ماذا كان يفعل؟ هل من شيء جديد؟".

"بالتأكيـد، فهـذا الرجـل لا يخلـو مـن المشـكلات أبـداً. فهـو يثـور ويهتاج مثـل الأحمق المجنـون، ثـم يحـرض عـلى أعـمال الشـغب. وبعـد ذلـك يختبـئ، وكان سـيبقى حبيـس مخبئـه لـو أن ثورنـتِن لاحقـه، كـما كنـت أتمنـى. لكـن ثورنـتِن، ولغايـة في نفسـه، لم يتابـع ملاحقـة مـن شـاركوا في أعـمال الشـغب قضائيـاً. فعـاد باوتـشر إلى منزلـه، لكنـه لم يخـرج منه ليـوم أو يومـين. كان يشـعر بالفخـر. بعـد ذلـك، احـزري إلى أيـن ذهـب؟ إلى مصنـع هامـبر. اللعنـة عليـه! ذهـب منافقـاً مـما جعلنـي أقـرف حتـى مـن النظـر إليـه، يطلـب عمـلاً، وهـو يعلـم تمامـاً القانـون الجديـد بـأن لا يعطـي شـيئاً لأعضـاء الاتحـاد، وألا يسـاعد مـن شـاركوا في الإضراب! رغـم أنـه كان سـيموت جوعـاً لـو لم يسـاعده الاتحـاد في محنتـه. ذهـب إلى هنـاك ليتعهـد ويلـزم نفسـه، وأن يبلغهـم بـكل تحركاتنـا، هـذا اليهـوذا الـذي لا ينفـع لـشيء. لكنـي سـأقول هـذا لهامـبر، وأشـكره عليـه حتـى يـوم ممـاتي، طـرد باوتـشر، ولم يسـتمع إليـه، ولا حتـى كلمـة واحـدة. وأخـبرني مـن حـضروا اللقـاء، أن الخائـن راح يبـكي مثـل الأطفـال".

"يـا اللـه، كـم هـو مريـع! ومثـير للشـفقة!" تعجبـت مارغريـت. "هيغينـز، لا أظـن أني أعرفـك اليـوم. ألا تـرى كيـف جعلـت باوتـشر كي يكـون مـا هـو عليـه الآن، بـأن أجبرتـه عـلى الانضـمام إلى الاتحـاد، مـن دون أن يكـون مقتنعـاً. أنـت مـن جعلتـه مـا يكونـه الآن".

"جعلته ما يكون! وما كان هو؟"

تناهـى إلى مسـامعهم صـوت أجـوف ذو إيقـاعٍ مـوزون فـرض نفسـه عـلى انتباههـم كان يتجمـع عـلى طـول الطريـق. أصـوات عديـدة هادئـة ومنخفضـة، ومعهـا سـمعوا صـوت خطـوات لا تتحـرك إلى الأمـام؛ عـلى الأقـل ليـس بسرعـة الحركـة ووثباتهـا، بـل كأنهـا تـدور حـول بقعـة واحـدة. أجـل، كان هنـاك صـوت تحـرك أقـدام واضـح جعـل نفسـه مسـموعاً عـبر الهـواء، ووصـل إلى أذانهـم؛ مشـية مضبوطـة متعبـة لرجـال

يحملون عبئاً ثقيلاً. اندفع ثلاثتهم إلى باب المنزل بدافع لا يُقاوَم، قادهم قسراً إلى هناك ليس من باب الفضول ولكن بما يشبه طاقة هادئة رصينة.

كان هناك ستة رجال، ثلاثة منهم من الشرطة، يسيرون في وسط الشارع. كانوا يحملون فوق أكتافهم باباً، نُزِعَ من إطاره، ورقد فوقه مخلوق بشري ميت، وكانت قطرات من الماء تتساقط من على جانبي الباب. خرج كل من كان يسكن في الشارع ليتفرج ويرافق الموكب، وراح كل واحد يسأل الحاملين الذين أجابوا على مضض في نهاية المطاف، حتى أنهم أعادوا سرد الحكاية أكثر من مرة.

"وجدناه في الساقية في الحقل هناك".

"الساقية! ليس فيها ماء يكفي ليغرق!"

"كان شاباً قوي الإرادة. كان منكباً على وجهه. قرف من الحياة، واختار أن يموت".

اقترب هيغينز إلى جانب مارغريت، وقال بصوت ضعيف هادئ: "هذا ليس جون باوتشر؟ لم يكن يمتلك هذه الشجاعة. أنا متأكد.اسمعي! عيناه تنظران إلى هذه الناحية. هناك شيء ما يطن في رأسي، لا أستطيع أن أسمع".

أنزلوا الباب بكل حذر ووضعوه على الصخور كي يتسنى للجميع مشاهدة الغريق المسكين؛ عيناه الزجاجيتان، إحداهما نصف مفتوحة تحدق يميناً نحو السماء. وبسبب الوضعية التي عُثر عليها ميتاً، كان وجهه متورماً مشوه اللون، كما كانت بشرته ملطخة بمياه النهر التي كانت تستخدم في الصباغة. كانت مقدمة رأسه صلعاء، في حين كان الشعر ناعماً طويلاً عند المؤخرة، وكانت كل خصلة على حدة قد تحولت مسرباً للمياه. ورغم هذا التشويه، تعرفت مارغريت على جون باوتشر. بدا لها من الكفر أن تتلصص على الوجه المشوّه، والمعذّب للرجل المسكين، فسارعت بغريزتها وتقدمت لتضع منديلها بكل هدوء على وجهه. الأعين التي راقبت ما فعلته تابعتها عندما عادت من أداء شعيرتها الدينية، وحتى وصولها إلى حيث كان يقف هيغينز الذي بدا كما لو كان متجذراً في مكانه. تكلم الرجال في ما بينهم، ثم توجه أحدهم إلى هيغينز، الذي كان يتمنى لو يعود إلى داخل منزله.

"هيغينز، أنت تعرفه! يجب عليك أن تخبر زوجته. افعل ذلك برفق، يا رجل، ولكن بسرعة، لأنه لا يمكننا أن نتركه هنا لفترة طويلة".

"لا أستطيع الذهاب"، قال هيغينز. "لا تطلبوا مني ذلك، لا أستطيع أن أواجهها".

"لكنك تعرفها"، قال الرجل. "لقد تعبنا كثيراً في إحضاره إلى هنا، والآن جاء دورك".

"لا يمكنني القيام بذلك"، قال هيغينز. "أنا لا أطيق النظر إليه. لم نكن أصدقاء؛ والآن هو رجل ميت".

"إن كنت لا تريد الذهاب، فلابد من أحد آخر. إنها مهمة كريهة، لكنها فرصة. فكل دقيقة تمر والزوجة لا تسمع بالخبر بطريقة قاسية، ولا أحد يذهب لينقل لها النبأ بالتدريج".

"هلا ذهبت يا أبي"، قالت مارغريت بصوت منخفض.

"إن استطعت...لو أتيح لي الوقت لأفكر بما يجب قوله، لكن هكذا فجأة...".

لاحظت مارغريت أن والدها كان يرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

"أنا سأذهب"، قالت مارغريت.

"باركك الله يا آنسة، إنه تصرف لطيف، لأن زوجته، كما سمعت، مريضة، ولا يعلم سوى عدد قليل من الناس هنا عنها".

طرقت مارغريت الباب المغلق، لكن كانت هناك ضجة أطفال صغار مشاغبين، فلم تسمع أي جواب، حتى أنها شكّت أن يكون أحد في الداخل قد سمعها. ومع كل دقيقة انتظار تثنيها عن مهمتها أكثر وأكثر، فتحت الباب ودخلت وأغلقته، ثم أعادت المزلاج من دون أن تراها المرأة.

كانت السيدة باوتشر جالسة على كرسي هزاز على الطرف الأخر من الموقد. بدا المنزل وكأن يداً لم تمتد لتنظفه منذ أيام عدة.

قالت مارغريت شيئاً لم تدر ما هو. كان حلقها وفمها جافين، وغطت جلبة الأطفال على صوتها فلم يسمعها أحد، فحاولت مرة ثانية.

"كيف حالك، سيدة باوتشر؟ أخشى أنك لست على ما يرام".

"آمل أن أكون بخير"، قالت شاكية. "تُركت وحيدة لأرعى هؤلاء الأطفال، وليس لدي شيء أعطيهم كي يسكتوا. ما كان يجب على جون أن يتركني في هذه الحالة البائسة".

"كم مضى على غيابه؟".

"أربعة أيام. لا أحد يرضى أن يعطيه عملاً هنا، فرحل يبحث عن عمل في غرانفيلد. لكن كان من المحتمل أن يكون قد عاد، أو أرسل يخبرني أنه حصل على عمل. ربما هو..."

"لا تلوميه"، قالت مارغريت. "أنا متأكدة بأنه كان يشعر بمعاناتك...".

"هلا سكت عن الصراخ، وتركتني أسمع السيدة تتكلم!" قالت، وهي تخاطب نفسها بنبرة قاسية، لطفل مشاكس لا يتجاوز عمره عاماً واحداً. تابعت كلامها تسوِّغ تصرفها لمارغريت، "لا ينفك يبكي ويشكو، يسألني "أين بابا"، ويريد أن أعطيه "سندويشة". ليس عندي ما أطعمه، وأبوه ذهب، ونسينا، كما أتصور. إنه حبيب والده". قالت في تبدل مفاجئ في مزاجها، وحملت الطفل فوق ركبتها، وراحت تقبله بحب.

وضعت مارغريت يدها على ذراع المرأة لتلفت انتباهها. تلاقت عيناهما.

"يا للطفل المسكين!" قالت مارغريت بهدوء؛ "كان حبيب والده".

"إنه حبيب والده"، قالت المرأة، وهي تنهض على عجل، وتقف وجهاً لوجه أمام مارغريت. بقيتا صامتتين لدقيقة أو دقيقتين. تابعت السيدة باوتشر حديثها وهي تزمجر بصوت منخفض أخذ يزداد شراسة: "إنه حبيب والده، أقول لك. حتى الفقراء يحبون أطفالهم، مثل الأغنياء. لِمَ لا تتكلمين؟ لِمَ لا تنظرين إلي بعينيك الواسعتين المثيرتين للشفقة؟ أين جون؟" رغم ضعفها، هزت بيدها مارغريت لتنتزع منها جواباً. "يا إلهي!" قالت وقد أدركت معنى تلك النظرة الدامعة، وغاصت في كرسيها. أخذت مارغريت الطفل بين ذراعيها.

"كان يحبه كثيراً".

"أجل"، قالت المرأة وهي تهز رأسها، "أحبنا جميعاً. كان هناك من يحبنا منذ

وقت طويل. لكنه عندما كان حياً ومعنا، أحبنا جميعاً، أحب هذا الطفل ربما أكثر منا جميعاً، لكنه أحبني، وأحببته، رغم أنني قلت عنه قبل خمس دقائق إنه رحل ونسينا. هل أنت متأكدة من أنه مات؟" قالت وهي تحاول النهوض. "إن كان مريضاً على وشك الموت، يمكنهم أن يحضروه إلى هنا. لكنني أنا مريضة أيضاً، ومنذ فترة طويلة".

"لكنه مات...غرقاً".

"حتى الناس الذين يموتون غرقاً يحضرونهم إلى بيوتهم. ما هذا الذي أفكر به! أن أجلس ساكنة في حين يجب علي أن أفعل شيئاً؟ هنا معك، يا طفلي معك! خذ هذه، خذ لتلعب بها، لكن لا تبكِ وقلبي يتصدع! أين ذهبت قوتي؟ آه يا جون...يا زوجي!".

أنقذتها مارغريت من السقوط على الأرض عندما تلقفتها بذراعيها. جلست على الكرسي الهزاز، وأمسكت بالمرأة بين ركبتيها، ورأسها ملقىً على كتف مارغريت. تجمَّع الأطفال الآخرون وقد أصابهم الذعر، وبدأوا يفهمون غموض المشهد أمامهم، وإن كان ببطء لأن أدمغتهم كانت خاملة وغير قادرة على الاستيعاب. ثم راحوا يبكون بحرقة ويأس حالما وعوا الحقيقة. كان بكاء جون الصغير أعلاهم رغم أنه لم يكن يعرف لِمَ كان الصغير المسكين يبكي.

ارتعشت الأم مستلقية بين ذراعي مارغريت التي سمعت ضجة عند الباب.

"افتحوا الباب، افتحوه بسرعة"، قالت مارغريت"، لأكبر الأطفال سناً. "إنه مقفل بالمزلاج؛ لا تضجوا...ابقوا هادئين. أبي! دعهم يصعدون إلى الطابق الأعلى بهدوء وحذر ربما لن تسمعهم. لقد أغمي عليها، هذا كل شيء".

"هذا أفضل لها، المسكينة"، قالت المرأة التي دخلت مباشرة بعد حَمَلة الميت. "لكنك غير قادرة على الإمساك بها. انتظري، سأحضر وسادة، ونضعها على الأرض".

كانت هذه الجارة المتعاونة مصدر ارتياح كبير لمارغريت؛ كان واضحاً أنها غريبة على المنزل، وافدة جديدة على الحي، لكنها بالفعل كانت لطيفة وحنونة حتى

أن مارغريت شعرت بأنه لم يعد هناك مُسوِّغ لوجودها، وأنه من الأفضل، ربما، أن تكون البادئة بإخلاء المنزل الذي غص بالمتطفلين الكسالى، وإن كانوا يتعاطفون مع المرأة المفجوعة.

تلفتت حولها بحثاً عن نيكولاس هيغينز. لم يكن موجوداً. تحدثت مع المرأة التي بادرت بوضع السيدة باوتشر على الأرض.

"هل طلبت من هؤلاء الناس بأنه من المستحسن أن يغادروا بهدوء؟ وبالتالي لا تجد حولها عندما تصحو سوى واحد أو اثنين تعرفهم. أبي، تكلم مع الرجال، وقل لهم أن يخرجوا. إنها لا تستطيع التنفس، المسكينة، وكل هذا الحشد من الناس حولها".

كانت مارغريت جاثية بجانب السيدة باوتشر تمسح وجهها بالخل، لكن وفي غضون دقائق فوجئت بدفق من الهواء المنعش يجتاح المنزل. التفتت حولها، فلمحت ابتسامة متبادلة بين أبيها والمرأة الأخرى.

"ما الأمر؟" سألت مارغريت.

"إنها صديقتنا الطيبة هنا"، أجاب والدها، "لقد وجدت طريقة رائعة لإخلاء المنزل".

"طلبت منهم أن يغادروا، ويأخذ كل واحد منهم طفلاً، وأن يترفقوا بهم لأنهم يتامى، وأمهم أرملة. وهكذا سيجد الأطفال الطعام والحنان اليوم. هل تعلم زوجته كيف مات؟".

"لا"، قالت مارغريت؛ "لم استطع إخبارها كل شيء دفعة واحدة".

"يجب إخبارها بذلك من أجل التحقيق. انظري! بدأت تصحو. أتخبرينها أنت أم أخبرها أنا؟ أو ربما من الأفضل أن يخبرها والدك".

"لا؛ أخبريها أنت"، قالت مارغريت.

انتظروا بصمت حتى استعادت وعيها كاملاً، فجلست جارتها على الأرض، ورفعت رأس السيدة باوتشر وكتفيها على حضنها.

"يا جارتي،" قالت المرأة، "توفي زوجك، هل تعرفين كيف مات؟".

"غـرق"، قالـت السـيدة باوتـشر بصـوت واهــن، وبــدأت تبـكي لأول مــرة وهــي تتلمــس فاجعتهــا.

"وجـدوه غريقـاً. كان عائـدا إلى البيـت يائسـاً مـن كل شيء في هـذه الدنيـا. ظـن أن اللـه لا يمكـن أن يكـون أقـسى عليـه مـن النـاس، ربمـا ليـس قاسـياً إلى هـذا الحـد، ربمـا أرق وأحــن عليـه مـن أم، وربمــا أكـثر. لا أقـول إن مـا فعلـه كان صحيحـاً، ولا أقـول إنـه أخطـأ. كل مـا يمكننـي قولـه عسـاني لا أنـا ولا أطفـالي نُبتـلى بقلـب مـليء بالهـم والألم مثلـه، وإلا قـد نفعـل مـا فعـل".

"تركنـي وحيــدة مــع كل هــؤلاء الأطفــال!"، بكــت الأرملــة، ولكــن بانزعــاج عــلى طريقـة وفاتـه أقـل مــما توقعتـه مارغريـت، لكــن كان جـزءاً مـن طبيعتهـا اليائسـة أن تشـعر بتأثـير فقدانهـا لزوجهـا عليهـا وعـلى أطفالهـا.

"لسـت وحيـدة"، قـال السـيد هيـل بـكل رصانـة وهـدوء. "مـن سـيكون معـك؟ ومـن سـيرعاك؟" فتحـت الأرملـة عينيهـا عـلى اتسـاعهما، ونظـرت إلى المتحـدث الجديـد الـذي لم تكـن تـدري بوجـوده حتـى الآن.

"من وعد بأن يكون أبا لمن لا أب له؟"، تابع كلامه.

"لكــن يــا ســيد، لــدي ســتة أطفــال، لا يتعــدى أكبرهــم ثمــاني ســنوات. لا أقصــد التشـكيك بقدرتـه، يـا سـيدي،...لكن الأمـر يحتـاج قـدراً مـن الإيمـان"، وراحـت تبـكي مـن جديـد.

"سـتكون قـادرة عـلى الـكلام بشـكل أفضـل غـداً، يـا سـيد"، قالـت الجـارة. "لعـل أفضـل مـا سيواسـيها الآن أن تشـعر بطفلهـا الصغـير عـلى صدرهـا. أشـعر بالأسـف لأنهـم أخـذوه".

"أنـا سـأحضره"، قالـت مارغريـت. وخـلال دقائـق عـادت تحمـل جـوني الصغـير وقـد تلطـخ وجهـه بالطعـام، ويـداه تحمـلان أشـياء عـلى شـكل أصـداف، وقطـع مـن البللـور، ورأس تمثـال مـن الجـص. وضعتـه بـين ذراعـي والدتـه.

"حسـناً"، والآن يمكنكـما الذهـاب. سـيبكيان معـاً، ويـواسي أحدهـما الآخـر، الطفـل يقـدر عـلى ذلـك أفضـل مـن شـخص آخـر. سـأبقى هنـا معهـا طالمـا كانـت بحاجتـي.

إن أتيتم غداً، يمكنكما أن تتحدثا إليها. أما الآن فهي ليست مستعدة".

عندما خرجت مارغريت إلى الشارع، توقفا عند باب هيغينز المغلق.

"هل يمكننا الدخول؟" سأل أبيها. "كنت أفكر فيه أيضاً".

طرقا الباب، لكن أحداً لم يرد. حاولا فتح الباب لكنه كان موصداً بالمزلاج. سمعاه يتحرك داخل المنزل.

"نيكولاس!" قالت مارغريت. لم يرد أحد، وكانا على وشك أن يغادرا، لأنهما اعتقدا أن لا أحد في المنزل، لولا لم يسمعا صوت سقوط شيء ما، مثل كتاب، في الداخل.

"نيكولاس!" نادت مارغريت مجدداً. "هذا أنا وأبي. ألن تدعنا ندخل؟".

"لا"، قال لها نيكولاس، "قلت ما عندي بشكل بوضوح، باستخدام الكلمات، عندما أغلقت الباب. دعوني وحدي هذا اليوم".

كان السيد هيل يود أن يصر على رغبتهما بالدخول، لكن مارغريت وضعت سبابتها على شفتيها.

"لا أستغرب ذلك"، قالت. "أنا نفسي أتوق لأبقى وحدي، فهو أفضل شيء بعد يوم كهذا".

التوجه جنوباً

عندما جاءت مارغريت ووالدها في اليوم التالي للاطمئنان على الأرملة باوتشر، كان باب منزل هيغينز مغلقاً. لكنهما علما هذه المرة من جارة فضولية أن هيغينز كان بالفعل خارج المنزل، وأنه زار السيدة باوتشر قبل أن ينطلق إلى مشاغل يومه، أياً كانت. لم تكن زيارة السيدة باوتشر موفقة. فقد عَدَّت الأرملة أن زوجها بانتحاره عاملها معاملة سيئة، وكان هناك قدر كبير من الحقيقة في كلامها يصعب معها نكرانه. كما كان مخيباً للآمال أن يجدا كيف أن أفكارها تحوّلت بأكملها لتدور حول نفسها، وما آلت إليه حالتها، حتى إن هذه الأنانية انسحبت على علاقتها مع أطفالها الذين عدّتهم عبئاً ثقيلاً حتى في صميم حنانها الغريزي عليهم. حاولت مارغريت أن تتعرف على واحد أو اثنين من الأطفال، بينما كان والدها يسعى جاهداً كي يرفع تفكير الأرملة إلى مستو أعلى من مجرد هذا التشكي اليائس. وجدت مارغريت أن الأطفال كانوا أبسط وأكثر صدقاً في حزنهم من الأرملة. كان والدهم أباً عطوفاً؛ هذا ما قاله كل واحد منهم بلعثمته المتحمسة في الكلام عن رقة الأب الذي فقدوه وحنانه.

"هل هذا الشيء الموجود في الأعلى حقاً هو أبي؟ إنه لا يشبهه، لقد فزعت منه، وأنا لم أفزع من أبي أبداً".

أحست مارغريت بقلبها ينزف عندما سمعت أن الأم، وفي متطلباتها الأنانية للتعاطف، أخذت الأطفال إلى الطابق العلوي ليروا جثة أبيهم المشوه. كان مزيجاً من قسوة الرعب وعمق الحزن الطبيعي. حاولت مارغريت أن تُحوِّل تفكيرهم إلى مكان آخر؛ ماذا يمكنهم فعله لمساعدة والدتهم، أو ماذا كان

والدهـم يتمنـى منهـم أن يفعلـوه، وإن بـدا طـرح هـذا الأمـر فضوليـاً. كان النجـاح حليـف مارغريـت في مسـعاها أكـثر مـن أبيهـا. إذ رأى الأطفـال واجباتهـم ملقـاة أمـام أعينهـم، فبـدؤوا ترتيـب الغرفـة المتسـخة وتنظيفهـا. أمـا والدهـا فقـد وضـع مقياسـاً مجـرداً رفيـع المسـتوى أمـام المـرأة المريضـة المتعبـة. لم تسـتطع أن ترتقـي بعقلهـا الخامـل إلى تخيـلٍ حـي لحالـة البـؤس التـي ربمـا كان يمـر بهـا زوجهـا قبـل أن يقـدم عـلى تلـك الخطـوة المرعبـة. فهـي لم تنظـر إلى الأمـر إلا مـن زاويـة أنهـا الضحيـة. لم تسـتطع أن تتقبـل رحمـة اللـه الـذي لم يتدخـل ليمنـع المـاء مـن إغـراق زوجهـا الملقـي عـلى وجههـا، عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت تلومـه سراً لاستسـلامه لهـذا اليـأس القاتـل، وتُنكـر عليـه أي عـذر يُسـوِّغ تصرفـه الأخـير المتـسرع. كانـت عنيـدة في ذم كل مـن يُفـترض أن يكـون لهـم دور في دفـع زوجهـا إلى هـذا اليـأس. السـادة أصحـاب المصانـع ـ عـلى وجـه التحديـد السـيد ثورنـتِن الـذي كان مصنعـه عرضـة لهجـوم باوتـشر، والـذي سـحب مذكـرة الاعتقـال بحـق زوجهـا بتهمـة الشـغب، والاتحـاد الـذي كان يمثلـه السـيد هيغينـز، والأطفـال بكـثرة عددهـم وضجيجهـم وجوعهـم ـ كلهـم شـكلوا جيشـاً مـن الأعـداء الشـخصيين يتحملـون مسـؤولية أنهـا باتـت أرملـة عاجـزة، لا حـول لهـا ولا قـوة.

سـمعت مارغريـت مـا يكفـي مـن هـذا الجنـون ليزيدهـا حزنـاً. وعندمـا عـادا إلى البيـت، وجـدت أنـه بـات مـن المسـتحيل مواسـاة أبيهـا والتخفيـف عنـه.

"إنهـا الحيـاة في المدينـة"، قالـت مارغريـت. "أصبحـت أعصـاب النـاس متوتـرة بصخـبِ وتسـارعِ كل شيء مـن حولهـم، إن لم نقـل شـيئاً عـن سـجنهم في تلـك المنـازل المغلقـة التـي تكفـي بمفردهـا لأن تسـبب الاكتئـاب والقلـق. أمـا في الريـف، يقـضي النـاس وقتـاً أكـبر في الهـواء الطلـق، حتـى الأطفـال، وفي عـز الشـتاء".

"لكـن لا بـد للنـاس أن يعيشـوا في المـدن، وفي الريـف يكتسـب البعـض عـادات التفكـير القـدري الخاملـة".

"نعـم، هـذا صحيـح. أعتقـد أن كل نمـط حيـاة يفـرز تحدياتـه ومغرياتـه الخاصـة. فسـكان المدينـة يجـدون صعوبـة في التحـلي بالصـبر، في حـين يجـد سـكان الريـف حيـاة المدينـة متحركـة نشـطة عـلى نحـو يـوازي المسـتجدات الطارئـة غـير المتوقعـة.

إلا أن كليهما يجدان صعوبة في تحقيق مستقبل من أي نوع؛ الأول بسبب الحاضر الحي المتسارع والقريب منه؛ والثاني لأن الحياة تغريه بالاستمتاع بالوجود الحيواني، فلا يدرك، ومن ثم لا يهتم لمرارة هذه اللذة التي من أجل الحصول عليها، يخطط، ويحرم نفسه، ويتطلع إلى الأمام".

"وهكذا فإن كلاً من ضرورة الانشغال بأمور الحياة، والمضمون الفارغ للحاضر الراهن ينتجان التأثير نفسه. لكن هذه المسكينة السيدة باوتشر! لا نستطيع أن نقدم لها الكثير".

"ورغم ذلك، لا يمكن أن نتركها من دون أن نبذل جهدنا وإن كان عديم الجدوى. آه يا أبي! كم هو قاس هذا العالم الذي نعيش فيه!".

"إنه كذلك يا ابنتي، وبدأنا نشعر به الآن، لكننا كنا سعداء حتى في وسط حزننا. كم كانت مفرحة زيارة فريدريك!".

"بالفعل، كانت كذلك"، قالت مارغريت بفرح. "كانت أشبه بشيء ساحر مُحرَّمٌ علينا انتزعناه انتزاعاً". لكنها توقفت فجأة عن الكلام. فقد أفسدت بجُبنها ذكرى فريدريك. إذ كان الافتقار إلى الشجاعة واحداً من أكثر العيوب التي كانت تمقتها في الآخرين؛ ووضاعة ودناءة النفس التي تؤدي إلى الزيف والكذب. وهل كانت هنا تشعر بهذا الذنب؟

ثم خطر على بالها السيد ثورنتِن ومعرفته بكذبتها. وتساءلت إن كانت ستهتم بالقدر نفسه لو أن أي شخص آخر كان على دراية بما جرى. تخيلت ذلك مع خالتها شو وإيديث، ومع والدها، والنقيب لينوكس وشقيقه المحامي، ومع أخيها فريدريك. كان مجرد التفكير بأن يعرف أخوها أكثر إيلاماً، لأن حبهما الأخوي واحترامهما لبعضهما البعض كان في أول توهجه، لكن حتى مجرد تخيل نفسها أقل احتراماً بنظر أخيها لم يصل إلى مستوى الإحساس بالعار الذي شعرت به عندما فكرت باحتمال لقاء السيد ثورنتِن مجدداً. ومع ذلك، كانت تتشوق لرؤيته، وإلى أن تتجاوز تلك اللحظة، وأن تعرف موقعها في نظره. توهج خداها عندما تذكرت كيف لمَّحت، بكل تعالٍ وكبرياء، باعتراضها على مهنته (في الأيام الأولى من تعارفهما) لأنها غالباً ما كانت تمارس الغش من خلال تغطية

أو تغليف البضاعة السيئة لتبدو فاخرة متميزة من ناحية، وادعاء ثروة وموارد لا يمتلكونها، من ناحية أخرى. كما تذكرت نظرة الاستياء الهادئة التي بانت على وجهه وهو يشرح ببضع كلمات لتفهم أن جميع الأساليب الملتوية، ضمن الإطار العام للتجارة، تبقى ضارة ومؤذية على المدى الطويل، وأن اختبار مثل هذه التصرفات استناداً إلى معيار بائس للنجاح، لا يعدو كونه مجرد حماقة في مثل هذه الأساليب، وفي كل نوع من الغش والخداع في التجارة، وأشياء أخرى. كما تذكرت أنها حينذاك، وكانت تتمسك بحقيقة لا تقبل المساومة، سألته إن كان لا يعتقد بأن الشراء بسعر رخيص والبيع بسعر عال يؤكد الحاجة لعدالة شفافة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الحقيقة، حتى أنها في ذلك اليوم استخدمت كلمة "شهامة"، إلا أن أبيها صحح عبارتها بكلمة أرقى "مسيحية" ليسحب النقاش نحوه، بينما جلست هي صامتة يراودها إحساس ضئيل بالازدراء.

لا مزيد من الازدراء! لا مزيد من الحديث عن الشهامة! من الآن وصاعداً، يجب عليها أن تشعر بالمهانة والعار في نظره. لكن متى ستقابله وتراه؟ قفز قلبها بين أضلاعها خوفاً مع كل قرع على جرس الباب، إلا أنها، ومع سكوت الجرس، كانت تشعر على نحو غريب بالحزن وغصّة في القلب مع خيبة جرس. كان والدها ينتظر قدوم السيد ثورنتِن حتى إنه فوجئ بأنه لم يأت حتى الآن. وفي الواقع، كان ثمة بعض النقاط في نقاشهما تلك الليلة لم يسعفهما الوقت للتوسع فيها، على أن يلتقيا مرة أخرى لمزيد من النقاش في مساء اليوم التالي، إن أمكن، أو على الأقل في أول مساء يستطيع السيد ثورنتِن القدوم. كان السيد هيل يتطلع إلى هذا اللقاء منذ أن افترقا. إذ لم يكن قد استأنف بعد الدروس لطلابه التي كان قد توقف عنها مع اشتداد المرض على زوجته، لذلك كان لديه قدر أقل من المشاغل على غير العادة. فضلاً عن أن انشغاله بما جرى في اليوم الأخير أو قبله (انتحار باوتشر) أعاده إلى تأملاته برغبة أقوى مما مضى. بدا مضطرباً قلقاً طوال المساء، وهو يردد قائلاً "كنت أتوقع لقاء السيد ثورنتِن. أظن أن من أحضر الكتاب الليلة الماضية لا بد أنه كان يحمل رسالة، ونسي أن يسلمها. ألم تصلنا أيُّ رسالة اليوم؟".

"سأذهب لأتأكد من ذلك، يا أبي". قالت مارغريت، بعد أن قرع جرس الباب مرة أو مرتين أدخل تعديلاته على هذه الجمل، "انتظري، أحدهم يقرع جرس الباب!" جلست مارغريت، وأحنت رأسها تتابع تطريز قماش الكنفا. سمعت خطوة تصعد على الدرج، وعلمت أن ديكسِن كانت قادمة. رفعت رأسها وتنهدت، بل وظنت أنها شعرت بالسعادة.

"إنه السيد هيغينز، يا سيدي. يريد أن يراك أو يرى الآنسة هيل. أو ربما الآنسة أولا، ثم أنت يا سيدي؛ لأنه يبدو في حالة غريبة".

"من الأفضل أن يصعد إلى هنا، يا ديكسِن، ويرانا نحن الاثنين، ويختار من يحدث أولاً".

"حسنا! يا سيدي. ليست لدي أيُّ رغبة في سماع ما يريد قوله، بالتأكيد، لكن لو نظرت إلى حذائه، أنا واثقة أنك ستقول إن المطبخ هو المكان الأنسب".

" باستطاعته أن يمسح حذاءه" قال السيد هيل. ذهبت ديكسِن لتطلب من هيغينز الصعود إلى الطابق العلوي. شعرت بالرضا عندما ألقى نظرة على قدميه متردداً، ثم جلس أسفل الدرج وخلع حذاءه، وصعد الدرج من دون أن يقول كلمة واحدة.

"بخدمتك يا سيد"، قال وهو يمسد شعره عندما دخل الغرفة: "لو تعذريني (توجه بالكلام إلى مارغريت) إن ظهرت أمامك من دون حذاء، كنت أمشي في الشوارع طوال اليوم، وكما تعلمين الشوارع ليست نظيفة".

رأت مارغريت أن التعب كان السبب وراء هذا التغير في سلوكه، إذا بدا هادئاً ومكتئباً على غير عادته، ويجد صعوبة في قول ما جاء من أجله.

وبفضل استعداده الدائم للتعاطف مع الخجل والتردد، أو الحاجة لضبط النفس، سارع السيد هيل إلى نجدته.

"سنتناول الشاي في الحال، وستشرب كوباً معنا، يا سيد هيغينز. أنا متأكد أنت متعب بعد أن كنت خارج المنزل في هذا اليوم الماطر، الذي يبعث على الخمول. هل جهزت الشاي، يا عزيزتي مارغريت؟".

طبعاً لم يكن بمقدور مارغريت أن تعد الشاي إلا إذ تولت الأمر بنفسها، ومن ثَم أن تثير استياء ديكسِن التي كانت تخرج من حالة الحزن على سيدتها الراحلة إلى حالة الحساسية وسرعة الغضب. لكن مارثا، شأنها شأن كل من تعامل مع مارغريت ومنهم ديكسِن نفسها على المدى الطويل، وجدت أنه من السعادة والشرف أن تحقق لديكسِن ما ترغب به، وتظهر لها استعدادها لمساعدتها. هذا الموقف بالإضافة إلى تعامل مارغريت الصبور معها، جعلا ديكسِن تشعر بالخجل من نفسها.

"لا أفهم سبب إصرارك أنت والسيد على السماح للطبقات الدنيا بالصعود إلى الأعلى، منذ أن جئنا إلى ميلتِن. في هِلْستِن، لم يكن مسموحاً لهؤلاء الناس من الدخول إلى أعلى من المطبخ، بل أنني لمَّحتُ لواحد أو أثنين منهم كي يعلما بأن شرفاً لهما حتى أن يدخلا المطبخ".

ارتأى هيغينز أنه من الأسهل له أن ينفس عن ضيقه لواحد فقط بدلاً من الاثنين معاً. وبعد أن غادرت مارغريت الغرفة، سارع إلى الباب وتأكد من إغلاقه بنفسه، ثم عاد ووقف على مقربة من السيد هيل.

"يا سيد" قال، "لا يمكنك أن تخمن من أجل ماذا كنت أجوب الشوارع اليوم، لاسيما إن تذكرت طريقة كلامي أمس. كنت أبحث عن عمل. أجل"، قال هيغينز. "قلت لنفسي بأني سأحفظ لساني مؤدباً في رأسي، وليقولوا ما يقولون. سأعض لساني قبل أن أتسرع في الكلام. من أجل ذلك الرجل...أنت تفهم ما أقصد"، وهز سبابته مشيراً إلى جهة لا على التعيين.

"لا، لا أفهم ما تقصد"، قال السيد هيل، وهو يرى أن هيغينز ينتظر منه موافقة على كلامه، محتاراً من هو ذلك الرجل الذي يعنيه.

"ذلك الشاب الذي يرقد هناك" قال، وهو يعيد نفس الحركة بسبابته. "الشاب الذي أغرق نفسه، المسكين! لم أقتنع بأنه فكر أن يستلقي ويدع الماء تزحف فوقه حتى مات، باوتشر".

"الآن فهمت"، قال السيد هيل. "عد إلى ما كنت تقوله: لن تتسرع في الكلام...".

"مـن أجلـه. ليـس مـن أجلـه تحديـداً، فأيـاً وأينـما كان الآن، لـن يقـاسي الجـوع والـبرد بعـد الآن، ولكـن مـن أجـل زوجتـه، وأطفالـه الصغـار".

"ليبـاركك اللـه!" قـال السـيد هيـل، بانفعـال، قبـل أن يهـدأ ويقـول بحماسـة "مـاذا تقصـد؟ أخـبرني".

"أخبرتـك مـن قبـل" قـال هيغينـز، وقـد تملكتـه الدهشـة مـن انفعـال السـيد هيـل، "إني لـن أطلـب عمـلاً مـن أجـلي، بـل مـن أجلهـم، فقـد تُركـوا أمانـة في عنقـي، كـما أظـن. كنـت أريـد أن أرشـده إلى غايـة أفضـل، لكنـي ضللتـه، وأنـا مـن يجـب أن يتحمـل المسـؤولية".

شـد السـيد هيـل عـلى يـد هيغينـز، وصافحـه بحـرارة مـن دون أن يتكلـم. أحـس هيغينـز بالخجـل والإحـراج.

"هنـاك، هنـاك، يـا سـيدي! لا يوجـد أحـد، يمكـن أن ندعـوه رجـلاً بيننـا، إلا وسـيفعل الـشيء ذاتـه، بـل وأفضـل مـن ذلـك، لأنـه، صدقنـي، لا يمكننـي أن أعمـل، ولا حتـى أن أحلـم بالحصـول عـلى عمـل. لأننـي ذهبـت إلى السـيد هامـبر وطلبـت أن أعـود إلى عمـلي، لكننـي لـن أوقـع التعهـد، لا يمكننـي أفعـل ذلـك، لكنـه لـن يقبـل عـمالاً مثـلي في مصنعـه، لا أحـد مـن أمثـالي، ولا الآخـرون يقبلـون أيضـاً. أنـا لسـت سـوى خـروف أسـود منبـوذ، لا حـول لـه ولا قـوة. سـيموت الأطفـال جوعـاً إن لم أفعـل شـيئاً، إلا إن سـاعدتني أيهـا القـس".

"أساعدك! كيف؟ سأفعل أي شيء، لكن ماذا باستطاعتي أن أفعل؟"

"الآنسـة"، مارغريـت كانـت قـد عـادت إلى الغرفـة، ووقفـت صامتـة تسـتمع، " لطالمـا قالـت كلامـاً جميـلاً عـن الجنـوب، والحيـاة هنـاك. أنـا لا أعـرف كـم يبعـد عـن هنـا، لكنـي كنـت أفكـر إن اسـتطعت أن آخذهـم إلى هنـاك حيـث الطعـام رخيـص، والأجـور جيـدة، وجميـع النـاس، أغنيـاء وفقـراء، يتعاملـون بـود فيـما بينهـم. فلـو تسـاعدني أن أجـد عمـلاً هنـاك. لم أبلـغ بعـد الخامسـة والأربعـين وأظـن أن لـدي مـا يكفـي مـن القـوة للعمـل، يـا سـيد".

"لكن ما العمل الذي يمكنك أن تقوم به، يا صديقي؟".

"أظن أن باستطاعتي أن أعزق وأرفش...".

ولقاء ذلك". قالت مارغريت وهي تتقدم إلى الأمام "ومن أجل أي شيء يمكنك القيام به، لن تحصل يا هيغينز في أفضل الأحوال، ربما، على أكثر من تسعة شلنات في الأسبوع، وربما عشرة. الطعام لا يختلف عن هنا كثيراً، إلا إن كان لديك حديقة صغيرة".

"يمكن للأطفال أن يفعلوا ذلك"، قال هيغينز. "قرفت من ميلتِن، وميلتِن قرفت مني".

"لست مضطراً للذهاب إلى الجنوب"، قالت مارغريت "فعلى الرغم من أي شيء آخر، لا تستطيع أن تحتمل العيش هناك. ستضطر للبقاء خارج المنزل في أحوال الطقس كافة. ستصاب بالروماتيزم. هذا العمل البدني المُضني وأنت في هذه السن سيجعلك تنهار. كما أن التنقل والتجوال من مكان إلى مكان مختلف جداً عما اعتدت عليه".

"ليس لدي شيء محدد بالنسبة لطعامي"، قال منزعجاً.

"لكنك حسبت الأمر على شراء اللحم من الجزار مرة يومياً، إن كنت تعمل، على أن تدفع ثمنه عشرة الشلنات التي ستحصل عليها، وتعيل الأطفال المساكين إن استطعت. أنا مدينة لك بهذا، لأن طريقتي في الكلام عن الجنوب هي ما أوحت إليك بهذه الفكرة، كي أكون واضحة معك تماماً. لن تحتمل كآبة الحياة هناك، ولا تعرف طبيعتها، ستأكلك مثل الصدأ. فالناس الذين يعيشون هناك طوال حياتهم، اعتادوا على البلل في المياه الراكدة الآسنة. ولا يتوقفون عن العمل من يوم لآخر في عُزلة الحقول الرطبة، لا يتكلمون ولا يرفعون رؤوسهم المنكبة على العمل. فالعمل في الرفش والزرع والحصاد سرق منهم التفكير في الحياة؛ وقتلت رتابة العمل مخيلتهم، فلا يبالون في اللقاء ومناقشة الأفكار والتوقعات، وإن كانت في أضعف صورها أو أكثرها جموحاً. بعد أن يفرغوا من العمل، بل يعودون إلى منازلهم، المساكين، منهكي القوى، ولا يكترثون بشيء سوى الراحة والطعام. لن يكون بمقدورك أن تحرك فيهم حب الصحبة التي تكثر في المدينة مثل الهواء الذي تتنفسه، سواء أكانت صحبة جيدة أم سيئة، فهذا ما لا أعرفه. لكن ما أعرفه، أنك أنت تحديداً من بين كل الرجال الآخرين

لـن تطيـق الحيـاة مـع هـذا النـوع مـن العـمال. فـما يبـدو لهـم سـلاماً وطمأنينـة، سـيكون بالنسـبة لـك مصـدر قلـق وإزعـاج لا يتوقـف. نيكـولاس، أرجـوك، كـما أنـك لـن تسـتطيع دفـع نفقـات انتقـال الأم والأطفـال إلى هنـاك... وهـذا أمـر جيـد".

"فكـرت بهـذا الأمـر. منـزل واحـد سـيكفينا، وأثـاث المنـزل الآخـر يمكـن الاسـتفادة منـه بطريقـة مـا. ولا بـد أن للرجـال عائـلات يعيلونهـا، ربمـا سـتة أو سـبعة أطفـال، كان اللـه في عونهـم!" قـال هيغينـز، مقتنعـاً بتصـوره عـن واقـع الحـال في الجنـوب أكـثر مـن اقتناعـه بمـا قالتـه مارغريـت. وفجـأة تخـلى عـن الفكـرة التـي فرضـت نفسـها مؤخـراً عـلى ذهنـه المنهـك بمـا لاقـاه اليـوم مـن التعـب والقلـق. "كان اللـه في عونهـم! الشـمال والجنـوب، لـكل واحـد منهـما متاعبـه. إن كان العمـل مضمـون وثابـت هنـاك، ينـال العامـل أجـراً لا يُغنيـه عـن الجـوع، أمـا هنـا وبينـما نحصـل عـلى أجـر جيـد في ربـع واحـد، لا نجـد حتـى قرشـاً واحـداً في الربـع التـالي. بالتأكيـد العـالم أصبـح في حالـة اضطـراب وفـوضى لا يمكـن معهـا لي ولا لأي شـخص آخـر أن يفهمـه، ويحتـاج إلى إعـادة ترتيـب مـن جديـد، لكـن مـن سـيقوم بذلـك إن لم يكـن هنـاك إلا مـا يقولـه أولئـك النـاس هنـاك، وليـس هنـاك شيء سـوى مـا نـراه؟".

انشـغل السـيد هيـل بتقطيـع الخبـز والزبـدة. وشـعرت مارغريـت بالارتيـاح لانشـغال والدهـا بهـذه المهمـة لأنهـا رأت مـن الأفضـل أن يُـترك هيغينـز بمفـرده، فلـو بـدأ والدهـا الـكلام بهـذا اللطـف عـما كان يـدور مـن أفـكار في رأس هيغينـز، لاعتـبر هـذا الأخـير نفسـه في حالـة مـن التحـدي، وازداد تمسـكاً بموقفـه. واصلـت ووالدهـا حديثـاً لا عـلى التعيـين إلى أن تنـاول هيغينـز الـذي لم يكـن يـدرك إن كان قـد أكل أم لا، وجبـة محترمـة. ودفـع كرسـيه بعيـداً عـن الطاولـة، وحـاول الاهتـمام بمـا كانـا يتحدثـان، لكـن مـن دون جـدوى، فعـاد إلى شروده المكتئـب. فجـأة، قالـت مارغريـت (التـي كانـت تفكـر بهـذا الأمـر لفـترة مـن الوقـت، لكـن الكلـمات كانـت عالقـة في حلقهـا)، "هيغينـز هـل ذهبـت إلى مصنـع مارلـبره لتبحـث عـن عمـل هنـاك؟".

"عند ثورنتِن؟" سأل. "أجل ذهبت إلى هناك".

"وماذا قال؟".

"إن رجلاً مثلي لا يمكن له أن يقابل السيد. وطلب من الحارس أن أغادر المكان، فلا عمل لي هناك".

"كنت أتمنى لو أنك قابلت السيد ثورنتِن. ربما ما كان ليعطيك عملاً، لكنه لن يستخدم هذه اللغة".

"بالنسبة للغة، تعودت عليها، ولا أهتم بهذا الأمر. فأنا لست أكثر تهذيباً عندما أغضب. ما يزعجني هو أنني لم أعد شخصاً مرغوباً به هناك، ولا في أي مكان آخر".

"ليتك قابلت السيد ثورنتِن"، قالت مارغريت. "لِمَ لا تحاول مرة ثانية، أعلم أني أطلب منك الكثير، لكن اذهب غداً، وحاول أن تقابله؟ سأكون سعيدة إن فعلت ذلك".

"لن يجدي الأمر نفعاً"، قال السيد هيل بصوت منخفض. "من الأفضل أن تدعني أكلمه أولاً". ظلت مارغريت تنظر إلى هيغينز بانتظار رده. لم يستطع أن يقاوم عينيها الجميلتين الحزينتين، وأطلق تنهيدة عميقة.

"لو كان ذلك من أجلي، لكلفني قدراً كبيراً من كبريائي، لا مشكلة عندي في تحمل الجوع؛ بل أرغب بأن أطرحه أرضاً قبل أن أفكر بأن أطلب منه معروفاً. كما أفضل أن أجلد نفسي بالسوط، لكنك لست فتاة من عوام الناس، أرجو المعذرة، ولا تتصرفين كما يتصرفن. سأرتدي وجهاً كالحاً، وأذهب إليه غداً. هل تظنين أنه سيقبل؟ أعتقد أن هذا الرجل يفضل لو يُوضع على المحرقة، قبل أن يتنازل. لكني سأفعل ذلك من أجلك، يا آنسة هيل، وهي المرة الأولى في حياتي التي استسلم فيها لامرأة، لم يسبق لزوجتي، ولا ابنتي بيسي، أن طلبا مني أمراً كهذا ".

"وهذا ما يجعلني أشكرك أكثر وأكثر"، قالت مارغريت، وهي تبتسم. "على الرغم من أنني لا أصدقك، فأنا واثق بأنك تراجعت واستسلمت لزوجتك وابنتك مثل ما يفعل غالبية الرجال".

"أما بالنسبة للسيد ثورنتِن" قال السيد هيل، "سأعطيك رسالة له، أعتقد أنها، يمكنني المغامرة بالقول، ستضمن لك أن يستمع إليك جيداً".

"أشكرك يا سيدي، لكني كنت أود لو أعتمد على نفسي. لا يمكنني أن أهضم فكرة أن يسدي إلى معروفاً شخصٌ لا يعرف تفاصيل الخلاف. فمن يتدخل بين صاحب العمل والعامل، أشبه بمن يتدخل بين زوج وزوجته، إذ يحتاج الأمر منه قدراً كبيراً من الحكمة. سأقف حارساً أنتظره عند باب المصنع منذ الساعة السادسة صباحاً إلى أن أتمكن من الحديث إليه. وإن كنت لأرضى بأن أكنس الشوارع، إن لم يحصل أولئك الفقراء المساكين على ذلك العمل. لا تتأملي كثيراً، يا آنسة هيل، فالأمر لا يختلف كثيراً عن جر الماء من حجر الصوان. أتمنى لكم ليلة طيبة، وشكراً جزيلاً لكما".

"ستجد حذاءك قرب موقد النار في المطبخ، أنا وضعته هناك كي يجف"، قالت مارغريت.

التفت إليها ونظر إليها بثبات، ومسح عينه بيده النحيلة، وانصرف.

"كم هو معتز بنفسه هذا الرجل!" قال والدها الذي امتعض قليلاً من الطريقة التي أبدى فيها هيغينز رفضه للتوسط بينه وبين السيد ثورنتِن.

"بالفعل، إنه كذلك"، قالت مارغريت؛ "لكن يا لها من طينة تلك التي عُجن بها هذا الرجل ليكون على هذا الشاكلة من الفخر والاعتزاز".

"لكن الطريف في الأمر أن نرى بوضوح كيف يحترم هذه الصفة في شخصية السيد ثورنتِن التي تشبهه".

"هناك شيء من الغرانيت في تركيبة رجال الشمال، يا أبي، أليس كذلك؟".

"لكنها لم تكن موجودة عند باوتشر، للأسف، ولا عند زوجته".

" يمكنني أن أخمن من نبرة صوتهم أن دماً أيرلندياً يجري في عروقهم. أتساءل إن كان سينجح في مسعاه غداً. إذا تحدث هو والسيد ثورنتِن رجلاً لرجل ـ إذا تناسى هيغينز أن السيد ثورنتِن صاحب مصنع، وتكلم معه كما يتكلم معنا، وإذا تحلى السيد ثورنتِن بالصبر للاستماع إليه بقلب إنسان، وليس بأذني السيد المالك...".

"أخيراً، بدأت تُنصفين السيد ثورنتِن، قال والدها وهو يقرص أذنها.

شعرت مارغريت بغصة في القلب جعلتها عاجزة عن الرد، "آه"، قالت لنفسها،

"لو كنت رجلاً لذهبت إليه وأجبرته على التعبير عن استهجانه لفعلتي، وقلت له إني أعلم بأني أستحق ذلك. يبدو أنه من الصعب خسارته كصديق عندما بدأت أشعر بقيمته. كم كان رقيقاً مع والدتي العزيزة. إن كان من أجلها فحسب، أتمناه لو يأتي، وعندها أعلم أي درك أسفل وصلت في عينيه".

الوفاء بالوعود

لم تكـن معرفـة السـيد ثورنـتِن بـأن مارغريـت كانـت كاذبـة في أقوالهـا هـو السـبب الوحيـد الـذي جعلهـا تسـقط في نظـره، كـما كانـت تتخيـل، بـل لأن هـذه الكذبـة كانـت تحمـل إشـارة واضحـة في ذهنـه إلى حبيـبٍ آخـر. لم يسـتطع أن ينـسى تلـك النظـرة الحميمـة الولهـة التـي كانـت تتبادلهـا مـع رجـل آخـر، وشـعورها بالطمأنينـة المألوفـة، إن لم يكـن تحببـاً وغـزلاً. مـا انفكـت هـذه الصـورة تلسـعه ماثلـة أمامـه أينـما كان، وأيـاً كان مـا يفعلـه. ومـا زاد الأمـر سـوءاً لديـه، كانـت السـاعة؛ مـع غـروب الشـمس، والمـكان، بعيـداً عـن المنـزل في موقـع لا يرتـاده الكثـير مـن النـاس. في البدايـة، دفعـه إحساسـه النبيـل للقـول إن كل هـذا ربمـا كان مصادفـة، بريئـاً، ومُسـوَّغاً، لكـن وحالمـا اعـترف بحقهـا في أن تُحِـب وتُحَـب (وهـل كان لديـه أي سـبب ليحرمهـا هـذا الحـق؟ ألم تكـن كلماتهـا واضحـة بأنهـا ترمـي بحبـه بعيـداً) تخيـل أنهـا ربمـا كانـت قـد استُدرجت للمـشي لمسـافة أطـول وفي سـاعة متأخـرة أكـثر مـما كانـت تتوقـع. لكـن تلـك الكذبـة! التـي كشـفت عـن إدراك قاتـل بخطـأ مـا، وأن تخفيـه أيضـاً، فهـذا مـا كان يتناقـض مـع طبيعتهـا. كان عـادلاً معهـا، رغـم أنـه كان سيشـعر براحـة أكـبر لـو أنـه كان عـلى قناعـة بأنهـا لا تسـتحق تقديـره لهـا عـلى الإطـلاق. وهـذا تحديـداً سـبب إحساسـه بالمـرارة، لأنـه أحبهـا بجنـون وكان يراهـا، عـلى الرغـم مـن كل عيوبهـا، أروع وأفضـل مـن أيٍّ امـرأة أخـرى، رغـم إنهـا كانـت متعلقـة برجـل آخـر، وبعيـدة عـن إحساسـها بـه إلى درجـة تتعـارض مـع طبيعتهـا الصادقـة. هـذا الزيـف الـذي شـوهها بنظـره كان دليـلاً عـلى حبهـا الأعمـى لذلـك الشـاب داكـن البـشرة، والنحيـل، والأنيـق، والوسـيم، بينـما كان هـو خشـناً، وقاسـياً،

وقوياً. ساط نفسه بنار الغيرة المتوحشة. تخيل تلك النظرة، وذاك الموقف! كيف كان مستعداً لأن يرمي بحياته عند قدميها مقابل تلك النظرات الرقيقة، وذلك الوله! سخر من نفسه لأنه بالغ في تقديره لتلك الطريقة التلقائية التي أنقذته بها من غضب الحشود، بينما يرى الآن كم كانت رقيقة وساحرة عندما كانت مع رجل تحبه. لمّا يزل يتذكر حدة كلماتها، بتفاصيلها، عندما قالت له إنها "لم تكن لتتردد أن تحمي أي رجل بين الحشود بالطريقة نفسها التي حمته بها". تقاسم الموقع نفسه مع المشاغبين في صميم رغبتها بتجنب سفك الدماء، أما ذلك الرجل، العاشق المخفي، فقد انفرد لوحده بالنظرات، والكلمات، وتشابك الأيدي، والكذب، والتستر عليه.

كان السيد ثورنتن يدرك أنه لم يكن يوماً سريع الهيجان طوال حياته كما كان الآن؛ إذ كان ميالاً لأن يقدم جواباً قصيراً مفاجئاً، أقرب إلى النباح منه إلى الكلام، إلى كل شخص يسأله سؤالاً. معرفته بهذا الأمر آذت كبرياءه، فلطالما أهان نفسه بضبطها، وهذا ما كان سيفعله. لذلك انقلب الحال إلى تفكير عميق، لكن المسألة كانت أقسى وأشد وطأة من المعتاد. وبات صامتاً على غير العادة في المنزل، ويشغل أمسياته بخطوات لا تنفك تزرع الغرفة جيئة وذهاباً، وهو الأمر الذي سيزعج والدته إلى حد كبير، لو أن أحداً غيره يقوم به، ولم تكن لتتذرع بالصبر حتى لولدها المحبوب.

"هلا توقفت، أيمكنك الجلوس لدقيقة واحدة؟ أود أن أقول لك شيئاً، إن توقفت عن هذا المشي الذي لا يتوقف".

جلس في الحال على كرسي قبالة الجدار.

"أريد أن أكلمك بشأن بيتسي. تقول إنها مضطرة لأن تتركنا، فموت حبيبها أثر عليها كثيراً، ولم تعد قادرة أن تعطي كل جهدها في العمل".

"حسناً، أعتقد يمكننا أن نجد طاهية بدلاً عنها".

"ليس مستغرباً هذا الكلام من رجل. الأمر ليس مجرد طبخ، بل إنها تعرف كل تفاصيل المنزل. كما أنها أخبرتني شيئاً عن صديقتك الآنسة هيل".

"الآنسة هيل ليست صديقتي، السيد هيل صديقي".

"أنا سعيدة بسماعك تقول هذا الكلام، لأنها لو كانت صديقتك، لأزعجك كلام بيتسي".

"أسمعيني ما قالت"، أجابها بالطريقة الهادئة نفسها التي اعتاد عليها في الأيام الأخيرة.

"تقول بيتسي إنه في الليلة التي شوهد فيها حبيبها ـ لقد نسيت اسمه ـ إذا كانت تدعوه...".

"لينِردز".

"في الليلة التي شوهد لينِردز لآخر مرة في المحطة ـ عندما شوهد في الواقع لآخر مرة في العمل ـ كانت الآنسة هيل هناك تمشي مع شاب تعتقد بيتسي أنه هو من قتل لينِردز بضربة أو دفعة".

"لينِردز لم يُقتل لا ضرباً ولا دفعاً".

"وكيف عرفت؟".

"لأنني أنا من سألت الطبيب في المستشفى، وأخبرني أن لينِردز كان يعاني مرضاً داخلياً منذ فترة طويلة بسبب إدمانه على الشراب، وبالتالي فإن التأكد من تدهور حالته بسبب السُكر أجاب على السؤال إن كانت وفاته ناجمة عن سقوط، أو الإفراط في الشراب".

"سقوط! أي سقوط؟".

"ما قالت عنه بيتسي إنه نتيجة لضربة أو دفع"؟

"إذن، كان هناك ضرب أو دفع؟".

"أعتقد ذلك".

"من فعل ذلك؟".

"بما أنه لم يكن هناك أي تحقيق استناداً إلى رأي الطبيب، لا أستطيع إخبارك".

"وهل كانت الآنسة هيل هناك؟".

لا جواب.

"بصحبة شاب؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"لم يجب عن سؤالها. وأخيراً قال: "أمي، لم يكن هناك أي تحقيق، أقصد تحقيق قضائي".

"تقول بيتسي أن وولمَر (رجل تعرفه يعمل في دكان لبيع الخضار في كرامبتِن) يقسم بأن الآنسة هيل كانت في المحطة في تلك الساعة، تتمشى جيئة وذهاباً مع شاب".

"وما علاقتنا بهذا الأمر، الآنسة هيل تمتلك الحرية في أن تفعل ما يرضيها".

" سعيدة لسماعك تقول ذلك" قالت السيدة ثورنتِن بحماسة. "فهذا يدل على شيء تافه بالنسبة لنا، ولا شيء البتّة بالنسبة إليك، بعد أن جرى ما جرى! لكني وعدت السيدة هيل بأنني لن أسمح لابنتها أن تسلك مساراً خاطئاً من دون نصح واعتراض. ومن دون شك سأدعها تعرف رأيي بمثل هذه التصرفات".

"لا أرى ضرراً في ما فعلته تلك الليلة"، قال السيد ثورنتِن، وهو ينهض من على كرسيه، ويقترب من والدته. وقف قرب الموقد وقد أشاح بوجهه عن الغرفة. "هل كنت ستقبل أن تُشاهد أختك فاني بعد حلول الظلام في مكان منعزل نوعاً ما، تتمشى بصحبة شاب. لا أعترض على ذوقها في اختيارها لهذا التوقيت من أجل التنزه، وجثمان أمها لم يُدفن بعد. هل كنت سترضى بأن يشاهد عامل في محل للخضروات أختك تفعل ذلك؟".

"أولاً، لم تمض سنوات عدة منذ كنت أنا نفسي أعمل في محل لبيع الأقمشة، وملابسات أو ظروف ملاحظة عامل في محل للخضروات أي تصرف لا يغير عندي من طبيعة هذا التصرف. ثانياً، أرى فارقاً كبيراً بين الآنسة هيل وبين فاني. إذ أتصور أنه قد يكون لفتاة ما أسباب موجبة يمكن أو ينبغي أن تجعلها تتغاضى عن أي تصرف غير مناسب في سلوكها. ولم أعلم يوماً أن لدى فاني مثل هذه الأسباب الموجبة لأي شيء، إذ يجب على أشخاص آخرين أن يحرسوها. أما الآنسة هيل فهي، كما أعتقد، وصية نفسها".

"بالفعل، تمتاز أختك بشخصية رائعة! حقاً، يا جون، قد يظن المرء أن الآنسة هيل فعلت ما يكفي لتزيل الغشاوة عن عينيك. استدرجتك لتعرض عليها الزواج بعرض جريء لتقديرها المزيف لك...كي تضعك في موقع المفاضلة مقابل

ذلك الرجل. أنا واثقة من ذلك. بات تصرفها واضحاً لي الآن. أظنك تعتقد بأنه عشيقها. أنت متفق معي في هذا".

استدار نحو أمه بوجه كالح ممتقع. "أجل، يا أمي. أعتقد أنه عشيقها". بعد أن قال عبارته، استدار مرة أخرى، وراح يتلوى وكأنه يعاني ألماً مبرحاً في جسده. أسند رأسه على يده، وقبل أن تتكلم، التفت إليها بحدة:

"إنه عشيقها، يا أمي، أيا يكون؛ لكنها قد تحتاج إلى مساعدة، ونصيحة امرأة؛ قد يكون هناك مصاعب ومغريات لا أعرفها. هذا ما أخشاه. لا أريد أن أعرف ما هي، لكن كما كنتِ دائماً أما صالحة، وحنونة معي، اذهبي إليها، واكسبي ثقتها، وقولي لها ماذا عليها أن تفعل. أعلم أن ثمة خطأ ما، شيء كريه، لا بد أنه عذاب مرعب لها".

"بحق الله، يا جون!" قالت والدته، مصدومة فعلاً بما سمعت، "ماذا تقصد؟ ماذا تقصد؟ ما الذي تعرفه؟"

لم يجب على سؤالها.

"جون! لا أعلم ما يمكن أن يخطر على بالي إن لم تتكلم. ليس لديك الحق بأن تقول ما قد فعلته ضدها".

"ليس ضدها يا أمي! لم أستطع أن أتكلم ضدها".

"إذن، ليس لديك الحق في أن تقول ما فعلته، إن لم تخبرني بالمزيد. أنصاف الجمل هذه هي ما تحطم سمعة امرأة".

"سُمعتها! أمي، كيف تتجرأين...". واستدار نحوها لينظر في وجهها بعينين تلتهبان، ويشد قامته مستعيداً هدوءه وكبرياءه، وقال لها "لن أقول أكثر مما قلت، وهي الحقيقة لا أكثر ولا أقل، وأنا واثق من أنك تصدقيني. لدي سبب وجيه لأعتقد أن الآنسة هيل تمر بمحنة ترتبط بعلاقة أراها، من خلال معرفتي بشخصيتها، بريئة ولا غبار عليها. أما ما هو هذا السبب، فأرفض الإفصاح عنه. لكن لا تدعوني أسمع أي شخص يتناولها بأية كلمة تلمح إلى مزيد من الطعن والتشويه فيها أكثر مما تحتاجه الآن من نصيحة امرأة عطوفة نبيلة. وأنت وعدت السيدة هيل أن تكوني هذه المرأة".

"لا!" قالت السيدة ثورنتِن. "يسعدني أن أقول إني لم أتعهد بأن أكون لطيفة عطوفة، لأني شعرت حينذاك بأنه لا يمكنني أن أكون كذلك إزاء شخصية الآنسة هيل وطبيعتها. وعدت بأن أقدم لها النصح والإرشاد، مثل ما أفعل مع ابنتي، وسأتكلم معها كما لو كنت سأتكلم مع فاني لو أنها ذهبت لتلهو مع شاب مع حلول الظلام. سأتكلم بما يخص الظروف التي أعرفها من دون أن أتأثر بطريقة أو بأخرى بـ "الأسباب القوية" التي ترفض أن تفصح عنها. وهكذا سأكون قد وفيت بوعدي، وأديت واجبي".

"لن تتقبل منك ذلك"، قال بانفعال.

"بل يجب عليها، إن تكلمت باسم المرحومة والدتها".

"حسنا"، قال وهو يغادر الغرفة، "لا تخبريني بأي شيء عن هذا الموضوع، لم أعد أحتمل التفكير فيه. على أي حال، أن تتحدثي إليها خيرٌ من ألا يتحدث إليها أحد...آه يا لنظرة الحب تلك!" تابع كلامه همساً وهو يغلق على نفسه باب غرفته الخاصة. "وتلك الكذبة الملعونة التي كشفت عاراً رهيباً مخفياً عن النور الذي ظننتُها تعيش فيه دائماً وأبداً! آه يا مارغريت، يا مارغريت! وأنت يا أمي كم تعذباني! آه يا مارغريت، ألم يكن بمقدورك أن تحبيني؟ قد لا أكون سوى رجلاً قاسياً جلفاً، لكنني لن أدفعك إلى الكذب والزيف من أجلي".

كلما أمعنت السيدة ثورنتِن في التفكير بما قاله ابنها وهو يتوسلها حُكماً رحيماً على طيش مارغريت، ازداد شعورها بالمرارة حيالها. وجدت في فكرة "أن تقول لها ما في رأسها" لذة متوحشة تحت ستار أداء الواجب. تلذذت بتخيل نفسها منيعة من التأثر بذاك "السحر" الذي كانت تدري أن مارغريت تمتلك القدرة على افتتان الآخرين به. جارت بنبرة احتقار على صورة جمال ضحيتها، بشعرها الأسود الكثيف، وبشرتها الناعمة النقية، وعينيها الصافيتين اللتين لن تنقذاها من كلمات التوبيخ القاسي والمُنصف التي أمضت السيدة ثورنتِن نصف ليلتها تعدها في رأسها.

"هل الآنسة هيل في الداخل"، سألت رغم أنها كانت تعلم أنها في المنزل، لأنها

كانت قد رأتها على النافذة، ووضعت قدمها في الرواق حتى قبل أن تجيب مارثا عن سؤالها.

كانت مارغريت جالسة بمفردها تكتب رسالة إلى إيديث بشأن تفاصيل الأيام الأخيرة من حياة والدتها. انشغالها بهذه الرسالة كان مؤثراً حتى أنها اضطرت لأن تمسح دموعها التي فرضت نفسها عليها عندما سمعت بوصول السيدة ثورنتِن.

كانت مارغريت لطيفة وأشبه بسيدة راقية في طريقة استقبالها لضيفتها التي ارتبكت، وبات مستحيلاً عليها أن تنطلق في الكلام الذي سبق وأعدت له جيداً عندما لم يكن أحد أمامها موجوداً للاستماع إليه. انساب صوت مارغريت الهادئ بنعومة أكثر من المعتاد، كما كان أسلوبها في الحديث أكثر لطافةً، لأنها كانت تشعر في صميم قلبها بالامتنان للسيدة ثورنتِن على اهتمامها الطيب بزيارتها. وسعت جاهدة لتختار موضوعات مثيرة للاهتمام؛ فامتدحت مارثا الخادمة التي ساعدتهم السيدة ثورنتِن في العثور عليها، كما تحدثت مع ضيفتها عن الهواء المنعش في اليونان، وأنها طلبت من إيديث أن ترسل لها بعضاً منه. تململت السيدة ثورنتِن، وبدت عيناها الحادتان كسيف دمشقي متناقضتين، وعديمتي الجدوى بين أوراق الورد. التزمت الصمت لأنها كانت تحاول أن تجهز نفسها لأداء واجبها. وأخيراً، نخزت نفسها للانطلاق في أداء مهمتها عندما سمحت لخاطر من الشك، رغم أن لم يكن مؤكداً، أن يستقر في رأسها، وتتخيل أن كل هذه العذوبة واللطافة التي تتظاهر بها مارغريت ليست سوى محاولة لاستعطاف السيد ثورنتِن، بعد أن أخفقت علاقتها مع الرجل الآخر. مسكينة مارغريت! قد يكون هناك جزء من الحقيقة في هذا الشك على أساس أن ضيفتها هي والدة الشخص الذي تكن له الاحترام والتقدير، وتخشى أن تكون قد خسرته، إضافة إلى رغبتها الطبيعية بإرضاء السيدة التي عبرت، بزيارتها، عن لطفها. وقفت السيدة ثورنتِن استعداداً للرحيل، لكن كان واضحاً أن لديها ما تريد قوله. بلعت ريقها وبدأت:

"آنسة هيل، لدي واجب على أن أؤديه. وعدت أمك أنني، وبقدر ما أعرف، لن أسمح لك بالتصرف على نحو خاطئ، أو (خففت من حدة كلامها قليلاً) أو بشكل غير مقصود من دون أن ألفت انتباهك إليه، أو أنصحك على الأقل، سواء قبلت بها أو لا".

وقفت مارغريت أمامها خجلة مثل أي مذنب وعيناها تتوسعان وهي تحدق بالسيدة ثورنتِن. ظنت أنها جاءت لتحدثها بشأن كذبتها، وأن السيد ثورنتِن أرسلها لتشرح لها الخطر الذي عرضت نفسها له بتفنيد تلك الكذبة أمام المحكمة! وعلى الرغم من أن قلبها غاص بين أضلاعها لأنه قرر ألا يأتي بنفسه لتوبيخها، ويسمع توبتها، ويستعيدها إلى حسن ظنه بها، إلا أنها لم تكن متواضعة لتتقبل أي لوم في هذا الموضوع بصبر وهدوء.

تابعت السيدة ثورنتِن كلامها:

"في بادئ الأمر، عندما سمعت من إحدى خادماتي أنك شوهدت تمشين مع شاب في مكان بعيد عن المنزل بالقرب من محطة آوتوود مساءً، لم أصدق. لكن ابني، يؤسفني القول، أكد روايتها. هذا أمر مشين، أقل ما يقال، كم من امرأة خسرت سمعتها قبل الآن..."

بدأت عينا مارغريت تقدحان ناراً. كان هذا أمراً جديداً ومُهيناً. لو أن السيدة ثورنتِن تحدثت عن الكذبة التي قالتها، لتقبلت الأمر وأهانت نفسها. لكن أن تتدخل في تصرفاتها، وتتحدث عن سمعتها! تبقى السيدة ثورنتِن غريبة؛ وتصرفها وقحاً. لن تردَّ عليها ولو بكلمة واحدة. لمحت السيدة ثورنتِن روح التحدي في عيني مارغريت، فجهزت عدتها للقتال.

"من أجل أمك، قلت لنفسي أنه من المناسب أن أحذرك من هذه التصرفات الخاطئة؛ لا بد من أنها ستحط من قدرك أمام العالم، حتى وإن لم تتسبب لك بضرر".

"من أجل أمي،" قالت مارغريت بصوت تغالبه الدموع، "سأتحمل الكثير، ولكن لا أستطيع أن أحتمل كل شيء. أنا على يقين بأن أمي لم تكن تقصد بكلامها أن أتعرض للإهانة".

"الإهانة، يا آنسة هيل!".

"أجل، يا سيدة ثورنتِن"، قالت مارغريت بإصرار أكثر، "إنها إهانة. ما الذي تعرفينه عني ليجعلك تشككين بـ.." قالت وهي تنهار، وتغطي وجهها بيديها "بت أعلم الآن، أن السيد ثورنتِن أخبرك..."

"كلا، يا آنسة هيل"، قالت السيدة ثورنتِن، لتوقف بصراحتها الاعتراف الذي كانت مارغريت على وشك البوح به، رغم أن فضولها كان يحفزها لسماعه. "توقفي. لم يقل لي السيد ثورنتِن شيئاً. أنت لا تعرفين ابني. ولا تستحقين أن تعرفيه. كل ما قاله لي هو كالآتي. اسمعيني جيداً أيتها الفتاة الشابة علك تدركين، إن استطعت، أي رجل رفضت. هذا الصناعي في ميلتِن، الذي أهين قلبه الكبير الرقيق، قال لي ليلة البارحة فقط، "اذهبي إليها، لدي سبب وجيه لأعرف أنها في محنة بسبب علاقة ما، وتحتاج إلى مشورة امرأة". هذه كانت كلماته حرفياً. وزيادة على الإقرار بحقيقة وجودك في محطة آوتوود مع شاب مساء السادس والعشرين، لم يقل شيئاً، ولا كلمة واحدة ضدك. لو كان على علم بأي شيء سيجعلك تبكين على هذا النحو، لاحتفظ به لنفسه".

ظلت مارغريت تغطي وجهها بيديها التي تبللت أصابعها بالدموع. هدأت السيدة ثورنتِن قليلاً.

"اهدأي يا آنسة هيل. قد يكون هناك ظروف، سأقبلها إن شرحتِها، من الممكن عدّها خارج إطار السلوك الخاطئ".

لم تجب. كانت مارغريت تفكر بما تود قوله. تمنت لحظتها أن تقف بقوة أمام السيدة ثورنتِن، لكنها لم تستطع، ولا يمكن لها، أن تقدم أي تفسير. نفد صبر السيدة ثورنتِن.

"يؤسفني أن أقطع هذه الصلة، لكن من أجل فاني، كما قلت لابني، لو أن فاني أقدمت على مثل هذا التصرف، لعددنا ذلك عاراً كبيراً، وربما تتعرض فاني للتضليل..."

"لا أستطيع أن أقدم لك أي تفسير" قالت مارغريت بصوت منخفض." ما فعلته

كان خطأً لكن ليس كما تظنين أو تعلمين. أظن أن السيد ثورنتِن كان أكثر رحمة منك في حكمه علي"؛ حاولت جاهدة أن تمنع نفسها من الاختناق بدموعها، "لكني واثقة بأنك تقصدين خيراً".

"شكراً لك"، قالت السيدة ثورنتِن، وهي تشد قامتها زهواً؛ "لم أكن أدري أن مقصدي كان موضع تشكيك. هذه هي المرة الأخيرة التي أتدخل فيها. عندما طلبت مني والدتك، لم أكن مستعدة للقبول بأن أفعل هذا الأمر. كما أني لم استحسن تعلق ابني بك، لكني قبلته فحسب. لم أرك جديرة به. لكنك عندما أهنت نفسك كما فعلت عندما وقعت أعمال الشغب، وعرضت نفسك لكلام الخدم والعمال، شعرت بأنه لم يعد مناسباً أن أقف ضد رغبة ابني بخطبتك، وهي، بالمناسبة، رغبة لم تراوده إلا بعد أن وقعت أعمال الشغب". انتفضت مارغريت والتقطت أنفاسها بصوت طويل خرج منها أشبه بالفحيح، لكن السيدة ثورنتِن لم تلتفت إليه. "ثم جاء؛ وكان واضحاً أنك غيرت رأيك. قلت لابني البارحة بأني أظن بأنك، خلال الفترة القصيرة، ربما علمت أو سمعت شيئاً عن العاشق الآخر...".

"ماذا تحسبيني يا سيدة؟" سألت مارغريت، وهي ترمي برأسها إلى الوراء باستياء متكبر، حتى تقوست رقبتها إلى الخارج مثل البجعة. "كفاك كلاماً، يا سيدة ثورنتِن. أرفض أن أُسوِّغ لك أي شيء. وعليك أن تسمحي لي بمغادرة الغرفة". خرجت مارغريت بهيبة صامتة لأميرة مجروحة. كان لدى السيدة ثورنتِن قدراً كافياً من حس الدعابة الطبيعي لتشعر بسخافة الموقف الذي تُركت فيه. لم يبق لها ما تفعله سوى مغادرة المكان. لم تنزعج تحديداً من تصرف مارغريت. فهي لم تكترث كفاية بها من أجل هذا الأمر. تأذت مارغريت في أعماق قلبها باعتراض السيدة ثورنتِن كما توقعت هذه الأخيرة، وإن كان انفعال مارغريت هدأ من حدة زائرتها، أكثر مما كان لأي صمت أو تحفظٍ أن يفعل ذلك. فقد أوضح تأثير كلماتها "سيدتي الشابة"، كما تصورت السيدة ثورنتِن " تتمتعين بمزاج رائع. لو قُدِّرَ لك أنت وجون أن تعيشا معاً، لكان واجباً عليه أن يحكمك بيد من حديد كي تعرفي حدودك. لكني لا أظن بأنك ستتمشين ثانية مع عشيقك

المتأنق في مثل تلك الساعة على عجل. لديك كبرياء وعنفوان زائدان عن الحد. أود أن أرى الفتاة تفرُّ هرباً من شعورها بأنها باتت محط حديث الناس. لكن هذا لا يدل على أنها متهورة ولا جريئة بطبيعتها. وبالنسبة لتلك الفتاة، قد تكون جريئة، لكنها لن تكون متهورة. سأكون منصفة معها في ذلك. أما فاني، فلابد أنها ستكون متهورة، لأنها تفتقر إلى الشجاعة، المسكينة!".

لم يكن السيد ثورنتِن يُمضي صباحاً مُرضياً كما كان الحال مع والدته التي كانت، على أقل تقدير، تحقق غايتها. إذ كان يحاول أن يفهم موقفه؛ وأي ضرر ألحقه الإضراب. فقد جمَّد جزءاً كبيراً من رأسماله في شراء آلات حديثة باهظة الثمن، كما اشترى كميات كبيرة من القطن نظراً إلى الطلبيات الكثيرة التي كانت في يده. لكن الإضراب جعله يتخلف في تنفيذ تلك الطلبيات بشكل كبير. حتى بوجود عماله المهرة المعتادين، كان سيواجه مشقة كبيرة في تنفيذ التزاماته كما يجب. ناهيك عن أن عدم كفاءة العمال الأيرلنديين ـ الذين كان من الواجب تدريبهم على العمل في الفترة التي تتطلب جهداً استثنائياً ـ كانت بحد ذاتها مصدر إزعاج يومي له.

لم يكن الوقت مناسباً لهيغينز ليأتي ويطلب عملاً، لكنه كان قد وعد مارغريت بأن يفعل ذلك أياً كان الثمن. وعلى الرغم من أن كل دقيقة كانت تزيد من تململه، وكبريائه، وحدة مزاجه المُعكَّر، ظل واقفاً يستند بظهره على السور المصمت، تارة على ساق واحدة، وتارة على اثنتين. وأخيراً فُتح الباب، وخرج السيد ثورنتِن.

"أريد التحدث إليك، يا سيد ثورنتِن".

"لا أستطيع الانتظار يا صديقي، تأخرت على موعدي".

"حسناً، أظن أنه يمكنني انتظارك حتى تعود".

قطع ثورنتِن نصف المسافة تقريباً نزولاً نحو الشارع. تنهد هيغينز، لكن من دون جدوى. فقد كان اللحاق به في الشارع فرصته الوحيدة لمقابلة "السيد" لو قرع جرس البوابة الخارجية، أو ذهب إلى منزله، لكانوا أحالوه إلى الحارس.

لذلـك وقـف مكانـه مـن دون أن يلقـى رداً باسـتثناء إيمـاءة بالـرأس مـن بعـض الرجـال الذيـن كانـوا يعرفونـه وتحدثـوا إليـه سـاعة خـروج العمال عـبر الباحـة لتنـاول طعـام الغـداء، ونظراتـه الغاضبـة نحـو "الهـراوات الإيرلنديـة" التـي أحضرهـا السـيد. وأخـيراً التفـت السـيد ثورنـتِن.

"ماذا! أما زلت هنا؟".

"أجل، يجب أن أتحدث إليك".

"تعـال إلى هنـا. انتظـر، سـنذهب عـبر الباحـة، لـن يعـود العـمال الآن، وسـتكون لنـا وحدنـا. فهـؤلاء الرجـال الطيبـون ذهبـوا لتنـاول الغـداء" قـال لـه وهـو يغلـق بـاب مسـكن الحـارس.

توقف ليتكلم مع الحارس الذي قال له بصوت منخفض:

"أظـن أنـك تعلـم يـا سـيدي، أن هـذا الرجـل هـو هيغينـز، أحـد قـادة الاتحـاد الـذي ألقـى ذلـك الخطـاب في هيرتسـفيلد".

"لا لم أعرف"، قال السيد ثورنتِن وهو يلتفت بحدة نحو هيغينز.

كان يعرف هيغينز بالاسم على أنه مثير للمتاعب.

"تعـال"، قـال لـه بنـبرة أكـثر خشـونة مـن ذي قبـل. "إن رجـالاً مثـل هـذا" قـال لنفسـه، "يعرقلـون التجـارة ويلحقـون الـضرر بالمدينـة التـي يعيشـون فيهـا، فوضويـون، يسـعون وراء السـلطة مهـما كانـت كلفتهـا عـلى حسـاب الآخريـن".

"حسـناً، يـا سـيدّ! مـاذا تريـد منـي؟" سـأله السـيد ثورنـتِن واسـتدار نحـوه وجهـاً لوجـه حالمـا دخـلا إلى قسـم المحاسـبة في المصنـع.

"اسمي هيغينز".

أعرف ذلك"، قاطعه. "ماذا تريد، يا سيد هيغينز؟ هذا هو السؤال".

"أريد عملاً".

"عمـلا! يـا لـك مـن رجـل رائـع لتـأتي وتطلـب منـي عمـلاً. لا تفتقـر إلى الوقاحـة، هـذا يبـدو واضحـاً".

"لـدي أعـداء ونمامـون يشـوهون سـمعتي، كـما هـو الحـال بـين رؤسـائي، لكنـي لم أسـمع أحـداً منهـم يدعـوني ذليـلا"، رد عليـه هيغينـز ودمـه يغـلي مـن طريقـة السـيد ثورنـتِن بالـكلام أكـثر مـن كلماتـه.

لمـح السـيد ثورنـتِن رسـالة موجهـة إليـه عـلى الطاولـة. أخذهـا وقرأهـا، ثـم نظـر إليـه في نهايـة المطـاف، وقـال لـه "مـاذا تنتظـر؟".

"جواباً عن سؤالي".

"سبق وأعطيتك جوابي، لا تضيع وقتي أكثر".

"علقـت عـلى وقاحتـي، يـا سـيدي، لكنـي تعلمـت أنـه مـن حسـن السـلوك أن أقـول "نعـم" أو "لا"، عندمـا يُطـرح عـلي سـؤالٌ مهـذبٌ. سـأكون شـاكراً لـك، إن أعطيتنـي عمـلاً في مصنعـك. هامـبر سـيؤكد لـك أني عامـل جيـد".

"مـن الأفضـل ألا ترسـلني إلى هامـبِر لسـؤاله عـن شـخص، يـا صديقـي، فربمـا أسـمع بأكـثر مـما تريـدني أن أسـمعه".

"سـأجازف بذلـك. وأيـاً كان سـوء مـا سـيقولونه عنـي، قدمـت أفضـل مـا لـدي، حتـى في أخطـائي".

"لِـمَ لا تذهـب إليهـم وتجـرب حظـك هنـاك، لـترى إن كانـوا سـيعطونك عمـلاً. لقـد رددت مـا يقـاربِ مئـة مـن أفضـل عـمالي لمجـرد أنهـم اتبعـوك، ومـن ثَـم تأتينـي لأعطيـك عمـلاً؟ كمـن يرمـي كـرة مـن النـار وسـط كومـة مـن القطـن".

اسـتدار هيغينـز مبتعـداً، لكـن تذكـر باوتـشر، وأكـبر تنـازل يسـتطيع أن يقنـع نفسـه بتقديمه.

"أعـدُك، يـا سـيدي، بـألا أتفـوه بكلمـة قـد تـضرك، إن أنصفتنـا، بـل وأكـثر مـن ذلـك، سـأعدك بـأني عندمـا أراك ترتكـب خطـأً، سـأتكلم معـك عـلى انفـراد أولاً، كإنـذار عـادل. إن لم نتفـق أنـا وأنـت عـلى تصرفـك، بإمكانـك أن تطـردني في ظـرف سـاعة".

"كـم هـذا رائـع! تحسـب نفسـك شـخصاً مهـماً، لقـد خـسرك هامـبِر. عجبـاً، كيـف تخـلى عنـك وعـن حكمتـك بهـذه السـهولة؟"

"كان فراقـاً بحكـم الكراهيـة مـن الطرفـين. رفضـت أن أوقـع عـلى التعهـد الـذي

طلبوه من العمال، وهم لم يريدوني بينهم من دون مقابل. لذا فأنا حر أن أعمل في مكان آخر، وكما قلت لك من قبل، وإن لم يكن واجباً على قول ذلك، أنا عامل جيد، يا سيد، وشخص رزين، وخاصة عندما أمتنع عن الشراب، وهذا ما سوف أفعله الآن، إن لم أمت قبل ذلك".

"من أجل أن توفر المال من أجل إضرابٍ آخر، حسب ما أظن؟".

"لا، سأكون راضياً لو كنت حراً للقيام بذلك، بل من أجل أرملة وأطفال ذلك الرجل الذي جن جنونه بـ"الهروات" التي أحضرتها، وفقد عمله بسبب "الأيرلندي" الذي لا يعرف السَّدَى من اللُحمة[66]".

"حسناً، من الأفضل لك أن تعمل في مجال آخر، إن كان لديك مثل هذه النوايا الطيبة لفعل الخير. لا أنصحك بالبقاء في ميلتِن، فأنت أصبحت أشهر من نار على علم".

"لو كان الوقت صيفاً"، قال هيغينز، "لعملت ما يعمله الإيرلنديون، وألتحق بالبحرية، أو أجمع التبن، أو ما شابه، ولا أعود إلى ميلتِن ثانية. لكنه الشتاء، وسيتضور الأطفال جوعاً".

"ستكون بحاراً رائعاً! لم لا تستطيع عمل نصف يوم من السخرية من إيرلندي".

"عندئذ سأطالب بأجر نصف يوم مقابل اثنتي عشرة ساعة عمل، إن استطعت أن أقوم بعمل نصف يوم. أنت لا تعلم أي مكان آخر بعيداً عن المصانع يمكنهم أن يعطوني فرصة، إن كنتُ، كما قلت، كرة من النار؟ سأقبل بالأجر الذي يرونني أستحقه، من أجل أولئك الأطفال".

"ألا ترى ماذا ستصبح؟ هراوة. وستنال أجراً أقل من العمال الآخرين، وكل هذا من أجل أطفال رجل آخر. فكر جيداً كيف كنتم تستغلون عاملاً فقيراً لا يسعى سوى لتأمين لقمة عيش أطفاله، ثم تنقض عليه أنت واتحادك. لا، لا،

---

(66) السَّدَى (المفرد سَدَاة وتجمع على أَسْدَاء وأَسْدِيَة) (بالإنكليزية: Warp) هي خيوط نسيج الثوبِ الّتي تُمَدُّ طولاً، وهو خلاف اللُّحْمَة (Weft) التي تمتد عرضًا. وهي أي خيط من خيوط النسيج يمكن أن تستخدم لإنتاج الأقمشة ذات الخيوط المتشابكة مثل الأقمشة المنسوجة أو المحيكة. (م)

إن كان من أجل تذكيرك بالطريقة التي استغليتم فيها أولئك العمال المساكين، أقول لك لا! رداً على طلبك. لن أعطيك عملاً. لن أقول إني لا أصدق حجتك للقدوم إلى هنا تطلب عملاً، فانا لا أعرف شيئاً عن ذلك. قد يكون ما تقولوه صحيحاً، وقد لا يكون. على أي حال، هذه قصة غير معقولة. دعني أمر. لن أعطيك عملاً. هذا هو جوابي".

"سمعت الجواب، يا سيد. ما كنت لأزعجك لو لم يطلب أحدهم مني أن آتي إليك ظناً منه أنه لديك شيء من الرحمة في قلبك. لكنه أخطأ، وأنا ضُللت، وليست هذه المرة الأولى التي تضلل فيها امرأة رجلاً".

"أخبرها ألا تتدخل فيما لا يعنيها في المرة القادمة، كيلا تضيع وقتي ووقتك. أعتقد أن النساء هنَّ أساس كل علة في هذا العالم. هيا انصرف".

"أنا ممتن لك يا سيدي على لطفك، وعلى الأخص طريقتك في إلقاء تحية الوداع".

لم يكلف السيد ثورنتِن نفسه عناء الرد. لكنه عندما نظر عبر النافذة بعد دقيقة، فوجئ بتلك القامة المنحنية المتهدلة والمشية المتثاقلة التي تتناقض على نحو غريب مع حزم وتصميم الرجل الذي كان يتحدث إليه. اندفع مسرعاً إلى مسكن الحارس:

"كم مضى على هذا الرجل هيغينز وهو ينتظرني هنا؟".

"كان واقفاً خارج البوابة قبل الساعة الثامنة. وأظن أنه بقي في مكانه منذ ذلك الحين".

"والساعة الآن...؟

"الواحدة، يا سيدي".

"خمس ساعات"، تمتم السيد ثورنتِن في سره؛ "إنها فترة طويلة بالنسبة إلى رجل كي ينتظر وهو لا يفعل شيئاً سوى الأمل أولاً، ومن ثم الخوف والقلق".

صناعة الأصدقاء

بعد أن تركت السيدة ثورنتِن، حبست مارغريت نفسها في غرفتها وأخذت تتمشى بطريقتها القديمة المعتادة للتعبير عن غضبها، ثم تذكرت أنه في منزل صغير كهذا يمكن سماع كل خطوة من غرفة لأخرى، فجلست حتى غادرت السيدة ثورنتِن المنزل بأمان. أجبرت نفسها على استرجاع الحديث الذي دار بينهما كلمة كلمة، وقسرت ذاكرتها على المرور عبر تلك الكلمات. وفي النهاية، نهضت من مكانها، وقالت لنفسها بنبرة حزينة:

"على أي حال، كلماتها لا تمسني بشيء، فأنا بريئة من كل الدوافع التي نسبتها إلي. لكن لا يزال من الصعب أن أتخيل أحداً ـ أيَّ امرأة ـ أن تصدق على امرأة أخرى بهذه السهولة. أنه أمر محزن وقاسٍ. لم تتهمني في ما أخطأت. فهي لا تعرف شيئاً. وهو لم يخبرها. ربما كان عليَّ أن أعرف بأنه لن يخبرها!".

رفعت رأسها وكأنها تفتخر برقة المشاعر التي أظهرها السيد ثورنتِن:

"لا بد أنه هو أيضاً يظن أن فريدريك عشيقاً". (احمرت خجلاً حالما عبرت هذه الكلمة مخيلتها) "بات الأمر واضحاً الآن. فهو لا يدري بأني أدليت بأقوال كاذبة فحسب، بل يعتقد أن شخصاً آخراً يهتم بي، وأني...يا إلهي! يا إلهي! ماذا عساي أفعل؟ ماذا يعني هذا؟ لِمَ اهتم بما يفكر أبعد من مجرد خسارتي لمكانتي في نظره في ما يتعلق بقول الحقيقة أو عدمها؟ لا أدري. لكنني أشعر بالتعاسة. كم كانت هذه السنة التي مرت بائسة! أشعر وكأني عبرت من الطفولة إلى الشيخوخة من دون العبور بمرحلة الشباب، لا إحساس بالأنوثة، تلاشت آمال وأمنيات الشباب، لن أتزوج أبداً، ولم يبق لي سوى انتظار الهموم والأحزان وكأني

امـرأة عجـوز وبالـروح المحزونـة الباكيـة نفسـها. كـم تتعبنـي هـذه الدعـوة للتحـلي بالقـوة. قـد أسـتطيع التحمـل مـن أجـل أبي، فهـذا واجـب طبيعـي مقـدس. وأظـن أني قـادرة عـلى التحمـل عـلى أي حـال، قـد يكـون لي القـدرة لأشـعر بالاسـتياء مـن شـكوك السـيد ثورنـتِن الظالمـة الوقحـة. لكـن كـم هـو قـاس أن أشـعر كيـف أنـه حتـماً يـسيء فهمـي. مـا الـذي جـرى لي حتـى أغـدو كئيبـة إلى هـذا الحـد اليـوم؟ لا أعلـم. كل مـا أعرفـه أني لا أسـتطيع أن أكـون غـير ذلـك. لا، لـن أكـون"، قالـت وهـي تقـف منتصبـة عـلى قدميهـا. "لـن أكـون، لـن أفكـر بنفـسي وبموقفـي. ولـن أفتـش في مشـاعري وأحاسـيسي. فـلا جـدوى مـن ذلـك الآن. ربمـا في وقـت مـا، إن كُتبـت لي الحيـاة لأصبـح عجـوزاً، قـد أجلـس بجانـب موقـد النـار أراقـب جمراتهـا المتوهجـة، وأتخيـل حيـاتي التـي ربمـا كان مـن المفـترض أن تكـون".

طـوال هـذا الوقـت، كانـت مارغريـت ترتـدي ملابسـها بسرعـة للخـروج، وهـي تتوقـف مـن حـين لآخـر كي تجفـف دموعهـا بحركـة تـدل عـلى عـدم صبرهـا عـلى احتـمال أن تعـاود الدمـوع جريانهـا، عـلى الرغـم مـن شـجاعتها.

"كـم مـن امـرأة ارتكبـت خطـأً كبـيراً، ولم تكتشـف ذلـك إلا متأخـراً. وكـم كنـت متكـبرة وصَلِفـة عندمـا تكلمـت معـه ذلـك اليـوم! لكننـي لم أكـن أعـرف حينـذاك. إذ راحـت الأمـور تتكشـف إليّ تدريجيـاً، ولا أدري أيـن بـدأت. لا يمكننـي أن أتراجـع الآن. مـن الصعـب أن أتـصرف معـه بالطريقـة نفسـها، وأنـا أعـرف هـذه الحقيقـة البائسـة. سـأبقى هادئـة ومتماسـكة، ولا أقـول سـوى القليـل. لكـن، أنـا واثقـة بـأني ربمـا لـن أراه، أنـه يتجنبنـا بـكل تأكيـد. وهـذا أسـوأ مـا في الأمـر. ليـس مسـتغرباً أن يتجنبنـي مـا دام يظـن كل ذلـك الظـن بي".

خرجـت مـن المنـزل بسرعـة نحـو الريـف، وهـي تحـاول منـع نفسـها مـن التفكـير بسرعـة الحركـة.

وعندما وقفت على عتبة الباب، عند عودتها، جاء أبوها:

"أيتهـا الفتـاة الطيبـة!"، قـال لهـا. "كنـت تزوريـن السـيدة باوتـشر. كنـت أفكـر في الذهـاب إلى هنـاك، إن كان لـدي متسـع مـن الوقـت، قبـل الغـداء".

"كلا، يا أبي؛ لم أذهب لزيارتها"، قالت مارغريت محمرة الوجه. "كنت أفكر بها. لكنني سأذهب مباشرة بعد الغداء، أثناء فترة قيلولتك".

ذهبت مارغريت بالموعد المحدد. كانت السيدة باوتشر مريضة جداً، وليست متعبة فحسب. بدا واضحاً أن تلك الجارة اللطيفة التي جاءت ذلك اليوم تولت كل شيء بنفسها. أُرسلت الأطفال إلى الجيران. أخذت ماري هيغينز الأطفال الثلاثة الأصغر سناً وقت الغداء. ومنذ ذلك الحين ذهب نيكولاس لإحضار طبيب، ولم يعد بعد. كانت السيدة باوتشر تحتضر، ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئاً سوى الانتظار. كانت مارغريت تود أن تسمع رأي الطبيب، وظنت أنه من الأفضل لها أن تذهب وترى آل هيغينز في هذه الأثناء. ربما تسمع إن كان نيكولاس قد قابل السيد ثورنتن من أجل العمل.

وجدت نيكولاس مشغولاً بتدوير قطعة نقود على سطح الخزانة الصغيرة التي توضع فيها الأطباق من أجل تسلية الأطفال الذين كانوا يتعلقون به من دون خوف. كذلك كان نيكولاس مثلهم يبتسم كلما طالت فترة دوران القطعة النقدية. ورأته مارغريت في تلك النظرة السعيدة بانشغاله بتسلية الأطفال. لكن عندما توقفت القطعة النقدية عن الدوران، بدأ "جون الصغير" يبكي.

"تعال"، نادته مارغريت، وأبعدته عن الخزانة، ثم حملته ووضعت ساعتها على أذنه، وسألت نيكولاس إن كان قد التقى السيد ثورنتن.

تغيرت ملامح وجهه في الحال.

"أجل!" أجابها. "رأيت وسمعت الكثير منه".

"رفض أن يعطيك عملاً؟" قالت مارغريت، بأسى.

"كنت أتوقع أن يفعل ذلك. من العبث انتظار الرحمة على أيدي هؤلاء السادة. أنت غريبة عن هذا المكان، ولا يمكن أن تعرفي أساليبهم، أما أنا فأعرفها جيداً"

"أنا آسفة لأني طلبت منك أن تذهب. هل كان غاضباً؟ لم يتكلم معك كما فعل هامبر، أليس كذلك؟".

"لم يكن في غاية التهذيب"، قال هيغينز، وهو يُدوِّر قطعة النقود مرة ثانية

ليسلي نفسه والأطفال. "لا داعي للقلق، ما زلت في مكاني، سأعود للبحث عن عمل. لكني رددت عليه كما يجب. قلت له إني لا أحتفظ برأي جيد عنه كي أعود مرة ثانية، لكنك أنتِ من نصحني بالمجيء، وأني التزمت بكلمتي معك".

"أخبرته بأني أنا من أرسلتك؟".

"لا أدري إن ذكرتك بالاسم. لا أظن أني فعلت ذلك، بل قلت له إن امرأة تعرفكَ جيداً هي من نصحتني كي آتي عساني أجد في قلبك شيئاً من الرحمة".

"وهو...؟" سألته مارغريت.

"طلب مني أن أخبرك أن تهتمي بشؤونك ـ انظروا يا أطفال، هذه أطول دورة حتى الآن ـ وهذه كانت من الكلمات المهذبة التي استخدمها معي. لكن لا بأس. لمَّا نزلْ في المكان نفسه؛ حتى لو اضطررت لتكسير الصخور في الطريق، لن أدع هؤلاء الأطفال يتضورون جوعاً".

أنزلت مارغريت جوني الصغير الذي كان يتخبط بين ذراعيها، وأعادته إلى مكانه فوق خزانة الأطباق.

"أنا جد آسفة لأني طلبت منك أن تذهب إلى مصنع السيد ثورنتِن. لقد خيب أملي".

سمعت وقع جلبة خفيفة خلفها، فالتفتت هي وهيغينز في وقت واحد نحو مصدر الصوت، وإذا بالسيد ثورنتِن واقف عند الباب وعلى وجهه نظرة تشي بمفاجأة غير سارة. وفي انصياع تام لردة فعلها السريعة، مرت من أمامه من دون أن تنطق بكلمة واحدة، واكتفت بانحناءة من رأسها لتخفي ذلك الشحوب المباغت الذي شعرت به يرتسم على وجهها. أحنى لها رأسه، ثم أغلق الباب وراءها. وبينما كانت تتوجه مسرعة إلى منزل السيدة باوتشر، سمعت صوت غلق الباب، الأمر الذي زاد من مقدار شعورها بالإهانة. كذلك كان السيد ثورنتِن منزعجاً من رؤيتها هناك. كان في قلبه رقة، "شيء من الرحمة" كما سماها هيغينز، ولكن كان لديه الكبرياء لإخفائها؛ والتكتم عليها حبيسة مكانٍ مقدس آمن، كما كان يشعر بالغيرة من أي ظرف يحاول الوصول إليه. لكنه

وإن كان يكـره الكشـف عـن رقتـه، كان حريصـاً بالقـدر نفسـه أن يعـترف النـاس بعدالتـه؛ لاسـيما أنـه شـعر بأنـه كان ظالمـاً في ازدراءه الاسـتماع لأي شـخص انتظـره خمـس سـاعات بصبر متواضـع ليتحـدث إليـه. صحيـح أن هـذا الرجـل تحـدث معـه بجـرأة عندمـا سُـنحت لـه الفرصـة لذلـك، لكـن هـذا لم يعـنِ لـه شـيئاً. عـلى العكـس، حـاز الرجـل عـلى إعجابـه، وكان يـدرك أنـه كان في مـزاج سريـع الغضـب ربمـا كان سـبباً جعلهـما يفترقـان عـلى خـلاف. إنهـا السـاعات الخمـس مـن الانتظـار هـي مـن فاجـأت السـيد ثورنـتِن. فلـم يكـن لديـه خمـس سـاعات يوفرهـا لنفسـه، بـل مجـرد سـاعة أو سـاعتين مـن التفكـير والعمـل البـدني كي يجمـع الأدلـة التـي تثبـت صحـة روايـة هيغينـز، وطبيعـة شـخصيته، ومغـزى حياتـه. حـاول ألا يقتنـع بمـا سـمعه، لكنـه لم يجـد مفـراً مـن الاعـتراف بـأن كل مـا قالـه هيغينـز كان صحيحـاً. وازدادت هـذه القناعـة رسـوخاً، وكأنهـا السـحر، لتلامـس رقـة قلبـه المخبـوءة، وصـبر الرجـل، ونبالـة دوافعـه (لأنـه كان قـد علـم بالشـجار الـذي وقـع بـين هينغينـز وباوتـشر)، لينـسى بذلـك كليـاً أسـباب العدالـة، ويقاطعهـا مـع غريـزة أكـثر وأسـمى قدسـية. جـاء ليعـرض عـلى هيغينـز العمـل في مصنعـه، لكـن شـعر بالضيـق والانزعـاج مـن رؤيـة مارغريـت هنـاك أكـثر مـن سـماعه للكلـمات التـي قالتهـا لهيغينـز، لأنـه أدرك في تلـك اللحظـة أنهـا هـي مـن طلبـت مـن هيغينـز أن يذهـب إليـه. وهنـا خـشي تقبـل أيـة فكـرة منهـا كدافـع لمـا كان يفعلـه، لأنـه الصـواب بعينـه فحسـب.

"إذاً هـذه هـي كانـت السـيدة التـي أشرت إليهـا بأنهـا امـرأة؟" قـال لهيغينـز بنـبرة اسـتياء. "كان بإمكانـك أن تخـبرني مـن تكـون".

"ربمـا عندئـذٍ كنـت سـتتحدث عنهـا بطريقـة أكـثر تهذيبـاً مـما قلـت، وربمـا سيكون لـك أمٌ تضبـط لسـانك عندمـا كنـت تقـول إن النسـاء أسـاس كل العلـل".

"طبعاً، أخبرت الآنسة هيل بكل هذا؟".

"بالتأكيـد. أو عـلى الأقـل أظـن ذلـك. أخبرتهـا ألا تتدخـل مـرة أخـرى في أي شيء يخصـك".

"أطفـال مـن هـؤلاء، أطفالـك؟". كان السـيد يعلـم جيـداً مـن هـم هـؤلاء الأطفـال

مما سمعه، لكنه شعر بالإحراج من تغيير مسار الحديث الذي بدأ بداية غير مُبشِّرة.

"إنهم ليسوا أطفالي، وهم أطفالي".

"إنهم أطفال الرجل الذين كنت تتحدث عنهم هذا الصباح؟".

"عندما قلت"، أجابه هيغينز، وهو يستدير، بغضب أخفق في كبته، "بأن قصتي قد تكون أو لا تكون صحيحة، لكنها ليست معقولة. يا سيد، لم أنس ما قلته".

التزم السيد ثورنتِن الصمت لدقيقة، ثم قال له "ليس لدي المزيد لأقوله. أتذكر جيداً ما قلته. تحدثت معك بشأن هؤلاء الأطفال بطريقة لم يكن يحق لي أن استخدمها. لم أصدقك. ما كنت، أنا شخصياً لأقبل أن أرعى أطفال رجل لو تصرف معي على النحو الذي عاملك به باوتشر. أما الآن، أنا متأكد من أنك قلت الحقيقة. أرجو المعذرة".

لم يلتفت هيغينز إليه، ولم يرد عليه في الحال. لكنه عندما تكلم، كانت نبرته أخف، وإن كانت كلماته قاسية بما يكفي.

"لا يحق لك أن تحشر نفسك في ما جرى بيني وبين باوتشر. مات الرجل، وأنا آسف على ذلك. وهذا يكفي".

"بالفعل يكفي. هل ستأتي للعمل معي؟ هذا ما جئت من أجله".

تراخى عناد هيغينز، واستعاد قوته، ووقف ثابتاً. لم يكن يريد الكلام. والسيد ثورنتِن لن يكرر السؤال. نظر هيغينز إلى الأطفال.

"قلت عني بأني وقح وكاذب ومثير للمتاعب. وربما قلت، وفي ذلك شيء من الحقيقة، أني أشرب الكحول من حين لآخر. وأنا وصفتك بكلب البولدوغ العجوز، والسيد اللئيم القاسي. هنا نقف متعادلين. لكن ماذا بشأن الأطفال، يا سيدي، هل تعتقد بأننا يمكننا الوصول إلى تفاهم؟".

"حسناً" قال السيد ثورنتِن، وهو يطلق نصف ضحكة، "لم يكن اقتراحي للتوصل إلى تفاهم. لكنه سيكون تخفيفاً لما لم تستطع أن تخفيه. فلا أحد منا يمكن أن يظن بالآخر سوءاً أكثر مما نفعله الآن".

"هـذا صحيـح"، قـال هيغينـز باهتـمام شـديد. "منـذ رأيتـك وأنـا أفكـر بأنهـا كانـت رحمـة لي أنـك لم تقبـل أن أعمـل لديـك، لأني لم أرَ أحـداً لا أسـتطيع الخضـوع لـه مثلـك أنـت. ربمـا كان حكمـي متسرعـاً. والعمـل هـو العمـل لمـن هـم مـن أمثـالي. أجـل يـا سـيدي، سـآتي للعمـل، وشـكراً لـك؛ وهـذا اتفـاق بيننـا". قـال هيغينـز، وهـو يسـتدير فجـأة ليقابـل السـيد ثورنـتِن وجهـاً لوجـه لأول مـرة.

"وهـذا اتفـاق بيننـا"، قـال السـيد ثورنـتِن وهـو يشـد عـلى يـد هيغينـز "أرجـو أن تحـرص عـلى القـدوم في الموعـد المحـدد" تابـع كلامـه بصفتـه رب العمـل. "لا مـكان عنـدي للكسـالى. نلتـزم بمواعيـد محـددة للعمـل. وإن ضبطتـك تثـير المتاعـب، سـترحل عـلى الفـور. هـا أنـت الآن تعلـم أيـن تقـف".

"تكلمـت عـن حكمتـي هــذا الصبـاح. هــل لي أن أحضرهـا معــي إلى المصنـع، أم تفضــل أن آتي مــن دون أفــكاري".

"دع أفــكارك جانبــاً إن كنــت ستســتخدمها للتدخــل في شــؤوني، احتفــظ بأفــكارك لنفســك".

"يلزمنـي قـدر كبـير مـن العقـل والحكمـة لمعرفـة أيـن ينتهـي عمـلي، وأيـن يبـدأ عملـك"

"عملك لم يبدأ بعد، أما عملي فما زال ينتظرني. نهارك سعيد".

قبـل أن يصـل السـيد ثورنـتِن إلى بـاب منـزل السـيدة باوتـشر، كانـت مارغريـت قـد خرجـت. لم تـره، فتبعهـا لمسـافة قصـيرة معجبـاً بمشـيتها الخفيفـة، وقامتهـا الطويلـة الرشـيقة. وفجـأة، عكـر صفـو هـذا الشـعور البسـيط إحساسـه بالغـيرة. تمنـى لـو يلحـق بهـا ويكلمهـا ويـرى كيـف سـتقابله طالمـا أنهـا لا بـد تعلـم بأنـه عـلى معرفـه بعلاقتهـا الأخـرى. وتمنـى أيضـاً، وإن شـعر بالخجـل مـن هـذه الأمنيـة، أن تعـرف أنـه سـوّغ لهـا سـبب إرسـالها هيغينـز ليطلـب عمـلاً في مصنعـه، وأنـه تراجـع عـن القـرار الـذي اتخـذه صبـاح اليـوم. توجـه نحوهـا، فأحسـت برعشـة خفيفـة.

"اسـمحي لي يـا آنسـة هيـل، أن أقـول لـك إنـك تسرعـت في التعبـير عـن خيبـة أملـك بي. لقـد وافقـت عـلى طلـب هيغينـز للعمـل لـدي".

"أنا سعيدة بسماع ذلك"، قالت ببرود.

"أخبرني أنه نقل إليك ما قلته هذا الصباح..." تردد السيد ثورنتِن. فبادرته بالكلام:

"بشأن عدم تدخل النساء. لك كامل الحق في أن تعبر عن رأيك الذي كان في مكانه، لا شك لدي في ذلك، ولكن،" تابعت كلامها بحماس أكبر بقليل، "لم يخبرك هيغينز بالحقيقة كما هي". ذكرتها كلمة "الحقيقة" بكذبتها، وتوقفت عن الكلام وهي تشعر بالضيق.

في البداية، احتار السيد ثورنتِن في تفسير سبب صمتها، لكنه عندئذ تذكر ما أدلت به من أقوال كاذبة، وكل هذا كان أمراً لا مفر منه. "الحقيقة كما هي!" قال لها. "قلة قليلة من الناس يقولون الحقيقة كاملة. لم يعد لي أمل في ذلك. أليس لديك تفسير ما تودين قوله لي؟ لا بد أنك تدركين ما لا يمكن إلا أن أفكر به".

صمتت مارغريت. كانت تتساءل بينها وبين نفسها إن كان هناك أي تفسير لا يتناقض مع وفائها لفريدريك.

"لا، لا أود أن أسألك المزيد كيلا أبدو وكأني أحاول استدراجك في الكلام. في الوقت الحاضر، صدقيني، سرك في أمان معي. لكنك، اسمحي لي بالقول، أنها لمجازفة خطيرة أن تكوني متهورة. أتحدث معك بصفتي صديقاً لوالدك فحسب. إن كان لدي أي فكرة أو اهتمام آخر. انتهى الأمر الآن، ولم أعد مهتماً بشيء".

"أعرف ذلك". قالت مارغريت وهي تحاول أن تجبر نفسها على التكلم بنبرة لا مبالية. "أنا أدرك تماماً كيف أبدو لك، لكن السر يخص شخصاً آخراً لا يمكنني أن أفسره لك من دون أن ألحق الضرر به".

"ليس عندي أدنى رغبة بالتدخل في أسرار ذلك السيد"، قال، بغضب يتصاعد "ما يهمني هو أنت، كصديق لا أكثر. قد لا تصدقيني، يا آنسة هيل، لكن هذا هو الواقع، على الرغم من مسألة الملاحقة القانونية التي، للأسف، هددتك بها ذات مرة، لكن الأمر انتهى، ومضى. هل تصدقيني يا آنسة هيل؟".

"أجل"، قالت مارغريت بصوت هادئ حزين.

"إذن، لا أرى في الواقع سبباً لنمشي معاً. ظننت، ربما، لديك ما تقولينه لي، لكن كما أرى، لا أحد منا يعني للآخر شيئاً. إن كنت مقتنعة تماماً بأن أي عاطفة حمقاء من جانبي انتهت كلياً، أتمنى لك نهاراً سعيداً". ومضى في طريقه مسرعاً.

"ما الذي يقصده؟"، تمتمت مارغريت في سرها، "ما الذي كان يعنيه بكلامه، وكأنني لا أنفك عن التفكير بأنه يهتم بي، في حين أنا أعرف أنه لا يأبه لي، لا يمكن أن يكون كذلك. لا بد أن والدته قد أخبرته بتلك الأمور المريعة عني. لكنني لن أهتم به. بالتأكيد، أنا سيدة نفسي بما يكفي لألجم هذا الشعور الهائج، والبائس، والغريب الذي أغراني حتى لأخون فريدريك العزيز كي أستعيد مكانتي في نظره. هيا! أيها القلب الصغير المسكين! ابتهج وكن شجاعاً. سيعني كل واحد منا للآخر الشيء الكثير، حتى لو نبذونا".

فوجئ والدها بتلك السعادة التي بدت عليها هذا الصباح. إذ راحت تتحدث من دون توقف، وتجبر حس الدعابة الطبيعي لديها على أن يكتسي نبرة غير مألوفة، وإن كانت ممزوجة بمسحة من المرارة في الكثير مما قالته. وإن كان وصفها لشارع هارلي يمتاز بقليل من السخرية، إلا أن هذا لم يمنع والدها من مراقبتها بدافع الاطمئنان عليها، كما كان سيفعل في وقت آخر، لأنه كان سعيداً لرؤيتها وقد ألقت همومها وراء ظهرها. وعند منتصف المساء، استُدعيت إلى الرواق في الطابق السفلي للتحدث مع ماري هيغينز. عندما عادت، تخيل السيد هيل أنه لمح آثار الدموع على خديها. لكن الأمر لم يكن معقولاً بما أنها عادت ومعها أخبار مفرحة تقول إن هيغينز حصل على عمل في مصنع السيد ثورنتِن. على أي حال، فترت حماستها وتلاشت تقريباً تلك البهجة ووجدت نفسها غير قادرة على مواصلة الكلام، على الأقل بالزخم الذي كانت عليه من قبل. بقيت حالتها النفسية تتقلب بين مد وجزر بشكل غريب على مدار أيام عدة حتى بدأ والدها يشعر بالقلق، عندما وصلت أنباء تَعِدُ بتغير ما في روتين حياتها. فقد تلقى السيد هيل رسالة من السيد بيل تخبره بأن هذا الأخير سيأتي لزيارتهم، وتخيل السيد هيل أن لقاءه المنتظر بصديقه القديم من أكسفورد من شأنه أن يترك تحولاً إيجابياً على أفكار مارغريت كما هو متوقع بالنسبة

إليـه. حاولـت مارغريـت أن تبـدي اهتمامـاً بمـا يسـعد والدهـا، لكـن لم تكـن تهتـم بالسـيد بيـل عـلى الرغـم مـن أنـه كان عرابهـا لعشريـن مـرة. بالمقابـل وجـدت ضالتها في رسـالة إيديـث التـي كانـت مفعمـة بمشـاعر الحـزن والتعاطـف عـلى وفـاة خالتهـا، ومليئـة بالتفاصيـل عنهـا، وعـن زوجهـا، وطفلهـا. وذكـرت في رسـالتها أن الطقـس لم يكـن مناسـباً للطفـل، وأن الخالـة شـو تفكـر في العـودة إلى إنكلـترا، وأنـه مـن المحتمل أن يعـودوا جميعـاً للعيـش سـوية في منزلهـم بشـارع هـارلي الـذي سـيبقى ناقصـاً مـن دون مارغريـت. شـعرت مارغريـت بالحنـين إلى المنـزل القديـم وهـدوء الحيـاة الرتيبـة والمنظمـة. صحيـح أنهـا كانـت في بعـض الأحيـان تجـد هـذه الحيـاة مملـة، لكنهـا ومنـذ ذلـك الحـين تعرضـت لهبـات عاصفـة، ونـال منهـا التعـب والإرهـاق بسـبب مـا كانـت تعانيـه مـن صراع محتـدم في داخلهـا مؤخـراً إلى حـد ظنـت معـه أن حتـى تلـك الحيـاة برتابتهـا وجمودهـا سـتكون بمثابـة اسـتراحة لهـا لاسـتعادة نشـاطها وحيويتهـا. لذلـك راحـت مارغريـت تتطلـع إلى زيـارة آل لينوكـس عنـد عودتهـما إلى إنكلـترا، بهـدف، وليـس عـلى أمـل، الراحـة والمتعـة لتسـتعيد طاقتهـا وقدرتهـا عـلى التحكـم بنفسـها. فقـد بـدت كل الموضوعـات، في الوقـت الحـاضر، وكأنهـا تميـل نحـو السـيد ثورنـتِن، كـما لـو أنهـا لا تسـتطيع نسـيانه رغـم كل محاولاتهـا. فـإن ذهبـت إلى منـزل هيغينـز، كانـت تسـمع أخبـاره، ووالدهـا اسـتأنف معـه الـدروس، وكان ينقـل لهـا بعضـاً مـن آرائـه. حتـى زيـارة السـيد بيـل لم تخـل مـن ذكـر اسـم ثورنـتِن المسـتأجر. فقـد كتـب في رسـالته أنـه سـيكون مشـغولاً لوقـت طويـل مـع السـيد ثورنـتِن في الإعـداد لعقـد إيجـار جديـد لا بـد مـن الاتفـاق عليـه.

الخروج عن الروتين

لم تتوقع مارغريت لنفسها الكثير من المتعة من زيارة السيد بيل، وكانت تترقبها من أجل والدها فحسب. لكن عندما وصل عرابها، سرعان ما وجدت نفسها داخل واحد من أكثر مواقع الصداقة عفوية في الدنيا. قال لها إن لا فضل لها في كونها ما كانت عليه، فتاة تسعى إلى قلبه، بوصف ذلك قوة وراثية كانت تمتلكها، وتستحوذ على تقديره واهتمامه. بالمقابل، امتدحته مارغريت لكونه شاباً نضراً في رداء وقبعة الزمالة في أكسفورد.

"أعني الشباب والنضارة في دفء المشاعر والعطف. مع أسفي للقول إني أرى آراءكم هي أقدم الآراء وأكثرها تعفناً التي صادفتها منذ فترة طويلة".

"استمع لما تقوله ابنتك، يا هيل! أظن أن السكنى في ميلتِن أفسدتها. إنها ديموقراطية، وجمهورية حمراء، وعضو في جمعيه السلام، واشتراكية".

"كل هذا، يا أبي، لأني أقف مع تطور التجارة. يبدو أن السيد بيل كان يفضل لو نبقى على مقايضة جلود الحيوانات البرية بثمار البلوط".

"لا، لا. بل كنت سأحرث الأرض وأزرع البطاطا. وأحلق جلد الحيوان البري وأصنع قماشاً من صوفه. لا تبالغي، يا آنسة. لكني مللت من هذه الضجة. الكل يدوس الكل في اندفاعه وراء الثروة والغنى".

"لا يستطيع كل شخص يجلس مرتاحاً في غرف الجامعة، ويترك ثروته تكبر من دون أن يقوم بأي جهد. بالتأكيد، كم من رجل سيغدو شاكراً إن ازدادت ممتلكاته مثلك، من دون أي مشقة أو تعب"، قال السيد هيل.

"لا أعتقد أنهم سيكونون شاكرين، لأنهم يحبون الحركة والصراع. أما بالنسبة

للجلوس ساكناً، والتعلم من الماضي، واستشراف المستقبل بعمل مخلص بروح تنبؤية؛ فلِمَ كل هذا! لا أظن أن هناك شخصاً واحداً في ميلتِن يعرف كيف يبقى جالساً بلا حراك؛ وهذا فن عظيم".

"أهل ميلتِن! أشك في ذلك، بل قل إن أهل أكسفورد لا يعرفون كيف يتحركون. سيكون أمراً رائعاً لو يختلطوا مع بعضهم البعض أكثر".

"قد يكون ذلك في مصلحة أهل ميلتِن. هناك العديد من الأشياء التي قد تكون في صالحهم، لكنها ليست كذلك بالنسبة للآخرين".

"ألستَ من أهل ميلتِن؟" سألته مارغريت. "كنت أتوقعك أكثر اعتزازاً بمدينتك".

"اعترف لك بأني لا أرى فيها شيئاً يدعو للاعتزاز. لو تأتين إلى أكسفورد، سأريك مكاناً تشعرين فيه بالمجد".

"حسناً!" قال السيد هيل، "سيأتي السيد ثورنتِن الليلة لشرب الشاي معنا، وهو فخور بميلتِن كما أنت فخور بأكسفورد، ويجب أن تحاولا كلاكما أن تتمتعا بعقلية أكثر انفتاحاً وتحرراً".

"لا أريد أن أكون أكثر انفتاحاً، شكراً لك"، قال السيد بيل.

"هل سيأتي السيد ثورنتِن لشرب الشاي، يا أبي!" سألت مارغريت بصوتٍ منخفض.

"أما على موعد جلسة الشاي أو بعدها مباشرة، طلب مني ألا ننتظره".

كان السيد ثورنتِن قد حسم أمره بشأن عدم سؤال والدته عن المدى الذي بلغته في تنفيذ خطتها للتحدث مع مارغريت عن سوء تصرفها. كان واثقاً من إن وصف والدته، في حال جرت تلك المقابلة، لما دار بين الاثنين لن يزيده إلا ضيقاً وانزعاجاً، على الرغم من إدراكه طوال الوقت بالإضافات التي حظيت بها المقابلة في مخيلتها. تجنب سماع اسم مارغريت يُذكر أمامه، وهو يلومها، ويشعر بالغيرة منها، وهو يُنكرها... ورغم ذلك أحبها بألم رغماً عنه. حلم بها تقترب منه وهي ترقص فاتحة ذراعيها بخفة وفرحٍ جعلته يمقتها حتى وهي تُغريه. إلا أن هذا الانطباع لصورة مارغريت، مع تفريغها من شخصيتها، وكأن

روحاً شريرة تلبستها، انطبع عميقاً في مخيلته إلى درجة أنه عندما استفاق من تخيلاته وجد نفسه غير قادر على التمييز بين أونا ودويسا[67]، وأن كرهه لهذه الأخيرة كان يغلف ويشوه الأولى. فهو لا ينشد صحبتها ولا يتجنبها. ولكي يقنع نفسه بقدرته على التحكم بمشاعره، انهمك في كل تفصيل من عمله عصر ذلك اليوم، وقيَّدَ كل حركة داخل حالة من التفكير والتباطؤ غير الطبيعي، وهكذا لم يصل إلى منزل السيد هيل إلا بعد أن تجاوزت الساعة الثامنة مساء. كان هناك ترتيبات تخص العمل بحثها مع السيد بيل في غرفة مكتب السيد هيل. وبعد الانتهاء منها، بقي السيد بيل جالساً قرب موقد النار يستفيض بالحديث بيأس وقلق عندما كان من المفترض بهما أن يصعدا إلى الطابق العلوي. إلا أن السيد ثورنتِن لم يقل شيئاً بخصوص مغادرة غرفة المكتب، وشعر بالضيق حتى أنه عدَّ السيد بيل واحداً من أكثر الأشخاص المُضجرين، ورد السيد بيل على هذه التحية سراً بأحسن منها عندما وجد السيد ثورنتِن أجلف شخص قابله في حياته، ويفتقد إلى النباهة واللباقة. أخيراً سمعا جلبة في الغرفة فوقهما تشير إلى أنه من المستحسن أن يصعدا إلى الطابق الثاني. كانت مارغريت جالسة وأمامها رسالة راحت تناقش مضمونها مع والدها. وُضعت الرسالة جانباً حالما دخل السيدان، لكن حواس السيد ثورنتِن المتيقظة التقطت بضع كلمات قالها السيد هيل إلى السيد بيل.

"رسالة من السيد هنري لينوكس بعثت الأمل في قلب مارغريت".

هزَّ السيد بيل رأسه. احمرّت مارغريت مثل وردة عندما نظر إليها السيد ثورنتِن. راودته رغبة جارفة بأن ينهض ويغادر الغرفة في تلك اللحظة، ولا يضع قدميه في هذا المنزل مرة أخرى.

"كنا نظن"، قال السيد هيل، "بأنكما، أنت والسيد وثورنتِن، أخذتما بنصيحة مارغريت، وكان كل واحد منكما يحاول استمالة الطرف الآخر إلى موقفه، طالما أنكما قضيتما وقتاً طويلاً في غرفة المكتب".

(67) أونا ودويسا شخصيتان في الملحمة الشعرية التي كتبها الشاعر الإنكليزي إدموند سبِنسر (Edmund Spencer) بعنوان "ملكة الجن" (The Fairie Queen)، حيث تمثل أونا الحقيقة والجمال، بينما تمثل دويسا الزيف والكذب. ومن أجل إغواء حبيب أونا، تظهر له دويسا بمظهر أونا. (م)

"وبالطبـع حسـبتما أنـه لم يبـقَ منـا شيء سـوى رأي واحـد، مثـل ذيـل قطتـي كِلْكينـي[68]. أرجـوك أن تخـبرني أي رأي كنـت تـراه أكـثر عنـاداً وتصلبـاً؟"

لم يكـن لـدى السـيد ثورنـتِن أيُّ فكـرة عـما كانـا يتحدثـان، ولم يشـأ الاستفسـار، إلا أن السـيد هيـل أوضـح لـه بـكل تهذيـب.

"يـا سـيد ثورنـتِن، اتهمنـا، أنـا ومارغريـت، السـيد بيـل هـذا الصبـاح بنـوع مـن التحامـل الأكسـفوردي ـ الـذي يعـود إلى القـرون الوسـطى ـ ضـد مدينتـه، حتـى إن مارغريـت، حسـب مـا أظـن، أشـارت عليـه أنـه سـيكون مفيـداً لـه أن يختلـط قليـلاً مـع صناعيـي ميلـتِن".

"عفـواً. مارغريـت رأت أنـه مـن مصلحـة صناعيـي ميلـتِن أن يختلطـوا أكـثر مـع رجـال أكسـفورد. أليـس كذلـك، يـا مارغريت؟".

"أظـن أني قلـت إنـه مـن مصلحـة الطرفـين أن يلتقيـا، ولا أدري أنهـا كانـت فكـرتي أكـثر مـن كونهـا فكـرة أبي".

"أرأيـت يـا سـيد ثورنـتِن، كان مـن الأفضـل أن يُحسِّـن كل منـا الآخـر عندمـا كنـا في غرفـة المكتـب بـدلاً مـن الحديـث عـن عائـلات سـميث وهاريسـون المنقرضـة. أنـا مسـتعد الآن للقيـام بـدوري. أتسـاءل متـى تنـوون أنتـم رجـال ميلـتِن أن تعيشـوا الحيـاة. إذ يبـدو لي أنكـم تمضـون حياتكـم مشـغولين بجمـع الماديـات مـن أجـل العيـش".

"أظنك تقصد بالعيش المتعة".

"أجـل المتعـة، لكنـي لم أحـدد طبيعتهـا، لأني أرى أنـه يجـب عـلى كلينـا أن يعـدَّ مجـرد اللـذة متعـة زائفة".

"في هذه الحالة، أُفضِّل أن نحدد طبيعة المتعة".

"المتعـة أو البحبوحـة، التمتـع بالسـلطة والنفـوذ التـي يمنحهـا المـال. إنكـم تسـعون وراء جمـع المـال. مـن أجـل مـاذا؟".

(68) إشـارة إلى حكايـة شـعبية في مدينـة كِلكينـي (Kilkenny) الإيرلنديـة عـن قطتـين راحتـا تتقاتـلان بشـكل شرس حتـى لم يتبـق منهـما سـوى الذيـل في النهايـة، أي أنهـما التهمتـا بعضهـما بعضـاً. في القـرن التاسـع عـشر تحولـت الحكايـة إلى تشـبيه مجـازي لأي صراع أو خـلاف يـؤدي إلى دمـار الطرفـين (م)

التزم السيد ثورنتِن الصمت. ثم قال، "حقاً لا أعلم. لكني لا أسعى وراء المال".

"إذاً ماذا؟".

" إنها مسألة خاصة. يتوجب على أولاً أن أكشف نفسي لاستجواب كهذا، ولست واثقاً من أني مستعد للقيام بذلك".

"لا!" قال السيد هيل؛ "لا تدعنا نجعل النقاش شخصياً. فلا أحد منكما يمثل مجموعته، بل أنتما مجرد فردين".

"لست متأكداً إن كانت هذه مجاملة أم لا. لكني أود أن أمثل أكسفورد بجمالها وعلمها وتاريخها القديم المجيد. ما قولك يا مارغريت، ألا يفترض بي أن أشعر بالسعادة؟".

"لا أعرف أكسفورد. لكن هناك فارق كبير بين أن تكون ممثلاً لمدينة، وأن تكون ممثلاً لساكنيها".

"هذا صحيح، يا آنسة مارغريت. تذكرت الآن، كنت تقفين ضدي هذا الصباح مع ميلتِن والصناعة".

انتبهت مارغريت إلى تعبير الدهشة الخاطفة التي ارتسمت في عينيه وهو ينظر إليها، وشعرت بالانزعاج مما يمكن أن يخطر على باله من تفسير لكلام السيد بيل الذي تابع قائلاً:

"ليتني أستطيع أن أريك شارع هاي، وساحة رادكليف. لن أتحدث عن كليات الجامعة، مثلما أعطي المجال للسيد ثورنتِن بأن يلغي مصانعه من الحديث عن سحر ميلتِن. لي كامل الحق في أن أذم مدينتي. تذكروا أنني من ميلتِن".

كان السيد ثورنتِن منزعجاً أكثر مما كان ينبغي مما قاله السيد. إذ لم يكن في مزاج يسمح له بتقبل المزاح. لو جرى الحديث في وقت آخر، ربما كان قد استمتع بذم السيد بيل المثير للغضب لمدينة كانت الحياة فيها على اختلاف مع كل عادة سبق واكتسبها. أما الآن، فقد شعر بالغيظ لمحاولة الدفاع عما لم يكن أصلاً معرضاً لهجوم جدي.

"لا أعدُّ ميلتِن نموذجاً لمدينة".

"ولا حتى في العمران"، سأله السيد بيل بخبث.

"لا! إذ لدينا من المشاغل ما يمنعنا من الالتفات إلى المظاهر الخارجية البحتة".

"لا تقل مظاهر خارجية بحتة"، قال السيد هيل بلطف. "فهي تُبهرنا من الطفولة وصاعداً، في كل يوم من حياتنا".

"انتظرا قليلاً"، قال السيد ثورنتِن. "تذكرا بأننا من عرق مختلف عن الإغريق الذين كان الجمال بالنسبة لهم يعني كل شيء، ويُنسب لهم ما يمكن أن يتحدث عنه السيد بيل من حياة الراحة والمتعة الهادئة التي تسربَ قدر كبير منها إليهم عبر حواسهم الخارجية. لا أعني بما أقول إني أكرههم، بقدر ما أعني أني أكره تقليد أسلوب حياتهم. أما أنا فأنتمي إلى العرق التيوتوني[69] الذي يختلط في هذا الجزء من إنكلترا، أكثر مما هو في مناطق أخرى. إذ ما زلنا نحتفظ بجزء كبير من لغتهم، وروحهم؛ ولا ننظر إلى الحياة على أنها زمن للمتعة وإنما للكدح والعمل. فمجدنا وجمالنا ينبعان من قوتنا الخارجية التي تجعلنا نتغلب على مقاومة الماديات، بل وحتى على مصاعب وتحدياتٍ أشد وأقوى. لكننا، هنا في داركشاير، نحن تيوتونيون بطريقة مختلفة. فنحن نكره القوانين التي تُعد لنا عن بعد، ونرغب في أن يتركنا الناس أن نصحح أنفسنا بأنفسنا، بدلاً من تدخلهم المتواصل من خلال تشريعاتهم الفاسدة. نحن نقف مع حكومة ذاتية، ونعارض مركزية الحكم".

"باختصار، أنت تفضل عودة حكم الممالك السبع[70] مرة أخرى. حسناً، على أيٍّ حال، سأتراجع عما قلته هذا الصباح بأنكم، أنتم أهل ميلتِن، لا تقدسون الماضي. أنتم من عَبدة الإله ثور[71]".

"إن كنا لا نقدس الماضي بقدر ما تفعلون في أكسفورد، فهذا لأننا نريد

---

(69) الشعوب الجرمانية (وتُدعى أيضاً تيوتونية، السويبية "Suebian"، والقوطية) إحدى المجموعات الإثنية التي تنتمي إلى اللغات الهندو-أوروبية في شمال أوروبا، وتتكلم اللغات الجرمانية التي تفرعت عن اللغة الجرمانية الأصلية إبان العصر الحديدي ما قبل الروماني (من 500 ق.م-1 ق.م). (م)

(70) الممالك السبع التي كانت تحكم إنكلترا، كل واحدة بشكل مستقل عن الأخرى، من القرن الخامس وحتى القرن الثامن الميلادي، أي مع موجات الهجرة والاستيطان الأنغلو- ساكسونية. (م).

(71) من الأسطورة الجرمانية في شمال أوروبا، إله القوة والرعد والبرق والعواصف، والخصوبة. وتتحدث الأسطورة عن أن الإله ثور(Thor) كان حامياً للعرق البشري، وراعياً لاستمراره وبقائه على الأرض. (م).

شيئاً يمكن تطبيقه على الحاضر بشكل مباشر. لا بأس في أن تكون دراسة الماضي طريقاً يؤدي إلى تنبؤ واستشراف المستقبل. لكن بالنسبة إلى أناسٍ يواجهون ظروفاً جديدة، سيكون من الأفضل بكثير لو تقودنا كلمات الخبرة مباشرة للعمل على ما يرتبط بما يهمنا ويعنينا على نحو وثيق الآن، وهناك الكثير من المصاعب التي يجب علينا مواجهتها، كما أن مستقبلنا يعتمد على طريقة مواجهة والتغلب على هذه المصاعب، وليس مجرد تنحية الماضي جانباً الآن على الأقل. لكن لا! يمكن للناس أن يتحدثوا عن اليوتوبيا بسهولة أكبر من الحديث عن واجبات اليوم التالي، لكن عندما يعمل آخرون على إنجاز هذه الواجبات، من سيكون مستعداً للصراخ (يا للعار!)".

"طوال هذا الوقت، لا أفهم ما تتحدث عنه. هل بمقدوركم يا أهل ميلتِن أن تتنازلوا وترسلوا لنا مشكلات الحاضر؟ أنتم لم تجربونا حتى الآن".

ضحك السيد ثورنتِن. "أظن أني كنت أتكلم في إشارة واضحة إلى ما كنا نعاني منه مؤخراً، كنت أفكر في الإضرابات التي مررنا بها وكانت مزعجة ومؤذية بما فيه الكفاية، كما تبين لي من التكاليف. لكن هذا الإضراب الأخير، الذي أعاني من تبعاته، كان إضراباً محترماً".

"إضراب محترم!" قال السيد بيل متعجباً. "هذا يبدو وكأنك تغالي كثيراً في عبادة الإله ثور".

أحست مارغريت، لكنها لم تلاحظ بعينيها، أن السيد ثورنتِن كان متضايقاً من هذا التحول إلى المزاح بشأن ما كان يراه موضوعاً جدياً. حاولت أن تغير مجرى الحديث من موضوع لم يكن أحد طرفيه يبالي به كثيراً، في حين كان بالنسبة إلى الطرف الآخر أمراً شخصياً يمسّه في الصميم. فأجبرت نفسها على القول:

"تقول إيديث إن قماش البفتة المنقوش في كورفو أفضل وأرخص ثمناً من نظيره في لندن".

"حقاً؟" قال والدها، "أظن أن هذه واحدة من مبالغات إيديث، هل أنت متأكدة أنها قالت ذلك، يا مارغريت؟".

"أجل يا أبي، هي تقول ذلك".

"إذاً أنا واثق من هذه الحقيقة، يا مارغريت. إذ أنني أذهب بعيداً بالتفكير في صدقك وأمانتك لتغطي على شخصية ابنة خالتك التي لا أظنها تبالغ".

"وهل الآنسة هيل حريصة جداً على الحقيقة؟"، قال السيد ثورنتِن بمرارة. وحالما نطق بهذه الكلمات، تمنّى لو أنه عضّ على لسانه. من كان هو؟ ولِمَ يطعنها بإحساسها بالعار بهذه الطريقة؟ كم كان شريراً، ولئيماً هذه الليلة يسكنه مزاج سيء لأنه كان بعيداً عنها لفترة طويلة، يأكله الغضب من اسمٍ ورد ذكره اليوم، وظن أنه يعود للحبيب الآخر الذي فاز بقلبها، فضلا عن قدم قدرته على تقبل شخص كان يحاول بمزاحه وكلامه العابث أن يجعل تلك الأمسية تمضي بفرح وسرور. ولم يكن هذا الشخص سوى الصديق القديم اللطيف للحاضرين جميعهم الذي كان أسلوبه في الحديث معروفاً للسيد ثورنتِن الذي كان قد تعرف عليه منذ عدة سنوات خلت. وفوق هذا كله أن يتكلم مع مارغريت بهذه الطريقة! بقيت مارغريت جالسة في كرسيها، ولم تغادر الغرفة كما سبق وفعلت في السابق، عندما كانت تشعر بالضيق من حدّته أو تبدّل مزاجه. جلست هادئة، بعد أن اكتسى وجهها دهشة حزينة لم تدم طويلاً، لكنها جعلت عينيها تبدوان كعيني طفلٍ فوجئ برفض لم يكن يتوقعه، وتتسعان ببطء وتغرقان في حزن عميق لا يخلو من العتب واللوم، قبل أن تسترخيا، وتعود مارغريت للانشغال بقطعة القماش بين يديها، وتصوم عن الكلام. لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر إليها ليرى تلك التنهيدة المرتجفة في جسدها، وكأنها كانت ترتجف من برد مفاجئ. أحس بما كانت ستشعر به الأم وهي مبهورة "بجمال طفلتها" لو استُدعيت بعيداً قبل أن تفتر شفتاها ببطء عن ابتسامة تدل على ثقة عمياء بحب أمها لها. كانت أجوبته حادة مقتضبة. كان قلقاً مضطرباً غير قادر على التمييز بين الجد والمزاح، ينتظر نظرة، كلمة منها قبل أن يشعر بإهانة الندامة. لكنها لم تنظر إليه، ولم تقل كلمة واحدة. وراحت أصابعها الطويلة

الناعمة تخيط برشاقة فوق النسيج وبسرعة وثبات وكأنها أمضت عمرها في هذه الحرفة. لم تستطع أن تلتفت إليه أو تكترث لوجوده، كما ظن السيد ثورنتِن، وإلا لكان جَيَشَانُ رغبته قد أجبرها على أن ترفع عينيها، ولو لحظة واحدة، لتقرأ الندم في عينيه. كان بإمكانه أن يفاجئها، قبل أن يغادر، بتصرف غريب من الوقاحة المفضوحة، وربما يكسب فضيلة التعبير عن الندم الذي كان يحزُّ قلبه حزاً. وهنا رأى أن السير في الهواء الطلق يعني بالنسبة له نهاية هذه الأمسية. وهذا ما أعاده إلى التفكير الجدي الصارم لإدراكه ساعتئذٍ أنه، ومنذ تلك اللحظة وصاعداً، لن يراها كثيراً طالما أن رؤية هذا الوجه وسماع هذا الصوت (الذي يشبه النسائم اللطيفة للحن صافٍ) كان يمتلك قدرة على التأثير تكفي لخلخلة توازنه. لا بأس! ها قد علم ما هو الحب؛ ألم حاد، تجربة قاسية كان يصطلي لهيبها، ويصارع ليشق طريق النجاة إلى هدوء وسكينة منتصف العمر، أكثر غنىً وإنسانية بعد أن عرف هذه الأحاسيس الرائعة.

وعندما غادر الغرفة على نحو مفاجئ إلى حد ما، نهضت مارغريت من على كرسيها، وبدأت تطوي بصمت قطعة النسيج التي كانت بين يديها. شعرت بالقطعة ثقيلة على نحو غير معتاد فوق ذراعيها المتعبتين. كما استطالت تلك الخطوط الدائرية في وجهها وأصبحت أكثر استقامةً، وبدا مظهرها وكأنه يعود لشخص أمضى نهاراً منهكاً بطوله. وبينما كان الثلاثة يستعدون للذهاب إلى النوم، دمدم السيد بيل بعبارات تنتقد السيد ثورنتِن قائلاً:

"لم أرَ في حياتي شخصاً أفسده النجاح. لا يستطيع تحمل كلمة مزاح واحدة أيا كانت. كل شيء يمس ألم كبريائه المتعالي. في السابق، كان شخصاً بسيطاً ونبيلاً لا يضايقه شيء، لأنه لم يكن مزهواً بنفسه".

"وهو ليس سيئاً الآن"، قالت مارغريت، وهي تستدير من وراء الطاولة، وتتحدث بنبرة هادئة واضحة. "لم يكن طبيعياً هذه الليلة. لا بد أن شيئاً ما أزعجه قبل أن يأتي إلى هنا".

رمقها السيد بيل بنظرة حادة من فوق نظارتيه. وقفت بهدوء؛ لكن وبعد أن

غـادرت الغرفـة، سـأل فجـأة:

"هيـل! هـل خطـر عـلى بالـك يومـاً أن ابنتـك وثورنـتِن يتبـادلان مـا يدعوه الفرنسـيون بالغرام؟".

"مطلقـاً!" قـال السـيد هيـل. في البدايـة، أجفلتـه هـذه الفكـرة الجديـدة، وأقلقتـه كثـيراً. "لا، أنـت مخطـئ بالتأكيـد، أنـا شـبه واثـق أنـك عـلى خطـأ. وإن كان هنـاك أي شيء، فلابـد أنـه مـن طـرف السـيد ثورنـتِن. يـا للمسـكينَ! آمـل وأتمنـى ألا يكـون يفكـر بهـا، لأننـي متأكـد تمامـاً مـن أنهـا لـن تقبـل بـه".

"حسـناً! أنـا رجـل عـازب، وتجنبـت مشـكلات الحـب والغـرام طـوال حيـاتي، لذلـك، قـد لا يكـون لرأيـي أيُّ قيمـة. لكـن ذلـك لا يمنعنـي مـن القـول إن أعـراض الحـب باديـة عليها".

"أنـا متأكـد بأنـك عـلى خطـأ"، قـال السـيد هيـل. " قـد يكـون مهتـماً بهـا، عـلى الرغـم مـن أنهـا كانـت جافـة معـه في بعـض الأحيـان. أمـا أن تكـون هـي! أنـا عـلى ثقـة بأنها لـن تفكـر بـه. مثـل هـذه الفكـرة لا يمكـن أن تكـون قـد دخلـت رأسـها".

"لكـن قـد تدخـل قلبهـا. عـلى أي حـال، إنهـا مجـرد فكـرة ألقيتهـا حـول مـا يمكـن أن يكـون. يمكننـي القـول إني كنـت مخطئـاً. وسـواء كنـت مخطئـاً أم لا، أشـعر بالنعـاس؛ وبمـا أني أقلقـتُ راحـة ليلتـك (كـما أرى) بتخيـلاتي في هـذا الوقـت غـير المناسـب، سـأذهب إلى غرفتـي ببـالٍ مطمـئن".

لكـن السـيد هيـل قـرر ألا يزعـج نفسـه بـأيٍّ فكـرة سـخيفة كهـذه، وبقـي مسـتيقظاً وهـو يعقـد العـزم عـلى ألا يفكـر بهـا.

وقبـل مغادرتـه في اليـوم التـالي، طلـب السـيد بيـل مـن مارغريـت أن تعـدُّه شـخصاً يملـك الحـق في مسـاعدتها وحمايتهـا في جميـع مصاعـب حياتهـا، أيّـاً كانـت. ثـم التفـت إلى السـيد هيـل، وقـال لـه:

" ابنتـك مارغريـت دخلـت أعـماق قلبـي. اعـتنِ بهـا، فهـي مخلـوق ثمـين، لا يليـق بهـا أن تكـون في ميلـتِن، بـل أكسـفورد، وأقصـد المدينـة لا الرجـال. لا يمكـن لي أن أجـد لهـا

نظيراً. وإن استطعت أن أجد أحداً، سآتي بفتاي الشاب ليقف إلى جانب ابنتك، مثلما أحضر الجن في حكايات ألف ليلة وليلة الأمير قمر الزمان إلى بدور أميرة الجن[72]".

"أرجوك ألا تفعل شيئاً كهذا. تذكر ما مررنا من مصائب، كما أنني لا أستطيع أن أستغني عن مارغريت".

"حسناً، إليك رأي آخر. سنبقيها لترعانا لعشر سنوات قادمة عندما سنكون عجوزين مريضين. هل أنت جاد في ما تقول يا هيل! أتمنى لو تغادر ميلتِن، فهذا المكان لا يناسبك، رغم أنها كانت فكرتي منذ البداية. إن قبلت، سأتراجع عن ترددي، وأقبل عملاً في الكلية، وتأتي أنت ومارغريت وتعيشان معي في الأبرشية، وستكون مساعداً لي وتتحمل عني بعض الأعباء، وستكون هي مديرة المنزل، "سيدة القرية الخيِّرة المُحسنة"[73] نهاراً، ومساءً تقرأ لنا كي ننام. سأكون في غاية السعادة في حياة كهذه. ما رأيك؟".

"قطعاً لا"، قال السيد هيل، بحزم. "يكفيني تغيير واحد كبير في حياتي، والثمن الذي دفعته من معاناتي. هنا سأُمضي بقية حياتي، وهنا سأُدفن حتى لا يعرف أحد مكاني".

"لن أتخلى عن فكرتي، لكني لن أغريك بالمزيد الآن. أين الجوهرة؟ تعالي يا مارغريت. أعطني قبلة الوداع، وتذكري، يا عزيزتي أين يمكن أن تجدي صديقاً صدوقاً، بقدر ما تسمح له إمكانياته. أنت طفلتي، يا مارغريت. تذكري ذلك، وباركك الله!".

(72) تحكي قصة قمر الزمان عن ملك من قديم الزمان تقدم به العمر ولم ينجب إلى أن تزوج من أميرة، وأنجبا قمر الزمان الذي لم يكن له مثيل في جماله. ولما كبر علّمه أبوه العلوم والآداب حتى صار لا يماثله أحد في علمه وذكائه. أراد أبوه أن يزوجه فأبى، لأنه كان يعتقد أن النساء جميعهم خائنات إلى أن رأته ابنة ملك الجن التي دخلت في جدال مع جنّيٍ كان يراهن على انه لا يوجد مثيل لابنة ملك الصين في جمالها. اما ابنة ملك الجن فكانت تعتقد أن قمر الزمان هو الأجمل. فاتفقا على ان تُنقل ابنة ملك الصين إلى سرير قمر الزمان ليعرفا من يُفتتن بالآخر فيكون هو الأقل جمالاً. (م)

(73) إشارة إلى اسم الشخصية الرئيسة (The Village Lady Bountiful) في مسرحيةٍ للكاتب الايرلندي جورج فاركواه (George Farquhar) عام 1707 بعنوان "حيلة العاشق" (The Beaux Stratagem) التي تتحدث عن سيدة تكثر من أعمال الخير والإحسان لإثارة إعجاب الآخرين. (م)

وعـادت مارغريـت ووالدهـا إلى رتابـة الحيـاة التـي كان مقـدراً لهـما أن يعيشـانها. فلـم يعـد هنـاك مريـض يأملـون شـفاءه، ولا يخشـون رحيلـه. حتـى أسرة هيغينـز التـي طالمـا كانـت جـزءاً مـن اهتماماتهـم، لم تعـد بحاجـة لرعايتهـما في الوقـت الراهـن. أمـا أطفـال باوتـشر، الذيـن باتـوا يتامـى الأب والأم، فقـد شـغلوا جـزءاً مـن حيـاة مارغريـت بقـدر المسـتطاع، واعتـادت الذهـاب إلى مـاري هيغينـز التـي تولـت رعايـة الأطفـال. كانـت الأسرتـان تعيشـان في منـزل واحـد، وذهـب الأطفـال الأكبر سـناً إلى مـدارس متواضعـة. أمـا الأطفـال الأصغـر، فبقـوا في عهـدة مـاري، ورعايـة الجـارة الطيبـة التـي أُعجبـت مارغريـت بلطفهـا وعطفهـا عندمـا تـوفي باوتـشر. كانـت هـذه الجـارة ترعـى الأطفـال الصغـار عندمـا تذهـب مـاري إلى العمـل مقابـل أجـر. وفي وسـط هـذه الترتيبـات والخطـط الصغـيرة لتربيـة الأطفـال، أظهـر نيكـولاس حكمـة ورزانـة ونمطـاً منضبطـاً مـن التفكـير يختلـف تمامـاً ع تصرفاتـه الهوجـاء السـابقة. انتظـم في الذهـاب إلى عملـه ولذلـك لم يكـن بمقـدور مارغريـت أن تـراه كثـيراً خـلال أشـهر الشـتاء. لكـن وعندمـا كانـت تتـاح الفرصـة لرؤيتـه، كانـت تلاحـظ أن نيكـولاس يتجنـب ذكـر اسـم والـد الأطفـال الذيـن أخذهـم تحـت جناحيـه بـكل محبـة. كذلـك لم يتحـدث بشـكل مريـح عـن السـيد ثورنـتِن.

"كي أقـول لـك الحقيقـة"، قـال نيكـولاس،" إنـه يحـيرني. إنـه شـخصان في جسـد واحـد. واحـد أعرفـه سـيداً منـذ زمـن، أمـا الثـاني فهـو شـخص عـادي لا يوجـد فيـه شيء مـن "السّـيد"، ولم أسـتطع أن أفهـم كيـف اجتمـع الاثنـان في الجسـد نفسـه. لكـن الأمـر لا يختلـط عـلي. عندمـا يـأتي إلى هنـا، أعلـم جيـداً أن هـذا هـو الشـخص العـادي لا السـيد. وأظنـه فوجـئ بي بقـدر مـا فوجئـت بـه. إذ يبقـى جالسـاً يحـدق بي ويسـتمع إلي كـما لـو كنـت وحشـاً غريبـاً اصطـادوه مؤخـراً في إحـدى بقـاع الدنيـا. لكـن هـذا لا يخيفنـي، فأنـا لا أشـعر بالخـوف بهـذه السـهولة في منـزلي، وهـو يفهـم ذلـك جيـداً. ولا أتـردّد في أن أُعـبّر لـه عـما يـدور في رأسي، وأظنـه كان شـخصاً يحسـن الإنصـات للآخريـن عندمـا كان أصغـر سـناً".

"ألا يرد عليك؟"، سأله السيد هيل.

"لا يمكنني القـول إن الكفَّـة تميـل بشـكل كامـل لصالحـه، فـلي فضـل في تحسـينه

نوعاً ما. أحياناً يقول أشياء فظة لا يمكن أن تتقبلها في البداية، لكنها تحتوي على صفعة عجيبة من الحقيقة عندما تفهمها. سيأتي الليلة، بحسب ما أظن، ليطلع على تدريس الأطفال. لا يبدو راضياً عن طريقة تعليمهم، ويريد أن يختبرهم".

"وما هي تلك الأشياء التي يقولها". بدأ السيد هيل يسأل؛ لكن مارغريت لمست ذراعه وأشارت إلى ساعتها.

"لقد قاربت السابعة"، قالت له. "أصبح الليل أطول، هيا يا أبي". لم تستطع التنفس براحة وهدوء حتى أصبحا على مسافة من المنزل. عندئذ باتت مارغريت أكثر هدوءاً، وتمنت لو لم تستعجل في المغادرة، لأنهما لم يعودا يلتقيان بالسيد ثورنتِن إلا قليلاً، وربما يأتي لزيارة هيغينز، ومن أجل الصداقة القديمة بينهما، كانت تتمنى لو تراه الليلة.

بالفعل قلما كان يأتي إلى منزلهما حتى بحجة الدروس المملة الباردة. شعر السيد هيل بالخيبة من عدم حماسة تلميذه للأدب الإغريقي الذي كان وحتى الأمس القريب مصدر متعة واهتمام كبيرين بالنسبة إليه. أما الآن، فغالباً ما كانت تصله رسالة في اللحظة الأخيرة من السيد ثورنتِن يعتذر فيها عن حضور الدرس بسبب انشغاله بأمر ما ذلك المساء. صحيح أنه بات لديه طلاب آخرون احتلوا مكانه في الدروس، لكن أحداً منهم لم يستطع أن يحوز موقع السيد ثورنتِن الأثير في قلب السيد هيل. شعر بالضيق والحزن من هذا التوقف الجزئي لذلك التواصل الذي كان محبباً لديه، مما دفعه للتفكير بالسبب وراء هذا التغير.

وفي مساء أحد الأيام، أفزع السيد هيل ابنته التي جلست على عملها المعتاد عندما سألها فجأة:

"مارغريت! هل كان لديك أي سبب يدعوك للظن بأن السيد ثورنتِن كان مهتماً بك؟".

احمرَّ وجهه تقريباً عندما طرح هذا السؤال، لكن فكرة السيد بيل خطرت على باله، وانطلقت الكلمات من فمه حتى قبل أن يعلم ماذا يودُّ أن يقول.

لم تجب مارغريت على الفور، ولكن عندما طأطأت رأسها، عرف الجواب.

"أجـل، أظـن ذلـك، عـذراً يـا أبي، كان يجـب عـلي أن أخـبرك". أسـقطت قطعـة القـماش، وخبـأت وجهها بـين يديهـا.

"لا، يـا عزيـزتي؛ لا تظنـي بـأني فضـولي بشـكل وقـح. أنـا واثـق مـن أنـك كنـت سـتخبرينني لـو كنـت تبادلينـه الشـعور نفسـه. هـل تحـدث معـك بالأمـر؟".

في البدايـة، لم تـرد عـلى سـؤاله، لكـن وبالتدريـج خرجـت منها عـلى مضـض كلمـة "نعـم".

"ورددت عليه بالرفض؟".

أجابتـه بـ "نعـم" أخـرى مصحوبـة بتنهيـدة طويلـة، بطريقـة يائسـة متعبـة. وقبل أن يبـادر والدهـا إلى الـكلام، رفعـت مارغريـت وجهها متـورداً مـع قليـل مـن الخجـل الجميـل، وقالـت لـه وعيناهـا تنظـران إليـه:

"والآن يـا أبي، لقـد أخبرتـك بمـا لـدي، ولا أسـتطيع قـول المزيـد، فالأمـر برمّتـه يسـبب لي ألمـاً شـديداً، وكل كلمـة أو تـصرف تتصـل بـه مـرارة لا يمكـن وصفهـا لدرجـة لا أسـتطيع التفكـير بهـذه المسـألة. أنـا آسـفة يـا أبي لأني كنـت سـبباً في خسـارتك هـذا الصديـق، لكنني لم أسـتطع... آسـفة". جلسـت عـلى الأرض وألقـت برأسـها عـلى ركبتيـه.

"أنـا أيضـا آسـف، يـا عزيـزتي، لكـن السـيد بيـل فاجـأني عندمـا قـال فكـرة، فكـرة مـن نـوع مـا..."

"السيد بيل! هل لاحظ السيد بيل ذلك؟".

"قليـلاً، لكنـه أخـذه عـلى نحوٍ...كيـف يمكـن لي أن أقولهـا؟ أنـك لسـت فظـة أو جافـة مـع السـيد ثورنـتِن. كنـت أدري أن هـذا الأمـر مسـتحيل. تمنيـت لـو أن الأمـر بأكملـه كان مجـرد تخيـلات، لكنـي كنـت أعلـم تمامـاً مشـاعرك الحقيقيـة كي أفـترض أنـك لـن تعجبـي بالسـيد ثورنـتِن عـلى الإطـلاق عـلى ذلـك النحـو. أنـا آسـف".

بقيـا صامتـين وهادئـين لبضـع دقائـق. لكـن عندمـا داعـب والدهـا خدهـا بعـد ذلـك، صُـدم والدهـا حالمـا وجـد وجهها مبتـلاً بالدمـوع. رفعـت مارغريـت وجهها مبتسـمة

ببهجة مصطنعة، وبدأت تتحدث عن آل لينوكس برغبة حماسية لتغيّر مجرى الحديث إلى درجة بات معها قلب والدها أرق وأعجز من أن يجبرها على العودة إلى الموضوع نفسه.

"أجل، غداً، غداً سيصلان إلى شارع هارلي. كم سيكون ذلك غريباً! أريد أن أعرف أيَّ غرفة سيختاران لتكون غرفة الطفل الثاني. ستكون خالتي شو سعيدة بوجود الطفل. تخيل إيديث أماً! والنقيب لينوكس...لا أدري ماذا سيفعل بنفسه بعد أن أصبح في المرتبة الثانية بوجود الصغيرين".

"أتعلمين يا مارغريت"، قال والدها، وهو يحرص على إشراكها في موضوع جديد يثير اهتمامها، "أظن أنه ينبغي لي أن أستغني عنك لأسبوعين كي تذهبي إلى لندن للقاء العائدين من السفر. كما يمكنك أن تعلمي في نصف ساعة من الحديث مع السيد هنري لينوكس حول فرص فريدريك أكثر مما قد تعلمينه من عشرات الرسائل، أي أنها ستكون رحلة تجمع بين العمل والمتعة".

"لا، يا أبي، لا يمكنك الاستغناء عني، بل والأكثر من ذلك، أنا لا أريدك أن تستغني عنك". وبعد فترة قصيرة من الصمت، أضافت: "بدأت أفقد الأمل بخصوص قضية فريدريك، إنه يتخلى عنا بأدب ولطف، لكنني أرى أن السيد لينوكس نفسه ليس لديه أمل في العثور على الشهود بعد كل هذه السنوات. لا" قالت، "كانت مجرد فقاعة من الأمل عزيزة على قلوبنا، لكنها انفجرت مثل غيرها، ولم يبقَ لنا سوى أن نواسي أنفسنا بأننا سعداء طالما أن فريدريك يشعر بالسعادة، وأن نعني الشيء الكثير له كما هو أيضاً. لا تزعجني بكلامك عن إنه بمقدورك الاستغناء عني، يا أبي، لأنني أؤكد لك أنك لا تستطيع".

غير أن فكرة التغيير كانت قد تجذرت ونمت في قلب مارغريت، وإن لم تكن على النحو الذي اقترحه والدها في البداية. إذ راحت تفكر كم سيكون ذلك أمراً محبذاً بالنسبة إلى والدها الذي كانت معنوياته، الضعيفة في الوقت الحاضر، قد باتت مكتئبة على الدوام، وصحته، وإن لم يكن يشكو شيئاً محدداً، قد تأثرت على نحو خطير بمرض زوجته ووفاتها. صحيح أنه كان يشغل يومه بساعات القراءة المعتادة مع طلابه، لكن كل ما كانت تحتويه من أخذ وردٍّ لم

يعـد ممكنـاً تسـميته صحبـة، مثلـما كانـت سـابقاً عندمـا كان السـيد ثورنـتِن يـأتي لتلقـي الـدروس. كانـت مارغريـت تـدرك جيـداً، في ظـل مـا كان يعانيـه والدهـا، حاجتـه ـ التـي كان يجهلهـا هـو نفسـه ـ إلى الحديـث واللقـاء مـع الآخريـن. في هِلْستِن، كانـت الفرصـة متاحـة دائمـاً لتبـادل الزيـارات مـع القساوسـة الذيـن كان يسـكنون في الجـوار، ومـع الفلاحـين الفقـراء سـواء في الحقـول، أو أثنـاء عودتهـم إلى منازلهـم مسـاء، أو عندمـا كانـوا يسـوقون قطعـان الماشـية نحـو الغابـة. وكان الجميـع مسـتعداً لتبـادل الأحاديـث. أمـا في ميلـتِن، فـكان الجميـع منشـغلين بحياتهـم إلى درجـة لا تتيـح لهـم فرصـة الحديـث الهـادئ، أو تبـادل ناضـج للأفـكار. فأحاديثهـم كلهـا كانـت تـدور حـول العمـل، وعندمـا ينتهـي انشـغال فكرهـم بـكل مـا يتصـل بشـؤون حياتهـم اليوميـة بعـد انقضـاء يـوم عمـل، كانـوا يهجعـون إلى سـبات تـام حتـى صبـاح اليـوم التـالي. إذ كان مـن الصعـب أن تجـد عامـلاً بعـد انقضـاء سـاعات العمـل في المصنـع، فهـو غالبـاً مـا كان يذهـب إمـا إلى محـاضرة، أو إلى أحـد النـوادي، أو الحانـة، كل بحسـب طبيعـة شـخصيته ومسـتواها. حـاول السـيد هيـل إلقـاء سلسـلة مـن المحـاضرات في بعـض التجمعـات أو المؤسسـات، لكـن بدافـع الواجـب أكـثر مـن شـعوره بدافـع الحـب لعملـه والغايـة منـه. لذلـك كانـت مارغريـت عـلى قناعـة تامـة بـأن هـذا العمـل لـن ينجـح إن لم يكـن مصحوبـاً بالرغبـة والحماسـة.

نهاية الرحلة

كان الشتاء يمضي نحو نهايته، وساعات النهار تطول لكن من دون أن تصحب معها أيَّ إشراقة أمل كتلك التي عادة ما ترافق أشعة شمس شهر شباط/ فبراير. بكل تأكيد، كانت السيدة ثورنتِن قد توقفت كلياً عن زيارة منزل السيد هيل. أما السيد ثورنتِن، فكان يأتي بين الحين والآخر، إلا أن زياراته كانت تقتصر على السيد هيل، وغرفة المكتب. لم يتوقف السيد هيل عن ذكر السيد ثورنتِن على النحو الذي اعتاده من قبل، بل إن قلة الزيارات جعلته يزيد من قيمة اللقاءات بينهما. ومما سمعته من والدها، علمت مارغريت أن السيد ثورنتِن قال له إن توقف زياراته إلى المنزل لم تكن بسبب أي حالة من الغضب أو الاستياء. بل والأكثر من ذلك، اكتشفت أن السيد ثورنتِن تحدث عنها من وقت لآخر، بحسب ما علمت، بالطريقة الوديّة ذاتها، من دون أن يتجنّب أو يسعى إلى ذكر اسمها.

لم تكن مارغريت في حالة معنوية تساعدها على تحسين مزاج والدها. فهذا الهدوء الكئيب للوقت الحاضر جاء بعد فترة طويلة من القلق والهم مصحوبة بالعواصف إلى درجة أفقدتها مرونة التفكير. حاولت أن تشغل نفسها بتعليم طفلي باوتشر الصغيرَيْن، وعملت بجد على تعليمهما الطيبة، بجد، أقول بحق، لأن قلبها بدا مغلقاً أمام غاية هذه الجهود، وإن كانت تقوم بها بدقة وتفانٍ، ومع ذلك كانت بعيدة عن أيِّ بهجة، وبدت حياتها كئيبة مملة. الشيء الوحيد الذي أحسنت عمله كان مواساتها الصامتة لوالدها انطلاقاً من إحساس غريزي بالوفاء والتقدير. فلم يجد سواها مستعداً ليتعاطف معه في أي حالة

كان، ولا غيرها يسعى جاهداً لتوقع أي أمنية كانت تراوده وتحقيقها. كانت أمنيات هادئة بكل تأكيد، ونادراً ما كانت تُذكر بالاسم من دون أن تكون مشفوعة بالتردد والاعتذار. لكن الأجمل والأكثر كمالاً من كل هذا كان روح الطاعة الوادعة لديها. جاء شهر آذار/ مارس حاملاً معه نبأ زواج فريدريك ودولوريس. تلقت رسالة من العروسين، إنكليزية إسبانية من جهتها بطبيعة الحال، وبكلمات ومعانٍ ملتوية من أخيها أثبتت تأثره بتعابير بلاد العروس. عند تلقيه رسالة من السيد هنري لينوكس يبلغه ضآلة الأمل بالحصول على حكم بالبراءة أمام محكمة عسكرية بسبب غياب الشهود، كتب فريدريك إلى مارغريت رسالة غاضبة عبر فيها عن رفضه لإنكلترا بلداً له، وتمنى لو يستطيع أن يتخلى عن انتمائه لها. كما أعلن أنه لن يقبل العفو حتى لو مُنح له، ولن يعود للعيش في بلده حتى لو سمحوا له بذلك. بكت مارغريت بحرقة وألم. إذ بدا الأمر كله غير طبيعي في البداية، لكن عندما فكرت فيه، رأت في رسالة أخيها مرارة الخيبة التي حطمت آماله، وشعرت بأنه ليس بوسعها أن تفعل شيئاً سوى الصبر. في الرسالة التالية، تحدث فريدريك بفرح عن المستقبل متناسياً الماضي، وعندئذ وجدت فائدة الصبر التي كانت تتوق له. كان عليها أن تصبر. فقد بدأت رسائل دولوريس الطفولية اللطيفة تؤثر بسحرها على مارغريت ووالدها. إذ بدت العروس الإسبانية حريصة على أن تترك انطباعاً حسناً لدي أسرة حبيبها الإنكليزية، حتى أن حرصها الأنثوي كان يطل مع كل جرة قلم على الورقة. ووصلت رسائل الإعلان عن الزواج مع وشاح أسود رائع اختارته دولوريس بنفسها لشقيقة زوجها التي لم ترها والتي قدمها فريدريك إلى عروسه بأنها آية في الجمال والحكمة والفضيلة. علا شأن فريدريك بهذا الزواج إلى المستوى الذي كانت مارغريت ووالدها يتمنيانه. فشركة بربور كانت واحدة من أكبر الشركات التجارية في إسبانيا والتي استُقبل فيها فريدريك بصفته شريكاً. ابتسمت مارغريت قليلاً، ثم تنهدت عندما تذكرت كلامها القديم ضد التجارة والتجار، وإذ بأخيها وفارسها الشهم يصبح تاجراً! لكنها عادت ولامت نفسها، واحتجت بصمت على الخلط بين تاجر إسباني، وصاحب مصنع في ميلتِن. على أي

حال، سواء مع التجارة أو من دونها، كان فريدريك سعيداً، وسعيداً جداً. فلابد أن دولوريس فتاة ساحرة، كما أن الوشاح كان فاتناً. وأخيراً عادت مارغريت إلى الحياة كما هي في الوقت الحاضر.

عانى والدها بين الحين والآخر صعوبة في التنفس خلال فصل الربيع، الأمر الذي ضايقه كثيراً خلال هذه الفترة. من جانبها، كانت مارغريت أقل قلقاً بما أن هذه الحالة كانت تختفي كلياً على فترات متباعدة، لكنها ظلت راغبة في التخلص من هذا القلق بأن تستعجل والدتها بضرورة قبوله دعوة السيد بيل لزيارته في أكسفورد في نيسان/ إبريل الحالي. كما كانت الدعوة تشمل مارغريت. فقد كتب لها رسالة خاصة يدعوها للمجيء، لكنها شعرت بأنه سيكون أكثر راحة لها لو تبقى في المنزل حرة من أية مسؤولية كانت، لتريح عقلها وقلبها على نحو لم تكن قادرة عليه لأكثر من عامين حتى الآن.

عندما غادر والدها المنزل متوجهاً إلى محطة القطار، شعرت مارغريت كم كان هذا الضغط ثقيلاً وطويلاً على وقتها، وعلى مشاعرها. كان أمراً مدهشاً، بل ومذهلاً إلى حد ما، أن تشعر بهذا القدر من الحرية، فلا أحد يعتمد على رعايتها المُفرحة، إن لم يكن السعادة الحقيقية، ولا مريض تخطط وتفكر بالعناية به. قد تشعر بالخمول والكسل، والنسيان، لكن ما كان يبدو لها أهم من هذه المزايا كلها أنها قد تشعر بالحزن، إن أرادت. فعلى مدار الشهور التي مضت، كانت مضطرة لأنها تخفي أحزانها وهمومها الشخصية في خزانة معتمة. أما الآن، فقد سنحت لها الفرصة لتخرجها من مخبئها وتبكي عليها، وتتفحص طبيعتها، وتفتش عن طريقة صحيحة لإخضاعها للطمأنينة والهدوء. وكانت طوال الأسابيع التي خلت واعية لوجودها في حياتها بطريقة تثير الضجر على الرغم من أنها كانت مخفية عن الأعين. أما الآن، سيتاح لها أن تفكر بكل منغِّصاتها دفعة واحدة، وتخصص لكل واحدة منها الحل المناسب في حياتها. لذلك، جلست مارغريت ساعات طويلة في غرفة الضيوف تسترجع مرارة كل ذكرى بتصميم حازم. بكت مرة واحدة بصوت عالٍ عندما خطرت على بالها فكرة فقدانها للإيمان التي ولدت بدورها ذلك الكذب المهين الذي أساء إلى مكانتها.

أما الآن، فلم تكن لتقبل حتى الاعتراف بقوة الغواية؛ فكل خططها من أجل فريدريك باءت بالفشل، وبقيت الغواية سخرية ميتة، سخرية لم تعرف الحياة، وكانت الكذبة حماقة مقيتة، كشفتها الأحداث اللاحقة، والإيمان بقوة الحقيقة بأنها الحكمة الأكبر بلا حدود.

وفي غمرة جيشان أفكارها المتوتر، فتحت بشكل لا شعوري كتاباً لوالدها كان على الطاولة، وبدت الكلمات التي لفتت انتباهها وكأنها كُتبت لحالتها الراهنة من الإحساس بالدونية وانحطاط الذات:

لا أريد أن أسترد قلبي بهذه الطريقة: أن أموت من العار، أعمى، أحمقَ، جاحداً وعاصياً لله، بل أريد أن أطهر قلبي بالعطف. والآن يا قلبي المسكين، ها نحن نسقط في الهوة التي كنا نحاول الهروب منها. هيا بنا ننهض، ونغادرها للأبد، ونسعى إلى رحمة الله، ودعنا نأمل بأن يعيننا كي نكون أكثر ثباتاً من الآن وصاعداً، ونعود إلى درب التواضع. أيتها الشجاعة، كوني من الآن حارسنا، والله سيساعدنا.

"درب التواضع" تمتمت مارغريت، "هذا هو ما أضعته! الشجاعة والقلب الصغير. سنعود أدراجنا، وبمساعدة الله سنجد الدرب المفقود".

نهضت من مكانها وقررت أن تباشر عملاً يشغلها عن التفكير في نفسها. نادت على مارثا التي مرت بباب غرفة الضيوف في طريقها للصعود الدرج. حاولت مارغريت أن تستكشف ما يكمن تحت التصرف الرزين المحترم للخادمة التي غلّفَت شخصيتها الفردية بطاعة آلية. وجدت مارغريت صعوبة في تحريض مارثا على الحديث عن أي من اهتماماتها الشخصية؛ لكن أخيراً نجحت في اللعب على الوتر الحساس عندما ذكرت اسم السيدة ثورنتِن. أشرق وجه مارثا، وبقليل من التشجيع، خرجت قصة طويلة تحكي كيف كان والدها في بداية حياته على علاقة بزوج السيدة ثورنتِن، وفي موقع أكسبه عطفه واحترامه، لكن مارثا لم تكن على دراية كافية بتلك العلاقة لأنها كانت طفلة صغيرة، كما أن الظروف تدخلت لتفرق بين الأسرتين إلى أن أصبحت مارثا فتاة يافعة. خسر والدها مركزه كموظف في أحد المخازن، وتوفيت والدتها، وباتت مارثا وأختها

ـ باستخدام تعبير مارثا ـ على وشك "الضياع" لولا تدخل السيدة ثورنتِن التي بحثت عنهما، وقامت على رعايتهما.

"أصبت بالحمى، وكنت ضعيفة متعبة، لكن السيد والسيدة ثورنتِن لم يرتاحا حتى أخذاني إلى منزلهما وأحاطاني بالرعاية حتى تعافيت، وأرسلاني إلى البحر. على الرغم من أن الطبيب أخبرهما أن الحمى معدية، إلا أنهما لم يكترثا للأمر، ما عدا الآنسة فاني التي ذهبت لزيارة أسرة ستتزوج قريباً أحد أبناءها. ورغم أنها كانت خائفة في ذلك الحين، إلا أن الأمور انتهت على خير".

"الآنسة فاني ستتزوج؟" سألت مارغريت.

"أجل، شاب غني أيضاً، لكنه أكبر منها سناً بكثير. اسمه واطسُن ويمتلك مصانع في مكان ما بعد منطقة هيلي. إنه زواج مثالي، لو لم يكن العريس أشيب الشعر".

عند سماعها هذه المعلومة، صمتت مارغريت لفترة كافية بالنسبة إلى مارثا لتستعيد طبيعتها، وأجوبتها المختصرة المعتادة. راحت مارثا تكنس الأرض، وسألت عن موعد تحضير الشاي، ثم غادرت الغرفة بالوجه الجامد نفسه الذي دخلت به. أما مارغريت فقد أجبرت نفسها عن تجنب الخوض في حيلة سيئة اعتادت عليها مؤخراً عندما دأبت على تخيل كيف أن أيَّ حدث تسمع به في ما يتعلق بالسيد ثورنتِن، سيؤثر عليه سواء أعجبه ذلك أم لم يعجبه.

في اليوم التالي أخذت أطفال باوتشر الصغار إلى دروسهم، ثم قضت نزهة طويلة انتهت بزيارة لماري هيغينز. فوجئت مارغريت بوجود نيكولاس الذي كان قد عاد من عمله، إذ خدعها طول النهار ولم تدرك أن الوقت بات متأخراً. كذلك بدا نيكولاس، من تصرفاته، بأنه اجتاز مسافة على طريق التواضع، فقد كان أكثر هدوءاً، وأقل اعتداداً بنفسه.

"إذاً السيد العجوز مسافر أليس كذلك؟ قال نيكولاس. "الأطفال الصغار أخبروني! لكنهم صغار أذكياء، بل أكاد أظن أنهم يتفوقون على ابنَتيَّ في حدة الذكاء، على الرغم من أنه من الخطأ ربما أن أقول هذا الكلام، بما أن واحدة منهما

مسجاة في قبرها. لا بد أن هناك شيئاً ما في الطقس، على ما أظن، يدفع الناس إلى التجوال. حتى سيدي، هناك في المصنع، يدور في مكان ما حول العالم"

"وهل هو هذا هو السبب الذي جعلك تعود إلى المنزل مبكراً؟" سألته مارغريت ببراءة.

"أنت لا تعلمين شيئاً عن ذلك، هذا كل شيء"، قال بازدراء. "لست صاحب وجهين، واحد أمام سيدي، وآخر في ظهره. عددت الساعات التي دقت في المدينة قبل أن أغادر العمل. لا! ثورنتِن شخص جيد بما فيه الكفاية للقتال معه، لكن لا يمكن خداعه. إن كنت أنت السبب في حصولي على هذا العمل، شكراً لك. مصنع السيد ثورنتِن ليس سيئاً، مع مرور الزمن. تعال أيها الفتى، قف هنا، وقل أنشودة أمام الآنسة مارغريت. أجل، قف ثابتاً على قدميك وذراعك اليمنى ممدودة بشكل مستقيم مثل الرمح. رقم واحد توقف، اثنان ابق مكانك، ثلاثة استعد، أربعة انطلق!".

راح الطفل الصغير يردد أنشودة دينية تفوق لغتها قدرته على الاستيعاب، إلا أن نغمها المتأرجح أسر أذنه وراح يكررها بإيقاع نائب في البرلمان. عندما صفقت له مارغريت بحرارة، نادى نيكولاس على طفل آخر، وآخر. كانت مفاجأة كبرى أن تراه بات، على نحو مستغرب، ولاشعوري، مهتماً بالأمور الدينية التي كان يمقتها في السابق.

كانت قد تجاوزت الساعة موعد جلسة الشاي المعتاد عندما وصلت مارغريت إلى المنزل؛ لكنها شعرت بالراحة لأن أحداً لم يكن بانتظارها. وراحت تجول في أفكارها وهي تأخذ قسطاً من الراحة بدلاً من أن تراقب بقلق شخصاً آخراً لتعرف إن كان حزيناً أم مبتهجاً. وبعد أن شربت الشاي، انهمكت في تفحص رزمة كبيرة من الرسائل، وانتقت منها ما كانت تريد إتلافه.

كانت هناك أربع أو خمس رسائل من السيد هنري لينوكس بخصوص قضية فريديريك، قرأتها بعناية شديدة مرة أخرى. عندما بدأت قراءة الرسائل، كانت تسعى للتأكد تماماً من مدى احتمال وجود تبرير الحكم بالإعدام على أخيها.

لكنها عندما فرغت من قراءة الرسالة الأخيرة، ووازنت السلبيات والإيجابيات، طغى الطابع الشخصي للرسائل على تفكيرها. إذ بدا واضحاً لها وعلى نحو كافٍ، من صرامة الصياغة، أن السيد لينوكس لم ينس علاقته بها في أي اهتمام ربما شعر به إزاء موضوع المراسلة. كانت رسائل ذكية. هذا ما اكتشفته مارغريت بلمح البصر، لكنها افتقدت فيها الجو الحميم الودود. كانت رسائل متحفظة، وقيمة، فما كان منها إلا أن وضعتها جانباً.

عندما انتهت من قراءة وفرز الرسائل، غرقت مارغريت في أحلام اليقظة، وجالت في خاطرها تلك الليلة وعلى نحو غريب صورة والدها الغائب. لامت نفسها لأنها شعرت بأن عزلتها (وبالتالي غياب أبيها) كان مصدر ارتياحٍ لها؛ غير أن هذين اليومين الماضيين أنعشاها، ومنحاها قوة أكبر وأملاً أكثر إشراقاً. لذلك غدت تلك الخطط التي كانت تبدو لها سابقاً تحت ستار الواجبات، مصدراً للمتعة. سقطت تلك الموازين السقيمة من عينها، وباتت ترى موقعها وعملها بشكل صادق أكثر من ذي قبل. لو أن السيد ثورنتِن يعيد إليها الصداقة الضائعة، أو يعاود زيارتهم من حين لآخر ليدخل البهجة على أبيها كما كان يفعل في الأيام السابقة، وإن كان يتوجب عليها ألا تراه. شعرت مارغريت وكأن مسار حياتها المستقبلية، على الرغم من أنها لا تبدو مبشرة، يمتد أمامها واضحاً متوازناً. تنهدت وهي تنهض للذهاب إلى النوم. وعلى الرغم من أن "خطوة واحدة تكفيني"[74]، وعلى الرغم من واجبٍ واضح وحيد يحضها على الالتزام بوالدها، كان لا يزال في قلبها إحساس مؤلم بالقلق والأسى.

كذلك كان السيد هيل في ذلك المساء النيساني يفكر بمارغريت و بالطريقة الغريبة والمُلِّحة نفسها التي كانت تفكر به. كان منهكاً من التعب بعد تجواله على الأصدقاء القدامى، والأماكن التي عرفها في الماضي. كان لديه تصور مبالغ

(74) إشارة إلى قصيدة "عمود السحاب" (The Pillar of the Cloud) للشاعر والباحث اللاهوتي الإنكليزي جون هنري نيومان (**Newman Henry John**) (1801 - 1890). القصيدة تحولت إلى ترتيلة كنسية لا تزال تُنشد حتى اليوم في معظم الكنائس الغربية تحت عنوان "قدني بحنان أيها النور" (**Light Kindly ,Lead**) التي اقتُبست منها العبارة الواردة في النص. (م)

فيه عن الطريقة التي قد يستقبله بها أصدقاؤه بعد التغيرات التي طالت آراءه ومواقفه من الكنيسة. لكن وعلى الرغم من أن بعضهم ربما كان قد صُدم وشعر بالحزن، أو الاستياء من سقوطه هذا بالمعنى المطلق، إلا أنهم وحالما رأوا ذلك الوجه الذي أحبوه يوماً، نسوا آراءه ومواقفه، أو تذكروها بما يكفي لتمنح تصرفهم تجاهه مزيداً من الجاذبية الرقيقة. لم يكن السيد معروفاً لدى الكثيرين. فقد كان طالباً في إحدى الكليات الصغيرة، وكان خجولاً متحفظاً، لكن الذين نجحوا أيام الشباب في الوصول إلى رهافة الفكر والمشاعر التي كانت تختبئ تحت صمته وتردده، أحبوه مع شيء من العطف الذي كان سيظهرونه لحماية امرأة. ولعل أكثر ما ترك لديه أثراً كبيراً كان تجديد وإحياء هذا العطف، بعد مرور كل هذه السنوات، والتغيرات الكبيرة التي جرت، وعلى نحو يفوق بكثير الأثر الذي كان يمكن أن تتركه أيُّ فظاظة أو تعبير قاس عن الرفض.

"أخشى أن نكون قد عملنا أكثر من اللازم"، قال السيد بيل. "ها أنت تعاني الآن من العيش لفترة طويلة في هواء ميلتِن".

"أجل أنا متعب"، قال السيد هيل. "لكن ليس السبب في هواء ميلتِن. أصبحت في الخامسة والخمسين، وهذه الحقيقة البسيطة تفسر فقدان الحيوية والنشاط".

"كلام فارغ! أكاد أقارب الستين، ولا أشعر بفقدان الحيوية والنشاط، بدنياً أو عقلياً. لا تدعني أسمعك تقول هذا الكلام مرة أخرى. في الخامسة والخمسين! لا تزال شاباً".

هز السيد هيل رأسه. "هذه السنوات الأخيرة الماضية!" قال له. لكن وبعد دقيقة صمت، عدَّل من جلسته نصف المستلقية باسترخاء في واحدة من كراسي السيد بيل المريحة، وتابع كلامه بنبرة لا تخلو من حماس مرتجف:

"لا أعتقد يا بيل أنك تحسبني، لو كنت قد توقعت أن كل ما سيجري لي ليس إلا نتيجة لتغيير رأيي، واستقالتي من عملي...لا! حتى ولو لم أكن أعرف كيف كانت ستعاني، سأتراجع عن اعترافي العلني الصريح بأني لم أعد أؤمن بنفس ما

تؤمن به الكنيسة التي كنت فيها قسّاً. كما أفكر الآن، حتى لو كان بمقدوري أن أتوقع تلك الشهادة الأقسى من المعاناة، عبر آلام من كنت أحبها، كنت سأفعل الشيء ذاته أياً كانت النتيجة التي بلغتها خطوتي في التخلي العلني عن الكنيسة. لكن ربما كنت سأتصرف على نحو مختلف، وبحكمة أكبر في كل ما فعلته لاحقاً من أجل أسرتي، لكنني لا أظن أن الله وهبني الكثير من الحكمة أو القوة"، أضاف السيد هيل، وهو يعود إلى وضعية جلوسه السابقة.

مخط السيد بيل أنفه بطريقة متباهية قبل أن يجيب قائلاً:

"لقد أعطاك القوة لتفعل ما أملاه عليك ضميرك بأنه التصرف السليم، ولا أرى قوة، أو حتى حكمة، أعلى وأكثر قداسة من ذلك. أنا أعلم جيداً أني أفتقر إلى هذه القوة، ومع ذلك يراني الناس في كتبهم الحمقاء رجلاً حكيماً، وشخصية مستقلة، وصاحب عقلية قوية، وما إلى ذلك. حتى الأحمق الذي ينصاع لقانون الحق البسيط في داخله، وإن كان على مستوى مسح حذاءه بممسحة الباب، أقوى وأكثر حكمة مني".

ساد الصمت قليلاً قبل أن يتكلم السيد هيل متابعاً سلسلة أفكاره:

"وماذا بشأن مارغريت".

"حسناً! ماذا تقصد؟".

"ما الذي سيحلُّ بها إن وافاني الأجل؟".

"ما هذه التُّرهات!".

"أفكر دائماً، ما الذي سيحدث معها؟ أظن أن آل لينوكس سيدعونها للعيش معهم، هذا ما أحاول تصوره. فخالتها شو تحبها جداً على طريقتها الهادئة، لكنها تنسى أن تحب الغائبين".

"خطأ شائع، أي نوع من الناس آل لينوكس؟".

"هو، شخص وسيم، ومتحدث، وممتع. إيديث، جمال مدلل عذب، تحبها مارغريت من كل قلبها، وإيديث تحبها بقدر ما يمكن لها أن تمنحها مما تبقى من مساحة في قلبها".

"هيل، أنت تعلم تماماً أن ابنتك استحوذت على قلبي، وقد أخبرتك بذلك من قبل. فهي ابنتك، وأنا عرَّابها، وكنت مهتماً بها حتى قبل أن أراها آخر مرة. لكن زيارتي الأخيرة إلى ميلتِن جعلتني عبداً لها، ورحت كضحية عجوز طيعة أتبع عربة الفاتح الغازي. لأنها، بحق، تبدو جليلة ورزينة كمن كان يقاتل وربما لا يزال، لكنه واثق من النصر، أجل، وعلى الرغم من مخاوفها الحالية التي كانت بادية على وجهها بوضوح. لهذا السبب ومن أجل كل شيء آخر، كل ما أملكه تحت خدمتها، إن احتاجت، وسيكون لها، شاءت أم أبت. علاوة على ذلك، سأكون، أنا نفسي، فارسها الشهم، حتى لو كنت في الستين من العمر، ومصاباً بالروماتيزم. كن واثقاً، يا صديقي القديم، أن ابنتك ستكون مهمتي الأساسية في هذه الحياة، وأيُّ مساعدة يمكن أن تقدمها حكمتي أو ذكائي، أو قلبي المحب، ستكون رهن إشارتها. اطمئن، ولا تدع ابنتك مصدر قلقٍ لك، بل أنصحك بأن تهتم بنفسك وإلا فلن تكون سعيداً. ستعيش أكثر مني سنوات طويلة. فأنتم الرجال النحيلون دائماً ما تغرون الموت، ودائماً ما تحتالون عليه. أما الرجال السِمان، أصحاب الوجوه الحمراء المكتنزة، مثلي، فغالباً ما يرحلون أولاً".

لو كان للسيد بيل عينان تكشفان المحجوب لرأى المشعل مقلوباً[75] والملاك يقف بوجه هادئ رصين بالقرب من صديقه ويشير إليه بيده. في تلك الليلة، وضع السيد هيل رأسه على الوسادة غارقاً في نوم لم يستيقظ منه أبداً. وفي صباح اليوم التالي، لم يسمع الخادم الذي دخل إلى غرفته رداً على ندائه، فاقترب من السرير ليشاهد أمامه وجهاً جميلاً ساكناً، أبيض اللون، وبارداً تحت ختم الموت الذي لا يزول. مات بهدوء من دون ألم، أو عذاب. لا بد أن قلبه توقف عن العمل وهو نائم.

صُعق السيد بيل من هول الصدمة، ولم يستفق منها إلا عندما اجتاحه الغضب

(75) انتشرت في القرن التاسع رموزٌ كانت تُرسم على المدافن والقبور، منها المشعل المقلوب الذي يدل على الموت، إلى جانب الصليب وتمثال ملاك الموت. (م)

على إشارة بخصوص وفاة صديقه.

"تحقيق جنائي؟ لا أظنك تحسبني دسست له السم! قال الدكتور فوربس إنها نهاية طبيعية لشكوى قلبية. يا للعجوز المسكين هيل! لقد أنهكت قلبك الرقيق قبل أوانه. يا صديقي المسكين! كيف كان يتحدث عن...والاس، احزم لي حقيبة قماشية في خمس دقائق. هيا أقول لك جهز الحقيبة، ألا تسمعني! يجب أن استقل القطار إلى ميلتِن".

وبعد عشرين دقيقة من اتخاذه قرار المغادرة، جُهِّزَت الحقيبة، واستُدعيت عربة الأجرة، ووصل المحطة. كان القطار يطلق صافرته، ويعود خطواتٍ إلى الوراء استعداداً للانطلاق، واستعجل أحد الحراس السيد بيل بالصعود إليه. ألقى بنفسه على مقعده وهو يحاول، بعينين مغلقتين، أن يتخيل كيف يمكن لأحد أن يكون حياً بالأمس، ويصبح ميتاً اليوم، وتسللت الدموع من بين رموشه التي خطها الشيب، ففتح عينيه عندما أحس برطوبتها، وحاول أن يكون مبتهجاً بقدر ما سمح له إصراره. إذ لم يكن يرغب بالبكاء أمام جمع من الناس الغرباء. لا، ليس هو من يفعل ذلك.

لم يكن هناك جمع من الناس الغرباء، وإنما مجرد رجل واحد كان يجلس بعيداً عنه في الجانب نفسه من عربة القطار. وشيئاً فشيئاً، راح السيد بيل يتفحص الرجل ليكتشف الطريقة التي كان يستخدمها لرصد ومتابعة مشاعره. ومن خلف الصفحة الكبير لجريدة "تايمز"، عرف أن ذلك الرجل لم يكن سوى السيد ثورنتِن.

"من، السيد ثورنتِن؟" قال السيد بيل وهو ينتقل إلى مقعد مجاور له. صافح السيد ثورنتِن بحرارة حتى تراخت قبضته فجأة لحاجته لأن يمسح دموعه بيده، فقد تذكر أن آخر مرة التقى فيها السيد ثورنتِن كانت بصحبة السيد هيل.

"أنا ذاهب إلى ميلتِن في مهمة كئيبة. سأبلغ ابنة السيد هيل بنبأ وفاة أبيها المفاجئة".

"وفاة! السيد هيل مات!".

" أجل؛ هذا ما أواصل تكراره متعجباً "السيد هيل مات!" ومع ذلك لا أصدق ذلك. لكنه مات. ذهب الليلة الماضية إلى السرير بصحة جيدة، كما كان يبدو، وفي الصباح كان بارداً عندما ذهب خادمي لمناداته".

"أين؟ لم أفهم!".

"في أكسفورد، جاء لزيارتي في أكسفورد التي لم يرها لمدة سبعة عشر عاماً، وهذه كانت نهايته".

بقيا صامتين لأكثر من ربع ساعة. ثم قال السيد ثورنتِن:

"وهي!"، وتوقف عن الكلام.

"تقصد مارغريت. أنا سأبلغها بالنبأ. المسكينة. كم كان يفكر بها طوال الليلة الماضية! يا الله! الليلة الماضية. وكم أصبح بعيداً اليوم! لكني سآخذ مارغريت كابنة لي من أجله. الليلة الماضية وعدته أن أعتني بها وأرعاها كرمى لها. حسناً من أجل الاثنين معاً".

حاول السيد ثورنتِن مرتين الكلام، لكنه لم ينجح، قبل أن يتمكن من القول:

"كيف سيكون حالها؟"

"أتخيل أن هناك شخصين ينتظرانها؛ وأنا واحد منهما. سأحضر تنيناً حياً إلى منزل، لو اضطرني الأمر لتوظيف من يحرسها ويرعاها، وأقيم مؤسسة خاصة بي، وبهذا سأجعل شيخوختي سعيدة بوجود مارغريت ابنة لي، لكن هناك أيضا آل لينوكس".

"ومن هم؟". سأل السيد ثورنتِن باهتمام خجول.

"أناس رائعون من لندن سيظنون، على الأرجح، أن لهم الحق برعايتها. النقيب لينوكس تزوج ابنة خالتها، وهي الفتاة التي ترعرعت وكبرت معها مارغريت. أناس طيبون، يمكنني القول. وهناك خالتها السيدة شو. ربما قد يكون أمامي فرصة متاحة، ربما، لأعرض الزواج على السيدة. لكن ذلك سيكون الملاذ الأخير لرعاية مارغريت. وهناك أيضاً ذلك الشقيق".

"أي شقيق؟ شقيق خالتها؟".

"لا، لا، لينوكس الذكي (النقيب أحمق، عليك أن تعلم ذلك)؛ المحامي الشاب الذي سيحاول استمالة مارغريت. أنا أعلم أنه وضعها في رأسه في السنوات الخمس الأخيرة أو أكثر، كما أخبرني أحد أصدقائه، لكن لم يمنعه عن ذلك سوى سعيه إلى المال والثروة، أما الآن، فسيتم وضع حد لهذا الأمر".

"كيف؟" سأل السيد ثورنتِن، بفضول حماسي جعله لا ينتبه إلى وقاحة سؤاله.

"لأنها ستحصل على مالي بعد وفاتي. وإن كان هنري لينوكس هذا مناسباً لها على نحو كافٍ، وحاز إعجابها. عندئذ ربما أجد طريقة أخرى أن أحصل على منزل عن طريق الزواج. لكن أشد ما أخشاه أن أقع، في لحظة ضعف، فريسة إغراء خالتها".

لم يكن السيد بيل ولا السيد ثورنتِن في مزاجٍ يتقبل الفكاهة المضحكة، وبالتالي مر الكلام الغريب الذي جاء على لسان الأول مرور الكرام من دون أن يحظى بأي اهتمام منهما. أطلق السيد بيل صفيراً هامساً بالكاد يُسمع ثم غيَّر مقعده من دون أن يجد أيَّ راحة أو ارتياح. بقي السيد ثورنتِن ساكناً في مقعده وعيناه مسمرتان على جزء من الجريدة التي عاد ورفعها بين يديه ليمنح نفسه متسعاً للتفكير.

"أين كنت؟" أخيراً سأله السيد بيل.

"في هافر. أحاول اكتشاف سر الارتفاع الكبير في سعر القطن".

"أف! القطن، والمضاربات، والدخان، وآلاتٌ تحظى بالرعاية والنظافة، وأيادٍ متسخة مهمَلة. العجوز المسكين هيل! العجوز المسكين هيل! لو كنت تدري حجم التغيير الذي طرأ على حياته منذ مغادرته هِلْستِن. هل تعرف نيو فوريست؟".

"أجل". أجابه باختصار.

"إذاً بوسعك أن تتخيل الفارق الكبير بينها وبين ميلتِن. أي منطقة زرتها هناك؟ هل ذهبت يوماً إلى هِلْستِن؟ قرية صغيرة رائعة الجمال كالتي تراها في أودِنوولد؟ هل تعرف هِلْستِن؟".

"نعم سبق لي أن زرتها. لا بد أنه كان تغيراً كبيراً بالنسبة له أن يغادرها ويأتي إلى ميلتِن".

رفع الجريدة بقوة وإصرار، وكأنه قرر عدم الاستمرار في هذا الحديث، فلم يكن أمام السيد بيل سوى التفكير مجدداً بالطريقة التي يجب عليه اتباعها لإبلاغ مارغريت بما جرى.

كانت على النافذة في الطابق العلوي. لمحته بسرعة؛ وكأنها خمنت الحقيقة بوميض غريزي. وقفت في منتصف غرفة الضيوف كما لو أن شيئاً ما قيّد رغبتها بالاندفاع نحو الدرج، فاستحالت حجرا ساكناً أبيض اللون.

"لا، لا تقل لي أنه...عرفت ذلك من وجهك. كان يمكنك أن ترسل لي، ولا تتركه هناك، لو كان حياً".

وحيداً، وحيداً

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت الصدمة عنيفة. دخلت مارغريت في حالة انهيارٍ لم تُظهر نفسها بالدموع والحسرات، أو حتى تجد سلواها في الكلمات. استلقت على الكنبة وعيناها مغلقتان لا تتكلم مع أحد إلا عندما ترد همساً على كلام أحد. استولت الحيرة على السيد بيل. لم يكن بمقدوره أن يتركها، ولا أن يطلب منها أن ترافقه إلى أكسفورد التي كانت واحدة من خططه التي وضعها أثناء رحلته إلى ميلتن. كان واضحاً أن حالتها البدنية لم تكن في وضع يساعدها على تحمل مشقة السفر، بغض النظر عن المنظر الذي كان عليها أن تواجهه هناك. جلس السيد بيل قرب موقد النار يفكر بما كان عليه أن يفعل. كانت مارغريت لا تزال مستلقية على الكنبة بلا حراك، وبالكاد تستطيع التنفس. لم يكن قادراً على تركها حتى لتناول العشاء الذي أعدته له ديكسِن في الطابق السفلي، وحاولت بكرم الضيافة المتعب بالبكاء إقناعه بتناول الطعام. أحضروا له طبقاً. كان السيد بيل دقيقاً وذواقاً وخبيراً في كل نكهة في طعامه، أما الآن فقد بدا له طعم الدجاج أشبه بنشارة الخشب. قطَّع جزءاً من الدجاجة وأضاف إليه الملح والفلفل وطلب من ديكسِن أن تقدمه إلى مارغريت. لكن عندما حاولت ديكسِن إطعامها، كانت حركة رأس مارغريت المنهكة دليلاً على أن الطعام، وهي في هذه الحالة، كان سيخنقها بدلاً من أن يعيد إليها القوة والنشاط.

أطلق السيد بيل تنهيدة عميقة، ورفع أطرافه البدينة العجوز (التي أصابها التشنج بسبب السفر) وهو ينهض من جلسته المريحة، ولحق بديكسِن خارج الغرفة.

"لا أستطيع أن أتركها. يجب علي أن أبعث برسالة إلى أكسفورد لاستكمال الترتيبات، يمكنهم أن يباشروا الإجراءات إلى حين عودتي. ألا تستطيع السيدة لينوكس المجيء إلى هنا؟ سأكتب لها وأخبرها بأن تأتي. لابد أن يكون هناك امرأة تقف إلى جانب مارغريت، كي تشجعها على البكاء".

كانت ديكسِن تبكي ما يكفي الاثنتين معاً. لكنها وبعد أن مسحت دموعها، وتحكمت بصوتها، أخبرت السيد بيل أن السيدة لينوكس على وشك أن تنتهي من مرحلة النفاس، ولا يمكنها أن تسافر في رحلة كهذه في الوقت الحاضر.

"إذن، أظن أنه لابد أن نستدعي السيدة شو. لقد عادت إلى إنكلترا، أليس كذلك؟".

"أجل يا سيد بيل، لقد عادت، ولكن لا أظن أنها ستترك السيدة لينوكس في هذه الفترة السعيدة"، قالت ديكسِن التي لم تكن ترغب بوجود امرأة غريبة المنزل لتشاركها الاهتمام بمارغريت.

"في هذه الفترة...". تحكم السيد بيل بنفسه بالسعال في نهاية الجملة. "ليس لديها أيُّ مشكلة في أن تكون في فينيسيا أو نابولي، أم في بعض المواقع البابوية في نهاية "الفترة السعيدة" التي جرت في كورفو، حسب ما أظن. ما الذي تعنيه "الفترة السعيدة" لهذه المرأة الصغيرة الميسورة بالمقارنة مع هذه الفتاة المسكينة هنا، البائسة، التي لم يعد لها منزل، وليس لها أصدقاء، المستلقية على الكنبة وكأنها ضريح وهي تمثال حجري يرقد فوقه. يجب أن تأتي السيدة شو. هل ترين تلك الغرفة، أو أي غرفة أخرى تريدها، يجب أن تكون جاهزة لاستقبالها بحلول مساء الغد. سأحرص على أن تأتي".

كتب السيد بيل رسالة قالت عنها السيدة شو، والدموع تملأ عينيها، إنها تشبه واحدة من رسائل المرحوم الجنرال عندما كان على وشك الإصابة بإحدى نوبات الروماتيزم، التي غالباً ما كانت تعتز وتحتفظ بها. لو أن السيد بيل أعطاها الخيار سواء بالطلب أو مناشدتها، وكأن الرفض كان ممكناً، لربما كانت اعتذرت عن المجيء، مهما كانت مشاعرها الصادقة وتعاطفها الحارة تجاه مارغريت.

لقد كانت بحاجة إلى لهجة حادة آمرة لا مجاملة فيها كي تتغلب على خمولها، وأن تدع خادمتها تحزمها مثل أي حقيبة بعد أن فرغت من ملأ الصناديق. وقفت إيديث في أعلى الدرج، ترتدي قبعتها وشالها، والدموع في عينيها، بينما كان النقيب لينوكس يصطحب والدتها إلى العربة:

"لا تنسي يا أمي، يجب أن تأتي مارغريت وتعيش معنا هنا. شولتو سيذهب إلى أكسفورد يوم الأربعاء، وعليك أن تبعثي برسالة له عن طريق السيد بيل عن موعد وصولك. إن احتجت إلى شولتو، يمكنه التوجه من أكسفورد إلى ميلتِن. لا تنسي يا أمي، يجب أن تأتي مارغريت معك".

عادت إيديث إلى غرفة الضيوف. كان السيد هنري لينوكس جالساً هناك يفتح نسخة جديدة من جريدة "ريفيو". ومن دون أن يرفع رأسه، قال: "إن كنت لا تريدين شولتو أن يغيب عنك لفترة طويلة، لم لا تدعيني أذهب إلى ميلتِن لأقدم أيَّ مساعدة ممكنة".

"لا شكراً لك"، قالت إيديث،" السيد بيل العجوز سيتكفل بكل ما يمكنه القيام به، ولا حاجة لمساعدة إضافية. فالمرء لا ينتظر كثيراً من اللباقة من زميل مقيم. عزيزتي المسكينة مارغريت؛ أليس رائعاً أن تكون معنا هنا مرة أخرى؟ كنتما صديقين رائعين، من سنوات خلت".

"هل كنا فعلاً؟" سألها ببرود، وهو يبدو مهتماً بقراءة الجريدة.

"ربما لا، لقد نسيت. لكن ألا ترى معي أنه من المناسب أن تنتهي الأمور على هذا النحو؛ أن يتوفى العم هيل الآن، بعد أن عدنا إلى المنزل، واستقرينا في المنزل القديم، وبتنا مستعدين لاستقبال مارغريت؟ سأشتري قماشاً جديداً لغرفة نومها لتبدو جديدة مشرقة كي أدخل قليلاً من البهجة على قلبها".

وبروح العطف ذاتها، انطلقت السيدة شو إلى ميلتِن يخالجها شعور الخوف من اللقاء الأول، وتتساءل بينها وبين نفسها كيف سينتهي، وتخطط كيف يمكن لها أن تأخذ مارغريت بأقصى سرعة من ذلك "المكان المريع"، وتعود بها إلى هناء وراحة شارع هارلي.

" آه يا عزيزتي!" قالت لخادمتها؛ "انظري إلى هذه المداخن! أختي المسكينة هيل! ما كنت أظن أنني كنت سأرتاح في نابولي لو علمت كيف كانت حياتها هنا! كنت ولابد سآتي وآخذها هي ومارغريت". واعترفت سراً في قرارة نفسها أنها لطالما كانت تعدُّ زوج أختها رجلاً ضعيفاً، لكن ليس إلى الدرجة التي أصبح عليها الآن، عندما رأت أي مكان استبدل به هِلْستِن الرائعة.

بقيت مارغريت على حالها، راقدة بلا حراك، ساكتة لا تتكلم، ولا تبكي. أخبروها أن خالتها شو ستصل إلى ميلتِن، لكنها لم تعبر عن دهشتها، ولا عن سرورها أو حتى استيائها من الفكرة. أما السيد بيل الذي كان قد استعاد شهيته للطعام، وقدَّرَ جهود ديكسِن لإشباعه، فقد حاول عبثاً أن يقنع مارغريت بتذوق يخنة بنكرياس العجل مع المحار، لكنها عاودت هز رأسها بعناد كما فعلت في اليوم السابق، ما اضطره أن يواسي نفسه لهذا الرفض بتناول الطبق كله. كانت مارغريت أول من سمعت صوت العربة التي أقلّت خالتها من محطة القطار وهي تقف أمام المنزل. ارتعش جفناها وتلونت شفتاها، وارتجف جسدها. نزل السيد بيل إلى الطابق السفلي لاستقبال السيدة شو، وعندما صعدا معاً، كانت مارغريت واقفة على قدميها وهي تحاول أن توازن نفسها من أثر الدوار. وعندما رأت خالتها، اندفعت نحوها بذراعين مفتوحين، وأطلقت سراح الدموع الحبيسة في عينيها على كتف خالتها. كل صور الحب الهادئ المعتاد، ورقة السنوات وعلاقة القربى مع الفقيد، وكل هذا الشبه الذي لا يُوصف في المظهر، ونبرة الصوت، بل والإيماءات والإشارات، كان واضحاً بأنه ينتمي لأسرة واحدة، وهو ما ذكَّر مارغريت في تلك اللحظة بوالدتها، ودفعها إلى تليين قلبها الخدِر إلى دفق من الدموع الحارة.

انسل السيد بيل خارج الغرفة، ونزل إلى غرفة المكتب وطلب أن تُشعل النار في الموقد. حاول أن يغيّر ما يجول من أفكار في رأسه بتفحص كتب مختلفة كان كل واحد منها يستدعي ذكرى أو إشارة ما إلى صديقه الراحل. ربما كان ذلك تغييراً لانشغاله بالاهتمام بمارغريت على مدى اليومين الماضيين، لكنه لم يغيّر

الأفكار التي كانت تراوده. شعر بالسعادة عندما سمع صوت السيد ثورنتِن يستفسر عن شيء ما عند الباب. كانت ديكسِن تحاول صرفه بطريقة جارحة بعد أن استعادت، مع حضور خادمة السيدة شو، مظاهر الفخامة السابقة لآل بيريسفِرد، والمكانة (كما كانت تستمتع بتسميتها) التي طُردت منها سيدتها الشابة، والتي كانت الآن، بفضل الله، ستعود إليها. هذه الصور والتخيلات التي راحت تداعب مخيلتها وهي تستمتع في الحديث مع خادمة السيدة شو (وتوضح ببراعة الظروف وتداعياتها المتصلة بمنزل الأسرة في شارع هارلي من أجل تثقيف وتعليم مارثا التي كانت تستمع إلى الحديث)، جعلت ديكسِن فظة أكثر في معاملة أي شخص من سكان ميلتِن. وعلى الرغم من أنها طالما كانت تشعر بالخوف من السيد ثورنتِن، إلا أنها هذه المرة بلغت من الحدة والوقاحة ما جعلها تتجرأ على أن تخبره بأنه لا يمكنه أن يرى أحداً من سكان المنزل تلك الليلة. لذلك كان الأمر مزعجاً أن تسمع من السيد بيل ما يناقض كلامها عندما فتح باب غرفة المكتب، ونادى عليه:

"ثورنتِن! أهذا أنت! ادخل لدقيقة أو دقيقتين، أريد أن أتكلم معك في أمر ما".

دخل السيد ثورنتِن إلى غرفة المكتب، فما كان من ديكسِن إلا أن تراجعت إلى المطبخ لتستعيد مكانتها بقصة خيالية عن السير جون بيريسفِرد عندما كان شريفاً[76] وعربته التي تجرها ستة خيول.

"في الحقيقة، لا أدري ماذا كنت أريد أن أقوله لك. كل ما في الأمر، إنه لشيء كئيب أن تجلس في غرفة كل ما فيها يحدثك عن صديق رحل. كما أنه كان علي أن أترك غرفة الضيوف لمارغريت وخالتها".

"وهل جاءت السيدة...خالتها؟" سأل السيد ثورنتِن.

" جاءت! أجل، مع الخدم والحشم. كان الواحد يظن أنها ستأتي بمفردها في مثل هذه الظروف! ولم يعد أمامي الآن إلى أن أخرج وأجد طريقي إلى فندق الكلارندون".

(76) المقصود هنا "Sherrif" الذي يعمل على تطبيق القانون باسم الملكة.

"لا داعـي لأن تذهـب إلى الفنـدق. لدينـا أربـع أو خمـس غـرف نـوم خاليـة في المنـزل".

"جيدة التهوية!"

"أعتقد أنه يمكنك أن تثق بوالدتي في هذا الأمر".

"إذاً سـأصعد إلى الطابـق العلـوي لأتمنـى لتلـك الفتـاة شـاحبة الوجـه ليلـة طيبـة، وانحنـي أمـام جلالـة خالتهـا، ثـم انطلـق معـك".

وبينـما كان السـيد يمـضي فـترة مـن الوقـت في الطابـق العلـوي، راح السـيد ثورنـتِن يفكـر. كان مشـغولاً جـداً، وبالـكاد كان بمقـدوره أن يدخـر جـزءاً مـن وقتـه للقـدوم إلى كرامبـتِن للاطمئنـان عـلى الآنسـة هيـل.

وحالما انطلقا في مسيرهما، قال السيد بيل:

"تأخـرت بالنـزول بسـبب المرأتـين في غرفـة الضيـوف. السـيدة شـو تسـتعجل العـودة إلى منزلهـا بسـبب ابنتهـا، وتريـد مارغريـت أن تذهـب معهـا في الحـال، رغـم أنهـا غـير قـادرة عـلى السـفر مثلـما أنـا قـادر عـلى الطـيران. كذلـك تقـول مارغريـت أن لديهـا أصدقـاء تـود أن تراهـم، وأن تـودع عـددا مـن الأشـخاص، وهـذا حقهـا. إلا أن خالتهـا أقلقتهـا بشـأن معارفهـا القديمـة، وهـل نسـيت فعـلاً أصدقاءهـا القدامـى؟ عندهـا قالـت مارغريـت، وهـي تنفجـر بالبـكاء، إنهـا سـعيدة لأنهـا سـتغادر المـكان الـذي عانـت فيـه الكثـير. يتوجـب عـلي الآن أن أعـود إلى أكسـفورد، ولا أعلـم في أيٍّ كفـة مـن الميـزان سـأضع قـراري".

توقـف قليـلاً كـما لـو كان يطـرح سـؤالاً، لكنـه لم يتلـقَ جوابـاً مـن رفيقـه الـذي كانـت أصـداء أفـكاره تـتردد في رأسـه.

"المـكان الـذي عانـت فيـه الكثـير". واحسرتـاه! هكـذا باتـت هـي الطريقـة التـي سـيتذكر بهـا الأشـهر الثمانيـة عـشرة في ميلـتِن التـي احتلـت في قلبـه موقعـا أثـيراً عـلى نحـو لا يٌوصـف بمـا فيهـا مـرارة تـوازي في قيمتهـا مـا تبقـى لـه مـن حيـاة جميلـة. فـلا رحيـل الأم ولا فقـدان الأب كان كفيـلاً بـأن يسـمم ذكـرى الأسـابيع، والأيـام، بـل والسـاعات التـي كان يُمضيهـا في مسـيرة كيلومتريـن كانـت كل خطـوة فيهـا مصـدر

سعادة له، بما أنها كانت تقربه شيئاً فشيئاً منها، وتأخذه إلى حضورها العذب. كما كانت كل خطوة فيها غنية بكل لحظة تتكرر وهي تحمله بعيداً عنها، وتجعله يتذكر شيئاً من الجمال النضِر في تصرفاتها، والحدة اللاسعة اللذيذة في شخصيتها. أجل! وأيّاً كان ما جرى له، خارج علاقته بها، لا يمكن له أن يفصح عن تلك الفترة عندما كان قادراً على رؤيتها كل يوم؛ وكانت بمتناول قبضته، على إنها زمن المعاناة، إن جاز التعبير. كان زمناً ملكيَ الرفاهية بالنسبة إليه، بآلامه وإهاناته، بالمقارنة مع فقر مدقع تسلل وزحف ليغطي أمال المستقبل ويجعلها حقيقة جدباء، وحياةً لا أمل فيها ولا خوف.

كانت السيدة ثورنتِن وفاني في غرف الطعام، حيث كانت الأخيرة ترفرف من الفرح والخادمة تساعدها وهي تستعرض عدداً من الأقمشة اللماعة الواحد تلو الآخر، وتجرب فساتين العرس تحت ضوء الشموع. حاولت والدتها أن تشاركها هذه البهجة، لكنها لم تستطع. فلا هذا الذوق ولا الفستان يتفقان مع ميولها، وكانت تتمنى لو أن فاني رضيت بعرض أخيها للحصول على ملابس الزفاف من واحد من نخبة خياطي لندن من دون الخوض في متاعب لا تنتهي من الجدل والنقاش والتردد بسبب رغبة فاني بأن تختار وتشرف على كل شيء بنفسها. كان السيد ثورنتِن سعيداً للغاية للتعبير عن استحسانه بامتنان لأي شخص عاقل يمكن أن يقع أسيرَ مظاهر وفضائل فاني العادية، ويمنحها موارد ضخمة لتحصل على أجمل الملابس والحلي التي كانت تضاهي، إن لم تتفوق، على الحبيب نفسه بحسب تقديرها. عندما دخل أخوها بصحبة السيد بيل، احمرت فاني خجلاً وتبسمت تعبيراً عن سعادتها بما كانت منشغلة به وعلى نحو لم يكن ليعجز عن لفت انتباه أي شخص كان باستثناء السيد بيل. فإن كان قد انتبه إلى الحرير والقماش اللامع الصقيل، فلم يكن ذلك وارداً بالنسبة له إلا على سبيل المقارنة بين فاني وبين تلك الفتاة الشاحبة الحزينة التي تركها تجلس ساكنة، مُطأطئة الرأس وذراعاها مطويان، في غرفة كان سكونها ثقيلاً إلى درجة تجعلك تتخيل أن هذا الصوت في داخل أذنيك المشدودتين ليس سوى روح الميت ترفرف حول من تحبهم. فعندما صعد السيد بيل إلى الطابق

العلوي، وترك السيد ثورنتِن وحيداً في غرفة المكتب في منزل السيد هيل، كانت السيدة شو نائمة على الكنبة، ولا صوت يخترق صمت المكان.

استقبلت السيدة ثورنتِن السيد بيل استقبالاً رسمياً حاراً. فهي لا تكون ودودة إلى هذا الحد كما تكون عندما تستقبل أصدقاء ابنها في منزل ابنها. وكلما كانت زيارتهم مفاجئة، كان الشرف كبيراً بالنسبة للترتيبات الرائعة التي تخص راحتهم.

"كيف حال الآنسة هيل؟" سألت.

"منهارة بفعل هذه المصيبة التي حلت بها".

"أنا على ثقة أنها ستكون بخير ما دام لديها صديق مثلك".

"ليتني كنت صديقها الوحيد، يا سيدتي. يمكنني القول إن الأمر يبدو وحشياً، لهذا أصبحت طريداً هنا، وحلت مكاني خالتها السيدة الرقيقة في موقع الناصح المواسي. وهناك أولاد خالة وغيرهم يريدونها في لندن، كما لو كانت كلباً مدللاً بالنسبة إليهم. وهي ضعيفة وبائسة إلى درجة لا تساعدها في أن يكون لها إرادة مستقلة".

"لابد أن تكون ضعيفة"، قالت السيدة ثورنتِن بمعنى ضمني فهمه ابنها جيداً. " لكن أين كان هؤلاء الأقارب طوال هذه الفترة عندما كانت الآنسة هيل تقريباً بلا سند أو صديق وهي تواجه عبئاً كبيراً من القلق والمتاعب؟" لم تكن مهتمة كثيرة بسماع الرد على سؤالها، وغادرت الغرفة من أجل إعداد ما يلزم لاستقبال الضيف.

"كانوا خارج البلاد. أنا لا أنكر حقهم بالمطالبة بها. فالخالة هي التي ربتها، وابنة خالتها كانت بمثابة الأخت لها. لكن ما يضايقني في هذا كله، كما تعلم، أنني أريد أن اتخذها ابنة لي، بل وأشعر بالغيرة من هؤلاء الناس الذين لا يقدرون، على ما يبدو، قيمة حقهم بها. لكن الأمر سيكون مختلفاً إن طالب بها فريدريك".

"فريدريك!" تعجب السيد ثورنتِن. "من هو؟ وأي حق...؟" ولم يكمل سؤاله المتحمس.

"فريدريك"، قال السيد بيل مدهوشاً. "ألا تعلم؟ إنه أخوها... ألم تسمع..."

"لم أسمع باسمه من قبل. أين هو؟ ومن يكون؟".

"أنا متأكد بأني أخبرتك عنه، عندما جاءت الأسرة إلى ميلتِن...إنه ابنها الذي تورط في حادثة التمرد"

"لم أسمع به حتى هذه الدقيقة. أين يعيش؟".

"في إسبانيا لأنه مهدد بالاعتقال لحظة تطأ قدماه إنكلترا. يا للفتى المسكين! سيحزن كثيراً لأنه لن يستطيع حضور جنازة أبيه. ولهذا سنكتفي بحضور النقيب شولتو لينوكس، فلا أعلم بوجود قريب آخر".

"آمل أن يُسمح لي بالحضور؟".

"بالتأكيد، مع الشكر الجزيل، فأنت صديق طيب، يا ثورنتِن. كان هيل يحبك، وحدثني عنك ذلك اليوم في أكسفورد. وكم كان يشعر بالأسف لأنه لم يكن يراك كثيراً في الآونة الأخيرة. أنا ممتن لرغبتك بالتعبير عن تقديرك واحترامك له".

"لكن بشأن فريدريك، ألم يعد إلى إنكلترا؟".

"أبداً".

ألم يكن موجوداً في الفترة التي توفيت فيها السيدة هيل؟".

"لا، كنتُ موجوداً حينذاك. في تلك الفترة كانت قد مضت سنوات لم أر فيها السيد هيل، وإن كنت تذكر، أتيتُ...لا هذا ما جرى بعد تلك الفترة. لكن المسكين فريدريك هيل لم يأتِ إلى هنا يوم وفاة والدته. ما الذي جعلك تعتقد ذلك؟".

"رأيت شاباً يمشي مع الآنسة هيل يوماً"، أجاب السيد ثورنتِن، "وكان ذلك، حسب ظني، في تلك الفترة".

"لا بد أنه كان الشاب المحامي لينوكس، شقيق النقيب. كانوا على تواصل جيد معه بالمراسلة، وأذكر أن السيد هيل أخبرني أن الشاب كان ينوي زيارتهم هنا. هل تعلم،" قال السيد بيل، وهو يدور حوله، ويغلق إحدى عينيه كي يستجمع قوة الأخرى لتتفحص بتركيز وجه السيد ثورنتِن، "أني تخيلت يوماً أنك معجب بمارغريت؟".

صمت ثورنتِن، وبدا وجهه خالياً من أي تعبير.

"كذلك تصور السيد هيل. ليس في البداية، أو على الأقل حتى زرعت الفكرة في رأسه".

"أنا معجب بالآنسة هيل. ولا بد أن أي شخص آخر سيعجب بها، فهي مخلوق جميل". قال السيد ثورنتِن بعد أن حاصره السيد بيل باستجوابه اللحوح.

"هل هذا كل شيء! أن تتحدث عنها بهذه الطريقة المحسوبة على أنها مجرد "مخلوق جميل"، شيء يلفت النظر. كنت آمل أن يكون لديك من النبالة ما يكفي ليجعلك تعطيها حقها بتقدير القلب. وعلى الرغم من أني أظن ـ بل وفي الحقيقة أعلم ـ أنها كانت سترفضك، إن تمسكك بحبها من دون مقابل كان سيعلي من شأنك أكثر من كل أولئك، أياً كانوا، الذين لم يعرفوها كي يحبوها. "مخلوق جميل" فعلاً! هل تتكلم عنها كما لو كنت تتكلم عن كلب أو حصان".

توهجت عينا السيد ثورنتِن مثل جمرتي نار.

"يا سيد بيل"، قال له، "قبل أن تتكلم على هذا النحو، يجب عليك أن تتذكر أن الرجال جميعهم ليسوا أحراراً في التعبير عن مشاعرهم مثلك. دعنا نتكلم في موضوع آخر". على الرغم من أن قلبه كان يقفز، مثل نفير البوق، مع كلمة قالها السيد بيل، وعلى الرغم من أنه كان يعلم أن ما قاله سوف سيربط من الآن وصاعدا صورة زميل أكسفورد العجوز بوثاق محكم مع أغلى الأشياء وأحبها على قلبه، لم يكن ليجبر نفسه للتعبير عن مكنوناته تجاه مارغريت. فهو لم يكن طائراً مقلداً للمديح، لمجرد أن شخصاً آخر أثنى على ما يحب ويكن له احتراماً كبيراً، ليندفع في منافسته في الإطراء. لذلك تحول إلى الحديث عن موضوعات العمل الجافة الباردة التي تجمعه مع السيد بيل كمالك للمكان، وبينه كمستأجر لديه.

"ما هذه الكومة من الطين والحجارة التي مررنا بها في الساحة؟ هل تريد إجراء أيٍّ إصلاحات؟".

"لا، شكراً".

"هل تريد بناء شيء على حسابك؟ إن كنت تنوي ذلك، فأنا ممتن لك جداً".

"أنوي بناء غرفة طعام، للرجال، أقصد العمال".

"حسبتك شخصاً يصعب إرضاؤه، إن كانت هذه الغرفة لا تكفيك وأنت العازب".

"تعرفت إلى شاب غريب، ووضعت طفلاً أو طفلين يرعاهما هذا الشاب في المدرسة. وصادف ذات يوم أني كنت ماراً بجانب منزله لأسدِّد مبلغاً زهيداً من المال، ورأيت طعاماً محروقاً، قطعة لحم كثيرة الشحم، فراودتني الفكرة لأول مرة. لكن ومع ارتفاع أسعار المواد الغذائية هذا الشتاء، رحت أفكر في شراء المواد بسعر الجملة، وطهي كمية جيدة من الحصص الغذائية، مما سيوفر الكثير من المال، وقدراً أكبر من الراحة للعمال. تحدثت إلى صديقي ـ أو عدوي ـ الرجل الذي أخبرتك عنه، لكنه وجدها خطة غير مناسبة في كل تفاصيلها، وبالنتيجة وضعتها جانباً لأنها غير عملية، ولأنني شعرت بأني أتدخل في استقلالية العمال إن فرضتها عليهم. وفجأة جاءني هيغينز وأبدى استحسانه لخطة قريبة جداً من خطتي إلى حد كان يمكن لي أن أنسبها لنفسي. وليس هذا فحسب، بل واستحسان زملائه العمال الذين تكلم معهم. اعترف أنني في البداية شعرت بالانزعاج من تصرفه، وفكرت في التخلي عن الأمر برمَّته. لكنه بدا لي تصرفاً صبيانياً أن أتخلى عن خطة اعتبرتها حكيمة ومنظمة، لا لشيء سوى أنني لم أحظَ بشرف أني أنا من بادر بها. لذلك توليت الجزء الخاص بي في هذه الخطة الذي يشبه إلى حد ما دور المضيف في نادٍ. أشتري المواد الغذائية بسعر الجملة، وأوظف مشرفاً أو طاهياً".

"آمل أنك تنال الرضا والتقدير بصفتك الجديدة. هل أنت خبير جيد في البطاطا والبصل؟ لكني أظن أن السيدة ثورنتِن تساعدك في التسوق".

"أبداً، على الإطلاق"، أجاب السيد ثورنتِن. "فهي لم تستحسن الخطة بأكملها، ولا نتحدث في هذا الموضوع. لكني أدير الأمر على خير ما يرام بالحصول على كميات كبيرة من ليفربول، ويتم إعدادها مع اللحم الذي يزودنا به اللحام الذي تتعامل مع عائلتنا. أستطيع أن أؤكد لك أن الأطباق التي يعدها الطاهي لذيذة وشهية".

"وهل تتذوق كل طبق يُقدم بحكم منصبك؟ آمل أن يكون لديك عصا سحرية بيضاء".

"في البداية، كنت شديد الحرص على أن أبقى الطرف المشتري، بل حتى أن أقبل طلبات العمال التي كانت تصلني عن طريق مدبرة المنزل، أكثر من الاعتماد على قراري أو اختياري. في بعض الأحيان، كانت قطع لحم العجل كبيرة، وفي أحيان أخرى، لم يكن لحم الضأن مكتنزاً بالدهن على نحو كافٍ. أظن أنهم رأوا بأعينهم كيف أني أدعهم يتصرفون على راحتهم، ولا أفرض أفكاري عليهم. وفي يوم من الأيام، جاءني اثنان أو ثلاثة من العمال، من بينهم هيغينز، وطلبوا مني أن أتناول وجبة معهم. كان لدي كثير من الأعمال في ذلك الحين، لكنني شعرت بأني سأجرح مشاعرهم إن لم أقابلهم في منتصف الطريق، بعد أن تقدموا بهذه الخطوة. وبالفعل ذهبت، وكانت أروع وجبة غداء في حياتي. وقلت لهم (أقصد إلى الرجال الذين يجلسون بجواري، فأنا شخص لا يجيد إلقاء الخطب) كم استمتعت بوجودي بينهم. وكلما صادف وكان هناك وجبة غداء مميزة في جدول الوجبات، كان يأتي إلى الرجال وهم يقولون: "يا سيدي، هناك طبق ساخن على الغداء اليوم، ألن تأتي؟". حتى لو لم يدعوني، لم أكن لأجد حرجاً في التطفل عليهم، أكثر مما أجده لو ذهبت لتناول الطعام في ثكنات الجنود من دون دعوة".

"أظنك كنت قيداً يُكبِّل حديث مضيفيك. فهم لا يستطيعون انتقاد أرباب العمل في وجودهم. لذا أتوقع أنهم يفصحون عن موقفهم خارج أيام الأطباق الساخنة".

" حسناً! في السابق كنا نتحاشى الخوض في القضايا التي تثير الغضب. لكن إن ظهر أي خلاف قديم مرة أخرى، لن أتردد حكماً بالتعبير عن رأيي الصريح. لا يبدو أنك على معرفة جيدة بأهالي داركشاير، مع أنك واحد منهم. فهم يمتلكون حس دعابة، وحيوية في التعبير. أصبحت الآن على دراية ببعض منهم، ويتحدثون بحرية كاملة أمامي".

"لا شيء مثل تناول الطعام يساوي بين الناس، حتى الموت لا يُقارن به. فالفيلسوف يموت واعظاً، والمدعي منافقاً، وطيب القلب متواضعاً، والأحمق

الفقير أعمى جاهلاً، كما يسقط العصفور على الأرض[77]، الفيلسوف والأحمق والمرائي والمستأجر جميعهم يأكلون بالطريقة نفسها، بما أنهم يتمتعون بقدرة جيدة على الهضم. هذه نظرية النظرية بالنسبة إليك!".

"في الحقيقة، ليس لدي أي نظرية، أنا أكره النظريات".

"أرجو عفوك. تكفيراً عن ذنبي، هل تقبل مني عشرة جنيهات لشراء المواد، وتقيم وليمة لأصدقائك الفقراء؟".

"شكراً، لن أقبلها. فهم يدفعون لي إيجار الفرن، والمطبخ خلف المصنع، كما سيتوجب عليهم أن يدفعوا أكثر من أجل غرفة الطعام الجديدة. لا أريد أن أحول الأمر إلى جمعية خيرية. لا أريد تبرعات. حالما أتخلى عن المبدأ، لا بد أن أجد أناساً يدخلون ويتكلمون، ويفسدون بساطة الموضوع بأكمله".

"لا يمكنك أن تمنع الناس من الكلام حول أي مشروع جديد".

"قد يبادر أعدائي، إن كان لي أعداء، إلى إثارة شكوى خيرية حول مشروع الغداء، وأنتظر منك الآن أن تحترم تجربتي هذه بالصمت. فهي ليست سوى مكنسة جديدة الآن، وتنظف على نحو كافٍ. ولا شك أننا، شيئاً فشيئاً، سنقابل الكثير من الحجارة في طريقنا".

---

(77) إشارة إلى: "أَلَيْسَ عُصْفُورَانِ يُبَاعَانِ بِفَلْسٍ؟ وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لاَ يَسْقُطُ عَلَى الأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ". (إنجيل متى، الإصحاح 10: 29). (م)

رحيل مارغريت

بقـدر مـا تسـمح بـه واحـدة مـن سـمات طبيعتهـا اللطيفـة، أطلقـت السـيدة شـو العنـان لكرههـا مدينـة ميلـتِن. فقـد كانـت بالنسـبة إليهـا، صاخبـة، مشـبعة بالدخـان، وكان أهلهـا الفقـراء الذيـن رأتهـم في الشـوارع قذريـن، والسـيدات الثريـات يبالغـن في ملابسـهن، كـما أنـه لم يكـن هنـاك رجـل واحـد، وضيعـاً أو محترمـاً، يرتـدي ملابـس تناسـبه. كانـت عـلى قناعـة بأنـه مـن المسـتحيل لمارغريـت أن تسـتعيد عافيتهـا إن بقيـت في ميلـتِن، بـل كانـت تخـشى عـلى نفسـها أن تصـاب بواحـدة مـن نوباتهـا العصبيـة القديمـة. هـذا الموقـف، إن اسـتثنينا قـوة كلـمات الخالـة شـو، كان الـروح التـي ناشـدت بهـا مارغريـت المنهكـة، المفجوعـة، والمنهـارة، حتـى قبلـت عـلى مضـض بـأن تعـد خالتهـا بـأن تكمـل ترتيباتهـا بالعـودة معهـا مـع انقضـاء يـوم الأربعـاء، تاركـة لديكسِـن مهمـة دفـع الفواتـير والتخلـص مـن الأثـاث، وإغـلاق المنـزل. كان الأربعـاء هـو اليـوم المحـدَّد لدفـن السـيد هيـل بعيداً عـن كلا المنزلـين اللذيـن عرفهما في حياتـه، وبعيـداً عـن زوجتـه التـي ترقـد وحيـدة بـين الغربـاء (وهـذا تحديـداً مـا كان يـؤلم مارغريـت التـي كانـت تتصـور أنهـا لـو لم تستسـلم لتلـك الغيبوبـة خـلال أيـام حزنهـا الأولى، لـكان بمقدورهـا إنجـاز الترتيبـات بطريقـة مختلفـة). لكـن وقبـل حلـول يـوم الأربعـاء، وصلتهـا رسـالة مـن السـيد بيـل:

"عزيـزتي مارغريـت: كنـت أنـوي العـودة إلى ميلـتِن يـوم الخميـس، لكـن لسـوء الحـظ تبـين أننـا ومـن المـرات النـادرة مدعـوون نحـن، زمـلاء بليمِـث، لأداء أي واجـب كان، وبالتـالي لا أسـتطيع التخلـف عـن الدعـوة. النقيـب لينوكـس، والسـيد ثورنـتِن موجـودان هنـا. ويبـدو الأول شـاباً أنيقـاً، وحسـن النيـة، وعـرض الذهـاب

إلى ميلـتِن لمسـاعدتك في البحـث عـن الوصيـة، التـي لا توجـد طبعـاً، وإلا لكنـت وجدتهـا خـلال هـذه الفـترة لـو اتبعـتِ تعليـماتي. قـال النقيـب لينوكـس إنـه يجـب عليـه أن يأخـذك وحماتـه إلى المنـزل، وبسـبب وضـع زوجتـه الحـالي، لا أعتقـد أنـك تتوقعـين منـه أن يبقـى بعيـداً أكـثر مـن يـوم الجمعـة. عـلى أي حـال يمكـن لديكسِـن التـي يمكـن الوثـوق بهـا، أن تحتفـظ بالوصيـة، أو تحتفظـين بهـا أنـت إلى أن آتي إلى ميلـتِن. سـأضع المسـألة في عهـدة محامـي في ميلـتِن، إن لم يكـن هنـاك أيُّ وصيـة، لأني أشـك أن يكـون هـذا النقيـب الأنيـق رجـلاً عمليـاً، مـع إن شـاربيه في غايـة الروعـة. بالتأكيـد، سـتضطرين لبيـع بعـض الأشـياء، فاختـاري مـا توديـن الاحتفـاظ بـه، أو يمكنـك أن ترسـلي لائحـة بهـا بعـد ذلـك. أمـا الآن، فهنـاك أمـران إضافيـان، وأنهـي رسـالتي. أنـت تعلمـين، أو إن كنـت لا تعلمـين، لكـن أبيـك كان عـلى معرفـة بأنـك سـترثين مـالي وممتلـكاتي عندمـا أمـوت. هـذا لا يعنـي أني سـأموت الآن، ولكـن أقـول لأشرح مـا سـيجري لاحقـاً. يبـدو أن آل لينوكـس مغرمـون بـك الآن، وربمـا سـيبقون كذلـك، وربمـا لا. لـذا مـن الأفضـل أن أبـدأ باتفـاق رسـمي، وعـلى وجـه التحديـد، أنـك سـتدفعين لهـم مائتـين وخمسـين جنيهـاً سـنوياً طالمـا بقيـت تعيشـين معهـم في منزلهـم، ووجـدوا بقـاءك مصـدر راحـة وسرور لهـم. (هـذا بالطبـع يشـمل ديكسِـن، حـاذري أن يتملقـوك لتدفعـي لهـم المزيـد مـن المـال بسـببها). في هـذه الحالـة، لـن تشـعري بالضيـاع، إن أراد النقيـب ذات يـوم أن يحتفـظ بالمنـزل لنفسـه، تسـتطيعين أن تحمـلي نفسـك ومعـك المائتـين والخمسـين جنيهـاً إلى مـكان آخـر؛ إن لم أسـتطع أن أدعـوك للمجـيء إلى هنـا كي تديـري شـؤون منـزلي. أمـا بالنسـبة للثيـاب، وديكسِـن، والنفقـات الشـخصية، والحلويـات (جميـع السـيدات الشـابات يأكلـن الحلويـات حتـى تأتيهـن الحكمـة مـع تقـدم العمـر)، سأستشـير سـيدة مـن معـارفي لأعـرف كـم سـتحصلين مـن والـدك قبـل أن أُسـوِّي هـذه المسـألة. والآن، أتسـاءل يـا مارغريـت إن كنـت قـد غـادرت قبـل أن تصـلي في قراءتـك للرسـالة إلى هـذا السـطر، وبـدأت تتسـاءلين بـأي حـق يمكـن لهـذا الرجـل العجـوز أن يرتـب شـؤونك بهـذا التجاهـل لمشـاعرك؟ أنـا متأكـد بأنـك تسـاءلت فعـلاً. لكـن يبقـى للرجـل العجـوز الحـق. لأنـه أحـب والـدك عـلى مـدى خمسـة وثلاثـين عامـاً، ووقـف إلى جانبـه يـوم زفافـه،

وأغلـق عينيـه عندمـا فـارق الحيـاة. وعـلاوة عـلى ذلـك، هـذا الرجـل العجـوز هـو عرابـك؛ ولأنـه لا يسـتطيع أن يكـون ذا فائـدة كبـيرة لـك روحيـاً، لأنـه يعلـم ضمنيـاً تفوقـك في هـذه الأمـور، لا يسـعه سـوى أن يمنحـك مـا يسـتطيع ماديـاً. كـما أن لا أقربـاء لهـذا الرجـل العجـوز في هـذه الدنيـا؛ "مـن ذا الـذي سـيبكي عـل آدم بيـل؟"ولا يريـد قلبـه شـيئاً آخـر إلا هـذا الـشيء، وليسـت مارغريـت الفتـاة التـي تقـول لـه لا. اكتبـي لي ولـو سـطرين رداً عـلى رسـالتي، لكـن لا تشـكريني".

أخـذت مارغريـت قلـماً، وكتبـت بيـد ترتعـش "مارغريـت هيـل ليسـت الفتـاة التـي تقـول لـه لا". لم يكـن بمقدورهـا، وهـي في حالتهـا الضعيفـة هـذه، أن تفكـر في كلمات أخـرى، رغـم أنهـا شـعرت بالضيـق مـن كتابـة هـذه الكلـمات. لكنهـا كانـت منهكـة القـوى حتـى مـن القيـام بهـذا الجهـد الضئيـل، ولذلـك لم يكـن باسـتطاعتها الجلـوس وكتابـة ولـو مقطـع واحـد لـو فكـرت بشـكل أخـر للقبـول بمـا عرضـه السـيد بيـل.

"يا ابنتي العزيزة! هل أزعجتك هذه الرسالة؟".

"لا" قالـت مارغريـت بصـوت ضعيـف. "سـأكون أفضـل حـالا عندمـا ينقـضي يـوم الغـد".

"بالتأكيـد، يـا حبيبتـي، لـن تكـوني أفضـل حـالاً حتـى آخـذك بعيـداً عـن هـذا الجـو المريـع. لا أسـتطيع أن أتخيـل كيـف اسـتطعت أن تتحمـلي العيـش هنـا فـترة عامـين".

"لم يكن باستطاعتي أن أذهب، وأترك أمي وأبي".

" حسـناً يـا عزيـزتي، لا تعـذبي نفسـك. سـيكون كل شيء عـلى مـا يـرام، لم أكـن أتصـور كيـف كنـت تعيشـين، هـذا كل مـا في الأمـر. فزوجـة خادمنـا تعيـش في منـزل أفضـل مـن هـذا".

"لكنـه جميـل أحيانـاً... في الصيـف، لا يمكـن أن تحكمـي عليـه بحالتـه الآن. كنـت سـعيدة هنـا"، وأغلقـت مارغريـت عينيهـا إشـارة لرغبتهـا بعـدم إكـمال الحديـث. هجـع البيـت إلى الراحـة مقارنـة بمـا كان عليـه مـن قبـل. كانـت الأمسـيات بـاردة، وأُشـعلت مواقـد النـار في غـرف النـوم كلهـا بنـاء عـلى تعليـمات السـيدة شـو. عملـت عـلى تدليـل مارغريـت بـكل وسـيلة ممكنـة، واشـترت مـا لـذ وطـاب مـن الطعـام،

أو كل رفاهية كانت هي نفسها ستسعى إليها طلباً للراحة. لكن مارغريت لم تكترث لهذه الأشياء، وإن حظيت باهتمامها، فلم يكن ذلك إلا تعبيراً عن امتنانها لخالتها التي كانت لا تبخل في شيء لرعايتها والاهتمام بها. كانت قلقة، وضعيفة. بقيت طوال اليوم تبعد عنها مخيلتها التفكير بمراسم الجنازة التي كانت تجري في أكسفورد بالتنقل من غرفة إلى أخرى، وتنتقي جانباً على مهل الأشياء التي تود الاحتفاظ بها. ونزولاً عند رغبة السيدة شو، كانت ديكسِن تتبعها ـ ظاهرياً ـ لتتلقى منها التعليمات، لكن ـ فعلياً ـ لتهدئتها ومساعدتها إن احتاج الأمر.

"سأحتفظ بهذه الكتب، يا ديكسِن. أما البقية فسوف ترسلينها إلى السيد بيل، فهي من النوع التي يقدر قيمتها، ومن أجل خاطر أبي. أما هذا الكتاب، فأريدك أن تأخذيه إلى السيد ثورنتِن، بعد مغادرتي. انتظري، سأكتب له ملاحظة".

جلست بسرعة، كما لو كانت تخشى التفكير، وكتبت:

" السيد العزيز؛ أرفق لك مع هذه الرسالة كتاباً أنا واثقة أنه سيلقى لديك كل تقدير احتراماً لذكرى أبي الذي كان هذا الكتاب واحداً من كتبه.

لكم بإخلاص

مارغريت هيل".

استأنفت مارغريت جولتها في المنزل تتفحص محتوياته التي كانت تعرفها منذ طفولتها يخالجها شعور بالأسى للتخلي عنها سواء أكانت، قديمة، مهترئة، أم تجاوزها الزمن. بعد ذلك، لم يكن لديها القدرة على الكلام، وقالت ديكسِن للسيدة "إنها كانت تشك إن كانت الآنسة هيل سمعت كلمة واحدة مما قالته لها، مع أنها لم تتوقف عن الكلام طوال الوقت من أجل أن تلفت انتباهها". وبسبب وقوفها على قدميها طوال فترة النهار، شعرت مارغريت بالتعب في المساء، واستسلمت خلال الليل لراحةٍ أفضل بكثير منذ أن تلقت نبأ وفاة السيد هيل.

وفي اليوم التالي على مائدة الفطور، عبرت مارغريت عن رغبتها بالذهاب لوداع واحد أو اثنين من أصدقائها، لكن السيدة شو اعترضت:

"أنـا متأكـدة بأنـه لا يمكـن أن يكـون لـك أي أصدقـاء هنـا تربطـك بهـم علاقـة قويـة تسـوِّغ زيارتـك لهـم قبـل أن تذهبـي إلى الكنيسـة".

"لكنـه اليـوم الوحيـد المتـاح لي؛ إن جـاء النقيـب لينوكـس عـصر هـذا اليـوم، وكان علينـا، وكان عـليَّ، أن أغـادر غـداً..."

"بـكل تأكيـد سـنغادر غـداً. بـت عـلى قناعـة أكـبر بـأن هـذا الهـواء ضـار بـك، ويجعلـك تبديـن شـاحبة ومريضـة، كـما أن إيديـث تتوقـع وصولنـا، وربمـا كانـت تنتظرنـا، ولا يمكننـي أن أتـركك بمفـردك وأنـت في هـذه السـن. لا، إن كان لا بـد أن تقومـي بهـذه الزيـارات، سـأرافقك ويمكـن لديكسِـن أن تطلـب لنـا عربـة".

ذهبـت السـيدة شـو لتعتنـي بمارغريـت، واصطحبـت معهـا خادمتهـا لتعتنـي بالشـالات والوسـائد. بلـغ الحـزن الـذي ارتسـم عـلى وجـه مارغريـت حـدّاً منعهـا حتـى مـن القـدرة عـلى الابتسـام مـن كل هـذه التحضيرات مـن أجـل زيارتـين لطالمـا كانـت تقـوم بهـما لوحدهـا في أيٍّ سـاعة مـن سـاعات النهـار. كانـت تخـشى في قـرارة نفسـها مـن الاعـتراف بصعوبـة زيـارة مـكان واحـد؛ وهـو منـزل نيكـولاس هيغينـز، إذ راحـت تأمـل بـأن تتأفـف خالتهـا مـن النـزول مـن العربـة والمـشي صعـوداً في السـاحة، وتفاجـئ مـع كل هبـة هـواء بوجههـا يُصفـع بملابـس مبللـة منشـورة عـلى حبـال تمتـد مـن منـزل لآخـر.

في الأثنـاء، كانـت هنـاك معركـة صغـيرة تـدور في رأس السـيدة شـو بـين إحساسـها بواجبهـا الأمومـي تجـاه مارغريـت وبـين راحتهـا، لكـن الأخـيرة كسـبت الجولـة. ومـع تشـديدها عـلى مارغريـت بالحـرص والانتبـاه، وعـدم الإصابـة بالحمـى التـي تنتـشر في مثـل هـذه الأماكـن، سـمحت السـيدة شـو لهـا أن تذهـب إلى المـكان الـذي غالبـاً مـا كانـت ترتـاده مـن دون التـزام الحيطـة والحـذر، أو عـلى الحصـول عـلى إذن مسـبق. كان نيكـولاس في الخـارج، ولم يكـن في المنـزل سـوى مـاري واثنـين مـن أطفـال باوتـشر. اسـتاءت مارغريـت لأنهـا لم تخـتر وقتـاً أفضـل للزيـارة. كانـت مـاري تتمتـع بـذكاء حـاد عـلى الرغـم مـن مشـاعرها الرقيقـة الدافئـة. وفي اللحظـة التـي أدركـت الغايـة مـن زيـارة مارغريـت، حتـى انفجـرت بالبـكاء والشـهيق حيـث لم تسـتطع التحكـم بهـما عـلى نحـو وجـدت مارغريـت أنـه مـن العبـث قـول أي شيء مـن آلاف

الأشياء الصغيرة التي خطرت على بالها عندما كانت في العربة. حاولت تهدئتها بالحديث عن الفرصة الضئيلة للقاء ثانية، في زمن ما، وفي مكان ما، وطلبت منها أن تخبر والدها كم تتمنى، إن استطاع، أن يأتي ليراها عندما يعود مساءً من العمل.

وبينما كانت تغادر المكان، توقفت وتلفتت حولها، وترددت قليلاً قبل أن تقول:

"أود أن احتفظ بشيء صغير يذكرني ببيسي".

وفي الحال، استنفرت هذه العبارة كرم ماري. ما الذي يمكن لهم أن يعطوها؟ وعندما لمحت مارغريت تنتقي كوب ماء صغير لا تزال تتذكره بجانب بيسي لتبلل بمائه شفتيها المحمومتين، قالت ماري:

"خذي شيئاً أفضل، فهذا لا يساوي أكثر من أربعة بنسات!".

"هذا سيفي بالغرض، شكراً لك"، قالت مارغريت، وأسرعت بالخروج من المنزل، بينما كان ضوء الفرح بمنحها تذكاراً لا يزال عالقاً على وجه ماري.

"والآن إلى السيدة ثورنتِن"، تمتمت مارغريت في سرها. "لا بد من القيام بهذه الزيارة، رغم أن مجرد التفكير بهذا الأمر جعلها تبدو شاحبة متشنجة إلى حدٍّ ما، ووجدت صعوبة في العثور على الكلمات المناسبة التي ستشرح بها لخالتها من تكون السيدة ثورنتِن، ولماذا يجب عليها أن تودعها.

هذه المرة نزلت السيدة شو من العربة، واستُقبلت هي ومارغريت في غرفة الضيوف التي كانت أُشعلت النار فيها للتو. شدت السيدة شو الشال على جسدها وراحت ترتجف.

"يا لها من غرفة باردة كالثلج".

انتظرتا قليلاً إلى أن دخلت السيدة ثورنتِن. كان قلبها قد رقَّ قليلاً تجاه مارغريت، طالما أنها كانت ستغيب عن ناظريها. تذكرت عنفوانها الذي أظهرته لها في أوقات وأماكن متعددة أكثر مما أظهرت من الصبر على ما مرت به من مصاعب. كان وجهها بشوشاً على غير العادة عندما حييت مارغريت، بل وحتى لمسة من الرقة في أسلوبها وهي ترى ذلك الوجه المتورم من كثرة البكاء، وتسمع تلك الرجفة في صوتها التي حاولت مارغريت التحكم بها.

"اسـمحي لي أن أقـدم لـك خالتـي، السـيدة شـو. سـأغادر ميلـتِن غـداً؛ لا أدري إن كنـت عـلى علـم بذلـك، لكنـي أردت أن أراك ثانيـة يـا سـيدة ثورنـتِن لأعتـذر لـك عـما بـدر منـي في آخـر مـرة رأيتـك فيهـا، وأقـول لـك أنـا واثقـة مـن أن مـا كنـت تقصدينـه كان بدافـع النيـة الحسـنة...مهما كان سـوء التفاهـم الـذي جـرى بيننـا".

بـدت السـيدة شـو في حـيرة كبـيرة مـما قالتـه مارغريـت. شـكراً عـلى لطفـك! واعتــذاري عــن عــدم التــصرف بلباقــة! لكــن الســيدة ثورنـتِن أجابتهـا:

"آنسـة هيـل، أنـا سـعيدة لأنـك أنصفتنـي. لم أفعـل شـيئاً أكـثر مـن واجبـي في توجيهـك. لطالمـا تمنيـت أن نكـون أصدقـاء. شـكراً لأنـك أعطيتنـي مـا أسـتحق".

"وهـل"، قالـت مارغريـت وهـي تحمـرُّ خجـلاً، "تنصفينـي، وتصدقينـي ـ رغـم أننـي لا أسـتطيع ولا أملـك الخيـار لـشرح سـلوكي ـ بأننـي لم أتـصرف بتلـك الطريقة المشـينة التـي فهمتِهـا".

قالـت مارغريـت عبارتهـا بصـوت ناعـم وعينـين متوسـلتين لم تجـد السـيدة ثورنـتِن مفـرّاً مـن التأثـر بسـحر هـذا التـصرف الـذي كانـت منيعـة أمامـه في السـابق.

"بالطبـع، أصدقـك. دعينـا لا نقـول المزيـد حـول هـذا الموضـوع. أيـن سـتقيمين يـا آنسـة هيـل؟ فهمـت مـن السـيد بيـل أنـك تنويـن مغـادرة ميلـتِن. أنـت تعلمـين، إنـك لم تحبـي ميلـتِن"، قالـت السـيدة ثورنـتِن، مـع ابتسـامة متجهمـة، " لكـن لا تتوقعـي منـي أن أهنئـك عـلى مغادرتهـا. أيـن ستعيشـين؟".

"مع خالتي"، قالت مارغريت وهي تلتفت نحو السيدة شو.

"سـتقيم ابنـة أختـي معـي في شـارع هـارلي. فهـي في مقـام ابنتـي"، قالـت السـيدة شـو وهـي تنظـر بإعجـاب إلى مارغريـت، "وأنـا سـعيدة لأعـرب عـن امتنـاني لـك عـلى معاملتـك اللطيفـة لهـا. وإن صـادف إن جئـت أنـت وزوجـك إلى المدينـة، أنـا عـلى ثقـة بـأن النقيـب والسـيدة لينوكـس سيشـاركاني الرغبـة بـأن نقـوم بـأي شيء يمكننـا القيـام بـه للتعبـير عـن اهتمامنـا باسـتقبالكم".

أدركـت السـيدة ثورنـتِن أن مارغريـت لم تلـقَ بـالاً للتوضيـح لخالتهـا نـوع العلاقـة بين السـيد والسـيدة ثورنـتِن التـي كانـت السـيدة الأنيقـة توجـه لهـما دعوتهـا اللطيفـة، فأجابـت باختصـار،

"زوجي مُتوفٍّ، والسيد ثورنتِن هو ابني. وأنا لا أذهب إلى لندن أبداً، ولذلك من غير المرجح أن أحظى بعرضك المهذب".

في هذه اللحظة دخل السيد ثورنتِن، وكان قد عاد لتوِّه من أكسفورد، وفسرت بزة الحداد السبب الذي دعاه للذهاب إلى هناك.

"جون"، قالت والدته، "هذه السيدة شو خالة الآنسة هيل. يؤسفني القول إن الآنسة هيل تزورنا من أجل توديعنا".

"إذاً ستغادرين!"، قال بصوت منخفض.

"أجل"، قالت مارغريت، "سنغادر غداً".

"سيأتي صهري مساء اليوم لمرافقتنا"، قالت السيدة شو.

استدار السيد ثورنتِن. لم يجلس، وراح يتفحص شيئاً ما على الطاولة، وكأنه اكتشف وجود رسالة لم يفتحها بعد، وجعلته ينسى أمر الضيوف. بل حتى أنه لم ينتبه متى نهضتا استعداداً للمغادرة. على أي حال، سارع إلى مساعدة السيدة شو بالنزول إلى العربة. وعندما وصلت العربة، وقف هو ومارغريت بجانب بعضهما بعضاً على عتبة الباب، وكان من المستحيل بالنسبة إليهما ألا يتذكرا ما جرى في ذلك اليوم عندما حاولوا مهاجمة المصنع. وتذكر السيد ثورنتِن الكلام الذي جرى بينهما في اليوم التالي، وما قالته يومها بكل حماسة إنها لم تكن لتهتم بأي رجل في ذلك الحشد الغاضب العنيف، إلا بقدر ما كانت تهتم به شخصياً. قطَّب حاجبيه وهو يتذكر كلماتها الجارحة، رغم أن قلبه كان ينبض بحب ملتاع. "لا!" قال لنفسه، "وضعت قلبي بين يديها مرة، وخسرته. دعها ترحل مع قلبها المتحجر، كم يبدو منظرها جامداً ورهيباً الآن، رغم جمال ملامحها! إنها تخشى من أن أقول شيئاً قد يتطلب القوة لكبته. دعها ترحل كما هي، ووريثة أيا كانت، لكنها من الصعب أن تجد قلباً صادقاً مثل قلبي. دعها ترحل!".

خلا صوته من أيِّ نبرة أسف، أو أية عاطفة، وهو يودعها، وصافح اليد الممدودة له بهدوء صارم، ثم أسقطها من يده كما لو كانت وردة ميتة ذابلة. لكن لا

أحد من سكان المنزل رأى السيد ثورنتِن مرة أخرى ذلك اليوم.كان مشغولا جداً، أو هذا ما قاله.

استنفدت هاتان الزيارتان حيوية مارغريت ونشاطها مما جعلها تخضع لمزيد من الرعاية والدلال وسماع التنهدات "قلت لك" من خالتها. أما ديكسِن، فقالت إن مارغريت عادت إلى الحالة السيئة ذاتها التي كانت عليها في اليوم الأول من سماعها نبأ وفاة السيد هيل، وتشاورت مع السيدة شو بشأن تأجيل السفر المقرر غداً. لكن عندما اقترحت الخالة شو على مضض تأجيل الرحلة بضعة أيام، تلوت مارغريت وكأنها تعاني ألماً حاداً، وقالت:

"لا، دعينا نرحل. لا أطيق البقاء مريضة هنا. لن أتعافى هنا. أريد أن أنسى".

سارت ترتيبات السفر على قدم وساق، ووصل النقيب لينوكس ومعه أنباء عن إيديث والطفل. وجدت مارغريت أن هذا الحديث اللامبالي، مهما كان لطيفاً، لم يكن دافئاً وحريصاً ممن يُفترض به أن يتعاطف معها في محنتها، ومع ذلك كان مفيداً لها. فقد أثار فيها النشاط، وعندما أدركت احتمال قدوم هيغينز، كانت قادرة على الذهاب إلى غرفتها لانتظار إعلامها بوصوله.

حالما دخلت قال هيغينز "لم أصدق أن السيد العجوز رحل! كانت القشة التي قصمت ظهري عندما أخبروني. "السيد هيل؟" قلت لهم؛ "من كان قساً؟". "نعم" قالوا لي. "عندها" قلت لهم، "هاهو أطيب رجل في الدنيا يرحل عنها، يا تُرى من هو التالي!" وأتيت لأراك، وأعبر لك عن عميق حزني، لكن المرأتين في المطبخ قالتا لي إنك مريضة، لكنك لا تبدين نفس الفتاة التي أعرفها. ستذهبين إلى لندن وتصبحين واحدة من السيدات الأكابر، أليس كذلك؟".

"لا ليس من الأكابر"، قالت مارغريت وعلى شفتيها نصف ابتسامة.

"قال لي ثورنتِن قبل يوم أو يومين"، تابع هيغينز كلامه، "هيغينز، هل رأيت الآنسة هيل؟". "لا" قلت له، "فهناك جيش من النساء لن يسمح لي بمقابلتها. لكن سأجد الوقت المناسب، إن كانت مريضة. فأنا وهي نعرف بعضنا جيداً، وهي لن تشك بحزني على وفاة السيد العجوز، لمجرد أني لا أستطيع رؤيتها،

وأخبرها بذلك". فقال لي "لن يتسع الوقت لك كثيراً كي تحاول رؤيتها، يا صديقي. فهي لن تبقى معنا يوماً واحداً بعد الآن. لديها أقارب من الطبقة الراقية، وسيأخذونها معهم، ولن نراها أبداً". "سيدي" قلت له، "إن لم أتمكن من رؤيتها قبل أن ترحل، سأسعى كي أسافر إلى لندن في أسبوع العنصرة[78] المقبل. لن يمنعني أحد من وداعها، ولا حتى أقاربها أياً كانوا. لكن باركِك الله، كنت واثقاً بأنك ستأتين. ما قلته كان مجرد دعابة مع سيدي، قلتها كما لو كنت أتصور بأنه ربما تغادرين ميلتِن من دون أن تريني".

"أنت محق تماماً"، قالت مارغريت. "أنت الوحيد من ينصفني، ولن تنساني، أنا متأكدة. إن لم يكن أحد في ميلتِن سيتذكرني، فأنا واثقة من أنك ستتذكرني وتتذكر والدي. أنت تعلم كم كان طيباً ورقيقاً. انظر يا هيغينز! هذا إنجيله. احتفظت به من أجلك. لا يمكن أن أفرط به، لكن أنا أدري بأنه كان سيسعد بأن تأخذه. وأنا على ثقة بأنك ستعتني به، وتقرأ ما جاء فيه، من أجله".

"اطمئني. حتى وإن كانت طلاسم الشيطان نفسه، وطلبت مني أن أقرأها كرمى للسيد العجوز، لفعلت. ما هذا، يا فتاة! لن آخذ منك نقوداً، فلا تفكري في هذا الأمر. كنا أصدقاء رائعين بشأن مسألة النقود".

"إنها للأطفال، أولاد باوتشر"، أجابته مارغريت بسرعة. "قد يحتاجونها، ولا يحق لك أن ترفضها. فأنا لن أعطيك قرشاً واحداً"، قالت له وهي تبتسم؛ "لا تظن أن لك فيها شيئاً".

"حسناً، يا فتاة! لا يسعني سوى القول، باركك الله! باركك الله! ...وآمين".

---

(78) عيد العنصرة الذي يُحتفَل فيه بذكرى نزول الروح القدس على تلامذة المسيح، ويوافق اليوم السابع بعد عيد الفصح. (م)

استراحة وليست راحة

وجدت مارغريت في هدوء شارع هارلي، أثناء الفترة التي كانت تتعافي فيها إيديث من النفاس، الراحة الطبيعية التي كانت تحتاجها. إذ منحتها الوقت الكافي لتستوعب التغير المفاجئ الذي طرأ على حياتها خلال الشهرين الماضيين. ووجدت نفسها، دفعة واحدة، نزيلة منزل فخم لا يساورها فيه هم أو قلق. بدت وكأن عجلات الحياة اليومية هنا قد نالت صيانة متميزة تزييتاً وتشحيماً ما جعلها تدور بسلاسة ونعومة.

لم تبخل السيدة شو ولا إيديث بالاحتفاء بمارغريت لدى عودتها إلى ما كانتا تصران على تسميته بيتها. وشعرت مارغريت بدورها أنه من نكران الجميل أن تشعر، ولو سرّاً، أن منزل الأبرشية في هِلْستِن، بل وحتى المنزل المتواضع في ميلتِن، مع أبيها القلِق ووالدتها المريضة، وهموم تدبير شؤون المنزل الصغيرة الفقيرة، كانت كلها تعني كلمة بيت. كانت إيديث في عجلة من أمرها للتعافي من النفاس لتملأ غرفة نوم مارغريت بكل مستلزمات الراحة، والزينة التي كانت غرفتها تمتلئ بها. كذلك انشغلت السيدة شو وخادمتها في إعادة خزانة ملابس مارغريت إلى حالة التنوع الأنيق.أما النقيب لينوكس، فكان طيباً منفتحاً وشهماً. اعتاد أن يجلس ساعة أو ساعتين مع زوجته في غرفة ملابسها، ويلاعب طفله ساعة أخرى، قبل أن يخرج إلى النادي ليمضي بقية وقته، إن لم يكن مرتبطاً بموعد على العشاء. وقبل أن تتعافى مارغريت من الحاجة للراحة والاسترخاء، وقبل أن تشعر بأن حياتها باتت مملة، جاءت إليها إيديث واستأنفت دورها المعتاد في إدارة شؤون المنزل، وعادت مارغريت إلى عادتها القديمة في مراقبتها، والإعجاب

بهـا، ومسـاعدتها. وتولـت بـكل سـعادة هـذه الواجبـات مـن يـدي إيديـث: كتابـة الرسـائل، وتذكيرهـا بالمواعيـد، وإسـعادها عندمـا لا يكـون هنـاك مجـال للفـرح، أو عندمـا يتخيـل لهـا بأنهـا مريضـة. أمـا بقيـة العائلـة فكانـت منهمكـة بمشـاغل موسـم الصيـف في لنـدن، وغالبـاً مـا كانـت مارغريـت تبقـى وحيـدة في المنـزل. وهكـذا كانـت تعـود بهـا أفكارهـا إلى ميلتِن مـع إحسـاسٍ غريـب بالمقارنـة بـين الحيـاة هنـا وهنـاك. فقـد باتـت تشـعر بأنهـا تعيـش فائضـاً مـن الراحـة المملـة التي لا تتطلـب منهـا القيـام بـأي جهـد، بـل حتـى كانـت تخـشى أن تغيـب في نسـيان كل شيء خـارج هـذه الحيـاة التـي تحـفُّ بالرفاهيـة مـن كل جانـب. قـد يكـون هنـاك في لنـدن أنـاسٌ يشـقون ويتعبـون، لكنهـا لم تـرَ أحـداً منهـم، فحتـى الخـدم هنـا يعيشـون في عـالم سـفلي خـاص بهـم لا تعـرف عـن آمالهـم ومخاوفهـم، ولا يظهـرون إلى الوجـود إلا عندمـا يطلبهـم سـادتهم أو سـيداتهم لحاجـة أو نـزوة مـا. كان هنـاك نـوع غريـب مـن الفـراغ القلِـق في قلـب مارغريـت، وفي نمـط حياتهـا. وعندمـا لمحـت ذات مـرة بذلـك إلى إيديـث، التـي كانـت منهكـة مـن حفلـة الرقـص في الليلـة السـابقة، ربتـت هـذه الأخـيرة عـلى خـد مارغريـت التـي كانـت تجلـس كعادتهـا عـلى مسـند القدمـين بجانـب الكنبـة التـي اسـتلقت عليهـا ابنـة خالتـه.

"يـا للطفلـة المسـكينة! مـن المحـزن قليـلاً أن تبقـي بمفـردك ليلـة بعـد ليلـة بينـما يكـون العـالم كلـه فرحـاً. لكـن سـيكون لدينـا قريبـاً حفـلات العشـاء الخاصـة بنـا هنـا، حالمـا يعـود هـنري مـن جولتـه، عندئـذ، سـتجدين تنوعـاً مبهجـاً. لا عجـب أنـك تشـعرين بالملـل والكآبـة، يـا عزيـزتي المسـكينة!".

لم تشـعر مارغريـت بالرضـا كـما لـو أن حفـلات العشـاء سـتكون هـي العـلاج الشـافي، الأمـر الـذي دفـع بإيديـث للدفـاع عـن حفلاتهـا: "إنهـا مختلفـة جـداً" كـما قالـت، عـن حفـلات عشـاء الأرامـل العواجيـز كـما كان في نظـام أمـي". كذلـك بالمقابـل، كانـت السـيدة شـو تحظـى بالنـوع نفسـه مـن التسـلية ولكـن ضمـن ترتيبـات ودائـرة مختلفـة مـن المعـارف لا تتفـق مـع ذوق النقيـب والسـيدة لينوكـس اللذيـن كان يعتبرانهـا ثقيلـة وأكـثر رسـمية مثـل تلـك الحفـلات التـي اعتـادت السـيدة شـو إقامتهـا. كان النقيـب لينوكـس لطيفـاً وأخويـاً مـع مارغريـت التـي كانـت هـي أيضـاً

معجبة به إلا عندما يغالي في حرصه واهتمامه بملابس إيديث ومظهرها، مع نظرته إلى جمالها على أنه هو ما يصنع التأثير الكافي على الآخرين. وهنا كانت تنتفض فاشتي[79] المتمردة المختبئة في داخل مارغريت التي بالكاد كانت تستطيع أن تمنع نفسها من التعبير عن مشاعرها.

كان نهار مارغريت يبدأ بساعة أو ساعتين هادئتين قبل فطور متأخر؛ وجبة لا موعد محدد لها، يجتمع عليه أشخاص متعبون وشبه نائمين، ويمتد لفترة من الوقت يفترض بمارغريت أن تكون موجودة لأنه وبعد هذا الفطور مباشرة تأتي مرحلة مناقشة مشاريع ومخططات يُنتظر منها أن تشاركهم الرأي رغم أنها لا تعنيها من قريب أو بعيد، اللهم ما عدا إبداء المشورة، أو كتابة عدد لا ينتهي من الرسائل، وهي المهمة التي تركتها لها إيديث بكثير من المديح والإطراء على فصاحتها. ثم تلعب قليلاً مع شولتو الصغير عندما يعود من نزهته الصباحية، إلى جانب الاعتناء بالأطفال خلال فترة تناول الخدم طعام الغداء، ومن ثم الخروج بالعربة، أو استقبال ضيوف أو انشغال خالتها وابنتها بتناول الغداء، أو بأي أمر آخر. وهذا ما كان يجعل إيديث، فعلياً، حرة من أي واجب، ولكن متعبة من خمول النهار، يضاف إلى معنوياتها المكتئبة وصحتها الحساسة الرقيقة.

كانت تتحرق شوقاً باهتمام لا يوصف لعودة ديكسِن من ميلتِن التي لا تزال الخادمة العجوز فيها حتى الآن مشغولة في إنهاء الأمور كافة المتعلقة بآل هيل هناك. بدا لها الأمر أشبه بقحط هبط فجأة على قلبها مع هذا التوقف عن سماع أخبار الناس الذين عاشت بينهم لفترة طويلة. صحيح أن ديكسن كانت تكتب في رسائلها، الشبيهة برسائل العمل، بين الحين والآخر، ما قاله السيد ثورنتِن بشأن الأثاث، أو كيفية التعامل مع صاحب المنزل في كرامبتِن، لكن هذا الاسم أو أي اسم آخر في ميلتِن كان يرد في مواقع متفرقة هنا وهناك. وفي إحدى

(79) فاشتي (بالفارسية واشتي) هي ملكة فارس والزوجة الأولى للملك أكافيروش، بحسب ما ورد في سفر إستير في التوراة، وعاقبها الملك لأنها رفضت أن تظهر في مأدبة لتستعرض جمالها أمام الضيوف، وطردت من القصر وحلت إستير محلها ملكة في البلاط. وطبقاً للتفسير اليهودي، عوقبت فاشتي لأنها رفضت أن تظهر عارية. أما في التفسيرات الأدبية للحركة النسوية، تمثل فاشتي البطلة المستقلة المتمردة.

الأمسيات، كانت مارغريت جالسة في غرفة الرسم الخاصة بآل لينوكس، تحمل رسائل ديكسِن بين يديها لكن من دون أن تقرأها، بل راحت تفكر وتستعيد ذكرى الأيام الخوالي، وتتخيل الحياة المزدحمة التي انتُزعت منها انتزاعاً، ولم تعد تفتقدها، وتتساءل إن كانت الأمور هناك تسير على منوالها وكأنها ووالدها لم يكونا موجودين فيها يوماً، وتتعجب في قرارة نفسها إن كان أحداً من كل أولئك الذين عرفتهم يفتقدها (باستثناء هيغينز الذي لم تكن تفكر به). وبينما كانت في غمرة هذه التساؤلات، أُعلن عن وصول السيد بيل، فأسرعت مارغريت ووضعت الرسائل في سلة قماش الكنفا، واستعدت لمقابلته وهي تحمرُّ خجلاً وكأنها كانت ترتكب ذنباً ما.

"السيد بيل! لم أتوقع رؤيتك أبداً!".

"لكن آمل أن أكون موضع ترحاب بالإضافة إلى تلك البداية الرائعة من الدهشة".

"هل تناولت عشاءك؟ كيف جئت إلى هنا؟ دعني أطلب منهم أن يحضروا لك العشاء".

"إن كنت تودين العشاء، وإلا، كما تعلمين، لا يوجد أحد لا يهتم كثيراً بالطعام مثلي. لكن أين الجميع؟ خرجوا للعشاء؟ وتركوك وحيدة؟".

"أجل، ويا لها من راحة. كنت أفكر...لكن هل ستخاطر بتناول العشاء؟ لا أدري إن كان يوجد أي شيء في المنزل".

"في الحقيقة، تناولت العشاء في النادي. فالخدم هنا لا يعدُّون الطعام كما يعدّونه في النادي، لذا قلت لنفسي، إن كنت تودين تناول العشاء، فربما أحاول أن (....). على أي حال، لا بأس! لا يوجد في إنكلترا كلها عشرة طهاة يمكن الوثوق بهم لإعداد عشاء مفاجئ. حتى وإن كانت مهارتهم ونيران مطابخهم قادرة على القيام بالمهمة، إلا أن مزاجهم لن يتقبلها. يمكنك أن تعدّي لي شاياً، يا مارغريت. والآن، بِمَ كنت تفكرين؟ كنت على وشك أن تخبريني. لمن كل هذه الرسائل التي أخفيتها على عجل، يا ابنتي بالمعمودية؟".

"إنها من ديكسِن"، أجابت مارغريت، بوجه ازداد احمراراً.

"هل هذا كل شيء؟ احزري من كان معي على نفس القطار؟".

"وما أدراني"، قالت مارغريت، وهي تتجنب تخمين أي اسم كان.

"ما اسم شقيق زوج ابنة خالتك؟".

" هل تقصد هنري لينوكس؟" سألته مارغريت.

"أجل"، أجابها السيد بيل. "أنت تعرفينه من قبل، أليس كذلك؟ أي نوع من الأشخاص هو، يا مارغريت؟"

"كان يعجبني في السابق"، قالت مارغريت، وهي تُطرق برأسها أرضاً، ثم عادت ورفعت ناظريها وواصلت حديثها بطريقتها الطبيعية. "أنت تعلم بأننا كنا على تواصل معه بشأن موضوع فريدريك، لكني لم أره منذ حوالي ثلاث سنوات. ربما تغير. كيف رأيته؟".

"لا أدري، لكنه للوهلة الأولى، كان مشغولا باكتشاف من أكون، ومن أكون في الوهلة الثانية، حتى إنه لم يدعني أعرف من يكون، إلا أن فضوله المستتر بمن يكون ذلك الشخص الذي كان مضطراً للتحدث إليه، لم يكن أمراً جيداً، ولا مؤشراً منصفاً على شخصيته. هل ترينه وسيماً، يا مارغريت؟".

"بالتأكيد لا، وأنت؟".

"ولا أنا أيضاً، لكن تراءى لي أنك ربما. هل هو شخص يتمتع بقدر كبير من الأهمية هنا؟".

"أتصور ذلك عندما يكون في المدينة. كان في جولة منذ وصولي إلى هنا. لكن، يا سيد بيل، هل جئت من أكسفورد أم من ميلتِن؟".

"من ميلتِن، ألا ترينني مشبعاً بالدخان؟".

"بالتأكيد، لكني حسبت ذلك من آثار أكسفورد العتيقة".

"هيا كوني امرأة عاقلة! لو كنت في أكسفورد، لاستطعت التعامل، وبطريقتي أنا، مع جميع أصحاب العقارات بنصف المشقة التي واجهت بها مالك المنزل الذي كنتم تستأجرونه في ميلتِن، لا وليس هذا فحسب بل ويغلبني. لقد رفض أن يستلم المنزل منا إلا في يونيو/ حزيران القادم، أي بعد عام من الآن. لحسن الحظ أن السيد ثورنتِن وجد مستأجراً للمنزل. بالمناسبة، لِمَ لا تسألينني عن السيد ثورنتِن، يا مارغريت؟ لقد أثبت أنه صديق حقيقي لكم، أؤكد لك ذلك. لقد أخذ عن كاهلي أكثر من نصف المشكلة".

"وكيف حاله الآن؟ وكيف حال السيدة ثورنتِن؟" سألته مارغريت بسرعة وبصوت منخفض، رغم أنها حاولت أن تتكلم بصراحة ووضوح.

"بخير حسب ما أظن. كنت أقيم في منزلهم حتى طُردت منه بسبب تلك الثرثرة التي لا تنتهي حول زواج ابنتهم. حتى أن الأمر نفسه كان لا يُطاق بالنسبة إلى السيد ثورنتِن نفسه، رغم أنها شقيقته. كان يختلي بغرفته طوال الوقت. يبدو أنه تجاوز في سنه مسألة الاهتمام بمثل هذه الأمور سواء من حيث المبدأ أو كأمر ثانوي. فوجئت بأن أرى السيدة ثورنتِن تنجرف مع التيار، وتستجيب لحماسة ابنتها بشأن أزهار الليمون والشرائط. حسبتها مصنوعة من مادة أشد صلابة وحزماً".

"لا عجب أنها ستتظاهر بأي شيء لتخفي ضعف ابنتها". قالت مارغريت بصوت مهموس.

"ربما، لقد درِستها بشكل جيد، أليس كذلك. لا تبدو معجبة بك كثيراً، يا مارغريت".

"أعلم ذلك"، قالت مارغريت. "وأخيراً، وصلت الشاي!"، قالت مارغريت، وكأن هماً انزاح عن كتفيها. ومع الشاي، وصل السيد هنري لينوكس الذي جاء إلى شارع هارلي سيراً على الأقدام، بعد عشاءٍ متأخر، وكان يتوقع بكل تأكيد أنه سيجد أخاه وزوجته في المنزل. تراءى لمارغريت أن السيد لينوكس كان سعيداً بأن حضوره تصادف مع وجود طرف ثالث في أول لقاء يجمعه بها بعد ذلك اليوم المشهود في هِلْستِن عندما تقدم لخطبتها ورفضته. لم تدر ما تقول في البداية، لذلك وجدت في إعداد طاولة الشاي حجة للبقاء صامتة، كما كانت بالنسبة إليه فرصة ليتمالك نفسه. لأنه، وفي الحقيقة، كان قد قسر نفسه على القدوم إلى شارع هارلي ذلك المساء، على أمل أن يتجاوز لقاءً محرجاً حتى بحضور النقيب لينوكس وإيديث. وما زاد الموقف إحراجاً الآن أنه وجدها بمفردها في المنزل، وأنها الشخص الوحيد الذي كان مضطراً، بشكل طبيعي، على توجيه الجزء الأكبر من الحديث إليها. كانت مارغريت سبّاقة في تمالك نفسها، وبدأت تتحدث عن أول موضوع خطر على ذهنها بعد انحسار الموجة الأولى من الخجل المرُبك.

"أنا ممتنة لك جداً، يا سيد لينوكس على ما فعلته من أجل فريدريك".
"أنـا أسـف جـداً لأن الأمـر لم ينجـح"، أجابهـا، مـع نظـرة سريعـة إلى السـيد بيـل، وكأنـه يلمـح لهـا إلى أي حـد يمكـن لـه أن يسترسـل بالحديـث أمامـه. وكأنهـا كانـت تقـرأ أفـكاره، توجهـت مارغريـت بحديثهـا إلى السـيد بيـل، ليشركانـه معـا بالحـوار، في إشـارة ضمنيـة إلى أنـه كان عـلى درايـة كاملـة بالجهـود التـي كانـت تُبـذل لتبرئـة سـاحة فريدريـك.
"ذلـك المدعـو هوروكـس، الشـاهد الأخـير، لم يعـد ذا فائـدة مثـل بقيـة الشـهود الآخريـن. فقـد اكتشـف السـيد لينوكـس أنـه أبحـر إلى أسـتراليا في آب/ أغسـطس المـاضي، قبـل شـهرين فقـط مـن مجـيء فريدريـك إلى إنكلـترا، وإعطائنـا أسـماء...".
"فريدريـك في إنكلـترا! لم تخبرينـي بذلـك!" تعجـب السـيد بيـل والدهشـة تعلـو وجهـه.
"كنـت أظنـك تعلـم بالأمـر. لم يكـن لـدي شـك بـأن تلقيـت علـماً بمـا جـرى، بالتأكيـد كان سراً كبـيراً، وربمـا مـا كان يجـب عـلي كشـفه الآن"، قالـت مارغريـت وهـي تشـعر بالاستياء.
"وأنـا بـدوري لم أخـبر أحـداً بـه سـواء لأخـي أم لابنـة خالتـك"، قـال السـيد لينوكـس بلغـة مهنيـة جافـة لا تخلـو مـن اللـوم.
"لا بـأس عليـك، يـا مارغريـت، فأنـا لا أعيـش في عـالم ثرثـار، ولا وسـط أنـاس يسـعون لاسـتخلاص المعلومـات منـي. لا داعـي لأن تفزعـي لأن كشـفت السر لناسـك عجـوز مثـلي. لـن أخـبر أحـداً بأنـه كان هنـا، ولـن يغرينـي أحـد لاسـتدراجي بالحديـث عنـه، لأن أحـدا لـن يسـألني. انتظـري! (قطـع السـيد بيـل كلامـه فجـأة) هـل جـرى ذلـك في جنـازة والدتـك؟".
"كان مع والدتي عندما توفيت"، قالت مارغريت بهدوء.
"بالتأكيـد، بالتأكيـد! لقـد سـألني أحدهـم إن كان أخـوك موجـوداً خـلال تلـك الفـترة، ونفيـت الأمـر بشـكل قاطـع لـه، قبـل أسـابيع عـدة مضـت، مـن كان يـا تُـرى؟ نعـم، تذكرت!".
لكنـه لم يذكـر الاسـم، وعـلى الرغـم مـن أن مارغريـت كانـت تـود أن تعـرف إن كانـت

شكوكها في محلها بأن السيد ثورنتِن هو من استفسر عن الأمر، إلا أنها لم تستطع أن تسأل السيد بيل رغم توقها لذلك.

مرت دقيقة أو دقيقتان من الصمت. بعد ذلك، قال السيد لينوكس، موجهاً حديثه إلى مارغريت، "بما أن السيد بيل بات مطلعاً على الظروف الخاصة بمشكلة أخيك، لا يسعني إلا أن أخبره بالتحديد عن موقف الأدلة حالياً والتي كنا نأمل أن نقدمها لصالحه. لذلك، إن شرَّفني السيد بيل بتناول الفطور معي غداً، سنراجع معاً أسماء المجموعة المفقودة".

"أود أن أسمع التفاصيل جميعها، إن أمكن. ألا يمكنك أن تأتي إلى هنا غداً؟ لا يمكنني أن أدعوكما معاً إلى الفطور، رغم ثقتي بأنك ستكون موضع ترحاب. لكن أعلم بكل ما يمكن أن تفعله من أجل فريدريك، حتى وإن لم يكن هناك أي أمل في الوقت الحاضر".

"لدي موعد عند الساعة السابعة والنصف، لكني سآتي بالتأكيد، إن كانت هذه رغبتك"، أجاب السيد لينوكس برغبة قوية بعد قدر قليل من التفكير، الأمر الذي جعل مارغريت تشعر بالانقباض، وتمنت لو أنها لم تقترح طلبها الطبيعي.

نهض السيد بيل وراح يلتفت حواليه بحثاً عن قبعته التي كانت قد أزيحت من مكانها لوضع أكواب الشاي.

"حسناً!" قال، "لا أدري ما الذي ينوي السيد لينوكس فعله، لكني أود العودة إلى منزلي، كنت على سفر اليوم وبدأت رحلات السفر تكشف عن سنواتي الستين العجيبة".

"أظن أني سأبقى كي أرى أخي وأختي"، قال السيد لينوكس دون أن يهم بأي حركة تدل على نيته للمغادرة.

استولى على مارغريت خوف محرج من أن تبقى لوحدها معه. فالمشهد في حديقة المنزل في هِلْستِن كان لا يزال ماثلاً في ذاكرتها، ولم تستطع أن تتخيل تكراره معه مرة أخرى.

" أرجوك، لا تذهب الآن يا سيد بيل"، قالت مارغريت على عجل. "أريدك أن ترى إيديث، وأن تتعرف عليك. أرجوك!"، قالت له، وهي تضغط بلمسة خفيفة

لكنها حازمة على ذراعه. نظر إليها، ولمح الارتباك في ملامح وجهها؛ فجلس ثانية، وكأن لمستها الخفيفة مسكونة بقوة لا تُقاوم.

"أرأيت كيف تهزمني، يا سيد لينوكس"، قال السيد بيل. "وآمل أن تكون قد لاحظت الاختيار الرائع لكلماتها. تريدني أن أتعرف على ابنة خالتها التي، كما أخبروني، فاتنة الجمال، لكن كانت صادقة في تغيير كلمتها إلى السيدة لينوكس "ستتعرف" علي. أفترض أنني لست مؤهلاً بالقدر الكافي كي أرى".

راح يمازحها لمنحها الوقت لتتخلص من الرجفة التي لمحها في تصرفاتها حيال نيته بالمغادرة. أدركت مارغريت مغزى مزاحه، وردت الكرة إلى ملعبه. تعجب السيد لينوكس كيف يمكن لأخيه النقيب أن يخبره بأنها فقدت ملامحها الجميلة. فقد بدت مارغريت له، في الواقع، بفستانها الأسود، نظيرة لإيديث ترقص بفستان الحداد الأبيض المصنوع من قماش الكريب، وشعرها الذهبي الطويل يتطاير بكل نعومة وألق. بانت غمازتا خدي إيديث، واحمر وجهها بجاذبية فاتنة عندما قدموها إلى السيد بيل وهي تدرك أن سمعتها كجمال يجب أن تستمر ولن تتوانى في إخضاع موردخاي[80] الذي يرفض الإعجاب بجمالها وتقديسه حتى وإن كان في شكل أستاذ في كلية لم يسمع بها أحد من قبل. أما السيدة شو، والنقيب لينوكس، كلٌّ على حدة، فقد استقبلا السيد بيل بحفاوة كبيرة أجبرته على الإعجاب بهما رغماً عنه، وخاصة عندما رأى كيف احتلت مارغريت موقعها بينهم أختاً وابنة.

"كم هو معيب أننا لم نكن موجودين في المنزل لاستقبالك"، قالت إيديث. "وأنت أيضاً يا هنري! رغم أني لا أدري إن كان يتوجب علينا البقاء في المنزل من أجلك. ومن أجل السيد بيل! ومن أجل السيد بيل ضيف مارغريت...".

(80) موردخاي من أحد الشخصيات الرئيسة في سفر إستير في التوارة، ويرتبط اسمه بعيد"البوريم" أو "المساخر" عند اليهود. ينتمي إلى سبط بنيامين، وكان قد تبنى ابنة عمه إستير التي حلت محل فاشتي ملكة على فارس في عهد الشاهنشاه أكافيروش. ينسب اليهود إلى موردخاي الفضل في اكتشاف مؤامرة لاغتيال الملك مما جعله مقرّباً من هذا الأخير. وبحسب الرواية التوراتية، كان هامان وزير الملك ويحتل موقعاً رفيعاً في الإمبراطورية حتى أن الملك أصدر أمراً بالسجود له، لكن موردخاي رفض.

"يبدو أنك لا تعلمين ما هي التضحيات التي ما كان لك أن تتحمليها"، قال شقيق زوجها. "حتى حفلة عشاء! ومتعة ارتداء هذا الفستان الرائع".

لم تعلم إيديث إن كانت ستبتسم أم تعبس، لكن هذا الموقف لم يناسب السيد لينوكس لدفعها إلى نحو أول هذين الخيارين، فتابع كلامه.

"هل لك أن تُبدي استعدادك لتقديم التضحيات غداً صباحاً، أولاً بدعوتي إلى الفطور للقاء السيد بيل، وثانياً بأن تتكرمي بأن تطلبي إعداد الفطور على الساعة التاسعة والنصف بدلاً من العاشرة؟ لدي بعض الرسائل والأوراق التي سأعرضها على الآنسة هيل والسيد بيل".

"أتمنى أن يعدَّ السيد بيل منزلنا بيته خلال إقامته في لندن"، قال النقيب لينوكس. "لكنني أعتذر بأننا لا نستطيع أن نمنحه غرفة للنوم".

"شكراً. أنا ممتن لك جداً. لكنك قد تحسبني فظاً لأنه لا يمكنني قبول هذا العرض، على الرغم من المغريات التي تقدمها هذه الصحبة الجميلة"، قال السيد بيل وهو يلتف على الجانبين محنياً رأسه، ويهنأ نفسه سراً على الطريقة اللبقة التي حوَّر بها جملته التي لو قالها بلغة صريحة، لجاءت على النحو التالي: "لا أطيق تحمل قيود أناس مهذبي التصرفات والكلام مثل هؤلاء؛ وإلا لكان الأمر أشبه بتناول اللحم من دون ملح. حمداً لله أن ليس لديهم سرير. يا لها من طريقة رائعة التي حورت بها جملتي! يبدو أنني بدأت أتعلم خدعة اللباقة والمجاملات".

لازمه هذا الشعور بالرضا حتى خرج إلى الشارع يمشي إلى جانب هنري لينوكس. وفجأة تذكر نظرة مارغريت وهي تتوسله البقاء لفترة أطول، كما تذكر بضعة تلميحات أخبره بها أحد معارف السيد لينوكس بخصوص إعجاب هذا الأخير بمارغريت. وهذا ما أعطى أفكاره وجهة جديدة. "أنت تعرف الآنسة هيل منذ فترة طويلة، كما أظن. كيف كانت تبدو برأيك؟ لقد فاجأتني بصورتها الشاحبة المريضة".

"أظن أنها كانت في أحسن حال. ربما لم تكن تبدو كذلك عندما وصلت. لكن بالتأكيد، عندما تنشطت، بدت رائعة كما كنت أراها من قبل".

"لقد مرت بظروف صعبة جداً"، قال السيد بيل.

"صحيح، وأنا حزين لما مرت به، ليس الأسى الطبيعي الناجم عن الموت فحسب، بل والمصاعب التي نجمت عن سلوك والدها، وهذا..."

"سلوك والدها!" قال السيد متعجباً. "لا بد أنك سمعت معلومات غير صحيحة. فقد تصرف والدها بضمير حي، وأظهر عزيمة وإصراراً أقوى بكثير مما كان يجب أن أقدره عليها في السابق".

"ربما ما نُقل لي كان مغلوطاً، لكن من خلفه في منصبه ـ وهو رجل ذكي وعاقل، وقسٌّ نشيط، أخبرني إنه لم يكن هناك أي داعٍ لأن يفعل السيد هيل ما فعله، أي أن يتخلى عن مصدر رزقه، ويلقي بنفسه وأسرته تحت رحمة تعليم الدروس الخصوصية في مدينة صناعية، لاسيما أن الأسقف عرض عليه عملاً آخراً يعتاش منه. إن كان لديه شكوك، كان بإمكانه أن يبقى في مكانه من دون أن يستقيل. لكن رجال الدين في هذه البلاد، في حقيقة الأمر ـ يعيشون حياة منعزلة، أقصد منعزلة عن الناس الذين يساوونهم علماً وتثقيفاً، ممن يستطيعون بعقولهم تنظيم حياتهم، واكتشاف متى يُسرِّعون إيقاعها أو يبطِّئونه إلى حد يكونون معه مستعدين لإزعاج أنفسهم بشكوك وهمية بخصوص مبادئ الإيمان والعقيدة، ويضيعون فرصاً مؤكدة لخدمة تصوراتهم غير المؤكدة".

"أخالفك الرأي تماماً. فأنا لأرى أنهم مستعدون لأن يفعلوا ما فعله صديقي المسكين هيل". قال السيد بيل والألم يعتصره من الداخل.

"ربما استخدمت تعبيراً عاماً بقولي "مستعدون"، لكن من المؤكد أن حياتهم تجري على نحوٍ غالباً ما تقدم معه إما غروراً مبالغاً فيه، أو حالة مَرَضية سقيمة من الضمير"، أجاب السيد لينوكس ببرود تام.

"ألم تصادف بين المحامين حالة من الغرور والخيلاء، على سبيل المثال"، سأله السيد بيل. "وقلما ترى بينهم، كما أتخيل، حالة مرضية سقيمة من الضمير".

ازداد اهتياج السيد بيل ونسي خدعة اللباقة والمجاملات. أدرك السيد لينوكس أنه أزعج رفيق دربه، وبينما راح يتحدث في أمور شتى لمجرد الحديث وتمضية الوقت، كان غير مبالٍ لجهة أي موقف أخذه من القضية، فانبرى إلى القول:

"بالتأكيد، هناك شيء رائع في شخص بسن السيد هيل يترك منزله الذي عاش فيه عشرين عاماً، وتخلى عن عاداته من أجل فكرة كانت، على الأرجح، خاطئة وغير ملموسة، لكن هذا لا يهم. لا يمكن لأحد أن يمنع نفسه من الإعجاب به، مع مزيج من الشفقة، شيء يشبه ما يشعر به المرء تجاه دون كيشوت. كما كان أيضاً شخصاً نبيلاً. لن أنسى كرمه الرائع البسيط الذي استقبلني به ذاك اليوم في هِلْستِن".

مع شعوره بالغضب قليلاً، وبالقلق، ومن أجل أن يهدئ شكوكاً داخل ضميره تدفعه للظن بأن موقف السيد هيل كان مشوباً بمسحة دونكيشوتية، زمجر السيد بيل "أنت لا تعرف ميلتِن، والتغيير الكبير المختلف عن هِلْستِن! مرت سنوات منذ زيارتي الأخيرة لهِلْستِن، لكني سأجيب نيابة عنها. إنها لا تزال قائمة هناك بكل شجرة وحجرة فيها على مدى مائة سنة خلت، أما ميلتِن! فأنا أذهب إليها مرة كل أربع أو خمس سنوات ـ وأنا وُلدت فيها ـ لكني أؤكد لك بأني غالباً ما أضيع فيها، أجل، وسط أكوام المحال والمخازن التي تبنى على بستان والدي. هل نفترق هنا؟ حسناً، عمت مساءً، نلتقي غداً صباحاً في شارع هارلي".

ليست كلها أحلاماً

زُرعت فكرة هِلْستِن في عقل السيد بيل اليقظ على يد الحديث الذي دار بينه وبين السيد لينوكس، وظلت تعبث بأحلامه طوال الليل. عاد مرة ثانية مدرساً شاباً في الكلية التي يحتل فيها الآن مرتبة زميل، وكان في إجازة طويلة، وينزل ضيفاً على صديقه المتزوج حديثاً، الزوج الفخور وقس هِلْستِن السعيد. وفوق الجداول الدافقة بالمياه، أطلقا العنان لساقيهما لتقفزا قفزاتٍ خرافية جعلتهما مُعلقين في الهواء أياماً بطولها. كان الزمان والمكان من صنع الخيال في حين أن كل شيء آخر بدا حقيقياً. وكان كل حدث يُقاس بتهويمات العقل لا الوجود الفعلي، إذ لم يكن للوجود أي شيء من هذا القبيل. لكن الأشجار كانت فائقة الجمال في ثوبها الخريفي، ورائحة الزهر والنبات الدافئة تنساب زكية في الحواس. كانت الزوجة الشابة تجول في المنزل يساورها خليط من مشاعر الضيق بما آل إليه حالها من حيث الثروة والغنى، والاعتزاز بزوجها المخلص الوسيم، الأمر الذي كان السيد بيل قد انتبه إليه في الحياة الواقعية قبل خمسة وعشرين عاماً. كان الحلم أشبه بالحياة، حتى عندما صحا من نومه، بدت له حياته حلماً. أين كان؟ في غرفة أنيقة الأثاث في فندق لندني! أين هم من كان يكلمهم، ويتحرك حولهم، ويلمسهم، ليس أقل من لحظة من الآن؟ ماتوا! دُفنوا! رحلوا للأبد إلى أبعد ما يمكن لهذه الأرض أن تمتد. عاد رجلاً عجوزاً فرحاً بقوة الشباب التي زارته قبل قليل. كان من الصعب التفكير في وحدة حياته. نهض مسرعاً، وحاول أن ينسى ما لا يمكن أن يُستعاد، وهو يستعجل في ارتداء ثيابه للذهاب إلى الفطور في شارع هارلي.

لم يستطع الانتباه إلى كل التفاصيل التي، كما لاحظ، جعلت عيني مارغريت تتسعان، وشفتاها تستحيلان شاحبتين، مع تساقط هذه التفاصيل تحت ضربات القدر، أو هكذا بدا الأمر، مع سقوط كل قطعة من دليل يبرئ ساحة فريدريك واختفائها تحت قدميها. حتى السيد لينوكس بصوت المحامي المحترف الموزون اتسم بنبرة أكثر ليناً وهو يقترب من الجزء المتعلق بغياب آخر أمل ممكن. ولم يكن الأمر يُعزى إلى أن مارغريت لم تكن على دراية بهذه النتيجة من قبل، وإنما إلى أن تفاصيل كل خيبة متتالية جاءت قاسية لتقضي على كل الآمال، وعلى نحو دفعها أخيراً لتفسح الطريق أمام دموعها. وهنا توقف السيد لينوكس عن القراءة.

"من الأفضل ألا أتابع"، قال بصوت مهموم. "كان اقتراحاً أحمقَ مني. يا ملازم هيل"، وحتى إعطائه هذا اللقب الذي جُرد منه بقسوة بالغة، ساعد في تهدئة مارغريت. "الملازم هيل سعيد الآن، ويعيش مطمئناً في حياة رغيدة موعودة بمستقبل أفضل مما كان مُقدراً له في البحرية، وقد تبنى، من دون شك، بلد زوجته وطناً له".

"انتهى كل شيء"، قالت مارغريت. "يبدو لي أنه من الأنانية أن أشعر بالأسف"، قالت وهي تحاول الابتسام، "رغم أني خسرته، وبت وحيدة". انكب السيد لينوكس على أوراقه وهو يتمنى لو كان غنياً وميسور الحال كما يأمل أن يكون يوماً ما. مخط السيد بيل أنفه، لكنه بقي صامتاً، واستعادت مارغريت في دقيقة أو دقيقتين، هدوءها المعتاد. شكرت السيد لينوكس على جهوده بكل لباقة وكياسة لأنها كانت تدرك أنه ربما كان يتخيل، بسبب تصرفها، أنه تسبب لها بألم كبير من دون مبرر. لكن كان واضحاً أنها لم تكن بحاجة لأي مبرر لتشعر بالألم.

نهض السيد بيل استعداداً لتوديعها.

"مارغريت!" ناداها وهو يتحسس قفازيه، "سأذهب إلى هِلْستِن غداً لألقي نظرة على المكان القديم. هل تودين مرافقتي؟ أم أن ذلك سيسبب لك ألم الذكريات؟ تكلمي، لا تخشِ شيئاً".

آه، يـا سـيد بيـل"، قالـت، ثـم لم تسـتطع قـول المزيـد، بـل أخـذت يـده المتورمـة وقبلتهـا.

"توقفـي هـذا يكفـي"، قـال لهـا ووجهـه يحمـرُّ مـن الإحـراج. "أظـن أن خالتـك شـو سـتكون مطمئنـة عليـك معـي. سـننطلق صبـاح الغـد لنصـل هنـاك حـوالي السـاعة الثانيـة، كـما أتصـور. سـنأخذ وجبـة خفيفـة، ونتنـاول الغـداء في فنـدق صغـير "ليـنِرد آرمـز"، أعلـم أنهـا سـتكون تجربـة لكلينـا، لكنهـا سـتكون مصـدر سـعادة لي عـلى الأقـل. هنـاك سـنأكل لحـم أنثـى الغـزال، إن وجدنـا، ثـم آخـذ قيلولـة بينـما تذهبـين أنـت لزيـارة أصدقائـك. وسـأعيدك إلى هنـا آمنـة سـالمة، مـا خـلا حـوادث القطـارات. وسـأؤمن عـلى حياتـك بألـف جنيـه قبـل الانطـلاق في الرحلـة، وربمـا يكـون هـذا مصـدر راحـة لأقربائـك، لكـن عـدا ذلـك، سـأعيدك إلى السـيدة شـو عـلى موعـد الغـداء يـوم الجمعـة. إن تقـولي نعـم، سـأصعد الآن إلى الطابـق العلـوي، وأطـرح عليهـم الموضـوع".

"لا جدوى من محاولتي القول كم أود ذلك"، قالت مارغريت وسط دموعها.

"حسـناً، اثبتـي لي امتنانـك بـأن تحافظـي عـلى هـذه النوافـير جافـة لليومـين المقبلـين، وإلا سـيراودني الشـك بشـأن قنـواتي الدمعيـة، وأنـا لا أحـب ذلـك".

"لـن أذرف دمعـة واحـدة"، قالـت مارغريـت، وهـي تغمـز بعينيهـا لتنفـض الدمـع عـن رموشـها، وتجـبر نفسـها عـلى الابتسـام".

"هـذه هـي فتـاتي الرائعـة التـي أعرفهـا. سـنصعد إلى الطابـق العلـوي وننهـي الموضـوع". كانـت مارغريـت في حالـة مـن الحماسـة المصحوبـة برعشـة مـن الفـرح بينـما كان السـيد بيـل يناقـش خطتـه مع خالتهـا شـو التـي فزعـت في البدايـة، ثـم شـككت، واحتـارت، قبـل أن تستسـلم تحـت تأثـير قـوة كلـمات السـيد بيـل أكـثر مـن اقتناعهـا بالفكـرة، لأنـه في نهايـة المطـاف، سـواء أكانـت صحيحـة أم غـير صحيحـة، لا يمكـن أن تنـال رضاهـا حتـى تعـود مارغريـت مـن رحلتهـا، والنهايـة السـعيدة لهـذا المـشروع، وهـذا مـا منـح قرارهـا مـا يكفـي للقـول: "إنهـا واثقـة بـأن هـذه لفتـة طيبـة مـن السـيد بيـل، ومـا كانـت هـي تتمنـاه لمارغريـت بمنحهـا التغيـير الـذي هـي كانـت بأمـس الحاجـة إليـه بعـد الفـترة العصيبـة التـي مـرت بهـا.

مرة واحدة والآن

جهزت مارغريت نفسها للرحلة قبل الموعد المحدّد بفترة طويلة، وكان لديها قَدْرٌ كافٍ من الحرية كي تبكي قليلاً بهدوء إن لم يكن هناك أحد يراقبها، وتبتسم بفرح بوجود أحد أفراد المنزل. كانت تخشى من أن يتأخرا، ويفوتهما القطار؛ لكن لا. فقد وصلا إلى المحطة في الموعد المحدد، وتنفست أخيراً براحة وسعادة، وأخذت مقعدها قبالة السيد بيل في العربة، والمحطات التي كانت تعرفها تدور مبتعدة، وهي تشاهد بلدات وقرى الجنوب نائمةً تحت النور الدافئ لأشعة الشمس الساطعة مما أضفى على قرميد سطوحها لوناً أكثر احمراراً يختلف كلياً عن الحجارة الباردة في الشمال. حلقت أسراب من الحمام فوق قمم البيوت المُسنمة، وراحت تحطُّ بهدوء هنا وهناك، وتصفق بجناحيها كما لو أنها تُعرِّض كل ريشة فيهما للدفء الجميل. كان هناك عدد قليل من المسافرين في المحطات، وكأن الناس كانوا خاملين إلى درجة لم تمنحهم الرغبة في السفر. إذ لا ترى ذلك الهرج والمرج الذي سبق لمارغريت أن شاهدته في رحلتيها إلى لندن، والخط الحديدي الشمالي الغربي. في فترة لاحقة من هذا العام، سيضج هذا الخط بالحركة والحياة بوجود المسافرين الأثرياء الذين يقصدون مواقع الاستجمام. أما في ما يتعلق بالحركة الدؤوبة ذهاباً وإياباً لأصحاب المهن التجارية، فكان الأمر مختلفاً من الخط الشمالي. وقف هنا واحد أو اثنان من المتفرجين بالقرب من كل محطة يضعان يديهما في جيوبهما مستغرقيْن في التأمل ما حدا بالمسافرين للتساؤل عما يمكن لهما أن يشاهداه بعد أن يبتعد القطار سوى سكة الحديد، وبعض الأكواخ، وبعض الحقول البعيدة. كان الهواء الحار

يرقص فوق السكون الذهبي للأرض، والقطار يترك وراءه مزرعة تلو الأخرى راحت كل واحدة منها تذكر مارغريت بقصائد "الطبيعة" الألمانية مثل "هيرمان ودوروثي"[(81)] و"إيفانجلين"[(82)]. صحت مارغريت من حلم اليقظة لتجد نفسها في المكان الذي كان عليها أن تغادر فيه القطار، وتستقل العربة إلى هِلْستِن. داهمتها مشاعر أقوى وأكثر حدة من دون أن تدري إن كانت ألماً أم فرحاً. كان كل ميل تقطعه العربة يعبق بذكريات لا تتخلى عنها مقابل الدنيا بأسرها. غير أن كل واحدة من هذه الذكريات كانت كفيلة بأن تستثير دموعها بكاءً على "الأيام الخوالي" بحنين لا يُمّحى ولا يزول. فآخر مرة سارت على هذا الطريق كانت برفقة والديها. كان يوماً كئيباً، حتى هي نفسها كانت يائسة، لكنهما على الأقل كانا إلى جانبها. أما الآن، فقد أضحت وحيدة يتيمة، وهما رحلا وغابا عن وجه الأرض. كم كان مؤلماً أن ترى طريق هِلْستِن غارقاً بأشعة الشمس، وكل منعطف وشجرة هي نفسها بجمالها الصيفي رغم مرور السنين. الطبيعة لم تتغير ولمّا تزل شابةً كما كانت دائماً.

كان السيد بيل يعلم شيئاً ما عما يدور في رأسها، لكنه وبكل حكمة ولباقة أمسك لسانه عن الكلام. أوصلتهما العربة إلى فندق ليِنرِد آرمز؛ وهو نصف منزل ريفي ونصف فندق يبعد قليلاً عن الطريق على مسافة لا تسمح كثيراً له بالاعتماد كثيراً على المسافرين باستمالتهم باعتراض طريقهم، إلا إن كانوا يقصدون المكان فعلاً. كان المنزل يتصدر القرية، وأمامه مباشرة تقف شجرة

---

(81) قصيدة ملحمية للشاعر الألماني غوته بين عامي 1796و1797. تنتمي هذه القصيدة إلى ما يعرف باسم الشعر القصصي التصويري (idyll) الذي يتناول موضوعات الطبيعة الريفية والرعوية الهادئة بهدف إبراز جمال الحياة في الريف مقارنة مع المدينة.

(82) قصيدة للشاعر الأميركي هنري وادسورث لونغفيلو (Henry Wadsworth Longfellow)، من الشعر القصصي، تحكي قصة فتاة أكادية (Acadian) تدعى أيفانجلين (Evangeline) انطلقت في رحلة للبحث عن حبيبها غابرييل الذي فقدته إبان تهجير الأكاديين الذين ينحدرون من سلالة مختلطة من السكان الأصليين والمستوطنين الأوروبيين، وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى "أكاديا"؛ وهي المنطقة الواقعة حالياً في جنوب كندا المطلة على المحيط الأطلسي، وتحديداً مقاطعة نوفا سكوتشيا، وجزر ماجدولين، وجزيرة الأمير إدوارد. المكتشف جيوفاني دا فيرازانو هو من أطلق اسم "أكاديا" على هذه المنطقة في الخريطة التي وضعها في القرن السادس عشر وذلك تيمُّنا بالاسم الإغريقي القديم "أركاديا" التي تعني "الملاذ الآمن" أو "المكان الهادئ".

ليمون قديمة قدم التاريخ مطوقة بطاولات، وفي بعض تجاويفها المخفية عُلِّق شعار النبالة الخاص بآل ليزرد بين أوراقها الكثيفة. كان باب الفندق مفتوحاً، لكن أحداً لم يسرع لاستقبال القادمين. عندما ظهرت صاحبة الفندق، رحبت بهما بحفاوة كبيرة وكأنهم ضيوف مدعوون، واعتذرت عن تأخرها بالقدوم لاستقبالهما متذرعة بأنه موسم الحصاد بالنسبة للرجال وكان لابد من تجهيز وإرسال الطعام إلى الحقول. ولهذا السبب، كما قالت لهما، كانت مشغولة بملأ السلال، ولم تسمع صوت عجلات العربة لأنها وبعد أن تغادر الطريق، تسير على درب مُعشب.

"يا بركة الله!" صاحت متعجبة مع نهاية اعتذارها عندما أضاء وهج أشعة الشمس وجه مارغريت التي كانت تقف من دون أن ينتبه إليها أحد في الممر المظلل. "إنها الآنسة هيل، يا جيني!" قالت وهي تسرع نحو الباب تنادي ابنتها. "تعالي، تعالي فوراً!" وتوجهت نحو مارغريت، وصافحتها بحنان أمومي. "كيف حالك؟ وكيف حال القس والآنسة ديكسِن؟ القس أولا! باركه الله ورعاه! مازلنا نتحسر على رحيله".

حاولت مارغريت أن تتكلم وتخبرها بوفاة والدها لأن السيدة بيركيس كانت على علمٍ بوفاة والدتها لأنها لم تأت على ذكر اسمها. لكن الكلمات اختنقت ولم تستطع سوى أن تلامس حزنها العميق، وتقول كلمة واحدة: "أبي".

"بالتأكيد يا سيد، إنه ليس!" قالت السيدة بيركيس وهي تلتفت نحو السيد بيل. "كان هنا في الربيع الماضي، وربما في الشتاء، سيدٌ أخبرنا الكثير عن السيدة هيل والآنسة مارغريت، وأخبرنا بوفاة السيدة هيل، المسكينة. لكنه لم يقل شيئاً عن مرض القس".

"بلى، توفي"، قال السيد بيل. "توفي فجأة بينما كان يزورني في أكسفورد. كان رجلاً طيباً، يا سيدة بيركيس، وكثير منا سيحمدون الله لو أنعم عليهم بمثل ميتته الهادئة. تعالي، يا عزيزتي مارغريت! كان والدها أقدم أصدقائي، ومارغريت ابنتي بالمعمودية، وفكرنا أن نأتي إلى هنا ونرى المكان القديم، وأنا أعلم أنك ستعطينا

غرفتين مريحتين، وعشاء رائعاً. لم تتذكريني، كما يبدو لي، أنا اسمي بيل، وسبق لي أن نمت هنا مرة أو مرتين عندما لم يكن هناك مكان لي في الأبرشية".

"الحق معك، اعذرني، كنت مشغولة بالآنسة هيل. دعوني آخذكما إلى غرفة، يا آنسة مارغريت، حيث يمكنك أن تنزعي قبعتك وتغسلي وجهك. لقد وضعت هذا الصباح بعض الورود الغضة في إبريق ماء تحسباً لقدوم أحد ما، وليس هناك شيء أحلى من ماء الينبوع المضمخة بعطر وردة أو وردتين. ما زلت أفكر بوفاة القس! صحيح كلنا سنموت، لكن ذلك السيد قال لنا إنه كان يتعافى من محنة وفاة السيدة هيل".

"انزلي ثانية يا سيدة بيركيس بعد أن تنتهي من خدمة الآنسة هيل. أريد أن أتشاور معك بشأن العشاء".

في غرفة نوم مارغريت، كان إطار النافذة الصغيرة ممتلئاً على آخره تقريباً بالورود وأغصان الدالية المتعرشة. أزاحت مارغريت الأغصان جانباً، ومدت رأسها قليلاً خارج النافذة لترى رؤوس مداخن الأبرشية تطل من فوق الأشجار، وتتعرف على الكثير من المعالم بين الأوراق.

"أجل"، قالت السيدة بيركِس، وهي تمهد السرير، وترسل جيني لإحضار مناشف معطرة بالخزامى، "تغير الزمن، يا آنسة، القس الجديد لديه سبعة أطفال، ويبني الآن، في مكان السقيفة ومخزن العدة، غرفة لاستقبال المزيد. كما وضع مواقد جديدة، ونافذة بلوح زجاجي كبير في غرفة الضيوف. القس وزوجته شخصان مستفزان، وقد عملا أشياء نافعة كثيرة، هذا ما يقوله الناس على الأقل، إن لم يكن كذلك فعلاً، لكني أدعوه عملا يقلب الدنيا رأساً على عقب من أجل غاية ضئيلة. القس الجديد من دعاة تحريم الخمر، يا آنسة، وهو قاضٍ أيضاً، كما أن لدى زوجته وصفات للطعام الرخيص، كما تحب إعداد الخبز من دون خميرة، وكلاهما ثرثاران، يتكلمان كثيراً وفي وقت واحد حتى يكاد المرء أن يجن، إن جاز التعبير، ولا يمكن لأحد أن يفكر بأن هناك أموراً كان يمكن الخوض فيها على طرفي المسألة إلا بعد أن يرحلا، ويشعر بالهدوء والراحة. يلاحق القس الرجال إلى الحقول ليفتش في مطراتهم، ويعمل من الحبة قبة إن

وجد فيها شيئاً غير بيرة الزنجبيل، لكن لا يمكنني أن أمنع ذلك. فقد اعتادت أمي ومن قبلها جدتي على أن ترسل للحصادين بيرة الشعير، ويأخذون الملح ويشربون منقوع السنامكيّ[83] إن أصابهم ألم، وأنا سأعيش كما عاشوا، في حين أن السيدة هيبوورث تريدني أن آكل الفواكه المجففة بدلاً من الدواء، وتقول إنه أفضل، لكنني لا أقتنع بهذا الكلام. علي أن أذهب الآن، يا آنسة، رغم شوقي للجلوس والتحدث إليك، لكني سأعود، ولن أغيب لفترة طويلة".

تناول السيد بيل الفريز والقشدة، ورغيفاً من الخبز الأسمر مع إبريق من الحليب (إلى جانب الجبن القديم، وزجاجة من النبيذ البرتغالي كي ينعش نفسه)، بانتظار مارغريت أن تنزل من غرفتها. وبعد هذا الغداء الريفي، انطلقا معاً للتنزه، من دون أن يعرفا تحديداً في أي اتجاه سيسيران مع وجود العديد من الأماكن المألوفة التي تُغريهم بالذهاب إليها.

"هل نذهب إلى الأبرشية؟" سألها السيد بيل.

"لا، ليس الآن. سنذهب في هذا الاتجاه، وندور دورة كاملة في طريق عودتنا إليها"، قالت مارغريت.

كانت هنا وهناك أشجار معمرة قُطعت في الخريف المنصرم، أو اختفى كوخ كان للمشردين، وكذلك كوخ قديم متهالك. شعرت مارغريت بالحنين إلى هذه الأشجار والأكواخ وحزنت عليها مثل أصدقاء قدامى. مرا بجانب البقعة التي جلست فيها مع السيد لينوكس ورسما اللوحات. كذلك اختفت شجرة الزان البيضاء المهيبة التي جلسا بين جذورها، وكان على جذعها آثار صاعقة ضربتها. توفي الرجل العجوز الذي كان يعيش في الكوخ القديم المتداعي، وهُدم الكوخ، وبُني مكانه كوخ جديد أكثر جمالاً. وفي مكان شجرة الزان، كان هناك حديقة صغيرة.

"لا أظن أني كبرت في السن كثيراً"، قالت مارغريت بعد فترة من الصمت، ثم استدارت بعيداً وهي تتنهد حزناً.

---

(83) عشبة السنامكي (Senna Makki) نبات مزهر تُستخدم أوراقه لعلاج بعض أمراض الجهاز الهضمي. (م)

"نعـم"، قـال السـيد بيـل. "هـذه هـي التغـيرات الأولى التـي تطـرأ عـلى الأشـياء المألوفـة وتُظهـر أحجيـة الزمـن بالنسـبة لمـن هـم في جيـل الشـباب، لكـن بعـد ذلـك نفقـد الإحسـاس بهـذا الغمـوض. فأنـا بـت أرى في هـذه الأشـياء أمـراً طبيعيـاً. فتبـدل أحـوال النـاس أمـر عـادي ومألـوف بالنسبة لي، لكنـه لا يـزال جديـداً وقاسـياً بالنسبة لك".

"دعنـا نذهـب لزيـارة سـوزان الصغـيرة"، قالـت مارغريـت، وهـي تقـود رفيقهـا صعـوداً عـلى درب عشـبي تحـت ظـلال الغابـة.

"بـكل سرور، وإن كنـت لا أعـرف مـن تكـون سـوزان الصغـيرة تلـك، لكنّ لـدي عطفـاً ومحبـةً لـكل الـ"سـوزانات" كرمـى لعـين سـوزان واحدة".

"لقـد خيبـت أمـل سـوزان الصغـيرة عندمـا غـادرت مـن دون أن أودعهـا، وضمـيري لا يـزال يؤنبنـي بسـببها منـذ ذلـك الحـين، وسـببت لهـا ألمـاً كان يمكننـي، بقليل مـن الجهد منـي، أن أمنعـه. لكـن الطريـق إلى هنـاك طويلـة، هـل أنـت واثـق بأنـك لـن تتعـب؟".

"أجـل، إن مشـيت عـلى مهلـك. كـما تريـن، لا توجـد هنـا المناظـر التـي تعطـي المـرء عـذراً كي يتوقـف ويلتقـط أنفاسـه. قـد تحسـبين الأمـر رومنطيقيـاً أن تمـشي مـع شـخص "سـمين شـحيح النَفَـس"[84] كـما لـو كنـت هاملـت أمـير الدانمـارك. فارحمـي صحتـي العليلـة لأجـل خاطـره".

"سـأمشي عـلى مهـل مـن أجـل خاطـرك أنـت، فأنـا أحبـك عشريـن مـرة أكـثر مـن هاملـت".

"أجل، على مبدأ حمار حيّ خير من أسد ميت؟"

"ربما، فأنا لا أحلل مشاعري".

"أنـا راضٍ بهـذه المحبـة مـن دون التدقيـق، بفضـول زائـد، في مكوناتهـا. إذ كل مـا نحتاجـه هـو أن نمـشي مشـية السـلحفاة".

"حسـناً، امـشِ كـما يحلـو لـك، وسـأتبع خطواتـك، أو قـف سـاكناً وتأمـل مثـل هاملت الـذي شـبهت نفسـك بـه، إن مشـيتُ بسرعة".

---

(84) اقتبـاس مـن الحـوار الـذي يجـري أثنـاء المبـارزة بـين الملكـة غيرتـرود والملـك كلاوديـوس عندمـا يقـول لهـا إن هاملـت سـينتصر عليـه فتجيبـه "لكنـه سـمين شـحيح النَفَـس". (م)

"شكراً لك. لكن بما أن أمي لم تقتل أبي، وتتزوج عمي، لا أدري بما سأفكر وأتأمل، إلا في احتمالات حصولنا على عشاء لذيذ، ما رأيك؟".

"لدي أمل كبير، إذ كانت تُعدُّ طاهية شهيرة بحسب آراء الناس في هِلْستِن".

"لكن هل فكرت بحالة فقدان التركيز بسبب مشاغل موسم الحصاد؟".

أحست مارغريت بعطف وحنان السيد بيل وهو يحاول تسليتها وإضحاكها بالحديث عن موضوعات لا معنى سعياً منه ليمنعها من التفكير بالماضي. لكنها لم تكن لتفضل السير في هذه النزهات العزيزة على قلبها صامتة، إلا إن كانت جاحدة بما يكفي كي تتمنى لو كانت بمفردها.

وصلا إلى الكوخ الذي تسكنه الأرملة والدة سوزان. لم تكن سوزان في المنزل لأنها ذهبت إلى المدرسة، فشعرت مارغريت بالخيبة، وأدركت والدة سوزان ذلك وراحت تعتذر لها.

"حقاً! حسناً فعلت"، قالت مارغريت. "أنا سعيدة جداً بسماع ذلك. ربما كان بإمكاني أن أخمن ذلك. كانت تبقى معك في المنزل طوال اليوم".

"هذا صحيح. كم أشتاق إليها الآن. كنت أعلمها ما أعرفه، ولم يكن ذلك كثيراً، لكنها كانت تتحسن وتساعدني في المنزل. أفتقدها كثيراً. أما الآن، فقد أصبحت أفضل مني بكثير في التعلم". وتنهدت الأم بحسرة.

"قد أكون مخطئاً" صاح السيد بيل. "لكن اسمحي لي أن أقول. قد أكون متخلّفاً مائة عام عن هذا العالم، لكن لا يسعني إلا أن أقول أن تلك الطفلة كان تتحسن وتتطور على نحو أفضل وأبسط، وتحظى بتعليم طبيعي أكثر، وتبقى عند أمها، وتساعدها، وتتعلم قراءة فصل من العهد الجديد كل ليلة، وهذا أفضل من التعليم في المدرسة في الهواء الطلق".

لم تشأ مارغريت الرد عليه كيلا تشجعه على إطالة النقاش أمام الأم التي التفتت إليها مارغريت وسألتها،

"كيف حال العجوز بيتي بارنز؟".

"لا أعرف شيئاً عنها"، ردت المرأة بشكل مقتضب. "لم نعد أصدقاء".

"لِمَ لا؟" سألت مارغريت التي كانت في السابق صانعة السلام في القرية.

"سرقت قطتي".

"هل كانت تعلم أنها قطتك؟"

"لا أدري، ولا أظنها كانت تعلم".

"إذن، ألم يكن بمقدروك استعادة القطة عندما أخبرتِها أنها لك؟".

"بالطبع لا. لأنها حرقتها".

"ماذا! حرقتها!" صاحت مارغريت والسيد بيل.

"بل شوَتْها على النار"، كما شرحت المرأة ما جرى.

لم يكن هذا كافياً لتفسير كل شيء، لكن مارغريت استخلصت من خلال سؤال المرأة، أن عرّافة غجرية طلبت من بيتي بارنز أن تعيرها الثياب التي يرتديها زوجها يوم الأحد، على أن تعيدهم لها مساء يوم السبت قبل أن يفطن غودمان بارنز لاختفاء ملابسه، وخشية أن يغضب زوجها، لجأت بيتي إلى خرافة قديمة معروفة تقول إن صرخات القطة نتيجة آلامها من سلقها أو شيها حيةً تجبر (كما يقال) قوى الظلام على تحقيق رغبات من يعدم القطة وأمنياته. وهكذا لم تجد بيتي وسيلة سوى اللجوء إلى السحر. المرأة الأرملة، صاحبة القطة كانت تؤمن هي الأخرى بصحة هذه الخرافة، لكنها استشاطت غضباً لأن بيتي العجوز لم تجد قطة تضحي بها إلا قطتها. استمعت مارغريت إلى الحكاية برعب شديد، وحاولت عبثاً أن تنوِّر عقل المرأة، لكنها اضطرت أخيراً للاستسلام لليأس. وشيئاً فشيئاً، جعلت المرأة تفهم حقائق محددة كانت العلاقة المنطقية الرابطة بين السبب والنتيجة واضحة بالنسبة لمارغريت. لكن وفي نهاية المطاف، كرّرت المرأة المشوّشة قناعتها، وتحديداً "إن الفعل كان وحشياً بالتأكيد، ولا يمكن أن تقوم به، لكن هذا لا يعني أنه لا يعطي المرء ما كان يريده كما كان يتردد على مسامعها طوال حياتها، وإن كان يبقى تصرفاً عديم الرحمة". استسلمت مارغريت، وسارت مبتعدة في طريقها والألم يحز قلبها.

"أنت فتاة طيبة لأنك لم تجادليني"، قال السيد بيل.

"كيف؟ ماذا تقصد؟".

"اعترف بأني كنت مخطئاً في ما قلته عن التعليم في المدرسة. فأيّاً كان هذا

التعليـم، يبقـى أفضـل مـن أن تُـترك هـذه الطفلـة لتكـبر وتـتربى عـلى الوثنيـة كممارسـة عمليـة".

"تذكـرت. المسـكينة سـوزان الصغـيرة! يجـب أن أذهـب لرؤيتهـا، هـل لديـك مانـع أن نـزور المدرسـة؟".

"أبداً. أشعر بالفضول للاطلاع على التعليم الذي تتلقاه في المدرسة".

توقفـا عـن الـكلام، وشـقا طريقهـما عـبر وادٍ مشـجر لم يسـتطع تأثـيره الأخـضر الرقيـق أن يزيـل مـن قلـب مارغريـت الصدمـة والألم مـما سـمعته مـن قصـة وحشـية كان أسـلوب سردهـا يخـون تلـك الحاجـة الملحـة للخيـال، وأي شـعور بالتعاطـف مـع الحيـوان الـذي كان يتعـذب.

حالمـا خرجـا مـن الغابـة إلى مـرج أخـضر فسـيح بُنيَـت عليـه المدرسـة، سـمعا جلبـة الأصـوات التـي كانـت تشـبه دمدمـة خليـة مـن النحـلات البشريـة. كان البـاب مفتوحـاً، فدخـلا. لمحتهـما سـيدة رشـيقة ترتـدي الأسـود، وتتحـرك هنـا وهنـاك وفي كل مـكان، ورحبـت بهـما بطريقـة لا تخلـو مـن كبريـاء المُضيـف الـذي ذكّـر مارغريت بوالدتهـا وكيـف كانـت تسـتقبل أي زوار، عـلى قلتهـم، عندمـا كانـوا يأتـون لتفقـد المدرسـة، ولكـن بطريقـة ألطـف وأكـثر هـدوءاً. أدركـت مارغريـت أن هـذه المـرأة ليسـت سـوى زوجـة القـس؛ خليفـة والدتهـا، وكانـت سـتحاول أن تتحـاشى لقاءهـا، لـو أمكـن ذلـك، لكنهـا تغلبـت عـلى هـذا الشـعور في لحظـة، وتقدمـت نحوهـا بـكل تواضـع، بينـما كانـت تلاحقهـا العديـد مـن النظـرات التـي تعرفـت عليهـا مصحوبـة بأصـوات هامسـة "إنهـا الآنسـة هيـل". سـمعت زوجـة القـس الاسـم، وأصبحـت طريقتهـا في النظـر إليهـا أكـثر لطفـاً. تمنّـت لـو كان باسـتطاعتها أن تمنـع نفسـها مـن الإحسـاس بـأن طريقتهـا باتـت أكـثر فوقيـة وتعاليـاً. مـدت السـيدة يدهـا لتصافـح السـيد بيـل.

"والـدك، إن كان ظنـي صحيحـاً، يـا آنسـة هيـل. أرى ذلـك مـن الشـبه. مـن دواعـي سروري أن ألتقيـك يـا سـيد، وكذلـك القـس".

أوضحـت مارغريـت للسـيدة بأنـه ليـس والدهـا، وتلعثمـت وهـي تخبرهـا بوفاتـه، وتتسـاءل طـوال الوقـت كيـف كان سـيحتمل السـيد هيـل زيـارة هِلْسـتِن

لـو كانـت كـما كانـت تفـترض زوجـة القـس. لم تسـمع مـا كانـت تقولـه السـيدة هيبـوورث، وتركـت السـيد بيـل يجيـب نيابـة عنهـا، وراحـت تنظـر حولهـا بحثـاً عـن معارفها القدامى.

"أرى أنـك تريديـن أن تعطـي درسـاً، يـا آنسـة هيـل. عرفـت ذلـك لوحـدي. الصـف الأول؛ وقوفـاً، مـن أجـل درس النحـو مـع الآنسـة هيـل".

شـعرت مارغريـت ـ التـي كانـت زيارتهـا مدفوعـة بالشـوق والحنـين وليـس لتفقـد المدرسـة ـ بأنهـا فوجئـت، لكـن ذلـك جعلهـا عـلى تمـاس مبـاشر مـع وجـوه صغـيرة متحمسـة كانـت تعرفهـا بشـكل جيـد ذات يـوم، ومنهـم مـن تلقـى معموديتـه عـلى يـد والدهـا. جلسـت ونسـيت نفسـها وهـي تكتشـف ملامـح الفتيـات التـي تغـيرت، وتمسـك بيـد سـوزان لدقيقـة أو دقيقتـين مـن دون أن ينتبـه إليهـا أحـد، بينـما كان طـلاب الصـف الأول يبحثـون عـن كتبهـم، وراحـت السـيدة زوجـة القـس مثلـما يمكن لأي سـيدة أن تسـبب الملـل والضجـر للسـيد بيـل، وهـي تـشرح لـه نظـام مخـارج الحـروف وطريقـة لفظهـا، وتحدثـه عـما جـرى مـن حـوار بينهـا وبـين المفتـش حـول هـذا الموضـوع.

انحنـت مارغريـت فـوق كتابهـا لا تنظـر إلى شيء سـواه، وهـي تسـمع دمدمـة أصـوات الأطفـال، وتسـتعيد الذكريـات القديمـة، وعيناهـا مغرورقتـان بالدمـوع، إلى أن سـاد الصمـت فجـأة. تعـثرت إحـدى الفتيـات بكلمـة بسـيطة "a"، لم تكـن متأكـدة مـن إعرابهـا.

"أداة نكرة"، قالت مارغريت بهدوء.

"عفـواً"، قالـت زوجـة القـس، فانتبـه الجميـع بأعـين شـاخصة، وآذان منتبهـة؛ "لكـن السـيد ميلسِـم علمنـا أن نعربها...مـن يتذكـر؟".

"صفـة مطلقـة" أجـاب عـدد مـن الطـلاب دفعـة واحـدة. جلسـت مارغريـت مصدومـة، إذ كان الأطفـال يعرفـون أكـثر مـما تعـرف. اسـتدار السـيد بيـل، وهـو يبتسـم.

التزمـت مارغريـت الصمـت خـلال الـدرس. وعندمـا انتهـت الحصـة، جالـت بهـدوء عـلى واحـدة أو اثنتـين مـن الفتيـات المفضـلات لديهـا، وتحدثـت إليهـما قليـلاً. كانـت

الفتيات الصغيرات يكبرن، ويتغيرن عن الصورة التي كنَّ عليها في ذاكرتها، كما كانت هي غائبة عنهن طوال السنوات الثلاث الماضية. لكنها كانت سعيدة بأن تراهن ثانية على الرغم من مسحة الحزن التي خالطت شعورها بالفرح.

مع نهاية دوام المدرسة في عصر ذلك اليوم في أوائل الصيف، دعت السيدة هيبوورث مارغريت والسيد بيل لمرافقتها إلى الأبرشية، ومشاهدة "التحسينات" - لكنها سرعان ما استبدلتها بكلمة "تعديلات" - التي كان يقوم بها القس. لم تكن مارغريت تبالي بمشاهدة التعديلات التي آلمت ذكرياتها عن بيتها القديم، بل كانت تتشوق لرؤية المكان مرة ثانية حتى ولو ارتجفت من الألم الذي كانت على يقين بأنها ستشعر به هناك.

كانت الأبرشية قد تغيرت من الداخل والخارج على نحو جاء الألم أقل مما كان متوقعاً. لم يعد المكان هو نفسه. فالحديقة، بأرضيتها العشبية التي كانت في السابق مشذبة على نحو أنيق كانت تبدو معه حينذاك حتى ورقة وردة معوجة أشبه ببثرة تتناقض مع حسن ترتيبه وجماله، باتت الآن مشوهة بأغراض الأطفال؛ كيس البِلية هنا، وإطار هناك، وقبعة من القش مقلوبة دُست عمداً على شجيرة ورد وكأنها عُلقت بملقط، ناهيك عن الضرر الذي لحق بالغصن الطويل الغض المُحمَّل بالأزهار الذي كان في الماضي يُعامل برقة وكأنه حبيب معشوق. كانت الصالة الصغيرة المغطاة بالأبسطة والحُصُر ملأى بكل ما يدل على طفولة معافاة ومشاغبة.

"آسفة"، قالت السيدة هيبوورث، "أرجو أن تعذريني على هذه الفوضى، يا آنسة هيل. عندما ننتهي من غرفة الأطفال، سأحرص على أن يكون هناك قليل من النظام. نعمل حالياً على بناء الغرفة بتوسعة الغرفة التي كنت تشغلينها، كما أظن. كيف استطعتم تدبير أموركم من دون غرفة للأطفال؟".

"كنا اثنين فقط"، قالت مارغريت."لديكم عدد كبير من الأطفال، على ما أعتقد؟".

"سبعة. انظري هنا! إننا نفتح شباكاً يطل على هذا الجانب من الطريق. السيد هيبوورث ينفق الكثير من المال على هذا المنزل الذي كان بالفعل غير

مناسب للسكن عندما جئنا إلى هنا؛ أقصد بالنسبة لعائلة كبيرة مثلنا". أضحت كل غرفة في المنزل مختلفة، بالإضافة إلى الغرفة التي كانت تتحدث عنها السيدة هيبوورث. كانت هذه الغرفة في السابق مكتب السيد هيل الذي كان يقول إن خضرة المكان القاتمة وهدوءه الرائع يساعدانه على التأمل، لكن ربما كان ذلك إلى حد ما يتناسب مع شخصية ميالة أكثر للتفكير النظري منه إلى السلوك العملي. فقد كانت النافذة الجديدة تعطي مجالاً لمشاهدة الطريق، وكان لهذا الأمر مزايا عديدة، كما أشارت السيدة هيبوورث.

فمن خلال هذه النافذة، كان باستطاعة زوجها أن يراقب خراف قطيعه الضالة التي تُستدرج إلى الحانة ظناً منها بأن أحداً لن يراها. لكن في الواقع كان الأمر مختلفاً بالنسبة للقس الرشيق النشيط الذي كانت عيناه ترصدان الطريق حتى في غمرة انشغاله بكتابة أكثر عظاته تشدداً. كما كان يحتفظ بقبعة وعصا معلقتين على مقربة من متناول يده مستعداً في أيِّ لحظة لانتزاعهما قبل أن ينطلق مسرعاً وراء أفراد رعيته الذين كانوا بحاجة لسيقان تسابق الريح، إن أرادوا الذهاب إلى حانة "جولي فورستر"، قبل أن يقبض عليهم القس الذي يُحرِّم الخمر. كانت العائلة بأكملها، سريعة الحركة، رشيقة، وتتحدث بصوت مرتفع، وطيبة القلب. كانت مارغريت تخشى أن تنتبه السيدة هيبوورث إلى أن السيد بيل كان في الحقيقة يهزأ منها عندما أبدى إعجابه بكل شيء كان يمقته أصلاً. لكن السيدة، لحسن الحظ، أخذت عباراته بمعناها الحرفي، وبحسن نية. وهذا ما دفع بمارغريت إلى معاتبته وهما يبتعدان عن الأبرشية عائديْن إلى الفندق.

"لا تلوميني يا مارغريت. كل ذلك كان بسببك. لو لم تُريك كل تغيير في المنزل بهذا الفرح الواضح بمعنى التباهي، في توضيح أي نوع من التحسينات التي ستجري على هذا وذاك وشرحه، لكنت تصرفت بتهذيب. لكن إن كنت تريدين البدء بالوعظ والإرشاد، فلتؤجليه إلى ما بعد العشاء الذي سيجعلني أنام، ويساعدني على الهضم".

كانا متعبين، وعلى الأخص مارغريت التي كانت مرهقة لدرجة لم تعد راغبة بالخروج كما سبق واقترحت في جولة بين الأشجار والحقول القريبة من منزل

طفولتها. لم تكن هذه الزيارة، إلى حد ما، كما توقعت تماماً. فقد طاول التغير، وإن كان طفيفاً، كل مكان، لكنه كان طاغياً. فالمنازل تغيرت بغياب بعض أفرادها موتاً، أو زواجاً، أو حتى بالتحولات الطبيعية لصيرورة الحياة التي تُحدثها الأيام والشهور والسنون، وتنقلنا، من دون وعي منا، من الطفولة إلى الشباب، ومن ثم الرجولة إلى تقدم العمر حيث نتساقط كفاكهة نضجت في حضن الأرض الأم الهادئ. تغيرت الأماكن؛ فاختفت شجرة هنا، وغصن هناك ليفسحا المجال أمام أشعة الشمس للوصول إلى مواقع لم تكن ترى النور من قبل. كما ضاق دربٌ هنا بعد أن قُلمت أطرافه، وبعد أن نُصب السياج على أحد طرفيه وزُرعت الأرض المحاذية له. هذا ما كان يدعونه بالتحسينات الكبيرة، لكن مارغريت شعرت بالحزن على جمال الطبيعة القديم، والخضرة الداكنة والدروب التي كانت تحف بها المروج في الأيام الخوالي. جلست على مقعد صغير بجانب النافذة، تحدق بحزن في ظلال الليل التي كانت تتناغم مع خيالاتها الهائمة. استغرق السيد بيل في نوم عميق بعد الجهد غير المعتاد الذي بذله خلال النهار. واستفاق أخيراً على صوت صينية الشاي التي أحضرتها فتاة ريفية سفعت الشمس وجهها كانت، كما هو واضح، قد بدلت وظيفتها كنادلة لتذهب للمساعدة في الحصاد.

"مرحباً! من هناك؟ أين نحن؟ من هذا، مارغريت؟ الآن تذكرت. لم أتصور أن هناك امرأة تجلس على هذه الشاكلة الحزينة ويداها متشابكتان فوق ركبتيها، ووجهها يحدق بثبات إلى الأمام. إلامَ تنظرين؟" سألها السيد بيل وهو يقترب من النافذة، ويقف خلفها.

"لا شيء"، أجابت مارغريت، وهي تنهض بسرعة، وتتكلم فجأة بفرح قدر المستطاع.

"لا شيء! خلفية داكنة من الأشجار، وأغطية سرير مُعلقة ممدة على تخم من الورود البرية، ونسمة من هواء رطب. أغلقي النافذة. وجهزي الشاي".

ظلت مارغريت صامتة لفترة قصيرة، وأخذت تلعب بملعقة الشاي، ولم تنتبه لما قاله السيد بيل. صحيح أنه ناقض كلامها، لكنها رسمت على وجهها الابتسامة

تعبيراً عن أنها تلقت علماً بما قاله كما لو كان يوافقها الرأي. تنهدت، ووضعت الملعقة من يديها، وبدأت تتحدث، بموضوع لا علاقة له بما سبق، وبصوت عالي النبرة عادة ما يوحي بأن المتكلم كان يفكر ملياً بالموضوع الذي يرغب في طرحه "سيد بيل، مازلت تتذكر ما كنا نقوله الليلة الماضية بشأن فريدريك، أليس كذلك؟".

"الليلة الماضية. أين كنت أنا؟ أجل، أجل، أتذكر! لكن ذلك كان الأسبوع الماضي. نعم، بالتأكيد، أذكر أننا تحدثنا عنه، الشاب المسكين".

"نعم، وهل تذكر أن السيد لينوكس تحدث عن وجوده في إنكلترا أثناء الفترة التي توفيت فيها والدتي العزيزة؟". أخفضت مارغريت صوتها أقل من المعتاد.

"بلى أذكر. لكني لم أسمع بذلك من قبل".

"وأنا كنت أظن...لطالما كنت أظن أن أبي أخبرك"

"لا لم يخبرني. لكن ما الأمر، يا مارغريت؟".

"أود أن أخبرك بشيء فعلته في تلك الأثناء، وكان تصرفاً خاطئاً"، وفجأة نظرت إليه مباشرة بعينيها الصافيتين البريئتين.

"لقد كذبت"، واستحال وجهها قرمزياً.

"بالفعل، هذا تصرف سيء، لكن ليس إن كانت مثل عدد من الأكاذيب التي قلتها في حياتي، ولا بكلمات واضحة مباشرة كما أظن أنك فعلت، بل بالفعل، أو على نحو ملتوٍ يدفع الناس إما إلى تكذيب الحقيقة، أو إلى تصديق الكذب. أتعلمين من هو أبو الأكاذيب، يا مارغريت؟ حسناً! عدد كبير من الناس ممن يظنون أنفسهم صالحين يرتبطون بأنواع غريبة من الكذب، مثل الزيجات بين الطبقات الاجتماعية المتفاوتة، وأحفاد أبناء العمومة أو الأخوال أو الخالات من أجيال متباعدة. وكان يجب أن أحسبك بعيدة عن هؤلاء مثل معظم الناس. ما الأمر! لِمَ تبكين يا ابنتي؟ سنتوقف عن الكلام الآن، إن كان سينتهي الحديث على هذا النحو. أنا واثق بأنك ندمت على ما جرى، ولن تكرريه مرة أخرى، كما أنه أمر حدث منذ فترة طويلة. خلاصة القول، أريدك أن تكوني سعيدة، وألا تحزني هذا المساء".

مسحت مارغريت دموعها، وحاولت أن تتكلم حول موضوع مختلف، لكنها سرعان ما عاودت البكاء مجدداً.

"أرجوك يا سيد بيل، دعني أخبرك عن ذلك، ربما تستطيع أن تساعدني قليلاً، لا لا أن تساعدني، لكن إن علمت الحقيقة، ربما تصحح لي أخطائي، فالأمر لا يقف عند هذا الحد فحسب"، قالت مارغريت بنبرة يائسة لم تكن معها قادرة على التعبير تماماً كما كانت ترغب.

تبدل موقف السيد بيل كلياً. "اخبريني يا ابنتي"، قال لها.

"إنها قصة طويلة؛ لكن عندما جاء فريدريك، كانت أمي مريضة جداً، وكان القلق والخوف قد أنهكاني لدرجة ربما كنت أنا السبب بأن استدرجته إلى الخطر. بعد وفاتها، وصلتنا معلومات أثارت قلقنا، إذ التقت ديكسِن بشخص في ميلتِن؛ رجل يدعى ليِنردز كان يعرف فريدريك، وكان على ما يبدو يحقد عليه، أو على أقل تقدير أغرته المكافأة التي وضعت لقاء اعتقال أخي. وبسبب خوفي الشديد، ارتأيت أن نسرع في إرسال فريدريك إلى لندن حيث يمكنه، كما أظنك فهمت مما قلناه تلك الليلة، مقابلة السيد لينوكس لمعرفة احتمالات براءته إن مثُل أمام المحكمة. لذلك ذهبنا ـ أنا وفريدريك ـ إلى محطة القطار مساء أحد الأيام، مع مغيب الشمس، لكن كان لا يزال هناك قدر كاف من الضوء كي نرى ويرانا الآخرون. وصلنا مبكراً، ورحنا نتمشى في حقل قريب من المحطة. كنت في رعب شديد لمعرفتي بأن هذا ليِنردز قد يكون في مكان ما في الجوار. وبينما كنا في الحقل وشفق الشمس الأحمر في وجهي، جاء أحدهم يمتطي حصاناً وهو يسير في الطريق أسفل الحقل الذي كنا نقف فيه. رأيته ينظر نحوي، لكنني لم أعلم من هو في البداية لأن الشمس كانت في عيني، لكن وفي لحظة اختفت الشمس وعرفت أنه السيد ثورنتِن، فأحنيت له رأسي وبادلني التحية..."

"وبالطبع رأى فريدريك"، قال السيد بيل وهو يظن أنه يساعدها في سرد قصتها.

"أجل، عندئذ وفي المحطة جاء رجل سكير يترنح وحاول أن يمسك أخي من ياقته، لكنه فقد توازنه عندما تملص منه فريدريك وهرب، فسقط الرجل من

على رصيف المحطة الذي لم يكن عالياً، ليس أكثر من ثلاثة أقدام، لكن آه! يا سيد بيل، هذه السقطة قتلته!".

"يا للحظ العاثر. كان ذلك هذا المدعو ليـنِردز، حسب ظني. وكيف تخلص فريدريك من هذه الورطة؟".

"انطلق مبتعداً بعد تلك السقطة التي لم نكن نظن أنها ستؤذي الرجل المسكين، فقد كانت مجرد إصابة بسيطة".

"وهل مات على الفور؟".

"لا، ليس قبل يومين أو ثلاثة. عندئذ يا سيد بيل! وهنا يأتي أسوأ ما في القصة"، قالت مارغريت وهي تلوي أصابعها بعصبية. "جاء مفتش شرطة واستفسر عن وجودي برفقة شاب كان دفعه أو ضربه لليـنِردز سبباً في وفاته. كان هذا اتهاماً باطلاً، كما تعلم، لكننا لم نكن قد سمعنا بعد بأن فريدريك أبحر من إنكلترا، وكنا نحسب أنه لا يزال في لندن، وقد يعُتقل بسبب هذه التهمة، ويتعرفون عليه بأنه الملازم هيل المتهم بالتمرد، ويعدمونه. خطرت على بالي كل هذه الاحتمالات، وقلت للمفتش إنني لم أكن في المحطة تلك الليلة، ولا أعرف عنها شيئاً. لم أكن أفكر حينذاك في أي شيء سوى حماية فريدريك".

"ما فعلتِه كان صحيحاً، وكنت سأفعل الشيء ذاته. نسيتِ نفسك في القلق والخوف على شخص آخر. كنت سأفعل ما فعلتِ".

"لا، ما كنت لتفعل ذلك، كانت معصية، وإثماً، عديم الإيمان. في ذلك الوقت، كان فريدريك قد أبحر بأمان من إنكلترا، لكن لم أفطن إلى أن هناك شاهداً آخر رآني ويمكن أن يشهد على أني كنت موجودة هناك".

"من؟".

"السيد ثورنتِن. أخبرتك بأنه رآني قرب المحطة، وتبادلنا التحية".

"حسناً! لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن المشاجرة، ووفاة الرجل السكير، لأن إصابته، كما أظن، لم تفض إلى شيء".

"لا، لأنهم أوقفوا الإجراءات التي بدأوا يتحدثون عنها بخصوص التحقيق. والسيد ثورنتِن كان على معرفة تامة بهذه الأمور. فهو قاضٍ، واكتشف أن السقوط لم يكن

السبب في الوفاة، لكن ليس قبل أن عرف ما قلته لمفتش الشرطة. آه، يا سيد بيل!". وفجأة غطت وجهها بيديها وكأنها ترغب بأن تخبئ نفسها من ذكرياتها.

"هل شرحت له الموقف؟ وهل أخبرته بالدافع الغريزي القوي".

"الحاجة الغريزية للإيمان، والتعلق بالخطيئة لأنقذ نفسي من الغرق"، قالت مارغريت بمرارة. "وكيف لي أن أفعل ذلك؟ فهو لم يكن يعرف شيئاً عن فريدريك. هل كان مطلوباً مني أن أكشف أسرار الأسرة كي أحافظ على حسن ظنه بي، بما في ذلك، بحسب ما كانوا سيفعلونه، احتمالات العفو وتبرئة فريدريك؟ آخر ما قاله لي فريدريك كان طلبه بأن أُبقي زياراته سراً عن الجميع. وكما ترى، حتى أبي لم يخبرك بزيارته. لا! يمكنني أن أتحمل العار، أجل أظن أني أستطيع على الأقل. وتحملته. منذ ذلك الحين، لم يعد السيد ثورنتن يحترمني".

"أنا واثق من أنه يحترمك"، قال السيد بيل، "صحيح أن الأمر يؤدي إلى... لكنه دائماً ما يتحدث عنك باحترام وتقدير، وإن كنت الآن أفهم بعض التحفظات في طريقة كلامه".

لم تقل مارغريت شيئاً، ولم تنتبه لما كان على السيد بيل قوله، وفقدت معناه بالكامل. وشيئاً فشيئاً قالت له:

"هلا أخبرتني بما كنت تشير إليه على أنه "تحفظات" في طريقة كلامه عني؟".

"لا شيء سوى أنه أزعجني عندما لم يشاركني الرأي في مديحك. فأنا، مثل أحمق عجوز، كنت أظن أن كل شخص سيوافقني الرأي، لكن كان واضحاً بأنه لم يكن يتفق معي. احترت بالأمر يومها. لكن لا بد أنه كان مشوشاً، طالما أن المسألة لم تُوضح له على الأقل، وأولها أنك كنت برفقة شاب في عتمة الليل...".

"لكنه أخي!" قالت مارغريت، وقد صدمتها العبارة.

"هذا صحيح، ولكن ما أدراه أنه أخوك؟".

"لا أعلم، لم أفكر بهذا الأمر من قبل". احمر وجه مارغريت، وبدت عليها علامات الضيق والانزعاج.

"وربما لن يعرف أبداً. أما بالنسبة لتلك الكذبة، فأنا مازلت على موقفي، فقد كانت ضرورية ضمن الظروف التي جرت فيها".

"كلا، لم تكن، وأنا أدرك ذلك الآن، ونادمة على ما جرى".

ساد الصمت لفترة طويلة. كانت مارغريت أول من تكلم.

"من غير المحتمل أن أرى السيد ثورنتِن ثانية، أبداً".

"هناك أشياء عديدة غير محتملة على نحو أكبر"، أجابها السيد بيل.

"بل أعتقد أني لن أراه أبداً. ومع ذلك، لا يحب المرء أن يصل إلى هذا الدرك الأسفل في عيني صديق ما، كما وصلت أنا بنظره". قالت مارغريت وعيناها مليئتان بالدموع، لكن صوتها كان ثابتاً، ولم يكن السيد بيل ينظر إليها. "والآن، بعد أن فقد فريدريك الأمل، وتقريباً الرغبة في تبرئة نفسه، والعودة إلى إنكلترا، لم يعد لي خيار سوى أن أشرح الأمر، كي أُنصف نفسي. إن أردت، وإن استطعت، هل تخبره بالظروف التي جرت، وقل له إني أنا من أعطيتك الأذن لتقوم بذلك، لأني شعرت، من أجل خاطر أبي، بأني لا أود أن أخسر احترامه، وإن كان من غير المحتمل أن نلتقي ثانية أبداً؟".

"بالتأكيد. وأرى أنه يجب أن يعرف. لا أريدك أن تمضي حياتك حتى تحت ظل الشك بالفاحشة؛ فهو ما كان ليعرف بما قد يفكر عندما يراك بمفردك مع رجل".

"أما بالنسبة لهذه"، قالت مارغريت بكبرياء،"فلن أقول سوى "عارٌ على من يظن به السوء[85]"، ومع ذلك أفضل أن يُوضح له الأمر، إن سنحت أي فرصة طبيعية للشرح، لكن ليس رغبة مني بأن تشرح له من أجل تبرئة نفسي من أي شك بتصرف شائن، إن كنت فكرت بأنه قد ظن بي السوء، فأنا لا أهتم برأيه ونظرته إلي، لا، بل ليعلم كيف ساقتني الغواية واستدرجتني إلى شباكها، أي باختصار، لماذا لم أقل الحقيقة".

"وهذا ما لا ألومك عليه. وأؤكد بأني لا أجاملك في هذا القول".

"ما قد يظنه الآخرون بأنه فعل صحيح أو مخطئ لا يُقاس بما أعرفه في داخلي، في صميم قناعتي بأنه كان تصرفاً خاطئاً. دعنا لا نقول المزيد عن هذا الموضوع،

(85) شعار النبالة لجماعة الفرسان "غارتر" التي أسسها الملك إدوارد الثالث في إنكلترا عام 1348. (م)

لـو سـمحت. قُـضي الأمـر، وأنـا وقعـت في الخطيئـة. يجـب عـلي الآن أن أضـع هـذا وراء ظهـري، وأكـون صادقـة أكـثر أكـثر، إن اسـتطعت".

"حسـناً. إن كنـت توديـن أن تنغـصي عـلى نفسـك، وتبقـين نادمـة، فليكـن. أمـا أنـا، فسـأحرص دائمـاً عـلى أبقـي ضمـيري حبيسـاً مثـل جـاك[86] في صنـدوق الموسـيقا، لأنـه عندمـا يظهـر، يفاجئنـي بحجمـه الهائـل. لذلـك أهادنـه كي يصغـر ويعـود إلى مـا كان عليـه، كـما يفعـل الصيـاد مـع الجنـي الـذي يخـرج مـن قمقمـه. "كـم هـو رائـع" أقـول لـه، "أنـك كنـت مختبئـاً طـوال هـذه الفـترة وفي قمقـم صغـير كهـذا حتى نسـيت أنـك موجـود. أرجـوك يـا سـيدي، بـدلاً مـن أن تتضخـم حجـماً في كل لحظـة، وتربكنـي بصورتـك الضبابيـة، هـل لـك أن تقلـص نفسـك مـرة أخـرى إلى حجمـك السـابق؟" وحالمـا يعـود صغـيراً كما كان، أسـارع إلى سَـدْ القمقـم، وأكـون حريصـاً كيف أفتحـه مـرة ثانيـة، فكيـف لي أن أعـارض سـليمان، أحكـم الحكـماء، الـذي سـجنه في ذلك القمقم".

لم يكـن الأمـر مشـابهاً بالنسـبة إلى مارغريـت التـي لم تنتبـه كثـيراً لمـا كان يقولـه السـيد بيـل. راحـت أفكارهـا، التـي تحولـت الآن إلى قناعـة راسـخة لديهـا، تركـز عـلى نقطـة وحيـدة ألا وهـي إن السـيد ثورنـتِن لم يعـد ينظـر إليهـا باحـترام، وخـاب أملـه فيهـا. وشـعرت بـأن أي توضيـح أو شرح للظـروف لـن تعيدهـا إلى مكانتهـا في نظـره، ولا في حبـه لهـا، وإن كان هـذا الأخـير أمـراً بـات محسـوماً بالنسـبة لهـا ولَـمَّا تـزل عـلى موقفهـا منـه بشـأن عـدم التفكـير بـه. لكنهـا كانـت تأمـل، في مـا يخـص التقديـر والاحـترام، أن يسـاعدها الـشرح في جعلـه راغبـاً بـأن، كـما جـاء في قصيـدة جيرالـد غريفـين:

أن تلتفت وراءك، عندما تسمع اسمي.

لم تتوقـف مارغريـت عـن الشـهيق وابتـلاع ريقهـا طـوال الوقـت الـذي كانـت تفكـر فيـه بهـذا الأمـر. حاولـت أن تهـدأ نفسـها بالقـول إن مـا كان يتخيلـه عنهـا، لا يلغـي حقيقـة مـن تكـون فعـلاً. لكـن مـا جـرى بـات حقيقـة بديهيـة، وهـماً

(86) اسـم دميـة عـلى شـكل مهـرج السـيرك داخـل صنـدوق مـا إن يُفتـح حتـى يخـرج المهـرج ويبـدأ الـدوران مـع الموسـيقى. (م).

مخيفاً، فانهارت تحت وطأه إحساسها بالندم. كان لديها عشرون سؤالاً على طرف لسانها لتطرحها على السيد بيل، لكنها لم تنطق بواحد منها. ظن السيد بيل أنها كانت مرهقة، فطلب منها أن تذهب إلى غرفتها للنوم مبكراً، لكنها بقيت ساعاتٍ طويلة في غرفتها جالسة أمام النافذة المفتوحة تحدق بالقبة الأرجوانية حيث كانت النجوم تظهر، وتشع، وتختفي خلف الأشجار الظليلة، قبل أن تخلد إلى النوم. وطوال الليل، كانت هناك شعلة تحترق على الأرض؛ شمعة في غرفة نومها القديمة التي تحولت إلى غرفة للأطفال مع ساكني منزل الأبرشية الجدد، إلى أن ينتهي بناء غرفة جديدة. طغى على مارغريت إحساس ما بالتغيير، بالخواء الذاتي، بالحيرة والخيبة. لم يبق شيءٌ على حاله، وهذا الإحساس الطاغي بعدم الاستقرار، وإن كان محدوداً، سبب لها ألماً أكبر وأشد بكثير مما لو كانت الأشياء كلها تغيرت على نحو لم يعد بمقدورها تمييزها والتعرف عليها. "بدأت أفهم الآن ما هي السماء...و، آه، يالروعة وطمأنينة هذه الكلمات "البارحة، واليوم وإلى الأبد. الأزل! "من الأزل وإلى الأزل، أنت الله"[87]. تبدو هذه السماء الجميلة فوقي وكأنها لا يمكن أن تتغير، لكنها ستتغير. أنا متعبة؛ متعبة جداً من الدوَّامة في سني حياتي التي لا التزم فيها شيئاً، ولا مخلوقاً، ولا مكاناً؛ إنها أشبه بدائرة يدور فيها ضحايا المشاعر الدنيوية باستمرار، أكاد أشعر بنفسي كما في حالة نساء من دين آخر يرتدين الحجاب. إني أسعى إلى القناعة السماوية برتابة دنيوية. لو كنت من الروم الكاثوليك، لكان بمقدوري أن أقتل قلبي، أصعقه بضربة شديدة، وأصبح راهبة. لكني سأحترق شوقاً لبني جنسي، لا ليس لبني جنسي، إذا لا ينبغي على حبي لأبناء نوعي أن يملأ قلبي إلى حد إقصاء حب الأفراد. ربما هذا ما يجب أن يكون وربما لا. لا أستطيع أن أحسم موقفي هذه الليلة".

ذهبت مارغريت إلى السرير وقد هدها التعب، وصحت بعد أربع أو خمس ساعات. لكن الصباح حمل معه أملاً، ونظرة أكثر تفاؤلاً وإشراقاً.

"رغم كل شيء، لا يصح إلا الصحيح". قالت مارغريت وهي تسمع أصوات الأطفال

(87) من سفر المزامير: 2-90. (م)

يلعبون بينما كانت ترتدي ملابسها. "إن بقي العالم ساكناً، فسوف يتراجع إلى الوراء ويصبح فاسداً، إن لم يكن ذلك أيرلنديا. بالنظر إلى نفسي، وإحساسي المؤلم بالتغيير، يبدو هذا التطور حولي صحيحاً وضرورياً. يجب ألا أفكر كثيراً كيف أثرت بي الظروف، بل كيف أثرت على الآخرين، إن كنت أرغب بالتوصل إلى الحكم السليم، أو أن يكون لدي قلب مفعم بالثقة والأمل". ومع ابتسامة في عينيها كانت مستعدة لتقفز إلى شفتيها، ذهبت إلى الرواق، وحيَّت السيد بيل.

"آنستي! بقيت ساهرة لفترة طويلة ليلة الأمس، وصحوت متأخرة هذا الصباح. لدي أخبار لك. ما رأيك بدعوة على العشاء؟ زيارة صباحية، أو حرفياً في الصباح الباكر الندي. جاء القس إلى هنا، وهو في طريقه إلى المدرسة. لا أعلم إن كان ثمة علاقة بحجم الرغبة في إعطاء مضيفنا محاضرة عن تحريم الخمر لفائدة الحصادين، مع قدومه المبكر. لكنه جاء إلى هنا قبل التاسعة، ودعانا إلى العشاء في منزله".

"لكن إيديث تنتظر عودتي، لا أستطيع الذهاب"، قالت مارغريت، وهي تحمد الله على أنها وجدت عذراً مناسباً.

"أجل أعلم؛ وأخبرته بذلك. توقعت أنك لن تذهبي. على أي حال الدعوة لا تزال قائمة، إن أحببت".

"لا" قالت مارغريت. "دعنا نسير وفقاً لخطتنا، وننطلق الساعة الحادية عشرة. إنه أمر لطيف أن يدعونا، ولكنني لا أستطيع تلبية الدعوة".

"حسناً. لا تزعجي نفسك، سأرتب الأمور".

وقبل أن يغادرا، تسللت مارغريت خلف حديقة الأبرشية، وجمعت باقة صغيرة من زهرة العسل. لم تشأ أن تقطف وردة يوم أمس، خشية أن يراها أحد، ومن ثم يعلقون على مشاعرها وما دفعها للتصرف على هذا النحو. لكن عندما عادت عبر الأرض المفتوحة، كان المكان مفعماً بالجو الساحر القديم. كانت أصوات الحياة هناك أكثر موسيقية من أي مكان آخر في العالم كله، والنور أكثر ذهبيةً، والحياة أكثر هدوءاً وامتلاءً بفرح حالم. عندما تذكرت مارغريت ما كانت تشعر به بالأمس قالت لنفسها:

"وأنا أيضاً أتغير باستمرار؛ الآن هذه، والآن تلك، الآن خيبة وشكوى وتذمر لأن الأشياء ليست كما تصورتها تماماً، وها أنا أكتشف الآن أن الواقع أجمل بكثير مما تخيلت. آه يا هِلْستِن! لن أعشق أبداً مكاناً كما عشقتك".

بعد أيام عدة وجدت مارغريت مكانها، وقررت أنها كانت في قمة سعادتها بأن كانت هناك، ورأته ثانية، وسيبقى بالنسبة إليها أجمل بقاع الأرض قاطبة، لكنه كان مترعاً بذكريات الماضي، وتحديداً والدها ووالدتها. ولو خُيرت أن تأتي إلى هذا المكان ثانية، كانت ستُحجم عن القيام بزيارة أخرى كتلك التي قامت بها بصحبة السيد بيل.

شيء ما مفقود

في هـذه الفـترة عـادت ديكسِـن مـن ميلـتِن، وبـاشرت مهامهـا خادمـةً لمارغريـت. وجلبـت معهـا أحاديـث لا تنتهـي عـن ميلـتِن: كيـف ذهبـت مارثـا لتعيـش مـع الآنسـة ثورنـتِن بعـد زواج هـذه الأخـيرة، مـع وصـف لخادمـات العـروس، والملابـس ودعـوات الفطـور، في تلـك المناسـبة السـعيدة؛ وكيـف راح النـاس يتحدثـون عـن فخامـة حفـل الزفـاف الـذي أقامـه السـيد ثورنـتِن، آخذيـن بالحسـبان أنـه خسر كثـيراً مـن المـال في الإضراب، واضطـر أن يدفـع مبالـغ طائلـة بسـبب إخفاقـه في تنفيـذ العقـود. كـما تناولـت ديكسِـن في أحاديثهـا المبالـغ الهزيلـة التـي اسـتطاعت تحصيلهـا مـن بيـع الأثـاث الـذي طالمـا كان موضـع تقديـر لديهـا، وهـو مـا عدّتـه وصمـة عـار لا تليـق بأهـل ميلـتِن الأغنيـاء، وكيـف جـاءت السـيدة ثورنـتِن ذات يـوم وحصلـت عـلى صفقـة أو صفقتـين ناجحتـين. كذلـك جـاء السـيد ثورنـتِن في اليـوم التـالي لـشراء غـرض أو غرضـيْن، وكيـف راح يزايـد عـلى نفسـه بالسـعر وسـط اسـتمتاع الحاضريـن، وهـذا مـا جعـل ديكسِـن تنتبـه إلى أنـه إن كانـت السـيدة ثورنـتِن دفعـت القليـل، فـإن السـيد ثورنـتِن دفـع الكثـير. أمـا السـيد بيـل فقـد أرسـل لهـا جميـع أنـواع الأوامـر بخصـوص الكتـب، لكـن لا أحـد منهـا كان مفهومـاً، فقـد كان دقيقـاً جـداً، وكان مـن الأفضـل لـو جـاء بنفسـه، لكنـه لم يتوقـف عـن إرسـال الرسـائل التـي كانـت وسـتبقى أكـثر إربـاكاً وحـيرة مـما كانـت تسـتحق. لم تـأتِ ديكسِـن كثـيراً عـلى ذكـر آل هيغينـز. فذاكرتهـا كان ذات ميـول أرسـتقراطية وغالبـاً مـا تخونهـا عندمـا تحـاول تذكـر أيَّ مناسـبة تتعلـق بمـن هـم أدنى مرتبـة منهـا في الحيـاة. نيكـولاس، حسـب ظنهـا، كان بخـير، وجـاء إلى المنـزل عـدة مـرات يسـأل عـن الآنسـة مارغريـت؛

وهـو الشـخص الوحيـد الـذي سـأل، مـا عـدا السـيد ثورنـتِن ومـرة واحـدة فقـط. ومـاري أيضـاً، بالطبـع كانـت بخـير، بجسـدها الممتلـئ، وهيئتهـا المتسـخة! سـمعت ديكسِـن ـ أو ربمـا كان ذلـك مجـرد حلـم عـلى الرغـم مـن أن الأمـر يبـدو غريبـاً بـأن تكـون ديكسِـن حلمـت بأنـاس عـلى شـاكلة هيغينـز ـ أن مـاري ذهبـت لتعمـل في مصنـع السـيد ثورنـتِن، لأن أباهـا أرادهـا أن تتعلـم الطبـخ، لكـن مـا هـذا الهـراء الـذي كان يعنيـه هـذا الـكلام بشـأن أن مـاري لم تكـن تعـرف الطبـخ. عـلى أي حـال وافقتهـا مارغريـت عـلى أن هـذه الحكايـة لا تبـدو معقولـة، وبالتـالي فهـي أقـرب لأن تكـون حلـماً. لكـن كان الأمـر مصـدر سـعادة لمارغريـت أن يكـون لديهـا الآن شـخص يمكنهـا أن تحادثـه عـن ميلتـن وأهلهـا. لم تكـن ديكسِـن مولعـة بهـذا الموضـوع بقـدر مـا كانـت تتمنـى أن تبقـي هـذا الجـزء مـن حياتهـا في الظـل. وفي الوقـت ذاتـه، كانـت تسـتمتع بالحديـث عـن كلام السـيد بيـل، ومـا طرحـه كفكـرة كانـت، في واقـع الأمـر، نيـة لديـه بـأن يجعـل الآنسـة مارغريـت وريثتـه. لكـن السـيدة الشـابة لم تجاريهـا وتشـجعها في الحديـث بهـذا الموضـوع، أو حتـى تـرد عـلى استفسـاراتها الملحـة، أيـاً كانـت الطريقـة التـي تتسـتر بهـا شـكاً أو يقينـاً.

طـوال هـذه الفـترة، راود مارغريـت شـعور غريـب بالشـوق لأن تسـمع نبـأ ذهـاب السـيد بيـل بواحـدة مـن زيـارات العمـل التـي كان يقـوم بهـا. إذ كانـت قـد اتفقـت معـه في حديثهـما في هِلْسـتِن عـلى أن يـشرح ويوضـح للسـيد ثورنـتِن مـا جـرى شـفهياً، كـما كانـت ترغـب، وبطريقـة طبيعيـة لا تفـرض عليـه فرضـاً. لكـن السـيد بيـل لم يكـن رسـولا ممتـازاً، لكنـه كتـب إليهـا بـين الحـين والآخـر رسـائل طويلـة وأخـرى، بحسـب مـا كان يمليـه عليـه حـس الفكاهـة لديـه. وعـلى الرغـم مـن أن مارغريـت لم يكـن لديهـا أي أمـل محـدد بتلقـي هـذه الرسـائل، لكنهـا عـادة مـا كانـت تضعهـا جانبـاً مـع شـعور قليـل بالخيبـة. لا بـأس! يجـب أن تكـون صبـورة. فالضبـاب سينقشـع عاجـلاً أم آجـلاً. لكـن رسـائل السـيد لم تكـن تشـبهه، بـل أصبحـت قصـيرة، كثـيرة الشـكوى، وتتسـم بـين الفينـة والأخـرى بـشيء مـن المـرارة عـلى غـير العـادة. لم يكـن يتطلـع إلى المسـتقبل، بـل بـدا نادمـاً متحـسراً عـلى المـاضي، وقلقـاً مـن الحـاضر.

ظنت مارغريت أنه قد يكون مريضاً، لكنه وفي رد على رسالتها التي استفسرت فيها عن صحته، بعث لها برسالة قصيرة يقول فيها إن يعاني من شكوى قديمة اسمها الطحال، ولها أن تقرر إن كانت هذه الشكوى جسدية أو نفسية، وأنه يرغب بتدليل نفسه بالشكوى والتذمر من دون أن يكون ملزماً بإرسال إعلان رسمي في كل مرة.

بسبب هذه الرسالة، توقفت مارغريت عن الاستفسار عن صحته. وفي أحد الأيام، جاءت إيديث عَرَضاً على ذكر مقطع من حديث جرى بينها وبين السيد بيل في زيارته الأخيرة إلى لندن، وجعل مارغريت مسكونة بفكرة أن السيد بيل يخطط لمرافقتها في زيارة إلى أخيها وزوجته في كادز، في فصل الخريف. سألت واستجوبت إيديث إلى أن أصاب التعب هذه الأخيرة، وقالت أنها لا تتذكر أكثر من أنه قال لها بأنه يفكر في الذهاب ليسمع من فريدريك عما جرى في حادثة التمرد، فضلاً عن أنها ستكون فرصة لمارغريت كي تتعرف على زوجة أخيها، وأنه لطالما كان يقصد مكاناً ما في إجازاته الطويلة، وبالتالي لايرى سبباً يمنعه من عدم الذهاب إلى إسبانيا، أو أي مكان آخر. وهذا كل شيء. كانت إيديث تأمل ألا تغادر مارغريت وتتركهم، وكان يساورها شعور بالقلق من هذا الموضوع برمّته. وبما أنه لم يكن لديها شيء آخر تقوم به، أخذت تبكي وقالت إنها كانت على علم بأنها تهتم بمارغريت وتحرص عليها، أكثر من اهتمام مارغريت بها. حاولت مارغريت تهدئتها وطمأنتها قدر ما استطاعت، لكنها وجدت صعوبة في أن توضح لها أن فكرة الذهاب إلى إسبانيا ـ وهي مجرد حلم لا أكثر ـ أسعدتها وأدخلت البهجة على قلبها. كانت إيديث في حالة مزاجية تدفعها للاعتقاد أن أي متعة بعيداً عنها ليست سوى إهانة ضمنية لها، أو في أفضل الأحوال دليل على عدم الاهتمام بها. لذلك كانت مارغريت مضطرة لأن تُبقي فرحتها لنفسها، ولا تنزع عنها صمام الأمان إلا بسؤال ديكسِن، عندما كانت مارغريت ترتدي ملابسها من أجل العشاء، إن كانت ترغب في رؤية السيد فريدريك وعروسه.

"إنها بابوية، يا آنسة، أليس كذلك؟".

"أظن ذلك... أجل، بالتأكيد!" قالت مارغريت، وتراجعت حماستها للحظة عندما تذكرت ذلك.

"ويقيمان في بلد بابوي؟".

"أجل".

"في هذه الحالة، يؤسفني القول إن روحي أعزُّ علي حتى من السيد فريدريك، ومن نفسه العزيزة عليه. سأبقى في رعب دائم، إن توجب علي تغيير ديني".

"ماذا تقولين"، قالت مارغريت، "لا أدري إن كنت سأذهب فعلاً، حتى لو كنت، لست تلك السيدة الضعيفة التي لا تستطيع السفر من دونك. لا! يا عزيزتي ديكسِن العجوز، ستنالين إجازة طويلة، إن ذهبنا. وأخشى أنها ستبقى معلقة بكلمة إذا".

لم يعجب هذا الحديث ديكسِن. أولاً، لم تستسغ حيلة مارغريت في مناداتها "عزيزتي ديكسِن العجوز" كلما عبَّرت لها عن محبتها. كانت تدري أن الآنسة لطالما كانت تميل لمناداة من تحبهم بكلمة "عجوز" من باب التحبب، لكن ديكسِن كانت تنفر على الدوام من استخدام هذه الكلمة مع نفسها، لأنها كانت ترى نفسها ـ بما أنها لم تتجاوز الخمسين ـ في مقتبل العمر. ثانياً، لم تكن ترضى لأحد أن يستخف بكلماتها، فقد كانت هي الأخرى لديها رغبة دفينة بزيارة إسبانيا، رغم خوفها من محاكم التفتيش، والغرائب البابوية. لذلك، وبعد أن بلعت ريقها، كما لو كانت تريد أن تُظهر استعدادها للتخلص من مخاوفها، سألت الآنسة هيل إن كانت تظن، إن حرصت على عدم اللقاء بكاهن أو الدخول إلى كنائسهم، بأنه لن يكون هناك أي خطر لاحتمال أن تغير دينها؟ فالسيد فريدريك، والحق يقال، تجاوز الحدود على نحو غريب.

"أتصور أن الحب هو من دفعه كي يغير دينه"، قالت مارغريت، وهي تتنهد.

"بالفعل، يا آنسة!" قالت ديكسِن؛ "حسناً، يمكنني أن أحمي نفسي من القساوسة، والكنائس، أما الحب فيتسلل إلى الداخل على غفلة! لذا من المستحسن ألا أذهب إلى هناك".

خشيت مارغريت من أن تدع فكرة الذهاب إلى إسبانيا تحتل تفكيرها، رغم أنها ألهتها عن التفكير برغبتها العارمة بضرورة توضيح الأمور للسيد ثورنتِن. على أي حال، بدا السيد بيل في الوقت الحاضر مرابطاً في أكسفورد من دون أي نية بزيارة قريبة إلى ميلتِن. بالمقابل، كان هناك قيد سري يكبل مارغريت ويمنعها حتى من السؤال، أو حتى التلميح مرة أخرى إلى احتمال قيامه بهذه الزيارة. كما لم تشعر بحرية كافية لتذكر ما قالته لها إيديث بخصوص الفكرة التي راودته، ربما لخمس دقائق، بشأن زيارة إسبانيا. فالسيد بيل لم يذكر أمامها في هِلْستِن، أثناء ذلك اليوم المشمس من الراحة والمتعة، أي شيء عن هذه الفكرة التي، وعلى الأرجح، كانت بنت لحظتها. لكن إن كان الأمر صحيحاً، فيا له من متنفَّس رائع من رتابة حياتها التي بدأت تجثم على صدرها.

في هذه الأثناء، كان طفل إيديث الثاني واحداً من أروع مصادر السعادة والفرح في حياة مارغريت. كان هذا الطفل محط إعجاب وتسلية والديه، طالما بقي هادئاً. لكنه كان يتمتع بإرادة قوية، وما إن ينفجر في واحدة من انفعالاته العاصفة، كانت إيديث تستلقي على ظهرها متعبة يائسة، وتزفر تنهيدة عميقة: "آه يا عزيزتي، ماذا يجب علي أن أفعل كي أرضيه! مارغريت، اقرعي الجرس كي تأتي هانلي". غير أن مارغريت كانت تحبه وهو في هذه الحالة أكثر مما لو كان هادئاً مستكيناً. كانت تسارع إلى حمله، وتأخذه إلى غرفة أخرى حيث يمكثان لوحدهما وهما يتصارعان؛ هي بتأثيرها الحازم للسيطرة عليه وتهدئته، مع استغلال كل سحر وحيلة لديها إلى أن يبدأ بفرك وجهه المبتل بالدموع بوجهها، فتبدأ هي بتقبيله ومداعبته حتى ينام بين ذراعيها أو على كتفها. كانت هذه أحلى اللحظات بالنسبة إلى مارغريت. فقد كانت تمنحها ذلك الشعور الذي كانت تظن أنها حُرمت منه للأبد.

كذلك أضاف السيد هنري لينوكس عاملاً جديداً مزعجاً إلى حياة المنزل بزياراته المتكررة. ومع إن مارغريت باتت تراه بارداً أكثر من قبل، وإن بدا لها أكثر ذكاءً، كانت هناك أذواق فكرية واضحة، وكثير من المعرفة المتنوعة التي أعطت

بمجملها نكهة خاصة لحديث كان يمكن أن يكون مضجراً. كما لمحت مارغريت في تصرفاته ازدراءً لأخيه وزوجته بسبب أسلوب حياتهما الذي كان يراه، على ما يبدو، تافهاً وبلا أي هدف. فقد سبق له أن تحدث مع أخيه مرة أو مرتين، بحضور مارغريت، يستفسر بنبرة حادة إن كان أخاه ينوي التخلي عن عمله. وعندما أجابه النقيب لينوكس أن لديه ما يكفيه ليعتاش منه، شاهدت مارغريت كيف زم السيد هنري لينوكس شفتيه قائلاً: "وهل هذا ما تعيش من أجله؟". غير أن الشقيقين كانا متعلقين ببعضهما بعضاً إلى حد كبير، وبالطريقة نفسها التي يتعلق فيها شخصان لاسيما عندما يكون أحدهما أكثر ذكاءً ويقود الآخر الذي يرضى على نفسه أن يُقاد. كان السيد لينوكس المحامي يتقدم في مهنته؛ يحرث ويزرع، بحسابات مدروسة، كل أنواع العلاقات التي تخدمه في نهاية المطاف. كان متبصراً، بعيد النظر، لماحاً، وساخراً، ومعتزاً بنفسه. ومنذ ذلك الحديث المطول الذي دار بينهما بخصوص فريدريك بحضور السيد بيل، لم يتسنَّ لمارغريت أي حوار معه أبعد من المواضيع التي تستدعيها علاقة القربى مع أسرة المنزل. ولكن هذا كان بحد ذاته كافياً بالنسبة إليها كي تتخلى هي عن الحياء من جانبها، وأن يتخلى من جانبه عن الكبرياء المجروح والاستعلاء والتكبر. كانا يلتقيان باستمرار، لكنها كانت تشعر بأنه يتجنب أن يبقى معها بمفرده. وتراءى لها، وله أيضاً، أنهما أدركا جيداً بأنهما باتا مختلفين عما كانا عليه سابقاً، بالآراء وبالأذواق.

ورغم ذلك، عندما تحدث على نحو رائع، على غير العادة، أو بمعنى مختصر على مبدأ خير الكلام ما قل ودل، شعرت مارغريت بعينيه تبحثان عن التعبير في ملامح وجهها أولاً، ولو للحظة واحدة، لأن رأيها، في لقاءات الأسرة التي كانت تجمعهما معاً، كان أول من ينصت له بتقديرٍ واحترام، لأنه كان يُقال على مضض، ويبقى مخفياً قدر الإمكان.

"لن تجدني مرة أخرى"

كان الـرواد المعتـادون لحفـلات العشـاء التـي كانـت تقيمهـا السـيدة لينوكـس عـلى الشـكل الآتي: صديقاتهـا اللـواتي كـن يأتـين بجمالهـن، وأصدقـاء النقيـب لينوكـس ومعرفتهـم السـهلة بموضوعـات السـاعة، والسـيد هـنري لينوكـس وحفنـة مـن الرجـال الصاعديـن، ممـن كانـوا يُسـتقبلون بصفتهـم أصدقـاءه، ويُحـضرون معهـم الـذكاء، والفكاهـة، والمعرفـة العميقـة الواسـعة التـي كانـوا يعلمـون جيـداً كيـف يسـتغلونها مـن دون حذلقـة أو تعطيـل لتدفـق الحديـث السريـع.

كانـت هـذه الحفـلات ممتعـة، لكـن حتـى ذلـك لم يمنـع مارغريـت مـن التعبـير عـن اسـتيائها. فـكل موهبـة، وكل شـعور، وكل إنجـاز، بـل وحتـى كل نزعـة أو ميـل نحـو الفضيلـة كان يُسـتنفَذ كمـواد للألعـاب الناريـة، هـذه النـار السريـة المقدسـة تسـتهلك نفسـها بـشرارة وفرقعـة لا أكـثر. كانـوا يتكلمـون عـن الفـن بطريقـة حسـية تركـز عـلى التأثـيرات الخارجيـة، عوضـاً أن يسـمحوا لأنفسـهم أن يتعلمـوا مـا يعلِّمـه الفـن. كان يجهـدون أنفسـهم بحماسـة في الخـوض بموضوعـات راقيـة عندمـا يكونـوا مجتمعـين، لكنهـم لا يفكـرون بهـا مطلقـاً عندمـا ينفـردون بأنفسـهم، يبـددون قدراتهـم عـلى الحكـم وتقديـر الأشـياء في دفـق مـن الكلـمات المناسـبة فحسـب.

في أحـد الأيـام، وبعـد أن دخـل الرجـال إلى غرفـة الضيـوف، اقـترب السـيد لينوكـس مـن مارغريـت، وتحـدث إليهـا بـأول الكلـمات التـي قالهـا برغبـة طوعيـة منـه منـذ عودتهـا إلى شـارع هـارلي.

"يبدو أنك لم تكوني راضية عما كان يقوله شيرلي على العشاء".

"حقاً؟ إذاً لا بد أن وجهي كان معبراً بشكل واضح"، أجابته.

"إنه كذلك دائماً. فهو لم يفقد فصاحة التعبير".

"كلا، لم تعجبني"، قالت مارغريت على عجل،" طريقته في الدفاع عما كان هو نفسه يعلم بأنه غير صحيح، وبشكل فاضح، حتى على سبيل النكتة أو المزاح".

"لكنها كانت طريقة ذكية، بكل كلمة قالها. هل تذكرت ألقاب الدلع السعيدة؟"

"نعم".

"وتكرهينها، هذا ما تريدين قوله. رجاءً لا تشعري بالحرج، على الرغم من أنه صديقي".

"أرأيت، هذه النبرة التي لديك تماما هي..." وتوقفت عن الحديث.

أنصت إليها لدقيقة لعلها تكمل جملتها، لكنها احمرَّت، وابتعدت. لكن قبل ذلك، سمعته يقول لها بصوت منخفض وواضح:

"إن كانت نبرتي، أو طريقة تفكيري هي التي لا تعجبك، فهل أحسنت صنيعاً لو تخبريني بذلك، وتعطيني الفرصة كي أتعلم السبيل لإرضائك".

لم يكن هناك أي معلومات طوال هذه الأسابيع بشأن ذهاب السيد بيل إلى ميلتِن. صحيح أنه كان قد تحدث عن ذلك في هِلْستِن كرحلة يحتمل أن يقوم بها خلال وقت قصير حينذاك، لكن لا بد أنه أنهى عمله هناك عن طريق المراسلة. ظنت مارغريت، قبل الأن، بل وعلمت أنه إن استطاع، سيتجنب الذهاب إلى مكان لا يحبه، علاوة على أنه لم يستوعب الأهمية السرية التي توليها على شرح لا يمكن أن يتم إلا وجهاً لوجه. كانت متأكدة أنه سيقدر ضرورة إنجاز هذه المهمة، سواء أكان في الصيف، أم في الخريف، أو في الشتاء. نحن الآن في شهر آب/ أغسطس، ولم يعد هناك أي ذكر لرحلة إسبانيا التي لمَّح إليها أمام إيديث، وحاولت مارغريت أن تتقبل تلاشي هذا الوهم.

وفي صباح أحد الأيام تلقت منه رسالة يقول فيها إنه سيأتي إلى لندن لرؤيتها بشأن خطة كانت تدور في رأسه، بالإضافة إلى أنه قرّر تدليل نفسه بزيارة طبيب بعد أن بدأ يفكر برأيها بأنه من الأفضل له أن يلتفت إلى صحته التي كانت أسوأ مما كان يظن، عندما وجد نفسه سريع الغضب والانزعاج. كانت في

رسالته نبرة شخص يُقسِر نفسه على الفرح، كما لاحظت مارغريت لاحقاً، لكن تساؤلات إيديث هي من شغلت اهتمامها حينذاك.

"قادم إلى لندن! آه يا عزيزتي! وأنا مرهقة في هذا الحر حتى أني لا أجد قوة تكفيني لحضور عشاء آخر. بالإضافة إلى أن الجميع غادروا، ولم يبق إلا نحن الأغبياء الذين لا يستطيعون أن يقرروا إلى أين يذهبون. لن يكون هناك أحد ليلتقي معه".

"أنا واثقة من أنه سيفضل أن يأتي ويتناول العشاء معنا بمفرده بدلاً من أن يكون مع أفضل الغرباء الذين قد تدعينهم. إلى جانب ذلك، إن لم يكن في صحة جيدة، فلن يرغب بأيٍّ دعوة. أنا سعيدة بأنه بدأ يعترف بأن صحته ليست على ما يرام. كنت على يقين بأنه مريض من نبرة رسائله، ومع ذلك لم يكن يجيبني عندما سألته، وليس لدي شخص ثالث لاستعلم منه عن أحواله".

"لا، ليس مريضاً، وإلا ما كان ليفكر بالذهاب إلى إسبانيا".

"لم يأت على ذكر إسبانيا أبداً"

"لا! لكن خطته التي سيعرضها على صلة بهذا الأمر. لكن هل ستذهبين حقاً في طقس كهذا؟".

"سيبرد الجو يوماً بعد يوم. أجل! فكّري في ذلك. لكن ما أخشاه أني فكرت وتمنيت أكثر من اللازم، وبرغبة جارفة لن تحصد إلا الخيبة، وإلا لكنت سُرِرتُ بهذه الرسالة التي لا تحمل في مضمونها أية مسرة".

"لكن هذا غير معقول، أنا متأكدة، يا مارغريت".

"لا، لا أظن ذلك، إنها تحذرني فحسب، وتمنعني من الانجراف بعيداً وراء رغبات محمومة. إنها أشبه بالقول "أعطني أطفالاً، وإلا سأموت". ولن يختلف، للأسف، صراخي في هذه الحال ليقول "دعني أذهب إلى كادِز، وإلا سأموت".

"عزيزتي مارغريت! سيقنعونك بالبقاء هناك، وعندها ماذا سأفعل؟ أتمنى لو أجد لك شخصاً هنا تتزوجينه، كي أطمئن عليك".

"لن أتزوج أبداً".

"هـذا كلام سـخيف! فكـما يقـول شـولتو، أنـت فتـاة جذابـة إلى درجـة أنـه متأكـد بـأن كثـيراً مـن الرجـال سـيكونون سـعداء لزيـارة هـذا البيـت العـام القـادم مـن أجلـك"؟

شـدت مارغريـت قامتهـا باسـتعلاء."هل تعلمـين يـا إيديـث، أني أفكـر أحيانـا بـأن كورفـو علمتـك..."

"حسناً!"

"شيئاً أو شيئين من القسوة".

راحـت إيديـث تبـكي بمـرارة، وتتهـم مارغريـت بأنهـا لم تعـد تحبهـا، ولا تنظـر إليهـا كصديقـة، الأمـر الـذي جعـل مارغريـت تفكـر بأنهـا عـبرت عـن رأيهـا بقسـوة زائـدة ثـأراً لكبريائهـا الجريـح، فانتهـى بهـا المطـاف أن تصبـح عبـدة لإيديـث بقيـة اليـوم. أمـا السـيدة الصغـيرة، فاسـتلقت كضحيـة عـلى الكنبـة وهـي تجهـش بـين الحـين والآخـر بتنهيـدات عميقـة إلى أن استسـلمت للنـوم.

لم يـأت السـيد بيـل حتـى في اليـوم الـذي أرجـأ إليـه زيارتـه إلى لنـدن للمـرة الثانيـة. وفي صبيحـة اليـوم التـالي، جـاءت رسـالة مـن خادمـه والاس يوضـح فيهـا أن سـيده لم يكـن عـلى مـا يـرام لفـترة مـن الوقـت وهـذا مـا اضطـره إلى تأجيـل زيارتـه، وفي الوقـت الـذي كان مـن المفـترض أن يغـادر إلى لنـدن، دخـل في غيبوبـة جـراء إصابتـه بنزيـف دماغـي، بحسـب رأي الأطبـاء، ومـن غـير المحتمـل أن يخـرج منهـا حيـاً، بـل وربمـا يكـون سـيده قـد فـارق الحيـاة عندمـا تسـتلم مارغريـت هـذه الرسـالة.

تلقـت مارغريـت هـذه الرسـالة عـلى موعـد الفطـور، فشـحب وجههـا وهـي تقرأهـا، ثـم وضعتهـا في يـد إيديـث مـن دون أن تقـول كلمـة واحـدة، وغـادرت الغرفـة.

أصيبـت إيديـث بصدمـة مرعبـة وهـي تقـرأ الرسـالة، وأخـذت تبـكي وتنتحـب مذعـورة بطريقـة طفوليـة مـا أثـار قلـق زوجهـا. كانـت السـيدة شـو تتنـاول فطورهـا في غرفتهـا، وفوضتـه مهمـة مصالحـة زوجتـه مـع أول تمـاس مبـاشر لهـا مـع مسـألة المـوت. فهنـاك رجـل كان مـن المفـترض أن يتنـاول معهـم العشـاء هـذا اليـوم يرقد على فـراش المـوت، أو فـارق الحيـاة. مـرت فـترة مـن الوقـت قبـل أن تفكـر بمارغريـت.

انطلقت إيديث وراءها على السلم ودخلت إلى غرفتها. كانت ديكسِن تحزم بعض الأغراض، ومارغريت تضع قبعتها وهي تذرف الدموع طوال الوقت، ويداها ترتجفان حتى بالكاد استطاعت ربط القبعة.

"عزيزتي مارغريت! يا لهذه الصدمة القاسية! ماذا تفعلين؟ هل ستخرجين؟ يمكن أن يرسل شولتو برقية أو يفعل ما تريدينه".

"سأذهب إلى أكسفورد. هناك قطار سينطلق خلال نصف ساعة. عرضت ديكسِن القدوم معي، لكني بإمكاني الذهاب لوحدي. يجب أن أراه. ربما تحسن، ويحتاج إلى الرعاية. إنه بمثابة أبي. لا تمنعيني، يا إيديث من الذهاب".

"بل يجب علي أن أمنعك، لن تقبل أمي بهذا أبداً. تعالي واسأليها، يا مارغريت. أنت لا تعلمين إلى أين تذهبين. ما كنت لأعترض على ذهابك، لو كان لديه منزله الخاص به، ولكن في غرف الكلية! تعالي إلى أمي واسأليها قبل أن تنطلقي. لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة".

استسلمت مارغريت، وفاتها القطار. وفي غمرة المفاجأة والصدمة، أصبحت السيدة شو مرتبكة وبحالة هستيرية من الانفعال، والوقت الثمين يمر. على أي حال كان هناك قطار آخر بعد ساعتين، وبعد نقاشات حول صحة هذا التصرف من عدمه، تقرر أن يرافق النقيب لينوكس مارغريت لا لشيء سوى لتمسكها بالذهاب لوحدها أو برفقة أحد آخر في القطار التالي، سواء أكان هذا التصرف سليماً أم لا. فالأمر بالنسبة إليها كان يتعلق بصديق والدها الذي يرقد في سريره على حافة الموت، وارتسمت هذه الصورة في مخيلتها بحيوية بالغة فوجئت مارغريت معها بالحزم والتمسك اللذين أظهرتهما للتأكيد على حقها باستقلالية التصرف. وقبل خمس دقائق من انطلاق القطار، وجدت مارغريت نفسها في العربة تجلس قبالة النقيب لينوكس. أحست براحة كبيرة لأنها ذهبت إلى أكسفورد، وإن كان ذلك لتسمع أن السيد بيل توفي ليلاً. شاهدت الغرف التي عاش فيها، وربطتها في ذاكرتها مع والدها وصديقه المخلص.

كان الاثنان قد وعدا إيديث قبل سفرهما أنهما، وفي حالة انتهى الأمر كما كان

يخشيان، سيعودان على العشاء. لذلك كان على مارغريت التي راحت تجول ببصرها في الغرفة التي لفظ فيها والده أنفاسه الأخيرة أن تقطع جولتها، وتودع بهدوء ذلك الوجه العجوز اللطيف الذي غالباً ما كان ينطق بالكلمات المفرحة، والنكات، والأشياء الغريبة.

استغرق النقيب لينوكس في النوم أثناء رحلة العودة، فوجدت مارغريت متنفساً لها كي تبكي وتفكر في هذه السنة الكئيبة، وما سببته لها من مآسٍ. وسرعان ما أدركت أن فقدان الأحبة واحداً تلو الآخر لم يستبدل حزناً بآخر، بل أعاد نكأ الجراح والأوجاع التي لم تُشفَ منها. لكن الأصوات الرقيقة لخالتها وإيديث، وسعادة شولتو الصغير بوصولها، ومنظر الغرف المضاءة، مع جمال سيدتهم رغم شحوبها وحزنها، نزعت مارغريت عنها وطأة الوهن والإحساس باليأس، وبدأت تشعر بأنه يمكن حتى للفرح والسعادة أن يجتمعا حولها. أخذت مكان إيديث على الكنبة، وتعلم شولتو الصغير كيف يحضر بحرص شديد كوب الشاي للخالة مارغريت. ومع صعودها إلى غرفتها لتغير ملابسها، حمدت الله لأنه أعفى صديقها العجوز من مرض طويل ومؤلم.

تنفست الصعداء

"أليست مارغريت هي الوريثة؟" همست إيديث لزوجها عندما اختليا في غرفتهما تلك الليلة بعد الرحلة الحزينة إلى أكسفورد. سحبت رأسه إلى الأسفل، ووقفت على أصابع قدميها، ورجَته ألا يصاب بالصدمة قبل أن تغامر وتسأله هذا السؤال. كان النقيب لينوكس، على أي حال، لا يعلم شيئاً عن هذا الموضوع، فحتى وإن كان سمع به، فلا بد أنه نسيه، إذ لم يكن متوقعاً أن يترك أستاذ في كلية صغيرة ميراثاً كبيراً. لكنه لم يطلب أبداً أن تدفع مارغريت أي شيء لقاء إقامتها معهم في المنزل، فضلاً عن أن مائتين وخمسين جنيهاً في السنة تُعدُّ مبلغاً تافهاً مع الأخذ بالحسبان أنها لا تشرب النبيذ. عادت إيديث لتقف على قدميها، لكن مع شعور أكبر بالحزن بعد أن تناثرت حكايتها إلى أشلاء.

بعد أسابيع عدة، جاءت إلى زوجها تختال زهواً، وتنحني باحترام بالغ أمامه:

"أنا من كنت على صواب، وأنت على خطأ أيها النقيب النبيل. تلقت مارغريت رسالة من محامٍ بصفتها الوريثة الوحيدة بالوصية التي تركها السيد بيل، ويصل الميراث إلى ألفي جنيه، أما الباقي فيقدر بأربعين ألف جنيه بالقيمة الحالية لعقاراته في ميلتِن".

"حقاً! وكيف تلقت نبأ ثروتها الكبيرة؟"

"على ما يبدو أنها على علم بأنه سترث كل شيء، لكنها لم تكن تعلم بحجم الميراث. تبدو شاحبة الوجه، وتخاف من هذه الثروة، ولكن هذا كلام سخيف كما تعلم، وسيزول هذا الخوف سريعاً. تركتها مع أمي تصب عليها تهانيها ومباركتها، وتسللتُ بعيداً لأخبرك بالنبأ".

كان مفترضاً، كما بدا واضحاً، بالاتفاق العام أن يكون السيد لينوكس من الآن وصاعداً مستشارها القانوني. فقد كانت مارغريت تجهل كل شيء عن شكليات هذا العمل حتى أنها كانت تعود إليه في كل شاردة وواردة تقريباً. اختار لها محامياً، وكان يداوم على المجيء إليها بأوراق لتوقعها. لكن لم يكن يشعر بالسعادة فعلاً إلا عندما كان يعلمها معاني وأنواع طلاسم القانون.

وفي أحد الأيام، قالت له إيديث بخبث: "هل تعلم بِمَ آمل وأتوقع أن تنتهي عليه هذه اللقاءات مع مارغريت؟".

"كلا، لا أعلم"، قال لها وقد احمرَّ وجهه، ولا أرغب أن تخبريني".

"حسناً، لا داعي لأخبر أخيك شولتو ألا يدعو السيد مونتاغ للقدوم إلى المنزل كثيراً".

"كما تريدين"، قال لها مصطنعاً البرود. " فما تفكرين به قد يحدث أو لا يحدث. أما الآن، وقبل أن ألزم نفسي بأي شيء، سأرى أين تقف قدمي. يمكنك أن تدعي من تشائين. قد لا يكون ذلك تصرفا لبقاً منك، يا إيديث، لكن أن تدخلت في الأمر فسوف تفسدينه. كانت جافة معي لفترة طويلة، والآن بدأنا نتزحزح قليلاً عن طبيعة زنوبيا[88] في تصرفاتها. تتمتع بطبع كليوباترا، لو كانت وثنية إلى حد ما".

"من ناحيتي"، قالت إيديث بنبرة وقحة نوعاً ما، "أنا سعيدة بأنها مسيحية. فأنا لا أعرف منهم سوى القليل".

لم تكن إسبانيا موجودة على خارطة مشاريع مارغريت في ذلك الخريف، رغم أنها حتى اللحظة الأخيرة كانت تأمل أن يكون هناك مناسبة سعيدة ما ستدعو فريدريك للذهاب إلى باريس حيث يمكنها بسهولة أن تلتقي به. وبدلاً من الذهاب إلى كادِز، قنعت مارغريت بالتوجه إلى كرومر[89] التي كانت مقصداً دائماً لخالتها شو، وآل لينوكس. لطالما تمنوا أن ترافقهم، ونتيجة لذلك، وبسبب

---

(88) إشارة إلى زنوبيا ملكة تدمر التي كانت تعرف بالاعتزاز بنفسها وصلابة الموقف. (م)

(89) بلدة ساحلية تقع شمال غرب لندن تتبع مقاطعة نورفولك وتعدُّ واحدة من أهم المنتجعات السياحية في بريطانيا. (م)

طبعهم المعتاد، لم يبذلوا جهداً كبيراً بالتعبير لها عن أمنيتهم هذه. ربما كانت كرومر، بمعنىً ما، هي الأفضل بالنسبة لها، لأنها كانت تحتاج لتستعيد عافيتها وتنال قسطاً من الراحة والاستجمام.

ولعل من الآمال التي تبخرت كان أملُها وثقُتها بأن يشرح السيد بيل للسيد ثورنتِن بعض الحقائق عن ظروف أسرتها التي سبقت الحادث المشؤوم الذي أفضى إلى وفاة لينِردز. وبغض النظر عن الرأي، وكيف تبدل عما كان يعتقد به السيد ثورنتِن من قبل، كانت تتمنى لو أنه استند على فهم صحيح لما أقدمت عليه من تصرف، ولماذا. لو تم لها ما كانت تتمناه وتأمله، لكان مصدر سرور وراحة أزاح عن كاهلها ما سيبقى يؤرقها طوال حياتها، إلا إن كانت تمتلك من القوة والتصميم كي تتجاهله وتنساه. لقد مضت فترة طويلة منذ أن وقعت تلك الأحداث، ومن ثَم لم يعد ممكناً شرحها وتفسيرها، ناهيك عن الفرصة التي ضاعت مع وفاة السيد بيل. ربما لم يعد أمامها سوى القبول بأنه أُسيء فهم تلك الحادثة، مثل كثيراتٍ غيرها، لكن ـ على الرغم من إقناع نفسها بالاعتقاد أن هذه الحادثة على وجه التحديد لم تكن حيزاً مباحاً للجميع ـ لم يتألم قلبها بقدر ما كان تواقاً إلى أنه وفي وقتٍ ما، بعد سنوات وسنوات من الآن، على الأقل قبل أن يوافيه الأجل، ربما يتسنى له أن يعلم مدى المغريات التي تعرضت لها. لم تكن، بحسب ظنها، تريد أن تسمع بأنه تم توضيح الأمور كلها، إلا كي تتأكد بأنه كان سيعلم الحقيقة. غير أن هذه الأمنية ضاعت عبثاً، مثل غيرها، وعندما دربت نفسها على هذه القناعة، عادت بكامل قوتها وأحاسيسها إلى الحياة اتي كانت تنتظرها، مع التصميم على استغلالها على النحو الأمثل.

اعتادت أن تجلس ساعات طويلة على شاطئ البحر، وهي تحدق بأمواج البحر تضرب الشاطئ بحركتها المتواصلة الدؤوب، أو كانت تمدُّ بصرها نحو جيشان الموج البعيد وهو يلمع تحت السماء، أو تسمع منها ذلك النشيد الأبدي الذي لا يتوقف أبداً. كانت تشعر بالطمأنينة والسلام من دون أن تدري كيف ولماذا. جلست مسترخية هناك على الأرض، ويداها مشبوكتان فوق ركبتيها، بينما كانت خالتها مشغولة بالتسوق، وذهبت إيديث والنقيب لينوكس على ظهر

حصانيهما في جولة على طول الشاطئ أو في مكان آخر داخل البلدة. مرت المربيتان بجانبها، ذهاباً وإياباً، تتمشيان مع الطفلين، وتتساءلان همساً علام كانت تنظر كل هذه الساعات الطويلة يوماً بعد يوم. عندما اجتمعت الأسرة على العشاء، بقيت مارغريت صامتة ومستغرقة في أفكارها إلى درجة ظنت معها إيديث أن ابنة خالتها ليست سعيدة، وأثنت بنشوة عارمة على اقتراح زوجها بدعوة السيد هنري لينوكس لقضاء أسبوع في كرومر وهو في طريق عودته من اسكوتلندا.

هذه الفترة من التأمل والتفكير مكنّت مارغريت من وضع الأحداث في مكانها المناسب من حيث السبب والنتيجة سواء في ما يتعلق بحياتها في الماضي أو في المستقبل. لم تذهب هذه الساعات على شاطئ البحر سُدىً، كما كان بمقدور كل من لديه قدرة على القراءة والحرص على الفهم، أن يلمح تلك النظرة التي كان وجه مارغريت يكتسبها تدريجياً، حتى أن السيد هنري لينوكس صُعق بهذا التغيير.

"لقد ترك البحر أثراً رائعاً على مارغريت"، قال السيد لينوكس عندما غادرت مارغريت الغرفة لأول مرة بعد وصوله. "إنها تبدو أصغر بعشر سنوات مما كانت عليه في شارع هارلي".

"كل هذا بفضل القبعة التي اشتريتها لها". قالت إيديث بنبرة من حقق إنجازاً كبيراً. "كنت أعلم أنها ستناسبها منذ اللحظة التي وقعت عيناي عليها".

"أرجو المعذرة"، قال السيد لينوكس بنبرة يتقاسمها الازدراء والاستياء كتلك التي عادة ما يستخدمها مع إيديث. "لكن أظن أني أعلم جيداً الفرق بيت جمال الملبس وجمال المرأة. لا يمكن لقبعة أن تجعل عيني الآنسة هيل تلمعان على هذا النحو مع احتفاظهما بتلك الرقة، ولا شفتيها حمراوين ممتلئتين، ولا وجهها يبدو طافحاً بهذا القدر من الهدوء والطمأنينة. إنها تبدو مثل، بل وأجمل من"، أخفض صوته قبل أن يكمل "مارغريت في هِلْستِن".

ومنذ ذلك الحين سخَّر المحامي الذكي الطموح كل طاقاته ليكسب ود مارغريت.

أحـب جمالها العـذب، ولمـح التغيـيرات الضمنيـة في طريقـة تفكيرهـا التـي يمكـن (كـما كان يظـن) توجيهها بسـهولة إلى جميـع الموضوعـات التي كان يرغـب بهـا. نظر إلى ثروتهـا كجـزء مـن شـخصيتها المتميـزة المتكاملـة، ومركزهـا، رغـم أنه كان يـدرك أن صعـود نجمـه الـذي سيسـاعده، وهـو المحامـي الفقـير، عـلى اسـتغلال الفـرص المتاحة لـه. وفي نهايـة المطـاف، سـيحقق إنجـازاً ويبلـغ مجـداً مـن شـأنهما أن يمكنـاه مـن رد الديـن لهـا، مـع فائـدة مضافـة، لقـاء تحسـين ثروتـه التـي سيدين لهـا بهـا. في طريـق عودتـه مـن اسـكوتلندا، عـرج عـلى ملـتِن في زيـارة عمـل تتصـل بأملاكهـا هنـاك. وبعـين المحامـي الماهـر، والمسـتعد دائمـاً لحسـاب وموازنـة الاحتـمالات والفـرص، أدرك القيمـة المتزايـدة سـنوياً لـلأراضي والشـقق التـي تمتلكهـا في تلـك المدينـة المزدهـرة. كان سـعيداً بـأن يجـد أن علاقتـه الحاليـة مـع مارغريـت كمستشـار قانـوني، كانـت تحـل تدريجيـاً محـل ذكـرى ذلـك اليـوم المشـؤوم في هِلْسـتِن. فقـد سـنحت لـه فـرص غـير عاديـة للحديـث الخـاص معهـا، إلى جانـب الأحاديـث التـي كانـت تـأتي في سـياق العلاقـة الأسريـة.

مـن جانبهـا، لم تكـن مارغريـت راغبـة في الاسـتماع إلا عندمـا كان يتحـدث عـن ميلـتِن، عـلى الرغـم مـن أنـه لم يـر أحـداً مـن الأشـخاص الذيـن تعرفهـم. كذلـك كانـت نـبرة الاحتقـار والكراهيـة التـي كانـت خالتهـا وابنتهـا تسـتخدمانها للحديـث عـن ميلـتِن؛ وهـي مشـاعر كانـت مارغريـت تشـعر بالخجـل مـن أنـه سـبق لهـا وعـبرت عنهـا عندمـا ذهبـت للمـرّة الأولى إلى هنـاك. لكـن السـيد لينوكـس تفـوق عـلى مارغريـت في تقديـره ومديحـه لمزايـا ميلـتِن وسـكانها. فقـد أسرتـه وجذبـت انتباهـه طاقتهـم، ونشـاطهم، وشـجاعتهم في الكفـاح، وحيويـة وجودهـم الصاخـب. لم يمـل مـن الحديث عنهـم، لكنـه لم يفهـم أبـداً كـم هـي أنانيـة وماديـة كانـت تلـك الأهـداف والغايـات الكثـيرة التـي يضعونهـا نصـب أعينهـم كنتيجـة لقوتهـم وجهودهـم التـي لا تـكل ولا تتعـب، إلا عندمـا امتلكـت مارغريـت الصراحـة لتوضـح هـذه الصفـة عـلى أنهـا خطيئـة تلطخهـم بالعـار، بقـدر مـا هـي صفـة نبيلـة تسـتحق الإعجـاب. وحتـى عندمـا كانـت الموضوعـات الأخـرى تثـير ضجرهـا، وتعطـي أجوبـة مختـصرة عـلى كثـير مـن الأسـئلة، اكتشـف هـنري لينوكـس أن استفسـاراً حـول فـرادة وتميـز الشـخصية

الداركشايرية كان كفيلاً بأن يعيد اللمعان إلى عينيها، والوهج والتألق إلى خديها.

عندما عادوا إلى لندن، نفذت مارغريت واحداً من القرارات التي اتخذتها على شاطئ البحر، وأمسكت قياد حياتها بيديها. قبل أن يذهبا إلى كرومر، كانت مارغريت مستكينة لقوانين خالتها كما لو أنها مازالت تلك الفتاة الصغيرة المذعورة التي بكت حتى تنام ليلتها الأولى في غرفة الأطفال في شارع هارلي. لكنها تعلمت، في تلك الساعات الهادئة من التفكير العميق، بأنه يجب عليها ذات يوم أن تتولى بنفسها مسؤوليات حياتها، وماذا فعلت بها، وحاولت أن تحل أكثر المشكلات صعوبة بالنسبة لامرأة؛ إلى أي حد يمكن لها أن تبقى خاضعة لسلطة ما، وإلى أي حد يمكن لها أن تمتلك الحرية في تدبير شؤون حياتها. كانت السيدة شو في أفضل حالة من المزاج الهادئ الذي يمكن لها أن تتحلى به، وورثت إيديث هذه الصفة الأسرية الساحرة. أما مارغريت فقد كانت، على الأرجح، تمتلك أسوأ حالة مزاجية بسبب انفعالاتها السريعة، وخيالها الجموح الذي جعل منها شخصاً متسرعاً، وعزلتها المبكرة عن التوافق مع الآخرين التي جعلتها متكبرة، رغم أنها كانت تتمتع بطيبة قلب لا توصف مثل الأطفال جعلت من تصرفاتها سابقاً، حتى في حالات العناد النادرة، أمراً لا يقاوم. أما الآن، وبعد أن أصبحت أكثر انضباطاً، حتى بما يدعوه الجميع حظها الجيد، فقد سخّرت خالتها للخضوع، على مضض، لإرادتها. وهكذا حازت مارغريت اعترافاً بحقها بأن تتبع أفكارها الخاصة بشأن الواجب.

"لا تكوني عنيدة"، توسلت مارغريت، "والدتي تريد أن يكون لديك حاجباً خاصاً بك، وأنا متأكدة بأنك شخص مرحب به. من أجل خاطري فقط، يا عزيزتي لا تذهبي، ولا تتشبثي برأيك. هذا كل ما أطلبه منك. سواء مع حاجب أو من دونه، لا تكوني عنيدة متصلبة الرأي".

"كوني مطمئنة يا إيديث. سأقع مغشية بين يديك على موعد غداء الخدم، في أول فرصة، بعدها، ماذا عن شولتو الصغير يلعب بالنار، والطفل الرضيع يبكي، ستتمنين أن يكون لديك امرأة صلبة عنيدة، قادرة على مواجهة كل طارئ".

"وأنت لن تكوني مرحة وبارعة في النكات".

"لا، بل سأكون أكثر مرحاً وسعادة مما كنت عليه من قبل. فقد بات لدي الآن، طريقتي الخاصة".

"لن يكون أمراً مستغرباً، لكن دعيني اشتري لك ملابسك".

"طبعاً، ولكن أن أشتريهم لنفسي. يمكنك أن ترافقيني، إن أحببت، لكن لا أحد يرضيني سوى نفسي".

"لكن أخشى أن ترتدي اللون البني أو الألوان المغبرة، كيلا تظهر الأوساخ التي تعلق بثيابك في تلك الأماكن. أنا سعيدة لأنك ستحافظين على بعض المظاهر كما هو الحال مع سلالة بني آدم".

"سأبقى كما أنا، يا إيديث، إن كان باستطاعتك أو باستطاعة خالتي أن تتخيلا غير ذلك. بما أنني غير متزوجة، وليس عندي أطفال ليحملوني تلك المسؤوليات الطبيعية، يجب علي أن أصنع لنفسي تلك الواجبات والمسؤوليات إضافة إلى اختيار ملابسي".

وفي إطار الدائرة الضيقة للأسرة التي كانت تقتصر على إيديث ووالدتها وزوجها، تقرر أن مخططات ومشاريع مارغريت جميعها ستضمن حكماً بأنها ستكون من نصيب هنري لينوكس. لذلك، أبعدوها عن طريق أصدقاء آخرين قد يكونون أبناء وأخوة مناسبين، واتُّفق على أنها لا تجد أيَّ متعة إلا في صحبة هنري. أما المعجبون الآخرون، من جذبهم جمالها أو أغرتهم ثروتها، فقد تم إبعادهم بامتعاضها المبتسم غير المقصود نحو جميلات أخريات أقل تكبراً، أو نحو سيدات ورثن كميات أكبر من الذهب. بدأ هنري تدريجياً يشعر بالألفة والحميمية تجاهها، لكنهما لم يكونا من الأشخاص الذين يتناغمون في ملاحظة تصرفاتهم.

تغيرات في ميلتِن

في هــذه الأثنــاء كانــت مداخــن ميلــتِن تنفــث دخانهــا، والآلات بهديرهــا المتواصــل وإيقاعهــا الصاخــب وأزيزهــا المثــير تكــدح وتجهــد في حركــة لا تتوقــف. كــما كان الحديـد والخشـب والبخـار يعملـون إلى مـا لا نهايـة بـلا وعـي أو هـدف، لكـن إصرار عملهـم الرتيـب ومثابرتـه كان يقابلـه صـبر وتحمـل لا يتعـب مـن العـمال الأقويـاء الذيــن، بوعــي وهــدف، كانــوا منشــغلين يســاورهم القلــق في الســعي وراء مــاذا؟ انتـشر في شـوارع المدينـة حفنـة مـن المتسـكعين الكسـالى، لا يتجولـون لأجـل التسـلية فحســب، وعــلى وجــه كل واحــد منهــم ملامــح اللهفــة والقلــق بحثــاً عــن الأخبــار بشراهــة متوحشــة، وكان هنــاك آخــرون يتدافعــون في ســوق مــارت وســوق الأســهم، كــما كانــوا يتدافعــون في الحيــاة في تنافــس أنــاني محمــوم. كان الوجــوم يســيطر عــلى المدينـة. لم يكـن هنـاك سـوى عـدد قليـل مـن المشـترين كانـوا موضـع شـك وريبـة البائعـين، إذ لم يكـن الدفـع المؤجـل مضمونـاً، فضـلاً عـن أن أكـثر التجـار اسـتقراراً كان يعـاني مـن آثـار المعركـة الدائـرة بـين شركات النقـل البحـري في المرفـأ المجـاور. عـلى أي حـال، لم تشـهد ميلـتِن حتـى الآن إخفاقـات كبـيرة، لكـن وتبعـاً للتوقعـات الكثـيرة التـي بـدأت تتحـدث عـن أنبـاء سيئة يـتردد صداهـا في أمـيركا وحتـى البلـدان المجـاورة، بـات معلومـاً أن بعـض المصانـع في ميلـتِن سـتعاني لا محالـة مـن هـذه التأثـيرات وعـلى نحـوٍ أخـذ النـاس يتسـاءلون بوجوههـم، إن لم يكـن بألسـنتهم: "مـا الأخبـار؟ مـن سـقط؟ وكيـف سـيؤثر ذلـك عـلي؟" وإن تكلـم اثنـان أو ثلاثـة أشـخاص معـاً، كانـوا يذكـرون أسـماء أولئـك السـادة الذيـن لا يخشـون التلميـح إليهـم مثـل غيرهــم الذيــن، بحســب رأيهــم، كانــوا مهدديــن بالســقوط، لأن الحديــث في مثــل

هـذه الظـروف قـد يـؤدي إلى سـقوط بعـض الذيـن قـد يكـون بمقدورهـم مواجهـة العاصفـة، ومـن ثـم فـإن سـقوط أحدهـم قـد يجـر معـه آخريـن. "ثورنـتِن في أمـان" يقولـون. "تجارتـه مزدهـرة، وتتوسـع كل عـام، لكـن مـع عقـل حكيـم مثـل عقلـه رغـم جرأتـه!" عندهـا يسـحب أحـد الأشـخاص رفيقـه جانبـاً، ويبتعـدان قليـلاً عـن المجموعـة، ليهمـس في إذنـه: "صحيـح أن تجارتـه كبـيرة، لكنـه أنفـق الكثـير مـن أرباحـه عـلى توسـيعها، ولم يعـد لديـه الكثـير مـن رأس المـال؛ كـما أن آلاتـه حديثـة لم يمـضِ عليهـا عامـان، وكلّفتـه الكثـير، لا داعـي لأن نذكـر كـم! لكـن اللبيـب من الإشـارة يفهـم". أمـا السـيد هاريسِـن الـذي لا يتوقـف عـن النقيـق والنعيـب، فقـد ورث تجـارة أبيـه وثروتـه، وكان يخـشى أن يخسرهـا بتغيـير طبيعـة عملـه إلى مـا هـو أكـبر وأوسـع، عـلى الرغـم مـن أنـه كان يتذمـر ويشـتكي مـن كل قـرش يجنيـه الآخـرون بفضـل جرأتهـم وبعـد نظرهـم.

غـير أن الحقيقـة كانـت غـير ذلـك، فالسـيد ثورنـتِن تعـرض لضغـطٍ كبـير كان بالنسـبة إليـه ألمـاً حـاداً في نقطـة ضعفـه؛ كبريـاؤه في الشـخصية التجاريـة التـي أسسـها لنفسـه. وبصفتـه مهنـدس ثروتـه، فقـد عـزا كل هـذا ليـس إلى الميـزة الخاصـة أو مواصفاتـه الشـخصية، بـل إلى السـلطة التـي يعتقـد أن التجـارة لا تمنحهـا سـوى لـكل رجـل شـجاع، أمـين، ويحافـظ عـلى مكانتـه، كي يرتقـي بنفسـه إلى مسـتوىً يمكّنـه مـن قـراءة لعبـة النجـاح الحكيمـة ومتابعتهـا، ويحـوز، بـكل أمانـة مـن خـلال بعـد نظـر ثاقـب، مزيـداً مـن السـلطة والنفـوذ أكـثر مـن أي مجـال آخـر في الحيـاة. هنـاك، بعيـداً في الغـرب أو في الـشرق حيـث لـن يعرفـه أحـد بشـخصه، سـيكون اسـمه موضـع تقديـر واحـترام، وتُلبـى طلباتـه ورغباتـه، وتنفُـذ كلمتـه مثـل الذهـب. هـذه هـي الفكـرة التـي أقـام عـلى أساسـها السـيد ثورنـتِن حيـاة التاجـر. "التجـار أمـراء" قالـت أمـه يومـاً وهـي تقـرأ بصـوت عـالٍ وكأنـه نفـير البـوق الـذي تدعـو بـه ابنهـا إلى القتـال. لم يكـن سـوى واحـد مـن بـين آخريـن، رجـالاً ونسـاءً وأطفـالاً، أحيـاء لـكل مـا هـو بعيـد، وموتى لـكل مـا هـو قريـب. كان يسـعى لامتـلاك سـطوة الاسـم ونفـوذه في بـلاد أجنبيـة وفي البحـار البعيـدة، ليكـون عـلى رأس شركـة يجـب أن تُعـرف عـلى مـدار أجيـال قادمـة. لقـد اسـتغرق الأمـر معـه سـنوات طويلـة صامتـة

ليصل حتى إلى بصيص أملٍ بما يمكن أن يكون عليه الآن، اليوم، هنا في بلدته، وفي مصنعه، وبين أهله وناسه. فقد كان هو وهُمْ يعيشان حياتين متوازيتين، قريبتين جداً من بعضهما بعضاً، لكنهما لا تلتقيان إلى أن وقعت حادثة (أو هكذا بدا الأمر) تعرفه على هيغينز. وحالما وقف وجهاً لوجه، رجلاً إلى رجل، مع فرد من حشود الناس حوله، وتنبه في البداية إلى ميزة السيد والعامل، بدأ الاثنان يدركان أننا "جميعاً نمتلك في صدورنا قلب إنسان[90]". وكان هذا بمثابة قطرة الماء التي حطمت صخراً صلداً عنيداً. وحتى الآن، عندما يخالجه القلق من فقدان الصلة مع اثنين أو ثلاثة من العمال الذين بات يعرفهم كرجال، أو خسارة خطة أو اثنتين، كانتا مجرد تجارب قريبة على قلبه، من دون أن تأخذا حقهما في المحاولة على الأقل، كان يظهر عليه الخوف الذي يأتيه بين الحين والآخر. لم يدرك السيد ثورنتِن حتى الآن مقدار هذا الاهتمام وعمقه الذي تولد لديه مؤخراً للإحساس بموقعه كصاحب مصنع، لأنه وبكل بساطة قاده ليكون على هذه المسافة القريبة، ومنحه الفرصة للشعور بهذه السلطة وسط أناس غرباء، جاهلين، طيعين، لكنهم رغم ذلك كله يمتازون بالشخصية والمشاعر الإنسانية الجياشة.

أعاد السيد ثورنتِن النظر في موقعه كواحد من صناعيي ميلتِن. فالإضراب الذي وقع قبل عام ونصف، أو أكثر، لأننا الآن في طقس مطري مبكر أواخر الربيع، وكان حينذاك شاباً وكبر بالسن الآن، هذا الإضراب منعه من إكمال تنفيذ طلبيات كبيرة كانت بحوزته. فقد استثمر جزءاً كبيراً من رأس المال في شراء آلات حديثة باهظة الثمن، واشترى كميات ضخمة من القطن لتنفيذ تلك الطلبيات التي تم التعاقد عليها معه. لكنه لم يستطع تنفيذ العقود بسبب افتقار العمال الأيرلنديين الذين أحضرهم للمهارة المطلوبة، الأمر الذي تسبب بإتلاف الجزء الأكبر من عملهم الذي كان لا يمكن إرساله باسم مصنع يفتخر بأنه لا يقدم إلا إنتاجاً من الطراز الأول. ولعدة شهور متتالية، كان الإرباك الذي

(90) من قصيدة للشاعر ويليام ووردزوورث (William Wordsworth) بعنوان "في وصف شحاذ كمبرلاند العجوز" (The Old Cumberland Beggar, a Description). (م)

تسبب بـه الإضراب عقبـة في طريـق السـيد ثورنـتِن. وعندمـا كانـت تقـع عينـاه عـلى هيغينـز، كان بمقـدوره أن يتحـدث إليـه بغضـب مـن دون أي سـبب سـوى إحساسـه بخطـورة الـضرر الناجـم عـن هـذه المشـكلة التـي تـورط فيهـا. لكنـه عندمـا تنبـه إلى هـذه النقمـة السريعـة المفاجئـة، قـرر أن يكبحهـا ويحـد مـن تأثيرهـا. إذ لم يكـن سـعيداً بمحاولتـه تجنـب هيغينـز، وشـعر بـضرورة أن يقنـع نفسـه أنـه هـو السـيد القـادر عـلى التحكـم بغضبـه وذلـك بحرصـه عـلى السـماح لهيغينـز بالتواصـل معـه كلـما سـمحت قواعـد وقوانـين العمـل الصارمـة بذلـك، أو أتـاح وقتـه هـذه الفرصـة. وبالتدريـج، تـلاشى إحسـاس السـيد ثورنـتِن بالنقمـة أمـام تعجبـه كيـف كان أو يمكـن لشـخصين، مثلـه ومثـل هيغينـز يعتاشـان مـن المهنـة ذاتهـا، ويعمـلان في المجـال نفسـه كلٌّ بطريقتـه، أن ينظـرا إلى موقـع ومسـؤوليات بعضهـما بعضـاً بطريقـة مختلفـة عـلى نحـو غريـب. ومـن هنـا نشـأ الحـوار الـذي ـ وإن كان لا يمنـع وقـوع صدامـات في الـرأي والفعـل مسـتقبلاً عندمـا تسـمح الظـروف بذلـك ـ سـاعد السـيد والعامـل عـلى أن ينظـر كل واحـد منهـما للآخـر بعـين التعاطـف والإحسـان، ويحتمـلا بعضهـما بعضـاً بمزيـد مـن الصـبر والعطـف. وعـلاوة عـلى هـذا التحسـن الـذي طـرأ عـلى مشـاعرهما، اكتشـف السـيد ثورنـتِن وعاملـه هيغينـز جهلهـما بحقائـق بديهيـة كانـت معلومـةً قبـل ذلـك لـدى أحـد الطرفـين دون الآخـر.

أمـا الآن، فقـد حلـت واحـدة مـن الفـترات العصيبـة حيـث أدى انهيـار السـوق إلى تراجـع قيمـة الأسـهم الكبـيرة ومنهـا مصنـع السـيد ثورنـتِن الـذي تراجعـت قيمتـه إلى النصـف تقريبـاً. لم يعـد هنـاك أيُّ طلبيـات جديـدة، وخـسر فائـدة رأس المـال الـذي اسـتثمره في شراء الآلات الجديـدة، وبـات صعبـاً عليـه الحصـول عـلى ثمـن الطلبيـات المُنجـزة مـع اسـتمرار نـزف النفقـات مـن أجـل تشـغيل المصنـع. وحـان موعـد سـداد ثمـن القطـن الـذي اشـتراه، وأخـذ المـال يشـح بـين يديـه، مـا اضطـره إلى الاسـتدانة بفائـدة ضخمـة، ورغـم ذلـك لم يسـتطع أن يبيـع أيـاً مـن ممتلكاتـه لتوفـير السـيولة الماليـة. ورغـم كل ذلـك لم ييـأس، وعمـل بجـد ليـل نهـار ليحسـب حسـاب أي مسـتجدات طارئـة ويواجههـا. كان هادئـاً ولطيفـاً مـع النسـاء في بيتـه كعادتـه دائمـاً. أمـا مـع عـمال المصنـع، فلـم يتكلـم كثـيراً، لكنهـم باتـوا يعرفونـه بشـكل جيـد

الآن، وكم مرة تلقى منهم ردوداً مختصرة قاطعة تحمل في طياتها قدراً كبيراً من التعاطف مع الهم الذي كان يرزح تحت وطأته، بدلاً من تلك العداوة التي كانت تغلي في داخلهم في الماضي مستعدة لتطلق بحقه أقسى الكلمات والأحكام في الأوقات جميعها. "هناك مشكلات كثيرة تؤرق السيد"، قال هيغينز ذات يوم، وهو يسمع سؤال السيد ثورنتِن المقتضب والحاد عن السبب وراء عدم تنفيذ أحد الأوامر، وتلك الزفرة المكبوتة التي حبسها وهو يمر بجانب الغرفة التي كان يعمل فيها بعض الرجال. في ذلك اليوم، بقي هيغينز مع عامل آخر، لا أحد يعرفه، في المصنع لإنجاز العمل المُهمَل، ولم يدر السيد ثورنتِن سوى أن العامل المُهمِل الذي كان مكلفاً بهذا العمل هو من قام بإكماله.

"أظن أني أعرف من كان سيشعر بالأسى لرؤية سيدنا جالساً مثل قطعة من قماش البفتة كالحة اللون! أجل إنه الرجل العجوز الذي كان سيثير القلق في قلب امرأته، لو أنه رأى النظرات الحزينة كتلك التي لمحتها في وجه سيدنا"، قال هيغينز لنفسه، وهو يقترب من السيد ثورنتِن في شارع مارلبره.

"سيدي"، صاح هيغينز، وهو يوقف رب عمله في مشيته السريعة الحازمة، مما اضطر هذا الأخير للنظر إليه بدهشة لا تخلو من الانزعاج، كما لو أنه كان سارحاً بأفكاره في مكان آخر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"هل سمعت شيئاً عن الآنسة هيل؟".

"الآنسة من؟" أجابه السيد ثورنتِن.

"الآنسة مارغريت هيل، ابنة الرجل العجوز. أنت تعلم من أقصد لو فكرت قليلاً..." (لم يكن في نبرة كلامه أيُّ إساءة تدل على عدم الاحترام).

"آه، أجل!" وفجأة اختفت من على وجهه تلك النظرة الجليدية المثقلة بالهم، كما لو أن نسمةً صيفيةً هبت لتطرد من رأسه كل بواعث القلق، وابتسم في وجه سائله بعطف وحنان، على الرغم من أن فمه كان مُطبِقاً على نفسه أكثر من قبل.

"إنها صاحبة العقارات التي أستأجرها، كما تعلم، ولا أسمع عنها أي شيء سوى

عـن طريـق وكيلهـا هنـا مـن حـين إلى آخـر. إنهـا بخـير وبـين أصدقائهـا، شـكراً يـا هيغينـز". تلـكأ في نطـق عبـارة الشـكر إلى آخـر كلامـه، لكنهـا جـاءت تحمـل مشـاعر دافئـة أضـاءت لهيغينـز الحـاذق ضـوءاً جديـداً، كـما سراب المـاء في صحـراء قاحلـة، ربمـا لا يقـوده إلى شيء، إلا أنـه قـرر أن يلاحقـه لـيرى أيـن ينتهـي.

"وهل تزوجت؟"

"لا ليـس بعـد"، وامتقـع وجهـه مـرة أخـرى. "هنـاك أقاويـل، كـما فهمـت، حـول قريـب مـن العائلـة".

"إذاً لن تعود إلى ميلتن مرة ثانية، حسب ظني".

"لا".

"انتظـر لحظـة يـا سـيدي". ثـم اقـترب منـه، وقـال لـه، "هـل حُلـت مشـكلة السـيد الشـاب؟"، وغمـز بعينـه تأكيـداً عـلى معرفتـه بالـسر، وهـو مـا جعـل الأمـور أكـثر غموضـاً بالنسـبة للسـيد ثورنـتِن.

"أعني السيد فريدريك، كما يدعونه، شقيقها كان هنا، كما تعلم".

"هنا".

"نعـم بالتأكيـد، عنـد وفـاة السـيدة. لا تخـشَ مـما أقولـه لـك، فأنـا ومـاري كنـا نعـرف بالأمـر منـذ فـترة طويلـة، لكننـا صمتنـا، وعرفنـا بذلـك مـن مـاري عندمـا كانـت تعمـل في منزلهـم".

"وكان هنا، شقيقها".

"بالتأكيـد، وأظـن أنـك كنـت عـلى علـم بذلـك، وإلا لمـا أخبرتـك. فأنـت تعـرف أن لهـا أخا شـقيقاً؟".

"أجل، أعلم بذلك، وكان هنا عند وفاة السيدة هيل؟".

"لا لـن أقـول المزيـد، فربمـا أورطهـم في مشـكلة، لأنهـم أبقـوا الأمـر سراً. كنـت أريـد أن أعـرف إن كانـوا قـد حلـوا مشـكلته".

"لا أعلـم عـن هـذا الأمـر شـيئاً. إذ تصلنـي أخبـار الآنسـة هيـل بصفتهـا صاحـب العقـار، وعـن طريـق محاميهـا".

تخلص من هيغينز ليتابع العمل الذي كان ينوي القيام به عندما فاتحه هذا الأخير بالحديث، وترك هيغينز في حيرة من أمره.

"إذاً كان أخوها"، قال السيد ثورنتِن لنفسه. "كم أشعر بالسعادة. ربما لن أراها ثانية، لكن أشعر بالراحة، بل الارتياح، لمعرفتي بهذا الأمر. كنت أعلم أنها ليست من هذا النوع، لكنني كنت أتحرق شوقاً لدليل قاطع. أنا سعيد الآن".

كان هذا الخبر أشبه بخيط ذهبي صغير يخترق تلك الشبكة المعتمة من مشاكله الحالية التي كانت تزداد سواداً. فقد كان وكيله قد وضع ثقته في شركة أميركية انهارت مع شركات أخرى مثل خرزات السبحة التي ما إن تسقط واحدة منها حتى تتبعها البقية. وماذا عن التزامات السيد ثورنتِن؟ هل يستطيع الصمود؟

كان يأخذ سجلاته وأوراقه إلى غرفة مكتبه، ويبقى جالساً ساعاتٍ طويلة بعد أن تخلد الأسرة كلها للنوم. كان يظن أن أحداً لم يكن يعلم بقضائه كل تلك الساعات ساهراً بدلاً من الذهاب إلى النوم. وفي صبيحة أحد الأيام، عندما تسلل الضوء عبر شقوق مصاريع النافذة، وهو لا يزال جالساً في حالة من الشرود اليائس يفكر بأنه يستطيع الاستمرار بدلاً من الاستراحة لساعة أو ساعتين اللتين كان عليه أن يستغلهما للنوم قبل أن تدور عجلة العمل، فُتح الباب ووقفت أمه ترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها البارحة. لم تذق هي الأخرى طعم النوم. تلاقت عيناهما. كان وجهاهما باردين ومتشنجيْن يكسوهما الشحوب من السهر الطويل.

"أمي! ألم تنامي بعد؟".

"جون، بُني" قالت له، "وهل تظن أني أستطيع النوم هانئة البال وتبقى أنت ساهراً يشغلك الهم والقلق؟ لم تقل لي ما الذي يؤرقك؛ يبدو أن لديك مشكلة كبيرة تعاني منها منذ أيام خلت".

"العمل ليس على ما يرام".

"وأنت تخشى أن..."

لا أخشى شيئاً" أجابها، ويرفع رأسه ويبقيه مشدوداً الأعلى. "وأنا متأكد بأن أحداً لن يعاني بسببي".

"لكن كيف وضعك الآن؟ هل...هل سيكون مصيرنا الانهيار؟" ارتجف صوتها بطريقة مفاجئة.

"لا لن ننهار. قد أغير العمل، لكن سأسدد للجميع مستحقاتهم. ربما أستعيد مكانتي، أنا مضطر..."

"كيف ذلك، يا جون! يجب أن تحتفظ باسمك، حاول بشتى السبل. كيف ستستعيدها؟".

"بالمضاربة، لكنها محفوفة بالمخاطر. إن نجحت سأنقذ نفسي من الغرق، ولن يعرف أحد بالضائقة التي أمر فيها. لكن إن أخفقت..."

"وإن أخفقت"، قالت له وهي تقترب منه وتضع يدها على ذراعه، وعيناها يغشاهما القلق. حبست أنفاسها وهي تنتظر سماع نهاية الجملة.

"لا يهلك الشرفاء إلا على يد الأشقياء"، قال بحزن عميق. "لا خوف على مال الدائنين في وضعي الحالي، كل قرش في مأمن، لكن لا أعلم من أي أُحصِّل ديوني، ربما تبخرت، وأنا، في هذه اللحظة مفلس. لهذا السبب سأجازف بأموال الدائنين".

"إن نجحت، لن يعرفوا بالأمر. أليست مضاربة يائسة؟ أنا متأكدة بأنها ليست كذلك، وإلا ما كنت لتفكر بهذه الوسيلة. إن نجحت...".

"سأصبح رجلاً ثرياً، وأخسر راحة ضميري".

"لماذا! لن تضر أحداً".

"لكني سأكون قد جازفت بتحطيم العديد من أجل تعظيم ذاتي التافهة. لقد اتخذت قراري، يا أمي. لن تحزني كثيراً إن تركنا هذا المنزل، أليس كذلك يا أمي العزيزة؟".

"بالطبع لا! لكن أن لا تعود كما كنت سيحطم قلبي. ماذا يمكنك أن تفعل؟".

"سأبقى جون ثورنتِن أيا كانت الظروف، أسعى جاهداً لأفعل الصواب، وأرتكب أخطاء كبيرة، ومن ثم أحاول كي أكون شجاعاً لأبدأ من جديد. لكنه أمر صعب، يا أمي. لقد عملت وخططت. اكتشفت طاقاتٍ جديدة، ولكن متأخراً، والآن

انتهـى كل شيء. لم أعـد شـاباً لأبـدأ مـن جديـد بالقـوة والنشـاط نفسـهما. صعـب جـداً يـا أمـي".

أشاح بوجهه بعيداً عن أمه وغطاه بيديه.

"لا أستطيع أن أتخيـل" قالـت بتحـدٍ كئيـب في صوتهـا، "كيـف حـدث كل هـذا. هـا هـو ابنـي؛ ابـن بـار، مجـرد رجـل، رقيـق القلـب، يخفـق في كل مـا خطـط لـه: يجـد امـرأة يحبهـا، لكنهـا لا تبـالي بمشـاعره كـما لـو كان واحـداً مـن عامـة النـاس، يكـدح ويتعـب، ولا يثمـر تعبـه شـيئاً. أمـا الآخـرون، فيـزدادون غنـىً ويحتفظـون بأسـمائهم عاليـاً لا يمسـها العـار والفضيحـة".

"لم يمسني العار يوماً"، قال بصوت منخفض، لكنها تابعت حديثها.

"كنـت أتسـاءل أحيانـاً أيـن ذهبـت العدالـة، أمـا الآن فـلا أعتقـد أن شـيئاً مـن هـذا القبيـل موجـود في العـالم. الآن، وقـد وصلـت إلى هـذه النهايـة؛ أنـت يـا ابنـي العزيـز جـون ثورنـتِن! رغـم أننـا قـد نعـود شـحاذين مـرة أخـرى".

انحنت فوق عنقه وقبلته بدموعها.

"أمي!" قال وهو يطوقها بحنان بين ذراعيه،" من قسم لي حياتي خيراً وشراً؟".

هزت رأسها، إذ لم يكن الدين حاضراً لديها في تلك اللحظة.

"يـا أمـي"، ثـم تابـع يقـول بعـد أن أدرك أنهـا لـن تتكلـم. "وأنـا أيضـاً كنـت عاصيـاً، لكنـي أسـعى كيـلا أكـون كذلـك بعـد الآن. سـاعديني، كـما سـاعدتني عندمـا كنـت طفـلاً. حينـذاك، كنـت تقولـين لي الكثـير مـن الكلـمات الطيبـة؛ عندمـا تـوفي أبي، قلـت لي يومهـا كلـمات شـجاعة، ونبيلـة، وصادقـة، لم أنسـها وإن بقيـت هاجعـة في ذاكـرتي. حدثينـي مـرة أخـرى كـما كنـت تحدثينـي في المـاضي، يـا أمـي. لا تدعينـا نعتقـد أن العـالم أقـسى قلوبنـا. لـو تقولـين لي تلـك الكلـمات الطيبـة، سـتجعلني أشـعر بـشيء مـن بسـاطة طفولتـي التقيـة. مـا زلـت أرددهـا لنفـسي، لكـن عندمـا تقولينهـا أنـت سـتكون مختلفـة، لتذكـرني بالمصاعـب والمِحـن التـي كان علينـا أن نتحملهـا".

"مررنـا بالكثـير مـن المصاعـب" قالـت وهـي تبـكي، "لكـن هـذه أشـد إيلامـاً. أن أراك تهـوي مـن مكانتـك التـي تسـتحقها. أسـتطيع أن أقـول تلـك الكلـمات لنفـسي، لكـن ليـس لـك، يـا جـون، ليـس لـك. ارتـأى اللـه أن يكـون قاسـياً عليـك، وبشـدة".

ارتجفت وهي تجهش بتشنجات حادة كتلك التي ترافق بكاء شخص عجوز. وفي نهاية المطاف، فاجأها الصمت المحيط بها، وهدأت من روعها لتنصت وتسمع. لا صوت. نظرت. كان ابنها جالساً عند الطاولة وذراعاه نصف ممددتين فوقها، ورأسه منحنٍ إلى الأسفل.

"يا إلهي، جون!" صاحت، ثم رفعت وجهه الذي كان قد اكتسى بياضاً شاحباً أفزعها وكأنه كان نذيراً بالموت. لكن ومع تراخي ملامحه المتشنجة، وعودة الوجه إلى لونه الطبيعي، وتأكدت أنه عاد كما كانت تعرفه، تلاشى لديها ذلك الإحساس بالذل الدنيوي أمام إدراكها أنه هو، بوجوده البسيط، كان نعمة كبيرة. حمدت الله على هذه النعمة؛ فحسب، بحماس أطاحت بمشاعر النكران من روحها.

لم يتكلم على الفور، بل نهض وفتح مصاريع النافذة أمام ضوء الفجر القرمزي ليغمر الغرفة. لكن الريح كانت في الشرق، والطقس شديد البرودة، كما كان منذ عدة أسابيع خلت. لن يكون هناك أي طلب على البضائع الصيفية الخفيفة هذه السنة، ولا مفر من التخلي عن الأمل في أن تنتعش التجارة.

كان راحة كبيرة بالنسبة له أن يتحدث مع والدته، ويشعر بالطمأنينة. على أي حال، ربما سيلتزمان الصمت من الآن وصاعداً بشأن كل هذه المخاوف، لكنهما فهما مشاعر بعضهما البعض، وإن لم تكن على وفاق، إلا أنها على الأقل تختلفان كلٌ حسب وجهة نظره. تضايق زوج فاني من رفض السيد ثورنتِن مشاركته في المضاربة التي عرضها عليه، وتراجع عن أي احتمال مفترض لمساعدته بمال متوفر كان المضارب يحتاجه لمغامرته الخاصة.

لم يكن هناك شيء في نهاية الآمر سوى ما كان يخشاه السيد ثورنتِن لعدة أسابيع؛ إذ لم يجد مفراً من التخلي عن عمله الذي ارتبط به بكل نجاح، والبحث عن وضع أقل شأناً. فقد كان مصنع مارلبره والسكن المجاور له مؤجَرين بعقد لفترة طويلة، ويجب إعادة تأجيرهما، إن أمكن، كان هناك خيار معروض على السيد ثورنتِن من قبل السيد هامبر الذي كان سعيداً لو ضمن السيد ثورنتِن

كشريك خبير وثابت لابنه الذي كان يؤسس له رأس مال كبير في بلدة مجاورة. لكن الشاب كان نصف جاهل في ما يتعلق بالمعلومات، وجاهلاً بالكامل في تحمل أية مسؤولية كانت عدا تحصيل الأموال، ومجرداً من أية قيمة إنسانية في الحالتين بالنسبة إلى أتراحه وأفراحه. رفض السيد ثورنتِن عرض الشراكة التي من شأنها أن تحبط ما بقي لديه من خطط نجت من حطام ثروته. لكن كان سيقبل أن يكون مجرد مدير حيث يمكن له أن يحظى بدرجة محددة من السلطة تتجاوز الجزء الخاص بكسب المال، بدلاً من الوقوع تحت رحمة المزاج المتسلط لشريك في المال الذي كان على يقين بأنه سيصطدم معه خلال أشهر. لذلك انتظر وتنحى جانباً يساوره شعور عميق بالمهانة مع الأنباء التي اكتسحت سوق الأسهم بشأن الثروة الضخمة التي جمعها صهره بمضارباته الجريئة. كانت أعجوبة استمرت تسعة أيام. كان نجاحاً جلب معه إعجاباً منقطع النظير؛ فلا أحد يضاهي السيد واطسِن في الحكمة وبعد النظر.

اللقاء مجدداً

كان مساء صيفياً حاراً. دخلت إيديث إلى غرفة نوم مارغريت مرة بـرداء الراهبات، ومرة بعد أن ارتدت فستانها استعداداً للعشاء. في المرة الأولى، لم يكن أحد موجوداً في الغرفة، وفي الثانية كانت ديكسِن تضع فستان مارغريت على السرير، لكن مارغريت لم تكن هناك. فبقيت لتعبر عن قلقها.

"لا يا ديكسِن! لا تتناسب هذه الأزهار الزرقاء المريعة مع الفستان الذهبي الكامد. يا له من ذوق! انتظري دقيقة، سأحضر لك بعض براعم زهر الرمان".

"هذا ليس ذهبياً كامداً، يا سيدتي. بل بلون القش. والأزرق يتناسب مع لون القش". لكن إيديث عادت ومعها أزهار قرمزية لمَّاعة قبل أن تنهي ديكسِن نصف عتابها.

"أين الآنسة هيل؟ "سألت إيديث، وهي تتحسس ملمس المزهرية. "لا أتصور"، تابعت كلامها بنزق،

"عجباً كيف أن والدتي سمحت لها بممارسة عادة المشي كما كانت تفعل في ميلتِن! أنا أتوقع أن أسمع دائماً بأنها لاقت أمراً مرعباً في تلك الأماكن البائسة التي تضع نفسها فيها. لا أجرؤ على الذهاب إلى تلك الشوارع من دون خادمة. فهي لا تناسب السيدات".

كانت ديكسِن لا تزال منزعجة من الانتقاص من ذوقها، فأجابتها باختصار:

"لا أستغرب على الإطلاق. عندما أسمع السيدات يتحدثن على هذا النحو عن السيدات، وعندما يكون هناك سيدات رقيقات، وخائفات، وأنيقات أيضاً، لا أستغرب أنه لم يعد هناك قديسون على وجه الأرض".

"مارغريت! أنت هنا! كنت أريدك. لكن كم خداك متوهجان بسبب الحر، أيتها الطفلة المسكينة! احزري ماذا فعل هنري المُتعِب، لقد تجاوز حدود شقيق الزوج. بعد أن استكملت جميع الترتيبات لحفلتي المعدة خصيصاً لتتناسب مع السيد كولهِرست، جاءني هنري معتذراً، واستخدم اسمك حجة، واستأذنني إن كان بمقدوره أن يحضر معه السيد ثورنتِن ـ المستأجر لعقاراتك، أنت تعرفينه ـ الموجود حالياً في لندن بخصوص مسألة قانونية. وهذا سيُفسد عليَّ الترتيبات التي أعددتها حسب عدد المدعوين".

"لا يهمني العشاء، لا أريده"، قالت مارغريت بصوت منخفض. يمكن لمارغريت أن تحضر لي كوباً من الشاي إلى هنا في غرفتي. وسأكون في غرفة الضيوف عندما تأتين. سأكون سعيدة لأن أستلقي هنا".

"لا، لا! لن يحدث هذا أبداً. صحيح أنك تبدين شاحبة، ولكن بسبب حرارة الجو، ولا يمكن أن نستغني عن وجودك معنا (ديكسِن، تلك الأزهار إلى الأسفل قليلاً، تبدو مثل شعلات مهيبة في شعرك الأسود، يا مارغريت) كما تعلمين، سنتحدث مع السيد كولهِرست عن ميلتِن. آه! صحيح، هذا الرجل من ميلتِن. أظن أنها ستكون مناسبة مفيدة حيث يمكن للسيد كولهِرست أن يعطيه معلومات حول كل الموضوعات التي تهمه، كما سيكون الأمر ممتعاً أن نتعرف على تجربتك في ميلتِن، وعلى حكمة السيد ثورنتِن في الخطاب القادم للسيد كولهِرست في البرلمان. بالفعل، أظنها ضربة موفقة من هنري. سألته إن كان رجلاً يخجل المرء من صحبته، فأجابني "ليس إن كان لديك حس منطقي سليم، يا أختي الصغيرة". أظنه قادراً على لفظ "الهاء" بوضوح وهو أمر ليس شائعاً في لهجة أهل داركشاير، أليس كذلك يا مارغريت؟".

"ألم يخبرك السيد لينوكس بالسبب وراء مجيء السيد ثورنتِن إلى لندن؟ هل هي مسألة قانونية تتعلق بالعقارات؟" سألت مارغريت بصوت متوتر.

"لقد أخفق، أو شيء من هذا القبيل الذي أخبرك به هنري ذلك اليوم وتسبب لك بالصداع. ما هو؟ (هناك، يا ديكسِن، إنه رائع. الآنسة هيل تقدرنا وتحترمنا،

أليس كذلك) أتمنى لو كنت بطول ملكة وسمراء مثل غجرية، يا مارغريت".

"وماذا عن السيد ثورنتِن؟".

"في الواقع لا أفهم في القانون. لن يجد هنري شيئاً أفضل من أن يخبرك بنفسه عن هذا الأمر. لكن أدرك تماماً ما هو الانطباع الذي تركه عندي، وهو أن السيد ثورنتِن في وضع سيء، ومع ذلك يبقى رجلاً محترماً، وأن أعامله بكل لباقة وتهذيب. وبما أنني لا أعرف كيف، جئت أطلب مساعدتك. تعالي ننزل إلى الأسفل حيث يمكنك أن تستريحي على الكنبة لمدة ربع ساعة".

وصل شقيق الزوج مبكراً، وراحت مارغريت تسأله، ووجها يحمرُّ، عن كل ما كانت تريد معرفته من إيديث بشأن السيد ثورنتِن.

" جاء من أجل تأجير العقارات بالباطن، مصنع مارلبره، والمنزل والمرافق الأخرى الملحقة به. لم يعد قادراً على الاحتفاظ بها، وهناك، كما تعلمين، عقود وصكوك وإيجارات يجب النظر فيها ومراجعتها، والتوصل إلى اتفاق بشأنها. آمل أن تحسن إيديث استقباله، لكن لاحظت أن الأمر لم يعجبها عندما سمحت لنفسي أن أطلب دعوته للعشاء بشيء من التوسل. لكني ظننت أنك ربما تريدين أن تبدي له بعض الاهتمام، إذ على المرء أن يكون حريصاً في التعبير عن احترامه لشخص يعاني من خسارته المكانة التي كان يتمتع بها". أخفض صوته وهو يتحدث إلى مارغريت التي كان يجلس بجانبها. وحالما انتهى من حديثه، نهض على الفور لتقديم السيد ثورنتِن ـ الذي كان قد وصل لتوه ـ إلى إيديث والنقيب لينوكس.

نظرت مارغريت بعين فاحصة إلى السيد ثورنتِن بينما كان منشغلا بالحديث مع مستقبليه. كان قد مضى أكثر من عام منذ أن رأته آخر مرة، وجرت أحداثٌ بدلت من أحواله. كانت قامته الممشوقة كافية لتجعله أطول قامة من الطول العادي الشائع بين الرجال، ومنحته مظهراً مميزاً من رشاقة الحركة التي كانت أمراً طبيعيا بالنسبة إليه. لكن وجهه بدا أكبر سناً ومهموماً، من دون أن يفقد ذلك الهدوء الرصين ـ الأمر الذي كان مثار إعجاب ودهشة كل من كان يسمع عن الأزمة التي يعاني منها ـ مصحوباً بكبرياء متأصل وقوة رجولية. كما أدرك

مـن جانبـه، مـن النظـرة التـي جـال بهـا عـلى الغرفـة، أن مارغريـت كانـت هنـاك. فقـد لمـح نظراتهـا المهتمـة بينـما كانـت تسـتمع إلي حديـث السـيد هـنري لينوكـس. تقـدم منهـا بطريقـة منضبطـة مثـل صديـق قديـم. ومـا إن نطـق بـأول كلماتـه حتـى اكتـسى خداهـا لونـاً طافحـاً بالحيويـة ظـل يرافقهـا طـوال المسـاء. لم يكـن لديهـا الكثـير لتقـول لـه. لقـد خيبـت أملـه بالطريقـة الهادئـة التـي سـألته بهـا عـما بـدا لـه مجـرد أسـئلة ضروريـة بخصـوص معارفهـا القديمـة في ميلـتِن. وصـل بقيـة الضيـوف الذيـن كانـوا أكـثر ألفـة مـع المـكان منـه، فتراجـع إلى خلفيـة المشـهد حيـث اكتفـى بالحديـث مـع السـيد هـنري لينوكـس بـين الحـين والآخـر.

"أظنـك تـرى أن الآنسـة هيـل تبـدو بأحسـن حـال"، قـال لينوكـس، "أليـس كذلـك؟ لم يناسـبها هـواء ميلـتِن، كـما أتصـور؛ فعندمـا جـاءت إلى لنـدن، حسـبت أني لم أر أحـداً تغيَّر عـلى هـذا النحـو مـن قبـل. تبـدو الليلـة موفـورة الصحـة والسـعادة، بـل وأقـوى. في الخريـف المنـصرم، كانـت تنهـار تعبـاً مـا أن تمـشي مسـافة ميلـين. مسـاء يـوم الجمعـة مشـينا معـاً إلى هامبسـتيد وعدنـا. وكانـت يـوم السـبت مشرقـة كـما تراهـا الآن".

"نحن! من؟ هما لوحدهما؟".

كان السـيد كولهِرسـت رجـلاً، ذكيـاً وواحـداً مـن أعضـاء البرلمـان الصاعديـن، ويتمتـع بعـين ثاقبـة في قـراءة النـاس. لفـت انتباهـه تعليـق طرحـه السـيد ثورنـتِن أثنـاء تنـاول العشـاء. فاسـتفسر مـن إيديـث عـن هويـة الشـاب؛ وكانـت مفاجـأة كبـيرة لهـا أنهـا اكتشـفت مـن نـبرة السـيد كولهِرسـت عندمـا قـال "حقـا!" أن السـيد ثورنـتِن لم يكـن اسـماً مجهـولاً كـما كانـت تتخيـل. سـارت حفلـة عشـائها عـلى خـير مـا يـرام. كان هـنري بمـزاج رائـع، وأخـرج مـا عنـده مـن حـس الفكاهـة السـاخرة عـلى نحـو أثـار الإعجـاب. أمـا السـيدان ثورنـتِن وكولهِرسـت، فقـد وجـدا واحـداً أو أكـثر مـن الموضوعـات المشـتركة، تطرقـا إليهـا قليـلاً بانتظـار حديـث خـاص بينهـما بعـد العشـاء. كانـت مارغريـت تراقـب السـيد ثورنـتِن الـذي لم ينظـر نحوهـا مطلقـاً؛ وهـذا مـا سـاعدها عـلى أن تتفحصـه مـن دون أن يلحظهـا أحـد، وتقـرأ التغيـيرات التـي تركـت آثارهـا عليـه. وعنـد سـماعة نكتـة أو تعليقـاً ظريفـاً مـن السـيد لينوكـس، كان وجهـه

يستعيد ملامح الفرح القديم، إذ يعود إلى عينيه ذلك اللمعان المبتهج وشفتاه تنفرجان عن ابتسامة بهية مثل تلك التي كانت في الأيام الخوالي. وللحظة واحدة، ترصدتها عيناه على نحو لاشعوري كما لو كان يسألها الرأفة والحنان. لكن عندما تلاقت عيناهما، تغيرت ملامحه لتعود مرة إلى قلقها وحزنها، وتعمد بعد ذلك أن يتحاشى النظر إليها أثناء العشاء. مكتبة .. سُر مَن قرأ

لم يكن هناك سوى سيدتين أخريين على العشاء. وبينما انشغلت هاتان السيدتان بالحديث مع خالتها وإيديث عندما دخلن معاً إلى غرفة الضيوف، شغلت مارغريت نفسها بعمل ما. في هذه اللحظة، وصل الرجال، وكان السيد ثورنتِن والسيد كولهِرست يتحادثان. اقترب السيد لينوكس من مارغريت، وقال بصوت منخفض:

"يجب أن تشكرني إيديث على مساهمتي في حفلتها. لا يمكن أن تتخيلي كم هو شخص رائع ومنطقي هذا المستأجر لعقاراتك. كان الشخص المناسب ليعطي كولهِرست جميع الحقائق لتعميق معرفته واطلاعه. لا يمكنني أن أتخيل كيف أساء إدارة شؤونه".

"لو كنت تمتلك قدراته وفرصه، لنجحت"، قالت مارغريت. لم يستسغ النبرة التي تحدثت بها على الرغم من أن الكلمات لم تعبر سوى عن فكرة كانت قد خطرت على باله. وبينما كان السيد لينوكس صامتاً، تناهى إلى مسامعهما الحديث الذي كان يجري بين السيدين ثورنتِن وكولهِرست بالقرب من موقد النار.

"أؤكد لك أني سمعتهم يتحدثون عنه باهتمام بالغ، بل والفضول، ربما هذا ما يجب علي أن أقول. أجل سمعت باسمك يُذكر أمامي خلال إقامتي القصيرة في الجوار". عندئذ، غابت بعض الكلمات، وبعدها سمعا السيد ثورنتِن يقول:

"لا أتمتع بإمكانيات الشهرة...وإن تكلموا عني بتلك الطريقة، فهم مخطئون. فأنا لا أتسرع في الوقوع في المظاهر الجديدة، كما أجد صعوبة في أن أكون معروفاً، حتى لدى أولئك الذين أرغب في أن يعرفوني، وأولئك الذين لست مضطراً لأكون متحفظاً معهم. لكن، ورغم كل هذه النكسات، كنت أشعر دائماً بأني

على الطريق الصحيح، وأن أبدأ من صداقة جديدة مع أحد ما، وأصبح معروفاً لدى آخرين. والفائدة هنا مشتركة، فكلانا يُعلِّم أحدنا الآخر عن قصد أو عن غير قصد"

"استخدمت عبارة "كنت". أنا على ثقة بأنك ستواصل المسار نفسه؟".

"يجب أن أوقف كولهِرست"، قال السيد لينوكس على عجل. وبسؤال مفاجئ، لكن على صلة بالموضوع نفسه، غير مجرى الحديث كي يعفي السيد ثورنتِن من حرج الاعتراف بإخفاقه وما تبعه من تغير في مكانته. لكن وما إن انتهى الحديث الذي استجد على الحوار، استأنف السيد ثورنتِن كلامه من النقطة التي قوطع عندها، وأجاب على سؤال السيد كولهِرست:

"كنت ناجحاً في عملي، ولم يعد أمامي خيار سوى أن أتخلى عن موقعي كصاحب مصنع. وأبحث الآن على موقع في ميلتِن ربما أحصل فيه على عمل لدى أحد ما يكون مستعداً أن يترك لي الحرية للتصرف على طريقتي في مثل هذه الأمور. أستطيع الاعتماد على نفسي في عدم الانجرار وراء نظريات الاندفاع والحماس التي أتعجل في تطبيقها. ما أتمناه فحسب هو أن تسنح لي الفرصة في تأسيس علاقة مع العمال تتجاوز الأمور "المالية". لكن قد تكون هذه هي النقطة التي سعى منها أرخميديس إلى تحريك الأرض، والحكم بواسطة الأهمية المرتبطة على يد بعض من الصناعيين - الذين يهزون رؤوسهم ويبدون قلقين حالما أذكر واحدة أو اثنتين من التجارب التي أرغب بتطبيقها".

"ألاحظ بأنك تسميها تجارب"، قال السيد كولهِرست، مع احترام متزايد في طريقة كلامه.

"لأنني أعتقد بأنها كذلك، فأنا لست واثقاً من النتائج. لكني واثق من ضرورة القيام بالتجربة. لقد توصلت إلى قناعة مفادها أنه لا يوجد مؤسسات، مهما بلغت حكمتها، ومقدار الفكر المطلوب لتنظيم وإعداد هذه التجارب، قادرة على ربط طبقة بأخرى كما يجب، ما لم يُقرِّب العمل، خارج مثل هذه المؤسسات، الأفراد من طبقات مختلفة إلى تواصل شخصي حقيقي. مثل هذا

التواصل والحوار هو نَفَس الحياة. من الصعب جد أن تجعل عاملاً يشعر ويعلم كم يتعب صاحب العمل في التخطيط من أجل مصلحة العمل. فالخطة الكاملة تظهر مثل قطعة في آلة، معدة لتتناسب مع كل طارئ مستجد. إلا أن العمال يقبلونها كما يقبلون الآلة من دون أن يفهموا العمل الذهني، والتفكير المسبق اللازم لإخراجها على هذا القدر من الكمال. لكني سآخذ فكرة يستدعي تطبيقها التواصل الشخصي؛ قد لا تسير سيرا حسناً في البداية، لكن مع كل خطوة سيزداد عدد العمال الذين يشعرون بالاهتمام، حتى يصبح نجاحها أمراً مرغوباً لدى الجميع بما أنهم لعبوا دوراً في إعداد الخطة، وحتى عندئذ أنا واثق أنها ستفقد جدواها، وتتوقف عن الحياة، إن لم تعد تُنفذ بذلك النوع من الاهتمام المشترك الذي يجعل الناس لا يجدون عادة السبل والوسائل لرؤية أحدهم الآخر، والتعرف إلى شخصيات وأشخاص بعضهم بعضاً، بل وحتى سلوك وتبدلات الكلام وأشكاله. يجب علينا أن نفهم بعضنا بعضاً بشكل أفضل، بل سأجازف بالقول إنه يجب علينا أن نحب بعضنا بعضاً أكثر".

"وهل تظن أن ذلك من شأنه أن يمنع من تكرار الإضرابات؟".

"لا، على الإطلاق. أقصى ما يمكن أن أتوقعه لا يتجاوز ما يلي؛ ألا يجعلوا الإضراب مصادر مريرة سامة من الكراهية كما كانت من قبل. قد يتخيل رجل متفائل أن علاقة أقرب وأكثر ودية بين طبقات المجتمع قد تمنع وقوع الإضرابات. لكنني لست رجلاً متفائلاً".

فجأة، كما لو أن فكرة جديدة خطرت له، توجه إلى المكان الذي كانت تجلس فيه مارغريت، ومن دون مقدمات، راح يحدثها كما لو كان يعرف أنها كانت تصغي إلى كل ما جرى من حديث:

"تلقيت التماساً وقع عليه بعض العمال، وأشك بأن هيغينز هو من كتبه، يعربون فيه عن رغبتهم بالعمل لدي، إن تسنى لي وكنت في موقع يسمح لي بتوظيف العمال. كان ذلك تصرفاً جيداً، أليس كذلك؟".

"أجل، وأنا سعيدة به"، قالت مارغريت، وهي تنظر في وجهه مباشرة بعينيها الناطقتين، ثم تخفضهما تحت تأثير نظرته المعبرة. حدق بها لدقيقة واحدة،

وكأنه لا يدري ما الذي سيفعله بالضبط، ثم تنهد وهو يقول: "كنت أعلم أنه سيعجبك"، قبل أن يستدير مبتعداً. ولم يتحدث معها بعد ذلك إلى أن ودعها متمنياً لها "ليلة سعيدة".

وبينما كان السيد لينوكس يستعد للمغادرة، قالت له مارغريت، وخداها يتوردان على نحو لم تستطع أن تخفيه، مع نبرة يشوبها التردد:

"هل يمكن أن أتكلم معك غداً؟ أريدك أن تساعدني في أمر ما".

"بالتأكيد، في أي وقت تشائين. لن تمنحيني سروراً أكثر من جعلي ذا فائدة بالنسبة لك. عند الحادية عشرة؟ حسناً".

التمعت عيناه بفرح بالغ. كيف باتت تتعلم أن تعتمد عليه! بدا الأمر له وكأن أي يوم الآن قد يعطيه الإحساس بالطمأنينة من دون أن يحصل على ما قرر ألا يعرضه عليها أبداً مرة أخرى.

انقشاع الغيوم

تسللت إيديث على أصابع قدميها لتتفقد شولتو الصغير وسط الحديث الذي كان يجري بصوت مرتفع صباح اليوم التالي، وكأن أيَّ ضجة مفاجئة ستقطع سير الاجتماع الدائر في غرفة الضيوف. وحتى الساعة الثانية كانا لا يزالان جالسين خلف الأبواب المغلقة. سُمعت خطوات رجل تنزل على الدرج، فمدت إيديث رأسها من غرفة الضيوف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"هنري، هذا أنت؟".

"نعم!" أجابها باختصار.

"تعال إلى الغداء".

"لا، شكراً، لا أستطيع. أضعت الكثير من الوقت هنا".

"ألم ينتهِ الموضوع؟".

"لا، على الإطلاق، ولن، إن كان هذا "الموضوع" الذي تقصدينه هو ما أظنه. هذا لن يحدث أبداً، لذلك توقفي عن التفكير به".

"لكنه سيكون أمراً رائعاً لنا جميعاً" توسلت إليه. "سأشعر بالاطمئنان على الأطفال، إن استقرت مارغريت للعيش بالقرب مني. فأنا أخشى أن ترحل إلى كادِز".

"سأحاول، عندما أتزوج، أن أجد سيدة شابة لديها معرفة في التعامل مع الأطفال. هذا كل ما يمكنني فعله. الآنسة هيل لن تحصل علي، وأنا لن أطلب منها".

"إذاً بِمَ كنتما تتحدثان؟".

"آلاف الأشياء التي لن تفهميها، استثمارات، عقود إيجار، قيمة الأراضي".

"أف، اغرب عن وجهي، إن كان هذا كل شيء. ستصبحان شخصين غبيين على نحو

لا يُطاق إن بقيتما تتحدثان طوال الوقت عن هذه الأمور المملة".

"حسناً. سآتي غداً ومعي السيد ثورنتِن للتحدث مع الآنسة هيل".

"السيد ثورنتِن! وما علاقته بهذا الأمر؟".

"إنه المستأجر لعقارات الآنسة هيل"، قال السيد لينوكس وهو يسير مبتعداً. "وهو يريد أن يلغي عقد الإيجار".

"حسناً. لا داعي لأن تعطيني التفاصيل، لأني لا أستطيع أن أفهمها".

"التفصيل الوحيد الذي أريدك أن تفهميه أن لا تدعي أحداً يزعجنا في غرفة الضيوف الخلفية، كما جرى اليوم. إذ أن الأطفال والخدم عادة ما يدخلون ويخرجون بحيث لا أستطيع أن أشرح الأمور على نحو مُرضٍ، كما أن الترتيبات التي سنبحثها غداً في غاية الأهمية".

لم يتسنَّ لأحد أن يعرف السبب الذي منع السيد لينوكس من الالتزام بموعده في اليوم التالي. وصل السيد ثورنتِن في موعده، وبعد أن أبقوه منتظراً قرابة الساعة، جاءت مارغريت إلى لقائه قلقة شاحبة الوجه.

بادرته بالحديث على عجل:

"أنا آسفة جداً يا سيد ثورنتِن. السيد لينوكس ليس هنا؛ هو أقدر مني على شرح الموضوع، فهو مستشاري في...".

"أنا أسف لأني أتيت، إن أزعجك هذا. هل أذهب إلى مكتب السيد لينوكس وأحاول العثور عليه؟"

"لا، شكراً، أردت أن أقول لك كم أنا حزينة لأني سأخسرك كمستأجر. لكن السيد لينوكس يقول إن الأمور ستتحسن بالتأكيد...".

"لا يعلم السيد لينوكس سوى القليل"، قال السيد ثورنتِن بهدوء. "لأنه سعيد ومحظوظ في كل ما يهتم به أي رجل، فهو لا يدرك ماذا يعني أن يجد المرء نفسه أنه لم يعد شاباً، ومع ذلك يُرمى به إلى نقطة البداية التي تحتاج إلى طاقة الشباب المتفائلة، أن يشعر أن نصف حياته ضاع هباءً، ولم يحقق شيئاً، ولم يتبق له أي شيء من الفرصة الضائعة سوى ذكراها المريرة. أليس من الأفضل،

يـا آنسـة هيـل، أن نسـمع رأي السـيد لينوكـس في مـا يخصنـي. فأولئـك السـعداء والناجحـون هـم الأكـثر اسـتعداداً للاسـتخفاف بمصائـب الآخريـن".

"أنـت ظـالم"، قالـت مارغريـت بلطـف. "لم يقل السـيد لينوكس شـيئاً سـوى عـن الاحتمال الكبـير الـذي سـيتاح، بحسـب مـا يـراه، أمامك لاسـتعادة مكانتـك، بـل واسـتعادة أكثر مما خـسرت ـ لا تقـل شـيئاً حتـى أنهـي كلامـي، أرجـوك". تمالكـت نفسـها، وراحـت تقلـب بعـض الأوراق القانونيـة، وكشـف بالحسـابات عـلى عجـل بيـد ترتجـف. "هـا هـي! وقـدم لي اقتراحـاً، أتمنـى لـو كان هنـا ليشرحـه، يوضـح أنـه إن أخـذت جـزءاً مـن مـالي، ألـف وثمانمائـة وسـبعة وخمسـين جنيهـاً، مودعـة حاليـاً في حسـابي في البنـك، ولا أحتاجهـا، ولا تعطينـي أكـثر مـن اثنـين ونصـف بالمئـة، يمكنـك أن تدفـع لي فائـدة أفضل بكثـير، وتواصل تشـغيل مصنـع مارلـبره". أصبح صوتهـا أكثر صفـاءً وثباتاً. لم يتكلم السـيد ثورنـتِن، وتابعت البحـث عـن ورقـة كتـب عليهـا الاقتراحـات الخاصـة بالضمانـات، لأنهـا كانـت تخـشى أن ينظـر إلى الأمـر كلـه عـلى أنـه مجـرد ترتيـب تجـاري تكـون فيـه الفائـدة الأكـبر لصالحهـا. وبينـما كانـت تفتـش عـن الورقـة، توقفـت نبضـات قلبهـا لـدى سـماعها النـبرة التـي كان يتكلـم السـيد ثورنـتِن بهـا. كان صوتـه أجشـاً يرتعـش بعاطفـة رقيقـة، وهـو يقـول:

"مارغريت!"

نظـرت إليـه للحظـة وهـي تحـاول أن تحجـب عينيهـا المشرقتين بـأن أسـندت جبهتها على يديهـا. مـرة أخـرى، وهـو يقـترب منهـا، ويرجوها بشـوق مضطـرب وهو ينادي اسـمها.

"مارغريت!"

أخفـض رأسـه يدنـو قريبـاً مـن وجههـا المختبـئ، حتـى أسـند رأسـه تقريبـاً أمامهـا عـلى الطاولـة. اقـترب منهـا، وجثـا عـلى ركبتيـه بجوارهـا ليضـع وجهـه عـلى مقربـة مـن أذنهـا، وخرجـت منـه الكلـمات تلهـث هامسـةً:

"انتبهـي، إن لم تتكلمـي، سـأدعي أنـك لي بطريقـة غريبـة متعجرفـة. ...اطردينـي حـالاً، إن كان ينبغـي عـليّ أن أرحـل؛ مارغريـت...".

وعندمـا ناداهـا للمـرة الثالثـة، التفتـت إليـه وهـي لا تـزال تغطـي وجههـا بيديهـا البيضاويـن الصغيرتـين، ثـم ألقتهـما عـلى كتفيـه، وتخفـي وجههـا هنـاك. كان شـعوراً لذيـذاً أن يتحسـس نعومـة خدهـا عـلى وجهـه وعـلى نحـو يفـوق بكثـير رغبتـه بـأن

يـرى هذيـن الخديـن المتورديـن، أو العينـين العاشـقتين. ضمهـا إليـه بشـدة. لكنهـما بقيـا صامتـين. وأخـيراً دمدمـت بصـوت متقطـع:

"سيد ثورنتِن! لست امرأة صالحة بما يكفي!".

"لست صالحة! لا تسخري من إحساسي العميق بالعار والخجل".

بعـد دقيقـة أو دقيقتـين، أبعـد يديـه عـن وجههـا، ووضـع ذراعيهـا عـلى كتفيـه كـما سـبق لهـما ذات مـرة عندمـا حمتـه مـن المتظاهريـن.

"هل تتذكرين، يا حبيبتي؟" تمتم قائلاً. "وكيف عوضتك بوقاحتي في اليوم التالي".

"أتذكر كيف تكلمت معك بطريقة غير لائقة، هذا كل ما أتذكره".

"انظـري هنـا! ارفعـي رأسـك، سـأريك شـيئاً". رفعـت وجههـا ببـطء قبالـة وجهـه، وهـي تتوهـج بحيـاء جميـل.

"هـل تعرفـين هـذه الـورود؟" سـألها، وهـو يخـرج مفكرتـه الصغـيرة التـي كانـت تضـم ورودًا ذابلـة.

"لا"، أجابته بفضول بريء "هل أنا من أعطيتك هذه الورود؟".

"لا أيتها المدعية، ربما وضعت مثلها من قبل، على الأرجح".

نظرت إلى الورود، وبقيت تتعجب لدقيقة قبل أن تبتسم، وتقول له:

"إنهـا مـن هِلْسـتِن، أليـس كذلـك؟ أعرفهـا مـن الخطـوط العميقـة حـول الأوراق؟ هـل ذهبـت إلى هنـاك؟ ومتـى؟"

"أردت أن أرى المـكان الـذي عاشـت فيـه مارغريـت، حتـى في أسـوأ الأوقـات عندمـا فقـدت الأمـل بـأن تكـون لي. ذهبـت إلى هنـاك عندمـا عـدت مـن هافـر".

"يجب أن تعطيني هذه الورود"، قالت بصوت ناعم، وهي تحاول أن تنتزعها من يديه.

"حسناً، ولكن عليك أن تدفعي لي ثمناً لها".

"وكيف سأخبر خالتي شو؟" همست بعد فترة من الصمت.

"دعيني أكلمها".

مكتبة

"لا أنا مدينة لها. لكن كيف سيكون ردها؟"

"باستطاعتي أن أخمن، سيكون ردها الأول متعجباً: هذا الرجل!".

"هس! وإلا سأحاول أن أقلد نبرة أمك المستاءة وهي تقول لك (تلك المرأة!)".

مكتبة

تطرح إليزابيث غاسكِل في روايتها **الشمال والجنوب** مسائل شائكة تتعلق بطبيعة السلطة الاجتماعية والخضوع لها أو التمرد عليها من غير أن تُغفل الأبعاد السياسية والاقتصادية التي رافقت الثورة الصناعية في إنكلترا، مثل الرأسمالية، واقتصاد السوق الحر، ومفهوم العدالة، والمساواة الطبقية، وحقوق العمال والمرأة، جمعتها كلها في رؤية استشرافية تتنبأ بالعواقب التي ستعاني منها المجتمعات الرأسمالية مستقبلاً، بما في ذلك قضايا بيئية خلقتها الآلة الصناعية لمّا يزل يواجهها عالمنا حالياً.

من خلال الأحداث التي تتعرض لها بطلة الرواية مارغريت في مسيرتها بين مظاهرات عمال المصانع الناقمين على أرباب العمل، وبين تلك التقلبات العاطفية لفتاة شابة من الطبقة الوسطى، مروراً بأزمة ضمير تتعلق بالمبدأ الديني، ووصولاً إلى أخلاقية فعل التمرد على سلطة عسكرية انتصاراً للحق، تقدم الرواية مساحة سردية غنية بالتفاصيل ببعديها العام والخاص حيال مسائل كانت شديدة الحساسية في المجتمع الفيكتوري. وهذا بحد ذاته يجعل من مارغريت واحدة من الشخصيات الروائية الأكثر إبداعاً وعمقاً في الأدب الإنكليزي.

فواصل
للنشر و التوزيع

ISBN 978-9933-634-35-3
9 789933 634353